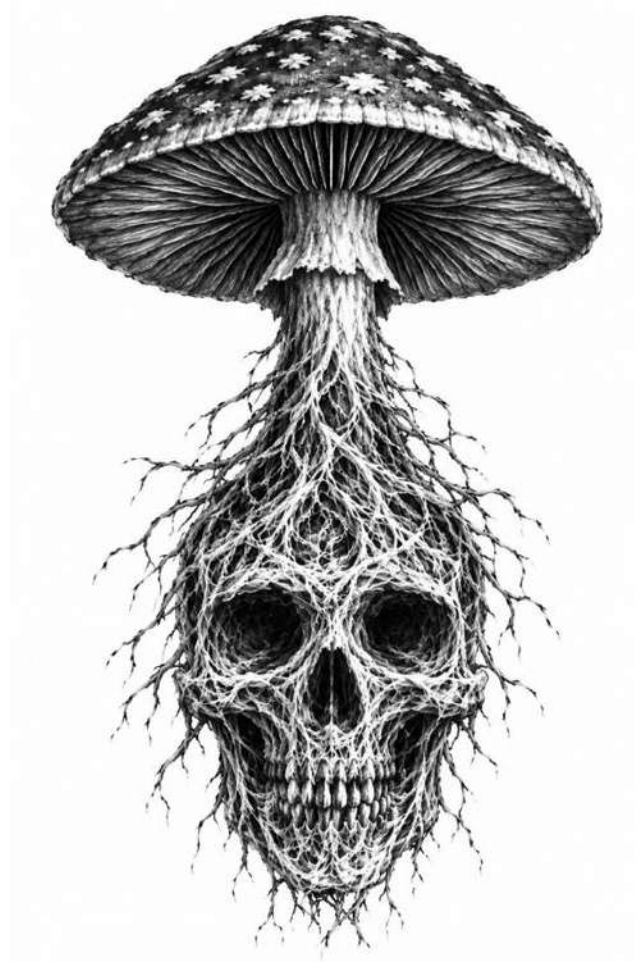


# ميسيليوم



رباعية قصص خيال علمي

د. غفار محمد

**رباعية قصص خيال علمي ..**

## إهداء :

إلى أولئك الذين يُصغون للكلمات كما لو كانت نبوءات،  
ويؤمنون أن في كل جملة مأوى، وفي كل قصة خلاص ..  
إلى عشاق الأدب الذين يمنحون اللغة حياةً أخرى..  
وإلى مشجعي الكتّاب الذين يرون في الحبر نورًا، لا حرفة  
أكتب هذه الصفحات، لا لتُفهم... بل لتُحسّ  
أنتم النبض الذي يجعل للكلمة طينًا أبعد من الورق،  
وللحكاية عمرًا أطول من راويها ..

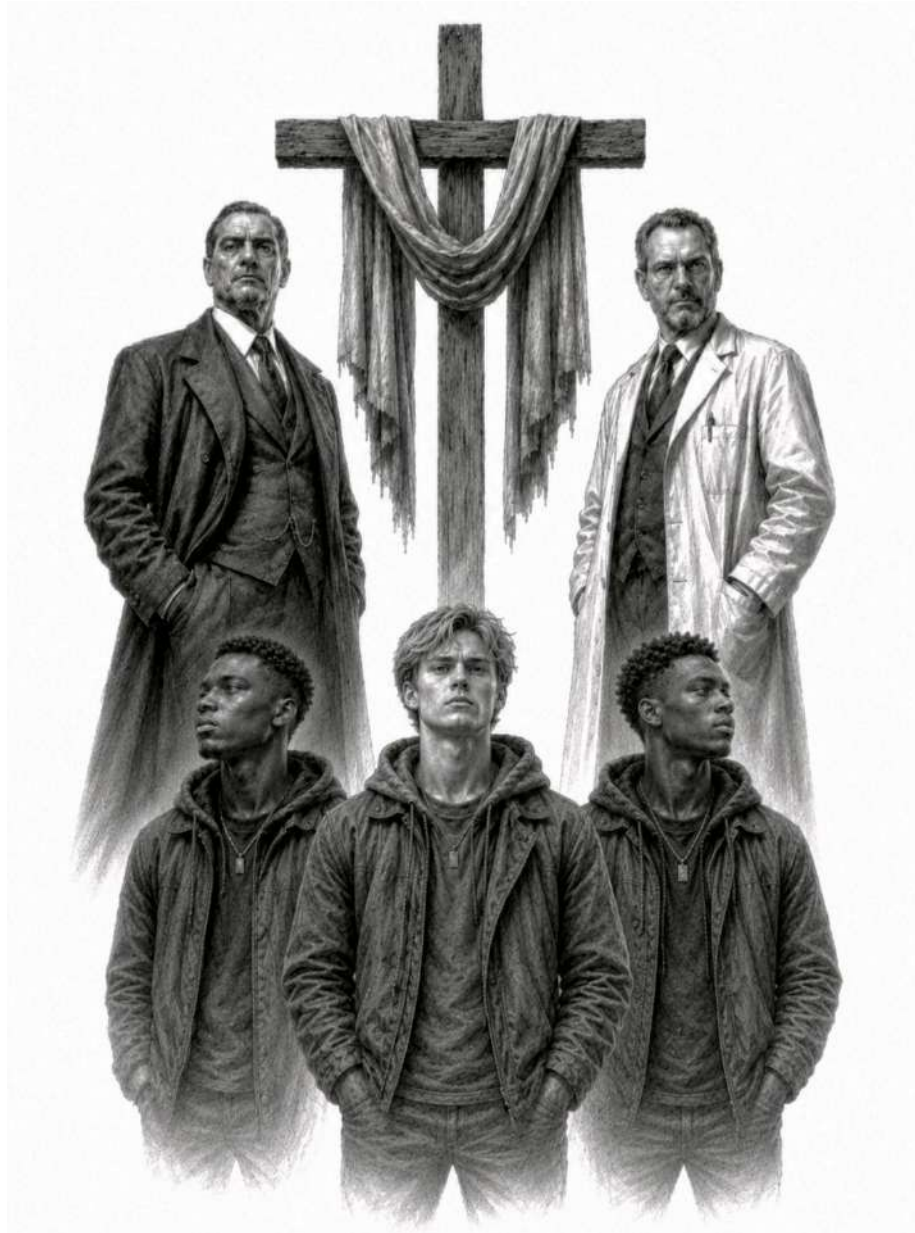
**رباعية قصص خيال علمي ..**

## محتوى الكتاب :

- الرواية الأولى : كفن تورينو
- الرواية الثانية : الزمن العكسيّ
- الرواية الثالثة : المومياء
- الرواية الرابعة : ميسيليوم

**رباعية قصص خيال علمي ..**

# كن توريينو



## الرواية الأولى

**كفن تورينو ...**



## محتوى الكتاب:

- الاعتراف الأول
- لعنة الفودو !!
- كفن تورينو
- الإلياذة الإفريقية ..
- ترويض الجينات ( دروس البقاء الخمسة )
- الموناد يغير ( لا أدري ! )
- حنجرة السماء
- قيامة الأسرار الدفينة



# الاعتراف الأول

ركضت فريا بين جبال سانديا الباردة، تهيأ لها أن الغزلان تتبعها أو ربما تقودها،  
هي الهاربة من وحش بشري، في زمن صارت فيه وحوش البشر أقسى وأكثر  
رعياً من وحوش الأساطير.  
في كهف بين الجبال الهادئة، اختبئت حاضنة نفسها كعصفورة صغيرة، وما تعني  
أعوامها العشرين مقابل ما سمعته اليوم !

تتالت الذكريات في خيالها، إلى أن وصلت إلى صورة الطبيب يخبرها بحملها...  
= حامل؟ كيف؟ هذا مستحيل !!...

نامت وهي تكرر الأسئلة.. وفي الحلم، بل ربما في الواقع اقترب منها غزال  
جميل، لقرنيه شكل القيثارة.. قالت في نفسها..

= يسمونني غزال الإمباله، لكن القيثارة اسم جيد أيضاً ..  
= يتكلم؟ ها؟  
= أنقذك من هنا، مقابل شعرك ..  
= شعري ؟  
= أجل شعرك البني الطويل يصلح لأصبح كما أردت ..  
= قيثارة ؟  
= أجل  
= قبلت...

حملها على ظهره بين جبال سانديا، فيما هي تصنع قيثارته من شعرها.. وبدأ  
الليل يغني..  
يقال إن غناء المظلوم يشق السماء، وأن غزلان الإمباله تعرف ذلك... لكن هل  
ظلمتها الحياة أم ظلمت نفسها !؟

\*\*\*\*\*

## روسيا/موسكو

### كاتدرائية القديس باسيل ..

### 25 كانون الأول 2049 م

في ساعة متأخرة من إحدى ليالي كانون الشتوية، حين كان البرد قد أحكم قبضته على موسكو حتى غدت الأنفاس دخاناً أبيض يتصاعد من أفواه العابرين، لم يكن الثلج قد اكتفى بالسقوط؛ كان ينسج للمدينة كفنًا جديدًا، خيطًا بعد خيط، حتى اختفت قسوة الحجر تحت بياضه، واكتست موسكو لونًا يشبه الحب حين يهبط على القلب التائه فجأة: نقيًا، صامتًا، وباردًا إلى حدّ الوجد.

الثلج غطى الساحة شبرًا إثر شبر، بينما عصفت الريح بين المباني كعازف كمان أعمته الأحزان، تطيل النغمات في الأزقة وتضرب بها نوافذ الليل. كانت موسيقى عاصفة، لكنها لم تخلُ من حنان غامض؛ كأن الريح تحمل إلى العشاق والمشتاقين والآثمين والتائهين سرًا قديمًا عن جمال الليل، ذلك الجمال الذي لا يكتمل إلا حين يجتمع فيه الحنان بالخوف، والدفع بالوحشة، والسكينة بشيء لا يُرى يراقب من خلف العتمة.

وفوق الميدان الأحمر، بدت قباب كنيسة القديس باسيل بألوانها المتجمدة كأنها أحلام شرقية نبتت في قلب الشتاء الروسي، بينما الضوء الشحيح المنبعث من نوافذها يرسم على الثلج بقعًا ذهبية مرتجفة.

وفي الداخل، خلف الجدران العتيقة التي حفظت صلوات أجيالٍ رحلت ولم تأخذ أسرارها معها، كان صوت الأب يتردد من المقصورة الخشبية، عميقًا ومهيبةً، يصعد في فضاء الكنيسة ثم يعود كأنه صوت رجلٍ آخر، أو ربما صوت الزمن نفسه، وهو يوقظ شيئًا نائمًا في قلب الليل.

= أهلاً بك في بيت الرب يا بني، بماذا تريد أن تعترف؟

رد صوت أجش متوتر لرجلٍ من مقصورة الاعتراف المجاورة:

= إنه الاعتراف الأول لي في حياتي أبانا، ولا أدري كيف أبدأ؟

= الاعتراف الأول! صوتك يوحى بتقدم العمر...

وكان الأب على حق، فالشيب غزا شعر الكهل في الغرفة المجاورة، والحياة منحت عينيه الضيقتين لون الأرض وقسوتها أيضاً.. والتجاعيد حفرت في جبينه أرضاً غير قابلة للزراعة مطلة على أنفه المعقوف كمنقار نسر.



عاين الرجل خيال الأب مرة أخرى بزيه الديني التقليدي عبر الفاصل الزجاجي بينهما مشوّشاً كوجه في بحيرة حظ قد ألقى حجر أمنية فيها.

= معك حق، عمري تسعة وخمسون عاماً.

= لا تقلق يا سيد، يمكنك البدء كيفما شئت فالرب لا يحتاج بروتوكولات معينة لمخاطبته بشرط يتيم لا غنى عنه وهو أن تكون نادماً في قرارة نفسك على الذنب الذي اقترفته وراعياً بصدق أن تتوب عنه.

ساد الصمت للحظات، ثم عاد صوت الرجل الأجش ليبدده بطلقة سؤالٍ صادمٍ لم يتوقعه الأب بتاتاً.

= هل في ملكوت الرب مكانٌ يتسع لشخصٍ اقتترف جميع أنواع المعاصي في حياته أبانا؟

صمت الأب قليلاً بعد هذه السؤال المفاجئ وكأنه يفسح المجال للطلقة أن تدوي وتحلق في سماء لرب.

= المعاصي كافة! كيف ذلك لرجل في مثل سنك يدلي باعترافه الأول في حياته؟ أخالك تبالغ في تعظيم خطاياك؟

= لم أكن في يومٍ متديناً كي أعترف من قبل، فقد نشأت في بيئة قاسية انتزعت الإيمان من أعماقي كيد جراحٍ متمرسٍ خبيرٍ تاركةً ظلاماً دامساً في داخلي لم يعرف النور طريقاً إليه أبداً.

= وما الذي اقترفته على وجه الخصوص؟ ربما لم تكن خطاياك بالسوء الذي تخاله؟

تنهد الرجل تنهيدةً عميقةً كفيلة بإذابة ثلوج الساحة الحمراء في الخارج وشرع بقص حكايته:

= جذور خطاياي أبانا تعود إلى طفولتي القاسية كيتيمٍ قضى أغلب أيامه متسولاً في الطرقات، ذاق المرارات بأنواعها المختلفة من نبذ، جوع، بردٍ واستغلال، كل ذلك دفعني بالقوة لاحقاً إلى سلوك الطريق القاتم من الحياة إذ قادتني مجموعة من الصدف الغريبة في شبابي إلى دخول عالم المافيا والعصابات الأسود الخطير الذي انتشلني من تلك الحياة الصعبة لأعيش كأول مرة في حياتي دون خوف أو حاجة، فشعرت أن الحياة ابتسمت لي أخيراً و طمعت بالمزيد ، لذا أخذت أترج في المناصب سنةً تلو شقيقتها حتى تزعمت إحدى تلك العصابات الكبيرة بنفسى.

وكما تعرف أبانا هذا العالم متشعب كمتاهة من العسير الخروج منها متى ما دخلت فيها، فكانت الخطايا تفاصيل حياة لم أخترها، ولكنها اختارتني، من مخدرات، بغاء، قتل، رشوة، ابتزاز، تجارة أعضاء و غير ذلك.

= يا أم الله! هل اقترفت كل هذه الموبقات ؟ لقد أهلكت روحك في ذلك الطريق.

= أجل، لقد انحرفت حياتي مجبراً كما أسلفت على نحوٍ خطير، صرت الجاني بعد أن كنت المجني عليه، لكن كل ذلك تغير في يوم بتاريخ اليوم من سبع سنوات.

= تدخّل الرب إذا؟

= الإله، القدر، الحظ، الصدفة، سمه ما شئت.

في ذاك اليوم التقيت بشابة ثلاثينية وظّفها أحد مساعدي للعمل في قصري، لم تكن فتاةً عادية كمئات من قابلتهنّ في حياتي، بل كانت مجبولةً بعناية من خليط سحري من الحب والحنان، حتى أخالها خلقت في قالب مريم العذراء ذاته، فهي متدينة على نحو مثالي ولم تتخلف عن زيارة هذه الكنيسة في أي مناسبة طوال سنين حياتها، كما أنها أفنت عمرها في إعالة عائلتها الكبيرة التي نهش الفقر والحرمان أحلامها حتى النخاع دون تأفف أو ملل مضحيةً بمتع الحياة كافة.

صمت الرجل للحظات ثم تابع حديثه بشروء وكأنه يعيش الذكريات من جديد:

= رأيت فيها نفسي، طفلاً جائعاً في أزقة المدينة الشاسعة، أبحث عن كتف أبكي عليه، فلا أجد إلا المتجاهلين والمتحرشين.. لقد أخذتني من غرور زائف تصنعه الأموال إلى تواضع الفقر الرصين، الفقر الذي هجم مع سقف لمها وعائلتها، فلم تضيق، فتذكرت فقري الذي لطالما هجم بلا سقف أوي إليه، حتى تحول الرب إلى عدوي بسقف سمائه الكبير. وفي أيام تحولت من رجل عصابات قاسٍ إلى رجل غريب عني، ربما هو من كنت سأكونه لو لم تسلبني الحياة طفولتي، غرقت في بحر حب جديد لم أعرفه قبلاً، أصبحت رجل أعمال ثري ورومانسي في مخطط بعيد المدى كي يقنعها بالزواج منه. وبات من العسير عليّ التخلي عنها وقد أبصرت الطمأنينة لأول مرة في حياتي معها ومن عينيها الصافيتين كالهواء عقب هطول المطر، وهذا ما تم فعلاً بعد أشهر، ومنذ تلك اللحظة أصبحت ذروة أحلامي في الحياة أن أنجب منها أطفالاً وأكوّن عائلة سعيدة أعوضها عن كل شيء حرمت منه في طفولتي وحرمت هي منه بدورها.

صمت الرجل وهو يغصّ بتنهيده أخرى، والحديث خرج عن سياق الاعتراف، لكنّ قصته شدد الأب بقوة كي يعرف نهايتها، فيعي ما يتوجب عليه النصح به.

= بذلك كتب لك الرب حياة أخرى وهداية من جديد.

= هذا ما ظننته أباناً، لكن كان لسقف السماء كلام آخر في ذلك، سقف هشّ سقف بيتي مجدداً.

= وكيف ذلك؟

= لم تحمل زوجتي لعامين، وقدر الطبيب أنني السبب، فعلاقتي العابرة خلفت أمراضاً تناسلية كثيرة. وكأنما كان الطفل مفتاح بقائها معي، إذ تغيرت بعدها بشكل



كبير.. والقصة طويلة، لكني خسرتها.

الأب مرتبكاً:

= كيف خسرتها؟

= الأفضل لنا معاً ألا أقل لك كيف...

= ماذا تقصد؟ نصف الاعتراف لا يكفي، كما أن الاعتراف بمفرده لا يكفر الذنوب، بل على الإنسان أن يدفع ثمن خطاياه التي اقترفها كنوع من تأديب الرب له كي يستحق ملكوته في السماء.

= لكنني دفعت الثمن أبانا بطفولتي المعذبة وخسارتي لمن أحببت ثانياً...

= طفولتك المعذبة ليست عقاباً ولا مبرراً لما فعلت بني، التكفير الكامل عن هذه الذنوب له طريق وحيد فقط، وهو باعترافك باقترافها أمام القانون، ثم تحمّل العقوبة المناسبة لك كي تظهر روحك مما لوثها.

رد الرجل بلهجة متذمرة:

= لكن لا يمكنني فعل ذلك، فاعترافي سيؤدي بي إلى الإعدام لا محالة!

= إن كان هذا حكم القانون على جرائمك فهو الطريق الوحيد لتطهير نفسك والتكفير عن ذنوبك.

زادت الحدة في نبرة الصوت حتى اختلط برياح المدينة:

= أطلب مني الانتحار؟ أظنني أحقاً كي أنتحر بهذه الطريقة؟ لقد دفعت أغلى الأثمان مقابل تلك الخطايا فكيف أدفع حياتي أيضاً ثمناً للتكفير عنها؟

= إن عقوبة القانون ليس انتحاراً أو حماقة بني، بل هي إنقاذ أخير لروحك، فما فعلته كارثي لم يسبق أن مر عليّ في حياتي كلها بجمع اعترافات المخطئين أمامي معاً، ولا يمكن غفرانه ببساطة إذ أنك خالفت قوانين الرب جميعها دفعة واحدة.. أما قدومك للاعتراف اليوم فقد يكون آخر طوق نجاة لنفسك الهالكة إن تبت بحق وأكملت اعترافك أمام القانون. يبدو لي أن الرب أرسل زوجتك المتدينة لك كي تدفعك للتوبة والتكفير عن ماضيك، فالرب أب رحيم لا يتخلى عن أبنائه مهما اشتدت موبقاتهم لكن بالتوبة المناسبة التي تصحح اختلال ميزان العدل الذي أحدثوه بظلمهم لأنفسهم وللآخرين على حدّ سواء، كذلك الأمر فالسماء حرمتك من الأطفال

لسببين جوهريين، الأول كجرس إنذار ينبهك لخطورة ما فعلت والثاني كي لا يهلك أطفالك بدورهم في هذه البيئة المعجونة بالخطايا التي خلقتها من حولك.. طريق الغفران الوحيد لما اقترفته بني هو تسليم نفسك للقانون لا غير.

= أنت تعرف ما تريد السماء.. ها.. وإن لم أفعل ذلك؟

= عندها ستهلك روحك في الدنيا والآخرة يا بني ولن تنفعك ثروتك كلها في النجاة.

= إذاً لا بديل آخر لديك سوى إعدامي لتموت خطاياي معي، لا يوجد أي طريقة أخرى تكفر عن ذنوبي كالتبرع بالمال للمحتاجين أو بناء كنائس جديدة أو غيرها من الأمور؟

= تكفير الذنوب من الأمور القليلة في هذه الحياة التي لا تشتري بالمال.

ساد الصمت للحظات، ثم ضجّت الغرفة بصوت ضحكة ساخرة عالية رنّ صداها في الأرجاء وتحولت نبرة الرجل من رجاء وانهزام إلى سخرية وتهكم ببرود يفوق مايسترو الصقيع في الخارج.

= هل عرفت الآن لماذا لم أخبرك بالحكاية كلها؟ هل هذا كل ما في جعبة الرب من حلول لخطايا أبنائه؟ حسبته رحيماً بحق فيغفر الذنوب مباشرةً وأن اعترافي سيكفر عن ماضي، لأخرج من هنا نقياً، أولد مجدداً وأبدأ حياةً جديدة، لا أن يُطلب مني الانتحار.. أنا الذي عرفت دوماً أن الانتحار هو شيء ديني بحت، بعكس السائد الجاهل أنه ضد الأديان.

= لو كانت قوانين السماء بهذه البساطة، لاقترب جميع الناس ما اقترفته، بل أكثر من ذلك ثم أتوا للاعتراف أمامي وأمام الرب لينتهي كل شيء كأنه لم يكن. هذا تفكير ساذج لا يخلق دنيا عادلة ولا يصنع إنساناً صالحاً كما أنه لا يرد الحقوق للمظلومين.

زادت شدة السخرية في لهجة الرجل وامتزجت بنوعٍ من الحنق:

= لقد أضاع ربك دقائق ثمينة من حياتي على هذه المسرحية الفاشلة والنصائح الفارغة كرحى تدور بصوتٍ مزعج دون أن تنتج طحينا، كان بإمكانني الذهاب إلى الشرطة والاعتراف بما أخبرتك به مسبقاً، هل هذه هي الخدمات الروحية التي تقدمونها للناس في هذه الدار العبثية؟ لا ريب أن الناس ابتعدوا عن الإيمان والدين، فربكم الذي تخدمونه لا يغير في حياتهم.

= أستغفر الله، ما هذا الكلام يا بني، إنك تضيف خطايا جديدة كارثية لحياتك المثقلة سلفاً بها. استغفر الرب وتب، ثم اعترف قبل أن تهلك روحك تماماً.

تابع الرجل سخريته بلهجة مفعمة بالرغبة في الانتقام هذه المرة:

= كما اعتاد ربك المزعوم أن يبدأ كلامه: الحق أقول لك، لن أعترف للشرطة بما فعلت كأحمق يدمر نفسه وحياته إلى الأبد. يبدو أنني كنت ساذجاً في المقام الأول بالتفكير في القدوم إلى هنا والاعتراف لك مع نيتي التنازل عن حياتي الطبيعية أخيراً بعد طفولتي المحرومة المريرة بتغيير نمط حياتي لأجل رب قاسٍ لا يستحق ذلك. سأجد طريقة لفعل ذلك فقد تعودت في حياتي أن أحصل على كل شيء أصبو إليه مهما زرعت السماء الحمقاء من الأشواك والمفخخات في طريقي، للمال معجزات تجعل من معجزات ربكم ألعيب أطفال.

حافظ الأب على هدوئه واتزانه رغم كلام الرجل المهين والمستفز:

= هذا شأنك بني فالإنسان حرّ فيما يفعل، لكن عليه تحمل عواقب أفعاله. أنا لست طبيباً نفسياً لأضع لك مخططاً إصلاحياً، أنا أنصحك بما أعرفه من كتاب الله.

علت ضحكة ساخرة أخرى من الرجل و ختم الحديث بمزيدٍ من التهكم و الوعيد:

= معك حق أحتاج طبيباً نفسياً.. العلم سيد أكوانكم، وربما سيكون معه أجوبة مفيدة.. سنرى من سيصوب الطعنات للآخر أنا أم ربك؟ وفي لقائنا القادم سأقص عليك حكايات ستدفعك للعزوف عن عبادة هذا الربّ الوهمي.

تردد صدى صوت خطوات الرجل الثقيلة الغاضبة في سكون ليل بهو الكنيسة حتى تلاشى تدريجياً وسادت طمأنينة الرب الأمن مجدداً في أرجاء المكان.

\*\*\*\*\*

إيطاليا / تورينو

## كاتدرائية سان جيوفاني باتيستا

نيسان 2050 م

التفت الحضور الكبير حول المجسم الرخامي المكلل بصندوق زجاجي شفاف فردت فيه قطعة قماشية بيضاء باهتة وعيونهم تتأملها بفضول هائل، في حين أخذ المرشد السياحي يشرح لهم ماهية تلك القطعة بثقة وملل من اعتاد على تكرار المعلومات لسنوات:

= هذا هو كفن تورينو سيداتي وسادتي الذي يعتقد بقوة أنه الكفن الذي احتضن جثمان يسوع المسيح بعد صلبه، والذي عثر عليه تلاميذه في المغارة التي دفن فيها في القدس بعد قيامة يسوع. كما تلاحظون جميعاً فأثر جسد الرب لا يزال ظاهراً عليه تماماً مع علامات الصلب والطعنات وأثار من دمائه المقدسة.

صمت المرشد للحظات ثم أضاف:

= وهو موجود في هذا المكان منذ عام 1578 ليصبح أحد رموز المدينة الشهيرة.



تدخلت سيدة من الحضور في الحديث بسؤال متوقع:

= لكن الرب صلب ودفن في القدس فكيف وصل الكفن إلى مدينة تورينو أيها المرشد؟

= سؤال هام للغاية سيدتي، للإجابة عليه يجب اتباع خطوات نقل الكفن من القدس والمختلف عليها في الحقيقة، لكنني سأقتصر على ذكر المدن التي أجمعت عليها الوثائق التاريخية: تقول إحدى الروايات أن الرسول بطرس أو فرسان الهيكل في رواية أخرى قاموا بنقل الكفن من القدس إلى تركيا حيث مكث لفترة في **انطاكية** لينقل بعدها إلى **كيليكية** هرباً من الغزو الفارسي. بعدها نقله البيزنطيون إلى **القسطنطينية** لكنه اختفى بعد سنوات من هناك دون أن يعرف أحد مقره الجديد، ليظهر من جديد بعد عقود في مدينة **ليريه** الفرنسية، ثم تم نقله من جديد إلى مستقره الأخير هنا في **تورينو** الإيطالية.

شارك رجل آخر في الحوار بسؤال جديد متوقع أيضاً:

= وما الدليل على أن هذا هو بحق كفن يسوع المسيح؟

= سؤال آخر غاية في الأهمية أيها السيد، في الحقيقة توجد أدلة كثيرة على ذلك منها الوثائق الأثرية البيزنطية في القسطنطينية التي أتت على ذكر الكفن ووصفه.

صاح أحد الشباب من الخلف:

= وهناك مخطوطة برأي أيضاً أيها المرشد.

= تماماً مخطوط برأي الشهير الذي يعود إلى أواخر القرن **12**، ويحتوي هذا المخطوط على عدة توصيفات عن صلب المسيح، وإيداعه في القبر، كما أنها تشير إلى تفاصيل عن شكل يسوع مطابقة تماماً للآثار التي نراها على الكفن. وهناك أيضاً شهادة المؤرخ **روبير دي كلاري** وهو فارس فرنسي شارك في الحملة الصليبية الرابعة، ففي يومياته (قصة الذين دخلوا القسطنطينية) أتى على ذكر الكفن.

تدخلت سيدة أخرى في الحوار المشتعل بالأسرار:

= قد سمعت عن عملات معدنية بيزنطية عثر عليها في العام 2015 تعزز قصة الكفن أيضاً.

= رائع سيدتي، يبدو أنكم قمتم بدراسة عميقة وواسعة حول الكفن قبل زيارته. بالفعل نشر العالم **جوليو فانتى**، في العام 2015، صوراً لعملة معدنية مسكوكة في العام 692 ، في عهد الامبراطور **يوستينيانس الثاني**، تُظهر وجه المسيح مشابهاً على نحو غريب لآثار وجهه على الكفن.

تشجع رجل عجوز بدوره على ترك بصمته في الحوار:

= وهل هذه هي كافة الأدلة أيها المرشد؟

= بالطبع لا سيدي المحترم، فهناك عشرات الأدلة والشهادات الأخرى. نحن نسمح كل بضع سنوات فقط بزيارة السياح له ومعاينته عن كثب، أنتم من المحظوظين القلائل الذين حظوا بهذه الفرصة.

أتى السؤال الأخير المفاجئ من فتى مراهق بصحبة والديه:

= لكن سيدي إن كان الكفن هاماً ومقدساً لهذه الدرجة، فلماذا تحتفظون به في هذه الغرفة غير المحصنة؟ ألا تخافون من أن يسرقه أحد؟

= سؤال ذكي للغاية أيها الفتى النبیه، في الحقيقة آثرت الكنيسة في روما أن تبقى على الكفن في مهده الأخير هنا (معبد الكفن المقدس) الملاصق لكاتدرائية تورينو والمتصل بقصر تورينو الملكي ضمن هذا الصندوق الزجاجي المضاد للرصاص حفاظاً على إرثه التاريخي وقصته المميزة. كما أنه بات معلماً هاماً من معالم مدينتنا تورينو فلا نريد تغيير مكانه الشهير. لا تخف صديقي على كل حال فهناك حراسة مشددة على معبد الكفن من جهة، كما أنه بالنسبة للناس مجرد قطعة قماش لا يطمعون بها من جهة أخرى فمن المستحيل حتى بيعها في السوق السوداء من باب قدسيتها لأن تتبعها سهل وسنعيدها أينما كانت. لننتقل الآن إلى زيارة كاتدرائية تورينو ففيها أمور مميزة كثيرة أخرى.

خرج المرشد من معبد الكفن يتبعه الحضور في حين أغلق الحرس البوابة وانتصبوا أمامها لحماية الكفن المقدس بمنتهى الأمانة والإخلاص.

\*\*\*\*\*

## الولايات المتحدة الأمريكية

### كاليفورنيا / لوس أنجلوس

أيار 2050

جلس الشاب الثلاثيني الأقرع على مقعد الانتظار، فيما راحت عيناه تلاحقان عقارب ساعة الحائط التي كانت تزحف ببطء نحو الواحدة ظهرًا. لم يكن الزمن وحده هو الذي يتحرك؛ كان توتره يتحرك أيضًا، يتسلل إلى جسده كتيار خفي، ويعبث بتوازن كيمياء دماغه، حتى بدا السيروتونين وكأنه فقد شيئًا من هدوئه القديم. اهتزت قدماه دون إرادة منه، وارتجفت أصابعه، بينما راحت يدها تكرران الحركة نفسها في قلقٍ عصبي: يخرج علبة السجائر من جيب سترته، يقلبها بين أصابعه، يتحسسها كما لو كانت وعدًا بالخلاص، ثم يعيدها إلى مكانها كلما تذكر أنه ممنوع التدخين داخل مركز الأبحاث كبندول ساعة لا يكل ولا يمل.

كانت الدقائق تتمدد أمامه على نحوٍ غير طبيعي، حتى بدت كل دقيقة كأنها ساعة كاملة، وكل صوت يأتي من خلف الباب المغلق يوقظ في داخله سؤالًا جديدًا. ثم انفتح الباب أخيرًا.

ظهر رجل في الخمسين تقريبًا، يلف جسده معطفه الأبيض، وعلى ملامحه ذلك الهدوء الواثق الذي يملكه عادةً أولئك الذين اعتادوا أن تُصغي إليهم الغرف قبل الأشخاص. تقدم بضع خطوات، وكان مظهره كافيًا ليخبر الشاب أنه البروفيسور ديريان.

وقبل أن يبادر بالسؤال، كانت السكرتيرة قد انتصبت من خلف مكتبها، وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، مؤكدةً بهدوء أن الرجل الواقف أمامه هو بالفعل الشخص الذي كان ينتظره منذ دقائق بدت له أطول من اللازم.

= صباح الخير بروفيسور ديريان.

= صباح النور أنسة جوانا، أنهيت للتو عملي في المختبر.

= السيد أناتولي يرغب بمقابلتك.

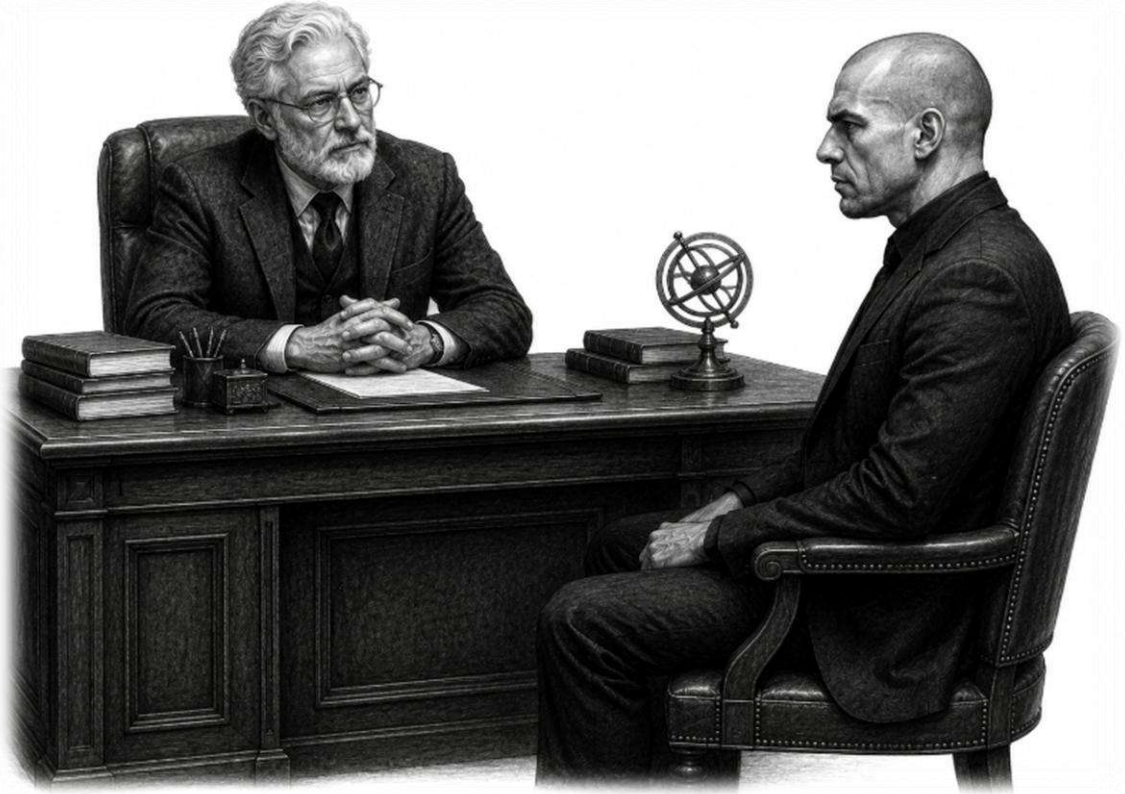
أشارت إلى الشاب الجالس النحيف كعود الخيزران الذي وقف بتشنج، ثم مد يده

لمصافحة البروفيسور المندھش وحياء بصوت عميق لا يتناسب مع عصابيته:

= تحياتي بروفيسور.

= أهلاً بك سيد أناتولي، دقائق وأوفيك في مكنتي.

دخل البروفيسور ديريان غرفة المكتب بقامته الفارعة، وأغلق الباب خلفه بهدوء. بعد دقائق رن جرس على مكتب السكرتيرة وسمع أناتولي صوت البروفيسور يدعوها لإدخاله، فانتصب من كرسيه بسرعة كنايةً عن ضجره منه منتظراً لأكثر من ساعة، ثم تقدم إلى الباب وفتحته دون أن يطرقه وأغلقه خلفه شاقاً طريقه إلى أحد المقعدين أمام مكتب البروفيسور وجلس دون أن ينتظر دعوته.



= هل يمكنني التدخين هنا بروفيسور؟

أشار البروفيسور بإصبعه إلى لافتة تدعو إلى الامتناع عن التدخين، فهز أناتولي رأسه على مضض.

= كيف يمكنني خدمتك سيد أناتولي؟

نظر إليه أناتولي للحظات بعينين ثاقبتين غائرتين ثم نطق بنبرة حادة كنصل سيف:



= أنا المساعد الشخصي لرجل الأعمال الشهير سيرغي ماركوف.

= تشرفنا.

= لقد بحثنا بعناية لشهور عن أفضل مراكز الإخصاب المساعد في العالم، فأشارت تحرياتنا في النهاية إلى مركزكم الشهير هنا في لوس أنجلوس ولشخصكم بروفيسور دون أي منافس.

= هذه إشادة تسعدني سيد أناتولي، وبعد؟

= السيد سيرغي مشخص منذ سنوات بالعقم، وقد وكلني بالتحدث إليك، وكما ترى لقد وقع لي على وثيقة تسمح لك بنقاش وضعه معي ..  
= رأيتها.

= لقد أجرى عدة خزعات من الخصية من قبل وأثبتت غياب النطاف التام لديه.  
= آسف لسماع ذلك.

= وهو يريد منك إيجاد حل لمشكلته كي يستطيع الإنجاب.

عدل البروفيسور جلسته واستند بظهره على كرسيه الجلدي المريح:

= أخشى أنه ما من طريقة لمساعدة السيد سيرغي، فضمور الخصى يعني غياب النطاف فيها كما أثبتت الخزعات، أي يستحيل عليه الإنجاب.

كشر أناتولي بامتعاض عن أسنان ذهبية في معظمها:

= لم أقطع كل هذه المسافة، كي أسمع هذه الإجابة بروفيسور.

صمت قليلاً ثم أخرج شيكاً من حقيبته و مد يده به إلى البروفيسور المندهش:  
= ما هذا ؟

= شيك على بياض، يمكنك تسجيل المبلغ الذي تريده شريطة أن تخرج لنا بحل سحري من جعبتك كبروفيسور مخضرم عاين كثيراً من الحالات.

بدت علامات الدهشة والفضول بوضوح على محيا البروفيسور الذي أخرج نظارته و وضعها على عينيه محدقاً في الشيك بتمعن، ثم نظر في عيني أناتولي بذهول ..

= هذا عرض مغرٍ بلا شك سيد أناتولي، لكن للأسف هنالك حالات في الطب لا يمكن حلها بأي طريقة أو أي مبلغ.

زاد امتعاض أناتولي و أخرج علبة السجائر من جيب سترته الداخلي ثم أخرج سيجارة منها و وضعها في فمه دون أن يشعلها. في حين تابع البروفيسور كلامه:

= أعتذر عن عدم تقديمي فائدة ملموسة للسيد سيرغي لكن هذه هي الحقيقة العلمية، التحاليل أمامي تؤكد تشخيصه ومن أكثر من طبيب، هذا يعني أنّ التشخيص مؤكد، لا نطاف، إذاً عقم. لكن هناك فلسفات حياتية أخرى، يمكنه التبني مثلاً.

= لا، السيد سيرغي يرفض قضية التبني جملةً و تفصيلاً.

= إذاً لا حل. لا يمكن إنجاب طفل من السيد سيرغي إلا اللهم عن طريق الإستنساخ

= الاستنساخ !! كيف ؟

= أن نأخذ خلية جسدية من جسد السيد سيرغي و ننزع نواتها و نزرع فيها نواة بويضة أنثوية من متبرع فيتشكل لاحقاً جنين يصبح ابناً نسخة طبق الأصل عن السيد سيرغي ..

ابتسم أناتولي بمكر ..

= يبدو ذلك واعداً ..

قطب البروفيسور جبينه باستنكار ..

= لكن الإستنساخ ممنوع أخلاقياً، كما أنه يكلف مبلغاً طائلاً.

= السيد سيرغي غير مهتم برأي المجتمع و المعايير الأخلاقية التي يضعها. أما موضوع المال فليس مشكلة على الإطلاق كما أخبرتك، فيمكنك تسجيل الرقم الذي تحتاجه مع مكافئتك على الشيك. فإن نجحت في مساعدة السيد على إنجاب طفل يحمل جيناته بعضها أو كلها لا فرق يمكنك تسجيل مليار دولار، مليارين، أي رقم تحبذه على الشيك.

= هذا غير قانوني، ودعوة لأقامر بشهادتي وحرיתי أيضاً!

ضحك أناتولي ضحكة استهزاء قوية:

= لا تقلق بهذا الخصوص بروفيسور، كل شيء سيكون سرياً، بيننا نحن الثلاثة فقط، وإن تجرأ أحد ما على فضح هذا السر نعرف كيف نسكته إلى الأبد. كما أن السيد سيرغي قادر على فك حبل المشنقة عن رقبة أي شخص متى شاء.

نظر إليه البروفيسور نظرة خوف...

= لا داع للتردد بروفيسور، السر سيبقى سراً، فكر فقط بالثروة التي ستحصل عليها. أنا أعلم بأن ابنتك ناتالي بحاجة لعلاج جيني باهظ الثمن بسبب مرضها الخلفي، كما أن مركزك يعاني حالياً من عجز في التمويل، والسيد سيغدق عليك بثروات لم تحلم بها في حياتك تحل كل مشاكلك.

أوماً البروفيسور رأسه، وكان خوفه في محله، فهم يعرفون عنه كل شيء... في حين ابتسم أناتولي ابتسامته الصفراء ..  
= سأعود الآن إلى موسكو، فكر بالموضوع، سنمنحك مهلة أسبوع.

مد البروفيسور يده بالشيك إلى أناتولي ..

= لا .. احتفظ بالشيك معك الآن، فقد تحتاجه لاحقاً.

نظر إليه البروفيسور ديريان بخوف ودهشة:

= هل تثق بي لهذه الدرجة ؟ ماذا لو صرفته بالمبلغ الذي أريده وتملصت من القضية؟

ضحك أناتولي ضحكة ساخرة:

= نحن لا نثق بأحد بروفيسور، لكنني أثق بمقدرتنا على الوصول إلى أي شخص في العالم و تصفيته نهائياً إن أساء التعامل معنا، فمن يخدمنا نغدق عليه بما لم يحلم به ، أما من يخوننا بقول أو فعل نمحوه عن وجه الأرض بسهولة.

أعاد سيجارته إلى العلبة وهو يهم بالوقوف:

= سررت بلقائك بروفيسور، انتظر مكالمة مني، وأظنك تعي تماماً أن ما ناقشناه سر بيننا لا يجوز لأحد معرفته لمصلحتك قبل مصلحتنا.

غص البروفيسور بريقه بصوت مسموع:

= بالطبع.

استدار أناتولي بهدوء ثم خرج وأغلق الباب خلفه تاركاً البروفيسور في حالة من الدهشة، الصدمة والقلق من زائرٍ غامضٍ وثقيل لم يتوقعه أبداً يطرح قضية شائكة وخطيرة : الاستنساخ البشري !

\*\*\*\*\*

**روسيا/موسكو**

**قصر سيرغي**

**أيار 2050**

أخرج أناتولي علبة السجائر من جيب سترته، وأشعل واحدة منها ببطء، ثم استسلم لأول نفثة بتلذذٍ واضح، كأن الدخان وحده قادر على تهدئة شيء مضطرب في أعماقه. وراحت قدماه تهتزان بإيقاع خافت، متناسق مع النغمات الرقيقة التي كانت تنساب في أرجاء الغرفة؛ سمفونية باخ الشهيرة «لأجل ليزا»، التي ترغمك على السعادة بالقوة رغم نعومتها..

رفع أناتولي عينيه نحو الشاشة العملاقة المثبتة على الجدار المقابل لمكتب سيده سيرغي. كان سيرغي جالساً في مكانه، يمسك سيجاره الذي لم يبقَ منه إلا الرماد تقريباً، والدخان يتلوى من طرفه في خيطٍ رمادي كسول، بينما ظلّ هو محديقاً في الشاشة بالصمت نفسه، كأن ما يراه أمامه أهم من كل شيء آخر في العالم.

مرت لحظات لم يُسمع خلالها سوى الموسيقى وصفير أجهزة التهوية الخافت، ثم قال سيرغي دون أن يحيد بعينه عن الشاشة:

= أهلاً بعودتك أناتولي، لقد افتقدتك المنظمة وزعيمها.

أناتولي بابتسامة:

= شعور متبادل سيدي، أعتذر عن تركك بمفردك لأيام.

رمقه سيرغي بنظرته الثاقبة كرساصة قناصة:

= أعترف بأن أيامي مضجرة للغاية من دونك، فلا غنى لي عنك فيما يتعلق بالتخطيط لحياتي المهنية والشخصية على حد سواء، فأنت ذراعي الأيمن والأيسر معاً، لكن موقع **لافيتا** الإخباري المعلوماتي الجديد يسليني بعض الشيء في الأوقات التي يحجم العمل بوجهه القاسي عن روعي المتعبة.

= لا أخفيك سراً سيدي بأن مشاهدة أي شيء على شاشة عملاقة كهذه أمر ممتع.

= محقّ، وفوق ذلك كله هذا الموقع يزودني بالأخبار العالمية والمحلية لحظة بلحظة، إضافةً إلى منشورات تضم معلومات غريبة و مثيرة و مضحكة أحياناً. انظر إلى هذا المنشور على سبيل المثال...

أشار سيرغي بقلم الليزر على عنوان عريض ( الديكتروفوبيا ).

= هل تعلم ما هو هذا المصطلح أناتولي؟

= إطلاقاً ، أنا والثقافة على نفور تام ، ولا أرى فيها سوى وجه قميء لعاهرة شمطاء لن أقرب منها و لو كانت الأنثى الأخيرة على وجه الأرض.

أصدر سيرغي ضحكة قوية افتقدها بشدة في فترة غياب أناتولي عنه:

= لكن الثقافة مسلية في بعض الأحيان يا أناتولي، هذا المنشور على سبيل المثال يشير إلى حالة مصاب بها بنفسي.

= العقم؟

= لا، موضوع العقم سنناقشه بالتفصيل بعد قليل مع نتائج سفرك إلى أمريكا.. أقصد حالتي النفسية بتشأومي و خوفي من الرقم **13**.

= تذكرت الآن .. ومن هو هذا في الصورة تحت العنوان؟

= هذه صورة الملحن النمساوي **أرنولد شوينبيرج**، وهو من المشاهير المصابين بنفس حالتي، عندما بلغ هذا الملحن عامه **76** انتابته نوبة تشاؤم و خوف مرعبة إذ أن مجموع رقميه **6** و **7** هو **13** الذي يخشاه، فحبس نفسه في منزله كي يتجنب التعرض لأي حادث مميت، لكنه مات فعلاً في يوم **13** تموز من ذاك العام بدون سبب مفسر رغم محاولته الهروب من قدره.

= قصة طريفة، لا ريب أن موقع لافيتا يسليك و يهون وقت الفراغ المضجر عليك،  
لكنّ تشاؤمك من الرقم 13 أخف من حالة هذا الملحن، أليس كذلك؟

= يكفيني أنه مجموع تلامذة يسوع الاثني عشر مع شخص الرب، أي طاقم مائدة  
العشاء الأخير، كي يجعلني أكرهه.



صمت للحظات وكأنه يبتلع غضبه، ثم ابتسم ببرود وقال:

= ننتقل إلى أخبار أمريكا أناتولي.. أرجو أن تكون غيبتك الطويلة تحمل غنائم  
حقيقية!

= هنالك أخبار مشجعة على ما أعتقد سيدي.

تسلقت هذه الجملة على تلافيف دماغ سيرغي وأحاطت به بالكامل كنبات زاحف  
على جدران مبنى متهالك، فأوقف الموسيقى بجهاز تحكم على مكتبه والتفت إلى  
أناتولي بتركيز شديد:

= وما هي هذه الأخبار؟

= يقول أن إنجابك لابن من نطافك الخاصة أمر مستحيل ..

ضرب سيرغي المكتب بقبضته و قال بحنق.

= هل هذه هي الأخبار الجيدة .. كلانا يعرف هذه الحقيقة ..

ابتلع أناتولي ريقه بصوت مسموه ، ثم قال بصوت متوتر :

= اصبر عليّ قليلا سيدي .. يقول البروفيسور أن الإنجاب بالطرق التقليدية مستحيل لكن هنالك طريقة غير تقليدية ..

= وهي؟

= الاستنساخ ..

قوس سيرغي حاجبيه بدهشة ..

= الاستنساخ !! و كيف ذلك ؟

= تبعاً لما فهمته من البروفيسور ، يمكننا أخذ نواة من إحدى خلاياك و زرعها في بويضة منزوعة النواة من متبرعة أنثى ثم يمكن تكوين جنين من ذلك يحمل كل صفاتك الجسدية بالضبط ليكون نسخة طبق الأصل عنك .

ابتسم سيرغي ابتسامة خبيثة ..

= أي سيمكنني تربية نفسي من جديد ضمن الحياة التي حرمت منها وتمنيتها طوال عمري؟ هذه فكرة خلاقة و رائعة .. وما رد البروفيسور على الموضوع ؟

= أمهلته أسبوعاً ليعطيني قراره.

أشاح سيرغي بوجهه عنه وأخذ يقلب صفحات موقع لافيتا على الشاشة الجدارية شاردأ و مفكراً في كلام أناتولي الواعد كشعاع من النور ينفذ من كوة ضيقة لزنزانة عفنة، حتى وصل إلى صورة لقطة قماشية غريبة كتب تحتها عنوان عريض ( كفن الرب يسوع ).

استحوذ العنوان على اهتمامه الكامل على الفور ، فاسم يسوع يستفز كينونته أينما ورد، و أخذ يقرأ المنشور كاملاً .

كان يتحدث عن عرض كفن الرب مجدداً أمام السياح في مدينة تورينو الإيطالية لفترة محدودة تتم كل بضع سنوات، وعندما وصل إلى سطر محدد منها تغيرت

ملاحمه بالكامل فأعاد قراءته تلقائياً عدة مرات و هو يفكر بعمق و يربط بين حوارهِ الأخير مع أب الكنيسة في اعترافه منذ أشهر، و كلام أناتولي والبروفيسور ديريان، ثم هذا المنشور وذلك السطر بالتحديد ، ما هذه الصدفة العجيبة غير المتوقعة باجتماع هذه العناصر الثلاثة معاً بارتباط عبقرى وثيق يحل جميع مشاكله و يحقق كافة غاياته دفعة واحدة.

أطلق ضحكة عميقة كقنبلة هيدروجينية رنّ صداها في أرجاء الغرفة وارتدى بظهره إلى كرسيه الفخم محدقاً عالياً في السماء وهو يخاطب نفسه :  
= أبانا الذي في السموات انتظر طعنتي الجديدة فسكيني قد شحذت وأمسست جاهزة لذبح الشاة.

نظر إليه أناتولي بدهشة و قلق:

= ماذا قلت سيدي ؟!

رمقه سيرغي بنظرة غامضة مفعمة بالانتصار والرغبة بالانتقام ..

= هنالك مهمة جديدة تنتظرك يا أناتولي، إنها مهمة خطيرة للغاية ، لكنك ستثاب عليها إن نجحت بمبلغ لم تتخيله قط في حياتك.

لمعت عياناً أناتولي عقب هذا الوعد الذي أسال لعبه:

= أنا على أتم الجهوزية سيدي، اعتبر المهمة أنجزت منذ هذه اللحظة.

أشار سيرغي بقلم الليزر إلى قطعة القماش الظاهرة على الشاشة الجدارية:

= أريدك أن تحضر هذه القطعة القماشية إلى هنا.

قوّس أناتولي حاجبيه بدهشة:

= قطعة قماشية ؟

ابتسم سيرغي بنشوة:

= وليست أي قطعة .. إنها كفن تورينو، كفن الرب يسوع المسيح..



= كفن الرب؟

= أجل الكفن الذي احتضن جثمان الرب بعد صلبه، ثم عثر عليه تلامذته في قبره عقب قيامته المزعومة.

= وما حاجتك إليها سيدي؟ كنا نتحدث في موضوع الإنجاب منذ لحظات.

= ولم نخرج عنه أناتولي .. الرب سيولد من جديد، لكنني سأعيد تربيته على طريقتي الخاصة هذه المرة لأخرج للدنيا ربّ آخر يليق بهم و بهذه الحياة القاسية.

= ربّ جديد؟

= رب جديد يا أناتولي .. ربّ أفضل من ربهم الذين أدمنوا عبادته دون جدوى، ربّ من هذا الزمن الذي نعيشه اليوم، لكنه سيتلقى أوامره الإلهية مني هذه المرة.

نظر أناتولي إلى صورة الكفن على الشاشة الضخمة بذهول وهو لا يفهم بالضبط ما الذي ينوي سيده فعله.. في حين كان سيرغي يتمعن القطعة القماشية بعمق متأملاً معالم يسوع المسالمة عليها وآثار الدماء تلتطخها من جميع الزوايا.

لعنة الفهود !

## أفريقيا / بنين

### العاصمة بورتو نوفو ...

#### المدرسة الحكومية

### 1 كانون الثاني 2076 م

صاح جرس نهاية الدوام في أرجاء المدرسة عند الظهيرة، فبلغ أذني بونجاني كأنه أجمل من مقطوعة «لا فوليا» للراهب الأحمر فيفالدي، تلك التي يعشقها والتي يتدفق إيقاعها المجنون كأنه انعكاس حي للفوضى التي تعيش في داخله الآن. لم ينتظر حتى أن يهدأ رنين الجرس؛ أسرع إلى جمع كتبه ودفتره ودسّها في حقيبته الجلدية البنية، بلون بشرته الخلاسية وقزحيتي عينيه، ثم أطلق زفرة طويلة من صدره، زفرة رجل ظل حبيساً خلف القضبان دهرًا كاملاً قبل أن يسمع أخيراً خبر الإفراج عنه.

كان النعاس يثقل جفنيه بشدة. فقد أمضى ليلة أمس مستيقظاً حتى وقت متأخر، محتفلاً بقدم العام الجديد، ولم يكن يحلم الآن بأكثر من سرير هادئ وبضع ساعات من النوم تعيد إلى جسده شيئاً من نشاطه الذي استنزفته السهرات والضجيج.

قفز من مقعده بفرح، متجاهلاً دعوات زملائه إلى مرافقتهم، وانطلق عبر بهو الطابق الثالث كعداء كيني في اللحظات الأخيرة من السباق. ثم هبط درجات السلم ثلاثاً ثلاثاً، حتى بلغ البوابة الرئيسية للمدرسة، أو «زنزانته البائسة» كما كان يسميها في سرّه، واندفع نحو سيارته دون أن يلتفت خلفه.

لم يكن بونجاني قد عرف يوماً معنى أن يكون تلميذاً مجتهداً. كانت علاقته بالدراسة أقرب إلى خصومة طويلة، أو ربما إلى زواج فاشل انتهى بالطلاق دون أن يأسف أيّ من الطرفين كثيراً على نهايته. وبعد سنوات من المحاولات الفاشلة، والعلامات المتدنية، والمواعيد المتكررة في عيادات الأطباء، اضطر والداه أخيراً إلى تقبل الأمر كما هو.

كان والده، رجل الأعمال السيد أسيموتي، قد فعل كل ما يستطيع أبٌ أن يفعله حين يرفض الواقع أن يمنحه الابن الذي تخيله. أما والدته الفيتنامية، السيدة كاي، المقعدة، فقد عاشت سنوات وهي تتشبث باحتمال أن يكون ما يحدث مجرد مرحلة عابرة.

لكن الأطباء لم يجدوا تفسيرًا مقنعًا حتى حُسم الأمر أخيرًا على يد طبيب نفسي شخّص حالة بونجاني باضطراب فرط الحركة وتشتت الانتباه (ADHD) ، وهو تشخيص فسّر كثيرًا من سلوكه وصعوبة تحصيله العلمي وتراجعته الدراسي، خصوصًا مع محدودية استجابته للعلاج المتاح في البلاد.

ولذلك، حين بلغ سنته الأخيرة في المدرسة الثانوية، وهي السنة التي يفترض أن ترسم أول خطوط مستقبله، لم يعد والداه يضعان أمامه سقفًا مرتفعًا من التوقعات. كان والده أكثر واقعية من أن يحمله ما لا يستطيع حمله، فقال له ذات مساء بنبرة أراد بها أن يطمئنه:

= في أسوأ الأحوال، سترث عني يا بني شركتي وتدير أعمالها. الشركة لا تحتاج إلى الثقافة والعلم بقدر ما تحتاج إلى الحنكة الإدارية، وهذه سأمحك إياها بخبرتي الطويلة. أما الشخصية القيادية، فتلك لا تنقصك أبدًا.

كانت كلمات والده، على بساطتها، أشبه بيدٍ امتدت لتنتشله من بحرٍ من القلق. فمنذ أن فهم بونجاني أخيرًا حقيقة حالته، لم يعد ينظر إلى مستقبله باعتباره امتحانًا واحدًا يتوقف عليه كل شيء. لقد اطمأن إلى أن الحياة ستجد له طريقًا آخر، سواء نجح في دراسته أم أخفق، وسواء حمل الشهادة التي يحلم بها الآخرون أم انتهى به الأمر إلى الجلوس خلف مكتب والده.

وللمرة الأولى منذ سنوات، شعر أن مستقبله ليس مهددًا بالكامل.

لكنه لم يكن يعلم أن كل ذلك الاطمئنان سيتداعى خلال دقائق، وأن حياته التي ظن أنه بدأ يفهم شكلها ستتحرف فجأةً في اتجاه لم يخطر له على بال.

كان يقود سيارته عائداً إلى منزله حين رن هاتفه على حين غرة.

مد يده إليه، ثم ألقى نظرة سريعة على الشاشة.

رقم غريب.

توقف شيء ما في داخله للحظة.

كان الرقم من خارج العاصمة، ومن مدينة أويدا الساحلية الواقعة في الجنوب تحديدًا.

عبس بونجاني وهو يعيد النظر إلى الشاشة.

والده؟

كان يعلم أن أباه في أويدا منذ الأمس لإتمام صفقة تجارية، وكانت آخر مكالمة بينهما عند منتصف الليل تقريبًا، حين اتصل به ليهنئه بالعام الجديد ويتمنى له عامًا سعيدًا.

لكن إذا كان والده هو المتصل، فلماذا لا يستخدم رقمه الخاص؟  
ظل الهاتف يرن في يده.

ولسبب لم يفهمه بونجاني، شعر فجأة بأن صوت الجرس هذه المرة لم يكن يشبه جرس نهاية الدوام الذي أنقذه من زنزانته المدرسية، بل بدا كأنه جرس آخر...  
جرس يعلن بداية شيء لم يكن مستعدًا له.

= بونجاني معك .. من يتحدث .. ؟!

= سيد بونجاني أنا المحقق أدازي من قسم شرطة أويدا ..

خفق قلبه بشدة .. شرطة !! لماذا ؟

= أهلاً بك .. كيف أخدمك ؟!!

= أريد سؤالك عن صلة قرابتك بالسيد أسيموتي إيتا .. فقد وجدنا رقمك في آخر مكالمة على هاتفه ..

= أنا ابنه .. أفلقتني سيادة المحقق ، هل أصاب أبي مكروه ؟

= أعذر عن تبليغك هذا الخبر السيئ .. لكن تم العثور على والدك في غرفته في أحد فنادق المدينة و قد فارق الحياة ..

ضغط بونجاني الفرامل بقوة لدرجة كادت السيارة خلفه تصطدم به و علا صوت نفيرها في الأرجاء مع شتائم السائق الغاضبة دون أن يكثرث بونجاني لها. صرخ بصوت مرتعش ..

= ماذا تقول ؟ والدي توفي .. ! كيف ؟

= أجل توفي .. و الحقيقة أننا لا نعرف الآلية بالضبط بعد .. لكن تقرير الطبيب الشرعي الأولي يقترح الموت بسبب احتشاء في العضلة القلبية .. اذ لا آثار لأي اعتداء أو إيذاء للنفس على جسده .. بل كان ممدداً على فراشه في غرفته و قد

فارق الحياة ..

غصّ بونجاني بدموعه و هو يكاد لا يصدق ما يسمعه ..

= يا بون ديو العظيم .. أبي .. أبي ..

= تعازي الحارة سيد بونجاني .. أعرف أن وقع هذا الخبر عليك ثقیل للغاية .. لكن من الضروري إجراء التدابير المعروفة و القانونية .. لذا نريد منك أو من أحد أفراد عائلة المتوفي أن يأتي إلينا في أويدا لاستلام جثمانه بعد تشريحه من قبل الطبيب الشرعي و تحديد سبب الوفاة بدقة مع الانتهاء من الاستجواب حول طبيعة حياة والدك الشخصية و المهنية..

صمت بونجاني للحظات و هو يشهق بدموعه عاجزاً عن امتصاص الصدمة..

= سيد بونجاني لا زلت معي !؟

= أجل .. اعذرني فدماغي لم يستوعب بعد هذا الخبر المفجع .. بالطبع سأستلم الجثمان اليوم و أنهى الاستجواب .. سأسافر من فوري إلى أويدا و سأكون عندك خلال ثلاث ساعات على الأكثر بعد أن أبلغ أمي و أختي بهذا المصاب الجلل ..

= أنا بانتظارك في مشفى أويدا المركزي/ جناح الطب الشرعي في الطابق تحت الأرضي .. تعازي الحارة لعائلتك ..

أغلق بونجاني الهاتف ببطء، كأن يده لم تعد تعرف كيف تتحرك، ثم ظل للحظات يحدق في الشاشة السوداء، عاجزاً عن استيعاب الكلمات التي سمعها قبل قليل. كان عقله يرفض أن يمنحها معناها الكامل؛ فبعض الأخبار لا تدخل إلى الإنسان دفعةً واحدة، بل تتسلل إليه كسمّ بطيء، حتى إذا بلغ أعماق نقطة في وعيه أدرك أنه لن يستطيع طرده بعد الآن.

كانت أول من فكر في الاتصال بها أخته الكبرى، كالوما، الطبيبة النفسية. وما إن سمعت صوته حتى أدركت من نبرته أن شيئاً فادحاً قد حدث.

قال لها الخبر.

لم تجبه في البداية.

ساد بينهما صمت ثقيل، ثم انكسر صوتها بالبكاء.

كان وقع النبأ عليهما أشبه بحكم إعدام ميداني صدر فجأةً، بلا محاكمة ولا فرصة أخيرة للكلام. تشبّثت روحاهما ببعضهما عبر الهاتف، كل منهما تحاول أن تسند الأخرى، بينما كانت الدموع تقوم بالمهمة العبيثية التي تعجز عنها الكلمات؛ مواساة شخصٍ في كارثة لا يمكن للمواساة أن تغيّر شيئاً فيها.

وبعد وقت لم يعرفا مقداره، قال بونجاني بصوت متهدج إنه سيتوجه إلى أويدا لاستلام جثمان والده.

ثم أضاف:

= عليك أن تخبري أمي.

عرفت كالوما فوراً ما يعنيه.

لم تكن والدتهما امرأة يمكن إلقاء خبر كهذا في وجهها ثم انتظار أن يبقى قلبها واقفاً في مكانه. كانت امرأة مقعدة، شديدة التعلق بزوجها، وقد أثقل المرض العصبي المزمن جسدها وأعصابها منذ سنوات. لذلك طلب منها أن تختار كلماتها بعناية، وأن تستخدم خبرتها في الطب النفسي لتفعل ما كانت تعرف كيف تفعله أكثر من أي شخص آخر: أن تقترب من النفس البشرية بحذر، وأن تتاور حول الألم دون أن تنكره، وأن تفتح للصدمة طريقاً تدريجياً إلى الوعي بدل أن تتركها تسقط عليه كصخرة.

لم تكن كالوما قد اختارت الطب النفسي مصادفة.

منذ طفولة بونجاني، حين بدأت مشكلاته السلوكية والدراسية تظهر، كانت هي الأقرب إليه. راقبته، وفهمت ما عجز الآخرون عن فهمه، ووقفت إلى جواره في سنوات التشخيص والعلاج والارتباك. وربما كان ذلك أحد الأسباب التي قادت بها إلى هذا التخصص تحديداً؛ فقد أرادت أن تفهم العالم الذي كان شقيقها يعيش فيه، وأن تمتلك يوماً الأدوات التي تمكنها من مساعدته.

كانت علاقتهما تتجاوز الأخوة بمسافات شاسعة؛ شيء أقرب إلى اتحاد روحي نشأ بين شخصين عرف كل منهما ضعف الآخر قبل أن يعرفه العالم.

قال لها قبل أن يغلق المكالمات:

= كوني حذرة معها، كالوما... لا أريد أن نخسرها أيضاً.

لم يجبها صوتها إلا ببكاء مكتوم.

أغلق الهاتف.

ثم ارتمى خلف مقود سيارته المتوقفة في منتصف الطريق.

كانت أبواق السيارات من حوله تنفجر غاضبة، والسائقون يصرخون ويشيرون إليه بعصبية، لكن بونجاني لم يكن يسمع شيئاً. كان عالمة كله قد انكمش في تلك اللحظة إلى مساحة ضيقة خلف زجاج السيارة، وإلى صورة واحدة لا تريد أن تفارقه: وجه والده.

انحنى فوق المقود وأجهش بالبكاء.

لم يكن بكاء رجلٍ حزين فحسب؛ كان بكاء إنسان شعر بأن الأرض انسحبت من تحته دفعةً واحدة. كان والده أكثر من أب بالنسبة إليه؛ كان السقف الذي احتمت تحته العائلة، وعمود الخيمة الذي ظل قائماً مهما اهتزت الحياة من حولهم، وحجر الزاوية الذي جعل بونجاني مطمئناً إلى أن هناك دائماً مكاناً يمكنه العودة إليه. والآن اختفى ذلك كله.

في غمضة عين.

قال في نفسه، وسط شهقاته :

( يا لها من سنة جديدة قبيحة! )

لم يعد يرى أمامه سوى العنمة. مستقبلٌ بلا ملامح، وأسرة فقدت مركز توازنها، وأم قد لا تحتل الصدمة، وأخت ستجد نفسها مضطرةً إلى حمل عبء الجميع، وهو نفسه الذي لم يكن قد تعلم بعد كيف يقف وحده في عالمٍ لم يعد فيه والده.

كان شعوراً طاعياً بأن قطار حياته دخل للتو نفقاً طويلاً مظلماً، وأن الضوء الذي كان ينتظره في نهايته قد اختفى.

لكن بونجاني لم يكن يعلم أن موت والده لم يكن سوى البداية.

لم يكن يعلم أن هذه السنة الكبيسة ستخبئ له ما هو أبشع من خبر الوفاة نفسه، وأن ما ينتظره في أويدا لن يكون جثمان أبيه وحده.

كانت وفاة والده مجرد الفتيل، أما الانفجار الحقيقي، فلم يبدأ بعد.

أدار بونجاني السيارة بعنف، وغيّر وجهته، ثم انقض على الطريق المؤدي إلى أويدا، يلتهم الكيلومترات كما لو أنه يستطيع بالسرعة أن يسبق الحقيقة.



كانت الساعات الثلاث التالية أطول ساعات حياته وأكثرها قسوة.  
ثلاث ساعات ظل خلالها معلقًا بين ثلاثة أزمنة لا ترحم؛ ماضٍ يزدحم بذكريات والده، وحاضر ثقيل لا يستطيع استيعابه، ومستقبل غامض لا يجرؤ حتى على تخيله.

كان يتذكر ضحكته.

صوته.

يده على كتفه.

كلماته حين كان يطمئنه إلى أن الفشل الدراسي ليس نهاية العالم.  
ثم تعود صورة الهاتف، والخبر، وكلمة «جثمان» لتسحق كل شيء.  
وعندما ظهرت أويدا أخيرًا، كان وجهه شاحبًا وعيناه حمرانين من البكاء والإرهاق.

وصل إلى المشفى المركزي، فأوقف سيارته في مكان قريب، ثم ترجل منها واتجه مباشرة إلى الطابق السفلي حيث تقع المشرحة.

كلما هبط درجة شعر كأنه يهبط معها إلى مكان آخر من حياته.

كان البهو شبه معتم؛ جزء كبير من مصابيح الإنارة قد تعطل، فلم يبق سوى بقع ضوء شاحبة تتناثر على الجدران والأرضية. بدا المكان كأنه مشهد مقتطع من فيلم رعب، إلا أن الرعب هذه المرة لم يكن تمثيلاً، ولم تكن الجثة التي تنتظره جزءاً من قصة خيالية.

كان الموت هنا حقيقياً.

والرائحة الثقيلة للفورمول العالقة في الهواء جعلت معدته تنقبض. شعر بصداع حاد يضغط على رأسه، ثم بدوار خفيف، لكنه تابع سيره.

كانت الأسهم المعلقة على الجدران تقوده إلى الداخل.

اتبعها حتى بلغ باب المشرحة الزجاجي.

توقف.

كان خلف الزجاج عالم آخر؛ عالم لا يدخل إليه الأحياء إلا لاستعادة موتاهم.

وعند الباب، كان يقف رجل بزي الشرطة.

لم يحتج بونجاني إلى أكثر من نظرة واحدة ليدرك أنه المحقق أدازي. وكان إلى جواره مساعده، وبرفقتها رجلان آخران، يقفون جميعاً في صمتٍ ثقيل.



رفع المحقق أدازي عينيه نحو بونجاني، وفي تلك اللحظة، أدرك بونجاني أن شيئاً ما في هذه القصة لم يكن طبيعياً. لو كان الأمر مجرد وفاة، فلماذا كان المحقق ينتظره عند باب المشرحة؟

= حضرة المحقق أدازي ؟

= بلى .. السيد بونجاني على ما أعتقد !

= أجل ..

= تعازي الحارة لك .. و أعتذر مجدداً عن إبلاغك بهذا الخبر الصادم في أول أيام العام الجديد .. للأسف هذا هو أحد الآثار الجانبية القبيحة لمهنتنا أن نلعب دور الغراب في نقل الأخبار السيئة ! ..

رد بونجاني بحزن يعتصر قلبه و ضياع يشنت روحه كشظايا مرآة متهشمة ..

= قمت بواجبك لا أكثر .. أشكرك على مشاعرك و جهدك .. هل تبين بعد سبب وفاة والدي ؟

= لا .. نحن بانتظار الطبيب الشرعي أموروي .. نتوقع خروجه في أي لحظة فهو في الداخل منذ ساعتين .. و أعتقد ..

قبل أن يتم جملة الأخيرة، فُتح باب المشرحة ليظهر طبيب قصير القامة يضع كمامة كبيرة على وجهه ويرتدي كفين أبيضين في يديه و رداءً أزرق خاصاً بمهنته حول جسمه.. فاتجه المحقق إليه على الفور ..

= ما الأخبار حضرة الطبيب ؟

نظر الطبيب إليه صامتاً للحظات ثم نزع الكمامة عن وجهه ، رمى بها في سلة المهملات بجواره و قال بلهجة غريبة ..

= لا أدري ما الذي سأخبرك به حضرة المحقق .. فهذه بلا أدنى شك أغرب حالة تمر عليّ خلال مسيرتي المهنية الطويلة كطبيب شرعي.. !!

= لم أفهم !

= السيد أسيموتي لم يمت بسبب احتشاء عضلة قلبية ..

= كيف مات إذاً ؟

صمت الطبيب مجدداً و هو ينتقل بعينه بين الوجوه الخمسة من حوله ثم ألقى نتيجة التشريح كقنبلة على الجميع ..

= لقد تعرض السيد أسيموتي لاعتداء عنيف سبب وفاته ..

= جريمة قتل .. هذا مستحيل ! لا تنس حضرة الطبيب أن غرفته كانت مقفلة من الداخل بمزلاج ، كذلك حال النافذة .. ناهيك عن عدم وجود أي كدمات أو كسور أو دماء أو أي شكل من أشكال الاعتداء كما أكدت تحرياتي و نتيجة فحصك الأولية هناك .. لا بد أن أحدنا فاته شيء ما !

= أعلم ذلك .. من جهتي أنا متأكد من كلامي فتشريح الجثة من الداخل أفضى إلى وجود تهتك كبير لأحشاء البطن مع دماء غزيرة في تجويف البريتوان ، مما يؤكد أن جسد السيد أسيموتي تعرض بلا أدنى شك لرضوض قوية فهذه الأمور لا تحدث عفواً من تلقاء نفسها .. هذا رأي العلم و الطب الشرعي و ليس رأيي الشخصي .. و بإمكانكم إعادة التحري في غرفة الفندق بحثاً عن أدلة قد تكون مخفية هنا أو هناك .. شعرة .. لعاب .. بصمة أو أي شيء آخر ..

= هذه أدلة غير مفيدة للأسف ، فهي غرفة فندق تعاقب عليها آلاف النزلاء لسنين طوال و لابد أنها تعجّ بعينات **DNA** تخصهم ..

هزّ رأسه بحيرة و دهشة ..

= يا لها من حالة عجيبة بالفعل كما قلت ! فالتحليل الجنائي يؤكد استحالة دخول أي شخص إلى تلك الغرفة الموصدة ، كما أنّ غياب آثار الاعتداء الخارجي على جسد الضحية يوصلنا إلى طريق مسدود بدوره .. فلا يمكن أن يقوم بذلك أي إنسان .. إلا إذا كان الجاني شبحاً أو روحاً تخترق الأبواب و الجدران و الأجساد ، فهل هذا معقول !!

تدخل المساعد أوتيتي في الحديث ..

= و لم لا .. تبدو لي قضية من اختصاص الكاهن لاموسا .. فقد نجد عنده تفسيراً روحانياً لحديثاتها الغامضة غير المفسرة ..

بونجاني و قد صعقه الحوار الغريب بين الثلاثة ..

= الكاهن لاموسا !؟

التفت إليه المحقق أدازي ..

= حضرة الطبيب هذا هو بونجاني ابن الضحية و قد حضر من العاصمة لاستلام جثمان والده .. أجل سيد بونجاني .. الكاهن لاموسا كاهن تابع لديانة الفودو الشائعة في بنّين و هنا في أويدا على وجه الخصوص كما تعلم .. إن مساعدي أوتيتي لا يقصد حرفياً ما قال .. لكنها بالفعل قضية غريبة يعجز العلم المادي عن تفسيرها .. مما يجعل التفسير الروحاني يتيماً في ميدان المنطق ! ..

عقب الطبيب أموروي و هو يخلع قفازاته ..

= ربما كان السيد أوتيتي على حق .. فأنا و إن كنت طبيباً أتعامل مع العلم .. لكنني كحال أغلب سكان أويدا أو من بعقيدة الفودو التي نتبعها .. و ربما نجد تفسيراً لهذه القضية عند أرواح الأجداد التي سبقتنا بالفعل !.. فإن كان من المستحيل على إنسان ارتكاب تلك الحادثة ، فلن يبقى من تفسير أماننا سوى فرضية الأرواح !

بونجاني بقلق ..

= مع كامل احترامي لدين الفودو الذي أتبعه بنفسى.. لكنني أظنّ أن من واجبنا المضي خلف العلم إلى النهاية قبل اللجوء إلى تفسيرات الروحانيات بهذا الخصوص فقد تعثرون على أي أدلة مخفية أخرى ..

ربت المحقق أدازي على كتفه ..

= بالطبع ، لن نوفر أي محاولة تحرّي لتفسير ما حدث .. فوجود آثار الاعتداء الداخلية على جسد والدك يجعل من القضية جريمة قتل ، لذا لن يغلق ملفها و سأعيد فحص مسرح الجريمة ثانية مع استجواب مفصّل لكافة العاملين في الفندق ..  
= و هل يمكنني استلام جثمان والدي ؟

نظر المحقق إلى الطبيب الذي أوما برأسه ..

= لقد انتهيت من جهتي من عملية التشريح و سيكون التقرير جاهزاً لديكم صباح الغد ..

= إذاً يمكنك استلامها سيد بونجاني .. تعازي الحارة مجدداً .. أحتاجك قليلاً في قسم الشرطة لاستكمال عملية الاستجواب ..

بونجاني و دماغه يتأرجح بآلم و حيرة بين خبر موت والده المفاجئ و قضية وفاته الغريبة و الغامضة ..

= بالطبع ..

= و سأخبرك بأي جديد يطرأ على القضية بعد مغادرتك .. إذ أعلم أن معرفة سبب وفاة والدك تهم عائلته من الناحية النفسية للغاية ..

\*\*\*\*\*

## بعد أسابيع من الحادثة ..

لم تُسفر تحريات المحقق أدازي، رغم كثافتها وطولها، عن شيء يمكن الإمساك به. كانت القضية تقاوم كل محاولة لتفسيرها، كأنها قد صُممت بعناية لتترك خلفها الأسئلة وتمحو الإجابات.

غرفة الفندق كانت موصدة من الداخل.

لا آثار لاختحام، ولا نافذة مكسورة، ولا قفل تعرض للعبث، ولا بصمات غريبة يمكن أن تقود إلى شخص مشتبّه به. لم يظهر بين نزلاء الفندق أو العاملين فيه أحد يملك سببًا مقنعًا لقتل السيد أسيموتي، ولم تستطع الشرطة العثور على دافع واحد يجعل الجريمة منطقية.

لكن الجثة كانت تقول شيئًا آخر تمامًا.

فقد أكد تقرير التشريح أن الرجل تعرض لاعتداء عنيف قبل موته.

وهنا بدأت المشكلة الحقيقية.

كيف يمكن لشخص أن يدخل غرفة مغلقة من الداخل، ويعتدي على رجل بعنف، ثم يخرج منها دون أن يترك خلفه أثرًا واحدًا؟

ظلت القضية باردة من الناحية الجنائية، لكنها سرعان ما أصبحت ملتهبة اجتماعيًا، ساخنة كالرمال في قلب الصحراء عند الظهيرة. وما إن تسرب الخبر بين سكان أويدا حتى لم يعد من الممكن إعادته إلى قمقم السرية؛ فالسر، كما يقول أهل البلاد، إذا تجاوز أذنين لم يعد سرًا.

بدأت الحكاية صغيرة، همسة في متجر، وتعليقًا في مقهى، ونظرة غامضة في الطريق، ثم راحت تكبر مع كل فيم يرويها. أضيفت إليها تفاصيل لم تحدث، وحُذفت منها تفاصيل حدثت فعلاً، حتى تحولت وفاة أسيموتي الغامضة إلى قصة يتناقلها الناس أكثر مما يتناقلون الأخبار.

ثم وصلت الحكاية إلى الرجل الذي كان الجميع ينتظر رأيه.

الكاهن لاموسا.

تحت ضغط الفضول الشعبي، وتكهّنات الناس، والأسئلة التي انهالت عليه من أتباعه، أدلى الكاهن بتفسيره الروحي للقضية. وكان تفسيرًا أخطر بكثير من أن

يكون مجرد رأي ديني.

قال إن السيد أسيموتي حمل في داخله روحًا شريرة طوال حياته، وإن أرواح أجداده لم تغفر له خطاياهم، فقررت معاقبته بنفسها.

بالضرب.

ثم بالموت.

أما الغرفة المغلقة من الداخل، والتي عجز المحققون عن تفسيرها، فلم تكن في نظره لغزًا على الإطلاق.

الأرواح، كما قال، لا تحتاج إلى أبواب.

إنها تعبر الجدران والأقفال، وتستطيع أن تؤذي الجسد دون أن تترك عليه أثرًا يفضحها.

ولم يكتفِ لاموسا بذلك.

أكد أن أرواح الأجداد هي التي أخبرته بالحقيقة خلال جلسة استحضار أقامها خصيصًا من أجل القضية.

ومنذ تلك اللحظة، لم تعد وفاة أسيموتي مجرد جريمة مجهولة الفاعل.

لقد أصبحت معجزةً شيطانية في نظر البعض.

وسرعان ما التقطت الصحافة ووسائل التواصل الاجتماعي تصريحات الكاهن، فتحوّلت كلماته إلى مقاطع مصورة تتناقلها الهواتف، وعناوين صحفية مثيرة، ونقاشات لا تنتهي. خلال أيام قليلة، أصبح اسم لاموسا مرتبطًا باسم أسيموتي في كل مكان، وأصبح تفسيره للقضية أكثر انتشارًا من نتائج التحقيق الرسمي نفسه.

ولم يكن صعود كلماته إلى هذا الحد مفاجئًا في مدينة مثل أويدا.

فلاموسا لم يكن كاهنًا عاديًا بالنسبة إلى أتباع الفودو في بنين؛ كانت تحيط بشخصيته هالة خاصة من الغموض والرغبة. كان يدعي منذ سنوات أنه قادر على التواصل مع أرواح الأجداد، وأنه يسمع أصواتها داخل رأسه، ويستطيع استدعاءها في طقوس خاصة.

والفودو، الذي ارتبط تاريخيًا بشعوب غرب إفريقيا، يقوم في جانب مهم من معتقداته على عالم روحي تتداخل فيه حياة الأحياء مع عالم الأسلاف. وحتى اسم

«فودو» يرتبط في بعض اللغات الإفريقية المحلية بمفهوم الروح أو القوة الروحية، فيما تتعدد التقاليد والممارسات بين المناطق والجماعات.

وبحسب التصورات الدينية الشائعة لدى بعض أتباع الفودو، لا ينتهي حضور الإنسان بموت جسده؛ فأرواح الأسلاف تظل جزءًا من العالم، ويمكن أن تساعد الأحياء أو تحذرهم أو تعاقبهم بحسب ما يرونه من أفعالهم. ومن هنا كان تفسير لاموسا لموت أسيموتي مفهومًا داخل منظومته الاعتقادية: رجل أخطأ في حياته، فأصدرت أرواح أسلافه حكمها عليه.

دائرة مغلقة تربط الأحياء بالموتى.

الأحياء يستعينون بالأموات، والأموات يراقبون الأحياء.

وفي قلب هذه الدائرة يقف رجال الدين، أو من يُنظر إليهم بوصفهم وسطاء بين العالمين، ويحمل بعضهم ألقابًا خاصة مثل «الأب» و«الأم»، ويؤدي طقوسًا يُعتقد من خلالها التواصل مع الأرواح، أو ما يعرف باسم «لوا» في بعض تقاليد الفودو. الغناء.

الرقص.

قرع الطبول.

طقوس تستدعي حالة من الانفعال الجماعي، ويؤمن ممارسوها بأنها تفتح الطريق أمام التواصل مع العالم الروحي.

وكان لاموسا يتقن هذه الطقوس إلى حد جعل الناس ينظرون إليه لا بوصفه رجل دين فحسب، بل بوصفه شخصًا يقف على العتبة الفاصلة بين عالمين.

ولهذا صدقوه.

أو ربما كانوا يريدون أن يصدقوه.

ومع مرور الأيام، تحول غموض قضية أسيموتي إلى خليط شديد الانفجار، امتزجت فيه قداسة الكاهن بالخوف من المجهول، ووجدت الشائعة أرضًا خصبة لا تحتاج إلى أكثر من شرارة.

انتشرت قصة «الروح الشريرة» التي كانت تسكن والد بونجاني، ثم عقاب أرواح الأجداد له، في شوارع أويدا وأسواقها ومقاهيها، قبل أن تتجاوز المدينة وتصل إلى العاصمة بورتو نوفو.



وفي زمن تستطيع فيه شائعة واحدة أن تقطع مئات الكيلومترات خلال دقائق، لم يعد اسم أسيموتي ملكًا لعائلته.

صار ملكًا للجميع.

بدأت النظرات تتغير.

والهمسات تزداد.

والأسئلة تصبح أكثر وقاحة.

في مدرسة بونجاني، أصبح زملاؤه يتعاملون معه كما لو أن عائلته تحمل سرًا مخيفًا. وفي المشفى الذي تعمل فيه كالوما، بدأت بعض الوجوه تتجنبها، بينما وجد آخرون في مأساة عائلتها مادة مثيرة للثرثرة.

وهكذا تحولت وفاة رجل واحد إلى عقوبة جماعية لعائلة بأكملها.

كانت سمعة أسيموتي تنزلق ببطء إلى مستنقع من الشائعات، وكل شائعة تلد أخرى، حتى أصبحت الأكاذيب تتكاثر كخيوط عنكبوت لا يُعرف أين تبدأ ولا أين تنتهي.

لكن عائلة أسيموتي لم تستسلم.

كانت كالوما أكثر أفراد الأسرة رفضًا لهذه الرواية.

جلست لساعات أمام حاسوبها، تبحث في كل ما يمكن العثور عليه عن الكاهن لاموسا. شاهدت تسجيلاته القديمة، مقابلاته التلفزيونية، خطابه الدينية، ومقاطع ظهوره في الطقوس المختلفة. كانت تعيد المقطع الواحد أكثر من مرة، لا لتفهم معتقداته فحسب، وإنما لتفهم الرجل الذي يقف خلفها.

كانت تريد أن تعرف:

لماذا قال ذلك؟

ولماذا والدها تحديدًا؟

ومع مرور الوقت، بدأت عين الطيبية النفسية ترى في سلوك لاموسا أشياء لم يرها الآخرون.

كان الرجل يتحدث عن البشر بطريقة ثنائية حادة؛ لا منطقة رمادية في عالمه. إنسان قديس أو إنسان شيطان، خير مطلق أو شر مطلق، ولا مكان تقريبًا للضعف البشري أو التعقيد أو التناقض.

ولاحظت أيضاً حاجته الشديدة إلى أن يكون محاطاً بالأتباع، وكأنه يخشى الوحدة أو لا يستطيع تحملها. ولاحظت اندفاعاته وتقلباته المزاجية الحادة، وانتقاله من الهياج والغضب إلى حالات من الهدوء المفرط أو الاكتئاب.

لكن ما أثار انتباهها أكثر كان حديثه المتكرر عن الأصوات التي يسمعها.

كان لاموسا لا يتحدث عنها باعتبارها أفكاراً أو حدساً، بل باعتبارها أصواتاً حقيقية تأتيه من الخارج، أصوات أجداده وأرواح الموتى التي تزعم عقيدته أنها تتحدث إليه.

حتى إيذاؤه لجسده كان يقدمه للناس باعتباره جزءاً من طقوس استحضار الأرواح؛ فقد شوهد أكثر من مرة وهو يغرس الأسياخ في جسده وسط الطقوس، وكأن الألم الجسدي عنده ليس عقاباً وإنما بوابة إلى عالم آخر.

بدأت كالوما تضع الاحتمالات واحداً تلو الآخر.

لم تكن تستطيع، بالطبع، تشخيص رجل لم تفحصه سريرياً، لكنها كوّنت انطباعاتاً أولياً عن اضطراب نفسي خطير محتمل، رأت أن بعض سماته قد تتوافق مع اضطراب الشخصية الحدية، خصوصاً مع شدة التقلبات الانفعالية، والنظرة الثنائية الحادة إلى الآخرين، والخوف المحتمل من الهجر والوحدة، والسلوكيات المؤذية للذات.

أما الأصوات التي يدعي سماعها، فكانت بالنسبة إليها مسألة أخرى تحتاج إلى تقييم سريري دقيق، ولا يمكن ببساطة اختزالها في معتقد ديني أو تشخيص واحد.

لكن كالوما كانت ترى شيئاً أكثر خطورة من المرض نفسه. كانت ترى رجلاً قد يكون مقتنعاً تماماً بما يقوله.

وهذه هي المشكلة.

فلو كان لاموسا يكذب، فثمة منطق يمكن مواجهته، أما إذا كان يؤمن حقاً بالأصوات التي يسمعها، فقد يكون قد بنى عليها تفسيراً كاملاً للعالم.

لكن كالوما لم تستطع أن تقول ذلك علناً.

فكلمات كهذه لم تكن ستُسمع بوصفها رأياً طبياً.

كانت ستُسمع بوصفها إهانة لعقيدة مقدسة.

وكانت تعرف جيداً أن مهاجمة معتقدات الإنسان ليست كإقناعه بخطأ معلومة

علمية؛ حين تضرب ما يقدسه، فأنت لا تناقش فكرة فحسب، بل تقترب من شيء يحرسه بالخوف والغضب والانتماء.

وكان هناك مثل إفريقي قديم يلخص المسألة بعبارة بسيطة:

( إذا أردت العبث بعش الدبابير، فعليك أن تجيد الركض. )

لكن كالوما وعائلتها لم يكن لديهم مكان يركضون إليه، وكانت أويدا قد بدأت تتحول بالنسبة إليهم إلى عش كامل من الدبابير.

ثم تذكرت كالوما شيئاً آخر.

الفتيات الخمس اللواتي سبق أن اتهمن لاموسا بالتحرش بهن. اثنتان منهن قتلنا لاحقاً في ظروف غامضة، أما الثلاث الأخريات فقد غادرن المدينة.

لم يكن في يد كالوما ما يكفي لربط هذه الوقائع بعضها ببعض، لكنها كانت تعرف أن مجرد التفكير فيها يجعل قصة لاموسا أكثر قتامة مما تبدو عليه.

لذلك احتفظت برأيها لنفسها، ولم تقل شيئاً.

وبينما كانت الأسرة تحاول النجاة من الطوفان الاجتماعي الذي اجتاح حياتها، اتخذت قراراً أخيراً.

إذا عجزت الشرطة عن تفسير القضية، وإذا كان تفسير لاموسا قد أشعل المدينة، فلا بد من البحث عن طريق ثالث.

استعانت العائلة بمحقق خاص شهير من العاصمة، رجل ذاع صيته في القضايا المعقدة التي فشلت الشرطة في حلها.

كان آخر أمل لهم.

عاد المحقق إلى كل شيء من البداية؛ غرفة الفندق، سجل النزلاء، العاملون، كاميرات المراقبة، الاتصالات، تحركات أسيموتي، علاقاته التجارية والشخصية، وتفاصيل الساعات الأخيرة من حياته.

فتش في كل زاوية.

عاد إلى كل أثر.

وأعاد طرح كل سؤال.

لكن النتيجة كانت محبطة.

لم يجد شيئاً. لا قاتل، لا دافع، لا طريقة دخول ولا تفسيراً منطقياً لكيفية وقوع الاعتداء داخل غرفة موصدة من الداخل.

وفي النهاية بقيت القضية كما بدأت:

جثة تحمل آثار عنف شديد، وغرفة مغلقة من الداخل، وأسئلة تتكاثر كلما حاول أحد الإجابة عنها.

أما الحقيقة، فكانت لا تزال في مكان ما خلف ذلك الباب المغلق... تنتظر من يملك الشجاعة الكافية لفتحها.

وهكذا عقدت العائلة اجتماعاً للوقوف على نتائج مقتل رب الأسرة و تفسير الكاهن الشاذ له ، كذلك العواقب الاجتماعية التي طالتهم بسببه .. فأمسكت كالوما بيدي أمها الفيتنامية ..

= اعذريني أُمي .. لقد علمني أبي الشجاعة في قول الحق .. و الكاهن لاموسا مريض و كاذب بلا شك .. لكنّ قول ذلك الآن سيجب على عائلتنا إلى الأبد .. أعدك على كل حال بأنه عندما تحين اللحظة المناسبة سأضع حداً لذلك الكاهن المريض و افتراءاته المجنونة على سمعة أبي و روحه النقية كثلوج جبال كليمنجارو ..



ضغطت السيدة كاي المقعدة على إثر سكتة دماغية أصابتها منذ سنوات على يد ابنتها الطيبة و قالت بهدوء و خشوع ..

= لا تقلقي يا ابنتي .. تذكرني ما علمته لك من وصايا بوذا الحكيم الذي أتبعه .. إن الكارما تحكم الأرض و هي أعدل قاضٍ عليها .. فكلّ مسيء سترتد إساءته إليه ذات يوم .. كما كل محسن سيوفى أجوره حتى آخر ذرة منها .. و كل ما نمر به من مصاعب لا يتجاوز كونه حبة رمل على شاطئ معاناة أجدادي في فيتنام خلال حربهم الطويلة ، قبل أن يعلنوا قيامتهم من آلامهم بعدها ليصبحوا من أفضل دول العالم .. سنتجاوز هذه الأزمة بكل تأكيد .. أنا حزينة لفراق والدك بشكل مؤكد فقد قسم ظهري المقصوم مسبقاً بالمرض ، لكنني لا أكثرث البتة بما يقال عنه أو عنا .. فكلمة السماء ستسود ذات يوم و تنصفنا جميعاً .. تابعي حياتك بشكل عاديّ متجاهلةً كلام الآخرين ..

التفتت إلى ابنها و ابتسمت ..

= و هذا الكلام موجه إليك أيضاً يا بونجاني ..

= كما تأمرين أمي .. في الحقيقة ، لقد اتخذت بعد كل ما حدث على خلفية هذه القضية و ما انبثق عنها من كوارث لحقت بعائلتنا قراراً نهائياً و حاسماً ، سأترك إدارة شركة والدي لعمي **كانو** ، أما أنا فسأسلك بعد انتهاء السنة الدراسية الأخيرة درب التحقيق الجنائي أملاً مني في التوصل إلى حل منطقي للقضية بنفسي يعيد سمعة والدي المظلوم الذي قضى حياته إنساناً خلوفاً متديناً لم يؤذ أو يستغل أي أحد كرجل أعمال شريف .. و سمعة العائلة ككل أيضاً .. فتفسيرات الكاهن لاموسا .. و إن كان لها ما يبررها على أرض الواقع بغياب الأدلة و التبريرات المنطقية ، هي خاطئة و مشينة بلا ريب بمعرفتنا الدقيقة لسنوات بشخص والدي المظلوم ..

أحاطته كالوما بذراعها وضمته إليها ..

= و أنا إلى صفك يا أخي .. قرار جريء سأدعمه بكل الوسائل ..

يقال في التراث الإفريقي :

**(( حتى يتعلم الأسد الكتابة ستبقى جميع القصص تمجدّ الصياد ))**

فالقوي يفرض منطقه .. و سيبقى عامة الناس تمجّد رواية الكاهن لاموسا ( الصياد في القضية ) عن كيفية وفاة السيد أسيموتي حتى يتعلم بونجاني

( الأسد فيها ) علم التحقيق ليبحث بنفسه عن الحقيقة المغيبة في قضية غامضة ،  
ربما لا شبيه لها في العالم بأسره ، الاعتداء العنيف على إنسان في غرفة موصدة  
بالكامل و بدون أي أثر لذلك على جسده !!

\*\*\*\*\*

**بنين / بورتو نوفو ..**

**بعد سبع سنوات .. 2083 ..**

**في أحد المقاهي ..**

رشف بلال رشفة من فنجان قهوته باستمتاع و هو منهمك بشغفٍ أمام حاسوبه في  
إعداد مونتاج حلقاته الجديدة لقناته على موقع التواصل الاجتماعي.. تلك القناة التي  
تحمل اسم : ( هوليوود دقيقة بدقيقة ) التي تعنى بأخبار الفن و الفنانين في العالم  
بشكل عام و في الولايات المتحدة الأمريكية عرّابة التمثيل على نحوٍ خاص ..  
أيقظه من انغماسه صوت الرنين الحالم للقضبان المتدلية فوق الباب الزجاجي  
للمقهى فرفع رأسه ليجد صديقه المحقق بونجاني يتجه إليه مبتسماً ، فوقف ليحييه.

= حلقة جديدة كالعادة ؟!

= و ساخنة للغاية لا يمكنها الانتظار .. فضيحة أخرى في هوليوود ..

= فضائح قومٍ عند قومٍ مالٍ و متابعون جدد .. لقد بتّ مدمناً على قناتك ، لدرجة  
يخيل إليّ أن حاسوبك يصحبك إلى الحمام !

أطلق بلال ضحكة قوية ..

= إنه مصدر رزقي و يتطلب مني أن أواكب الأخبار أولاً بأول .. فأنا لا زلت  
صغيراً بالعمر لم أتجاوز الخامسة و العشرين ، و ثمة غيري بخبرة أكبر يزاحمني  
في المجال .. و إن توانيت للحظة عن تقديم أي جديد تركني المشاهدون و تعلقوا  
بغيري !!

أوماً بونجاني برأسه متفهماً .. في حين أردف بلال ..

= دعك مني الآن و أخبرني عنك .. هل تمت الموافقة على طلبك بإعادة فتح ملف قضية والدك المرحوم أسيموتي ؟ لقد كان صوتك على الهاتف متحمساً ، مما يوحي بوجود أخبار سارة !

= إنك لا تنفك تذهلني بقدرتك على قراءة نبرة الصوت و لغة الجسد .. بالفعل حصلت على الموافقة أخيراً ، و لم يكن ذلك بالأمر السهل كما تعلم ، فمديري المحقق فوسا يشكك كثيراً في جدوى التحري من جديد ، لأنّ القضية برأيه وصلت إلى حائطٍ مسدود بلا أي ثقب و لو صغير فيه، لاسيما بعد فشل زميله المحقق أدازي في قسم شرطة أويدا شخصياً ثم فشل المحقق الخاص الذي عينته عائلتي في الوصول إلى أي دليل .. لذا يعتبره جهداً و وقتاً ضائعين و غير مثمرين ، كما أنه ينظر إليه كنوع من التشكيك في قدرات زميله و مهنيته .. لكنه وافق على مضض في النهاية من باب إنساني و عاطفي بحت .. فهو يعلم مدى التشويه الذي لحق بعائلتي على خلفية قضية مقتل والدي الغامضة و الأولى من نوعها في تاريخ البلاد و أهمية التحقيق بنفسه فيها كنوع من السلام النفسي الداخلي لي و لعائلتي .. فقد انقلب المجتمع بكليته علينا كما تعلم ..

= بكليته ؟! أين ذهبت أنا و أندراوس يا صديقي ؟

ابتسم بونجاني ..

= أنتما جوهرتان نفستان على شاطئ من الحصى .. معدنكما ذهب لا يصدأ و لا يتغير مع رياح الحياة العاتية التي تختبرنا ليسقط أغلبنا في مواجهتها .. ميراثي الأهم من ماضٍ رديء ، يمنحني الأمل و القوة كي أتابع الحياة بإصرار ..

ابتسم بلال و هو منهمك في وضع اللمسات الأخيرة على الفيديو قبل رفعه على القناة ..

= ياه كل هذا .. يا لها من خطبة عصماء .. لا داع لكل هذا الإطراء صديقي .. فأنت إنسان نبيل في جوهره و لا تتوقع منا العكس في التعامل معك ، في الحقيقة اختلاف عقائدنا هو من وضعنا في صفك بحكم ديني الإسلامي و دين أندراوس المسيحي ، فأتباع ديانتك العظيمة الفودو هم من وقفوا في وجهكم بافتراءات المدعو لاموسا عليكم ، لكنّ ذلك سيتغير قريباً و بيدك ليعيد أتباع تلك الديانة إلى التفكير

الصحيح فأنا موقن من ذلك .. من جهة أخرى فضلك سابق علينا في مواقف كثيرة ، يكفي أنك كنت المحفز الأكبر لي و لأندراوس كي نباشر عملنا الحالي كيوتيوبر و أستاذ عندما أعلننا الاستسلام و فقدنا الأمل ، فقد استلهمنا من عزيمتك و إصرارك ما دفعنا للمغامرة و تجربة فرص جديدة..



وضع يده على كتف بونجاني وقال بجدية ..

= إنَّ عامة الناس تتبع سياسة القطيع خلف كهنة الدين ، فهذا يمنحها شعوراً بالانتماء ، الأمان و الاطمئنان .. فلا تلمها على فعل ذلك و قم بتركيز جهك و تفكيرك على قضيتك الجديدة فحسب حتى تغير وجهات نظرهم بنفسك ..

عاد إلى عمله على الحاسوب في حين أخذ بونجاني يتفحص الوجوه من حوله مفكراً بكلام صديقه الذي تابع كلامه دون أن ينظر إليه ..

= و متى ستبدأ التحري بالقضية ؟

= غداً صباحاً سأتوجه إلى أويدا لأعابن غرفة الفندق الذي قضى أبي نحبه فيها ، ثم أستجوب بعض العاملين الذين شهدوا على القضية إن وجدوا ..



= بالتوفيق .. تذكر أنّ جيشاً كاملاً من ملايين المتابعين على قناتي بانتظار نتائجك ، كي نصنع ثورة على القطيع و قائده لاموسا متى تكشف الحقيقة لك ، إنني على ثقة عمياء بوصولك إلى هدفك ، فبراعتك في التحقيق مذهلة على نحو غريب .. لقد خصك الله بموهبة فريدة في هذا المجال عبر محاكمتك و مقاربتك الاستثنائية للأمور التي ضاعفتها دراساتك المكثفة و مواكبتك لكل جديد في مهنتك ..

= سيد الكلمات اللطيفة كعادتك .. أشكرك على ثقّتك هذه ، فهي تمنحني العزيمة و الحماس كي أبدأ بقوة .. أين هو أندراوس بالمناسبة ؟

= لديه درس خاص في منزل أحد التلاميذ سينهيه و يوافقنا هنا .. على ذكر أندراوس .. تبين لي من خلال كلامي معه أمس أنه يمر بضائقة مادية خانقة عقب اشتداد مرض زوج أمه و دخوله المشفى ، فأنت تعلم عناد أندراوس فيما يتعلق بموضوع المال و رغم أنه بات، بعد وفاة والدته و مرض زوجها، المعيل الوحيد له و لأخوته الأربعة الأصغر منه، فهو يرفض أغلب العروض لكسب المال بحجة أنه لا يريد كسبه إلا من خلال الثقافة و تطوير المجتمع لذا فهو ملتصق بدروسه الخاصة في الفيزياء و الرياضيات كتوأم سيامي ، رغم أن مردودها المالي بالكاد يكفي لسد رمق العائلة .. إنها مسؤولية تقصم الظهر على شاب بعمر الثالثة و الثلاثين .. إنّ شاباً مثله بملامحه الأجنبية في مجتمع إفريقي تفتح له عشرات الأبواب للعمل و الثراء ، لكنه مترمت بشدة !

= إن عقليته خاصة و طبعه صعب للغاية ، ربما كان ذلك بسبب شعوره بأنه دخيلٌ على عائلته .. فبعد وفاة والدته بقي مع زوج أمه و أخوته منها .. لكنني أثنى عالياً تحمله لمسؤوليات ربما يرى كثيرون أنها ليست من واجبه في تأمين دخل مادي لرجل ليس بوالده و أخوة ليسوا بأخوته تماماً بل لا يشبهونه بالشكل على الإطلاق .. لذا بعد وفاة أمه لم يعد هنالك أي رابط أو واجب يجمعه بهم .. لكنه رفض فكرة الاستقلال بنفسه و إدارة ظهره لهم و هم بأمس الحاجة لمعيل، بل قدر عالياً ذكريات السنين الطوال معهم و تشارك لقمة الخبز سوياً فلم يبصق في الصحن الذي أكل منه طوال عمره ..

= تماماً شاب نبيل للغاية .. لذا أريد مشورتك حول الطريقة المثلى لمنحه بعض المال .. لقد منّ الله عليّ بكثير منه من خلال قناتي الشهيرة .. و من واجبي البديهي أن أساعده بصفتي صديقه المقرب .. لكنه بالأمس عاتبني بشدة على طريقة كسبي للمال و قال أنها ناجمة عن المتاجرة بأمور سطحية و ترهات لفضائح المشاهير و القيل و القال ، و أنني بهذه الطريقة أرسخ لفكرة تسطيح عقول الشباب الصاعد ..

= و بماذا أجبتة ؟

= كنت أود الرد عليه بأن الفن جعلني ثرياً لا أحتاج أحداً .. أما الثقافة و العلم و المنطق فكلانا يعلم إلى أين وصلت به ، فهي في زمننا لا تطعم الخبز أبداً ؟! لكنني التزمت الصمت حفاظاً على صداقتنا و فرق العمر بيننا ..

= اختلاف طبيعي في وجهات النظر بين الأصدقاء .. و بماذا تريد مشورتني ؟

= بسبب نظراته المسبقة إلى طبيعة عملي و موقفه الحازم منها، أكاد أجزم بأنه لن يقبل المال مني على الإطلاق لا سيما أنه يكبرني بثمانى سنوات مما سيسبب إحراجاً كبيراً له .. فماذا عساني فاعلٌ كي أقنعه بقبول بعض المال ليساعده في محنته الراهنة ؟!

= يمكنك إقراض المال له على أن يعيده في أي وقت يشاء .. فبذلك تسحب صفة الصدقة عنه و تداري مشاعره .. و لا تقلق ، سأدخل من جهتي في الحديث بطريقتي الخاصة كي تمر الأمور بسلاسة ..

انتهى بلال من الرتوش الأخيرة لعملية المونتاج فضغط زر رفع الفيديو ثم التفت إلى بونجاني ..

= أظن أن ذلك أفضل أسلوب .. قهوة أم مشروب ؟

= قهوة .. لقد سهرت بالأمس لساعة متأخرة و لم أنم بعد الظهر .. لذا أشعر بنعاسٍ شديد .. و بعض الكافيين سيحل المشكلة على ما أعتقد ..

\*\*\*\*\*

مع الأنفاس الأولى لصبيحة اليوم التالي، شقّ بونجاني طريقه نحو أويدا بعزيمةٍ كان يمكن لها أن تذيب الفولاذ. لم يكن الرجل الذي غادر المدينة بالأمس هو نفسه الذي عاد إليها اليوم؛ فقد ترك خلفه ذلك الشاب المكسور الذي كاد الحزن أن يشلّه، وحمل معه شيئاً آخر أكثر صلابة، شيئاً ولد من قلب المأساة نفسها.

لقد أمضى سبع سنوات من عمره في دراسة العلوم الجنائية وأساليب التحقيق، سنوات طويلة قضاها بين الكتب والمختبرات وملفات الجرائم، وكان يتمنى دائماً أن المعرفة التي يجمعها ستأتي يوماً وتضع أمامه قضية حقيقية يختبر فيها قدرته. لكن قسوة القدر فرضت عليه أن تكون أولى قضاياها هي قضية مقتل والده، وأن أول جثة سيبحث عن قاتلها ستكون جثة الرجل الذي علّمه كيف يقف في الحياة.

لكنه لم يعد يبحث عن قاتل فقط.

كان يريد الحقيقة.

يريد أن يعرف كيف مات والده، ولماذا مات، ومن المسؤول عن موته، وأن يستعيد اسم أسيموتي من الوحل الذي قذفته فيه شائعات أويدا. كان يريد أن يثبت للجميع أن والده لم يكن رجلاً شريراً عاقبته أرواح الأجداد، ولا حاملاً لروح مظلمة كما زعم الكاهن لاموسا، بل إنساناً قُتل في ظروف غامضة، وإن وراء موته سرّاً لا بد أن يُكشف.

كان هذه المرة يحمل في رأسه سبع سنوات من الدراسة، وفي صدره وجع ابن فقد أباه.

وقد يكون اجتماع الاثنين أخطر سلاح يمكن أن يحمله محقق.

خلال الطريق، عادت إليه ذكريات زيارته السابقة إلى المدينة، لكنها لم تأت كصور عابرة، بل كقطع من فيلم قديم لم يتوقف عن عرضه في رأسه. تذكر المشرحة، والبهو المعتم، والضوء الشاحب الذي كان يرتعش فوق الجدران، وتذكر ذلك الحوار الغريب الذي دار أمام الباب الزجاجي قبل أن يستلم جثمان والده. ثم عادت إليه الرائحة.

رائحة الفورمول.

غريبة، نفاذة، ثقيلة، وكأنها علقت في مكان ما داخل أنفه ولم تغادره منذ ذلك اليوم. أغمض عينيه للحظة وهو يقود، فعاد إليه القبو بكل تفاصيله؛ ذلك الظلام، ذلك الباب الزجاجي، الوجوه الصامتة، والجسد الذي كان ينتظر خلفه.

فتح عينيه سريعاً.

لم يكن يريد للذاكرة أن تقوده.

هذه المرة هو من سيقودها.

انقضت الساعات الثلاث التالية تحت سماء ثقيلة، فيما كانت أفكاره تتأرجح بين الحزن والترقب، وبين الأسئلة التي لم يجد لها جواباً حتى الآن. وكلما اقترب من أويدا، شعر بأن المسافة بينه وبين الحقيقة تضيق، وأن المدينة التي ابتلعت والده تخفي في مكان ما سرّاً ينتظر من ينتزعه منها.

وأخيرًا ظهرت أويدا أمامه.

كانت المدينة تستقبل الصباح بهدوءٍ لا يليق بكل ما حدث فيها.

توقف بونجاني للحظات عند مشارفها، ثم تابع سيره حتى استدل إلى فندق «الحياة»، المكان الذي شهد الساعات الأخيرة من حياة والده.

أوقف سيارته بالقرب من الفندق، وظل للحظة جالسًا خلف المقود.

رفع عينيه إلى واجهته.

هنا كان أبي.

هنا قضى آخر ليلة في حياته.

وهنا، بطريقة ما، بدأت النهاية.

ترجل من السيارة، وأغلق الباب خلفه، ثم اتجه نحو المدخل بخطوات ثابتة.

دفع الباب بهدوء وثقة ودخل.

كان البهو ساكنًا على نحو غريب. أخذ يمسح المكان بعينه كما لو كان جهاز سونار بشريًا؛ يبحث عن تفاصيل قد تبدو عادية لأي شخص آخر، لكنها قد تعني الكثير لمحقق يعرف أن الحقيقة غالبًا لا تختبئ في الأشياء الكبيرة، وإنما في التفاصيل التي يمر الناس بجانبها دون أن يلاحظوها.

وفي صدر البهو، خلف منصة الاستقبال، كان يقف رجل كهل، تجاوز الخمسين بسنوات، بوجه هادئ وابتسامة صغيرة تستقر على شفثيه.

توقفت عينا بونجاني عنده.

رفع الرجل رأسه نحوه.

وتلاقت عيناها للمرة الأولى.

ثم اتجه بونجاني إليه.

= أهلاً بك في فندقنا سيدي .. غرفة أم تسأل عن نزيل ؟

= لا هذا و لا ذاك ..

أخرج من جيبه قرار إعادة التحقيق و قدمه للموظف .. فوضع نظاراته على عينيه و قرأه بتمعن ..

= قضية الغرفة 26 و الروح الشريرة مجدداً هل استيقظ الماضي من جديد !!؟

رمقه بونجاني بنظرة انزعاج ثم قال بثقة و ثبات ..

= بل عاد الميت إلى الحياة ثانيةً لينتقم لنفسه و سمعته سيد ..

= أو غبو .. يمكنك مناداتي أو غبو .. أهلاً بك حضرة المحقق .. الفندق تحت أمرك .. من حسن حظك أن الغرفة المقصودة شاغرة ، في الحقيقة هي شاغرة أغلب الأوقات فلا أحد يرغب أو يجرؤ على النزول فيها بعد تلك الحادثة الشهيرة ..

= هذا جيد .. أريد فحصها إذاً ..

= على الفور ..

صاح بصوت أجش ..

= أومونوا تعال في الحال ..

مرت لحظات ثم ظهر شاب في مقتبل العمر أصلع الرأس و أجرد اللحية مع بثور متعددة على وجهه أحواله إلى خريطة مشوهة ..

= قد حضرة المحقق إلى الغرفة 26 و افتحها له ..

= أمرك ..

اتجه أومونوا نحو السلالم ثم صعدوها و من خلفه بونجاني ..

= منذ متى و أنت تعمل هنا أومونوا .. ؟

= ثماني سنوات سيدي ..

= إذاً فقد كنت متواجداً ليلة مقتل السيد أوسيموتي في الغرفة 26 منذ سبع سنوات ؟

ارتاع الشاب عند سماعه بالاسم على نحوٍ لم يخف عن عين بونجاني الخبيرة ..

= أجل ..

= و تذكر تلك الليلة جيداً ..؟

= بالطبع ، فقد كانت ليلة رأس السنة و أحداثها راسخة في مخيلتي ..

= و هل تواصلت مع السيد أوسموتي ليلتها ؟

= بلى .. لقد استدعاني قرابة منتصف الليل بسبب حدوث ماس كهربائي في غرفته و انقطاع التيار الكهربائي عنها، لذا أعدت رفع القواطع مجدداً فشكرني بمنتهى اللطف .. الحق أخبرك سيدي بأني لا أصدق رواية الناس عن ذلك السيد فطباعه أبعد ما تكون عن الروح الشريرة .. لقد منحني إكرامية كبيرة بعد أن نقلت له حقائبه إلى الغرفة صباحاً كما تمنى لي عاماً سعيداً في نهاية اليوم ..

ابتسم بونجاني لكلماته اللطيفة ..

= هو كذلك بالفعل .. و أي ساعة بالضبط التقيت به ؟

= في حدود الحادية عشرة و النصف ليلاً ..

وصلا إلى الغرفة المقصودة في الطابق الثاني ففتحها له أومونوا و بقي منتصباً أمامها متردداً من دخولها ..

= لماذا تسمرت في مكانك .. ما من شيء مخيف في الداخل !

= أرواح الأجداد سيدي .. !

= أرواح الأجداد لها ما يشغلها أكثر من مجرد غرفة صغيرة في فندق متواضع .. فالكون على رحابته مسرح لها .. آمن بإحساسك تجاه السيد أوسموتي الطيب و اتبعني ..

دخل الغرفة فكانت مغلقة الستائر و مظلمة .. بحث عن مكبس النور حتى عثر عليه و ضغطه فأضيء المكان ..

= هل رأيت جسد الضحية في الصباح التالي أومونوا ؟

= بالطبع .. و كانت ممددة على هذا الفراش بلا حراك بوضعية توحى بمشاهدة التلفاز الذي كان يعرض بعض الأخبار المحلية .. أتذكر ذلك و كأنه بالأمس ..

أخذ بونجاني يتفحص الفراش بدقة و حافية رغم السنين الطوال التي انقضت و

عيناه تغصان بدموع يقاوم نزولها .. ثم انتقل إلى أرضية الغرفة فرفع السجادة و بحث تحتها .. دون أن يلفت انتباهه أي شيء غريب أيضاً .. أخيراً توجه إلى جدران الغرفة و شرع بتمعنّها و تحسسها شبراً شبراً ..



= و هل لفت انتباهك أي شيء غريب في تلك الليلة ؟

= من أي قبيل ؟

= شجار .. صراخ .. طلق ناري ؟

= لا شجار أو صراخ .. لكن ..

= لكن ماذا ؟

= في الحقيقة خيل إليّ قرابة منتصف الليل أنني سمعت بالفعل أصوات أعيرة نارية صادرة من الطوابق العلوية .. لكنني لم أعرها أي انتباه ساعتها ، إذ كانت السماء تغلي حرفياً بالألعاب النارية و الرصاص مع حلول العام الجديد فظننت نفسي متوهماً..

التفت إليه فونجاني باهتمام ..

= و أين كنت في تلك اللحظة ..؟

= أمام الفندق صحبة السيد أوغبو نتأمل مظهر السماء المذهلة بتفجر الألعاب النارية ..

= أي ملاحظة أخرى ؟

= لا شيء سيدي .. غريب !! أنت أول شخص يتطرق إلى هذه النقاط .. لقد اكتفى المحققان السابقان بفحص الغرفة و استجواب النزلاء في الغرف المجاورة لا أكثر ..!

كان بونجاني قد وصل إلى الجدار المقابل للسريير و الفاصل بين الغرفة 26 و الغرفة 25 .. تفحصه بعناية فخليل له وجود ما يشبه الثقب الصغير تحت شاشة التلفاز المعلقة يكاد لا يرى فتحسسه أكثر .. بالفعل هنالك ثمة ثقب مغلق بمادة هشة القوام ذات لون محاكي للون ورق الجدران .. أخرج قلماً من جيب سترته و أدخله في الثقب فمر بسهولة حتى خرج من الجهة الأخرى للجدار الخشبي الرقيق .. أخرج القلم و قربه من أنفه ثم شم رائحة المادة التي تملأه .. معجون أسنان !! ما الذي يعنيه ذلك ؟

= أومونوا ..

= نعم سيدي ..

= هل تعرف هوية النزلاء في الغرفة المجاورة رقم 25 في تلك الليلة ؟

= أعرف أحدهم سيدي ..

= أكثر من شخص ؟

= أجل .. أربعة أصدقاء شبان .. ثلاثة غرباء عن أويدا .. أما الرابع فهو مساعد في قسم الشرطة هنا و يدعى أوزيجبي و الجميع يعرفه .. أتذكر جيداً أن نزيل الغرفة 24 استدعاني الساعة الواحدة بعد منتصف الليل متذمراً من الضجة التي يصدرونها بالغناء و قرع الطبول و الرقص .. فقد كان الأربعة في حالة سكر تام ابتهاجاً بقدوم العام الجديد .. لذا استدعيت السيد أوغبو الذي طلب منهم الهدوء لأن هنالك نزلاء يريدون النوم .. فانصاعوا لطلبه على مضض ..

نظر إليه بونجاني بصمت لدقائق و دماغه يعمل بسرعة البرق ثم ابتسم له ..

= يكفيني البحث حتى اللحظة يا صديقي .. يمكنك إغلاق الغرفة و الانصراف ..



= في خدمتك بأي وقت .. إنك تذكرني قليلاً بملاح السيد أسيموتي و بطريق كلامه اللبقة .. هل أنت قريب له ؟

= صديق قديم مهتم بقضيته .. إلى اللقاء أومونوا ..

= إلى اللقاء سيدي ..

تركه يغلق الغرفة و اتخذ طريقه نحو السلام حتى بلغ منصة الاستقبال مجدداً فألقى تحية الوداع على الموظف أو غبو ..

= هل عثرت على أي شيء جديد حضرة المحقق ؟

= سنرى .. أشكرك على تفهمك و تعاونك سيد أو غبو .. ألقاك قريباً ..

= تحت أمرك سيدي ..

غادر بونجاني الفندق مسرعاً، وكأن الجدران التي احتجزت سر والده طوال تلك السنوات قد قذفته أخيراً إلى الخارج محملاً بشيء أثمن من أي اعتراف. اتجه إلى سيارته، فتح الباب، ثم ارتمى خلف المقود وأغلقه بعنف، قبل أن يطلق من صدره زفرة عميقة بدت كأنها تحمل معها سبع سنوات كاملة من الانتظار.

لقد وجدها.

أخيراً وجد الحلقة التي ظل يبحث عنها طوال تلك السنوات.

دليلاً يمكن أن يفسر كيف مات والده في تلك الليلة المشؤومة، بعد دقائق قليلة فقط من مكالمتهما الأخيرة عند منتصف الليل، حين اتصل به ليهنئه بالعام الجديد ويتمنى له عامًا سعيدًا... عامًا لم يمهله القدر حتى يراه.

لكن الدليل وحده لم يكن كافيًا.

كان هناك تفصيل صغير آخر، تفصيل يعرف بونجاني أنه موجود في مكان ما داخل تقرير الطبيب الشرعي أموروي، القابع ضمن ملف القضية، وقد يكون قادرًا على تحويل شكوكه من مجرد نظرية إلى حقيقة يمكن الدفاع عنها.

مد يده إلى حقيبته الجلدية البنية، تلك التي رافقته منذ أيام الدراسة، والتي أصبحت اليوم تحمل شيئاً أثقل من الكتب والأوراق؛ تحمل جزءاً من ماضيه، وربما مفتاح

مستقبل عائلته.

أخرج نسخة مصورة من ملف القضية، ووضعها على المقعد المجاور.

بدأ يقلب الصفحات واحدة تلو الأخرى.

كان يعرف الملف عن ظهر قلب تقريبًا، لكنه قرأه من جديد بعين مختلفة؛ عين الرجل الذي عثر للتو على خيط لم يكن يراه في المرات السابقة. تنقلت أصابعه بين الأوراق، حتى توقف عند تقرير الطبيب الشرعي الخاص بتشريح جثة والده. فتحه.

قرأ السطور ببطء.

ثم أعاد قراءة بعضها.

كان يبحث عن جملة واحدة بعينها.

وحين وصل إليها، توقفت عيناه.

كانت الجملة نفسها التي ظل يفكر فيها طوال الأيام الماضية، وقد كان قد وضع حولها خطأ أحمر في نسخته، ورسم إلى جوارها علامة استفهام كبيرة. ظل صامتًا للحظات.

ثم ظهرت على وجهه ابتسامة بطيئة، واثقة، لا تشبه ابتسامة الفرح بقدر ما تشبه ابتسامة رجل رأى أخيرًا بابًا في جدار ظل مغلقًا أمامه سنوات.

قال بصوت خافت، وكأنه يخاطب الرجل الجالس في مكان ما خلف الموت:

= لقد آن الأوان كي تسترد حقك وسمعتك الطيبة، يا أبي الحبيب.

سكت قليلًا، ثم أضاف:

= وسترتاح روحك الطيبة أخيرًا في ملكوتها.

طوى التقرير بعناية، وأعادته إلى الملف، ثم وضع الأوراق داخل الحقيبة وأغلقها.

لم يعد في صدره ذلك الثقل الذي جاء به إلى أويدا.

حلّ مكانه شيء آخر.

العزيمة.

أدار المحرك، فانطلقت السيارة على الطريق، وارتفع هديرها فوق الإسفلت وهي تشق طريق العودة إلى العاصمة بورتو نوفو. كان يقود بحماسٍ لم يشعر بمثله منذ زمن طويل، وكأن العثور على ذلك التفصيل الصغير أعاد إليه شيئاً من نفسه التي فقدتها يوم مات والده.

لكنه كان يعرف أن المهمة لم تنتهِ بعد.

كان أمامه شيء واحد فقط.

مهمة أخيرة قبل أن تصبح الحقيقة قابلة للإثبات، وقبل أن يستطيع أن يرفع رأسه أمام الناس ويقول لهم إنهم ظلموا رجلاً ميتاً وعائلته معه.

كان عليه أن يلتقي والده مرة أخرى.

للمرة الأخيرة في حياته.

لكن هذه المرة...

لن يكون اللقاء بين أبٍ وابنه.

بل بين محققٍ وجثةٍ تحمل في جسدها آخر أسرار رجلٍ مات دون أن يخبر أحداً بحقيقة ما حدث له.

کفن توریو

روسيا / موسكو ..

قصر سيرغي في ضواحي العاصمة ..

آب .. عام 2050 ..

الساعة 5 صباحاً ..

ملأ سيرغي كأس الفودكا بهدوء ، ثم حملة و اتجه نحو الشاشة العملاقة في مكتبه حتى توقف أمام المنشور الظاهر عليها من موقع لافيتا الإعلاني حيث كتب بالخط العريض :

(( كفن يسوع المخلص يسرق ليلاً من معبد الكفن المقدس في مدينة تورينو الإيطالية من قبل مجهولين .. لم يعثر مكانه سوى على شظايا الصندوق الزجاجي المضاد للرصاص الذي كان يحتويه على الأرضية .. من يجرؤ على هذا الانتهاك الخطير ؟ ))

رفع الكأس كمن يحمل نخباً أمام الشاشة و همس بلهجة ساخرة :

(( سأعيدك عرياناً بلا كفن .. هكذا تليق بك طعنتي أكثر .. فماذا أنت بفاعل ؟ ))

في تلك اللحظة طرق باب مكتبه بطريقة يألفها تزفّ له الأخبار السارة ..  
= ادخل ..

فتح الباب و ظهر مساعده أناتولي و من خلفه مرافقين يحملان صندوقاً من خشب الأبنوس مطعماً بالعاج .. فشق طريقه يتبعاه إلى منتصف الغرفة ..

= ضعاه هنا على الطاولة ..

انصاع المرافقين للأمر ثم انسحبا بهدوء و صمت و أغلقا الباب خلفهما .. في حين التفت إليه سيرغي مع ابتسامة رضا ..

= لقد منحت نفسك ثروة ضخمة بنجاحك اليوم .. هل من دليل خلفك .. ؟

= على الإطلاق .. شطايا زجاجية لا قيمة لها .. لقد تكفلت بضعة قنابل من الغاز المخدر في تنويم مجموعة الحرس لبضعة ساعات .. المكان غير محصّن بشكل جيد و تمكنت من اكتشاف أكثر من ثغرة لاختراقه انتقيت أنسبها بنفسي ..

= عظيم .. أنت لست ذراعي الأيمن و الأيسر عن عبث ..



تقدم سيرغي من الصندوق و فتحه بهدوء ليجد قطعة قمائش مطوية عدة مرات في قعره فحملها بين يديه بنشوة ثم فردها على سطح مكتبه لتظهر معالم المسيح عليها و كأنها احتضنته منذ قليل فحسب .. اقترب من أثر وجهه عليها و همس مجدداً ..

= لم أو من يوماً بقصة قيامتك الخيالية .. لكنني متأكد أنك ستقوم قريباً ، لكن هذه المرة على الهيئة التي أقررها أنا بنفسي ..

التفت إلى مساعده أناتولي ..

= الآن علينا الحديث في الأمور الهامة و المصيرية ..

= كلي آذان صاغية سيدي ..

= اجلس و املاً كأسك .. لا بد أنك مرهق ..

عاد إلى مقعده الجلدي الضخم خلف مكتبه و جلس ثم أخرج سيجاراً من الدرج العلوي و أشعله .. نظر في عيني مساعده للحظات ثم قال بلهجة جدية منذرة هذه المرة ..

= ما سأقوله لك .. سيبقى سراً بيننا نحن الثلاثة فقط .. أنا و أنت و البروفيسور ديريان .. هل تفهمني ؟

= بكل تأكيد ..

= هذا الكفن كما تعلم يعود كما تدعي الدراسات إلى شخص يسوع المسيح ..

= بلى !

= و عليه آثار من دماءه كما ترى بعينيك تلطخ عدة أجزاء منه ..

= أرى بشكل جيد ..

= ما أريده الآن من البروفيسور ديريان هو استخراج خلية جسدية واحدة على الأقل من هذا الكفن تعود للسيد المسيح ..

أنا أتولي بتعجب ..

= و لأي غاية ؟

= لغاية استنساخ يسوع المسيح ..

اتسعت عينا أنا أتولي بدهشة و رعب ..

= لا أريد رؤية معالم الخوف هذه كالمخنثين على وجهك .. لقد سمعتني جيداً و عليك إطاعة أوامري ببرود كما علمتك لسنوات ..

غصّ أناتولي بريقه ..

= تحت أمرك بالطبع .. لكن ما حاجتك لذلك ؟

= أنا و كما تعلم جيداً أريد إنجاب طفل من جيناتي بأي طريقة ممكنة .. لكنني منذ قرأت ذاك الخبر عن قصة كفن تورينو على موقع لافيتا ثم أخبرتني أنت بعدها عن إمكانية الاستنساخ من خلية جسدية .. فقد قمت بتغيير أهدافي جذرياً إلى غايات أعظم ، أجمل و أكثر قوة .. و ما أريده اليوم هو طفل نسخة عن يسوع لكنني سأربيّه هذه المرة بطريقتي و وفق مبادئ و قناعاتي .. إنه انتقامي الأخير من الإله المزعوم الذي سحقني في طفولتي المعذبة ثم حرمني من الإنجاب و أخيراً جعلني أفقد زوجتي ماريانا .. الأنثى الوحيدة التي أحببتها في حياتي .. سأنجب الابن الذي حرمني منه هذا الإله المتوحش الوهمي على صورة ابنه تماماً لكنه سيتبع توجيهاتي أنا و ليس هو هذه المرة ..

أخرج أناتولي علبة السجائر من جيب سترته و أشعل إحداها بطريقة عصابية متوترة و هو يفكر بكلام سيده الجريء ، الغريب و المخيف الذي يرتاع له أعتى المجرمون ..

= و ماذا بخصوص البويضة الأنثوية .. من أين ستحصل عليها .. ؟

= هنا يأتي الجزء الثاني الهام من الخطة .. الوجه الآخر للانتقامي .. سأحصل عليها من زوجتي السابقة ماريانا التي حظر عليّ الرب الإنجاب منها .. إذ أنني سأكسر كلمته و ألوي ذراعه بنفسي لأثبت له أن ما من شيء يقف في طريقي .. أي بتعبير آخر سأثبت للجميع أنه غير موجود من الأساس .. وما حدث معي في حياتي لا يعدو كونه مجرد قدر أعمى و أحقق الخطى لا أكثر ..

= لكن ماريانا مختلفة منذ عام ، و أغلب الظن أنها خارج البلاد .. فكيف سنصل إليها ؟

سحب سيرغي قليلاً من الدخان من سيجاره و نفثه كتنين صيني في أجواء الغرفة العابقة به كطقس من طقوس الشعوذة ..

= لا حاجة للوصول إليها .. فلدي مجموعة بويضات لها مجمدة في مختبر البروفيسور مكسيم هنا في موسكو .. لقد نصحنا بفعل ذلك بعد الاختبارات التي أجريناها و أثبتت إصابتي بالعقم .. أملاً منه في اكتشاف طريقة ما مستقبلاً للإلحاق



= لكن هنالك عقبة كبرى في طريق تحقيق ذلك سيدي .. !

= و هي ؟

= سينتشر خبر سرقة الكفن قريباً حول العالم ، و من المؤكد أن البروفيسور ديريان سيسمع به .. فكيف تتوقع منه التعاون في جريمتين ستذهبان به إلى الجحيم بلا شك .. التستر على سرقة الكفن ، ثم استنساخ السيد المسيح .. على الأرجح سيرفض عرضنا بشكل قطعي وأعتقد أن الأفضل لك الاستعانة بالبروفيسور مكسيم فهو أحد رجالك و بئر عميق لأسرارك ..

= لا أحد موثوق يا أناتولي .. لكل إنسان سعر خاص تشتري به ولاءه ، فإن دفع غيرك أكثر منك تبدل الولاء في غمضة عين .. من جهة أخرى فالبروفيسور ديريان هو الأفضل في المجال .. و أنا لا أريد الخطأ بأي شكل من الأشكال .. أما موضوع قبوله بالعمل و التستر عليه فهذا أمر يسير لا تقلق .. لقد أفهمته بنفسك بتوصية مني في لقائكما السابق خطورة العبث معنا أو رفض طلباتنا من جهة ، و المال الوفير الذي ينتظره في حال تعاونه معنا من جهة أخرى و هذا بحد ذاته سيجعله يفكر ملايين المرات قبل أن يتهور بأي طريقة .. و بحسب خبرتي في الحياة فإن سياسة العصا و الجزرة تنجح في كل مرة، فالبشر ليسوا سوى مجموعة حمير ناطقة .. أما اللمسة الأخيرة على طبق التهديد الرئيسي لإسكاته إلى الأبد فستكون بتلميحك القادم له بأن حياة ابنته ناتالي على المحك في حال رفض الطلب أو أفشى الأسرار بيننا التي تتعلق بسرقة الكفن أو محاولة استنساخ يسوع المسيح .. إنها نقطة ضعفه الكبرى بحسب تحرياتنا فهي ابنته الوحيدة المريضة بداء خطير و ستتغلب عاطفته على ضميره بلا شك خاصة أن الثروة التي سيحصل عليها ستمكنه من شفائها.. أخبره بجدية أن يضع هذا التهديد حلقاً في أذنه كهذا الحلق الذهبي في أذنك أناتولي .. فهممتي جيداً ؟

ابتسم أناتولي عن أسنان صفراء دمرها التدخين و كأنها خارجة من حرب عالمية نووية طاحنة ..

= أنت تأمر و أنا أنفذ أبانا الذي في السموات .. بعد تسعة أشهر من الآن سيكون المخلص الجديد في مغارتك الخاصة ..

بادله سيرغي الابتسامة بغرور و نشوة ثم أمسك جهاز التحكم بالشاشة بيده و بحث في بعض الملفات عليها حتى عثر على صورة ضغط عليها لتظهر على الشاشة

صورة رجل قاسي الملامح مفعم بالمكر و الدهاء ، و إلى جواره ثلاثة رموز فوق بعضها .. رأس كبش ، نجمة خماسية مقلوبة و رقم **666** .. ثم أشار بقلم الليزر إلى وجه الرجل رافعاً كأس الفودكا بيده ..

= نخب نجاح الخطوة الأولى على طريق خلق عالم جديد على شرف ضيفي يسوع المرتمي على مكتبي مستسلماً بلا حول و لا قوة .. عالم يحكمه الشيطان العبقري **بافوميت** و كنيسته اليتيمة على الأرض في سان فرانسيسكو الأمريكية التي أنشأها هذا الشخص الشجاع الظاهر على الشاشة .. الإنسان الوحيد الذي فهم الحياة جيداً .. الكاهن و الساحر الأمريكي اليهودي **أنطون لافي** ( ابن الشيطان البار ) هناك في بلاد العام صاموئيل و يلسون ( سام ) ..



رفع أناتولي كأسه بدوره و هو يحدق متعجباً بالشاشة العملاقة و صورة الرجل التي تحتلها ..

= نخب الشيطان بافوميت بنفسه الذي فهم وهم الإله و عجزه فتمرد عليه بشجاعة ..

\*\*\*\*\*

## الولايات المتحدة الأمريكية ..

### كاليفورنيا / لوس أنجلوس ..

#### مطعم لافي ..

جلس الرجل إلى طاولته المعتمدة و المعزولة في زاوية المطعم الفخم و الفارغ من أي زبون آخر و هو يهز رجله بتوتر متلفاً حوله بقلق .. الموعد الساعة السادسة مساءً و قد مضى عشر دقائق عليه هنا .. هل يغادر أم ينتظر قليلاً أيضاً ؟ .. لم يكن يدرك أن هذا التأخر مدروس بعناية بغاية تحليل طباعه و تقييم مدى درجة خوفه و انصياعه .. خمس دقائق أخرى و فتح أخيراً الباب الزجاجي الأسود للمطعم فدخل منه الرجل المنتظر و من خلفه مرافقوه .. ابتسم له بثقة ثم شق طريقه نحوه قائلاً بصوت عالٍ كسر جدار الصمت المخيم على الأجواء ..

= شرفت مطعمنا المتواضع بروفيسور ..

نهض البروفيسور من مقعده و مد يده ليحييه ..

= حسبتك لن تأتي .. فقد تأخرت عن موعدك ؟

= سأتي بالطبع نحن رجال نلتزم بكلامنا ، مواعيدنا و ... تهديداتنا على حد سواء .. مجرد أزمة سير خانقة ، أنت أدري بها في بلدك .. تفضل بالجلوس ..

ابتسم له و هو يقرب الجزيرة من فمه ..

= هذا المطعم يعود للسيد سيرغي و هو أحد مشاريعه الكثيرة في الولايات المتحدة الأمريكية ، لذا اعتبر نفسك في منزلك الخاص .. مشروب ؟

= لا فنجان قهوة فقط ..

= كما تشاء ..

أشار بإصبعين إلى رجل في طرف المطعم ثم أخرج سيجارة من سترته و أشعلها رافعاً العصا هذه المرة ..

= باعتباري رجل براغماتي لا أحبذ المقدمات ، سأدخل معك مباشرةً في صلب الحديث ..

= مقابلتي هذه تشير إلى أن السيد سيرغي وافق على عملية الاستنساخ ..

= تقريباً ..

= لم أفهم !؟

= سأتيك بالكلام ..

أشار إلى المرافقين بطريقة معينة فتقدما منه حاملين الصندوق الأبنوسي ثم وضعاه على الطاولة بينهما وسط دهشة البروفيسور ديريان ..

= هل تعلم ما الذي يوجد في داخل هذا الصندوق حضرة البروفيسور ؟

هز البروفيسور رأسه بدهشة ..

= بالطبع لا .. !!

= إنه كفن تورينو .. الكفن الذي تكفن به يسوع المسيح عقب صلبه ..

اتسعت حدقتا البروفيسور حتى اجتاحتا قزحيتي عينيهِ بالكامل كما لو أن ملاك الموت قبض روحه للتو ..

= يا أم الله !! ما الذي تقوله ..؟

= كما سمعت بالضبط .. لا بدّ أنك قد سمعت بأخبار اختفاء هذ الكفن من مدينة تورينو الإيطالية فهو حديث وسائل الإعلام خلال الشهر المنصرم ..

نهض البروفيسور من مقعده غاضباً ..

= هذه جريمة بحقّ السماء ذاتها ، و نحن لم نتفق على هذا الكلام سيد أناتولي .. الحوار بيننا انتهى ..

رماه أناتولي بنظرة استخفاف ثم قال ببرود ..

= اجلس بروفيسور.. اجلس و تمالك أعصابك .. فللكلام تنمة .. كما أن ابنتك ناتالي تجلس الآن في غرفتها تتلقى درس العزف على الكمان في محرق قناصة موجهة لها من أحد عملائنا المحترفين .. و إن تجرأت على مغادرة هذا المطعم دون أن ننفق .. ستعود لتجدها جثة هامة تنتظرك .. أظن أن كلامي واضح ..

ارتعشت يدا البروفيسور و قد شلته صدمة الكلمات المنذرة ..

= هل تهددني ؟

= بالضبط .. و أظن أن بروفيسور بذكائك سيفهم حرفياً ما سبق و قلته ، لذا سيجلس بهدوء و يصغي إليّ حتى النهاية فما سأطلبه منك قابل للتنفيذ و سيجعل منك رجلاً ثرياً على نحوٍ لم تحلم به طوال حياتك ..

فكر البروفيسور للحظات و هو مصعوق من كلمات أناتولي المهددة بخصوص ابنته، كيف عرف بدروس الكمان ؟! سحب مقعده و عاود الجلوس ..

= مليار دولار كاملة ..

= عفواً ..!

= مليار دولار مكافأتك في حال نفذت المهمة الموكلة إليك بنجاح .. لا تحتسب من تكاليف المهمة أيّاً كانت .. و أنتم الأمريكيين بارعون في إتمام الصفقات الناجحة .. يكفي أنكم اشتريتم **الاسكا** من بلادي روسيا منذ قرون بأبخس الأثمان ، لتتحول من خنجر قيصري روسي في خاصرة بلادكم ، إلى نبع لا ينضب من الثروات الهائلة .. نفط ، ذهب ، ثروات حيوانية و غيرها كثير .. لتصبح ورقة رابحة أخرى في يدكم في حربنا الباردة ..

خرجت الكلمات من فم أناتولي ساخرة و باردة كصقيع الاسكا و سيبيريا مجتمعين.

= و ما هي هذه المهمة ؟

= مهمة من جزئين .. الأول استخلاص خلية جسدية واحدة على الأقل من هذا الكفن تعود للمسيح بنفسه .. و الجزء الثاني استنساخ طفل منها على هيئة يسوع تماماً ..

فتح البروفيسور فمه مذهولاً ..

= هل تمازحني سيد أناتولي ؟

= أظنّ أنك بتّ تعلم جيداً أننا رجال عمليون لدينا من المشاغل ما يحرمانا من ترف المزاح و الكلام الفارغ ..

= و إن لم أفعل ؟

أمسك أناتولي بهاتفه بيده ثم فتح فيديو بث مباشر و عرضه على البروفيسور ..

= بل ستفعل ، صدقني .. فكما ترى بعينيك .. هذه هي ابنتك ناتالي الآن صحبة مدرستها تعزف على كمانها الحزين ، صديقها الوحيد في الحياة بأمان و سعادة .. و هذا يكفي على ما أعتقد كي يوصل إليك رسالتنا بفصاحة و وضوح .. دون أن أضطر لعرض فيديو آخر لعميلنا الذي يوجه قناصته إليها ..

ارتمتي البروفيسور إلى الخلف داخل زوبعة من القلق و الرعب تعتصر دماغه و غصّت عيناه بالدموع .. فأغلقها ليخفي مشاعره ..

= نحن لا نريد إيذاءك أو إيذاء عائلتك بروفيسور .. كل ما نطلبه منك هو التعاون البسيط معنا كسرّ يجمعنا و لن يسمع به أحد .. ثم سنمنحك مكافأتك و يمضي كل منا في طريقه .. هذه المكافأة التي ستجعل ابنتك تعزف على الكمان لعقود قادمة .. فخلال سنوات قليلة ستبدأ أعراض مرض هنتنغتون بالظهور عليها لتجتاح أطرافها حركات نفضية شديدة تمنعها من القيام بأي شيء بشكل طبيعي قبل أن يتطور المرض فيذهب بملكاتها العقلية و أخيراً بحياتها كشابة في مقتبل العمر .. و العلاج الجيني الذي ستتكلّف مكافأتك بإجرائه سيمنع حدوث كل هذه العواقب كما تعلم بنفسك أيها الطبيب ..

فتح البروفيسور عينيه على صوت فنجان القهوة يوضع أمامه .. ثم نظر إلى أناتولي بعينين مستسلمتين و تائهتين ..

= و متى يريد السيد سيرغي إنجاز ذلك .. ؟

= منذ هذه اللحظة بروفيسور .. سيرافقك رجالي بعد خروجك من هذا المطعم إلى مؤسستك و مخبرك حاملين معهم هذا الصندوق .. ثم عليك بمفردك و على نحو

سري مباشرة العمل على استخلاص الخلية الجسدية .. و هذا الصندوق يحتوي ايضاً على حافظة تبريد تحتوي مجموعة بويضات تعود لزوجـة السيد سيرغي ماريانا عليك استخدامها في عملية الاستنساخ ..

= لكننا بحاجة لمعالجة أكثر من بويضة فعلية الزرع تفشل في التطور في 75 % من الحالات ..

= لا مشكلة .. كم بويضة تحتاج كي تضمن نجاح العملية .. ؟

= بشكل مبدئي سأصنع عدة بويضات جاهزة للزرع و الاستنساخ و احتفظ بها .. ثم سنباشر التجربة بثلاثة منها ، فإن فشلت العملية نكرر التجربة مجدداً ..

= عظيم .. اليوم سيتم تحويل رصيد بمليار دولار إلى حساب مؤسستك البنكي ليغطي تكاليف العملية .. و المليار الآخر سيحوّل إلى حسابك الشخصي بعد إنجاز المهمة .. كافٍ ؟

= كافٍ بالطبع .. سأشرع بالعمل تَوّاً ..

= لكنك لم تشرب قهوتك بعد ؟

= ينتظرنا عمل أهم منها ، و أريد الانتهاء منه بأسرع وقت ..

= لا ، لا بروفيسور ، الوقت لا يهم .. المهم هو الدقة ، النجاح و السرية .. لا أريد إعادة الحديث مجدداً .. اللعب معنا ممنوع ، و الفشل أو إفشاء الأسرار نتيجته معروفة و حتمية ..

أوماً البروفيسور برأسه ثم نهض من مقعده فاختل توازنه للحظات من هول الصدمات التي تلقاها خلال الدقائق المنصرمة ، لكنه تمالك نفسه و اتجه نحو باب المطعم ليغوص في ظلماته ، في حين أعطى أناتولي إشارة إلى مرافقيه فحمل اثنان منهما الصندوق و تبعاه ..

= كأس مارتيني يا جون .. لديّ نخب هام لأرفعه ..

= على الفور سيدي ..

أمسك هاتفه و اتصل بسيدة سيرغي ليخبره بنجاح ثاني خطوات خطته الشيطانية الخمسة كرؤوس نجمة الشيطان الخماسية المقلوبة.. سرقة الكفن .. إقناع

البروفيسور .. نجاح الاستنساخ ثم الزرع و أخيراً إنجاب يسوع جديد إلى العالم

\*\*\*\*\*

في صباح اليوم التالي جلس البروفيسور ديريان في مختبره الخاص بعد أن أعطى التعليمات بمنع دخول أي شخص كان على خلوته .. أخذ يتأمل الصندوق الأبنوسي للحظات ، ثم تقدم منه و فتحه .. أخرج منه الكفن المقدس بيدين مرتجفتين ثم فرده على طاولة المختبر الكبيرة أمامه و هو يتأمل ملامح يسوع المسيح المسالمة فغصت عيناه بالدموع و هو يشعر بروح **يهوذا الإسخريوطي** تتقمصه فيخون المسيح ثانيةً و من أجل المال مجدداً .. من سخرية القدر أن البروفيسور ديريان يهودي ، فهل صفة خيانة المسيح ملتصقة بديانته .. !؟

نظر إلى **لوحة كش مات المعلقة** على الجدار الكبير في مختبره ، وهو يستذكر قصتها المفعمة بالعبر التي تجسد على نحو غريب ما يمر به .. تلك اللوحة التي مكثت في **متحف اللوفر** بباريس منذ عقود و تمثل دور شطرنج بين شخصين .. فعلى اليسار نجد الشيطان المبتسم بغرور و ثقة بالانتصار و قد سيطر على الرقعة بشكل كامل ، و على اليمين نجد الإنسان الحائر ، القلق و المستسلم بسبب انعدام خياراته في اللعب و بينهما يجلس ملاك يراقب المعركة بصمت .. والإنسان في معركة حقيقية مع الشيطان و خياراته للأسف معدومة ، فالشيطان سيطر على الرقعة تماماً و عليه الرضوخ و الاستسلام لطلباته ..



اقترب من آثار وجه يسوع على الكفن و همس مختنقاً بدموعه : ( **سامحني يا رب**



**.. فحياة ابنتي الوحيدة المريضة على المحك و أنت تغفر الذنوب بقلبك الكبير )**  
، ثم باشر بمهمة استخراج خلية جسدية من دمائه المقدسة ..

ما لم يعلمه البروفيسور ديريان أن للوحة كش مات قصة أخرى حقيقية يجهلها كثيرون .. تتحدث عن مجموعة زوار كانوا يجولون في متحف اللوفر يتأملون لوحاته تباعاً مع مرشد فرنسي يشرح لهم قصة كلٍّ منها .. حتى وصلوا إلى لوحة كش مات فشرحها المرشد بجملة مقتضبة ( **انتصار الشيطان على الإنسان بمكره و دهائه** ) ثم تابع إلى اللوحة التالية .. لكن أحد الزوار بقي أمام لوحة كش مات يتأملها ، فنادى عليه المرشد كي يلحق بهم و لا تفوته بقية اللوحات .. لكن الرجل طلب منه العودة إليه قائلاً ..

= اعذرني يا بني .. لكنني **بطل عالمي متمرس بلعبة الشطرنج** .. و عنوان هذه اللوحة خاطئ تماماً .. إذ ما يزال أمام الإنسان حركة وحيدة ستقلب الموازين و تجعله يفوز باللعبة فيهزم الشيطان .. هكذا ..

و شرح له بكلمات مقتضبة ما يعنيه ثم أردف ..

= لذا عليكم إما تغيير اسم اللوحة أو نزعها من المتحف فهي تكرس لفلسفة خاطئة و خطيرة بأنّ الشيطان سينتصر على الإنسان لا محالة ، فالإنسان بالصبر ، الإيمان ، العزيمة و بوجود الملاك إلى جواره كمراقب لمعركته مع الشيطان سينتصر في النهاية مهما كانت سيطرة الشيطان على حياته محكمة .. علينا ألا نستسلم أبداً !!

و بالفعل تم نقل اللوحة من متحف اللوفر لاحقاً و بيعت لأحد الأثرياء .. !

فهل انهزم البروفيسور ديريان في معركته مع الشيطان بافوميت .. أم أنّ للملاك رأي آخر في هذه المعركة ليقلب هزيمة الإنسان الحتمية إلى انتصار غير متوقع .. ؟!

\*\*\*\*\*

روسيا/موسكو ..

مختبر البروفيسور مكسيم ..

تشرين الثاني .. عام 2050 ..

جلست الشابات الثلاثة على كراسيهن الطبية الخاصة ، وهنّ بوضعية الولادة الطبيعية في حين انشغل البروفيسور مكسيم باستخراج أول بويضة مزروعة بنواة من إحدى خلايا السيد المسيح التي نجح البروفيسور ديريان بعزلها من كفن تورينو من الطبق البيتري أمامه، ثم اتجه نحو الشابة الأولى الأوكرانية ناتاشا فأدخل المحقن الدقيق ذي الإبرة الطويلة حتى بلغ عنق الرحم ثم الرحم مستدلاً إلى طريقه بجهاز الإيكو .. زرع أخيراً البويضة بنجاح بانتظار عملية التعشيش و التطور لاحقاً .. انتقل بعدها إلى الشابة الثانية النيجيرية أديلا و كرر العملية ، ثم أخيراً الشابة الفنزويلية أندرينا ليختم مهمته الأولى بنجاح ..

= انتهينا يا فتيات .. تذكرن جيداً لا جهد خلال الأسبوع القادم .. التزمّن الفراش قدر الإمكان و نلتقي بعدها للفحص بالإيكو و تقييم تطور التعشيش و الحمل ..



نظر إليهنّ أناتولي نظرة تهديد ..  
= ستكسبن ثروة بعد موافقتكنّ على هذه العملية .. لذا لا داعٍ للتذكير .. أنصتن

جيداً لتعليمات البروفيسور مكسيم .. و التزم بسرية ما يحدث .. أنتن لستن  
بغريبات عن السيد سيرغي و تعلمن جيداً كيف يتعامل مع الخونة ..

أومات الشابات برؤوسهن بصمت ثم دخلن غرفة جانبية لارتداء ملابسهن ..  
= إذا فالسيد سيرغي قرر الاستعانة ببويضات ملقحة من نطاف ذكور و بويضات  
إناث متبرعين لحل مشكلة الإنجاب لديه ..؟!  
= أجل ..

= لماذا لا يتبنى أطفالاً ويرتاح من كل هذ العناء ، السرية و التكاليف ؟  
= لغاية في نفسه بروفيسور .. الزعيم يتخذ القرارات المناسبة و الصائبة دوماً و  
ليس لدينا الحق في التشكيك بها ..

غصّ البروفيسور يريقه بارتباك ..  
= بالطبع .. مجرد وجهة نظر .. لم أقصد التدخل في حياته الخاصة أو التشكيك  
بقراراته أبداً ..  
= احتفظ بوجهات نظرك لنفسك بروفيسور ..

\*\*\*\*\*

## لاحقاً في مكتب سيرغي ..

دخل سيرغي المكتب مع ابتسامة انتصار تتفوق على ابتسامة وينستون تشرشل  
الشهيرة عقب فوزه في الحرب العالمية الثانية ..  
= الخطوة الثالثة في خطة الانتقام تمت بنجاح سيدي ..  
= عظيم .. هل شك البروفيسور مكسيم بشيء ؟  
= على الإطلاق ..  
= و الفتيات ؟

= ستمسكن بالأجنة بقوة و سرية أكثر مما لو كانوا لهنّ شخصياً .. فالخوف  
يعتصر أرواحهنّ و الطمع يستعمر عقولهنّ ..

جلس على أحد المقاعد ثم أخرج سيجارته المعتادة من سترته و أشعلها بنشوة ..  
= بالمناسبة ما هو الاسم الذي ستطلقه على ابنك الجديد ؟ يبدو لي أمراً صعب  
التكهّن للغاية !

أجابه سيرغي و هو يملأ كأس مشروب أمامه ..  
= لا ليس بصعب .. ابني القادم سيحمل اسم بروميثيوس ..  
= بروميثيوس !! ما هذا الاسم الغريب و الجديد ؟  
= ليس بجديد على الإطلاق .. إنه اسم إله إغريقي ..  
= إله !!

= أجل .. و ليس أيما إله .. إنه الإله عاشق البشر الذي شذ عن الدرب المتوحشة  
و المتسلطة لتي سلكتها جميع الآلهة عبر التاريخ فاستحوذ على اهتمامي و  
محبتتي .

أشار بقلم الليزر إلى لوحة معلقة خلفه أعلى الجدار ..  
= هذا هو بروميثيوس مع نسر أثون ينهش كبده كما ترى ..  
= لطالما نظرت إلى هذه اللوحة مستغرباً من مضمونها ..  
= لكل شيء أوان .. وقد آن أوان معرفتك بقصتها ..

= تبدو قصته غريبة و مؤلمة .. ماذا فعل كي يستحق هذا العقاب القاسي ؟  
= تماماً .. بروميثيوس هو أحد الآلهة الجبابرة التي دخلت الحرب مع آلهة الأوليمب  
بقيادة زعيمها زيوس .. و اسم بروميثيوس يعني بعيد النظر و هو ما كان عليه هذا  
الإله بالفعل فقد تنبأ بحكمته و خبرته بأن الجبابرة سيخسرون الحرب فوقف في  
صف زيوس ضد أخوته .. و بالفعل انتصر آلهة الأوليمب في المعركة ، فقرر  
زيوس مكافأة بروميثيوس بأن كلفه بمهمة خلق البشر على الأرض .. سعد

بروميثيوس للغاية بالمهمة و نفذها على أكمل وجه حتى أنه هام بمحبة صنيعة من البشر فقرر تقديم مختلف الهبات لهم ، لذا تواسط لهم لدى زيوس كي يمنحهم بعضاً من قدرات آلهة الأوليمب الفريدة .. لكن زيوس رفض طلبه بشدة .. فقد أراد للبشر أن يبقوا ضعفاء كي لا يتمردوا عليه في يومٍ من الأيام .. أي كما فعل الإله في الأديان السماوية بالضبط، فسحق البشر بالأمراض ، الأوبئة ، الكوارث الطبيعية و الحروب كي لا تقوم لهم قائمة في وجهه .. لكن بروجميثيوس كان إلهاً من كونٍ آخر .. موازٍ ربما ، تسوده الرحمة و العدل .. فقد سرق بنفسه قدرات من آلهة الأوليمب و منحها للبشر ، و لم يكتفِ بذلك بل سرق أيضاً شعلة نار من نيران جبل الأوليمب المتأججة المحرمة على البشر و منحها هدية لهم لطهي اللحوم و الاستدلال بنورها .. هنا وصلت رائحة الشواء إلى زيوس فعلم بخيانتة و كعقاب له قيده بسلاسل إلى قمة جبل القوقاز ، فكان يأتيه كل صباح النسر أثون لينهش كبده ليعود و ينمو مساءً في دائرة أبدية من الألم و العذاب ..

= يا له من إله نبيل و مضحّ ..

= بلى هو كذلك .. و تكريماً له رمز الأغريق للألعاب الأولمبية بالدوائر الخمسة الملونة كإشارة منهم إلى حلقات السلاسل التي كبل بها من ألوان مختلف الأعراق ، كما تشير الشعلة الأولمبية التي توقد في افتتاح كل دورة من الألعاب الأولمبية إلى شعلة النار التي سرقها بروجميثيوس من جبل الأوليمب و أهداها للبشر ..

= إذاً بعد عام من الآن سيبصر بروجميثيوس سيرغي إيفانوف النور إلى هذا العالم الرديء القاسي الذي تحكمه الآلهة المتوحشة من أمثال زيوس و غيره ..

= هذا ما آمله .. لكنني لن أسمح له بسلوك طريق بروجميثيوس من طيبة القلب و الثقة بالآخرين .. فقد رأيت بنفسك أي خاتمة لحقت ببروميثيوس في نهاية هذه الطريق .. بل سأصنع منه إلهاً قاسياً حذراً ممن حوله .. يغدق بالعطايا على الأوفياء فحسب من أمثالك أناتولي ..

= هذا إطراء يسعدني ، يشرفني و يحملي مزيداً من المسؤوليات سيدي ..

= و بالعودة إلى عملية الزرع اليوم .. بانتظارنا إذاً ثلاثة توائم من ثلاثة أرحام مختلفة أوكرانية ، نيجيرية و فينزويلية .. لقد أردت ابناً جديداً فمنحني بافوميت ثلاثة .. يا لعظمته و كرمه .. إنه يعبّد طريق عملية الانتقام أمامنا بمنتهى اليسر و السلاسة ..

= إنه يغدق بعطاياه على الأوفياء أمثالك !!

اعتدل أناتولي في جلسته ثم أردف بنبرة جدية محاولاً تقليد سيده عندما يتحدث عن معلومة ثقافية ، ليختبر هذا الشعور و لو لمرة واحدة في حياته ..

= إن العملية برمتها تذكرني بقصة التوائم الثلاثة الشهيرة التي حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية منذ زمن بعيد ..

نظر إليه سيرغي بدهشة ، ثم أطلق ضحكة عميقة ساخرة و هو يصفق بطريقة مفعمة بالتهكم ..

= عظيم يا أناتولي .. عظيم .. يبدو أنك أصبحت مثقفاً بين ليلة و ضحاها !؟

اجتاح الارتباك و الخجل أناتولي ..

= إطلاقاً ، لقد وضحت لك مسبقاً طبيعة العلاقة التي تجمعني بالثقافة .. إنه مجرد منشور قرأته منذ عدة أيام على موقع لافيتا .. فقد استحوذ مديحك له على اهتمامي فقررت تجربته .. وأعترف لك ، إنه موقع مذهل بلا أدنى شك ..

= و ما هي قصة التوائم هذه ؟

= إنهم ثلاثة توائم متطابقة ، أنجبتهم شابة خارج إطار الزواج في أمريكا فمنحتهم بعد الولادة لوكالة تبني .. لكن تلك الوكالة كانت تعمل بالخفاء مع أطباء نفسيين لإجراء تجارب عن طبيعة العلاقة بين العوامل الوراثية و البيئية على التوائم .. لذا وزعتهم على ثلاث عائلات مختلفة اجتماعياً ، اقتصادياً و ثقافياً .. فترعرعوا فيها حتى دخل أحدهم و المدعو روبرت الجامعة بعد سنوات و هنالك التقى صديقة بأخيه التوأم إدوارد و صدموا بالتشابه العجيب بينهما ، ليكتشفوا الحقيقة الصادمة لاحقاً و السر الدفين خلف تفرقتهم ، فضجت وسائل الإعلام بقصتهما الغريبة .. لتصل الأخبار لاحقاً إلى أخيهم الثالث ديفيد الذي تواصل معهما بدوره فالتقى الأشقاء للمرة الأولى منذ اجتماعهن في الرحم و هم بعمر 19 عاماً .. طبعاً انتشرت فضيحة التجربة النفسية التي أجريت عليهم و على أمثالهم ، فأغلقت وكالة التبني كما فتح تحقيق بالقضية ..

= لكنهم عثروا على بعضهم أخيراً .. و هذا بعد ذاته خبر سار ..

= للأسف لا .. فصدمة معاملتهم كفئران تجارب أو كدمى تحركها خيوط من مجهولين كانت أكبر من سعادتهم باللقاء أخيراً .. فأصابهم اكتئاب شديد و شعور بعبثية و عشوائية الحياة حتى أن إدوارد أقدم على إنهاء حياته بسبب ذلك ..

= خاتمة لا تفاجئني .. فهذا هو الإله القاسي المتوحش الذي تعبد به البشر أو القدر أحمق الخطى كما أو من بنفسي .. لكنني سأحرص على ألا ينتهي مصير أبنائي القادمين على هذه الشاكلة ..

رفع كأسه عالياً ..

= دعنا من هذه القصص الحزينة ، و لنشرب نخب بافوميت العظيم مع نجاح الخطوة الثالثة من خطة الانتقام ..

رفع أناتولي كأسه الفارغ كقلب سيده الخالي من الضمير، الإيمان و الرحمة..  
= نخب بافوميت العظيم ..

## بعد مضي أسبوع على عملية الزرع ..

أسفرت نتائج الفحص بالإيكو للشابات الثلاثة عن فشل عملية الزرع في رحم الفتاة الفنزويلية أندرينا و ضياع البويضة المعدلة منه و نجاحها مبدئياً في رحمي ناتاشا و أديلا اللتين عادتتا إلى غرفتيهما الخاصتين في جناح معزول من قصر سيرغي للعناية بهما حتى نهاية فترة الحمل و الإرضاع .. أما أندرينا فقد تم إخبارها بأنها ستكرر التجربة في مكان آخر للسرية ، فافتتدت إلى الغابات خارج موسكو ثم قتلت برصاصة في الرأس بأمر من سيرغي نفسه ، لإسكاتها إلى الأبد عن البوح بالسر الذي يخشاه بعد أن أصبحت عديمة الفائدة بالنسبة له، ثم دفنت في مكان مجهول وسط الغابات المهجورة ، فهي مهاجرة غير شرعية إلى روسيا بدون عائلة أو أقارب كحال بقية الفتيات في محيط حياة سيرغي اللاتي قام بابتزازهن بالمال و الاعتداء عليهن .. للأسف هذا هو المصير الذي ينتظر كلاً من ناتاشا و أديلا بدورهما بعد الانتهاء من خدماتهما في نهاية العملية ، فسيرغي لا يترك مجالاً للصدفة أو الخطورة في حياته و يشك بأقرب المقربين منه .. حتى أناتولي بنفسه ، بعد سنين طوال من العمل في أوساط المافيا التي ينخرها سوس الانقلابات ، التمرد و الخيانة لدرجة بات معها لا يثق بأحد و يقتل بدم بارد و ضمير أعمى ، أخرس و أصم ..

ربما كان درب الإيمان وعراً و شاقاً ، لكن الإنسان المؤمن على الأقل يمكنه الوثوق بمؤمن صادق آخر فالأخلاق و الضمير يجمعانها .. أما من يعبد الشيطان

فلا يثق بأي إنسان على وجه الأرض مؤمناً كان فهو عدوه.. أو شيطاناً بالأخص  
فهو يعلم يقيناً أن لا مبدأ أو رادع له ..

\*\*\*\*\*



# الإيالة الإفريقية

بنين / بورتو نوفو ..

ما بعد التحقيق ...

وصل بونجاني منهكاً إلى منزله بعد أن أنجز مهمة التحقيق في أويدا ، لكنه لم يوفر أي ثانية راحة ، فاتصل بصديقيه بلال و اندراوس و طلب منهما الاجتماع سوياً مساءً في مقهى ( أصدقاء ) للضرورة القصوى..

على تمام الساعة الثامنة اجتمع ثلاثتهم حول طاولتهم المفضلة في زاوية المقهى بحسب الاتفاق ..

= خير يا بونجاني.. أقلقتنا عليك .. ما هو سبب هذا الاجتماع الطارئ ..؟

تدخل بلال في الحديث ليجيب أندراوس مع ابتسامة..

= أعتقد أن الموضوع مرتبط بقضية مقتل السيد أسيموتي .. لا بد أنك عثرت على دليل جديد أيها المحقق المحنك..

اقترب منهما بونجاني بهدوء ثم همس بجدية ..

= بل عثرت على قاتل أبي ..

قوس بلال حاجبيه بدهشة في حين صدرت صيحة تعجب من أندراوس..

= يا أم النور .. هل أنت متأكد .. ؟

= شبه متأكد .. و بحاجة الى عضلاتكما هذه الليلة كي أتأكد تماماً ..

= عضلاتنا !! .. هل تريد خطف أحدهم ..؟

= لا ، بل أريد لقاء أبي للمرة الأخيرة و سؤاله عن هوية قاتله..

نظر بلال و أندراوس إلى بعضهما بذهول .. هل جنّ صديقهما ؟ .. في حين شرع

بونجاني يشرح لهما خلاصة تحرياته صباح هذا اليوم في فندق أويدا لتزول دهشتهم تدريجياً و تستبدل بالإعجاب و التفاؤل مع سرد تلك التفاصيل المدهشة.

\*\*\*\*\*

في تمام الساعة الثانية صباحاً وقف الثلاثة بونجاني ، بلال و أندراوس برهبة أمام قبر السيد أسيموتي في محيط العاصمة و الأفكار تعصف بالرووس حول فرضية بونجاني الغريبة التي لها ما يبررها بلا ريب تبعا للأدلة التي شرحها لهما مساء أمس .. كانت قصة أقرب الى الخيال العلمي منها الى واقع حدث بالفعل ..!

انحنى بونجاني على الضريح ، وضع يده عليه للحظات و عيناه تغصان بالدموع كأنه يعتذر من والده على ما هو مقدم على فعله .. ثم وقف مجدداً و همس بحزم

= هيا بنا .. لنباشر العمل ..

= هل أنت متأكد ؟

= بالطبع .. شرٌّ لابد منه ..



تعاون الثلاثة على تحريك قطعة الرخام الثقيلة من فوق القبر ، ثم باشروا الحفر بمعداتهم التي أحضروها وسط تعليق أندراوس ذي الثقافة الواسعة على ما يجري

= إننا نقتبس من جيراننا الأفارقة في جزيرة مدغشقر و بالتحديد قبيلة ملغاشيا  
أحد طقوسهم الغريبة .. نبش القبور كل سبع سنوات و إخراج هياكل الموتى من  
أجل الاحتفال معهم .. و ها أنت ذا يا بونجاني تخرج هيكل والدك بعد سبع سنوات  
بالضبط من موته ..

= و أرجو أن أحتفل معه بإثبات فرضيتي و استرداد سمعته الضائعة ..

بعد نصف ساعة من الحفر المتواصل برزت أخيراً عظمة الساق من تحت التراب  
فتوقفوا عن استخدام المجارف و تابعوا إزاحة التراب بأيديهم حتى تكشف الهيكل  
العظمي للسيد أسيموتي بكليته .. اقترب بونجاني من القفص الصدري لوالده و  
وجه الضوء عليه .. إنه على بعد ثوانٍ من تكشف الحقيقة المغيبيّة .. فهل استنتاجاته  
صائبة أم أنه يلاحق سرا باً؟! ..!

أخذ يتنقل بضوء الكشف بين الأضلاع .. و فجأة لمع جسم نحاسي مستقر في  
الضلع الثالثة الخلفية اليمنى وسط الظلام كشمس تشرق فجراً، فصدرت شهقات  
عالية من أفواه بلال و أندراوس ، في حين انهمرت الدموع من عيني بونجاني  
بغزارة و سقط على ركبتيه مطلقاً تنهيدة ارتياح عميقة .. ثم اقترب من جمجمة  
والده و قبلها للمرة الأخيرة..

لم يكن ذلك الجسم اللامع سوى الرصاصة التي اخترقت جسد والده في تلك الليلة  
المشؤومة منذ سبع سنوات و قتلته على الفور .. انتزعها بونجاني بالكماشة و  
وضعها في جيب سترته ثم أعاد الثلاثة ردم التراب فوق هيكل والده ، و أخيراً  
أعادوا الحجر الرخامي الى مكانه كأن شيئاً لم يكن، ثم حزموا معداتهم و قفلوا  
عائدين الى منزل بونجاني في سيارة بلال الكهربائية..

نظر بلال إلى وجه بونجاني المنعكس على مرآة القيادة أمامه و ابتسم له..

= مبارك لك شروق شمس الحقيقة من بين أضلع والدك التي احتضنت روحه  
الطاهرة أيها المحقق الفذ .. لقد كنت على قدر توقعاتنا و ثقتنا ، بل أكثر منها ، فقد  
حللت قضية حيرت كثيرين قبلك لسنوات و في يوم واحد فقط ..

= أنت مذهل بالفعل يا صديقي .. أشك أن السير أرثر كونان دويل قد رآك في  
أحلامه عندما اخترع شخصية المحقق شارلوك هولمز الشهيرة ..

أوما بلال برأسه موافقاً على لفظة أندراوس الطريفة و الحقيقية أيضاً ..

= بل أنت أمهر من هولمز نفسه ! و ما هي خطواتك التالية الآن ؟

= لدي لقاء مع أحدهم غداً .. بعدها سألقي القبض على القاتل و أقدمه للعدالة .. عندها سيأتي دورك يا بلال لإعداد حلقة خاصة على قنواتك تشرح فيها القضية بتفاصيلها .. أريدها حلقة مكتملة من كل الجوانب تذهب بسمعة الكاهن لاموسا للأبد كما ذهب هو بسمعة أبي لسبع سنوات عجاف كاملة ذقنا فيها الويلات ..

= قم أنت بإجراءاتك الضرورية يا صديقي و اترك الباقي علي .. فكما أخبرتك يوجد خلفي جيش من ملايين المتابعين من مختلف أديان البلاد تنتظر كلمة مني كي يحدثوا ثورة جذرية على مواقع التواصل الاجتماعي ..

لم ينم بونجاني ذلك اليوم و هو مغمور بمشاعر الرضا و السلام الداخلي أخيراً مع نيران الحماسة و العزيمة تتأجج في روحه لمباشرة الخطوة الأخيرة من مهمته .. فأعد فنجان قهوة ليساعده على الصحو و التركيز ، ثم أخرج ملف القضية من حقيبته الجلدية و قلب بين صفحاته حتى وصل إلى صفحة استجواب النزلاء في الغرفتين الملاصقتين لغرفة والده .. كانت الغرفة **25** هي ما تعنيه .. و قد ذكر في الملف الأسماء الكاملة لنزلائها مع عناوينهم الدائمة و أرقام هواتفهم .. لفت انتباهه أن أحدهم و يدعى فرانسوا يقيم هنا في العاصمة بورتو نوفو ، و لحسن حظه أنه أصغر النزلاء سناً .. فقد كان في سنة ارتكاب الجريمة بعمر **15** عاماً .. أي أنه اليوم بعمر **22** عاماً .. مما يجعله هدفاً مناسباً للاستجواب و الضغط عليه .. قرأ مجدداً اعترافاتهم و جميع المعلومات الخاصة بهم ، فاقتنع أكثر بوجوب البدء من الشاب فرانسوا .. إنه الحلقة الأضعف في السلسلة و عليه قطعها منها ..

نظر الى ساعته .. كانت عقاربها تزحف نحو السادسة صباحاً .. الوقت مناسب تماماً .. أخرج هاتفه و أرسل لفرانسوا رسالة تحتوي كلمات مقتضبة ..

(( أنا صديق يرغب بلقاءك للضرورة القصوى .. هنالك خطر محقق بك

و أريد تحذيرك .. قابلني في مقهى الأصدقاء على الساعة 11 صباحاً

.. سأضع منديلاً أحمر في جيب سترتي كي تتعرف علي ))

ضبط جرس منبه هاتفه على الساعة العاشرة ثم استغرق بالنوم قليلاً كي يستجمع طاقته لمواجهة اليوم الجديد الحافل بالأحداث .. فهو اليوم على موعد مع استجواب دقيق عليه التركيز جيداً فيه و حساب كل كلمة يقولها ، فكل ما سيتقدم من أحداث مبني على نجاح هذا الاستجواب ..

\*\*\*\*\*

على تمام الساعة الحادية عشر جلس بونجاني الى طاولته المفضلة بانتظار الشاب فرانسوا .. و لم تخنه عقلية المحقق و حدسه ، فقد فتح باب المقهى الزجاجي مطلقا ذاك الصوت الحالم من القضبان المعدنية المتدللية فوقه ، ليدخل منه شاب في مقتبل العمر ، أخذ يتلفت حوله حتى سقط بصره على منديل بونجاني الأحمر الذي رفع يده كتأكيد لهويته .. فتقدم الشاب نحوه بقلق فاضح يكاد يتعثر بخطواته حتى وصل الى طاولته ..

= أهلاً بك فرانسوا ..

= من أنت ؟ و ما الذي تريده مني ؟

= سنتحدث و أنت واقف !! .. اجلس يا صديقي ..

تردد فرانسوا قليلاً ثم سحب مقعداً و جلس..

= من أنت ؟

أخرج بونجاني الرصاصة من جيب سترته و وضعها على الطاولة امامهما و قال بهجة جدية منذرة ..

= أنا صديق عائد من الموت منذ سبع سنوات ..

اتسعت حدقتا فرانسوا بفزع و تلفت حوله مرتاباً من كل زبائن المقهى ..

= هل نسيت هذه الرصاصة يا فرانسوا ؟!.. سأنعش ذاكرتك قليلاً .. فندق الحياة

في أويدا .. ليلة رأس السنة .. الغرفة **25** .. المساعد أوزيجبي ..

شحب لون فرانسوا بالكامل و بلع ريقه بصوتٍ مسموع ..

= من أنت ؟ و عما تتكلم ؟

= أخبرتك .. أنا الشخص الذي جاوركم في الغرفة **26** في تلك الليلة .. ألم تتذكرني .. معقول !!

هز فرانسوا رأسه بذهول ..

= ذلك الشخص قتل .. لقد حضرت الشرطة و استجوبتنا .. لماذا تكذب ؟

= أحسنت يا صديقي.. بداية صريحة عظيمة لحوارنا .. لقد قتل ذلك الرجل بالفعل ، و أنت تعرف ذلك لأنك تعلم من هو القاتل جيداً..

ارتبك الشاب أكثر فوقف و صاح بغضب..

= لا أعرف عما تتكلم يا هذا .. لقد كذبت علي بأنني في خطر و تريد تحذيري .. لذا فاللقاء انتهى و سأصرف في الحال..

استدار ليشق طريقه خارجاً ، لكنه سمع صوت بونجاني من خلفه يحذره بنبرة باردة كالصقيع ..

= أنا لم أكذب عليك فأنت في خطر محقق بالفعل قد يجعلك تفني شبابك القادم في الزنازين .. و منقذك الوحيد من ذلك هو أنا لا غير ..

جمد فرانسوا في مكانه للحظات يمزغ تلك الكلمات في عقله .. ثم استدار و عاد الى مقعده فجلس مجدداً و وجه كلماتٍ متوترة و مترددة إلى بونجاني ..

= لديك عشر دقائق كي تخبرني بما تريد .. فلدي عمل هام تركته لأجلك ..

= بل أقل من عشر دقائق .. اسمعني جيداً يا فرانسوا .. لقد قمت صحبة رفاقك بالتغطية على جريمة قتل ارتكبتها صديقكم اوزيجبي في تلك الليلة .. أوكد لك أنّ ملف تلك القضية فتح من جديد و تم العثور على أدلة دامغة تدين اوزيجبي ، لذا سيتم القاء القبض عليه خلال الساعات القادمة .. أما أنتم فستعتقلون بتهمة التستر على مجرم .. أنت لا علاقة لك بالجريمة ، أعلم ذلك جيداً .. و أنا هنا الآن كي أمنحك مخرجاً من تهمة التستر تلك تتقذك من التعفن في زنزانة لسنوات طويلة

، فهل تقبل عرضي هذا ؟ .. أم أنك تفضل قضاء شبابك في زنزانة معتمدة عفنة مع طعام فاسد و سجناء قساة مجرمين بالفعل يحيطون بك !!

نظر إليه فرانسوا بذهول .. ثم قال بنبرة مستسلمة هذه المرة ..

= و ما هو هذا المخرج الذي تتحدث عنه ؟

= أنا محقق في قسم شرطة العاصمة .. و عليك الذهاب معي الى القسم الآن ثم الاعتراف بتفاصيل الجريمة التي شهدتها في تلك الليلة المشؤومة .. و سأبرم معك بالمقابل صفقة التعاون مع التحقيق التي ستسقط عنك تهمة التستر فتخرج بريئاً و تنفذ رقبته .. أود طمأنتك بأنك لن تفوته بأي حرف قبل إبرام تلك الصفقة معك كي تحفظ حقوقك .. الخيار الآخر المتبقي لك هو لقاءنا مجدداً بعد ساعات كمجرم ينتظر المحاكمة .. لا تفوت هذه الفرصة الذهبية .. فالعرض سيلغى في حال اعتراف أوزيجبي بجريمته .. فلن تكون شهادتك ذات قيمة عندها ..

فكر فرانسوا للحظات و هو يعاين عرض بونجاني المغربي و المصيري ..

= أنا لا علاقة لي بما حدث .. بل إنني اختلفت مع أوزيجبي بعد الحادثة بأيام و انقطعت علاقتي به منذ ذلك التاريخ .. لقد هددني بحكم عمله كمساعد في الشرطة أنه قادر على توريطي في جرائم كثيرة تدخلني السجن الى الأبد في حال تفوهت بأي كلمة ، بعد أن شعر بقلقي الشديد تجاه ما حدث في تلك الليلة فساوره شك متفاقم بأنني سأتكلم و أفضحه..

نظر بونجاني في ساعته ..

= أعرف .. لهذا أنا هنا الآن .. لقد انتهت الدقائق العشر .. فهل سترافقني إلى القسم أم نلتقي في محاكمتك ؟ صدقني .. أنا أريد مساعدتك لا أكثر..

= سأرافقك بالطبع .. على أن نبرم الصفقة التي وعدتني بها أولاً .. عدا ذلك فأنا لا أعرف أي شيء عن تلك الليلة ..

= اتفقنا..

\*\*\*\*\*



دخل بونجاني برفقة فرانسوا الى مكتب رئيسه المحقق فوسا ، فابتسم له بونجاني بثقة ثم أخرج من حقيبته الجلدية ورقتين .. ورقة اعتراف فرانسوا مع تفاصيل الجريمة .. و ورقة صفقة التعاون مع الشرطة .. وضعهما أمام فوسا على مكتبه .. فنظر إليه المحقق بدهشة..

= ما هذا أيها المحقق ؟!

= حل قضية مقتل والدي سيدي .. مع شاهد على الجريمة مستعد للاعتراف..

التفت إليه فرانسوا بدهشة .. هذا المحقق هو ابن القتل !!

= هل تمازحني يا بونجاني ؟

= لم أعتد على ذلك سيدي .. اقرأ بنفسك ثم احكم ..

وضع المحقق نظارات القراءة على عينيه ثم أمسك بورقة الاعتراف الأولى و شرع بقراءتها و عيناه تتسعان كلما أوغل في القراءة :

(( أنا المدعو فرانسوا كريس ميكائيل .. أعترف بأنني كنت شاهداً على جريمة قتل السيد أسيموتي إيتا في الغرفة **25** من فندق الحياة في مدينة أويدا ..

الجريمة حدثت على النحو التالي : كنت بصحبة ثلاثة من أصدقائي في تلك الليلة في الغرفة **25** الملاصقة للغرفة **26** التي نزل فيها الضحية أسيموتي .. كانت ليلة رأس السنة و الناس تحتفل في أرجاء المدينة .. شربنا أربعتنا حتى السكر .. و مع حلول منتصف الليل بدأت أصوات العيارات النارية تصدح في سماء المدينة فتحمس أحدها و يدعى أوزيجبي المساعد في قسم شرطة اويدا فأخرج مسدس العمل الذي لا يفارقه و أطلق بدوره عدة طلقات احتفالاً بالمناسبة ، لكنه بسبب سكره الشديد فقد التوازن فأصابته إحدى الطلقات الجدار الخشبي الذي يفصلنا عن غرفة السيد أسيموتي .. ذهلنا جميعاً عندها و ارتبكنا فتوقفنا نصغي لأي صوت ألم أو نجدة صادر من تلك الغرفة ، لكننا لم نسمع أي شيء فتابعنا احتفالنا حتى الصباح كأن شيئاً لم يكن ..

في اليوم التالي سمعنا من موظف الفندق أن السيد أسيموتي عثر عليه ميتاً في فراشه فاجتاحنا الفرع و القلق و بالأخص أوزيجبي الذي حاول استدراك الموضوع

قبل وصول الشرطة إلى الفندق فأغلق الثقب الذي أحدثته الرصاص بمعجون الأسنان ليخفي الدليل الوحيد الذي يشير إلى ما حدث .. و عندما علمنا أن تحريات الشرطة و الطبيب الشرعي توجهت الى مينة طبيعية بسبب احتشاء في عضلة القلب و بأن غرفته كانت موصدة بالكامل مما يؤكد استحالة تعرضه لإطلاق رصاص .. أحجمنا عن ذكر ما جرى فلا فائدة من ذلك .. ثم أدلينا بشهادتنا بأننا لم نسمع أصوات أي صراخ او شجار في ليلة الحادثة أو أي شيء غريب أو مريب ، غادرنا بعدها الفندق متفقين على نسيان الموضوع برمته الى الابد ..

و ها أنا ذا اليوم أعترف بما جرى بالتفصيل مقابل صفقة التعاون مع الشرطة التي ستسقط تهمة التستر على المجرم عني..  
الموقع أدناه فرانسوا كريس ميكائيل ))

رفع المحقق رأسه بذهول ثم نزع نظاراته عن عينيه..  
= إن كان هذا السيناريو صحيحاً فأشهد بأنك محقق فذ لا يشق له غبار يا بني ..  
و بانتظارك مستقبل زاهر حافل بالنجاحات ..

ثم التفت الى فرانسوا..  
= هل تصدّق على ما كتب في هذه الورقة يا فرنسوا ؟  
= بالطبع ، لكن بعد توقيع صفقة التعاون مع الشرطة سيدي..  
= عظيم ، لكن لا يزال هنالك سؤال محير سيد بونجاني !  
= لماذا لم يعثر الطبيب الشرعي على أثر الرصاصة على جسد والدي ؟

ابتسم المحقق فوسا بإعجاب ..

= بالضبط !!

= قبل الإجابة على هذا السؤال أود إعلامك سيدي أنني قمت بإعادة نبش قبر والدي من جديد بنفسي ليل أمس و عثرت على الرصاصة التي هتكت أحشاءه محشورة في أحد أضلاعه .. و ها هي ..

أخرج الرصاصة و وضعها على مكتب المحقق وسط ذهوله..

= أما سبب عدم عثور الطبيب الشرعي على أثرها فهو ببساطة موجود في ملف القضية .. جملة بسيطة في تقرير الطبيب الشرعي لم تلفت انتباه أحد .. و تشير الى وجود جرح صغير للغاية بين كيس الصفن و الفخذ الأيمن لوالدي .. دون وجود أي جرح آخر على جسده .. فالذي حدث بالضبط في تلك الليلة أن والدي كان مستلقياً على فراشه يتابع احتفالات العام الجديد على شاشة التلفاز عندما أطلق أوزيجبي رصاصته الثملة فاخترقت الجدار الخشبي بين الغرفتين **25** و **26** ثم جسد والدي قرب فخذه لتسحق أحشائه قبل أن تستقر في أحد أضلاعه أخيراً .. و ببساطة الطبيب الشرعي لم يفكر بسيناريو القتل بالرصاص لأن ذلك يستدعي فوهة دخول في مكان قاتل كالراس أو الصدر مع فوهة خروج .. أما مكان الجرح الذي عثر عليه فلا يوحي بذلك على الإطلاق فهو في مكان لا يقتل كما أنه بدون فوهة خروج أخرى و لم يعثر على الرصاصة سواءً في جسد والدي أو في الغرفة بعد تفتيشها .. لذا اعتبر الطبيب ذلك الجرح حادثاً قبل وفاة والدي و لا علاقة له بقضية موته ..

ابتسم المحقق له بإعجاب ..

= أنت أبرع محقق قابلته في حياتي أيها الشاب و أروع ابن أيضاً.. لقد انتصرت لأبيك بعد سنوات و ستسترد سمعته خلال أيام بكل تأكيد .. لنباشر على الفور بتوقيع الأوراق كي أصدر أمراً بإلقاء القبض على المساعد أوزيجبي و تقديمه للعدالة التي هرب منها لسبع سنوات كاملة ..

\*\*\*\*\*

أحدثت الحلقة المرتقبة لليوتيوبر بلال المتعلقة بتطورات قضية مقتل والد صديقه السيد أسيموتي ضجة إعلامية هائلة أصابت الكاهن لاموسا بالصمم .. فلم يعد يسمع الأصوات داخل راسه ، ليس ذلك فحسب ، بل عجز حتى عن سماع الأصوات خارجه .. و عزل نفسه في منزله رافضاً لقاء أي أحد خاصة الصحافة .. فقد أعد بلال حلقة متكاملة كضربة قاضية من أربعة أجزاء .. الأول تعريف بديانة الفودو العريقة الروحانية في صميمها و ما عانتها من تشويه لحق بها سواءً من الناس غير المعتنقين لها لدرجة باتت مقرونة في الإعلام بدمى القش التي ترمز إلى الأعداء

و تغرز فيها الدبابيس بقصد إيذائهم ، فأصبحت هذه أول صورة تتبادر إلى الأذهان عند سماعنا بديانة الفودو، علماً أنها صورة دخيلة ملفقة عليها .. فهذه العادة بجوهرها تسعى فقط لتحقيق الأهداف السامية و النبيلة كالنجاح في الدراسة أو العمل أو الزواج ، أما إيذاء الآخرين فلا وجود له على خارطة الديانة أو في قواميسها .. أو من بعض كهنتها الذين شوها صورته أكثر بفتاويهم الكارثية و اتهاماتهم الملفقة للآخرين كما حدث مع السيد أسيموتي و عائلته .. أما الجزء الثاني من الحلقة فطرح فيه بلال آخر المستجدات في قضية مقتل السيد أسيموتي و استضاف فيها الشاب فرانسوا الذي شرح بالتفصيل كشاهد حيّ ما جرى في تلك الليلة المشؤومة .. ثم أتى الجزء الثالث الذي خصه للإطراء على المحقق المحنك بونجاني ابن الضحية و خطوات تحقيقه العبقريّة في القضية و كيف اكتشف حقيقة ما جرى .. من الثقب المحشو بمعجون الاسنان في الفندق إلى نبش قبر الضحية و العثور على الرصاصة ، ثم أخيراً إقناع فرانسوا بالشهادة .. ختم بعدها حلقاته بالجزء الرابع الذي تضمن مقابلة مع الطبيبة النفسية كالوما ابنة الضحية التي تحدثت عن اضطراب الشخصية الحدية وأعراضها ملحة دون تصريح واضح إلى إصابة الكاهن لاموسا بها ، تاركة المشاهدين يصلون إلى مقصدها بأنفسهم .. شكلت تلك الحلقة تحولاً جذرياً في حياة عائلة بونجاني .. و ثورة تصحيح حقيقية في ديانة الفودو سواء داخل دولة بنين أو في إفريقيا و العالم على حد سواء .. فقد أصبحت قضية مقتل أسيموتي بسبب غرابتها و غموضها قضية رأي عام عالمية .. مما ضاعف بالمحصلة متابعي قناة بلال لتتسع خارج حدود بنين .. ليعيش حالة نشوة نفسية هائلة خلال الأسابيع التالية لإطلاق الحلقة على قناته ..

لنتعرّف هنا أكثر على بلال ..

**بلال أحمدو أبو بكر** شاب في الخامسة والعشرين من عمره، بدأت الحياة تفتح له أبوابها واحداً بعد آخر، لا لأنها كانت تحبه بالضرورة، بل لأنها كانت تعرف أن الإنسان قد يُفتن بالعطايا أكثر مما يُفتن بالحرمان. وضعت في يده المال، وألقت على كتفيه الشهرة، وأحاطت اسمه بملايين الوجوه التي لم ير أصحابها وجهه يوماً، فصدق، في ذلك العمر الذي تبدو فيه الأشياء من بعيد أكبر من حقيقتها، أن السعادة هي أن تصبح معروفاً، وأن الثراء هو أن تستطيع شراء ما تشتهي، وأن بلوغ القمة يعني ببساطة ألا ترى فوق رأسك شيئاً آخر.

كان ينقصه شيء واحد فقط: أن يستيقظ.

ولأن الوعي لا يأتي إلى الإنسان عادةً حين يكون مستعداً له، بل حين يكون أكثر اطمئناناً إلى جهله، ظل بلال سنوات يعيش حياته كما لو أنه يمشي فوق سطح ماء هادئ، لا يسأل عما يوجد في الأعماق. كانت أيامه تتشابه حتى ليخيل إليه أن الزمن نفسه قد ملّ من تكرارها؛ يستيقظ، يفتح حاسوبه، يلاحق خبراً جديداً عن مغنٍ أو ممثل، يصنع منه قصة، ثم يراقب الأرقام وهي ترتفع أمامه، قبل أن يخرج إلى سهرة أو حفلة أو رحلة قصيرة، ليعود آخر الليل إلى شقته محملاً بذلك التعب الخفيف الذي لا يصيب الجسد بقدر ما يخدر الروح.

كانت حياته، في حقيقتها، تشبه قصيدة طويلة كتبت بلا شاعر؛ كلمات كثيرة، وإيقاع ظاهر، لكن لا أحد يستطيع بعد الصفحة الأخيرة أن يتذكر بيتاً واحداً منها. ومع ذلك كان بلال يظن نفسه سعيداً.

ثلاثون مليون إنسان كانوا يتابعون قناته الفنية في بنين وفي أنحاء إفريقيا. ثلاثون مليون عين تنتظر منه أن يخبرها ماذا قال ذلك المغني، وماذا ارتدت تلك الممثلة، ومن انفصل عن من، ومن عاد إلى من، وأي فضيحة صغيرة تستحق أن تتحول إلى مادة للفرجة.

وقد عرف بلال، بموهبة تجارية لا تنكر، كيف يحوّل فضول الآخرين إلى مال يدخل حسابه كل شهر.

كان اليوتيوب بالنسبة إليه منجماً لا ينضب.

أما الجامعة، فقد تركها منذ سنوات، ولم يجد في ذلك ما يدعو إلى الندم. لم يكن يوماً طالباً متفوقاً، ولم يكن من أولئك الذين يشعرون أن الكتاب نافذة وأن المعرفة سفر. كان يرى الدراسة طريقاً طويلاً، بينما كانت أمامه طريق أخرى أقصر وأكثر لمعناً. وحين كان أحدهم يسأله عن تركه الجامعة، كان يبتسم ابتسامة رجل يملك جواباً جاهزاً لكل شيء ويقول إن شهادة جامعية كاملة لن تمنحه في عشر سنوات ما تمنحه له قناته في عام واحد.

وكان في كلامه شيء من الحقيقة.

غير أن الحقيقة الصغيرة قد تكون أحياناً أخطر أنواع الأكاذيب، لأنها تمنح صاحبها الثقة التي يحتاجها كي لا يرى بقية الصورة.

كان صديقه أندراوس يعرف ذلك.

كان مختلفاً عنه؛ أكثر قراءة، وأكثر ميلاً إلى الأسئلة، وأقل افتتاناً بالأرقام التي

تلمع على شاشات الهواتف. وكان يحاول، من حين إلى آخر، أن يفتح في عقل بلال نافذة صغيرة، فيحدثه عن العالم الذي يوجد خلف عالم الشهرة، وعن الناس الذين لا يظهرون في الشاشات، وعن الأفكار التي لا تجلب ملايين المشاهدات لأنها تطلب من صاحبها شيئاً لم يعد الجمهور يحبه كثيراً: أن يفكر.

لكن بلال كان يضحك.

كان يرى أن أندراوس يأخذ الحياة بجدية أكبر مما تستحق.

ولم يكن يعرف آنذاك أن الحياة لا تنتقم من الذين يستخفون بها بالصراخ؛ إنها تنتظرهم فقط حتى يطمئنوا، ثم تزيع من تحت أقدامهم الأرض بهدوء.

وكان بلال، دون أن يدري، قد ساهم بشيء من ذلك الضجيج الذي أحاط بعائلة بونجاني بعد موت السيد أسيموتي.

لم يكن هو من اخترع الحكاية، ولم يكن من أشعل الشرارة الأولى، لكنه كان واحداً من الذين شجعوا الناس على تقبل الفضائح ونشرها دون أن يقصد، وساعد آلاف الناس على ابتلاع قصة الكاهن لاموسا دون أن يتوقفوا طويلاً ليسألوا السؤال البسيط الذي يمكن أن يهدم أحياناً مدينة كاملة من الأكاذيب:

كيف نعرف أن ما نصدقه صحيح؟

وكان ذلك هو خطأ بلال.

ليس لأنه كان شريراً، بل لأن قناته تروج لتسطح التفكير وسخافة المحتوى.

وهناك أخطاء لا يحتاج ارتكابها إلى قلب أسود؛ يكفيها عقل نائم.

لكن القدر، الذي كان يعد له حساباً لم يعرف بلال أنه مستحق عليه، لم يكن ينوي أن يعاقبه بالطريقة التي يتوقعها الناس. لم يكن سيأخذ منه المال، ولا الشهرة، ولا الملايين الثلاثين التي صنعت له اسمه.

كان سيأخذ منه شيئاً أثمن.

الصورة التي كان يرى نفسه فيها.

في ليلة شتوية باردة، بعد أسابيع من الحلقة العظيمة التي تناول فيها قضية مقتل السيد أسيموتي، كان المطر يبدأ على استحياء.

قطرات قليلة راحت تطرق زجاج نافذة غرفته بأصابع خفيفة، منتظمة، تكاد تكون

مؤدبة. ولم يكن في ذلك المطر ما يوحي بالعاصفة التي ستأتي بعد قليل؛ كان مجرد همس بعيد، كأن السماء تقف عند الباب ولا تعرف إن كانت ستدخل.  
ثم أخذ الإيقاع يتغير.

قطرة وراء أخرى، ثم عشرات، ثم مئات، حتى صار المطر يصعد في شدته كما يصعد صوت خوسيه كاريراس في أوبرا عظيمة؛ نغمة تتلو نغمة، وطبقة تسلم نفسها إلى طبقة أعلى، إلى أن لا يعود الصوت مجرد موسيقى، بل يصبح قدرًا يتقدم نحو ذروته.

وفي تلك الليلة، كانت ذروة المطر تتزامن مع ذروة أخرى لم يكن بلال قادرًا على رؤيتها.

كان جالسًا أمام حاسوبه يعد حلقة جديدة لقناته عن مطرب روسي شهير توفي بعد معاناة طويلة مع السرطان. كان قد جمع عشرات المعلومات عنه، وقلب أرشيف صورته ومقابلاته، ثم توقف فجأة أمام إحدى الصور.  
ابتسم.

كان هناك شبه غريب بين الرجل وأندراوس.

نفس التقاطيع تقريبًا، شيء في العينين، انحناءة الفم، وربما ذلك التعب الخفي الذي لا يظهر في الصور إلا لمن يعرف صاحبه جيدًا.

تمتم بلال لنفسه بالمثل القديم:

«يخلق من الشبه أربعون»

ثم عاد إلى عمله.

لم يكن يعرف أن التشابه الذي أثار فضوله في تلك اللحظة سيكون آخر ما يشغله في تلك الليلة.

فقد أضاء هاتفه فجأة.

نظر إليه بلا اهتمام.

ثم تغير وجهه.

كانت رسالة من نيكولا نكوسي، أحد أشهر صنّاع المحتوى في جنوب إفريقيا والقارة الإفريقية، صاحب البرنامج الجماهيري المعروف باسم «نزال ثقافي»؛

البرنامج الذي يستضيف فيه مشاهير القارة من صنّاع المحتوى، ثم يضعهم في مواجهات تقوم على المعرفة والسرعة والذكاء، حيث لا تكفي الشهرة لإنقاذ صاحبها إذا خائته ذاكرته أمام ملايين المشاهدين.

قرأ بلال الرسالة مرة.

ثم مرة ثانية.

بقي للحظات لا يفعل شيئاً.

كانت الدعوة واضحة: نكوسي يريد ضيفاً في البرنامج.

رفع بلال عينيه عن الهاتف، ونظر إلى النافذة.

كان المطر قد أصبح أكثر كثافة، والمدينة وراء الزجاج بدت كأنها تغرق ببطء في ستارة من الماء.

ابتسم.

لقد رأى في الدعوة ما لم يره أحد سواه.

لم يرَ برنامجاً فقط.

رأى قارة كاملة تفتح له بابها.

ورأى ثلاثين مليون متابع يمكن أن يصبحوا ثلاثمئة مليون.

ورأى إفريقيا تتحول من خلفية بعيدة لمقاطع قنواته إلى مسرح حقيقي يمكن أن يقف فوقه اسمه.

لذلك لم يتردد.

وافق.

وبعد أيام قليلة، كان بلال في الطائرة المتجهة إلى جنوب إفريقيا، للمرة الأولى في حياته.

جلس قرب النافذة، يراقب السحب الممتدة تحت الطائرة كجزر بيضاء في بحر لا نهاية له، ولم يكن يعرف أن بعض الرحلات تبدأ قبل أن يصل المسافر إلى المطار؛ تبدأ في اللحظة التي يقرر فيها القدر أن يضع أمامه باباً لا يعرف إلى أين يقود.

كان متحمساً.



جنوب إفريقيا بالنسبة إليه لم تكن مجرد بلد جديد يزوره، بل صفحة من التاريخ لا تزال آثار النار ظاهرة على حوافها. بلدٌ عرف كيف يحمل جرحه أمام العالم دون أن يسمح له بأن يصبح قدرًا أبدياً؛ بلدٌ خرج من ظلال العنصرية كما يخرج الإنسان من ليل طويل، لا وقد نسي الظلام، بل وقد تعلّم أن يصنع من ذاكرته نورًا.

تخيلها بيانو ضخماً ظل العالم طويلاً يعتقد أن مفاتيحه البيضاء والسوداء لا يمكن أن تعزف معاً، ثم جاءت أيدي كثيرة، بعضها مرتجف وبعضها مضرج بدم السنوات، وراحت تجمع النغمات المتنافرة حتى خرج من الآلة لحن لم يكن أحد يعرف إن كان ممكناً.

لحن العيش المشترك بسلام.

كان بلال ينظر إلى الأرض من نافذة الطائرة، غارقاً في أفكاره، ويظن أنه ذاهب إلى جنوب إفريقيا ليشترك في برنامج تلفزيوني.

ولم يكن يعلم أن البرنامج لم يكن سوى الباب.

وأن ما ينتظره خلفه لم يكن شهرة جديدة، ولا أرقاماً أكبر، ولا حتى مغامرة عابرة.

كان ينتظره شيء سيجعله ينظر إلى حياته كلها من الجهة الأخرى.

شيء سيجعله يفهم، للمرة الأولى، أن الإنسان قد يقضي نصف عمره وهو يطارد صورته في المرآة، ثم يحتاج إلى حادثة واحدة فقط كي يكتشف أنه لم يكن يعرف وجهه أصلاً.

وكانت القيادة إفريقية قد بدأت بالفعل...

لكن بلال لم يكن قد سمع بعد صوت السيوف.

\*\*\*\*\*

## جنوب أفريقيا ..

## جوهانسبورغ...

جلس بلال على كرسيه المريح في الاستديو منتصب القامة مزهواً بنفسه كطاووس يتباهى بشهرته و بقناته ذات العدد الأكبر من المتابعين في بلده بنين و من الأكبر

في إفريقيا ككل.. جاهلاً تماماً بأن هذا الكرسي ذاته سيتحول بعد دقائق قليلة إلى مزيج من المسامير و الأشواك الملقاة على طريق التغيير الإيجابي ..

فقد كان نذ بلال في تلك الحلقة هو صانع محتوى ثقافي من الجزائر يدعى **ساجد عبد القوي** واسع الاطلاع و الثقافة ، لذا بدت المنافسة بينهما بعد لحظات على أسئلة المسابقة التي كانت بأغلبها ثقافية و عن المعلومات العامة .. كصراع في ملحمة إغريقية بين مسخ مشوه عاجز نصفه إنسان و نصفه حيوان و إله عملاق لا حدود لقدرته و لا يعرف الموت طريقاً له .. فمع تنالي الأسئلة الثقافية عليه و احتكار ساجد للإجابات الصحيحة كملاكم يكيل له اللكمات من كل جهة بدا الإحراج واضحاً على وجه بلال رغم محاولته البائسة افتعال الضحك و تجاهل الموقف .. فقد ظهر بشكل جليّ جاهلاً بالكثير من حقائق الحياة و العلوم حتى البسيط منها ..



و كانت قمة الإحراج و الضربة القاضية له التي أسقطته أرضاً مضرجاً بدماء الخيبة و الجهل عندما طرح اليوتيوبر نيكولا سؤال سرعة مضمونه..  
= تذكر بسرعة شخصاً مشهوراً باسم هومر..

ضغط بلال الزر مسرعاً و قد أحس بنشوة الانتصار بأنه عرف أحد الأجوبة أخيراً .. و قال بثقة ليست في موضعها على الإطلاق ..  
= هومر سيبمبسون ..

هنا غرق نيكولا و ساجد في نوبة ضحك قوية و كأنهما يشاهدان مسرحية ساخرة

للكاتب الفرنسي جُون بَابْتِيسْت بُوكْلَان (موليير) .. في هذه اللحظة بلغ إحراج بلال الذروة و هو يجهل تماماً سبب ضحكهما .. ثم خف الضحك تدريجياً كعاصفة هوجاء تنحسر على حياء مخلفة وراءها روح بلال ركاماً و نفسه أشلاء ممزقة.. و قال نيكولا مازحاً ..

= الله عليك يا بلال .. هذا ما ينقص حلقات مسابقتي .. لمسات كوميدية .. نحن نتحدث عن شخصيات بشرية مشهورة و ليس كرتونية مع احترامنا للمسلسل الكرتوني عائلة سيمبسون الذي أضحكنا جميعاً لكنه ليس محور سؤالنا بالطبع.. ينتقل السؤال إلى ساجد..

= الشاعر الإغريقي هوميريروس أو هومر الذي يعتقد غالباً أنه مؤلف ملحمتي الإلياذة و الأوديسة..

= مذهل يا ساجد .. ما هذه المعرفة الواسعة .. أنت موسوعة بشرية .. **13** نقطة لساجد دون أي نقطة لبلال .. يبدو أنني سأحول أسئلة بلال إلى الوسط الفني كي تتساوى موازين القوى ..

لم يعرف بلال كيف انتهت الحلقة.

كل ما كان يعرفه أنه خرج من الاستديو وكأنه خرج لتوّه من تحت أنقاض معركة لم يُمنح فيها حتى شرف حمل السلاح. كانت الأسئلة قد انهالت عليه طوال الحلقة كقذائف لا تتوقف، سؤالاً إثر سؤال، حتى بدا الأمر في لحظاته الأخيرة أشبه بغارة حربية أفرغ فيها عقلٌ شريرٌ كل ما اخترعه من أسلحة فوق رأس جندي أعزل، وحيد، يقف في ساحة مكشوفة لا يجد حوله سوى الدخان والنار، ولا يفكر في النصر أصلاً، بل في النجاة.

كان قد دخل الاستديو قبل ساعات وهو يحمل في داخله ذلك اليقين الساذج الذي تصنعه الشهرة؛ يقين الرجل الذي اعتاد أن يتحدث إلى الملايين، فظن أن الحديث إلى الملايين يعني أنه يعرف شيئاً يستحق أن يُقال. لكنه خرج منه وقد تهاوت تلك الصورة قطعة بعد أخرى، حتى لم يبقَ منها إلا رجل يمشي أمام الآخرين بجسد سليم، بينما كانت صورته عن نفسه تنزف في مكان لا يراه أحد.

ولو كانت حياته رواية خيال علمي، لربما عجز الكاتب عن إيجاد مخرج لبطلها في تلك اللحظة؛ فكل الأبواب أغلقت، وكل الحيل استنفدت، ولم يبقَ أمام البطل سوى أن يمضي إلى الفصل الأخير مهزوماً، حاملاً ما تبقى من كرامته بين يديه.

لكن الحياة، لحسن حظ بلال، ليست رواية يكتبها بشر.

فالكاتب الحقيقي كان هناك، في مكان لا تصل إليه عيوننا، يضع الفواصل والنقاط حيث نظن أن النص انتهى، ويفتح الأبواب في الجدران التي نظنها صماء. القدر لا يترك حكاية ناقصة؛ إنه يؤجل أحياناً الصفحة التي لا نفهم معناها إلا بعد أن نقرأ الصفحات التالية.

خرج بلال من الاستديو محاولاً أن يضحك على ما حدث، وكأن روح الدعابة يمكن أن تكون ضماداً سريعاً للكرامة حين تُجرح أمام جمهور قارة كاملة. لكنه، خلف ابتسامته المتكلفة، لم يكن يرى إلا وجه واحد. وجه أندراوس.

صديقه القديم؛ ذلك الشاب الذي لم يكن يملك من المال إلا القليل، لكنه كان يحمل في رأسه ثروة لا يستطيع مصرف أن يحصيها. كان أندراوس قد حذره مراراً من الطريق الذي اختارته قناته، ومن ذلك الانزلاق البطيء نحو السطح الذي يبدأ بالتفريغ وينتهي أحياناً بتسطيح الإنسان نفسه.

كان يقول له إن الشهرة التي لا تسندها معرفة تشبه قصرًا بُني على الرمل؛ قد يبدو شامخاً من بعيد، لكن أول موجة كافية لتكشف حقيقة أساساته. وكان بلال يضحك كل مرة.

أما الآن، فقد عاد إليه كل شيء.

كل نصيحة.

كل تحذير.

كل نقاش انتهى بينهما باختلاف في الرأي.

وللمرة الأولى، لم يشعر أن أندراوس كان يبالغ.

كان قد قال له ذات يوم إن القناة ستقوده إلى مكان لا يستطيع الخروج منه بسهولة. وها هو هناك.

وحيد.

أعزل.

وقد صدقت النبوءة التي لم يكن يريد أن يسمعها.

حين عاد إلى منزله في بورتو نوفو، كان الليل قد ابتلع الشوارع، لكن بلال لم يشعر أن المدينة من حوله موجودة أصلاً. أغلق الباب خلفه، وضع مفاتيحه فوق الطاولة، وبقي واقفاً في الصالة للحظات طويلة، كأنه دخل بيت شخص آخر ولا يعرف ماذا يفعل فيه.

جلس أخيراً.

ثم أطفأ الأنوار.

لم يكن يخشى الظلام، لكنه كان يحتاج إليه.

كان يشعر بإحراج لم يعرف مثله من قبل؛ إحراج لا يأتي من الآخرين بقدر ما يأتي من المرء حين يكتشف فجأة أنه كان يجهل نفسه أكثر مما كان يجهل العالم. فتح هاتفه.

كانت الحلقة قد نُشرت.

وكانت التعليقات تنهال.

قرأ بعضها.

ثم أغلق الهاتف.

فتحه بعد دقيقة.

قرأ المزيد.

ثم بدأ يتوقف عند بعضها رغماً عنه.

السخرية كانت في كل مكان.

التهكم.

المقارنات.

الضحكات.

وكانت عبارة واحدة تتكرر أكثر من غيرها، حتى بدت له كأن آلاف الأصوات انفقت على قولها في الوقت نفسه :

«أين الثرى من الثريا؟»

ظل ينظر إليها طويلاً.

ثم وضع الهاتف على الطاولة.

لأول مرة، لم يغضب من الناس.

ولم يفكر في حذف التعليقات.

ولم يقل لنفسه إنهم حاقدون أو أغبياء أو لا يفهمون.

جلس فقط.

وفكر.

وكان ذلك، بالنسبة إلى بلال، حدثاً أكبر من الحلقة نفسها.

مرت الأيام التالية بطيئة.

وفي أحد الصباحات، استيقظ بلال قبل مواعده بساعتين. لم يكن هناك تصوير، ولا مقابلة، ولا إعلان ينتظره، ولا خبر عن مشهور يستطيع تحويله إلى فيديو. جلس أمام مكتبه، وأخذ يحدق في شاشة الحاسوب السوداء.

بدت له الشاشة فجأة كمرآة.

وللمرة الأولى لم يرَ فيها صورته.

رأى حياته.

رأى السنوات التي مرت وهو يطارد الأرقام.

رأى ثلاثين مليون متابع، ثم سأل نفسه السؤال الذي لم يخطر له من قبل:

كم واحداً منهم يعرف شيئاً عني حقاً؟

ثم جاء السؤال الأصعب:

وكم شيء أعرفه أنا عن العالم الذي جعلني مشهوراً؟

لم يجد جواباً.

وهنا بدأ التغيير.

لم يكن انفجاراً مفاجئاً، ولا صحوّة مسرحية تحدث بين ليلة وضحاها؛ كان أشبه بشق صغير ظهر في جدار قديم، ثم أخذ يتسع ببطء حتى بدأ الضوء يتسلل منه.

قرر بلال أن يغلق قناته الفنية مؤقتاً.

وحين فعل ذلك، شعر للمرة الأولى منذ سنوات أن شيئاً ثقیلاً انزاح عن صدره.  
ثم بدأ مشروعه الجديد.

أنشأ قناة أخرى، واختار لها اسماً بسيطاً، لكنه بالنسبة إليه كان يحمل معنى أكبر من بساطته:

(( اقرأ ))

كان الاسم إشارة إلى أول كلمة من أول وحي أرسله الله إلى النبي محمد عبر الملك جبريل؛ كلمة تختصر في حرفين أو ثلاثة، ما قد تحتاجه أمة كاملة كي تنهض: اقرأ، لأن الإنسان الذي يتوقف عن القراءة يبدأ بالتراجع، والحضارة التي تكف عن السؤال تبدأ في التحول إلى أثر.

لم يكن بلال يريد أن يصبح أستاذاً، ولا فيلسوفاً، ولا عالماً.  
كان يريد أن يتعلم أولاً.

ولهذا قرر أن تكون كل حلقة رحلة؛ مرة إلى علم، ومرة إلى أدب، ومرة إلى تاريخ، ومرة إلى فكرة لم يسمع بها من قبل. لم يعد يريد أن يخبر الناس ماذا قال المشهور، بل لماذا حدث الشيء أصلاً. لم يعد يريد أن يملأ الوقت، بل أن يترك في ذهن المشاهد شيئاً يبقى بعد انتهاء الفيديو.

وكان ذلك أصعب بكثير.

لكنه كان، للمرة الأولى، يشعر أنه يفعل شيئاً يستحق أن يفعل.

وحين عرف بونجاني وأندراوس بما حدث، لم يعاملوه كما لو أنه ارتكب جريمة. ضحكا معه، وتعاملوا من حادثة جوهانسبرغ باعتبارها كبوة عابرة، وأكدوا له أن من الطبيعي ألا يعرف الإنسان الإجابة عن أسئلة في مجالات لم يدرسها، وأن عمله لم يكن يتطلب منه أن يكون موسوعة تمشي على قدمين.

لكن كلامهما، رغم صدقه، لم يصل إلى المكان الذي انكسر فيه بلال.  
كان قد رأى نفسه.

ومن يرى نفسه مرة بوضوح، لا يستطيع أن يعيد النظر إليها بالطريقة القديمة بسهولة.

لذلك مضى.

ومع انطلاق قناة «أقرأ»، حدث في داخله شيء لم يكن يتوقعه.

بدأ يشعر بالحياة وهي تعود إلى عروقه ببطء، كما يعود الدم إلى طرف نام طويلاً.

كان يقرأ قبل أن يكتب.

ويبحث قبل أن يتحدث.

ويشك قبل أن يصدق.

وكلما فتح كتاباً جديداً، اكتشف أن العالم أوسع مما ظنه، وأن ما كان يسميه «المعرفة» لم يكن سوى شرفة صغيرة وقف عليها سنوات طويلة وهو يعتقد أنه يرى المدينة كلها.

حتى الأشياء من حوله بدأت تتغير.

الشوارع نفسها بدت له مختلفة.

الناس الذين كان يراهم مجرد وجوه عابرة صار لكل واحد منهم حكاية، والحكايات بدت له أكثر إثارة من أخبار المشاهير التي عاش سنوات يطاردها. حتى صمته صار مختلفاً؛ لم يعد فراغاً، بل مساحة تتجمع فيها الأسئلة.

واكتشف بلال شيئاً آخر.

أن المال يستطيع أن يشتري للإنسان سريرًا مريحاً، لكنه لا يضمن له نومًا هادئاً. وأن الشهرة تستطيع أن تجعل ملايين الناس يعرفون اسمك، لكنها عاجزة عن إخبارك من تكون.

وأن الإنسان قد يصل إلى أعلى مكان في العالم، ثم يكتشف أنه كان يصعد سلماً لا يؤدي إلى أي مكان.

شيئاً فشيئاً، انحسر ذلك الغرور الذي كان يسكنه.

لم يعد يتحدث كما لو أن العالم أصغر من رأسه.

صار يصغي أكثر.

يسأل أكثر.

ويعترف، دون خجل، بأنه لا يعرف.



وكان ذلك الاعتراف أول علامة على أنه بدأ يعرف.  
فقد أدرك أخيراً أن المعرفة الحقيقية لا تمنح الإنسان عنجهية العارف، بل تواضع  
من أدرك اتساع ما يجهره.  
ولذلك، كلما قرأ أكثر، انحنى رأسه أكثر.  
مثل سنبلة امتلأت حتى أثقلها ما فيها.  
أما الفارغة، فتبقى واقفة، شامخة، لا لأنها أعلى من غيرها، بل لأنها لا تحمل في  
داخلها ما يجعلها تنحني.  
وهكذا، دون أن يشعر، بدأ بلال يتحول.  
لم تعد حادثة جوهانسبرغ في نظره فضيحة يريد نسيانها.  
صارت الجرح الذي دخل منه الضوء.

كانت أول حلقة يعدّها بلال على قناته الثقافية الجديدة تحت عنوان غريب :  
( قيمة الجرس برئته ) ..

ظهر فيها بوجهه و صوته الحقيقي وبكل فخر و ثقة و دون إحراج، فأولى ثمار  
المعرفة و الثقافة هي الثقة العالية بالنفس و عدم الاكتراث بما يقوله الناس عنك ،  
بل أنك تحصل على تقييمك من ذاتك فحسب ..

بدأ الحلقة بسؤال المشاهدين عبر دعاية :

= هل تعرفون ما هي أطول كلمة في اللغة الإنجليزية .. ؟

إنها كلمة **smiles** لأن هنالك ميلاً ( **mile** ) بين أول حرف **s** و آخر حرف  
**s** ..

ثم أردف و هو يبتسم..

= اقرأ تمتع و ابتسم .. الجواب على هذا السؤال هو كلمة طويلة للغاية من **45**  
حرف أصعب من أن تنطق و هي المرض الرئوي الذي يسببه غبار ثاني أكسيد  
السليكون المنبثق عن انفجار البراكين .. أترون الدعاية تجعل العلم أكثر إمتاعاً.

بعد حلقة مشجعة على القراءة ، العلم و الثقافة استشهد فيها بلال بمزيج رائع من  
المعلومات الثقافية و أقوال الحكماء التي تكون لوحدها في الحالة العادية مملة لا

تجذب الاهتمام لكن بأسلوب بلال الشيق الجديد أصبحت ممتعة ، قريبة للعقل و الروح معاً .. كيميائي ماهر اكتشف حجر الفلاسفة فأصبح يحيل الحجارة التي لا قيمة لها و يرميها الجميع بعيداً ذهباً قيماً لا تشوبه شائبة يعجب به الناس بأسرهم .. ثم ختم مستهل حلقاته على قناة ( اقرأ ) بالقول :

= إن أكبر جرس في العالم قد تمّ بناؤه في موسكو عام **1733** ويقدر وزنه بنحو **200** ألف كيلوغرام، لكنّ ذلك الجرس لم تصدر عنه حتى رنة واحدة... فقد تكسّر، خلال صنعه، بفعل حرارة النار!

كلّ تلك الجهود ، التكاليف ، التخطيطات والآمال تحوّلت في لحظة الى لا شيء.. و غدت مجرد كومة من المعدن تنتصب في روسيا كرمز للفشل .. إنّ ذلك الجرس الضخم بقي مجرد عملاق كسيح وأخرس، لكنّ الرّشاقة وفصاحة «الرّنين» كانتا من نصيب الأجراس الأصغر.. إنّ حجم الجرس الهائل انهار مباشرة عند أول اختبار له بنيران الحياة..

و هكذا فإنّ قيمة الجرس ليست بحجمه بل برنّته.. و قيمة الإنسان ليست بجماله و لا بعضلاته و لا بثرائه و لا بنسبه .. قيمته بثقافته و عقله .. هذه دعوة لأبناء الشعب الإفريقي عامة و وطني بنين خاصة إلى القراءة أكثر و تثقيف ذاته ليصبح فاعلاً و ذي معنى في هذه الحياة .. فاهتمام قسم كبير منه أصبح للأسف بأمور سطحية لا تبني وطناً و لا تورث عزاً..

سرعان ما انتشرت قناة بلال على اليوتيوب و بلغت مليون متابع في وقت قياسي ، صحيح أنه أقل من تعداد متابعيه على قنواته الفنية .. لكنه الآن يعي تماماً أن إفادة شخص واحد بمعلومة قيمة قد تغير حياته خير من حشو القش في أدمغة الملايين بدون فائدة عليهم أو على المجتمع عبر أخبار الفضائح و القيل و القال ..

طبعاً الفن جميل و ممتع ، لكنه يأتي في درجات لاحقة بعد الثقافة و العلم و على المجتمع أن يغير بوصلته في هذا الشأن بعد أن تاهت البوصلة تماماً في زمن الترهات و تسطح العقول ..

\*\*\*\*\*

ترويض الجينات

( ترويض البقاء الخمسة )

روسيا / موسكو ...

المشفى المركزي ..

كانون الثاني .. عام 2051 ..

الساعة 11 صباحاً ..

جلست الشابة العشرينية الصهباء في غرفة الفحص النسائي تتأمل اللوحات و  
المجسمات الطبية التي تزين أرجاء الغرفة و تنطق بفصاحة عن توجهها .. لحظات  
أخرى و فتح الباب ليظهر طبيب وسيم في الثلاثين من العمر ، ابتسم لها و أغلق  
الباب خلفه..

= أهلا بك آنسة..

= فريا..

= آنسة فريا ..أنا الطبيب ريستورس .. اسم مميز غريب على مجتمعنا..

ابتسمت له..

= إنه اسم إحدى الأساطير الإسكندنافية .. أُمي أطلقته عليّ فهي نرويجية..

= ميثولوجيا غنية و عريقة كما سمعت.. و ما هي الشكوى التي أتت بك إلى  
المشفى .. ؟

= مجموعة أعراض غريبة ، لو لم أكن متأكدة من استحالة حملي بطفل .. لقلت  
أنني حامل..

= أعراض من قبيل ؟

= اقياءات صباحية و تأخر في دورتي الشهرية للشهر الثاني تواليا..

هز الطبيب رأسه بتعجب..

= إنها أعراض الحمل بالفعل .. و لماذا أنت متأكدة من استحالة حملك ؟

= لأن شريكي عقيم .. و ذلك بتشخيص مجموعة أطباء محنكين !  
= سنرى .. سنستعين بصديقنا الذي لا يكذب .. الايكو .. و سيكشف لنا حقيقة  
الوضع .. رجاء تمددي على سرير الفحص و اكشفي عن بطنك..

نفذت فريا توجيهات الطبيب الذي اتجه إلى جهاز الإيكو فأمسك بمقبضه و وضع  
مادة هلامية عليه ثم أخذ يتنقل بين أجزاء بطن فريا المرتجف من برودة المادة ..  
حتى وصل إلى منطقة محددة منه ثم ركز الفحص أكثر فيها .. التفت بعدها الى  
فريا و ابتسم..

= لدي خبران ساران لك سيدة فريا..



قوست فريا حاجبيها بدهشة..

= خبران معا ؟

= بلا شك ..

= وهما.. ؟

= الخبر الأول أن شريكك غير عقيم على الإطلاق .. و الثاني كما تستنتجين من  
الأول أنك حامل بكل تأكيد..

تغيرت ملامح وجهها جذرياً ..

= هذا مستحيل أيها الطبيب !! ..

= العلم لا يكذب سيدتي..

= لكن العلم نفسه أكد اصابة شريكي بالعقم !

= لا أستطيع البت في هذه النقطة فأنا لست مطلعاً على التحاليل و الاختبارات التي أجريت عليه .. لكنني متأكد من الدليل الكائن بين يدي .. أنت حامل دون أية ذرة شك فكيس الحمل واضح على نحوٍ لا لبس فيه ..

و أشار بإصبعه الى نقطة بيضاء وسط السواد..

= على كل حال ، إن كان قرارك هو عدم الاحتفاظ بالجنين فعليك اجراء ذلك في أقرب مناسبة .. لأنه كلما كان عمر الحمل أكبر زادت خطورة الاجهاض أكثر ليصبح مهدداً للحياة..

= إجهاض ! لا .. لا .. أريد الاحتفاظ بالجنين بالطبع .. إنه خبر صاعق لكن بشكل إيجابي يعني الكثير لشريكي .. فهو يائس و محبط للغاية من تشخيصات الأطباء السابقين ..

سحب الطبيب مجموعة مناديل ورقية و مسح اثار المادة الهلامية عن جسد فريا = عظيم .. هكذا نكون قد انتهينا .. يمكنك الانصراف الآن .. مبارك لك هذه الأخبار السارة و اطلبي عند خروجك كتيب وصايا الحمل الطبية من الممرضة.. اقرئيه بتمعن فأنت على وشك اختبار تجربة جميلة بلا شك ، لكنها حساسة و بحاجة لتعديلات كثيرة في نمط الحياة حفاظا عليك و على جنينك..

نهضت فريا تعدل من هندامها ثم أمسكت حقيبتها..

= أشكرك حضرة الطبيب ، لطالما تخيلت المشفى مرتعا للبوم و الغربان الذين ينهالون علينا بالأخبار السيئة المشؤومة ، لكنك أشبه بحمام زاجل يزف الرسائل المبهجة..

ابتسم لها الطبيب..

= في الخدمة .. هذا واجبي .. إنّ ردائي ليس أبيضاً عن عبث..

ابتسمت فريا لملاحظته ثم شقت طريقها إلى خارج المشفى مفعمةً بالسعادة و الثقة بنفسها ، بقراراتها و قناعاتها في الحياة .. تلك القناعات التي صنعت منذ عامين شرخاً عميقاً بينها و بين أختها ماريانا ، زوجة سيرغي السابقة .. فعندما اكتشفت أختها ذات يوم و بمحض الصدفة المعدن الحقيقي لزوجها بما نقش عليه من جرائم قتل ، فساد و اغتصاب .. ارتاعت بطريقة لم تختبرها طوال حياتها ، ثم طلبت الطلاق منه بتصميم بعد أن خذلها و خدعها بشبكة الأكاذيب التي حاكها حوله .. لكن ردة فعله كانت غاضبة و عصابية على نحو أروعها أكثر فأخرج الشيطان القابع في أعماقه .. صفعها بقوة على وجهها لأول مرة في حياتها..

= أتجروين على طلب الطلاق يا عاهرة .. الخطأ خطأي من الأول عندما أويت قليلة أصل مثلك في قصري و منحنتها شرف الزواج العظيم بي .. اخرجي من مكثبي .. من اليوم فصاعداً ستعيشين مع أختك فريا في غرفتها .. علاقتنا انتهت ، لكنك لن تغادري .. فأني فتاة حظيت بشرف إقامة علاقة معي لن أسمح لها بإقامة علاقة مع اي شخص آخر غيري .. و لو فكرت للحظة واحدة في مغادرة هذا القصر فستكون تلك نهايتك الوخيمة .. هل فهمت .. ؟

= تريدني جارية اذاً ؟

= بل غيشا يابانية كما كنت قبل الزواج .. و عليك شكر السماء في كل ثانية على هذه الهبة..

لاحقا في ذاك اليوم انفردت ماريانا بأختها فريا في غرفتها .. بكت بقهر لساعات و هي تسرد عليها أي كذبة كبيرة خدعت بها .. و أي وحش هو سيرغي .. حاولت إقناعها بالهرب معها و السفر الى النرويج بلاد امها فلهما أقارب هناك ، لكن رد فعل فريا كان صدمةً أكبر بسنين ضوئية من صدمة سيرغي .. فريا الفتاة بعقلية ميكافيلية مع الغايات التي تبرر الوسائل .. و قناعات بأن الفرص تمر في حياتنا كسحابة صيف علينا التشبث بها بأسناننا و أظافرنا .. لم تكتثر لوحشية سيرغي و ماضيه الأسود ، لم يعنها ذلك بشيء .. ما يهمها على أرض الواقع هو ما منحهما إياه في قصر الأحلام هذا كأميرات .. فقد عانت فريا من طفولة بائسة مريرة بعد وفاة والدتها و تخلي أبيهما السكير عنهما و انشغاله بالفتيات و الشرب .. تاركاً لماريانا الأخت الكبرى مسؤولية تربية و إعالة عائلتها المؤلفة من ثلاثة ذكور ..

ساشا ، أريجو و أودين ، و فتاتين هما فريا و ماريانا .. لقد أرسل سيرغي الأبناء الذكور الصغار الى مدرسة داخلية في سانت بطرسبورغ .. في حين انتقلت فريا للعيش مع أختها..

= ما الذي تقولينه يا أختي .. سيرغي شيطان بمئة وجه .. و نهايتنا وخيمة كمحظيات إن بقينا في قصره .. لاسيما أنني لم أنجب منه .. عليك الاصغاء لي و الهرب سوياً الى سانت بطرسبورغ كي نلتقي بأخوتنا ثم نسافر جميعنا إلى مدينة بيرغن النرويجية مسقط رأس والدتنا .. فهناك لدينا أقارب يحموننا و لن يتكبد سيرغي عناء ملاحقتنا كل تلك المسافات ، لينسانا بعد زمن..

= لا .. هذا كلام فارغ .. و قرار غبي .. لقد منحتنا السماء فرصة ذهبية انتشلتنا من براثن الفقر و الحاجة و لن أتخلى عنها بأي شكل من الأشكال .. سيرغي ليس شيطاناً كما تعتقدين بل رجل بعقلية خاصة تتطلب براعةً و وعياً في التعامل معها .. عندها سيمنحك كل شيء تحلمين به..

= واهمة..

= حمقاء..

= و إن قررت الهرب بمفردي .. ستبقين هنا لوحدهك ؟

= أجل .. لكل منا شخصيته المستقلة و قراراته الخاصة .. إن فرطت أنت بنعمة السماء فلن أفعل..

= عن أي سماء تتحدثين .. أنت الآن في جحيم عالم الأموات الذي يحكمه هاديس ( سيرغي ) مع كلبه ذي الرؤوس الثلاثة أناتولي ، و لن تخرجي منه سوى جثة هادمة كما فعل بغيرك..

= مفترية .. بالطبع لن أغادر قصره سوى جثة فأنا سأبقى هنا حتى آخر يوم من حياة النعيم التي منحني إياها القديس سيرغي..

= قديس !! يا لك من ساذجة تلاحق سراياً ..

= و يا لك من جاحدة تغادر واحة غناء إلى لهيب الصحراء القاحلة..

= و هل ستخبرين سيرغي بنيتي بالهروب ..؟

= لا .. و اعتبري هذا آخر رابط أخوي يجمعنا .. إن كنت تحبذين حياة الفقر و البؤس فأنا مللت منها و قد نهشت من جسدي ، عقلي ، روحي و نفسي لسنوات..



في ليلة حالكة السواد مع قمر محاق متخفّ في كبد سماء تبكي نجومًا كلالاً براقاً  
كحال وجه ماريانا الهاربة من قصر سيرغي بسيارتها الخاصة حاملةً معها كل ما  
تملكه من مال ، مجوهرات و دموعها التي غصت بها عيناها و قد تركت خلفها  
الشيء الأعلى على قلبها .. أختها الوحيدة التي اكتشفت للأسف أنها غريبة عليها  
و لا تعرف عنها شيئاً كما توهمت لسنوات ..

أما فريا فبقيت في نعيم القصر السحري مع أميرها المخلص سيرغي .. عزفت  
على قيثاره روحه بأنامل محترفة معجونة بكيد النساء فتقربت منه أكثر فأكثر  
لتستحوذ على مكان أختها الشاغر في سريره بعد أشهر فقط من فرارها كمحاولة  
منها إلى التسلق أكثر على جدران قصره و حياته .. لطالما آمن الإغريق قديماً أن  
ذوي الشعر الأحمر يتحولون إلى مصاصي دماء عقب موتهم ، لكن فريا عاشت  
حياتها كمصاصة دماء تستغل من حولها و تمتص سعادتها من أرواحهم **كفلاد  
المخوزق ( دراكولا ) أمير فلاخيا الرومانية ..**

استقلت فريا سيارتها عائدة من المشفى ، قررت زيارة سيرغي في مكتبه الخاص  
لتزف إليه هذا الخبر السعيد الذي لا يقدر بمال بالنسبة له .. وصلت مقره أخيراً  
و توجهت مباشرةً إلى مكتب الاستقبال .. فنهض ديمتري من مقعده كجندي على  
أهبة الاستعداد امام قائده..

= أهلا بك آنسة فريا..

= السيد سيرغي موجود ؟

= بالطبع في الداخل صحبة مساعده أناتولي..

= جيد .. لا تخبره بقدومي .. أجهّز له مفاجأة سارة..

= أمرك سيدتي..

شقت فريا طريقها في البهو الطويل بثقة و معنويات تقارع عنان السماء حتى بلغت  
باب مكتب سيرغي و رفعت يده لتطرقه لكنها سمعت صوت حوار محتدم في  
الداخل فأنصتت للحظات..

= إذا فتلك الفنزويلية خسرت جنينها..

= للأسف..

= لطالما وجدتها عديمة الفائدة حتى في السرير .. انقلها بسرية الى الغابات المحيطة بالعاصمة و تخلص منها هناك..

= و ماذا بشأن ناتاشا و أدليا ؟

= ستبقين في جناحهما الخاص في القصر حتى انتهاء الحمل و الإرضاع ، ثم تخلص منهما بدورهما .. لا أريد لمخلوق سوانا أن يعرف بشأن قصة الحمل هذه ..

= أوامر أخرى ؟

= أجل ، راقب تلك الحمقاء فريا خلال الأيام القادمة .. إنها تغادر القصر كثيراً في الآونة الأخيرة و أشك بأنها تلتقي بأختها الجاحدة ماريانا في مكان ما .. أو أنها إن كانت غبية أكثر تخونني مع أحدهم في الخفاء..

= و في حال ثبتت إحدى التهمتان ؟..

= تخلص منها ، و بأشع طريقة فكلاهما تهمة لا تغفر .. لا أريد اقتناء محظيات خائنات في قصري..

= أنت تأمر .. في الحقيقة أنا لا أستلطفها البتة .. إنها تستغلك يا سيدي بكيدها للتقرب أكثر من حياتك الشخصية و اقتناص ما يمكنها من مكاسب و مزايا..

= هذا ما بدأت أشعر به بنفسي .. و سترى كيدها إلى أي هاوية سيقودها .. فمن يقترب من نيران سيرغي الباعثة للدفع أكثر من اللزوم سيحترق ..

= و في حال عثرت على ماريانا .. أتخلص منها ؟

= لا .. أحضرها إلى القصر .. سأجعلها تتمنى الموت عشرات المرات كل يوم دون أن تدركه ، فماريانا التي وقعت في حبها ماتت منذ هربت من قصري ، تلك هي من سأنجب منها أبنائي القادمين ، أما ماريانا الحالية فهي خائنة تستحق السحق تحت حذائي لأطحن عظامها ..

جمدت فريا في مكانها للحظات و كأن أسطورة الميديوسا الإغريقية نظرت في عينيها فأحالتها تمثالاً حجرياً .. فقدت توازنها و شعرت بأنها على وشك الإغماء لقد انغرسست كلمات سيرغي في صدرها كالوتد الأسطوري الذي يقتل دراكولا في

الأساطير و أشرفت شمس أسطورتها في قصره على الأفول .. سرعان ما تماكنت نفسها فهي قاب قوسين أو أدنى من كارثة حقيقية في حال فتح الباب .. انسحبت من الرواق على عجل وسط دهشة ديمتري..

= هل هنالك خطب ما سيدتي ؟

= نسيت شيئاً في سيارتي .. سأعود بعد قليل .. تذكر وجودي هنا سر فأنا أجهز مفاجأة..

أوماً ديمتري برأسه مندهشاً .. في حين غادرت فريا المبنى فاستقلت سيارتها و روحها ترتجف بين أضلعها .. لقد كانت ماريانا مصيبةً في كل كلمة قالتها ، في حين لم تكن هي أكثر من مغفلة عمياء تلاحق سراهاً .. سيرغي أعطى تعليمات بالتخلص من صديقاتها المقربات في القصر ، لقد اختفين لأسابيع دون أن تعرف السبب ، الذي يبدو من حوار سيرغي و أناتولي أن له علاقة بقصة حمل ، فهل وضعتن علاقتهن الحميمة بسيرغي في الدائرة ذاتها التي دخلتها بنفسها اليوم في المشفى بتأكيد حملها ؟ .. هل سيرغي يعلم أنه ليس عقيماً كما ادعى مع ماريانا و يتخلص من كل فتاة تحمل منه ؟ .. هذا يعني أنه على وشك التخلص منها بدورها .. لذا عليها الفرار بروحها على الفور قبل أن ينتزعها أناتولي قريباً من صدرها بحسب تعليمات سيده ..

مضت في طرقات المدينة على غير هدى .. فهي لا تعرف أي وجهة تقصد .. إن سيرغي قادر على اللحاق بها أينما كانت .. بكت بحرقة على صديقته الفنزويلية أندرينا ، لقد قصّت عليها ذات يوم حكايتها التي تقطر ألماً و معاناة بعد أن اعتدى عليها زوج أمها و هي بعمر الخامسة دون أي اكتراث من والدتها التي أدخلتها لاحقاً في مراهقتها عالم البغاء لتجني المال من جسدها ، قبل أن تتعرف على زبون روسي رقّ لحالها و ساعدها على الهروب إلى موسكو ، ليصفعها القدر مجدداً فتكتشف أنها كانت ساذجة كعادتها و أنّ هذه الحياة عقيمة بالأشخاص الذين يساعدون بلا غايات .. فقد علمت من فاعلة خير أن ذلك الزبون ليس سوى تاجر أعضاء ينوي سرقة أعضائها و بيعها في السوق السوداء ، فهامت على وجهها في طرقات موسكو لأشهر ثم عملت في مبيع يعود لسيرغي .. هنالك التقت بأناتولي ذات يوم فأعجب بقوامها قبل شخصيتها و قدمها هدية لسيده في عيد ميلاده أذهلته و استحوذت على رغباته كأفخاخ الدببة الروسية ، لذا نقلها لاحقاً إلى قصره ليستعدها جنسياً .. إنها نهاية مأساوية مناسبة تماماً لحياة مجبولة بالألم و المأساة.

تصاعدت وتيرة الارتياب في عقلها حتى بلغ ذروته لتتوهم بأن كل سيارة تتبعها تعود لمرافقي سيرغي و بأن ديمتري أفشى سر زيارتها إلى المقر .. دفعتها البارانويا إلى مغادرة مدينة موسكو إلى ضواحيها ثم بلغت الغابات و الجبال المحيطة بها .. قطعت عشرات الكيلومترات تائهة .. إنها تريد في اللاوعي أن تباعد قدر الإمكان عن قصر ذلك الشيطان كي تشعر و لو بقليل من الأمان .. وصلت أخيراً الى طريق مسدود عند سفح أحد الجبال لم تلتفت للخلف ، بل ركنت سيارتها و تابعت الهرب في الجو الصقيعي على الأقدام حتى بلغت الجبل ، لم تتردد للحظة و صعدت الى الأعلى نحو مكانٍ لن يطالها فيه سيرغي كما تتخيل رغم انخفاض درجات الحرارة أكثر كلما علت .. لكنّ قواها بعد نصف ساعة من الصعود دون توقف خارت تماماً فأعلنت الاستسلام .. وقفت في مكانها تلهث بمشقة و تكاد تشعر بأنفاسها تتجمد من صقيع المكان .. تلفتت حولها فلمحت ما يشبه المغارة الصغيرة بين الصخور الجبلية ليست ببعيدة عنها ، تحاملت على نفسها للمرة الأخيرة و اتجهت إليها فدخلتها لتختبئ و ترتاح .. كانت ضيقة ، خاوية و باردة كثلاجة الموتى لكن هنا على أقل تقدير لن يطالها سيرغي أبداً ، فارتمت على الأرض المتجمدة كروحها سائدةً ظهرها الى الجدران الجليدية .. أجهشت بالبكاء و هي تحتضن نفسها بذراعيها ..



أين أنت الآن يا ماريانا ؟ .. الأخت العظيمة الحكيمة و الشجاعة .. أفقدك بشدة و أحتاجك أكثر من أي وقت مضى من حياتنا .. أريد أن أقبل رأسك و أعتذر منك

.. أن أشكرك على سنين طوال من حياتك ضحيت بها لأجلنا فكنت بالمقابل عمياء  
بلهاء جاحدة و بلا ضمير ..

شعرت بالنعاس يسيطر عليها على نحوٍ لا يقاوم .. و قبل أن تستسلم له أخرجت  
هاتفها ثم أرسلت رسالة مزدوجة لكل من ناتاشا و أديلا شرحت لهما بكلمات  
مقتضبة مصير أندرينا الذي ينتظرهما بعد أشهر و تركت لهما وصيةً بأن تهربا  
من زنزانة سيرغي قبل فوات الأوان .. ثم غلبها النعاس أخيراً فغفت ..

شاهدت في أحلامها جنينها المنتظر على هيئة غزال الإمبالة يعقد صفقته معها ..  
شعرها الأحمر كالنار التي ستدفئه في صقيع روسيا مقابل إنقاذها من ورطتها ..  
وافقت على الفور فقد كانت عظامها ترتجف و هي في منامها من مجرد مرور  
اسم سيرغي في مخيلتها أكثر من ارتجافها من صقيع المغارة التي تحتويها ..  
انخفضت درجة حرارة جسمها بشكل حاد و هي نائمة فتحول نومها إلى سبات ..

في مساء ذلك اليوم و بعد ساعاتٍ من السبات الجليدي ، تمت صفقتها مع غزالها  
فامتطت روحها ظهره ثم قفز بها عالياً إلى قمة ذلك الجبل .. نحو السماء إلى غير  
رجعة ليفي بوعده و صفقته فينقذها من براثن سيرغي إلى الأبد و شعرها الأحمر  
الناري كقيثارة بين قرنيه يذيب الثلوج المتراكمة في طريقه عازفاً لحن الوداع في  
مغارة لن يصل إليها سيرغي و لا حتى غيره لعقود قادمة ..

\*\*\*\*\*

## سنة 2051 .. ( لا تبسم ) ..

= هيا أنجزوا العمل بسرعة .. قد يمرّ أحد بالصدفة من هنا ..

أعطى أناتولي أوامره لرجاله الذين شرعوا بردم التراب فوق جثة الفتاة الأوكرانية  
ناتاشا بعد أن أتمت مهمتها بولادة و إرضاع الطفل الجديد بجوار قبر صديقتها  
الفنزويلية أندرينا في غابات موسكو ..

= اتركها متسعة لجثة تلك الساقطة أديلا .. لقد تمكنت من الفرار بطريقة ما .. لكن  
السيد سيرغي سيعثر عليها .. إنه أخطبوط أذرعه في كل مكان من الأرض فإلى  
أين ستهرب ..؟ إن نيجيريا بأكملها لن تخفي أثرها ..

هناك في قصر سيده ، وقف سيرغي فوق مهد الصغير بروميثيوس الذي أتم عامه الأول منذ ساعات يتأمل ملامحه ..

= هكذا كانت هيئة يسوع في صغره إذاً ، حسبت ابن الرب أكثر وسامةً ، لقد رأيت من هو أجمل منك بكثير من قبل !! .. على كل حال أهلا بك إلى هذه الدنيا القاسية يا صغيري .. إنها رحى دائرة بدون توقف تطحن الضعفاء و لم ينج منها حتى نسختك مدعية الألوهية منذ آلاف السنين .. لكنني سأعلمك كيف تنجو فيها بنفسي .. إنك محظوظ للغاية لهذا السبب ..

نظر إليه الطفل الأشقر بعينه السماويتين البريئتين و ابتسم ..

= أول درس لك .. لا تبتسم أبداً .. أعط الحياة الوجه القاسي بلا رحمة .. فالابتسامة هي حصان طروادة الذي تحتاح المصائب و الصعاب حياتك من خلاله .. فيستغل الآخرون طبيبتك و عفويتك كي ينهشوا لحمك حياً .. على قطعة خشب أرز فوق مكتبي نُقشت عبارة أقدسها لشاعر ألماني يدعى برتولت بريشت تلخص أولى دروس الحياة التي سأمليها عليك :

**(( حقاً إننا نعيش في زمن أسود... الكلمة الطيبة لا تجد من**

**يسمعها... و الجبهة الصافية تفضح صاحبها... فالذي ما زال يضحك**

**لم يسمع بعد بالنبا الرهيب .. لا تثق بأحد .. ))**

فياك و الابتسام أو الطيبة يا صغيري .. انظر إلى وجه أبيك .. حفرت عليه قسوة الحياة خريطةً من التجاعيد .. لكنها خريطة كنز .. إن أحسنت فك شفرة اسرارها ، عثرت على أكبر كنز في الحياة .. النجاة في هذه الحياة ..

لم يغير هذا الدرس و ما تبعه من ملاحظات و توجيهات من طبيعة بروميثيوس الصغير ، و رغم أن دراسات علم النفس تؤكد أن عقلية الطفل كالعجين تشكلها كيفما تشاء .. إلا أن بروميثيوس بدا صلباً للغاية و كأنه أتى إلى هذه الحياة بشخصية معدة سلفاً و ثابتة لا تنحني أو حتى تنكسر ، لكل امرئ من اسمه نصيب ، مقولة صالحة لكل زمان و مكان، فقد كان هذا الصغير - بروميثيوس - عاشقاً للبشر

على نحو عجيب .. يبتسم للجميع و يضحك مع كل من يلعبه بمنتهى اللطف و الود .. مما أثار حفيظة والده بشدة..

= إنني أخشى على ذاك الطفل من تأثير الجينات المخنثة التي يحملها عليه يا أناتولي .. إنه اجتماعي بطريقة مخيفة .. و ينحو في الحياة منحاً خطراً للغاية سيوقعه في متاعب جمة..

= يبدو أن تأثير الجينات أقوى من تأثير البيئة المحيطة..

= هذا ما ذكره موقع لافيتا بالفعل .. في منشور يتحدث عن دراسة أجراها عالم يدعى **كونارد لورنز** عن تفسير السلوكيات الفطرية من خلال الوراثة و نال جائزة نوبل عليها عام **1958** . إن تلك الجائزة تعطى على أي شيء كما يبدو .. مجموعة حمقى و بلهاء !!

= هل البشرية على موعد مع مسيح جديد إذاً ؟! ..

التفت إليه سيرغي بغضب و ضرب مكتبه بعنف ..

= خسئت .. لن أسمح بذلك و في عروقي دماء تجري .. فمعركة الطعنات المتبادلة لا تزال مستمرة بيني و بين ذلك الإله المدعي و لن أخرج منها إلا منتصراً و لو كلفني ذلك أن أصلب هذا الصغير من جديد .. لقد أتى إلى هذه الحياة لغاية وحيدة .. كسلاح في يدي أنتقم به من السماء .. فإن وجهته السماء خنجراً إلى صدري حطمته على الفور ..

**سنة 2057 ( جوع كلبك يتبعك ) ..**

عندما بلغ بروميثيوس عامه السابع أهده سيرغي كلباً من نوع **جولدن ريتريفر** .. تعلّق به بروميثيوس على نحو جنوني بحكم أنه لا أخوة له ، كما حظر عليه سيرغي الاختلاط بالأطفال الآخرين في قصره المعزول .. و أطلق عليه بروميثيوس لقب : **( شعاع ) ..**

= الدرس الثاني في الحياة يا صغير .. **( جوع كلبك يتبعك )** .. هكذا حال البشر ، لا تغدق عليهم بالعطايا فيتمردوا عليك عندما يقتدروا .. بل قتر عليهم رزقهم فيصبحوا كخاتم في إصبعك من أجل المزيد .. إن البشر كدمية الماتريوشكا

الروسية ( مجموعة دمي في قلب بعضها ) و الإنسان عبارة عن شخصيات متداخلة .. هنا يأتي دور الحرمان الذي يقشر هذه الشخصيات كالبصلة حتى يظهر معدن الانسان الحقيقي في أعماقها كوفيّ أو خائن ..

أتبع سيرغي درسه الثاني بتطبيق عملي على الفور ، فقد حجز ( شعاع ) في قفص كبير لأسبوع مع وجبة وحيدة قليلة الكمية يومياً بالكاد تبقى على قيد الحياة ، كي يفهم بروميثيوس الدرس جيداً فيفسو قلبه كي لا يرأف بأي أحد ..

خلال ليالي ذلك الأسبوع و بينما كان سيرغي يعربد مع محظياته كما كان زيوس يفعل بالضبط .. كان بروميثيوس الطفل ينسلّ من فراشه فيخرج نصف وجباته من مكنها السري تحت سريره ثم يتجه الى قفص شعاع ليطعمه بيديه .. تحت مرأى مدبرة المنزل الخمسينية ستيللا التي اكتفت بمراقبة ذاك الطفل الطيب من بعيد مع ابتسامة دهشة و حيرة .. كيف يمكن لابن السيد سيرغي أن يكون بمنتهى النبل و اللطف هكذا؟! .. هي لا تدري أن التاريخ يعيد نفسه فحسب و بروميثيوس يسرق مجدداً شعلةً من نار جبل الأوليمب في غفلةٍ من زيوس ليهدئها لمخلوقاته من البشر الذين هام بمحبتهم ..

## سنة 2063 ( قابض الأرواح ) ..

بلغ بروميثيوس عامه الثالث عشر و أصبح أكثر وعياً بالحياة و بحقيقة البشر من حوله و معاناتهم .. في حين كان سيرغي متشائماً للغاية كعادته من ذلك الرقم **13** .. لذا أهدها في عيد مولده ببندقية صيد ثم دربه جيداً على استخدامها حتى أتقن الرماية بحرفية .. عندها أحضر له سيرغي قفصاً صغيراً فيه عصفور كناري حزين منكش بفزع في زاوية القفص .. ثم ناوله البندقية و وقف معه على بعد **7** أمتار منه..

= أطلق على ذلك الكناري يا ولد ..

أراد سيرغي أن يقضي على آخر ذرة رحمة في قلب الطفل ليشعره بمتعة قبض أرواح المخلوقات .. فهو سيحتاج في المستقبل الى قراراتٍ جريئة بتصفية كثير من خصومه من شرطة ، أمن ، منافسين و خونة..

وقف بروميثيوس متردداً و العرق يتصبب منه غزيراً .. فاختر سيرغي كرسيّاً قريباً و جلس..



= نفذ على الفور بلا تلوؤ .. عليك ألا تعصي أوامري..

رفع بروميثيوس بندقيته باتجاه القفص ، فرّت دمعة ساخنة من طرف عينه و هو يرمق ذلك العصفور اليأس الأعزل و قلبه يخفق في صدره ، ثم استدار و وجهه بندقيته الى صدر سيرغي الذي شلته الدهشة..

= لن أفعل أبتي .. هذا العصفور لم يؤذي أحداً ، فلماذا أعاقبه بهذه الوحشية و أنهى حياته ..؟! القتل هو جزاء الوحوش المؤذية فحسب ..

نهض سيرغي من كرسيه غاضباً كالمجنون ، تناول بندقية الصيد منه ثم وجهها الى العصفور و أطلق .. سقط العصفور الصغير قتيلاً في قاع القفص على الفور لتقطر دماؤه من زواياه على أرضية الغرفة .. في حين رمى سيرغي البندقية على الأرض ثم غادر الغرفة و هو يجتّف و يشتم .. أما بروميثيوس المصعوق فقد اتجه الى القفص فأخرج العصفور منه و ربت على جسده الهامد بحنوّ و عيناه تختنقان بالدموع ..

= أعتذر منك يا صديقي .. لكن أبي إنسان غريب .. بقلبٍ من حجرٍ كما يبدو..

حمل العصفور بين يديه الى حديقة القصر فحفر حفرة صغيرة بيديه ثم دفنه فيها ، طمره بعدها بالتراب و هو يذرف الدموع أمام عيني ستيل التي تراقبه من خلف الستائر بغضب و دهشة..

في ذلك المساء دخل أناتولي على سيده الحانق الذي استدعاه على نحوٍ طارئ .. كانت الغرفة تعبق بدخان السيجار على نحوٍ أشبه بلندن مدينة الضباب .. اختار أناتولي كرسيّاً و جلس .. حدّق في منفضة السجائر أمامه ..

= على رسلك سيدي .. خمسة سيجارات في يوم واحد !! هذا كثير .. إنه سيجار و ليس سجائر !!

= بل خلال أربع ساعات فحسب .. إن ذلك الولد يثير جنوني ..

= ماذا فعل من جديد ؟!

= إن قلبه هشّ كرأس هذا السيجار المرمد .. أمرته أن يقنص عصفوراً ببندقيته كي أعلمه القسوة .. فرفض و عصا أوامري ..

= هدى من روعك سيدي ، لا أخالها مشكلةً كبيرة .. صحيح أن طبعه كما يبدو ناعم و هشّ للحين .. لكن ذلك كله سيتغير مع بلوغه عامه الثامن عشر .. عندما يكتشف الحياة على حقيقتها .. و يتفهم أين تكمن مصالحه و مع من .. و الأهم عندما تستيقظ غريزته الجنسية في داخله .. إنها المحرك الرئيسي للجرأة ، القسوة ، الاندفاع و المخاطرة .. أما الآن فهو يعيش طفولته أو مراهقته لا فرق .. لذا أرى أن تغض النظر عنه خلالها .. دعه يعيش سنواتها بحلوها و مرها .. و عندما يقتحم سن الشباب أدخله عالمك المهني في معترك الحياة ليختبرها بنفسه و يرى وجهها الدميم و القاسي على حقيقته فيقسو قلبه و يتغير من أعماقه فيقدر قيمتك أكثر ..

أطفأ سيرغي سيجاره في المنفضة ، ثم شرب كأس الفودكا أمامه دفعةً واحدة ..  
= باعتبارك ذراعي الأيسر في حياتي الشخصية سأخذ بنصيحتك .. و إن كنت بدأت أشك بأن جيناته التي يحملها غامضة و غريبة .. أخال أن حياته كلها نسخت عليها مسبقاً فتحرّكه كما تشاء على نحوٍ مدروس كبرمجة الحاسوب !.. كان يجب عليّ أن أفهم الحكاية منذ برز ذلك الرقم اللعين **13** في وجهي .. فمن ثلاثة أجنة نجا واحد فقط ليدخل حياتي .. و اليوم في عيد مولده **13** يتمرد على أوامري .. الأمر يشرح نفسه بنفسه !

ابتسم أناتولي و اقترب من سيده أكثر ..

= سيدي .. انظر في عيني .. أي رجلٍ تراه أمامك ؟

تأمل سيرغي وجهه الماكر للحظات ..

= رجلٌ قاسٍ ، جريء .. ينفذ مهامه بأي طريقة ممكنة ..

= تماماً .. و هذا الرجل نفسه كان في طفولته إنساناً بريئاً للغاية على نقيض ما تراه الآن لدرجة أنه قضى طفولته بالكامل يتعرض للتنمر .. لكن كل ذلك تغير لاحقاً كما تعرفني جيداً .. بروميثيوس لن يكون إلا كما تريد .. أعدك بذلك ..

= و يفضل أن يكون كذلك .. و إلا صلبت المسيح للمرة الثانية .. فلا مكان لهذه النفوس الهشة في ملكوتي الخاص ..

## سنة 2066 ( وقود المتعة ) ..

كانت هدية سيرغي لبروميثيوس المراهق في عيد مولده السادس عشر غريبة و صادمة للغاية .. فقد أحضر له إحدى محظياته ذات العشرين ربيعاً ..

= هذه درتي النفيسة يا بروميثيوس عاملها كرجل .. الحياة قاسية و عليك أن تفرّغ مشاعرك الجياشة بين الحين و الآخر .. فالمتعة هي وقود الإنسان كي يتابع الطريق بقوة ..

التفت إلى الفتاة و همس في أذنها..

= بهدوء عليه .. فهي تجربته الأولى .. علميه كل شيء ليخرج راضياً فيفتهم طبيعة الأنثى جيداً .. و رغباته الدفينة أكثر..

= كما تأمر سيدي..

أمسكت يد بروميثيوس و اقتادته الى غرفة جانبية ثم أغلقت الباب خلفها .. اقتربت منه بهدوء و مررت يدها على خده ثم حاولت تقبيله ، لكنه أمسك بيدها و أبعدا عنه..

= سأفهمك ما نحن مقبلان عليه الآن بكل وضوح .. أنا أرفض إقامة أي علاقة مع أية فتاة إن لم أكن أحبها .. سنقضي هنا نصف ساعة نتحدث ثم نخرج على اتفاق أننا فعلنا ما امرك به والدي بالضبط .. فهمتِ ؟

تضرج وجه الفتاة بالدم و بدت علامات الدهشة و التردد عليها..

= لا حاجة للتردد .. هذا أمر..

= حاضر سيدي..

= ما هو اسمك ؟

= يلينا..

= روسية ؟

= بل صربية..

= و كيف وصلت إلى هذا القصر ؟

تنهدت يلينا تنهيدة عميقة ثم شرعت تروي له حكايتها .. كيف نجت بمفردها من الحرب الصربية البوسنية الجديدة في قرية حدودية بين البلدين .. رأت أشلاء أبويها و أخوتها بين الركام .. هامت على وجهها حتى أتت فرق الانقاذ .. وضعت في ميثم لاحقاً حيث عوملت بمنتهى القسوة هناك .. ففرت منه الى الشارع .. عملت بعدها نادلةً في مطعم ، و عاشت في شقة استديو مع شابة من لاتفيا تتاجر بجسدها عبر الشبكة العنكبوتية فأقنعتها بالانضمام إليها كي تحصل ثروة تغير حياتها المريرة ، حتى تعرّفت على أحد الزبائن الروس الذي أعجب للغاية بشخصيتها و جسدها .. كان تاجر مخدرات .. أقنعا بالعمل لدى السيد سيرغي مقابل ثروة .. فوافقت دون تردد ليقدمها له كهدية بمناسبة إتمام إحدى صفقاتهما الضخمة..

شعر بروميثيوس بغصة تظفر فؤاده عقب الانتهاء من قصتها .. إنها حكاية مأساوية أخرى يسمعها تحت سقف هذا القصر المبني على الخطايا ، آلام البشر و نقاط ضعفهم .. وصمة عار جديدة على جبين والده الجامد القاسي..

= أنت صديقتي من اليوم فصاعداً يا يلينا .. سأطلبك بالتحديد كلما لحّ والدي عليّ .. لنتابع حديثنا و نتعرف على بعضنا أكثر .. سأغنّي لك أيضاً فأنا أعشق الغناء .. يقال أنني أملك صوتاً استثنائياً .. هكذا أخبرتني السيدة ستيل .. تذكر لي باستمرار أنه يذكرها بصوت شابة تدعى ماريانا عاشت في هذا القصر منذ زمن.

مدت يلينا يدها و مررتها على خده بحبّ هذه المرة..

= أنت إنسان لطيف على نحو غريب سيدي..

= بل صديقك .. لنخرج الآن على ما اتفقنا..

= حسناً صديقي ..

انحنى يلينا أمامه بدهشة و امتنان .. ماذا تفعل هذه الألامسة النفيسة في هكذا قصر مبني من قطع من الفحم الحجري الأسود كقلب سيده ..؟

تعمقت صداقة بروميثيوس و يلينا أكثر خلال الأشهر التالية و بينما كان سيرغي يخاله يتمتع بجسدها خلف الأبواب المغلقة ، كانت يلينا تحدثه عن ذكرياتها المؤلمة من طفولتها حتى الساعة و هو يغني لها لتلتحم روحاهما لا جسدهما معاً في تلك اللقاءات ..

## سنة 2069 .. ( الانشقاق العظيم ) ..

لم يعط سيرغي اهتماماً كبيراً لتمرّد بروميثيوس على أوامره و دروسه .. لقد اقتنع بنظرية أناتولي بأن ميدان الحياة الواقعية سيغيره جذرياً ليفهمه الحياة كما هي بالضبط .. لذا في يوم مولده الثامن عشر اصطحبه سيرغي معه الى مقره .. أجلسه خلف مكتبه كزعيم مافيا جديد ، ثم ملأ كأسين من النبيذ و قدم أحدهما له .  
= هذه هي مفاجأتي و هديتي لك في يوم ميلادك الاستثنائي هذا ، من اليوم فصاعداً ستصبحني يوماً الى مقري هنا لتتعلم طبيعة عملي و أسرارهِ .. سترث عني امبراطوريتي الضخمة يا بروميثيوس .. حلم الملايين من البشر حول العالم ..

نظر إليه بروميثيوس بلا مبالاة ..

= لكنه ليس حلمي ..

= ليس حلمك ؟!

= على الإطلاق ..

= و بماذا تحلم أن تكون .. طبيباً .. مهندساً .. أي مهنة تلك التي تفضلها على عمل يجعلك من أثرياء العالم ؟!

= أريد أن أغني أبتي ..

ارتجفت الكأس بيد سيرغي ..

= ماذا قلت ؟!

= أريد ان أغني .. لا أرغب في انتهاج خط سيرك في الحياة .. طباعنا مختلفة جذرياً .. أنت تريد السيطرة على البشر و التحكم بمصيرهم .. أما أنا فأريد أن أغني للبشر . ان أشعر بمعاناتهم .. أنير شمعة من أجلهم و أساعدهم قدر المستطاع

= ما هذا الهراء يا ولد ؟

= لم أعد ولداً يا أبتى .. منذ اليوم أصبحت شاباً مستقلاً و حراً بقراراتي .. إن كنت تحبني بالفعل فادعمني لتحقيق أحلامي..

= أحلام المخنثين !! ..

= بل أحلام الروحانيين .. ابتعد عن الذين يكرهون الغناء فقلوبهم من حجر و لا يعرفون الله..

= كيف تجرؤ ؟

اتجه نحو بروميثيوس بغضب ثم صفعه بقوة..

= لا وجود للإله يا أحمق .. هنالك حياة قاسية فحسب ، عملت جاهداً لسنوات أن أفهمك دروسها كي لا تطحنك كغيرك .. لكنك معجون بجينات الخنوثة التي لا تتغير..

وضع بروميثيوس يده على خده بذهول..

= جينات الخنوثة .. هذا اتهام خطير بشأنك .. إلا إن كنت تقصد أنك لست والدي الحقيقي ! ..

ارتبك سيرغي للحظات ثم صاح بعصبية ..

= اخرج حالياً و عد الى المنزل .. لا أريد رؤيتك ، و لن تغادر غرفتك حتى تغير طريقة تفكيرك الشاذة هذه .. و لو بقيت حبيسها حتى تموت..

= أنا لست عبداً عندك كي تسلبني حريتي .. أولادكم ليسوا لكم بل هم أبناء الحياة .. هكذا قال يسوع المسيح .. إن كنت والدي بالأساس !

تفجر اسم يسوع في رأس سيرغي كقنبلة هيدروجينية ليجن جنونه فضرب زجاجة النبيذ بيده و هوت على الأرض لتتشظى عشرات القطع و ينسكب النبيذ منها كالدماء..

= اخرج حالياً قبل أن أقتلك ..

خرج بروميثيوس و الدموع في عينيه .. في حين وقف سيرغي غاضباً وسط مكتبه تتراءى أمام عينيه صورة وجه الأب المشوشة في كنيسة القديس باسيل منذ عشرين سنة و هو يقول له : ( هناك أشياء قليلة في هذه الحياة لا تشتري بالمال ) .. إن الطعنة الأخيرة كانت في صدره .. ثمانية عشر عاماً كاملة من الدروس ذهبت أدراج الرياح كحال النبيذ الجاري على أرضية الغرفة .. و رهانه على تغير شخصية بروميثيوس في عامه الثامن عشر أضغاث أحلام لا أكثر ..

فهل خسر سيرغي معركته نهائياً مع يسوع و السماء ؟

\*\*\*\*\*

في ذلك المساء عاد سيرغي إلى قصره ليفاجأ بأن بروميثيوس غير موجود .. ليس ذلك فحسب بل أنّ حاجياته الشخصية اختفت من غرفته..

= كيف حدث هذا ؟ ألم يره أحد يغادر .. ؟ أين كنت ستيتلا ؟

= أتنقل بين أرجاء المنزل لأشرف على سير العمل ..

= لم تره ؟

= إطلاقاً ..

كذبت ستيتلا .. فبروميثيوس ودعها بالدموع في تلك الأمسية ثم احتضنها..

= هذا الرجل القاسي لا يمكن ان يكون والدي .. سأنقذ روحي من جحيمة .. و عليك فعل المثل ستيتلا .. اهربي و أقنعي يلينا بالهرب أيضاً .. نحن لم نلتق اليوم .. هذا هو السر الأخير بيننا .. رأيته تسترقين النظر بينما كنت أطعم شعاع في لياليه الحبيسة.. و مرة ثانية خلف الستائر عندما دفنت الكناري .. أؤمن عالياً كتمانك لأسرار كان بإمكانها أن تثير جنون سيرغي علي .. و هذا آخر أسرارني فاحتفظي به لأجلي .. شكراً على كل شيء..

احتضنته ستيتلا بحنان الأم ..

= قبل الوداع هنالك سرّ أخير عليك أن تعرفه يا بني ..

نظر إليها بروميثيوس بدهشة ..

= والدتك يا بروميثيوس .. اسمها ماريانا ، و أغلب الظن أنها تقيم في النرويج  
موطن جدتك لقد باحت لي بنيتها الهرب إلى هناك ذات يوم ..

= من أخبرك بذلك ؟

= لا أحد .. لكنّ الملامح لا تكذب .. أراها في عينيك بكل وضوح .. كما أسمع  
صوتها الملائكي كلما أنشدت .. لا أدري كيف حدث ذلك فقد هربت قبل ولادتك  
بثلاثة أعوام .. لكنني أجزم أنها والدتك .. لقد ورثت عينيها ، إيمانها ، طباعها  
النبيلة و محياها الهادئ المريح .. ابحت عنها و اهتم بها فهي تحتاجك .. يا إلهي  
كم يصعب عليّ فراقك ..

أجهشت بالبكاء فوضع بروميثيوس يده على رأسها ..

= سنلتقي ذات يوم .. أقسم لك ..

= متأكدة من ذلك .. اعتنِ بنفسك جيداً ..

= و أنتِ أيضاً .. اهتمي بيلينا .. و اهربا متى سنحت الفرصة بذلك ..



الموناد يغير

( لا أدري ! )

بنين / بورتو نوفو ..

## بعد شهرين من تجربة بلال في جنوب إفريقيا ...

في إحدى البارات الحديثة في وسط العاصمة جلس شاب في الثلاثينات من العمر أشقر الشعر و قد غطى الشيب صدغيه قليلا كتصحر ماكر ينهش في الغابات تدريجياً ليترجم قسوة الحياة عليه .. معالمة حادة و جادة كنصل سيف ويليام والاس و هو يقود حرب اسكتلندا ضد إنجلترا ، لكنك إن أمعنت النظر أكثر ، رأيت أنها تخفي خلفها ملامح ودودة في الأساس لكن الزمن مرّ من هناك فترك بصماته عليها .. على البار أمامه كأس مشروب روي .. في حين أخذ الرجل من مكانه يتأمل طاولات البار المبعثرة و يحدق في ملامح كل شخص عليها .. إن وراء كل وجه منهم حكايته الخاصة.. و لو قدر لألفريد هتشوك بنفسه أن يعرفها لما صدق حيثياتها .. فالواقع على الدوام أغرب من الخيال..

أمسك هاتفه الخلوي و فتحه ليقرأ تعليق قناة **اقرأ** على مداخلته بخصوص مبدأ الشك و عدم اليقين .. قناته تحمل اسم **الكمنجة الكونية** .. قرأ التعليق و ابتسم بدهشة .. أحسنت اللعب يا صديقي ! قال لنفسه ثم فكر قليلاً بكيفية الرد .. لكن في تلك اللحظة دخلت البار فتاة في الثلاثينات أيضاً ، سمراء جذابة بملابس مثيرة كحمامة ملونة مغناج تمشي الهوينى على الأرض متجهة مباشرة نحوه ثم حطت على كرسي بجانبه بحكم أنه الكرسي الوحيد الشاغر .. طلبت كأس مشروب بدورها..



بحكم طبيعة البارات و تجاوز كرسيهما .. فلم يكن هنالك مناص من أن يدور بينهما حديث ما..

التفتت الشابة إليه و ابتسمت بدهشة ، ما الذي يفعله هذا الأجنبي في بار إفريقي؟! .. ابتسم لها بالمقابل و هو يرمق الصليب الذهبي المعلق على رقبتها مع مجسم المسيح عليه .. وضع هاتفه جانباً و خاطبها..

= كأس مشروب في نهاية يوم طويل لا مثيل له .. يذهب جميع الهموم..

= بالفعل .. تنسى اللحظات العصبية التي مررت بها نهائياً ..

= أندراوس قسطنطين ..

= من أوروبا ؟

= والدي أوروبي .. أما والدتي فمن هنا ..

= وشم ستيفين هوكينغ بكرسيه الشهير على ساعدك يخبرني بأنك عاشق للعلوم

= نظرة ثاقبة .. أنا أستاذ في الفيزياء و الرياضيات ..

= تشرفت بمعرفتك .. أنا سيرين لوقا .. عارضة أزياء..

ابتسم ..

= هذا واضح و جليّ من جمالك الساحر .. و أناقتك المذهلة .. إن المسيح

محفوظ بالوجود على عنق حناء مثلك .. أنا على بعد خطوة واحدة من العودة لحضور قداس الأحد مجدداً .. فهذا الجمال الساحر لا بد أنه من صنع إله..

قابلته بابتسامة مجاملة ..

= أشكرك .. أنت شخص ملحد إذاً..

= ليس بالضبط .. أنا أتبع الفلسفة اللاأدرية..

= لا أدرية !

= أجل .. فلسفة تعتمد على كلمتي لا أدري في الإجابة على كافة التساؤلات التي

لم يثبتها العلم بعد .. و منها وجود الإله من عدمه .. فنحن لا نستطيع إثبات ذلك

علمياً .. كما أننا بنفس الوقت لا نستطيع نفيه أيضاً .. أنت متدينة على ما يبدو ؟  
= بلى .. ربما ليس هنالك دليل محسوس على وجود خالق للكون ، لكن هنالك آثار تدل على وجوده بلا شك .. و منها حوادث عديدة جرت معي في حياتي ..  
= لكل شيء تفسير علمي في هذا الكون .. لكننا نعزي كل شيء نعجز عن تفسيره إلى قوة غيبية .. و كما يقال ..

**(( الإله حاجة و ضرورة .. لو لم يوجد .. لخلقناه بأنفسنا ))**

= وجهة نظر .. لكن من وحي عملك كأستاذ فيزياء .. هنالك مقولة قرأتها ذات مرة على موقع التواصل الاجتماعي و أعجبت بها فعلاً .. رغم جهلي الكامل بالفيزياء لكنني فهمت المغزى الرئيسي منها..  
= أثرت فضولي .. علام تنص ؟  
= تقول على ما أذكر :

**(( الله مثل الإلكترون تماماً .. لا يمكننا رؤيته .. لكننا نرى آثاره**

**بشكل واضح ))**

= صحيح .. عبارة شهيرة في أوساط الفيزياء .. و هي غريبة و معبرة بالفعل .. الغريب أكثر أنها ثاني مرة أسمعها هذا اليوم و كأنها إشارة إلى شيء ما !!! على كل حال بسبب هذا المنطق الجميل الذي تحدثت عنه .. فأنا لست شخصاً ملحداً بالكامل .. بل لا أدريّ فحسب .. و يمكنني القول أن المسيح على رقبتك أراحني كالإلكترون من مدار بعيد عن نواة الإيمان إلى مدار أقرب إليها .. محرراً طاقة هائلة في داخلي .. كما يفعل الإلكترون بالفعل عندما يقترب من النواة..

كانت سيرين قد أنهت المشروب أمامها فنهضت مبتسمة و قد فهمت ما يرمي إليه = جميل .. وفر هذه الطاقة للأيام الصعبة .. فالدنيا تتغير في غمضة عين .. الآن اعذرني علي المغادرة فقد تأخر الوقت عليّ و مررت هنا لأجل المشروب فقط .. سررت بالتعرف عليك و الحديث معك..

= مشاعر متبادلة.. رافقتك السلامة .. فليحرسك أبونا الذي في السموات..

ابتسمت سيرين و اتجهت نحو الباب حتى خرجت و ابتلعها الظلام كأنها كانت طيفاً أو حلماً عابراً .. هز أندراوس رأسه بدهشة ثم طلب كأس مشروب آخر و كان الخامس له خلال ساعتين ، تابع سهرته التي اعتاد عليها مع بداية كل شهر ، عندما تتدفأ جيوبه بأجور التدريس المترتبة على تلامذته .. لقد أثارت سيرين صراعاً داخلياً قديماً فيه عن حقيقة وجود الإله من عدمه..

بعد الكأس السادس شعر أندراوس بالإرهاق و النعاس .. فخطب كوامي عامل البار..

= لقد نلت كفايتي اليوم يا كوامي .. عليّ الانصراف..

= لقد أسرفت بالشرب كثيراً .. أنت تتحول إلى مدمن يا صديقي ..

نظر إليه أندراوس بشرود ثم ابتسم ..

= هذا ما قاله لي الطبيب .. إن الإدمان هو أحد أعراض داء ثنائي القطب الذي شخصه لي .. في الحقيقة لم أقتنع بكلامه .. أنا أفضل الشرب لأنه يساعدني على نسيان المشاكل كما أنه يمدني بطاقة لتحمل ساعات التدريس الطوال .. يقول ثنائي القطب !! هل أنا دارة كهربائية بقطبين سالب و موجب .. كلام سخيف ..

= سأرسل كوفي معك كي يقود سيارتك بروفييسور .. أنت مخمور للغاية و ليس من الحكمة أن تقودها بنفسك ..

= لا داعٍ لذلك .. أستطيع السيطرة على نفسي..

= كما تشاء .. رافقتك السلامة ..

وضع الحساب على البار ثم غادر و هو يترنح قليلاً و شعور طاغ بالنعاس يستعمر عقله .. اتجه إلى سيارته المركونة في الخلف ثم قادها نحو منزله في ضواحي العاصمة .. و بخلاف كلامه مع كوامي فقد كانت قيادته متهورة ، مسرعة و بدون تركيز على ما حوله و الأسوأ أنه لم يع أنها كذلك ، ففي الحقيقة تشخيص الطبيب لحالته كان صحيحاً تماماً و أندراوس يمر حالياً بنوبة تحت هوس تجعله مندفعاً بالأساس قبل أن يكون مخموراً ليشكلاً سوياً خليطاً كارثياً متفجراً ..

رغم خلو الشوارع من السيارات في هذه الساعة المتأخرة نسبياً من الليل فقد برزت له فجأة سيارة مسرعة من طريق جانبي .. خانه التركيز و سرعة البديهة و التصرف، فلم يتمكن من السيطرة على الوضع و اصطدمت السيارتان ببعضهما بقوة شديدة ..

\*\*\*\*\*

## قبلها بيوم ..

قام بلال برفع حلقة الجديدة على قناته الجديدة ( اقرأ ) على اليوتيوب و كان محتوى الحلقة شيقاً كالعادة يتناول شخصية غريبة و مثيرة للجدل على النحو التالي :

(( أهلاً بكم جميعاً أصدقائي .. حلقة اليوم مقتضبة .. فلا تخشوا الملل .. سنتحدث فيها عن شخصية ساحرة و غامضة من صفحات التاريخ .. هرمس .. أو مثلث العظمة و علاقته بالفيزياء الحديثة..

هرمس الهرامسة من هو ؟

ربما مرّ عليكم هذا الاسم من قبل و ربما كنتم تجهلونه ..

سأخبركم اليوم من هو بإيجازٍ شديد..

هرمس هو شخصية مختلف عليها حسب الدراسات لكن الجميع يتفق على نسب كتاب ( متون هرمس ) إليه أو ما يدعى ( هرموتيكا ) .. لَقَّبَ بمثلث العظمة .. و منهم من رد هذه الصفة لأنه كان يصف الله بثلاث صفات ذاتية هي الوجود والحكمة والحياة .. ومنهم من ردها إلى تجليه بثلاث شخصيات : آخنوخ الفرعوني و إرميس الإغريقي و النبي إدريس. ومنهم من قال لأنه تحلى بثلاث صفات عظيمة : النبوة والمُلْك والحكمة.

ما يهمنا في حلقة اليوم هو الارتباط الغريب بين ما قاله هرمس في متونه و بين بعض قوانين الفيزياء .. قمت بتلخيص أفكار هرمس الكونية في سبعة مبادئ أساسية ، سأذكرها مع ما يتوافق معها من قوانين فيزيائية مكتشفة حتى الآن:

◎ العقلانية: أي أنّ العقل هو الشيء الوحيد الذي يمكن إثباته وهو الحق ، فالعقل هو الصورة المصغرة للإله الذي فسر كل شيء و وصل إلى كل القوانين و النتائج.

⊙ **التناظر** : هناك دائماً علاقة وتواصل بين جميع الظواهر و يقابل ذلك في الفيزياء نظرية الزمر ..

⊙ **الاهتزاز** : كل شيء في الكون يتحرك، فلا يوجد سكون و يقابل ذلك نظرية الأوتار الفائقة ..

⊙ **الازدواجية القطبية** : كل شيء ثنائي متضاد كحال الالكتران و البوزيترون على سبيل المثال ..

⊙ **التناغم** : كل شيء في الكون يتدفق بتناغم و يقابل ذلك نظرية كل شيء و التناغم بين القوى الأربعة الأساسية في الكون ..

⊙ **السبب و النتيجة** : لكل سبب نتيجة، ولكل نتيجة مسبب، و الكل يتم بحسب قوانين ، بالطبع هذا يتماشى مع مبدأ السببية الراسخ الذي عجز الجميع عن هدمه فالطاقة مثلاً لا تفنى و لا تخلق من العدم بل هي نتيجة أو سبب ..

⊙ **الجنسين** : لكل شيء جنسين، ذكر وأنثى تماماً كحال الأقطاب و تولد التيار الكهربائي بينهما كتولد تيار الحياة بين الذكر و الأنثى ..

كما تلاحظون هنالك تشابه غريب بين متون هرمس و قوانين الفيزياء .. خاصة التناظر ، الاهتزاز ، التضاد و التناغم ..

إنّ خير من جسد هذه المبادئ السبعة في لوحاته هو **ليوناردو دافنشي** في رسمته الأيقونية ( **الرجل الفيتروني** ) التي تتألف من شخصين عاريين مرتبطين معاً أحدهما في دائرة و الآخر في مربع .. فالعقل يحكم كل شيء .. و التناظر بادٍ تماماً في الرسمة .. كذلك فإنّ حركة الشخص تشير إلى الاهتزاز الدائم و عدم السكون .. و الشخصان متضادان مع بعضهما ، يقال أن أحدهما يمثل الذكر و قد ضم جسده و الآخر الأنثى التي بسطت أطرافها .. الدائرة تشير إلى الكون الواسع أما المربع فيشير إلى القوى الأربعة الفيزيائية التي تحكم كل شيء في هذا الكون .. أخيراً اللوحة أمامنا الآن بسبب أن دافنشي رسمها .. و رسم دافنشي لها جعلنا نراها الآن و هذه هي السببية ..

إذا بين مثلث العظمة ، مربع القوى الفيزيائية و دائرة الكون تتجسد أسرار الفيزياء الساحرة ..

و هنا تنتهي حلقة اليوم حول شخصية هرمس و متونه مع ما يقابلها من أسرار فيزيائية .. أرجو ان تكونوا قد استفدتم .. و في حال ذلك شاركوا الفيديو مع من تحبون لتعم الفائدة على الجميع .. اكتبوا لي في التعليقات عن رأيكم في هذا الارتباط و عن نظريات فيزيائية أخرى تعرفونها تتوافق مع متون هرمس .. ))

في المساء فتح بلال قناته مجدداً ليراجع التعليقات و يرد عليها .. كانت حوالي **1500** تعليق .. قرأها جميعاً .. فلفت نظره بينها تعليق غريب لشخص تدعى قناته ( **الكمنجة الكونية** ) دون أن يدرك أن هذا الشخص الغامض هو صديقه المقرب أندراوس الذي يتابعه بسرية فأحب أن يمازحه بتعليق على فيديو يتعلق باختصاصه في الفيزياء.. كان مضمون التعليق :

(( هنالك مبدأ فيزيائي آخر هو مبدأ الشك أو عدم اليقين لهايزن بيرغ الذي يقول بأن كل ما ذكرته يحتمل الصواب و الخطأ .. فلا شيء مؤكد في هذا الكون .. فمثلا النبي إدريس أو هرمس لم يكن موجوداً ربما أو أنه لم يكن نبياً أو أنه ادعى النبوة .. حتى الله نفسه الذي أرسله ربما ليس موجوداً بالأساس، فهل لديك دليل مادي محسوس على وجوده بحسب قوانين و دراسات الفيزياء التي تتحدث عنها؟!.. ))

فكر شامل قليلاً في كلام الشخص الغامض ثم ابتسم و رد عليه..

(( شكراً على مداخلتك أخي أو أختي .. وجهة نظر جميلة سأرد عليها بالفيزياء نفسها .. الفيزياء تؤمن بأن إثبات وجود أي شيء يكون بطريقتين .. إما أن تراه بعينك و إما أن ترى آثاره التي لم تخلق من العدم بحسب قانون السببية .. فمثلاً الإلكترون مثبت فيزيائياً أنه موجود رغم أن أحداً لم يره و لكن بحسب كثير من التجارب كتجربة الأشعة المهبطية اكتشف العلماء آثاره فعرفوا أنه موجود حتماً .. و الله كالإلكترون تماماً لا نراه لكن آثاره في كل شيء حولنا .. و من يريد التغاضي و التعامي عن هذه الآثار .. فهو حرّ طبعاً و لكنه يخالف علم الفيزياء نفسه .. ))

هناك في البار استقبل أندراوس رد صديقه بابتسامة .. لتتطور الأحداث لاحقاً إلى الحادث العنيف الذي أصابه ..



تم إسعاف أندراوس و سائق السيارة الأخرى إلى المشفى .. توقف قلب أندراوس مع وصوله هناك فحاول الأطباء إنعاشه لمدة نصف ساعة متواصلة ..

في هذه الأثناء كان أندراوس فاقد الوعي يمر في خضم إنعاشه بتجربة غريبة .. ما يسمى ( تجربة الموت الوشيك ) أو ( الإسقاط النجمي ) التي ذكرها عشرات البشر حول العالم بنفس الطريقة ، حيث شعر بنفسه يغادر جسده فيرى كل شيء من حوله .. كيف أن الأطباء يحاولون إنعاشه و رأى نفسه ممدداً على سرير المشفى .. كان ذلك مخيفاً للغاية .. هل هذه روحه التي ترى الآن .. لم يلبث مكانه طويلاً و شعر بنفسه بعدها يمر في نفق مظلم طويل ثم يخرج منه الى مكان مغمور بالنور ، وقف في مركزه شخص بلباس أبيض بيتسم له و من هيئته تبادر إلى ذهنه بأنه المسيح من رداءه ، شعره و لحيته الشقراء إضافةً إلى سنه المناسب تماماً .. ابتسم الشاب له ..

= أهلاً بك أستاذ أندراوس .. كان عليك الإصغاء لتشخيص طبيبك .. فمن أعراض الداء ثنائي القطب الاندفاع و قلة التركيز الذي أسفر عن حادث أليم ..

أندراوس بدهشة ..

= من أنت ؟ .. و أين أنا ؟

= أنا مخلصك ، يسوع المسيح .. و أنت هنا في عالم البرزخ الفاصل بين الدنيا و العالم الآخر .. أنت محظوظ أن تراني في يوم واحد مرتين مميزتين الأولى على عنق حسناء و الثانية حقيقة أمامك ..



تلفت أندراوس حوله بقلق و رعب ..

= هل تمازحني .. لابد أنني أهلوس أو أحلم في أحسن الأحوال !!

= إطلاقاً ..

= إذا فأنا ميت !

= مؤقتاً .. ريثما ينجح الأطباء في إنعاشك ..

= و ماذا تريد مني ؟

= أن أجيبك على سؤالك ..

= أي سؤال منهم ؟

= سؤال كل باحث عن حقيقة الكون : هل الإله موجود .. كان جوابك هو لا أدري ..  
.. فهل بقي الآن كذلك ؟ ..

ابتسم أندراوس بدهشة ..

= لا أدري أيضاً .. ربما كنت أحلم أو أهلوس كما قلت .. أو ربما كما يقال هذا  
تأثير الأدرينالين و الأندروفينات في جسدي بسبب الحادث ..

= اقترب و ضع يدك على رأسي ..

اقترب أندراوس أكثر ثم وضع يده بالفعل على رأس الشاب فاخترقت يده جسده ..  
سحبها فزعاً على الفور ..

= ماذا حدث للتو ؟

ابتسم الشاب ..

= أهلاً بك في عالم الأرواح .. إن طبيعة الروح مختلفة عن طبيعة الجسد .. الجسد  
جسم أما الروح فموجة .. كما تقولون أنتم في الفيزياء .. و الموجات يمكنها اختراق  
المادة .. كموجات الراديو مثلاً .. أليس كذلك ؟

= هل أنت عارف بالفيزياء ؟

= بالطبع .. و بأكثر من ذلك ، فمن يعيش هنا يعرف كل شيء.. هل تتذكر تجربة الشق المزدوج ليونغ ؟..

= بالطبع .. تمرير الإلكترونات عبر شقين لتسقط على لوح مقابل..

= بالضبط .. و الخلاصة التي توصلت إليها التجربة أن الإلكترون كغيره من الجسيمات دون الذرية ذو طبيعة مثنوية .. أي أنه جسيم و موجة بنفس الوقت لذا فلها جميعاً كتلة على خلاف الضوء و فوتوناته التي لا تملك كتلة أبداً بل هي طاقة فحسب.. هل يذكرك ذلك بشيء ديني أستاذ..

فكر أندراوس قليلاً..

= أبداً ..

= سأخبرك .. في الدين يقال عن الملائكة أنها مخلوقات نورانية جبلت من النور عكس الإنسان الذي هو مادة بكتلة خلقت من التراب و معها الروح الجزء الملائكي النوراني من الإنسان الذي يرتبط بالجزء الجسمي المادي الفاني..

أندراوس بذهول ..

= أي أن الإنسان بذاته ذو طبيعة مثنوية !!

= تماماً .. جسيم كرداء حول روح عبارة عن طاقة لا تفنى و لا تخلق من العدم .. طاقة أنت كفيض من مصدر الطاقة الأول .. الأزلي و الأبدي .. ( الله ) جل جلاله .. او ما سماه العالم الألماني متعدد المواهب ليبنتز ( موناك المونودات ) جميعاً ..

= موناك ؟

= أجل هو جوهر الطاقة في كل شيء ، الأساس الذي لا يفنى كما وصفه ليبنتز أو كما ندعوه في الدين الروح..

= هذا كلام خطير للغاية .. !!

= إنه جوهر الحقيقة ببساطة .. هل سبق و أن قرأت في القرآن الكريم من قبل ؟

= بالطبع لا ، رغم استشهاد صديقي المسلم بلال ببعض آياته أحياناً ..

= بلال و قناة اقرأ الثقافية ..

= تعرفه !!

= هنا نعرف كل شيء كما أخبرتك، كما أعرف صديقك المتحرري الشهير بونجاني ، شارلوك هولمز كما وصفته بنفسك ..

= مذهل !!

= الحقيقة ليست حكراً على أحد أو على دين أستاذ .. هي جوهر واحد موزع على الجميع تماماً كروح الله ، وهناك آية في القرآن تلخص ما سبق و قلته تتحدث عن الموناد الاصل ..

= أثرت فضولي .. ما هي ؟

= آية تقول ( فنفخنا فيه من روحنا ) .. أي أن في كل منا طاقة من الإله يحملها الجسد البشري تماماً كرداء من التراب يغطيها و تتحدان معا في شكل جسيم مزدوج الطبيعية .. و عند الموت يتحلل الجسيم إلى مادة بكتلة ( جسد ) و طاقة ( روح ) نورانية الطبيعة أو موناد كما يحلو للبينتز تسميتها .. ببساطة الجسد عبارة عن قوس و الروح هي السهم التي تنطلق منه نحو العالم الآخر و كلما زادت الصعاب اشتد القوس أكثر و انطلق السهم بقوة أكبر ..

= رائع ، معبر و عميق !! لقد قلبت دماغي **180** درجة .. حقيقةً ..

= و هل ما يزال جوابك على سؤالك .. لا أدري ؟

= أبداً .. فأنا الآن أدري بالفعل ..

= و الآن ؟

= الآن ماذا ؟

= الآن عليك العودة إلى جسدك لتتحد به .. فالأطباء على وشك النجاح في إنعاشك .. لقد توقف قلبك لنصف ساعة كاملة ..

= لكنني لا أريد العودة .. المكان هنا رحب ، ممتع و مليء بالحقائق ، وأنا أريد أن أعرف كل شيء بدوري ..

= لا أحد يفضل الدنيا على العالم الآخر .. لكن لكل إنسان مهام في الدنيا عليه إنجازها قبل الانتقال النهائي إلى هنا .. أما على الأرض فالأفضل لك ألا تعرف كل شيء صدقني .. عندها ستتحول حياتك إلى مأساة و ألم نفسي عميق فتعجز عن مواصلة طريقك ..

= كما ترتأي .. سعدت بلقائك .. هذا حلم لم أتخيل في يوم من الأيام أن يتحقق ..

= سعدت بلقائك أيضاً .. قبل أن تعود ، هنالك وصية هامة عليّ إبلاغك بها ..

= كلي آذان صاغية ..

= عندما تعود إلى الحياة اسأل صديقك بلال عن شخص يدعى بروميثيوس إيفانوف ..

= و من هذا الشخص ؟

= إنه شخص سيقودك إلى كنزٍ عظيم سيغير واقعك جذرياً لينتشلك مع عائلتك من براثن الفقر و الحاجة ..

أندراوس بتفاؤل ..

= صحيح ..!؟

= كل الصحة .. لقد ضحيت بشبابك لأجل عائلة ليست عائلتك و الله سيعوضك عن ذلك بما لم تحلم به طوال حياتك ، هذه فلسفة الإله في الحياة ، الأمل مقابل الألم و الرخاء بعد الشدة .. من جهة أخرى فذلك الشخص المدعو بروميثيوس مرتبط بك على نحوٍ لن تصدقه ..

= لم أفهم ؟

= أترى هذه القطعة القماشية التي أرتديها ؟

= أجل ..

= على الأرض يدعونها كفن تورينو .. إنه الكفن الذي لف جسدي عقب موتي .. و عثر عليه تلامذتي في المغارة عقب قيامتي ..

= و ما علاقتي به ..؟

= حول هذا الكفن يدور تحدٍ مثير بيني و بين شخص تائه في الحياة .. أراد ككثيرين قبله أن يتحدى السماء و يلوي ذراع الإله كما يتوهم .. لكنه سيعثر عليّ في النهاية كما عثرت عليّ اليوم .. فجميع الدروب تؤدي إلى روما .. أو تورينو في حالته هذه ..

= و هل هذا الشخص هو المدعو بروميثيوس ؟

= لا .. بروميثيوس أتى إلى هذه الحياة كنتيجة للتحدي الذي أعلنه ذلك الشخص ضدي .. كما أتيت أنت بالضبط .. فحبات القدر هتيشكوكية على نحو يفجر العقل = لم أفهم !!

= ستفهم في الوقت المناسب .. لا تتعجل .. فكما أخبرتك هنالك أشياء كثيرة من الأفضل لك ألا تعرفها للحين .. عليك المغادرة الآن لكن احذر أن تخبر أي إنسان كان بأنك التقيت بي .. فلن يصدقك أحد و سيعاملك الجميع كمجنون فقد عقله .. و تذكر وصيتي .. اسأل بلال عن بروميثيوس ..

= لن أنسى ..

= و عاود زيارة طبيبك كي يعالجك من مرضك ، فتجاهله سيسبب كوارث لك .. = بكل تأكيد ..

= إلى اللقاء يا صديقي ..

= إلى اللقاء سيدي ..

شعر أندراوس بروحه تغادر البرزخ لتعود من جديد إلى النفق المظلم الطويل ثم إلى غرفة الإنعاش و دخلت جسده ثانية ففتح عينيه و هو يشعر بدوار و تعب .. مع آلام متفرقة في أنحاء جسده جراء الحاد، وسمع صوت الطبيب يقول:

= لقد استعاد وعيه .. نجح الإنعاش أخيراً !!

تم نقل أندراوس إلى غرفة العمليات ليتم تجبير كسوره و استئصال طحاله الذي تمزق..

\*\*\*\*\*

عندما ينتقل الملحد من إلحاده إلى مبدأ لا أدري يقترب أكثر من نواة الحقيقة و يطلق جزءاً من طاقته في هذا الكون .. و عندما ينتقل من مدار لا أدري إلى مدار الإيمان المطلق يكون قد أنجز مهمته في الحياة فيطلق كامل طاقته كروح تعود إلى الروح الأسمى الأزلية الأبدية .. روح الله موند الموندات ..

# خريطة السماء



**روسيا / موسكو ..**

**كنيسة القديس باسيل ..**

**2070 ..**

= أهلا بك في بيت الرب..

= أهلا أبانا.. اعذرني فهذا اعترافي الأول و أجهل الكيفية .. إذ لم أزر كنيسة من قبل ..

صمت الأب للحظات و هو يستذكر حواراً مشابهاً منذ سنين طوال ..

= يبدو من صوتك أنك شاب في مقتبل العمر..

= أتممت ثمانية عشر عاماً بالأمس..

= لا زلت بعمر صغير على خطايا تستحق الاعتراف ! علاقة غير شرعية على ما أعتقد ؟

= لست هنا لكي أعترف أبانا..

ساد الصمت لبرهة..

= لكنك في قمرة الاعتراف يا بني .. الأمور الأخرى نتحدث عنها في العلن و وجهاً لوجه..

= لا .. فهمتني بشكل خاطئ .. لست هنا كي أعترف عن خطاياي .. بل عن خطايا شخص آخر..

= شخص آخر ؟!

= أجل ، إنسان بربري يدّعي أنه والدي .. و أريد مشورتك فيما ينبغي علي فعله للتعامل معه..

= تفضل يا بني .. أنا أسمعك..

تنهد الشاب تنهيدةً عميقة هاربة من عقل عجوز يتحكم بجسده الشاب..

= عشت أعوامي الثمانية عشر المنصرمة في قصر كبير لرجل يدّعي كما قلت بأنه والدي .. لكن مواقف كثيرة و كلمات عابرة منه شخصياً و من آخرين زرعت بذرة الشك في قلبي لتكبر مع الأيام حتى تحولت إلى شبه يقين بأنه ليس والدي الحقيقي ..

= ربما كنت متبنياً ؟

= لا .. حتى في حالة التبني يبقى هنالك شعور أبوي محب .. أما ذلك الرجل فلا يشعر تجاهي بأي شعور .. إنه يسعى جاهداً فحسب لخلق وحش بشري يشبهه في داخلي بدروسه الشاذة و المشوهة عن الحياة التي حاول تلقيني إياها .. لكنه فشل في ذلك طوال تلك السنين ، فهناك اختلاف جذري بيني و بين ذلك الرجل في كل شيء من الشكل الى المضمون .. أنا إنسان متدين ، أحب البشر الآخرين و أرغب بمساعدتهم و الإصغاء لمعاناتهم .. أما هو فوحش متجسد في شكل إنسان بقلب من حجر .. و ضمير ميت منذ عقود ، فلا يردعه رادع عن فعل أي شيء .. قتل ، اغتصاب ، سرقة ، مخدرات .. هل تصدق وجود رجل من هذا القبيل في الحياة ؟!

لم يجب الأب ، و لاح وجهه المشوش عبر الزجاج الفاصل بينهما يرنو عالياً إلى السماء و يتنهد مع ذكريات بعيدة تستيقظ في ذهنه من جديد لتؤكد شكوكه..

= ذلك الرجل هو رجل مافيا .. صحيح ؟

جمد الشاب في مكانه مذهولاً..

= بلى .. كيف عرفت ؟!

= لقد التقيته من قبل..

= تعرفه ؟!

= لا .. التقيته مرة واحدة هنا في هذه الكنيسة منذ عقدين من الزمن .. فدار بيننا

حوار غريب حفر في ذاكرتي على نحو لا ينسى .. كان يجلس مكانك الآن بالضبط  
و أراد الاعتراف بذنوبه السابقة ..

= هذا غريب ! .. إنه ليس من النوع الذي يشعر بالذنب .. و كل خطايا الكون لا  
تهز في رأسه شعرة واحدة !!

= قال لي ذلك .. لكنه برر قدومه للاعتراف بسبب وقوعه في حب أنثى استثنائية  
متدينة و رقيقة غيرت من طباعه..

= ماريانا ؟!

= لم يذكر لي اسمها .. لكن تبين لي أنه متيم بها..

= لكنه لم يتغير أبداً بعد ذلك اللقاء..

= أعلم .. لأنني حطمت أوهامه التي أتى بها إليّ .. فقد اعتقد أن الاعتراف سيسقط  
عنه ذنوبه جميعاً ليعود بريئاً كطفل ولد للتو .. لكنني أخبرته أن ذنوبه لن تغفر  
حتى يعترف أمام القانون بجرائمه و يحاسب عليها .. فغضب بشدة و اتهمني مع  
ديني و إلهي بالعجز ، القسوة و تضييع وقته الثمين..

قبل أن يغادر أقسم أنه سينتقم من السماء على حياته و ظروفه القاسية ، و سيلتقي  
بي مجدداً ذات يوم ليثبت لي انتصاره على الإله الوهمي الذي أعبدته كما ادعى..

= و يبدو أنه فشل في ذلك ..

= حتى الآن ! الحقيقة لقد ذكر في حوارهِ ذاك ما يعزز شكوكك حوله بأنه ليس  
والدك !

= صحيح ؟

= أجل .. لقد ذكر لي بأن الأطباء شخصوا إصابته بعقم دائم .. الأمر الذي دفع  
تلك الفتاة المتدينة الى تركه .. و إن كنت أشك كثيراً بأن هذا هو سبب هجرها له.

= إذا فقد كنت على حق !! .. كلام خطير للغاية أبانا ، لكنه بلا شك يمنحني  
شعوراً لا يوصف من السلام الداخلي و السعادة .. فلا أريد لذلك الوحش أن يكون  
والدي بأي شكل من الأشكال .. للأسف من جهة أخرى فهو كلام يطرح أسئلة  
كثيرة عن جذوري و أصلي .. و من هي عائلتي الحقيقية .. ؟

= محق .. أخشى أنه لا يمكنني مساعدتك في هذا الصدد .. فلم يلمح أبداً لأية  
إجابات عن هذه الأسئلة..

= و بماذا تشور علي أن أفعله الآن ؟ .. لقد هربت البارحة من قصره و لا شك أنه قد جن و يبحث عني في كل مكان .. تخيل أنه هددني بالقتل بالأمس لأنني أخبرته بنيتي العمل في مجال الغناء و رفضي اتباع نهجه في الحياة كرجل مافيا .. فكيف سيكون رده على هروبي ؟ .. سيقتلني بكل تأكيد في حال وصل إلي .. فلطالما ذكر أمامي أنه سيسحق كل شخص يتمرّد عليه..

= الجأ إلى الشرطة..

= لا فائدة من ذلك .. فهو متغلغل من خلال علاقاته في السلك الجنائي و لديه أصدقاء فاسدون كثر داخله .. سيسلمونني إليه بطريقة ما لينفذ وعيده..

= امنحني دقائق لأفكر يا بني..

= بقدر ما تشاء..

ساد الصمت طويلاً و الشاب يعاين بدهشة تلك الصدفة الغريبة أو ربما القدر الذكي الذي قاده إلى الكرسي الذي جلس عليه " والده " منذ عشرين عام غاضباً و متوعداً .. كم هي صغيرة هذه الدنيا ، و كم هي عبقرية تلك السماء !!

أخيرا جاءه صوت الأب الرخيم و الحنون ..

= أظن أن بإمكانني مساعدتك بطريقة وحيدة يا بني إن كنت موافقاً عليها.. !

= بالطبع .. أي مساعدة الآن لا ترفض .. فهي تنجيني من موت حتمي !

= يمكنك العيش هنا في الكنيسة لفترة متخفياً .. فالكنيسة هي المكان الوحيد الذي لن يبحث عنك ذلك الرجل فيه ، فهي تشكل له عقدة نفسية كما استنتجت ، و لم يزرها في حياته سوى في مناسبة اعترافه اليتيمة تلك..

= أقبل بكل امتنان .. رأي حكيم و تفكير سليم و عبقرى ..

= كما يمكنك مساعدتنا هنا بالغناء في كورال الترنيم في القديس .. فصوتك جميل كما استنتجت من رغبتك بالغناء..

الشاب بسعادة و ذهول..

= ما أروعك يا أبانا .. إنك تحميني و تتبنى موهبتي في آن معاً !! .. أنا في خدمة الرب بأي طريقة يريدّها .. أشكرك .. أشكرك..

= أنا الذي أشكرك .. إن إصرارك على الماضي قدماً عكس تيار الخطيئة الذي نشأت فيه ، هو إيمان مثير للإعجاب و إرادة فولاذية تسرّ السماء .. أنت شخص مثالي للانضمام إلى طاقم الكنيسة .. لقد ذكرتني بمقولة أيقونية للصحفي الإنجليزي الشهير توماس مالكولم موغ ريدج..

### (( إن الأسماك الميتة هي وحدها من تمشي مع التيار ))

و أنت بعمرِكَ الصغير تنبض بالحياة و تكافح عكس تيار الموت و الخطيئة الذي نشأت فيه للحفاظ على إيمانك و أخلاقك ، و نحن نثمن عالياً جرأتك هذه و صلابة إيمانك ، إضافةً إلى تخليك عن الثراء و الجاه الذي منحه لك ذلك الرجل في سبيل الحفاظ على أخلاقك و مبادئك..

= مقولة عميقة للغاية..

= بلى ، هي كذلك .. لم يلقب ذلك الصحفي بعاشق الكنيسة عن عبث..

صمت للحظات يفكر..

= ابقى مكانك سيد..

= بروميثيوس..

= الأخ بروميثيوس .. سأتي إليك و أصحبك إلى غرفتك الجديدة التي ستقيم فيها .. و غداً لنا كلام آخر .. سأعرفك بطاقم الكنيسة ، و أشرح لك عن عملك الجديد أكثر..

= أشكرك مجدداً أبانا .. أمثالك يعيدون ثقة البشر بالسماء .. و من خلالهم ينتصر الرب على التائهين الأشرار من أمثال المدعو سيرغي و غيره..

\*\*\*\*\*

بينما كان ذلك الحوار يدور في الكنيسة ، جلس أناتولي أمام سيده الغاضب المنهار لا يعرف من أين يبدأ الكلام معه .. فخطة انتقامه التي انتظرها عشرين عاماً كاملة انتهت إلى فشل ذريع .. إن نسخ يسوع المسيح التي صنعها و أنفق عليهما ملياري

دولار كي يلوي ذراع الاله تملصتامن يديه كالزئبق .. الأولى أجهضت مباشرة ،  
و الثانية هربت جنيناً في رحم الفتاة النيجيرية أديلا في حين فرّت الثالثة مراقها  
بشخصية إنسانية مثالية لا تنحني أو تكسر رغم جهوده الحثيثة المتواصلة لنحتها  
بإزميل قسوته كما يشاء .. إنه بلا حول و لا قوة .. و الإيغو المتورمة لديه تشعّرت  
و على وشك التشظّي إلى أشلاء .. ففي الحقيقة سيرغي عانى خلال حياته من  
اضطراب الشخصية النرجسية التي تجمع بين الأنا المتضخمة و الهشاشة النفسية  
في آن ، و هو كنبات النرجس الذي اشتقت منه تسمية ذلك الاضطراب ، يقتل كل  
ما يحيط به من نباتات كي ينفرد بالتربة و الغذاء لنفسه ، و أي شخص يؤثر على  
بيئته السامة تلك يثير في أعماقه حقداً عارماً و جنوناً مخيفاً يدفعه إلى تصفيته و  
بأشع الطرق ، فالوجه الآخر لشخصيته هو الشخصية السادية التي ورثت اسمها  
عن الروائي ماركيز دي ساد الذي روج لفلسفة التمتع بتعذيب الآخرين و آلامهم و  
نفذها عملياً بنفسه مع الفتيات اللاتي اغتصبهنّ .. نرجسية و سادية في خليط متفجر  
نادر صنع من سيرغي ذلك الوحش الهمجي..

= أريد ذلك الوغد اللقيط المختّ بأي طريقة أناتولي .. و سأمنحك مكافأة لم تمر  
حتى في خيالك إن نجحت في ذلك..

= اتركه سيدي و شأنه .. ركز على حياتك و عملك .. لقد بلغت سبعاً و سبعين  
سنة .. و لم يعد أمامك متسع من الوقت كي تشغل تفكيرك و وقتك بشخص لا  
تربطك به أي علاقة .. استمتع بما تبقى أمامك من حياة !..

= أنسى !! لن أعرف طعم الراحة أو المتعة قبل أن أصلب ذاك الوغد بيدي هاتين  
.. إنها عشرون عاما كاملة يا أناتولي .. جهد ضائع و وقت ثمين لن أسامح عليه  
.. لن أغادر هذه الحياة مهزوماً ، فأنا لم أعتد سوى على الانتصارات فيها .. و  
لطالما كان شعاري في الحياة هو مقولة نابليون بونابرت العظيمة ذات يوم عندما  
قيل له أن جبال الألب تمنع جيشه من التقدم فأجاب ببرود و بساطة :

### (( إذا علينا أن نمحوها عن وجه الأرض ))

فالجبال نفسها لم تمنعه من تحقيق أحلامه و بلوغ أهدافه .. و هذا ما ينبغي أنأفعله  
بدوري حتى آخر يوم في حياتي.. سأزيل حتى الجبال نفسها من طريقي في  
معركتي الأخيرة مع السماء ..

= كما ترتأي سيادتك .. سأبذل قصارى جهدي كي أعيده و في أقرب وقت..

## في صباح اليوم التالي..

بعد انتهاء قداس الأحد و انصراف المصلين ، جمع الأب فاسيلي طاقم الكنيسة مع بروميثيوس ليعرفهم ببعض..

= هذا هو الأخ الجديد في عائلتنا .. بروميثيوس .. يتيم ذو ثمانية عشر ربيعاً .. عاش حياته في ميتم ، و اليوم ينذر نفسه لخدمة الرب .. يملك صوتاً ملائكياً ، و سيساعد في كورال الترانيم ..



التفت إلى بروميثيوس و أخذ يشير بسبابته إلى الأشخاص أمامه..

= الأخ ياروسلاف ، المسؤول المباشر عن التعاملات المالية و تدبير التبرعات لخدمة الكنيسة و المحتاجين .. الأخ أرون عاشق البيانو .. عازف محترف يقود الكورال .. الأخ بافل ، أكثرنا تنسكا و تعبداً يقضي جل وقته في الصلاة .. الأخت أناستازيا ، تزودنا بالطعام اليومي .. الأخت كارين تهتم بالحديقة و النباتات حول الكنيسة كما تعتني بالقطط التي اتخذت من حديقة الكنيسة ملاذاً آمناً لها .. .. الأخت ليا شغوفة بالقراءة و المطالعة و مرجعيتنا في الأمور الثقافية..

ابتسم بروميثيوس بإعجاب..

= يا لها من عائلة متكاملة سعيدة .. أنتم تملكون هنا ما يحلم به أي إنسان في هذه الحياة .. العائلة ، المحبة ، الإيمان و مساعدة الآخرين .. لا شيء آخر هام تقدمه السماء للإنسان .. بقية الأمور مادية بحتة تحجر العقل ، القلب و الروح .. لقد حرمتني الحياة من الأخوة .. لكنها كعادتها تعوضني الآن بعائلة كاملة..

اقترب منه الأخ بافل المتنسك و انحنى أمامه ..

= فلسفة غريبة و عميقة من شاب في مقتبل العمر أيها الأخ .. أهنتك عليها ..

تدخلت الأخت ليا عاشقة الثقافة في الحديث بدورها ..

= إن لك من اسمك الغريب عن ثقافتنا نصيبٌ كبير .. بروميثيوس الإله الإغريقي عاشق البشر ..

أحنى بروميثيوس رأسه بخجل ..

= هذا ما يقال لي على الدوام ..

ابتسم الأب فاسيلي تجاه وعية الكبير و تواضعه المثير للإعجاب..

= لينصرف الجميع إلى غاياتهم .. و أتركك مع الأخ أرون ليشرح لك طبيعة عمل الكورال و ينقل إليك خبرته الموسيقية..

تفرق الجميع في حين اقترب الأخ أرون من بروميثيوس و وضع يده على كتفه مبتسماً..

= اتبعني..

تبعه في ردهات الكنيسة المتشعبة حتى بلغا غرفة جانبية مغلقة .. فتحها أرون..

= تفضل..

دخل بروميثيوس ليجدها غرفة صغيرة متواضعة الأثاث ، مع بيانو ضخم يحتل



إحدى زواياها..

اتجه إليه أرون و جلس..

= هل هنالك أي أغنية شهيرة تحفظها جيداً ؟

= بالطبع .. لنقل أغنيتي المفضلة ( بدونك أنا بارد )..

= خيار مثير للإعجاب .. غني مع عزفي..

أخذت أنامل أرون تنتقل بانسيابية مذهلة على درجات البيانو في حين أخذ بروميثيوس يغني معه بصوت لم يختبره أرون من قبل طوال سنوات عمره الأربعين ، فتوقف عن العزف مدهوشاً ..

= هل هنالك خطب ما ؟

= بالطبع .. صوتك !

بروميثيوس بارتباك..

= هل هو سيء إلى هذه الدرجة...؟!

= بل هو استثنائي لهذه الدرجة .. كما أنك متمكن تماماً من الغناء .. هل سبق لك و أن تلقيت دروساً .. ؟

= على الإطلاق .. لكنني أملك موهبة فطرية في الغناء و كتابة القصائد أيضاً ..

= مذهل .. موهبة ربانية لا يشق لها غبار .. لماذا لم تستثمرها في الفن ؟

= في الحقيقة هذا كان طموحي ، أن أصبح مغنياً .. لكن الظروف خاننتني..

= لا بأس ، لقد وصلت إلى المكان المناسب و الشخص المناسب .. يقول الفيلسوف ديكارت..

**(( الموسيقى هي الفن الوحيد الذي يتحد مع الدين اتحاداً وثيقاً ))**

و لدي عرض خاص لك ، قد يجمع ما بين طموحك في الغناء و رغبتك الروحانية في خدمة الكنيسة و الرب..

بروميثيوس بتفأول..

= هل أنت جاد ؟

= بالطبع .. ما رأيك أن تكتب قصائد روحانية بنفسك ، ثم أقوم أنا بتلحينها ، بعدها أقوم بنشرها على قناة الكنيسة الرسمية على الشبكة العنكبوتية ، فلدينا ملايين المتابعين كجمهور معد سلفاً لاستقبال موهبتك الفذة هذه..

= موافق بدون تفكير أو تردد ، لكن هل سيقبل الأب فاسيلي بذلك ؟

= بالطبع .. فالغناء و الموسيقى هما أحد مداخل الرب الهامة إلى أرواح البشر .. و أنت تملك حنجره غير عادية .. أكاد أسمح لنفسى بأن ألقبها ( حنجره السماء ) فصوتك الغريب يثير في النفوس مشاعر روحانية جياشه..

بروميثيوس بخجل..

= هذا إطرء لطيف أخى العزيز .. أشكرك..

= هذا ليس بإطرء بل حقيقة .. عد الآن إلى غرفتك و تفرغ لكتابة قصيدة جديدة .. عليها أن تكون روحانية تروّج للأخلاق و الإيمان بالطبع .. أما أنا فسنأقل اتفاقنا الجديد إلى الأب فاسيلي ..

غادر بروميثيوس الغرفة و الكون على رحابته لا يتسع لسعادته .. إن الإله رحيم و مذهل على نحو يفجر العقل ، فكما يقال إن أغلق باباً أماك فتح لك بعدها مباشرة نافذة .. لكنه الآن يغلق أمامه كوة ضيقة ليفتح أمامه بوابة ضخمة كالقلاع .. عائلة جديدة حرم منها طوال حياته .. وسط روحاني متدين يتماهى مع عقليته و طبيعته .. فرصة لا تعوّض كي يعبر عن موهبته و عشقه للغناء بطريقة يخدم فيها الرب و غاياته أيضاً .. إنه لا يحتاج أي شيء آخر من هذه الحياة بعد الآن !!

\*\*\*\*\*

فشلت جميع محاولات سيرغي و أناتولي في كشف مكن بروميثيوس .. لقد تأكدا أنه لم يغادر البلاد عبر أعوانهما .. لكنّ روسيا دولة قارية و البحث عنه فيها أشبه بالبحث عن إبره في كومة قش .. دون أن يدركا بأن بروميثيوس قريب منهما على نحو لم يتخيلاه ، لكنه في نفس الوقت في المكان الأبعد عن قلبيهما الأسودين الحقودين ..

هنالك في الكنيسة انبرى بروميثيوس بشغف و حماس على كتابة قصيدته الأولى  
في بيته الجديد و وسط عائلته الجديدة .. أرادها أن تكون حول أكثر موضوع مقدس  
في الحياة .. الشيء الذي حرم منه طوال حياته في قصر سيرغي .. إنه الحب ..  
الذي شعر بنفحات منه مع كلبه شعاع ، مدبرة المنزل ستيللا و الغيشا بالنسبة  
لسيرغي يلينا .. لتتمخض ساعات من التفكير عن القصيدة التالية :

مسيح الحب ما جاء .. إلا بهذا العنوان  
أرواحنا تسمو بالحب .. و الحب بناء الإنسان  
في الدنيا خطاياك سبع .. و الكره سيجعلها ثماني  
فالكره كأحجار الدومينو .. يتلوه خطايا كإدمان  
و الحب بلسمه شاف .. يشفي زلاتك بغفران  
كل دين قد جاء .. توراة إنجيل و قرآن  
فودو ، بوذي ، تاوي .. أو حتى عبادة أوثن  
لم يطلب منك سوى حب .. فالحب كزهر النيسان  
من عرف الحب فما آذى .. فالقلب كدير الرهبان  
فيه خشوع فيه صلاة .. و أجراس تعلو كأذان  
و الحب شرقة تحوي .. خيراً بشتى الألوان  
مشاعر تسمو بصاحبها تتفجر مثل البركان  
تصدح كموسيقا بتهوفن .. تترنم كصوت الكروان  
الحب سفينة تتجيك .. فتقمص دور الربان  
و انشر محبتك لا تخف .. فالكره نظير الكتمان  
صمت سجدت تصدقت .. و تبعث جميع الأركان  
لا قيمة لذاك إن تكره .. لا يثقل كفة ميزان

الحب خمر لا يفسد .. يتعق بمرور الأزمان  
كحال بذرة إن طمرت .. تنمو ببادر ريحان  
أثر الخير أثر فراشة .. لا يعرف درب النسيان  
و الناس ستذكر محبتك .. لو كنت حبيس الأكفان

في اليوم التالي توجه بروميثيوس إلى غرفة أرون .. طرق الباب بهدوء فسمع  
صوته الرنان من الداخل ..  
= تفضل ..

دخل مع شعور من الارتباك يختلج في قلبه، فهو لا يعرف ردة فعل أرون تجاه  
قصيدته الأولى ..  
= أنجزت أولى قصائدي يا أخي..  
= بهذه السرعة؟! أتمنى ألا يكون الإلتقان قد خانك .. ناولني إياها..

مد يده المرتجفة بالورقة ، فشرع أرون بقراءتها مع ابتسامة تتسع تدريجياً حتى  
أنهاها ، ثم التفت إليه بدهشة..

= عمل مذهل ! .. مضمون مميز و موسيقى شعرية انسيابية .. أنت موهوب بالفعل  
.. هذا بالضبط ما أريده .. ما ينسجم مع توجهات ديننا و كنيستنا .. و أظن أن  
تلحينه ليس بالأمر العسير .. سيأخذ مني يوماً أو يومين على أبعد تقدير .. ثم سنقوم  
سويًا بتسجيلها في استديو السيد تشارشن .. إنه من رواد الكنيسة الدائمين و عرض  
علينا خدماته مجاناً كنوع من التبرع .. هناك أقوم بتسجيل تراتيلنا و أغانينا الدينية  
كلها .. أعتقد أن هذا الكلام العميق مع ألحان مناسبة و حنجرتك السماوية سينجم  
عنه تحفة فنية مذهلة !!

قرص بروميثيوس ذراعه مبتسماً ..

= أشعر بأن كل ما يمر بي مجرد حلم ! ..

= لا ، أنت لا تحلم ، فهنا في بيت الله لا وجود للأحلام، إذ أن الله يصيرها حقيقة

.. هذا ما وعد به عباده المخلصين ( من جعل نفسه في خدمتي ، جعلت كل شيء في خدمته ) .. اجلس بجواري كي نتعاون معاً على تلحين قصيدتك ..

كانت توقعات أرون بخصوص الأغنية الجديدة في مكانها بالضبط فبعد تسجيل الأغنية بصوت بروميثيوس الساحر و تنزيلها على قناة الكنيسة .. انفجرت على مواقع الشبكة العنكبوتية كبركان ، و بات الكل يتحدث عن صاحب ذلك الصوت الملائكي الملقب ( حنجرة السماء ) كما أشار أرون على بروميثيوس أن يفعل .. و هذا ما أسعد الأب فاسيلي للغاية ، فقد أحب بروميثيوس كالأبن الذي لم يحظ به ، و رؤيته سعيداً و ناجحاً على هذه النحو يمنحه شعوراً لا يوصف بكلام جميع قواميس اللغات ..

= أحسنت العمل أيها الأخ بروميثيوس .. و بالطبع أيها الأخ أرون ، لقد أخرجت فناناً عظيماً من أعماقه في فترة قياسية .. !!

= في الحقيقة أنا لم أفعل أي شيء .. إنه يملك موهبة ربانية في كتابة القصائد مع صوت ساحر قل نظيره و تمكّن فطري من الغناء بمختلف الطبقات ..

= هذا تواضع منك أخي ارون .. ملاحظاتك القيمة و الدقيقة هي من ساعدتني على التطور بسرعة ..

= أشك في ذلك ، لكن أشكرك على كل حال ، أما الآن فعليك البدء بقصيدة جديدة ، إن جمهورك الغفير يطالبك بذلك .. اغتنم رياحك عندما تواتيك .. فالفرص تمر كالسحاب في حياتنا ..

= بالطبع ، سأفرغ من أجلها طوال اليوم ..

ثاني المواضيع التي أراد بروميثيوس التطرق إليها كان قوة الإيمان .. و بأن من يثق بالله عليه ألا يخشى شيئاً .. و تفتقت موهبته مجدداً عن القصيدة التالية :

**تدور الأرض حول الشمس .. بثمانى أضعاف الطلقة**

**لآلاف سنين قد مرت .. و مسارها أبداً ما اخترقاً**

**لا تبعد عنها أو تقرب .. ميكرونأ غرباً أو شرقاً**

**إن بعدت عنها فذاك جليد .. و إن قربت ما فيها احترقا**

و بعد هذا أراك تعيساً .. تشكو القلق أو الأرق  
تذكر صديقي كل مساء .. و الشمس تودع ذا الأفق  
من أحكم مسارها دون حياء .. في حلقة تتلوها الحلقة  
لا يعجز عن ضبط حياة .. و الكون بيده قد خلقا  
ما بين اللحد و بين المهد .. و قبلها مذ كنت علة  
كتاب حياتك مخطوط .. بزواج القلم مع الورقة  
فاليسر ضيفك أحياناً .. أو عسراً أبوابك طرقا  
و الدنيا سرابٌ فلا تتبع .. و تخلص عنه كلو صدقة  
من جعل يسوعاً نجمته .. ما تاه و قد بلغ الحق  
أما من حاول تحديه .. على نحو مثير للشفقة  
قد أدخل نفسه في نفق .. عتمته كسواد الحديقة  
لا تعصي ربك بموبة .. لا تدخل نفسك ذا النفق  
يسوعُ منارُ ذي الدنيا .. من أنكر .. تاه أو غرق

لاقت القصيدة استحسان أرون كسابقتها ، بل آمن أكثر بموهبة بروميثيوس .. تم  
تلحينها و تسجيلها ثم تنزيلها على قناة الكنيسة لتكتسح خلال ساعات مواقع التواصل  
الاجتماعي كتسونامي و تصبح أغنيته ( ترند ) لثلاثة أشهر كاملة .. مما وسع من  
دائرة شهرته بين الناس أكثر ..

خلال الأسابيع التالية تلقى بروميثيوس عروضاً كثيرة للتعاقد مع شركات إنتاج  
تتبنى موهبته ، دون إلزامه بتغيير توجهه الديني .. لكنه رفضها كلها .. فهو مكتفٍ  
و راضٍ تماماً بحياته في الكنيسة كما هي .. لقد بدأ مسيرته من هنا و سينتهيها هنا  
أيضاً .. فهنا يملك كل شيء حلم به أو افتقده في حياته ( العائلة ، الحب ، الإيمان  
، الغناء ) .. هذا هو قراره ..

\*\*\*\*\*

خلال الأعوام التالية سطع نجم بروميثيوس في أنحاء روسيا قاطبةً .. غنى لكل شيء .. الحب ، الإيمان ، الصداقة ، التضحية ، التسامي ، الإحسان ، الفقراء ، الأيتام .. وغيرها ..

لكن هاجسه و كابوسه الوحيد كان سيرغي لا غير ، إذ لابد أنه سمع بشهرته و عرف مكانه أخيراً ، فهل نساه أم أنه سينفذ وعيده ذات يوم ؟! .. ما جهله بروميثيوس تماماً أن سيرغي الذي عرفه كوحش متعطرس لسنوات ، كان في عالم آخر تماماً ، فقد شُخص خلال الفترة التي ذاع صيته فيها بإصابته بأحد أشرس أنماط مرض يسمى **التصلب اللويحي** الذي يشيع بعيداً عن خط الاستواء كحال موطن سيرغي الأم **دودينكا** في أقصى شمال روسيا .. فقد سيرغي على إثره البصر و من ثم أصيب بشلل زاحف حتى أصبح شاملاً لكامل جسده .. فأصبح طريح الفراش ، ليقضي آخر أيامه مستسلاً بالكامل لمصيره و رافعاً الراية البيضاء في معركته مع السماء و قد أنهكته طعناتها المتتالية و آخرها طعنة مرضه ، فأدرك أنه إنسان بلا حول و لا قوة .. مرض واحد أفقده كل شيء .. استعان بعشرات الأطباء المخضرمين ، بالطب البديل و حتى بالشعوذة دون فائدة ، لقد هزم تماماً ليصبح حلمه الأخير في فراشه كحلم المليونير الشهير أرسطو أونيسييس أحد أشهر أثرياء العصر الحديث عندما سئل و هو على فراش المرض : ( **ما هو حلمك الأخير ؟** ) فأجاب : ( **أن أعثر على طبيب يشفيني و يأخذ كل ثروتي** ) .. و لعبقرية القدر فقد كان آخر منشور قرأه سيرغي على موقع لافيتا الإخباري قبل أن يفقد بصره يتناول قصة ملياردير كحاله **ماير أمشيل روتشيلد** الجد الأكبر لعائلة روتشيلد اليهودية أغنى عائلة في العالم و التي تتحكم بمصير الأرض قاطبة كما يعتقد كثيرون ، فكانت نهايته عبرة لكل شجع للمال ، ذكر المنشور أن ماير كان مولعاً بثروته بشكل مرضي و يتلذذ بالنظر إليها لساعات طوال يومياً ، فبنى له قصرأ كبيراً و فيه خزنة سرية ضخمة جداً جمع فيها مجوهراته من ياقوت ، ذهب ، زمرد و لؤلؤ .. وكان من شدة عشقه للمال لا يسعد بتناول طعامه الا في خزنته و حوله مقتنياته ، كما كان يقضي في خزنته اياماً ثم يعود الى اهله دون أن يدرك سره أحد..

وفي احد الأيام ذهب ولم يعد أبداً وباعت كل محاولات أهله في البحث عنه بالفشل، ثم ورث ذووه ثروته فكان القصر من نصيب أحدهم ، بعد عدة سنوات هدم صاحب القصر البناء لإعادة هيكلة فعثر على الخزنة الضخمة ، و عندما هدمها صُدم بمفاجأة كوقع الصاعقة عقدت لسانه من شدة الدهشة و باتت حديث الناس لعقود بعدها ، حيث وجد جمجمة والده ماير و بجوارها عظامه و ثروته الطائلة مع ورقة

مكتوب عليها بدمائه:

## (( أغنى أغنياء العالم يموت جائعاً وعطشاً ))

ما حدث في الحقيقة هو أن الخزنة كانت تغلق من جانب واحد فقط ، و في ذلك اليوم دخل ماير خزنته وأغلقها و قد نسي مفتاحها في الخارج، وبعد أن فرغ من طعامه وشرابه و هم بالخروج، انتبه إلى أن المفتاح بقي في الجهة الثانية فشلتته المفاجأة و أدرك أن هلاكه بات على الأبواب فأخذ يطرق الباب و يصرخ بأعلى صوته دون أن يسمعه أحد..

و بعد أن يئس من النجاة جرح نفسه وكتب بدمائه عبارته الشهيرة على ما حوله من أشياء لتكون عبرة لمن يعتبر .. فقد مات وسط ثروته الضخمة التي استهلك عمره و تفكيره في جمعها دون أن تفيد به شيء ، و لا شك أنه في لحظاته الأخيرة كان مستعداً لمقايضتها كلها بكسرة خبز و رشفة ماء !! ))

و لسخرية القدر أو عبقريته بالأحرى كانت هذه نهاية سيرغي بدوره .. لكنه حظي بفرصة للتوبة لم يحظ بها ماير ، فقد أخبره أناتولي بالفعل بشهرة بروميثيوس الواسعة في الغناء لأجل الكنيسة ذاتها التي أقدم سيرغي على الاعتراف فيها ذات يوم .. و لو أصغى لكلام الأب فاسيلي وقتها فسلم نفسه للشرطة لربما أعدم سريعاً بطريقة وفرت عليه كل هذه الآلام التي يختبرها .. العمى ، الشلل ، عسرة البلع .. عسرة التبول .. التيار الكهربائي الذي يسري في أوصاله و غيرها .. علاوة على أنه ربما كان سيغادر الحياة نقياً كالثلج و قد قبلت السماء اعترافه و غفرت ذنوبه .. لكنه اختار الطريق الأصعب للتوبة و غفران الخطايا .. الآلام المبرحة حتى الموت..

قضى سيرغي آخر أيامه يتمتع بالنعمة الوحيدة التي لا يزال محافظاً عليها .. ( السمع ) .. يصغي لأغاني بروميثيوس الإنسانية و الدموع تنهمر من عينيه اللتين لا تبصران إلا السواد كحياته و قلبه فيما مضى منظفةً روحه من غلها و خطاياها .. لكن أكثر أغنية حفرت في وجدانه و جعلت الندم ينهشه حياً وسط ذهوله و دهشته ، كانت أغنية لبروميثيوس بعنوان ( ماريانا ) تقول..

ماريانا..

صوتي من صوتك و تكويني بعض من حسن محياك

لم تبرحي يوماً ذاكرتي .. و كيف القلب سينساك ؟



ما كنت يوماً لأغني .. ما كنت لأوجد لولاكِ

-----

هل تعلمين بوجودي ..

طفلك أنا أمه

رحلت عنه كورود

و الشوك أدمى قدماه

يا شمسي أشعر ببرود

فالدفع لست إله

-----

هربت من وحش سادي

عذبك فنجاك الله

فالطيب ليس لحقود

حتى لو نجح و أغواه

و الكذب ليس بأبدي

سيُفضح مهما أخفاه

-----

لا أذكر وجهك في مهدي

أتساؤل كيف محياه ؟

و اخاف ان أبلغ لحدي

لم أنجح قطّ بلقياه

أرجوك أمي لتعودي

فالقلب أتعبه الآه  
عديني .. سأقبل بوعود  
فالنجم و إن بعد و علا  
دليلاً يبقى لمن تاهوا

-----

أماه و لا حلماً آخر .. عودي كالبسمة للبائي  
يجمعنا ربّ يجعلني أوقن بأنّي سأراكي

اختنق سيرغي بحيرته .. كيف عرف بروميثيوس بأن ماريانا أمه ؟ من أخبره ؟  
البروفيسور الأمريكي ديريان أم مساعده أناتولي .. إنهما الوحيدان اللذان يعرفان  
هذه الحقيقة .. !

لا يهم .. لم يعد يهم .. !!

إنه على شفير الموت .. الآلام تنهش عظامه في كل ثانية .. نادماً على حياته التي  
عاشها ، كانت قاسية في طفولته بلا شك لكن السماء عوضته لاحقاً بالمال ، الجاه  
و السطوة ، ثم منحته فرصة ذهبية بلقائه بماريانا القديسة المؤمنة ففرط بها ، ثم  
بابن لا سمي له بروميثيوس بقلبه الطيب المفعم بالإنسانية فضيعها .. إنه يعي أخيراً  
أن الضراء التي مسته في طفولته تلتها سرّاء بالغة لم يحترمها أو يقدرها حق قدرها  
.. و الخطأ خطأه بالمقام الأول .. لكنه سعيد بأن بروميثيوس ( ابنه الافتراضي )  
ناجح و سعيد ، و الأهم أنه نجا من عالم المافيا الذي يعج بالخطايا و الذنوب كي  
لا تكون خاتمته كحاله الآن ، كما أنه استدل بطريقة ما إلى والدته و هذا سيسعد  
الاثنين معاً لا ريب ، لكن هل بروميثيوس يعلم أيضاً أنه صورة نسخة طبق الأصل  
عن يسوع المسيح الذي يخدمه بغناؤه في الكنيسة ؟ .. يسوع الذي انتصر على خطة  
سيرغي بالانتقام و لوي ذراع الإله عبر شيطنة نسخة عن يسوع فجعل الربّ من  
نسخته الجديدة نسخة طبق الأصل عن المسيح ليس بالشكل فقط بل في المضمون  
الطبيب الإنساني على حدّ سواء ..

مع سكرات الموت الزؤام كتب سيرغي وصيته الأخيرة و كانت من أربعة بنود  
كمحاولة أخيرة للتوبة و الغفران ، لم يكتبها بدمائه كحال ماير بل بدموعه :

- إعادة كفن تورينو إلى معبده المقدس..
- الوصول إلى ماريانا و طلب الصفح منها و أن تدعو لروحه بالمغفرة و السلام ، ثم إعلامها بأن بروميثيوس هو ابنها..
- ترك كامل ثروته و أملاكه لبروميثيوس سيرغي إيفانوف..
- حل منظمة المافيا التي يتزعمها..

رحل سيرغي من الدنيا عشية عيد الميلاد .. في ذات الليلة التي استجمع فيها شجاعته ذات يومٍ ليعترف بخطاياہ كرمى لعيني ماريانا حبه الوحيد في حياة لم تعرف سوى الحقد و الضغينة .. تائباً قبل فوات الأوان بعد أن كسر المرض و الألم شوكة نرجسيته و ساديته .. رحل و هو يجهل ثلاث أسرار..

الأول أنه لم يكن عقيماً أبداً ، ففريا كانت حاملاً بابنه الحقيقي ، لكنه بأخلاقه السيئة حرم نفسه من تلك النعمة و لم تحرمه السماء منها ..

الثاني كيف علم بروميثيوس أن ماريانا هي والدته الحقيقية .. ؟ ذاك السر بين ستيلا و بروميثيوس ..

الثالث مصير النسخة الثانية من يسوع المسيح التي حملت بها الفتاة النيجيرية ادبلا التي نجت بنفسها من مصير صديقتها ناتاشا و أندرينا في غابات موسكو الشاسعة

\*\*\*\*\*

**بعد وفاة سيرغي بأربعة أشهر..**

**كنيسة القديس باسيل**

**قداس أحد الفصح ( القيامة )**

بينما كان بروميثيوس غارقاً في قيادة كورال الترتيل يختلس النظرات بين الفينة و الأخرى لمقعد محبوبته زينب ذات الأعوام التسعة عشر.. إحدى أكبر المعجبين بأغانيه .. التي تعرفت عليه بنفسها من خلال زياراتها المنتظمة إلى الكنيسة صحبة والدتها المسيحية ذات الأصول الأرمنية و المتزوجة من رجل عربي عراقي مسلم .. سألتها عن معنى اسمها زينب فأرسلت إليه في الكنيسة هدية ، رسالة تشرح معنى اسمها باللغة العربية و نبذةً عن أشهر شخصية حملته و هي زينب الحوراء حفيدة

رسول الإسلام محمد ، إضافةً إلى نسخةً من القرآن الكريم باللغة الروسية .. وقع بروميثيوس في حبها منذ تلك اللحظة ، و بات ينتظر قداس الأحد بفارغ الصبر كي يتأمل وجهها الجميل و عينيها الحوراء الصافيتين بسواد الليالي المحاقية من بين الحضور .. لكن هذه المرة كانت مختلفة عن سابقتها ففي صف المقاعد الخلفي لمقعدها رأى بين الوجوه وجهاً ليس بغريبٍ عليه عكر مزاجه بالكامل .. فخفق قلبه بشدة ..

يا إلهي .. أناتولي ! ما الذي يفعله هنا ؟ هل أعطى سيرغي إشارته البدء بتصفيته ؟! .. ارتبك للحظات لكنه سرعان ما سيطر على مشاعره و تابع قيادة الكورال .. مع انتهاء القداس و تفرق المصلين بقي منهم اثنان فقط .. أناتولي برفقة سيدة خمسينية شقراء ..

غادرا أناتولي مقعده متجهاً نحو بروميثيوس مباشرةً و هو يبتسم ابتسامةً بيضاء على غير عادته .. أين ذهبت ابتسامته الصفراء الماكرة ؟!  
= ها نحن ذا نلتقي مجدداً صديقي بروميثيوس ..

شعر بروميثيوس برعب حقيقي ، لكنه قنّع خوفه بابتسامة ثقة ..  
= إذاً فقد وصلتني إليّ أخيراً ..

= لا ليس أخيراً .. لقد وصلنا إليك منذ زمنٍ بعيد ..  
= و لماذا لم ينتقم مني سيرغي كما هدد ؟

تغيرت ملامح أناتولي جذرياً لتصبح حزينة بشدة مع لمسة ندم حقيقي أدهشت بروميثيوس ..

= لأن السيد سيرغي أصيب منذ سنوات بمرض عصبي خطير أفقده بصره كما أصابه بشلل تام فأصبح طريح الفراش ..

زاد ارتباك بروميثيوس أكثر ..

= هذا مؤسف .. و كيف هو الآن ؟

نظر إليه أناتولي للحظات ثم قال بكلمات مخنوقة ..

= لقد فارق السيد سيرغي الحياة منذ أشهر ..

على نحوٍ غريب لا يتمشى مع ذكرياته السيئة في قصر سيرغي و لا مع طباع الأخير الذميمة و حياته المعجونة بالآثام ، صُنع بروميثيوس بالنبا .. فللموت رهبته كائناً من كان المتوفي ، و مهما كثرت الخلافات معه فيما مضى ..

= توفي !؟

= أجل .. و قبل موته بأيام كتب وصيته و ترك لي مهمتي الأخيرة بتنفيذها..

= و ما علاقتي أنا بذلك ؟

= الوصية برمتها تتمحور حولك يا بروميثيوس..

= أعتقد و بناء على معرفتي به أنه أوصاك بالانتقام مني وقتلي كي ألحق به..

= أبداً .. السيد سيرغي تغير جذرياً يا صديقي منذ مرض و بالأخص منذ فقد بصره .. لقد رحل عن الحياة إنساناً نادماً بشدة و تائباً بحق من أعماقه ..

= هذا مستحيل .. !!

= لا أخفيك سراً أن ذلك أدهشني بدوري ، فلم أتوقع في يوم من الأيام أن أرى السيد سيرغي بجبروته و سطوته ، ضعيفاً خائر القوى يرجو المغفرة من السماء .. لكن هذا ما حدث بالفعل ، فقد حلّ منظّمته بالكامل ، كما ترك أملاكه كلها التي تبلغ **33** مليار دولار لك يا صديقي..

جمد بروميثيوس في مكانه لا يستوعب الكلام و لا يعرف كيف يرد..

= هل أنت جاد ؟!

= كما سمعت بالضبط ، بانتظارك ثروة خيالية ..

= المال لا يعنيني بشيء .. ما يهمني فعلاً هو توبة سيرغي ..

= لقد تاب بالفعل .. أؤكد لك ..

= للأسف لم تسنح لي الفرصة برؤيته للمرة الأخيرة قبل رحيله نادماً ..

= كان ذلك حلمه الأخير على ما أعتقد .. في الحقيقة هنالك شيء آخر أهم ..

= ماذا تقصد ؟

= لقد أوصاني السيد سيرغي أن أخبرك الحقيقة المغيبة عنك ..

= حقيقة مغيبة ؟!

= حقيقة أصلك ، و من أين أتيت ..

= أبي و أمي ؟

= إن جاز التعبير .. فالموضوع غريب على نحو خيالي لا يصدق .. و لا يمكن تبسيطه بكلمتين ..

= تحدث .. أنا أسمعك ..

شرع أناتولي يقصّ على بروميثيوس حكاية سرقة كفن تورينو كخطة انتقام من والده تجاه السماء .. و من ثم استخراج خلية جسدية ليسوع منه و دمج نواتها في بويضة الفتاة ماريانا لاستنساخ مسيح جديد يربيه سيرغي بطريقته الخاصة .. ثم استئجار رحم للبويضة المعالجة ، حتى ولادته و بقية قصته التي يعرفها بنفسه .. لكنه أخفى عنه موضوعين في الحكاية .. اسم البروفيسور ديريان ، و مصير الفتيات اللاتي شاركن في التجربة و قتلن ثم دفن في غابات موسكو .. في حين كان بروميثيوس يصغي مصعوقاً لتلك الرواية الأشبه بالأساطير ، و باللاوعي مد يده إلى وجهه يتحسس ملامحه .. أو ملامح يسوع كما تقول الرواية ..

= و بالخلاصة أنت أتيت إلى هذه الحياة يا بروميثيوس بلا أب ، و من أم مجازياً تدعى ماريانا .. و أنت نسخة طبق الأصل عن يسوع المسيح ..

تأرجح عقل بروميثيوس في عاصفة بين الشك المنطقي بهذه الرواية العجيبة و بين تصديقها تبعاً لكلام مدبرة المنزل ستيلا في آخر لقاء بينهما عن كون ماريانا هي أمه ، ناهيك عن دروس سيرغي الشاذة له في السنوات المنصرمة التي تتوافق على نحو مثالي مع هذه الرواية .. لكن شكه بها كان أكبر بكثير من تصديقه لها.

= هذا كلام خرافي لا يصدق ..

= أقسم لك بأنها الحقيقة .. و يمكنك إجراء تحليل **DNA** لإثبات نسبك إن أردت.

شعر بروميثيوس بنفسه سيسقط من هول الصدمات المنتالية التي تلقاها خلال دقائق قليلة ، فاتجه الى أقرب مقعد و جلس عليه ثم وضع رأسه بين يديه يفكر لدقائق .. رفع رأسه أخيراً و قال بصوت متشبه بأهداب الأمل ..

= و أمي ماريانا .. أين اختفت ؟

= عادت إلى موطن والدتها في النرويج..

= و هل تعرف عنوانها الحالي ؟

صمت أناتولي لبرهة ثم ابتسم .

= حالياً هي ليست بعيدة من هنا..

= لم أفهم !

استدار أناتولي و أشار بيده للسيدة الشقراء في الخلف فنهضت من مقعدها و اتجهت نحوهما و الدموع تنهمر من عينيها كساقية..

= سيد بروميثيوس .. أمك السيدة ماريانا..

جمد بروميثيوس للحظات في مكانه كتمثال حجري ، ثم استيقظت مشاعره الجياشة دفعةً واحدة فنهض و هرول مسرعاً الى السيدة ليحتضنها بقوة و يقبل رأسها و يدها..

= أماه .. أهذه أنت حقاً .. لا أصدق .. لا أصدق..

ماريانا و الدموع تخفقها..

= ابني حبيبي .. لا أصدق بدوري .. لكن أناتولي شرح لي ما جرى من أحداث عجيبة .. بالفعل لقد احتفظ سيرغي ببويضات مجمدة تخصني عقب تشخيصه بالعقم .. كما أنني بحثت بنفسي عن أدلة تدعم روايته ، لأجد أن قصة سرقة كفن تورينو صحيحة على أرض الواقع ، ليس ذلك فحسب بل أنها جرت منذ زمن يتناسب مع عمرك و مع القصة برمتها .. و أخيراً ترك لنا أناتولي حرية إجراء اختبار **DNA** لتأكيد صلة القرابة بيننا .. فأنا لم أقم علاقةً في حياتي كلها سوى مع سيرغي فقط .. فإن كنت أمك بالفعل .. فالقصة حقيقية على ما يبدو!

نظر بروميثيوس في عينيها..

= لا حاجة لأي اختبار أماه .. أنت أمي بلا شك .. أرى نفسي في ملامح وجهك.. و أسمع صوتي يخرج من فمك .. أما أبي فلا يهمني من يكون .. أنت غايتي الوحيدة ، و معك لا آبه لأي شخص آخر..

عاد فقبل يديها و الدموع لا تتوقف من عينيه ، و سعادته تنتصر على كمّ الصدمات العجيبة التي تلقاها للتو من موت سيرغي إلى قصة كفن تورينو الغريبة ..

\*\*\*\*\*

خلال الأعوام التالية تغيرت أشياء كثيرة .. فقد أنشأ بروميثيوس عدة مشاريع خيرية في مناطق مختلفة من روسيا .. دعم كنيسة القديس باسيل التي احتضنته في أسوأ لحظات حياته بمبلغ هائل من المال .. كما منح أمه ماريانا التي عادت لتستقر في موسكو و أخوتها ساشا ، أريجو و أودين هنالك في النرويج ثروة ضخمة كي يشقوا طريقهم في الحياة بأنفسهم ، و لم ينسَ ستيل و يلينا بالطبع أيضاً فعاد و التقى بهما كما وعدهما في آخر لقاءٍ جمعهم .. بدا كل شيء سارّ على نحو مثالي لا يتناسب مع طبيعة الحياة في هذه الدنيا التي تتقلب في مزاجها كمناخ شهر شباط تماماً ، فسيرغي تغير و غادر الدنيا تائباً ، كما عرف أخيراً أصله الحقيقي الغريب ، و التقى بأمه و أخوته، ساعد آلاف المحتاجين في وطنه بأمواله .. فهل انتهت القصة على نحوٍ مثالي كقصص الأطفال ؟ .. بالطبع لا .. فالدنيا لم تتغير بالفعل ، و بقيت على طباعها المعهودة .. بعد كل همّ فرجٍ قريب ، و بعد كل فرجٍ همّ ينتظر على العتبات .. فبعد بضعة أعوام أخرى و مع بلوغ بروميثيوس عامه الثاني و الثلاثين **32** بدأ يشعر بالآلام شديدة في بعض أضلعه .. مع كتلة مجسوسة بشكل واضح ، لجأ على إثرها إلى أشهر الأطباء في العاصمة الذي أجرى له خزعة من الكتلة ، لتثبت تشخيصه بأحد أنواع سرطان العظام الذي يدعى ( ورم إيوينغ ) و هو ورم خبيث بشدة .. لذا تم تجهيز موعد سريع لبروميثيوس كي يبدأ رحلة العلاج الكيماوي وسط صدمة و حزن جميع معارفه من الكنيسة أو خارجها ، عائلته ، ستيل ، يلينا و زينب .. سقط شعره بالكامل مع العلاج .. كما هزل قوامه بشدة .. أخبره الأطباء أن الورم ضعيف الاستجابة للعلاج ، و بأن الأمور لا تبشّر بالخير .. عندها أدرك بروميثيوس بأن أيامه باتت معدودة و شمس حياته القصيرة مائلة للأفول ..

على نحو غريب قام بروميثيوس بأمرين لا يتناسبان بتاتاً مع وضعه الصحي الهشّ الذي يدفع أيّ إنسان طبيعى في مكانه إلى الالتفات الى آخر أيامه فيعيشها حتى الذروة مع أحبائه ، أما بروميثيوس بطباعه الغربية فقد لجأ إلى زيارة أحد الوشامين الشهيرين في موسكو و طلب منه إجراء وشم على كامل مساحة ظهره .. شيء ما في أعماقه يدفعه للقيام بهذه الخطوة .. وشم مؤلف من صورة كبيرة تمثل لوحة



قيامه يسوع المسيح من الموت للرسم الإيطالي الشهير بييرو ديلا فرانشيسكا ..  
و تحتها رقمان هما **75** و **22** و أسفلهما عبارة تقول ( وقف الجيش منتصباً  
يحرس السر الكبير تحت أقدامه ) ..

أجرى بعدها بروميثيوس عدة صور للوشم على ظهره و سربها للإعلام لغاية في  
نفسه دون أن يأتي على ذكر مرضه و احتضاره..

الأمر الثاني الذي فعله هو كتابته لقصيدته الأخيرة بعنوان ( فكل ألم أو موت لا بد  
ستتله قيامة ) ثم طلب من الأخ أرون تلحينها و تسجيلها..

بعد أشهر قليلة غربت شمس بروميثيوس في هذه الدنيا بالفعل في ريعان شبابه عن  
عمر **33** سنة كعمر يسوع المسيح بالضبط ، وسط دموع كل من عرفه فأحبه و  
هو الداعي للحب بحنجرته السماوية دائماً و أبداً .. الأب فاسيلي و الأخوة في  
الكنيسة ، أمه ماريانا و أخوته ، ستيليا ، يلينا و حبه الوحيد في الحياة زينب ..  
تاركاً غصة كبيرة في قلوبهم و هم يحيطون جميعاً بفراشه مع لحظاته الأخيرة ..

بحكم شهرة بروميثيوس الواسعة في روسيا خلال الأعوام المنصرمة فقد ضجت  
مواقع التواصل الاجتماعي بخبر وفاته وسط ذهول و حزن الجميع على رحيل  
حنجرة السماء المفاجئ .. إذ لم يكن أحد منهم يعرف شيئاً عن مرضه .. و في  
غمرة الحزن و الأسى تلك قام أرون بتنفيذ وصية بروميثيوس الوحيدة ، بتنزيل  
أغنيته الأخيرة على قناة الكنيسة مع تسجيل صوتي أخير لبروميثيوس يقول فيه :

(( الوداع أحبتي .. لقد هزمني المرض للأسف .. لكنني هزمت قدرتي الأسود في  
حياتي قبله .. فعشت الحياة التي أوّمن بها و أرغبها .. ربما كانت حياة قصيرة  
، لكنني فخور بمحبتكم و بآرثي الغنائي الذي تركته خلفي ، و إلى جانب هذا  
الإرث تركت لكم كنزاً ضخماً .. ثروة حقيقية ، هي ملك لمن يستطيع حل شفرة  
اللغز .. اللغز الذي ضمنته في قصيدتي الأخيرة و وشمته على ظهري .. لماذا  
أترك هذا اللغز ؟ .. لأنني أوّمن بأن علينا جميعاً أن نحلم ، و بأن نلاحق أحلامنا  
إلى أقاصي الأرض ، فلا أمل بلا ألم .. و كل ألم أو موت لا بد ستتله قيامة ..

كنزي دعوة للجميع لاتباع أحلامهم في الحياة و عدم الاستكانة لواقعهم السيء  
.. كما فعلت بنفسني في حياتي .. ثوروا على واقعكم .. اتبعوا أحلامكم بمحبة و  
إيمان .. فكنزي سيكون من نصيب الأرواح الثائرة التي لا تستسلم ..

أحبكم جميعاً .. الوداع ))

ثم بدأت الموسيقى الحزينة تنساب بهدوء ليبدأ صوت بروميثيوس الملائكي بإنشاد  
أغنيته الأخيرة ..

منك أتينا يا الله..  
و إليك سنرجع يوماً  
النور طبيعتنا الأولى  
و ليست عظماً أو لحماً  
ما كان عمرنا سنواتٍ  
بل كان وهماً أو حلماً  
قد عشت حياتك في ألمٍ  
و اليوم ستنسى الآلامَ  
فكل ألم أو موتٍ  
لابد ستتلوه قيامة  
عيونٌ ترنو لسماءٍ  
و كنوزٌ تحمل أقداما  
القدر رهن إشارتك  
قرر و ستبني الأهراما  
فكر خارج صندوقٍ  
لا ترهن نفسك بعمامة  
كن بوزياً كن تاوياً  
علماني يعشق أرقاما  
كنيسة كنيسٍ أو نارُ

لا تنس قطّ الإسلاماً  
فالسّرّ مزيجٌ من ذاك  
و الغز صيرّته وشما  
لأنّ حله ليس بسهل  
فسأترك للساعي علامة  
آخر أغنية برفقة وشم  
تروي حكاية من قاما  
بالحب ستمتلك كنوزاً  
لو حتى عبدت الأصنام

كانت تلك آخر كلمات تصدح بها حنجرة السماء قبل أن تعود إلى السماء بلغزٍ  
شبيهٍ بحياته ككل .. التي يجهل الجميع طبيعتها .. و التي لو عرفوا حقيقتها لما  
صدقوها بكل تأكيد .. قصة كفن تورينو العجيبة !

.. لكن صوت تلك الحنجرة سيبقى يصدح في كل مكان بأغانيه الهادفة الداعية  
للحب التي تركها ميراثاً خلفه .. فكما سبق له و غنى :

الحبّ خمر لا يفسد .. يتعقّ بمرور الأزمان  
كحال بذرة إن طمرت .. تنمو بيادر ريحان  
أثر الخير أثر فراشة .. لا يعرف درب النسيان  
و الناس ستذكر محبتك .. لو كنت حبّيس الأكفان

قيامة

الأسرار الدفينة

## بنين / بورتو نوفو ..

لم تسنح الفرصة لأندراوس كي يسأل صديقه بلال عن المدعو بروميثيوس الذي ذكره يسوع له في تجربة الموت الوشيك التي اختبرها ، بحكم وجوده في المشفى و خضوعه لعدة عمليات متتالية ، لكنه لم ينسَ الموضوع بالطبع ، إذ أنها تجربة غريبة و خطيرة للغاية بالنسبة للشخص العادي فما بالك بالنسبة لشخص كأندراوس يشك في أجوبة جميع الأسئلة الوجودية ، ناهيك عن إخبار يسوع له خلالها بأنَّ سؤاله عن المدعو بروميثيوس سيفتح له أبواباً جديدة في الحياة وسينتشله و عائلته من الفقر .. هذا الحلم الكبير و البعيد بالنسبة لهم ، فهل يصير إلى حقيقة ؟ أم أن تجربة الموت الوشيك برمتها كانت مجرد خداع عقلي حرضته عاصفة الأندروفينات و الأدرينالين في دمائه عقب الحادث ، لقد كانت تجربة واقعية على نحوٍ لا يقبل الشك و يتذكر كل تفصيل فيها .. لكنّه كإنسان يشك على الدوام .. و العامل الذي سيحسم الحقيقة هو معرفة صديقه بلال بذلك المدعو بروميثيوس أم لا .. ففي حال كان يجهله فالموضوع برمته مجرد خيال ..

بناءً على ذلك و بعد أسبوع من تخريج أندراوس من المشفى ، و في أول لقاء له مع صديقه في مقهى ( أصدقاء ) بينما كانا ينتظران صديقهما المحقق بونجاني للاجتماع ثلاثتهم مجدداً ، عاد السؤال الملحّ ليفرض نفسه و قد سنحت الفرصة أخيراً ..

= أريد ان اسألك يا صديقي عن شخصٍ ما ربما سمعت باسمه من قبل..

= اسأل..

= هل تعرف شخصاً يدعى بروميثيوس إيفانوف ؟

أنته الإجابة سريعة و بلا تلوؤ كي تحسم الصراع في داخله ..

= بالطبع .. كيف لي أن أنسى اسمه الغريب و قصته العجيبة ؟! بل أنني قمت بصناعة حلقة كاملة عن وفاته ، حياته الغامضة و قصة وشمه الشهيرة على قناتي الفنية السابقة..

ابتسم أندراوس بدهشة ، إذاً فلقاؤه بيسوع كان حقيقة لا تقبل الشك ..

= و من هو هذا الشخص الغامض ؟

= مطرب روسي شاب ذو توجه روحاني .. أغانيه هادفة و تخدم الكنيسة التي عاش فيها .. لا بدّ أنك تسأل عنه بناءً على تلميح أحدهم لك بأنه يشبهك إلى حد بعيد ؟!

قوّس أندراوس حاجبيه بدهشة..

= يشبهني ؟

= كثيراً .. بسحتك الأجنبية الغربية عن مجتمعنا الإفريقي .. سأريك صورته على الحاسوب و احكم بنفسك..

بحث بلال قليلاً ثم أدار شاشة حاسوبه..

= انظر و تفاجأ..

تمعن أندراوس جيداً في الصورة .. بالفعل هنالك تشابه واضح بينهما .. و إن كان المطرب حليق الرأس و اللحية ، هزيل القوام مع عينيّن غائرتين..

= إنه يشبهني كثيراً بالفعل ، هذا غريب و مخيف أيضاً !

= يخلق من الشبه أربعين كما يقال ..

= لكن يبدو عليه المرض الشديد .. !

= صحيح ، فهذه هي الصورة الوحيدة المتوفرة لوجهه ، التقطها خلال جلسات العلاج الكيماوي بعد إصابته بسرطان العظام الذي أودى بحياته منذ أشهر قليلة.. و الوحيدة له التي سربت إلى الإعلام عقب وفاته .. إضافة إلى صورة الوشم على ظهره بالطبع..

= و ما قصة هذا الوشم أيضاً ؟

= يمكنك القول أنه خريطة لكنز ضخم خبأه المطرب في مكان مجهول ، بانتظار من يحل لغزي الوشم على ظهره و آخر قصائده ، كما ذكر في رسالته الأخيرة لجمهوره..

= كنز !

= تماماً..

= مثير للاهتمام !..

ابتسم بلال..

= هل نفكر بمحاولة حل اللغز و الكشف عن مكان الكنز بدورك ؟

سرح أندراوس قليلاً بخياله مستذكراً كلام المسيح الذي أخبره أن بروميثيوس هذا سيغير حياته المالية جذرياً .. لابد أن ذلك الكنز هو المقصود بكلامه ..

= و لم لا ؟!

= طموح مشروع بالطبع .. لكن عليك أن تعرف يا صديقي أن ملايين قبلك حول العالم اهتموا بقصة الوشم و الكنز ، فحاولوا فك شفرته دون جدوى بمن فيهم خبراء في هذا المجال..

= ربما ذلك الكنز ينتظر شخصاً يشبه من خبأه كي يرفع النقاب عنه.. !

بلال مبتسماً ..

= ربما كنت محقاً ، فلقدرد حبكات غريبة على الدوام.. !!

= و ما مضمون ذلك الوشم ؟

= على ما أذكر كان عبارة عن لوحة شهيرة لفنان إيطالي مع أرقام و عبارة..

= و القصيدة ؟

= روحانية التوجه كالعادة ، لكنها غزيرة بالكلمات المبهمة..

= توجدان على الشبكة العنكبوتية ، صحيح ؟!

= بالطبع ، ابحث في محرك البحث عن وشم المطرب بروميثيوس و عن أغنيته ( فكل ألم أو موت لابد ستتلوه قيامة ) و ستعثر عليهما مباشرة..

قيامة !! تذكر أندراوس حكاية كفن تورينو الذي أخبره عنه المسيح ، ذلك الكفن الذي عثر عليه تلامذته في المغارة عقب قيامته.. هل له علاقة بالوشم و الكنز ؟

= عنوان غريب ..! أظن أنه..

قاطع كلامه الصوت الحالم للقضبان المعدنية المتدلية فوق بوابة المقهى الزجاجية ، و ظهر صديقهما بونجاني على المدخل ، أغلق الباب خلفه بهدوء ثم اتجه إليهما بخطواتٍ واثقة كملك ..

= سأتابع البحث عن موضوع الكنز عندما أعود إلى المنزل ، أما الآن فأرغب في معرفة التفاصيل الجديدة حول قضية الخطف التي يحقق فيها صديقنا .. يبدو من ملامحه أنه يحمل أخباراً هامة..

= يبدو ذلك بالفعل .. ! أهلاً بالمحقق الفذ .. واثق الخطوة يمشي ملكاً .. هات جديك ..

ابتسم بونجاني بانتصار و هو يسحب كرسيّاً ليجلس ..

= كانت تحليلاتي في مكانها بالضبط .. تم تحديد مكان الفتاة المخطوفة و تحريرها مع إلقاء القبض على خاطفيها ..

= قضية أخرى شائكة تحل ببساطة على يديك .. لو كان بإمكانني تحويل قضاياك إلى مسلسل تلفزيوني ، لاكتسح العالم و صنعنا ثروة .. !

\*\*\*\*\*

سهر أندراوس لساعة متأخرة في تلك الليلة يتحرى بنفسه عن موضوع المطرب الغامض بروميثيوس و وشمه الأكثر غموضاً .. أول ما لفت انتباهه بشدة و على نحو مخيف هو تشابه عمريهما علاوةً على شكليهما .. فالمطرب توفي هذا العام عن عمر **32** سنة و هو عمره بالضبط !

يا إلهي هل هي مجرد مصادفة ؟ إنّ لقاءه بيسوع في البرزخ يجزم بأنها ليست كذلك ..

لطالما طرحت ملامحه الأجنبية الغريبة عن القارة السمراء أسئلة كثيرة في ذهنه .. تذكر والدته الراحلة .. كيف أخبرته في طفولته قبل أن تموت بوباء إيبولا بأن



والده أوروبي مع التعتيم الكامل على جنسيته في كل مرة تأتي على ذكره .. لكنّ جوابها لم يقنعه أبداً عندما كبر ، إنه غير علمي أو منطقي البتة .. فحتى لو كان والده أجنبياً فزواجه من سمراء إفريقية سينجم عنه أطفال خلاسيون .. أما هو فأجنبي الملامح تماماً .. ! هل هو متبنى ؟ هل هنالك صلة قرابة تجمعهم بذلك المطرب الروسي الراحل لذلك طلب منه المسيح أن يسأل بلال عنه !؟ لقد أخبره بشكل صريح بأن رابطاً قوياً يجمعهما ببعض .. لكن ما هو ؟

هز رأسه بحيرة .. يا لها من مصادفات عجيبة و أسئلة كثيرة مبهمة بلا الإجابات

عاد إلى قصّة الوشم الظاهر أمامه على شاشة الحاسوب بوضوح .. الصورة فيه عبارة عن لوحة تمثل قيامة يسوع من الموت .. ما معنى ذلك ؟ و ما علاقته بلقائه به في تجربة الإسقاط النجمي الأخيرة ؟

هنالك أيضاً الرقمان **75** و **22** ، إلام يرمزان ؟ هل هو عنوان منزل مثلاً ؟ أم إحدائيات جغرافية ، أم أرقام خزينة ؟ أم شيء آخر ؟ لا أجوبة .. !!

أما العبارة فهي لغز بحد ذاتها ( وقف الجيش منتصباً يحرس السر الكبير تحت أقدامه ) .. ما المقصود بالجيش .. و هل السر الذي يحرسه هو الكنز .. منطقي للغاية ... لكن أين يحرسه ؟

وصل إلى نفس الطريق المسدود الذي وصل إليه ملايين من قبله حاولوا فك شفرة الوشم لأشهر .. لم يستسلم و انتقل على الفور إلى القصيدة .. قرأها بتمعن عدة مرات ليكتشف أنها مؤلفة من قسمين .. الأول روحاني بشكل خالص .. ذكره على نحو غريب أربكه أكثر بالحوار الذي دار بينه و بين المسيح عن الطبيعة النورانية للأرواح في الشق القائل..

## النور طبيعتنا الأولى

### و ليست عظماً أو لحماً

إضافةً إلى فكرة أن الارواح هي أجزاء من روح الله موند الموندات و ستعود إليه بعد الموت بقوله..

منك أتينا يا الله

و إليك سنرجع يوماً

كيف وصل بروميثيوس إلى هذه القناعات بدوره ؟ ما هو هذا السرّ الغامض الذي يجمع هذا الثلاث ببعضه .. يسوع ، بروميثيوس و أندراوس ؟

الملاحظ أيضاً في النصف الأول من القصيدة هو ذكر فكرة القيامة كعنوان اللوحة في الوشم بالضبط ..

## **فكل ألم أو موت لا بد ستتلوه قيامة**

فما الذي يشير إليه بروميثيوس بذلك ؟!

أما النصف الثاني من القصيدة فهو يتطرق بشكل واضح إلى حل شفرة الوشم لكن بكلمات مبهمة و ملغزة بحد ذاتها..

عيون من تلك التي ترنو إلى السماء ؟، و كيف يحمل الكنز أقداما ؟ ..

## **عيونٌ ترنو لسماءٍ**

## **و كنوزٌ تحمل أقداما**

إن هذه الأبيات تذكره بعبارة الوشم التي تقول بأن الجيش يحرس السر تحت أقدامه .. فهل هي إشارة إلى تمثال مثلاً .. تنظر عيناه إلى السماء في حين يختبئ الكنز تحت أقدامه .. ربما ! منطقي للغاية..

هنالك ايضاً إشارة إلى مزيج من جميع المعتقدات الدينية يحل اللغز .. السماوية ، البشرية و حتى الوثنية كعبادة الأصنام أو العلمانية أو حتى الإلحادية ، فما معنى ذلك ؟ هل سيجد تفسيرات للوشم في الأديان الأخرى .. لقد ركز بروميثيوس على الإسلام في ختام قصيدته و أكد على عدم نسيانه .. فما علاقة الإسلام بقيامة يسوع أو بالأرقام الموجودة في الوشم ؟ إنه يذكر أن صديقه المسلم بلال أخبره ذات مرة أن القرآن كتاب الله عند المسلمين مؤلف من مجموعة سور و كل منها عبارة عن مجموعة آيات مرقمة .. فهل الرقمان المذكوران في الوشم على علاقة بالقرآن .. ربما ! ليتأكد بنفسه..

بحث في حاسوبه عن السورة رقم **75** في القرآن .. فشلت المفاجأة تماماً .. الرقم يشير إلى سورة تدعى ( القيامة ) !!! .. لابد أنه على الطريق الصحيح .. وعقله الفيزيائي العلمي الذي يعشق المحاكمة ، يقربه خطوة أكثر من حل اللغز .. بحث على الفور عن الآية رقم **22** فيها فكانت تنص على:

### (( وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ))

يا أم الله ! هذا ينتشابه حرفياً مع القصيدة .. عيونُ ترنو لسماءٍ !! ..  
إذاً فقد فسر أرقام الوشم كلياً .. بقي الشيء الأهم في الحكاية كلها .. في أي بقعة جغرافية يوجد ذلك الكنز الدفين ؟  
بجمع كل ما وصل إليه مع بعضه يصل إلى نتيجة وحيدة ، بأنه مكان فيه تماثيل على الأرجح لوجوه تنظر نحو السماء و تخفي ذلك الكنز تحت أقدامها و ذات علاقة بطريقة ما بالقيامة .. فما هو هذا المكان العجيب ؟؟  
ارتمتي على فراشه غارقاً في التفكير لساعات ، دون أن يصل إلى أي نتيجة ، و دون أن يشعر غلبه النعاس فغفا ..

\*\*\*\*\*

في مساء اليوم التالي اجتمع الأصدقاء الثلاثة مجدداً في مقهى ( أصدقاء ) على طاولتهم المفضلة .. فبدأ بلال الحديث من حيث أنهاه مع أندراوس بالأمس..

= هل بحثت أكثر عن موضوع الوشم و الكنز يا صديقي ؟..

= بالطبع ..

= و إلام وصلت ؟

= نتائج غاية في الأهمية..

اعتدل بلال في جلسته ثم أغلق حاسوبه أمامه، و قال بجدية و اهتمام ترتقي لخطورة الموضوع الذي يتضمن كنزاً هائلاً ..

= صحيح ؟

= بالطبع..

بونجاني بدهشة ..

= ما قصة هذا الكنز .. هل تخفيان عني أسراراً ؟!

= لا بالطبع .. هو كنز خبأه مطرب روسي قبيل وفاته و ترك وشماً على ظهره  
يشير الى مكانه في حال تمكنت من فك شفرته..

= مذهل !

= بلى ، و إلام توصلت أندراوس ؟

= إلى شبه يقين بأنّ مخبأ الكنز هو مكان يحتوي تماثيل تنظر وجوها إلى السماء  
و ذات علاقة بقيامة يسوع المسيح بشكلٍ ما .. أعتقد بقوة أن الكنز مدفون تحت  
أقدامها .. لكنني أجهل إحداثيات المكان بدقة بعد..

= تقول تماثيل .. وجوه .. قيامة .. ؟!

= أجل ..

= إنها جزيرة القيامة.. !

التفت أندراوس و بونجاني إلى بلال بدهشة..

= ماذا قلت .. ؟

= جزيرة القيامة في تشيلي .. إنها موضوع آخر حلقة صنعتها على قناتي الثقافية  
منذ أيام ..

= ما حالها ؟

= إنها تحوي تماثيل كثيرة لرؤوس تنظر إلى السماء .. و تعود لمئات السنين..

صاح أندراوس بحماس..

= بالضبط ، كيف فانتني هذه الملاحظة ! .. لابد أنها المقصودة ، فهي تفسر الوشم  
و القصيدة على نحوٍ مثالي ..!

بونجاني وقد أصابته عدوى التفاؤل..

- = ستصبح ثرياً يا صديقي !
- = بل سنصبح ثلاثتنا أثرياء .. هل نسيتما شعارنا منذ سنوات..
- = شعار الفرسان الثلاثة في رواية الأب للكاتب الشهير ألبير كامو ؟
- = بالضبط .. الكل للواحد و الواحد للكل..
- = لكنها جزيرة واسعة بحسب دراساتي عنها بينما كنت أعدّ الحلقة ، ففي أي مكان منها بالضبط يوجد ذلك الكنز ؟
- = تقول العبارة على الوشم بأن صفّ الجيش يحرس السر تحت أقدامه .. لذا علينا منطقياً البحث عن مجموعة تماثيل متجاورة في صف معاً ..
- = منطقي للغاية .. إذا فعلينا السفر إلى تشيلي ؟
- = و في أسرع وقت ممكن ، إننا في سباق مع الزمن ، و قد يسبقنا آخرون إلى الكنز الدفين !
- = محق .. سأحجز مباشرة على حاسوبي تذاكر سفر لثلاثتنا للغد .. هل يمكنكم تفريغ نفسيكما للمغامرة .. ؟
- = من جهتي و بعد حل قضية الاختطاف بالأمس فأنا متفرغ بالكامل..
- = و أنا سأعتذر عن الدروس حتى أجلٍ لاحق بحجة السفر .. إنها الحقيقة على كل حال..
- = عظيم ..
- بونجاني بقلق ..
- = لكن هنالك مشكلة تنتظرنا هناك..!
- = ما هي ؟
- = في حال عثرنا على الكنز .. كيف سنعود به إلى هنا ؟ سيتم إيقافنا في حال تم تفتيشنا و لن نستطيع تفسيره .. و على الأرجح سننتهم بسرقة آثار الجزيرة ..
- زم أندراوس شفتيه بانزعاج ..
- = معك حق .. معضلة حقيقية ..

فكر بلال للحظات ..

= هنالك حل بسيط ..

= هات ما عندك على الفور ..

= يمكننا الذهاب بيختي الذي اشتريته من بعض أموال قناتي السابقة ، إنه يرسو على ميناء العاصمة .. بهذه الحالة لن يتم تفتيشنا .. الطريق أطول بالطبع و سنستغرق أياماً في مغامرتنا .. لكنها الطريقة الوحيدة المضمونة ..

= حلّ مثالي .. و إن يكن .. سياحة بحرية لا ضير منها ..

= متفقين إذاً ..

= اتفقنا ..

= إذا عليكما أخذ إجازة من عمليكما .. إنها فرصة تستحق التضحية و المخاطرة.

= بالطبع هي كذلك !!

= ليكن السفر مطلع الأسبوع المقبل كي نمّح أنفسنا الوقت الكافي لإعداد الأمتعة و الغذاء .. إنها رحلة طويلة و يجب الاستعداد لها بدون أخطاء .. من حسن حظنا أن يختي حديث للغاية و يعمل بالطاقة الشمسية أيضاً ..

\*\*\*\*\*

المسافة بين بورتو نوفو و جزيرة القيامة حوالي **18** ألف كيلومتر بحراً .. و سرعة يخت بلال الحديث حوالي **250** كم في الساعة لذا استغرقت رحلتهم البحرية إلى جزيرة القيامة ( الفصح ) التي تقع جنوب شرق المحيط الهادئ بعيداً عن شواطئ تشيلي بحوال **3700** كم ، حوالي الأسبوع ، و قد ذكّر موقع الجزيرة النائي في نهاية العالم أندراوس بخطاب الوداع المؤثر للمطرب بروميثيوس الذي دعا فيه الجميع الى ملاحقة أحلامهم إلى أقاصي الأرض .. فهذا ما يحدث معهم بالضبط على أرض الواقع !

مع انقضاء الأسبوع وصل الثلاثة أخيراً إلى الجزيرة مع أنفاس الفجر الأولى فاختاروا مكاناً معزولاً و مخفياً عن الأنظار فرسوا بيختهم فيه .. هبطوا إلى أرض

الجزيرة و كانت بالفعل تعج بالتمائيل .. حوالي **1000** تمثال ضخمة تسمى **مواي**، و التي أنشأها بحسب معلومات بلال الذي سبق و أن أعد حلقة شاملة عنها منذ أسبوعين شعب رابا نوي الأوائل الذين زفوا إلى هذه الأرض العذراء منذ مئات السنين حوالي عام **800** م ثم توسعوا فيها ليلبلغ تعدادهم حالياً **7750** شخص.. أما سبب تسميتها جزيرة الفصح أو جزيرة القيامة فيعود لأول زائر أوروبي للجزيرة، وهو المستكشف الهولندي **جاكوب روجيفين** ، الذي صادف وصوله إليها يوم الأحد عيد الفصح أو القيامة عام **1722** م .. و الذي يصادف لدهشتهم الشديدة هذا اليوم بالضبط !! هل هي مجموعة صدف فحسب ؟ .. إنها ترتقي بمسافات ضوئية عن ذلك !..

ما إن وطأ الثلاثة أرض الجزيرة حتى تفاجأوا بحجمها .. فقد كانت واسعة للغاية و مليئة بالتمائيل كيوم القيامة الذي يحشر فيه البشر مجتمعين بين يدي خالقهم .. فمن أين سيبدؤون البحث ..؟

نظر الثلاثة إلى بعضهم بدهشة ، و خرجت الكلمات المنتظرة من فم بونجاني ..  
= ماذا الآن ؟

= لقد فسّرنا الصورة على الوشم ( لوحة القيامة ) مع الأرقام ( سورة القيامة ) و التي تشير إلى الموقع الجغرافي للكنز و هو ( جزيرة القيامة ) فالخطوة المنطقية التالية هي تفسير العبارة على الوشم : ( وقف الجيش منتصباً يحرس السر تحت أقدامه ) ..

= و ما تفسيرها برأيك ؟

تلقت أندراوس حوله يتأمل الجزيرة وتمائيلها كانت عشرات التمائيل لرؤوس تنتصب هنا و هناك ، لكن لاح له عن بعيد صف من التمائيل المختلفة التي تصور بشراً كاملين واقفين باستعداد كهيئة جنود في جيش بالفعل !..

= انظروا هناك .. بالإضافة إلى التمائيل المبعثرة في الجزيرة .. يوجد صف من التمائيل مختلف عنها كصف من العساكر ، إنه يذكر بعبارة الوشم تماماً لنذهب إليها ..

بلال بحماس..

= ملاحظة ذكية .. يبدو ذلك منطقي جداً .. هيا بنا ..

اتجهوا إلى صف التماثيل ثم أخذ أندراوس يتفحص وجوها .. فتذكر آخر بيت في آخر قصيدة للمطرب الروسي بروميتيوس..

**بالحب ستمتلك كنوزاً**

**لو حتى عبت الأصنام**

ابتسم فالكنز بالفعل يقبع تحت أصنام عبدا سكان الجزيرة الأصلية لقرون .. لكن الملاحظة الذكية جاءت من بلال الذي لفت انتباههما إلى أن جميع الوجوه عابسة مكفهرة عدا تمثال وحيد بوجه مبتسم مشرق فصاح أندراوس بحماس ..

= عظيم يا بلال ، لابد أن الكنز مدفون تحت أقدام هذا التمثال كما تقول الآية **22** من سورة القيامة .. وجوه يومئذ ناضرة .. أي مبتسمة و مشرقة ..

اخرج بونجاني مجرفته الخاصة من حقيبته ..

= لا شك في ذلك .. لنبدأ الحفر مباشرةً مستغلين خلو المكان من الناس في ساعات الفجر الأولى فبعد قليل سيبدأ توافد السياح إليه..



باشروا بالحفر عند أقدام التمثال و بعد ساعة كاملة من الحفر المنهك ذكرتهم بحفر



قبر السيد أسيموتي والد بونجاني منذ أشهر و على عمق ثلاثة أمتار وجدوا صندوقاً معدنياً كبيراً و مغلقاً بقلل ذي ٤ أرقام .. فكر أندراوس قليلاً ثم ابتسم فأدخل رقم سورة القيامة **75** ثم رقم الآية **22** ففتح الصندوق .. و كما لمعت الرصاصة التي حلت قضية مقتل السيد أسيموتي منذ أشهر في ظلام الليل ، لمع الذهب و المجوهرات مع اشعة الشمس الأولى التي تلامس وجه الجزيرة المستيقظ للتو .. ابتسم الثلاثة بفرحة عارمة و بوجوه ناضرة للغاية.. لقد نجحوا و ستتغير حياتهم للأبد بلا أدنى شك .. يا لعبقريتك يا بروميثيوس .. من جزيرة القيامة بدأت قيامة أندراوس من الفقر في اليوم الذي يصادف عيد الفصح بالضبط .. عيد قيامة السيد المسيح من الموت أيضاً .. هذه ليست مصادفة قطعاً بل ترتيب إلهي لا يشق له غبار ..

تساعد الثلاثة على نقل الصندوق بعد إعادة قفله إلى اليخت قبل توافد السياح ، ثم قفلوا عائدين إلى وطنهم الأم بنين ..

قدروا قيمة الكنز لاحقاً بحوالي **300** مليون دولار كاملة .. قسمها الثلاثة بالتساوي بين بعضهم .. لتتغير حياتهم جذرياً بعدها .. لكن السؤال الأهم الذي لا يزال يدور في رأس أندراوس هو : ما هي صلة القرابة التي تجمعهم ببروميثيوس ؟ صلة دموية أم مجرد مصادفات تخلق من الشبه أربعين ؟! لذا كانت أولى قراراته بعد أن أصبح ثرياً هي السفر إلى موسكو لزيارة السيدة ماريانا والدة بروميثيوس كما أثبتت تحرياته أكثر عنه .. و ملاحقة أي دليل قد يجيبه عن سؤاله ..

\*\*\*\*\*

## روسيا / موسكو ...

كانت زيارة أندراوس لقصر ماريانا مفاجئة بشدة .. فقد لاحظت مباشرة الشبه الكبير بينه و بين بروميثيوس بالشكل ، بالصوت و حتى بالعمر .. أخبرها بأنه عثر على كنز بروميثيوس و شرح لها طريقة حل لغز الوشم ليكتشف التشابه الكبير بينهما بالشكل و العمر .. الأمر الذي ينسجم مع جهله لعائلته الحقيقية .. و رجاها أن تخبره أي أسرار تعرفها عن ابنها عله يكتشف الحقيقة المغيبة .. استجابت ماريانا لطلبه بدون تردد ، فمن الواضح بالنسبة لها أنّ هذا الشاب هو ابنها أيضاً بطريقة ما ، فروت له أغرب قصة ممكن أن يسمعها في حياته .. قصة سرقة كفن

تورينو التي ذكرته على الفور بكلام يسوع في البرزخ مما أكد له أن يمشي على الطريق الصحيح مجدداً و أن القصة رغم غرابتها فهي حقيقية .. ثم موضوع استنساخ جسد يسوع باستخدام بويضاتها .. حتى لحظة لقائهما هذه ..

هكذا إذاً .. لهذا السبب التقى هو بالذات بيسوع في البرزخ و حدثه عن كفن تورينو و بروميثيوس ، كفن تورينو الذي يجمعهم ثلاثتهم معاً عبر قصة غريبة للغاية !

الذ أدهش ماريانا بشدة هو اقتناع أندراوس الغريب و السريع بتلك القصة الهاربة من الأساطير .. فهي تجهل تماماً أن من يقف أمامها قابل يسوع شخصياً في البرزخ في تجربة الإسقاط النجمي عقب الحادث .. الأمر الذي جعل أندراوس يرد عليها ببرود و بدون أي انفعال ..

= و هل تسمحين لي بإجراء اختبار **DNA** على كلينا سيدتي .. سيحسم ذلك الموضوع بشكل نهائي .. فيما إذا كانت القصة تقتصر على حقيقة أن الله يخلق من الشبه أربعين أم أنك أُمي أيضاً ؟

وافقت ماريانا على ذلك عن طيب خاطر .. فبعد وفاة بروميثيوس و استقلال أخوتها بحياتهم الخاصة و اختفاء أختها فريا الغامض لم يعد لها أي قريب .. و فكرة وجود ابن جديد لها تثير السعادة و الأمل بلا شك في قلبها ..

بالفعل كانت نتيجة الاختبار هي إثبات أن ماريانا هي أم أندراوس الحقيقية .. لكن بقي معرفة كيف انتهى به الحال في دولة بنين الإفريقية البعيدة ..؟

= الجواب يا بني سنجده عند السيد أناتولي ، المساعد الشخصي لزوجي السابق سيرغي .. فهو الوحيد الذي يعرف تفاصيل ما جرى بالضبط ..

تم ترتيب لقاء بين ثلاثتهم وسط دهشة أناتولي الشديدة فقد أدرك على الفور و من أول نظرة أن أندراوس ليس سوى النسخة الثانية من يسوع التي حملت بها الفتاة النيجيرية أديلا قبل هربها و اختفائها .. يا لهذه الدنيا كم هي صغيرة .. و كأن بروميثيوس كان يشعر في أعماقه بأن له أخاً في مكان ما من العالم فأقدم على فكرة الوشم و الكنز كي يصل بأخيه إلى أمهما الطيبة و الطاهرة ماريانا لتستحق خاتمة تليق بعمر كامل من الإيمان و الإحساس بالآخرين ..

لم يكذب أناتولي و أخبرهما بقصة هروب أديلا النيجيرية و من مواصفاتها تأكد أندراوس أنها والدته بالفعل و عزز يقينه أن والدته ذكرت له في عدة مناسبات أن

والدها نيجيري و أمها من بنين .. كما أكد أناتولي لهما أن لا وجود لنسخة ثالثة  
ليسوع باستثناء بروميثيوس و أندراوس فالجنين الثالث تم إجهاضه ..

مع الأنفاس الأولى لصبيحة اليوم التالي ، وقف أندراوس أمام قبر أخيه بروميثيوس  
في الذكرى الأولى لوفاته و الدموع في عينيه .. صلب الصليب و قد بدأ يفهم الآن  
كلام يسوع في البرزخ كلياً .. فسيرغي هو الشخص الذي تحدى المسيح و كان  
سبباً في وجوده و أخيه في هذه الحياة .. لكن هنالك سؤال غريب لا يزال يدور في  
ذهنه بلا توقف..

( لقد التقى بنفسه يسوعاً في البرزخ .. و لم يكن يشبهه على الإطلاق .. و هذا  
مخالف منطقياً لفكرة الاستنساخ .. هل هنالك حلقة مفقودة في القصة .. ؟ )

لم يكن أندراوس يعلم أن الجواب على هذا السؤال يكمن على بعد أمتار قليلة منه  
.. إذ سمع فجأة صوت سعال مصطنع من خلفه ، فالتفت بدهشة ليجد عجوزاً  
يتكى على عكاز يبتسم له بحنان غريب..

= هل يمكنني خدمتك سيدي.. ؟

اقترب منه العجوز و دموع تهرب من طرفي عينيه..

= أظن أنني أنا من سيخدمك يا بني..

= عفوا .. لم أفهم ؟

= لقد عثرت على أمك الحقيقية أخيراً .. و تبقى أن تعثر على أبيك الحقيقي..

= لا أب لي سيدي..

= بل لديك .. و هو ليس ببعيد عنك الآن ..

جمد أندراوس مكانه بذهول ..

= ماذا تقصد ؟

اقترب العجوز أكثر منه و وضع يده على كتفه ثم أشار بسبابته إلى ضريح  
بروميثيوس..

= كانت أغنيته الأخيرة صادقة للغاية..

**قد عشت حياتك في ألم**

**و اليوم ستنسى الآلام**

**فكل ألم او موت**

**لا بد ستتلهو قيامة**

لقد عانى بروميثيوس لسنوات من قسوة رجل متوحش و بربري .. عانيت بدوري من قسوته منذ أربعة عقود.. لكن بروميثيوس بإراداته و إيمانه هزم فلسفة الموت التي روج لها ذلك الهمجي ليعلن قيامته بحنجرة السماء .. و الآن حان الوقت كي تعلن قيامتك بدورك يا بني ..

أندراوس بدهشة أكبر ..

= من تكون يا سيدي ؟..

= أدعى البروفيسور ديريان .. تعال لنجلس إلى ذلك المقعد و أروي لك قصتكما الحقيقية أنت و أخيك التوأم بروميثيوس ..

اتجها إلى المقعد و ديريان يتعزز على أندراوس ثم جلسا في ظلال شجرة الجميز العجوز في طرف المقبرة ..



شرع بعدها البروفيسور برواية ما حدث بالضبط منذ **35** عاماً :

كيف هده سيرغي بقتل ابنته ناتالي إن لم يتعاون معه على استنساخ المسيح .. و لم يمتلك القوة و الشجاعة كي يرفض طلبه ، فانصاع له ، لكنه عجز عن استخراج أي خلية جسدية من كفن تورينو الذي اقتصر على الدماء و كريات الدم الحمراء التي لا تحتوي أنوية و بالتالي لا تنفع في الاستنساخ .. لقد هده سيرغي أن فشله في العملية يعني قتل ابنته الوحيدة التي توفيت منذ عشرة أعوام .. لذا لجأ ديريان إلى تلقيح بويضات السيدة ماريانا بنطفة تخصه لينتج بويضة ملقحة عزل منها ثلاث خلايا أساسية و خدع سيرغي بها .. هو لم يرزق سوى بابنة ثم توقف عن الإنجاب بعد أن تبين أنه و زوجته الراحلة يحملان طفرات لمرض **هنتنغتون** العصبي الخطير الذي أصاب ابنته ناتالي بالفعل قبل أن يعالجها جينياً .. لقد منحته الحياة فرصة أن ينجب أبناء ذكور .. فاغتناها .. تابع حياة بروميثيوس من بعيد و قلبه يحترق على تربية سيرغي الشاذة له دون أن يتمكن من فعل أي شيء و شعر بطعنة عميقة في قلبه يوم أصيب بالسرطان ثم يوم توفي دون أن يتمكن من إخباره الحقيقة لأن ذلك كان ليعرضهما معاً للانتقام سيرغي فهو خانه و بروميثيوس لن يعنيه بشيء إن عرف الحقيقة .. في الواقع هو توقع وجود ابن آخر له في مكان ما من العالم .. فقد منح أناتولي في لوس أنجلوس ثلاث بويضات ملقحة .. و اليوم عندما رآه من بعيد أدرك شبهه ببروميثيوس و به شخصياً ، فتيقن بأنه ابنه الآخر.

أنهى ديريان قصته و الدموع تنهمر من عينيه .. فركع أندراوس أمامه و قبل يده .. إنَّ الكون في هذه اللحظة لا يتسع لسعادته و سلامه الداخلي .. فقد عرف أخيراً من يكون أمه و أبوه الحقيقيان .. كما حظي بفرصة لقائهما في حياته ..

بقيا جالسين لثلاث ساعات و أندراوس يروي لأبيه مسار حياته من طفولته حتى الآن .. و كانت المفاجأة الكبرى بالطبع هي قصة الوشم اللغز الذي قاده إلى كنز أهم من كنز جزيرة القيامة .. إلى عائلته الحقيقية ..

هذا هو عدل الحياة .. الكارما التي تحدثت عنها السيدة الفيتنامية المقعدة كاي.. سيرغي الذي كان قادراً على الإنجاب توهم العكس و غادر الحياة بلا ذرية لا يستحقها قد تراث عنه طباعه و شره .. أما البروفيسور ديريان الذي توقف عن الإنجاب بسبب حالة صحية .. فقد تمكن من علاج ابنته ناتالي التي تزوجت و أنجبت .. كما ترك من ذريته شابين توأم رائعين .. بروميثيوس و أندراوس .. أحدهما مات بعمر يسوع بعد حياة مليئة بالحب و خدمة الكنيسة .. و الآخر التقى

بيسوع شخصياً في البرزخ ليغير حياته إلى الأبد

\*\*\*\*\*

في لوحة كش مات لا يزال أمام الإنسان حركة واحدة كي يقلب الطاولة على الشيطان بافومبت المسيطر على الرقعة و يهزمه .. و قد اغتتمها البروفيسور ديريان بمثالية .. بمساعدة الملاك يسوع الذي يراقب معركة الخير و الشر في هذه الحياة بصمت .. عاد كفن تورينو إلى معبده المقدس ، لم يتم استنساخ المسيح ، و بقاء الثلاثة ديريان ، ماريانا و أندراوس ( الآب و الابن و الروح الطاهرة ) معاً هنا في موسكو في ذكرى رحيل حنجرة السماء بروميثيوس الموافق لتاريخ **13** أيار .. ذلك الرقم الذي طالما خشاه سيرغي في حياته ، ابتسم يسوع لبافوميت المهزوم قائلاً بانتصار كما في كل مرة :

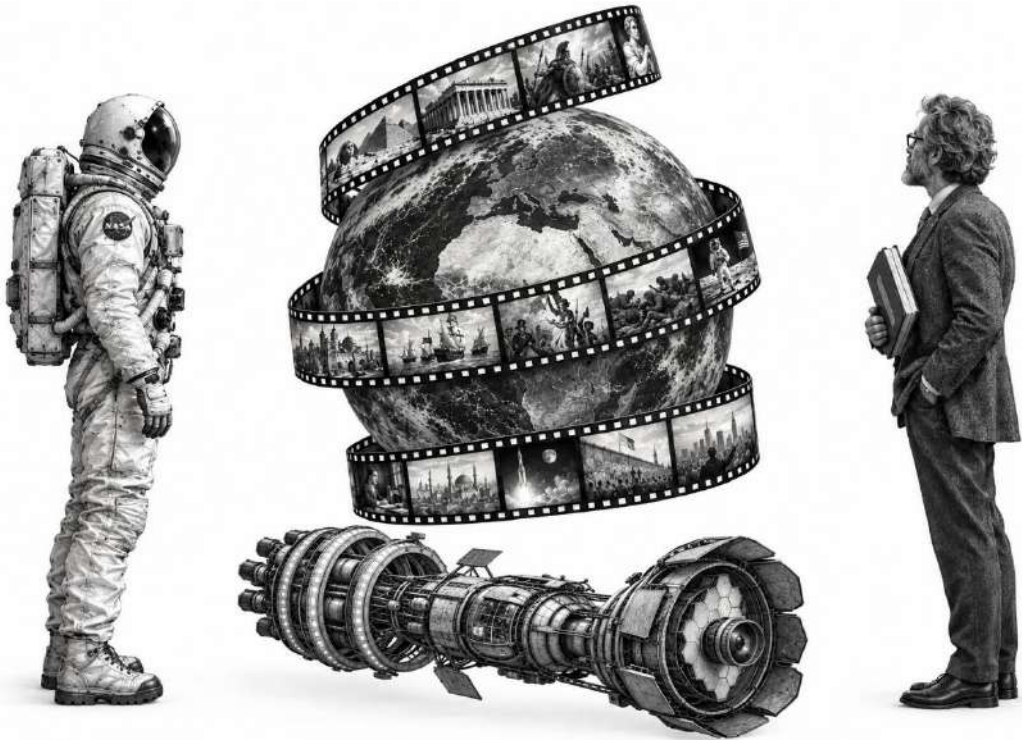
**كش مات**

**کفن تورینو ...**

# الزمن

س

# الحكومي



# الرواية الثانية



الزمن العكسي ..

## فصول الرواية :

- أسئلة بلا أجوبة ..
- فقاعة الإعوجاج ..
- الزمن العكسي ..
- شدّ الرحال ..
- مهمة انتحارية ..
- طلقة في فضاء الكون ..
- التاريخ تحت المجهر ..
- القربان ..



# الفصل الأول

## أسئلة بلا أجوبة

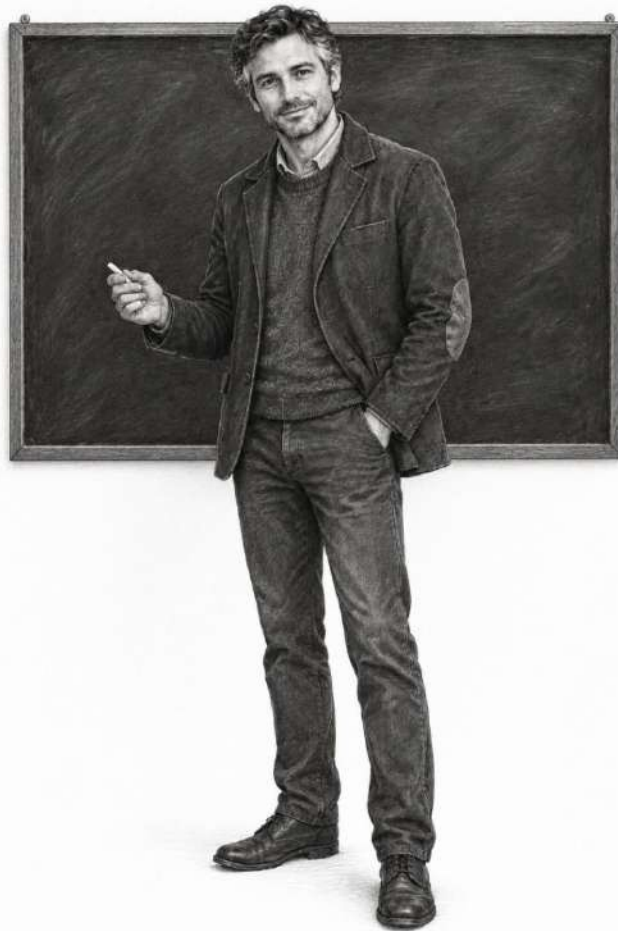
في قلب ملبورن الأسترالية، حيث تتشابك ظلال الأشجار العتيقة مع واجهات المدارس الفيكتورية، كان ريموند تالي يعبر الممر المؤدي إلى صفّه بخطوات وئيدة، وثابتة كالتاريخ الذي يدرّسه. في سن الأربعين، بدا ريموند وكأنه كتاب عُلف بعناية؛ خط الشيب مسارات فضية دقيقة عند صدغيه، ممتزجاً بشعره الكستنائي الكثيف الذي يرفض الانصياع تماماً للمشط. لم تكن التجاعيد الطفيفة حول عينيه الرماديتين علامة على التقدم في العمر بقدر ما كانت شاهداً على آلاف الساعات التي قضاها محققاً في المخطوطات الصفراء، أو مبتسماً في وجوه تلاميذه وهم يكتشفون لأول مرة كيف شكلت السفن الأولى ملامح القارة الأسترالية.

كان يرتدي سترته الصوفية المعتادة ذات الرقع الجلدية عند المرفقين، تفوح منها رائحة خفيفة من التبغ الممزوج بالقهوة السوداء والورق القديم. لم يكن وسيماً بالمعنى التقليدي، بل كان يملك تلك الجاذبية الهادئة التي تنبع من الوقار والوضوح. نظرته كانت ثاقبة لكنها دافئة، قادرة على تهدئة صخب فصل دراسي كامل من المراهقين بلمحة واحدة، دون أن يضطر لرفع نبرة صوته الأجنش والعميق، الذي يشبه صوت أمواج المحيط وهي ترتطم بصخور شواطئ القارة في ليلة خريفية.

كان ريموند تالي رجلاً محكوماً بالانضباط، لكنه انضباط مغلف بروح دعابة جافة وذكية. عاش حياته كراهب في محراب المعرفة؛ هادئ الطباع، يفضل العزلة وصحبة الكتب في بيته الصغير المطل على البحر، على صخب الحفلات الاجتماعية. لم يكن يدرّس التاريخ ليتقاضى راتباً، بل كان يؤمن، بيقين يشبه الإيمان الديني، أن كل طفل يجلس أمامه هو حلقة وصل بين ما كان وما سيكون، وأن الجهل بالماضي هو نفي اختياري خارج الزمن.

في غرفته الصفية، كانت الجدران تضج بالخرائط القديمة التي تظهر القارة وكأنها لغز لم يكتمل، وصور لرحالة واجهوا الموت عطشاً في الصحراء المجذبة. وعندما يبدأ ريموند في الشرح، يتحول من ذلك الرجل الأربعيني الهادئ إلى حاكم من العصور الغابرة، أو بحار يصارع الأمواج على متن سفينة الكابتن كوك. كان يمسك بقطعة الطباشير وكأنها عصا سحرية، يخط بها التواريخ والأسماء، فيتحول الغبار المتطاير في ضوء الشمس المتسلل عبر النوافذ العالية إلى غبار معارك منسية، أو كنوز ذهبية يبحث عنها المغامرون. كان تفانيه في التدريس يلامس حدود التصوف؛ لم يترك طالباً خلفه قط، وكان يرى في تعثر بعضهم فرصة لإعادة صياغة القصة بأسلوب أسهل، حتى تلمع عين الطالب ببريق الفهم، وهي المكافأة الوحيدة التي كان ريموند يسعى إليها في نهاية كل نهار.

ولم يكن نجاحه المهني وليد الصدفة، بل كان نتاج فلسفة خاصة آمن بها وطبقها بدقة؛ فقد اعتاد ريموند ألا تكون دروسه جامدة أو جافة تتدفق من طرف واحد يكون فيه الأستاذ هو الملقن الوحيد. بدلاً من ذلك، عوّد تلامذته على تحويل غرفة الصف إلى مسرح لحوار شيق ومفتوح، يملك فيه أي منهم الحق في أن يسأل ما يشاء ومتى يشاء. كان يرى في هذه الطريقة الأسلوب الأمثل والأمتع للتدريس؛ فهي لا تلغي رتابة الملل الذي يعصف بعقول المراهقين فحسب، بل تبني جسوراً متينة تحفز الفضول، وتطلق العنان لخيالاتهم الخصب لتوسيع آفاقهم الفكرية وربط الماضي بالحاضر.



وقف ريموند تالي أمام السبورة الخشبية القديمة، ممسكاً بقطعة الطباشير البيضاء بنعومة تخفي خلفها حماساً متقدماً. طرق على مكتبه بطرف الطباشير ثلاث طرقات خفيفة كانت كفيلة بجلب الصمت التام إلى أرجاء الصف المكون من خمسة وعشرين طالباً وطالبة في المرحلة الإعدادية. كانت شمس ملبورن الخريفية الدافئة تتسلل عبر النوافذ العالية، لتصنع مسارات ضوئية يسبح فيها غبار الطباشير كأنه مجرات صغيرة.

التفت ريموند نحو الصف، ومرر عينيه الرماديتين عبر نظارته الطبية ذات الإطار المستدير على الوجوه الشابة قبل أن ينطق بصوته الأجش والعميق:

- تخيلوا أنكم طيور تحلق على ارتفاع آلاف الأقدام فوق أرض قاحلة. تنظرون إلى الأسفل، فلا ترون مجرد صخور وأتربة، بل ترون رسوماً عملاقة لحيوانات، وبشر، وأشكال هندسية، تمتد لكilometers. رسوم ضخمة جداً لدرجة أن من صنعها على الأرض لم يكن قادراً على رؤيتها كاملة كما ترونها أنتم من علو. مرحباً بكم يا تلامذتي في عالم الجيوغليفات.

خطّ ريموند الكلمة بالإنجليزية على السبورة ( Geoglyphs ) بأحرف عريضة واضحة، ثم التفت قائلاً:

- هذا هو موضوع درسنا لليوم.

رفعت الطالبة كلير يدها بسرعة، وهي فتاة نبيهة تجلس في المقعد الأمامي كعادة المتفوقين، وسألت بفضول:

- يا لها من كلمة غريبة وغامضة أستاذ .. من أين أتت هذه التسمية وماذا تعني بالضبط؟

ابتسم ريموند لفضولها الذي يأبى الانتظار ويسبق توضيحه على الدوام:

- سؤال ممتاز للبداية يا كلير. الكلمة مشتقة من الجذور اليونانية القديمة؛ حيث تعني 'جيو' (Geo) الأرض، وتعني 'جليف' (Glyph) النقش أو الكتابة. إذن، المعنى الحرفي لها هو 'النقش على الأرض'. وهي عبارة عن تصميمات أثرية أو رسومات واسعة النطاق تُشكل على سطح الأرض، وغالباً ما تشغل مساحات شاسعة من التضاريس الطبيعية بحيث لا يمكن استيعاب شكلها بالكامل إلا من مسافة مرتفعة جداً أو من الجو.

رفع الطالب جيمس يده، وقد بدت على وجهه علامات الحيرة:

- ولكن يا أستاذ، كيف تصنع هذه الرسومات العملاقة؟ أقصد، ما هي الطريقة التي يتبعونها لتلوين الأرض أو حفرها بهذا الحجم؟

أوما ريموند برأسه وبدأ يتحرك ببطء بين المقاعد وهو يوضح:

- بشكل عام يا جيمس، هناك طريقتان رئيسيتان لتشكيل هذه اللوحات الأرضية. الطريقة الأولى تُسمى الطريقة 'الإيجابية'، وتتم عبر جمع ونقل

مواد بارزة من الطبيعة - مثل الصخور، أو الحجارة الملونة، أو الحصى، أو حتى الأخشاب والتربة - ورصّها بعناية فوق سطح الأرض لتكوين الخطوط البارزة للرسم. أما الطريقة الثانية فهي 'السلبية'، وتعتمد على الحفر؛ حيث يقومون بإزالة الطبقة السطحية من التربة الداكنة أو الحصى البركاني لكشف التربة الفاتحة الكامنة تحتها، وهذا التباين في الألوان هو ما يمنح الرسم وضوحه.

تدخلت الطالبة **ميا** هنا، وسألت بنبرة يملؤها التعجب:

- أستاذ ريموند، إذا كان أولئك البشر القدامى يعيشون على الأرض ولا يملكون طائرات لرؤية جمال هذه اللوحات، فما الغاية منها إذن؟ لماذا تكبدوا كل هذا العناء الشاق؟  
التفت الأستاذ إليها، وتألقت عيناه ببريق الإعجاب بقيمة السؤال:

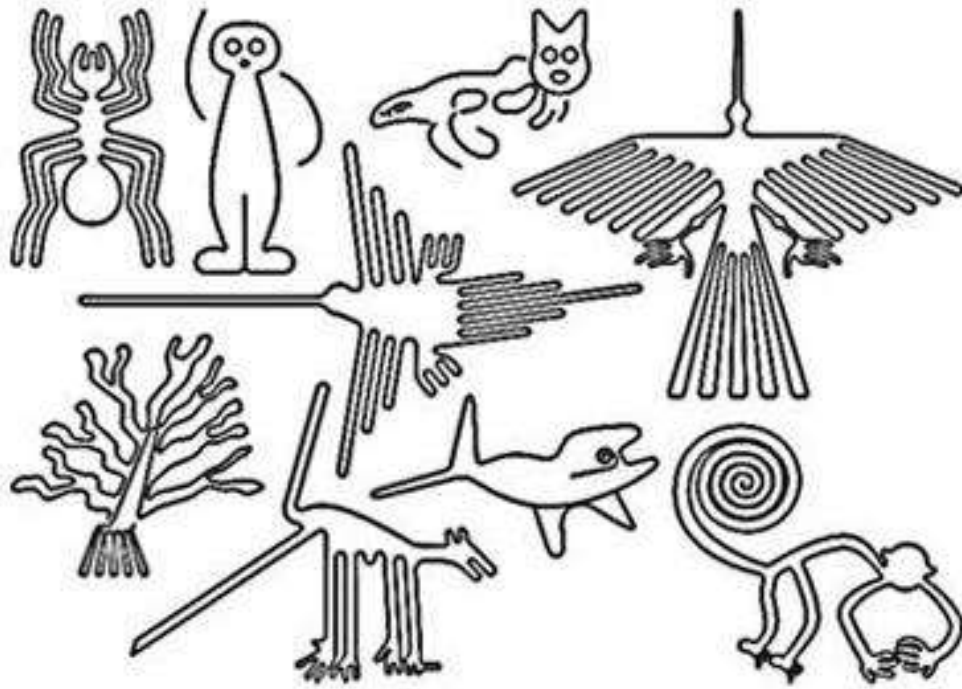
- هذا هو اللغز الأكبر يا ميا. الأهداف تتنوع بحسب الحضارات؛ بعضها كان يملك غايات دينية وروحية، حيث اعتقدوا أنهم يرسلون رسائل إلى الآلهة في السماء. وبعضها الآخر كان يُستخدم كعلامات جغرافية لإرشاد القوافل والرحالة في الصحاري الشاسعة، أو كتقويم فلكي عملاق يرتبط بحركة النجوم والشمس لتحديد فصول الزراعة والحصاد. وفي بيئات أخرى جافة، كانت هذه الخطوط بمثابة ممرات طقسية يسرون فوقها أثناء صلواتهم لاستسقاء السماء والبحث عن مصادر المياه الجوفية. لذا لم يكن الأمر مجرد فن، بل كان جزءاً من نظام حياتهم وعقائدهم.  
رفع الطالب **جاك** يده وسأل بحماس:

- أستاذ، ما هي أشهر الأمثلة على هذه الجيوغليفيات في العالم؟ وهل يوجد منها شيء في بلادنا؟  
عاد ريموند إلى السبورة ورسم خطأ متموجاً يمثل عنكبوتاً، وقال:

- أشهرها على الإطلاق في التاريخ هي **خطوط نازكا** في بيرو بأمريكا الجنوبية. هناك، في صحراء ساحلية شديدة الجفاف، حفر شعب نازكا قبل ألفي عام مئات الأشكال لحيوانات مثل القردة والعناكب والطيور وأشكال هندسية تمتد لعشرات الكيلومترات، وبقيت محفوظة حتى يومنا هذا بفضل انعدام الأمطار والرياح هناك. أما الإجابة على شق سؤالك الثاني يا جاك: فنعم، لدينا هنا في أستراليا مثال مذهل وأقرب إلينا بكثير، وهو جيوغليف



رجل ماري (Marree Man) في جنوب أستراليا، وهو رسم عملاق لرجل  
من السكان الأصليين يبلغ طوله 2.7 كيلومتراً!



هنا رفعت الطالبة سارة يدها وسألت السؤال الجوهري الذي كان يدور في أذهان الجميع:

- لكن كيف صُنعت هذه الأعمال هائلة الحجم بدقة متناهية دون أن يراها صانعوها من الأعلى؟  
توقف الأستاذ، ونظر إلى طلابه بجدية مشوبة بالغموض، ثم قال:
- هنا نصل إلى الفارق المثير بين التكنولوجيا والتاريخ يا سارة. بالنسبة لجيوغراف 'رجل ماري' الأسترالي، فهو عمل حديث صمم عام 1998 فقط. ورغم أن هويّة صانعه لا تزال مجهولة، إلا أن العلماء يعتقدون أنه صُنِعَ على الأرجح باستخدام تقنيات حديثة جداً مثل أجهزة نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) وجرافات ميكانيكية، مما سمح برسم الخطوط بدقة متناهية عبر الإحداثيات الرقمية.  
صمت ريموند لبرهة، ثم تغيرت نبرة صوته لتصبح أكثر عمقاً:
- أما بالنسبة لخطوط نازكا القديمة.. فالأمر يختلف تماماً. لا تزال طريقة رسمها بدقة هندسية مذهلة لغزاً عاصياً على التفسير حتى يومنا هذا، بحكم

الفترة التاريخية القديمة التي رُسمت فيها وبدائية الأدوات وقتها. فلم يكن لديهم أقمار صناعية، ولا أجهزة GPS، ولا طائرات، بل مجرد حبال وأوتاد خشبية وأقدام تمشي على الأرض.

بدت الدهشة على وجوه الطلاب، فرفعت الطالبة الفضولية كليز يدها مجدداً وسألت بنبرة تحدٍ علمي:

- ولكن يا أستاذ.. ألا توجد أي طريقة اليوم، مع كل هذا التقدم العلمي الهائل الذي بلغناه والتكنولوجيا والمحاكاة بالكمبيوتر، تسمح لنا بتفسير آلية رسمها بدقة وفك هذا الغموض؟

نظر ريموند إليها ، وارتسمت على شفثيه ابتسامة هادئة وساحرة، ثم قال بصوت خفيض:

- في الحقيقة يا كليز.. الحل الوحيد والقطعي المتوفر لدينا اليوم كي نتأكد ومع كل تقدمنا العلمي، هو أن يخترع شخص ما آلة الزمن، لنعود بها إلى ذلك العصر البعيد، ونجلس هناك وسط الصحراء لنراقب شعب نازكا بأعيننا وهو يخط تلك الرسائل على وجه الأرض، فنعرف الآلية التي اتبعها في إنجاز ذلك المشروع الهندسي الجغرافي العظيم .. وعندها لن نفهم آلية ذلك فحسب، بل سنعرف أيضاً إجابات على أسئلة كثيرة لا تزال عصية على الجواب حتى يومنا هذا .. كيف بنيت أهرامات مصر مثلاً؟ كيف بدأ البشر؟ أبهبط آدم وحواء من الجنة أم بتطور بطيء عبر ملايين السنوات؟ .. وغيرها من الأسئلة الفضولية .. ولأصبح عملي كأستاذ تاريخ والقائم بالأساس على الأسئلة والأسرار أكثر مللاً كما تتوقعون ..

ضج الصف بضحكات خفيفة ومعجبة بإجابة الأستاذ ..

وكانت إجابته تلك الشرارة الأولى التي أشعلت فضولهم. سرعان ما تلاشت الضحكات لتحل محلها ملامح الإنصات المشدوه، حيث استمر ريموند في نسج خيوط درسه بحماسة وشغف لم يخبوا للحظة واحدة. راح ينتقل بهم عبر القارات والقرون، مستعرضاً جيولوجيات أخرى أثارت حيرتهم؛ تحدث عن "حصان أوفينغتون الأبيض" في بريطانيا وتاريخه الضارب في القدم، وعن الأشكال المكتشفة حديثاً في غابات الأمازون وكازاخستان. كان صوته يعلو وينخفض مثل قائد أوركسترا، يدعم معلوماته العلمية بخرائط وصور مررها بين مقاعدهم. تحول

الصف إلى خلية من التفاعل المتقدم، وبدأ أن ريموند نجح كالعادة في جعل التاريخ كائناً حياً يتنفس معهم في الغرفة. ظل الشرح يتدفق بسلاسة متناهية، والطلاب يلاحقون كلماته بشغف، حتى قطع تلك الحالة الساحرة رنين جرس المدرسة معلناً نهاية الوقت.

وضع ريموند قطعة الطباشير، ونفض الغبار عن يديه وهو يراقب طلابه يجمعون دفاترهم بحيوية، فابتسم تلك الابتسامة الأبوية التي حرمتها الحياة منها كأب لأبنائه وعوضته بمثلها لتلاميذ كأبنائه.

أرخی المساء سدوله بتؤدة على مدينة ملبورن بعد ظهيرة ذلك اليوم، واكتست الشوارع بهدوء غامر لا يقطعه سوى صفير الرياح الخفيفة التي تحرك ستائر غرفة المعيشة في منزل ريموند الصغير. في ذلك الركن الدافئ، المحاط برفوف خشبية تكاد تنوء تحت ثقل عشرات الكتب والمجلدات التاريخية، كان ريموند يجلس على مقعده الوثير ذي الجلد البني العتيق. غلبت على الغرفة إضاءة خافتة تنبعث من مصباح جانبي أصفر، بينما استقرت على الطاولة الصغيرة بجانبه كأسه المعتادة من القهوة السوداء الساخنة، ينبعث منها بخار يتراقص في الهواء كأنه طيف من أطياف الماضي.

بحكم توجهه المهني وشغفه الذي لا يهدأ، لم يكن ريموند يجد متعة في المساء تضاهي مشاهدة البرامج الوثائقية؛ تلك التي تنبش في أسرار الكون وتاريخ

البشرية. ولكن في تلك الليلة، لم يكن الوثائقي المعروض على الشاشة يتحدث عن معركة حاسمة أو إمبراطورية بائدة، بل كان يتناول موضوعاً فيزيائياً وفلسفياً معقداً: السفر عبر الزمن.

كان المعلق في البرنامج يتحدث بصوت جهوري عميق، مستعرضاً فرضيات أينشتاين حول نسبية الزمن، والثقوب الدودية، وكيف أن الوقت قد لا يكون خطأ مستقيماً يسير باتجاه واحد كما نتخيله. وفي اللحظة التي ظهرت فيها على الشاشة محاكاة بصرية لساعة رملية تتداخل رمالها وتتحرك في اتجاهات متعاكسة، شعر ريموند بحالة ديجافو.

ارتسمت على شفثيه ابتسامة دافئة ونبئت في مخيلته فوراً صورة غرفته الصفية صباح ذلك النهار. تذكر تلميذته الذكية كليز، ونبرة التحدي العلمي في صوتها وهي تسأله: ( ألا توجد أي طريقة اليوم تسمح لنا بتفسير آلية رسم خطوط نازكا؟ )،

وتذكر جوابه العفوي لها الذي ضجت على إثره القاعة بالضحك: ( الحل الوحيد هو أن يخترع شخص ما آلة الزمن، لنعود بها إلى ذلك العصر البعيد ونراقب شعب نازكا بأعيننا )..

اعتدل ريموند في جلسته، ووضع كأسه جانباً. لم تعد تلك الإجابة في نظره مجرد دعابة عابرة لإنهاء حوار صفي، بل بدأت تكتسب في عقله وزناً آخر. التفت نحو الشاشة وتابع البرنامج بتركيز حاد وفضول متقد، وكأن الكلمات التي تقال الآن لم تعد غريبة عنه. استرسل المذيع في شرح كيف أن الماضي قد لا يكون قد انتهى تماماً، بل هو موجود في مكان ما في نسيج الزمكان، ينتظر فقط الأداة المناسبة للوصول إليه.

كانت بداية البرنامج الوثائقي هي ما شده منذ اللحظة الأولى، فقد تطرقت إلى قصة غريبة عن السفر إلى الماضي، حيث تناولت الفترة الزمنية بين عامي 1984 و 1985 ، عندما استلم مدرّس في مدرسة ثانوية يدعى كين ويبستر مع صديقيه نيك و ديبى في قرية دودلستون الإنجليزية مجموعة رسائل غريبة على الحاسوب رغم أنه لم يكن متصلاً بالإنترنت بالأساس ، و الأغرب من ذلك كله أن الرسائل كانت مرسلة من شخص يدعي أنه كان يعيش في منزلهم نفسه لكن منذ قرون بعيدة !! ..

ففي أحد الأيام من عام 1984 استعار كين الحاسوب من المدرسة إلى منزله كالعادة ، و بينما كان يقلب في الملفات وجد ملف نصي محفوظ فتحه من باب الفضول فوجد فيه رسالة عجيبة بدأت باسمه و اسم زميليه في السكن نيك و ديبى ، و هي عبارة عن بضعة جمل عن الزهور و الشمس و السماء بلا معنى واضح لها ..

و ظنّ الثلاثة الذين نفوا كتابتهم للرسالة أنه مقلب من صديقهم جون الذي كان يزورهم و يتدرب على عزف الغيتار معهم في منزلهم ..

بعد عام أي في عام 1985 استعار كين الحاسوب مجدداً و بينما كان الثلاثة يتحدثون أمامه ظهرت على شاشته رسالة جديدة غريبة مكتوبة بلغة انجليزية ليست مستخدمة في زمنهم و تتحدث عن ملك من القرون الوسطى و شاب يعيش فيها و ختمت الرسالة بحرفين LW ..

قرر الثلاثة الردّ على الرسالة برسالة أخرى موجهة لهذا الشخص سألوه فيها عن مكان إقامته و زمانه و عن الملك الذي قصده برسالته .. ثم غادروا إلى مقهى

القرية للتسلية، و عندما عادوا وجدوا الرد بالفعل في ملف جديد .. يقول أن كاتبه يعيش في قرية بسيطة في إنجلترا في عام 1521 و أن ملكهم هو هنري الثامن ، لكن للأسف أغلب المعلومات المذكورة في تلك الرسالة كانت خاطئة تاريخياً مما دفع الثلاثة إلى الشك أكثر بأنه مجرد مقلب .. لكن من هو الشخص الذي عرف أنهم أرسلوا رسالة إلى LW ، و كيف اقتحم منزلهم بالأساس و هو مغلق و لا علامات على الاقتحام عنوة؟! لذلك طلب كين من المدرسة أن يبقي الحاسوب في منزله بضعة أيام أخرى بحجة أنه يتدرب عليه .. و بالفعل استلموا على الحاسوب مجموعة رسائل جديدة حدثتهم بتفصيل أكثر عن المكان و الزمان الذي يعيش فيه المرسل و الذي وقع هذه المرة باسمه الكامل وهو ( لوكاس واينمان ) فقال أن زوجته و ابنه ماتوا في الوباء و بأنهم يعملون في تخمير الشعير لصناعة البيرة ، و يسكنون في منزل بسيط مبني من الحجر الأحمر..

المفاجأة هنا أنه بعد فترة من الزمن و بينما كان الثلاثة يحفرون في حديقة منزلهم لغاية ما، عثروا على بقايا منزل قديم تحت التراب مصنوع بالفعل من الحجر الأحمر !!

و تبين بعد البحث و التدقيق أن كل المعلومات الجديدة التي أخبرهم بها لوكاس كانت صحيحة .. لكن الأغرب من ذلك كله أنه عندما أرسل له كين رسالة يخبره فيها أنه يعيش في عام 1985 رد عليه لوكاس برسالة عجيبة :

( أنت من عام 1985 ، ظننتك تعيش في عام 2019 كصاحبك الآخر؟! )

ثم شرح له لوكاس أكثر أنه في إحدى الليالي و بينما كان يجلس أمام المدفأة الحجرية لمعت النيران فيها بقوة ثم ظهر أمامه رجل فزع بشدة ، لكن الرجل أخبره أنه لن يؤذيه ، و ترك له على الطاولة بجانبه علبة مضيئة كلما نطق أمامها بدأت كلماته تظهر متوهجة عليها .. و أنه بدأ يتواصل من خلاله مع الرجل الذي زاره و الذي أخبره أنه قادم من عام 2109 ..

هنا قرر الثلاثة أن يرسلوا رسالة إلى الشخص الذي يعيش في عام 2109 ليروا النتيجة ، و بالفعل وصلتهم رسالة منه تخبرهم فيها أنه لا يستطيع إخبارهم بدقة من يكون كي لا يغير من مجرى الأحداث في الماضي ، لكنه سيخبرهم معلومات لا تؤثر على ذلك لاحقاً ..

يا إلهي إذن فهم الآن يتواصلون عبر حاسوب المدرسة مع الماضي و المستقبل في نفس الوقت !!

خلال الأيام التالية بدأت تحدث أمور غريبة في منزل كين ، أصوات أقدام في الليل تترك آثارها على الأرضية ، كتابات غامضة على الأرضية و الجدران ، أشياء تتحرك من مكانها ، برودة غير طبيعية في بعض الغرف !! و هذا دفع نيك إلى التخلي عنهم في حين قام كين و ديبى باستئجار منزل آخر كي يعيشوا فيه ..

في هذه المرحلة نصح أحد زملاء كين في المدرسة كين أن يلجأ إلى جمعية البحث عن الخوارق ربما تمكنت من مساعدته .. و بالفعل أرسلت تلك المنظمة خبيرين إلى منزل كين و قاما بكتابة مجموعة أسئلة نوعية للشخص 2109 ، فكانت رسالته الرد مفاجئة للغاية إذ طالبهم ألا يتدخلوا في أمره أو اختبار صحة كلامه ، و أخبرهم أنهم يدعون التاكيونات و هم قادرون على السفر بالزمن إلى الماضي كما يشاؤون ..

في شهر آذار من عام 1985 وصلت إلى كين آخر رسالة من لوكاس أخبره فيها أنه سينتقل للعيش في أوكسفورد للدراسة و وعده بأنه سيؤلف كتاباً يشرح فيه قصتهم العجيبة و أكد له أن 2109 أخبره أن كتابه هذا سيتم اكتشافه لاحقاً بالفعل بعد قرون ، كما أرسل 2109 آخر رسالة بدوره إلى كين و شكره فيها على تعاونه و أعطاه إحداثيات فضائية و أخبره أنه سيتم اكتشاف نجم هام للبشرية في هذا المكان بعد سنوات ، و بالفعل بعدها بسنوات تم اكتشاف نجم كويزار في مكان الإحداثيات بالضبط !!

في تسعينيات القرن الماضي قام كين بتأليف كتاب وثق فيه تجربته كاملة بعنوان ( العالم الشاقولي ) .. كما أنتجت BBC برنامجاً وثائقياً عنها أيضاً .. و بعدها التزم كين و زملاؤه الصمت تماماً عن القصة ..

كانت قصة عجيبة أذهلت ريموند بحق ورمت بعقله ضمن زوبعة من الشك والحيرة، فهو اعتاد أن يكون من ألد الأعداء المشككين بموضوع السفر عبر الزمن، وهذا ما دفعه لمتابعة بقية البرنامج الوثائقي بمنتهى الفضول والتركيز ..

عقب المقدمة، تناول البرنامج موضوع السفر عبر الزمكان من زاويتين، الأولى كانت الانتقال الآني من مكان لآخر، وللتأكيد على أن هذه الفكرة ممكنة علمياً بقوة طرح البرنامج فكرة بسيطة لكنها معبرة لأقصى الحدود، إذ ذكر أنه منذ عقود قليلة

كانت الرسائل تنتقل من مكان لآخر باليد خلال فترة طويلة من الزمن ثم تطورت إلى تقنية التلغراف و اليوم ترسل بكبسة زر عبر الحواسيب أو الهواتف المحمولة كرسائل صوتية بالاتصال أو مكتوبة .. وجلّ ما استخدمناه لفعل ذلك هو اكتشاف طريقة علمية جديدة لنقل الطاقة من مكان لآخر لا أكثر .. وهذا هو جوهر فكرة الانتقال الآني، أي تحويل المادة إلى طاقة ثم استعادتها على هيئة مادة مجدداً.

و في العلم النظري – حتى الآن – إثبات لإمكانية ذلك بالفعل و لمسافات هائلة عبر أصقاع الكون عبر ما يسمى **الثقوب الدودية** أو **جسور أينشتاين روزن** المنبثقة عن النظرية النسبية لأينشتاين و التي تقول بوجود ممرات مختصرة في الكون المنطوي تصل بين ثقب أسود يسحب المادة و الطاقة إليه و ثقب أبيض تخرجان منه .. وأكد البرنامج أنّ العلم أثبت لنا عبر الزمن بأن جميع النظريات العلمية المثبتة على الورق ستبصر النور إلى الواقع كحقيقة ملموسة عاجلاً أم آجلاً ..

وذكر البرنامج هنا مجدداً قصة عجيبة أخرى ، فبحسب روايات بعض الشهود، قامت الحكومة الأمريكية بالتعاون مع البحرية الأمريكية بإجراء تجربة حقيقية على نقل الأشياء أنياً من مكان لآخر تحت اسم ( **تجربة فيلادلفيا** ) عام 1943 و بالاستعانة بجهود ألمع عباقرة العلوم وقتها من أمثال أينشتاين و تسلا .. و يقول الشهود أن المدمرة الحربية التي كانت تحمل طاقماً من البحارة خضعت للتجربة بأن تعرضت لحقل مغناطيسي قوي ذي هالة خضراء فاخفت للحظات ثم ظهرت مجدداً، الأمر الذي أسفر لاحقاً عن نتائج كارثية على البحارة من هلاوس و محاولات انتحار، بل إنّ بعضهم التحمت أجسادهم فعلياً مع معدن السفينة على نحو مرعب كما يدعي الشهود .. وقال الشهود الناجون بأنهم تعرضوا لتهديدات سرية بالقتل في حال أفشوا بسر تلك التجربة، و تبقى صحة هذه المعلومات مسألة جدل كبير حتى يومنا هذا !..

ثم انتقل البرنامج إلى الزاوية الثانية وهي السفر عبر الزمن، وتناوله بدوره من شقين ممتعين، الأول كان **السفر إلى الماضي**، وذكر صراحةً أن هذه الجزئية هي الأضعف في مفهوم السفر عبر الزمكان، إذ أن جميع القوانين و النظريات العلمية تؤكد استحالة حدوث ذلك، و خير من دحض هذه الفرضية بعبقريّة و بساطة هو العالم الكبير ستيفن هوكينغ و بعبارة واحدة منطقية للغاية : ( **إن كان السفر إلى الماضي ممكناً، فلماذا لا نجد آلاف السياح من المستقبل يغزون حاضرتنا ؟** )

وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها وترد على الفرضية بقوة، رغم ذلك نجد كثيراً من

القصص التي شاعت عن بشر زاروا حاضرننا من المستقبل و لها ما يبررها بالفعل لتطرح أسئلة كثيرة محيرة ، فمثلاً هنالك **قصة الرجل من توريد** ، و التي حيرت البشر لعقود فيما إذا كانت أكذوبة أو أنه بالفعل مسافر من المستقبل أو زائر من عالم مواز ، و تتحدث القصة عن مسافر وصل إلى مطار هانيدا الياباني بدون هوية أو أية وثائق شخصية ، و عند استجوابه أكد بأنه شخص قادم من المستقبل البعيد بعد 1000 عام من بلد يدعى توريد، و عندما طلب منه تحديد بلده على الخريطة أشار إلى بقعة جغرافية تقع بين فرنسا و إسبانيا و التي تتوافق مع دولة أندورا في زمننا الراهن ! لا تتوقف المفاجآت هنا ، إذ تم احتجاز الرجل في شقة علوية بدون شرفة و وضعت حراسة مشددة عليه لكنه اختفى دون أثر أو تفسير منطقي !!

وهناك أيضاً **قصة الصورة الملتقطة عام 1941 لمسافر عبر الزمن**، فمن الوهلة الأولى قد تبدو الصورة طبيعية لكن عند التدقيق فيها نجد أن هناك شخصاً يرتدي نظارة شمس ماركة ريبان الحديثة مع لباس من تصميم حديث في وسط جمع يرتدي القبعات والبدلات الكلاسيكية المتوافقة مع تلك الحقبة الزمنية، وليست النظارات فقط هي ما تشير إلى أنه من المستقبل بل يمكن ملاحظة أنه يرتدي سترة مطبوع عليها بأسلوب print-screen غير المخترع وقتها، بل أنه يحمل كاميرا حديثة تعود للعصر الحديث على خلاف بقية الكاميرات في الصورة !!

وهذه القصص الغامضة والموثقة بالصورة أو بالشهود تطرح أسئلة كثيرة للغاية دون إجابات منطقية !!

أما الشق الثاني من السفر عبر الزمن فكان **السفر إلى المستقبل**، و هذا على عكس السفر إلى الماضي أمر ممكن جداً علمياً و مثبت بالنظريات و المعادلات الرياضية .. فهو أمر قائم ببساطة على زيادة السرعة بحسب النظرية النسبية لأينشتاين والتي تؤدي إلى تباطؤ الوقت حتى يتوقف تماماً عندما تصل سرعة الأجسام إلى سرعة الضوء، فإن تمكن العلماء مستقبلاً من اختراع آلة للزمن تزيد السرعة بالفعل إلى حدود هائلة، فسيخرج منها الإنسان في زمن لاحق بعيد .. لكن المشكلة هنا بالطبع أنه لن يتمكن من العودة إلى زمانه الأول بحسب القوانين العلمية ..

و هذا ما نجده في سماء الليل ذات النجوم بالفعل .. فكثير من نجومها اختفى منذ ملايين السنين لكن نورها سافر عبر الزمن ليصل إلى حدقات أعيننا في المستقبل البعيد !!



وفي الأديان إشارة إلى موضوع السفر إلى المستقبل في **قصة أهل الكهف** الذين غفوا لأكثر من 300 سنة، ففزيولوجياً لا يمكن للجسم البشري أن يعيش بلا موارد غذائية كل هذه الفترة، ما لم يكن الأمر برمته هو انتقال أني إلى المستقبل بطريقة ما كما أكد البرنامج.

كما ذكر البرنامج قصصاً كثيرة من صفحات التاريخ أيضاً لأشخاص ادعوا السفر إلى المستقبل و كان أغربها **قصة الصحفي جيه برنارد هوتون والمصور يواكيم برانديت** الذين كلفتهم الصحيفة بإعداد تقرير عن حوض بناء السفن في مدينة هامبورغ الألمانية .. فذهبا إلى هناك بالفعل وأجرىا مقابلات مع العديد من المسؤولين والعمال .. لكن بينما كانا ينتقلان في حوض بناء السفن، سمعا أصوات محركات طائرات في الجو و شاهدا السماء تعجّ بالقاذفات الجوية ثم بدأت بطاريات مكافحة الطائرات بإطلاق النار كما بدأت القنابل في السقوط والانفجار.. و فجأة أصبح حوض بناء السفن منطقة حرب بالكامل، المباني كانت تنهار ، وفي كل مكان انتشر الموت و عمّت الفوضى ..

سارعا بالفرار لإنقاذ رجليهما، وخلال الهروب صادف أحداً حراس الأمن فسألاه عما إذا كانا يستطيعان المساعدة بأي طريقة، لكنه طلب منهما مغادرة المكان على الفور ففعلا .. وبمجرد وصولهما إلى قلب مدينة هامبورغ تغيرت الأمور وعادت الحياة إلى طبيعتها، لا عنف أو دماء ، المباني تبدو سليمة تماماً و لا أحد يبدو خائفاً !!

كان الأمر كما لو أنه لم يحدث شيء على الإطلاق .. قفلا عائدين إلى حوض بناء السفن، فكان كل شيء سليماً وطبيعياً، لا حرب، لا دمار و لا حتى دخان ..

لم يصدق مكتب الصحيفة روايتهما بالطبع و نسيت القصة بعد أن عادا إلى لندن لاحقاً، و بعد مضي سنوات و في صبيحة أحد الأيام من عام 1943 خلال الحرب العالمية الثانية، ذهل الاثنان بشدة عندما كانا يطالعان إحدى الصحف المحلية فوجدا أن بعض الأخبار فيها تصف بالضبط ما عاشاه قبل 11 عاماً في هامبورغ .. وكأنّ ما مرا به في تلك التجربة الغريبة هو حالة سفر بالزمن إلى المستقبل وقتها بطريقة ما !!!

ومع اقتراب نهايته، ختم البرنامج الشيق وثائقيته بالتأكيد على فكرة فلسفية عميقة تركت ريموند في حالة من التأمل التام؛ إذ أشار المعلق بصوته الرخيم إلى أن

البشر قبل ألف عام، لو قُدِّرَ لهم أن يروا ما توصلنا إليه اليوم من اكتشافات وتقنيات حديثة، لاعتبروا ذلك ضرباً من الخيال المحض، وأمرأً يندرج قسراً تحت بند الخرافات والأساطير التي لا يمكن للعقل البشري تصديقها.

ثم تساءل المذيع بنبرة مفعمة بالتحدي : فما الذي يمنع إذن، من أن نشهد نحن، أو أبنائنا، أو حتى أحفادنا من بعدنا، زمناً يخرج فيه السفر عبر الزمكان من عباءة المستحيل ليصبح أمرأً واقعياً وملموساً؟! فالعلم لا ينفك يدهشنا في كل يوم بتلك القفزات النوعية الهائلة التي يحققها في مجالات الاكتشاف والاختراع، وبوتيرة متسارعة ورهيبية تتحدى حدود الزمن نفسه.

استقرت هذه الكلمات في وعي ريموند كالنصل، وظل يحدق في الشاشة التي بدأت شارتها الختامية بالصعود، بينما كان صدى السؤال الأخير يتردد في أرجاء غرفته الصامتة، وكأنه نبوءة تنتظر التحقق .. دون أن يدرك بأن البشرية على موعد قريب للغاية مع سفر إلى الماضي يجيب على كل أسئلة التاريخ العالقة، وبآلية لم يذكرها ذلك البرنامج الوثائقي الشيق، لأنها ببساطة أقرب إلى روايات الخيال العلمي منها إلى واقعنا الملموس.

# الفصل الثاني

## فقاعة الإسفنج

لم يكن البروفيسور كلاوس غوتنبرغ يشبه علماء الفيزياء الفلكية الذين اعتاد الناس رؤيتهم في المختبرات الحديثة بقدر ما كان يشبه مستكشفًا خرج من زمن آخر؛ رجلًا قضى نصف حياته محققًا في السماء، كأنه ينتظر من بين وهج الشمس البعيدة أن تبوح له بسر ظل البشر عاجزين عن فهمه.

رجلٌ في التاسعة والخمسين من عمره، طويل القامة، نحيل البنية، وقد تركت السنوات في جسده انحناء خفيفة لا توحى بالضعف بقدر ما تمنحه هيبة أكاديمية هادئة؛ انحناء رجل أمضى أعوامًا طويلة منكبًا فوق الأوراق والشاشات، يطارد معادلة عصية أو يفتش في الأرقام عن نافذة تقوده إلى المجهول.

سترات التويد الأنيقة لازمت جسده لسنوات، ولم تعرف يومًا معنى الكمال؛ إذ كانت التجاعيد تستقر عليها باستمرار، شاهدة على الساعات الطويلة التي يقضيها جالسًا خلف مكتبه الخشبي، حتى بدا أحيانًا وكأن ثيابه نفسها قد اعتادت حياة المختبر أكثر مما اعتادها هو.

أما شعره، الذي كان في شبابه بلون الفحم الداكن، فقد غزته السنون حتى استحال فضيًا تمامًا، لكنه لم يفقد شيئًا من تمرده. كان يتناثر حول جبهته العريضة في فوضى لا يبدو أنها جاءت من الإهمال، بل من كثرة ما مرت عليه من أفكار لم تمنحه فرصة ليهتم بمظهره.

وكانت تلك الجبهة مجمدة على الدوام، كأن التفكير بالمعادلات المستعصية ترك عليها آثاره حتى بعد أن يغادر الورق.

وتحت حاجبين كثيفين متمردين، كانت تستقر أكثر ملامحه إثارة للانتباه. عيناها.

زرقاوان ببرودة الجليد، حادثان وثاقبتان، لكنهما نادرًا ما كانتا تستقران طويلًا على تفاصيل المكان المحيط به. كان فيهما شيء أبعد من الغرفة، وأوسع من الجدران؛ نظرة رجل لا يرى الأشياء كما هي، بل يبحث دائمًا عما يقع خلفها.

وكانت نظاراته ذات الإطار الثقيل جزءًا لا ينفصل عن هيئته. اعتاد أن يدفعها إلى أسفل أرنبه أنفه كلما دخل في نقاش علمي أو واجه برهانًا رياضيًا معقدًا، ثم يرفع عينيه من فوق حافتها إلى من أمامه. وكانت تلك النظرة وحدها كافية، في كثير من الأحيان، لإسكات قاعة كاملة من المهندسين الشباب.

لم يكن كلاوس يحتاج إلى رفع صوته كي يفرض حضوره.

كان يكفي أن ينظر.

ففي عينيه كان يسكن ذلك المزيج النادر من المعرفة والشك والفضول؛ فضول رجل لم يتوقف، رغم اقترابه من الستين، عن الاعتقاد بأن أعظم أسرار الكون ربما لا تزال مخبأة في مكان ما... تنتظر فقط من يملك الجرأة الكافية لبحث عنها. بالنسبة إلى زملائه الباحثين، كان كلاوس غوتنبرغ رجلاً تحكمه قناعات هادئة، لكنها راسخة إلى حد يصعب زحزحته؛ رجلاً يملك تركيزاً عميقاً يشبه زهد الرهبان، ويستطيع أن ينسى العالم من حوله ساعات طويلة إذا وجد أمامه معادلة لم تُحسم بعد.

أما بالنسبة إلى العالم الخارجي، وإلى الإداريين الذين اعتادوا لغة الجداول والمواعيد والتقارير داخل وكالة ناسا، فقد بدا في أحيان كثيرة شخصية غامضة، منفصلة عن الواقع اليومي، أو عنيداً إلى درجة محبطة.

كان عقله ببساطة يسبق الحوار الذي يدور حوله بسنوات ضوئية.

لم يكن يحتمل المجاملات البيروقراطية، ولا الاجتماعات التي تُستهلك فيها الساعات في مناقشة تفاصيل لا يرى فيها قيمة حقيقية. وكان ينظر إلى الروتين الإداري باعتباره احتكاكاً زائداً في آلة يفترض أن تكون مهمتها الوحيدة هي دفع المعرفة البشرية إلى الأمام بأقصى سرعة ممكنة.

لكن أولئك الذين اقتربوا منه حقاً، وعملوا معه في المختبرات التي لا تُفتح أبوابها إلا للقليل، كانوا يعرفون رجلاً آخر تماماً.

كانوا يرون فيه مرشداً شديد الوفاء، لا يتخلى عن أحد تلاميذه إذا تعثر، ومفكراً يملك حس دعابة جافاً ودقيقاً لا يظهر إلا في اللحظات التي لا يتوقعها أحد. وكانوا يعرفون فيه، قبل كل شيء، مثالياً غريباً؛ يتحدث عن قوانين الفيزياء بالوقار نفسه الذي يتحدث به رجل مؤمن عن أسرار الخلق.

لم يكن كلاوس يبحث عن الشهرة.

ولا عن الألقاب الأكاديمية.

ولا عن صورة تُعلق في ممرات الوكالة.

كان يرى الكون لغزاً هائلاً، لكنه لم يكن يراه لغزاً مخيفاً، بل لغزاً جميلاً إلى حد يجعل الحياة نفسها تبدو قصيرة أمامه. وكان يؤمن أن الإنسان ليس سوى أداة عابرة

في يد هذا اللغز العظيم؛ وأن أجمل ما يمكن أن يفعله المرء هو أن ينجح، ولو مرة واحدة، في فك شفرة سطر صغير من كتابه الذي لا نهاية له.

ولذلك، حين بلغ العقد الأخير من مسيرته العلمية، لم يعد فضوله مجرد فضول.

تحول إلى هوس بمفهوم علمي جديد.

هوس استهلك ساعات يقظته، وأخذ يتسلل إلى أيامه ولياليه حتى لم يعد يفصل بين عمله وحياته؛ لأن العمل أصبح حياته نفسها.

كان هوساً بمشروع : «فقاعة الاعوجاج».

لوقت طويل، ظل حلم السفر بين النجوم يبدو حبيس الخيال. كانت البشرية قد قطعت شوطاً هائلاً في استكشاف الفضاء، لكنها ظلت أسيرة الحقيقة ذاتها: المسافات الكونية أكبر من أن تسمح بها محركاتها التقليدية.

فالصواريخ الكيميائية، مهما بلغت من التطور، لا تزال تدفع المركبة داخل الفضاء بدل أن تغيّر الفضاء من حولها.

وكانت ميكانيكا المدارات، على الرغم من عبقريتها، لا تزال تحكم حركة المركبات ضمن حدود لا يستطيع الإنسان القفز فوقها.

لكن شيئاً بدأ يتغير في أقسام الفيزياء النظرية داخل ناسا خلال العقد الأخير.

بدأت أموال ضخمة، وبسرية شديدة، تتدفق نحو فكرة بدت في ظاهرها أقرب إلى الخيال منها إلى الهندسة: «محرك الكوبيير»، النموذج النظري الذي شكّل الأساس لفكرة فقاعة الاعوجاج.

لم يكن السؤال هذه المرة:

**كيف نجعل المركبة أسرع؟**

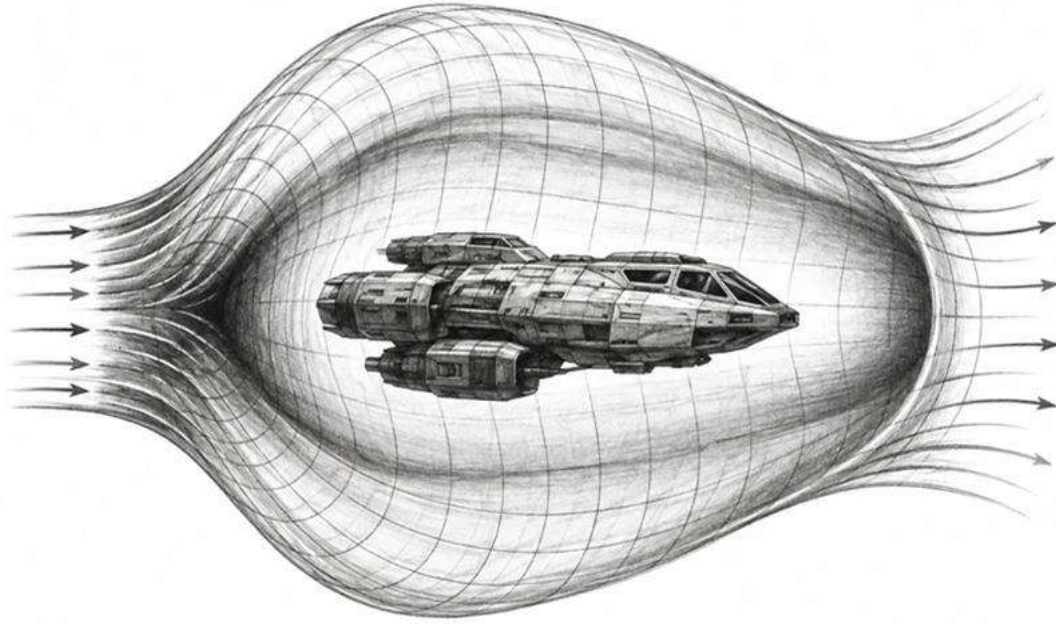
بل كان أكثر جرأة:

**ماذا لو لم نحتاج إلى تحريك المركبة أصلاً؟**

هنا تكمن الفكرة العظيمة.

بدل أن تشق المركبة طريقها عبر الفضاء، يعمل المحرك، نظرياً، على تغيير الفضاء نفسه من حولها؛ فينشأ تشوه هائل في نسيج الزمكان، ينكمش فيه الفضاء

أمام المركبة، بينما يتمدد خلفها.  
وبين الانكماش والتمدد تتشكل منطقة معزولة، أشبه بفقاعة تغلف المركبة وتحملها  
داخل نسيج الزمكان.  
فقاعة الاعوجاج.



المركبة نفسها لا تحتاج، داخل هذه الفقاعة، إلى أن تندفع عبر الفضاء بالطريقة التقليدية. إنها تستقر داخل منطقتها المعزولة، بينما يتحرك الزمكان المحيط بها؛ كأن سفينة لا تبحر في البحر، بل تجعل الموج نفسه يتحرك تحتها وبحملها.

ومن منظور مراقب بعيد، يمكن للفقاعة أن تعبر مسافات هائلة بسرعة تتجاوز سرعة الضوء بفارق لا يمكن للمحركات التقليدية حتى أن تتخيله.

أما من بداخلها، فالصورة مختلفة تمامًا.

لا يشعر الطاقم بأنه يندفع عبر الفضاء بسرعة خارقة؛ إذ تبقى المركبة، داخل فقاعتها، في حالة مستقرة نسبيًا، بينما يكون الفضاء نفسه هو الذي يتكفل بالحركة.

وهنا تكمن المفارقة التي أسرت كلاوس طوال سنوات:

المركبة لا تتحرك أسرع من الضوء...

بل إن الفضاء هو الذي يتحرك بها.

كانت تلك الفكرة، بالنسبة إلى معظم الناس، مجرد احتمال نظري غريب.

أما بالنسبة إلى كلاوس، فقد كانت شيئاً آخر.

كانت باباً.

باباً إذا أمكن فتحه، فلن تعود النجوم مجرد نقاط بعيدة في السماء، ولن تكون المسافات الكونية جدراناً لا يمكن عبورها.

سيصبح الكون، للمرة الأولى، مكاناً يمكن للإنسان أن يمد إليه يده... ثم يعبر.

ومع ذلك، وعلى الرغم من العزلة التي كان ذكاؤه يدفعه إليها، وعلى الرغم من الساعات القاسية التي كانت أبحاثه تبتلعها من عمره، لم يكن كلاوس غوتنبرغ رجلاً استسلم لطموحه حتى النهاية.

فخارج المختبرات المغلقة، وخارج المعادلات التي لا تنتهي، كان هناك عالم آخر يعود إليه كل مساء؛ عالم أكثر دفئاً من كل ما عرفه في حياته العلمية، وأكثر قدرة على جذبه من أي سر كان يطارده في أعماق الكون.

في منزله الهادئ والمشمس على أطراف ولاية فيرجينيا، كانت تنتظره امرأتان تشكلان مركز عالمه الحقيقي: زوجته ماريانا، وابنته مايا، ذات السبعة عشر ربيعاً.

كانت ماريانا امرأة تجمع بين النعومة والذكاء العاطفي العميق، وكأنها تمتلك قدرة فطرية على قراءة ما لا يقوله كلاوس. لم تكن بحاجة إلى أن تسأله عن حاله كي تعرف أنه مرهق، ولا إلى أن تطرق باب مكتبه لتدرك أنه يحتاج إلى لحظة من الصمت.

كانت تعرفه أكثر مما يعرف نفسه أحياناً.

تعرف متى تترك كوب الشاي الساخن عند باب مكتبه المغلق، ومتى تدخل دون استئذان لتنتزعه برفق من أمام ألواح الطبشور، وتعيده من عالم المعادلات إلى عالم البشر.

أما مايا، فقد كانت شيئاً آخر.

كانت تحمل عيني أبيها الزرقاوين الثاقبتين، لكنها ورثت عن أمها حيويتها ودفأها، فكانت بالنسبة إلى كلاوس بهجة العمر التي جاءت في مرحلة ظن فيها أن حياته قد استقرت على إيقاع واحد لا يتغير.



كان يراقبها وهي تكبر بشعور مختلط من الفخر والدهشة؛ فالأعوام التي مرت عليه كأنها أيام في المختبر، مرت أمامه في حياة ابنته على هيئة مراحل كاملة: طفولة، ثم مراهقة، ثم فتاة تقف الآن على العتبة الأولى لحياتها الخاصة.

وكانت علاقته بهما أعمق من أن تختصرها الكلمات.

لقد كان كلاوس، رغم كل ما سرقه العمل من وقته، رجلاً شديد التعلق بعائلته. وربما كان ذلك التعلق هو الشيء الوحيد الذي استطاع أن ينتصر فيه على هوسه بالعلم.

قد يمضي أيامًا كاملة في اجتماعات سرية لا تنتهي، أو يقضي الليل أمام برامج المحاكاة حتى يطلع الفجر، وقد تمر عليه أسابيع لا يعرف فيها معنى النوم المنتظم. لكنه حين يعود إلى ماريانا ومايا، كان يعود إليهما بكامل وجوده.

لا يحمل معه المختبر إلى غرفة الجلوس.

ولا يفتح حاسوبه أثناء حديثهما.

ولا يسمح للكون، بكل اتساعه، بأن يسرق منه تلك الساعات الصغيرة.

كان يصغي إلى حكايات مايا عن مدرستها وأصدقائها وأحلامها بنفس الانتباه الذي يمنحه لبيانات القياس عن بُعد. يسألها، يتذكر التفاصيل التي قالتها له قبل أيام، ويضحك من القصص التي ربما لا تعني شيئاً لأحد سواه.

أما ضحكة ماريانا، فكانت تمتلك تأثيراً آخر.

كان يكفي أن يسمعها من الغرفة المجاورة حتى يشعر بأن شيئاً ثقیلاً ينزاح عن صدره.

ضحكة واحدة منها كانت قادرة على إذابة إرهاب أسبوع كامل أمضاه في العمل سبعين ساعة، وعلى تذكيره بأن الحياة ليست كلها أرقامًا ومعادلات ومشاريع سرية.

كان يعرف، أكثر من أي شخص آخر، هشاشة هذا النوع من السعادة.

فالكون الذي أمضى عمره في دراسته لم يكن يبالي بأحد. النجوم لا تعرف أسماءنا، والمجرات لا تكترث بأحزاننا، والزمن يمضي فوق الجميع بالبرودة نفسها.

وربما لهذا السبب تحديداً كان حب ماريانا ومايا بالنسبة إليه أغلى من أي اكتشاف

علمي. لأنهما كانتا الشيء الوحيد في حياته الذي لم يحتج إلى معادلة كي يثبت وجوده.

معهما كان كلاوس يستعيد نفسه.

كانتا ملاذه حين يصبح العالم أكبر من احتماله، والدفء الذي يعود إليه كلما أغرقه عقله في برد المجهول.

وفي اللحظات التي كان يرفع فيها عينيه عن السماء ليالتفت إليهما، كان يدرك حقيقة بسيطة لم تستطع كل سنوات العلم أن تمنحه مثلها:

قد يقضي الإنسان حياته كلها في محاولة لفهم الكون...

لكن بعض الأشياء الجميلة لا تحتاج إلى أن تفهم.

يكفي أن تُحب.

في الآونة الأخيرة، بدأت أبحاث كلاوس حول فقاعة الاغوجاج تدخل مرحلة لم يعد معها المشروع مجرد تمرين نظري على حدود الفيزياء، بل صار يقترب، للمرة الأولى، من شيء يمكن أن تلامسه اليد وتبنيه الآلة.

كانت النتائج تتوالى بوتيرة أثارت دهشة حتى أكثر العلماء تحفظًا. فالفكرة التي ظلت طويلًا حبيسة المعادلات والنماذج الرياضية بدأت تخرج تدريجيًا من عالم الاحتمال إلى مشارف التطبيق؛ وأصبح السفر لمسافات هائلة عبر الزمكان احتمالًا علميًا، لا مجرد حلم من أحلام الخيال العلمي.

لكن الطريق إلى تلك اللحظة لم يكن سهلًا.

فكلما فتح كلاوس بابًا، وجد خلفه بابًا آخر أكثر صعوبة.

وكانت العقبات التي تعترض طريقه كافية، في نظر كثير من العلماء، لإعلان أن محرك ألكوبيير ليس أكثر من بناء رياضي جميل يستحيل تحويله إلى آلة حقيقية.

إلا أن كلاوس لم يكن يرى في أي معضلة نهاية الطريق.

كان يراها سؤالًا لم يجد جوابه بعد.

وكانت أولى تلك الأسئلة، وأخطرها على الإطلاق، هي مشكلة الطاقة السلبية.

فبحسب النماذج التقليدية، فقاعة الاوجاج تحتاج إلى كمية هائلة من الطاقة السلبية كي تتشكل وتبقى مستقرة؛ كمية تقترب، في بعض الحسابات، من كتلة كوكب المشتري نفسه.

كان ذلك الرقم وحده كافيًا لإغلاق المشروع.

فحتى لو افترضنا وجود وسيلة لاستخراج هذه الطاقة، فإن توفيرها بالمقادير المطلوبة كان خارج حدود الإمكانيات البشرية.

لكن كلاوس لم يقتنع بأن الرقم يمثل حقيقة نهائية. عاد إلى المعادلات.

ثم عاد إليها مرة أخرى.

بدأ يفكك النموذج من الداخل، ويعيد النظر في الطريقة التي تنتزع بها الطاقة داخل الفقاعة، وفي شكل المقياس الجاذبي، وفي سماكة الجدران التي تفصل المركبة عن الزمكان المحيط بها.

وبعد أشهر من العمل، ظهرت أمامه الثغرة التي كان يبحث عنها. أعاد هندسة المقياس الجاذبي للفقاعة، وعدّل بنية جدران الزمكان المنطوي بحيث تصبح أكثر كفاءة في احتواء التشوه المطلوب.

بدا التعديل صغيرًا على الورق.

لكن نتائجه لم تكن صغيرة على الإطلاق.

انهارت متطلبات الطاقة السلبية بصورة هائلة. وما كان يتطلب، في الحسابات السابقة، كتلة تقارب حجم كوكب عملاق، أصبح في النموذج الجديد يحتاج إلى كمية لا تتجاوز بضع مئات من الكيلوغرامات.

لم تصبح الفكرة سهلة.

ولم تصبح آمنة.

لكنها، للمرة الأولى، أصبحت شيئًا يمكن للإنسان أن يتخيل بناءه.

وكان ذلك وحده إنجازًا يكفي لتغيير تاريخ المشروع.

غير أن الكون لم يكن قد فرغ بعد من اختباراتِه.

فظهرت العقبة الثانية.

### الإشعاع القاتل.

فكلما تحركت الفقاعة عبر الفضاء بسرعات هائلة، أظهرت الحسابات احتمال تراكم جسيمات عالية الطاقة على جدارها الأمامي. وكانت المشكلة لا تكمن في وجود هذه الجسيمات فحسب، بل فيما يمكن أن يحدث لها عند تباطؤ الفقاعة. عندها قد تتحرر الطاقة المتراكمة بصورة عنيفة، فتتحول مقدمة الفقاعة إلى ما يشبه قنبلة إشعاعية، قادرة على تدمير المركبة ومن بداخلها في لحظات.

وكان الحل، في هذه المرة، يحتاج إلى أكثر من تعديل في معادلة.

كان يحتاج إلى طريقة تجعل الفقاعة قادرة على التخلص من الخطر وهي في طريقها.

وهنا ظهر ابتكار كلاوس الثاني:

### «الترشيح الجاذبي المتذبذب».

صمم كلاوس مجالاً ديناميكياً يتغير باستمرار داخل جدار الفقاعة، بحيث يسمح بظهور ثغرات ميكروية مؤقتة في نسيج الزمكان الملتف.

لم تكن تلك الثغرات ثقوباً عشوائية، بل ممرات محسوبة بدقة؛ تفتح لزمن بالغ القصر، تسمح للجسيمات عالية الطاقة بالتسرب إلى الفضاء الخارجي قبل أن تصل إلى نقطة الخطر، ثم تنغلق من جديد.

لكن المفاجأة لم تكن في حل تلك المشكلة فحسب.

فالثغرات نفسها أمكن استخدامها لتمرير إشارات كمومية مشفرة بين المركبة والمنظومة التي تتحكم في الفقاعة.

وهكذا لم تعد الفقاعة مجرد مجال يحمل المركبة.

أصبحت قابلة للتحكم.

يمكن توجيهها، وضبط مسارها، وتعديل خصائصها، ثم إخمادها تدريجياً عند الوصول إلى وجهتها، بدل تركها تنهار بصورة عشوائية.

كل مشكلة بدت في البداية وكأنها جدار نهائي، تحولت بين يدي كلاوس إلى باب جديد.

ومع كل باب يُفتح، كان المشروع يبتعد خطوة أخرى عن الخيال ويقترب من الواقع.

وبدأت الأخبار تتسرب، أولاً داخل الوكالة، ثم إلى الدوائر العلمية الدولية.

في أروقة ناسا، تغيرت نبرة الأحاديث.

الوجوم الذي كان يخيم على اجتماعات الفيزياء النظرية بدأ يتحول إلى نقاشات حماسية، ثم إلى دهشة، ثم إلى تصفيق لم يعد أحد يحاول إخفاءه.

لم تعد أعمال كلاوس مجرد محاولة لإنقاذ فكرة مستحيلة. لقد بدأت تبدو كأنها إعادة كتابة لشروط اللعبة نفسها.

وبين العلماء الكبار، بدأ اسم كلاوس غوتنبرغ يتردد بطريقة مختلفة. لم يعد الرجل غريب الأطوار الذي يطارد حلمًا أكبر من قدرة عصره. صار، في نظر كثيرين، العالم الذي ربما يقف على عتبة اكتشاف سيغيّر فهم البشر للفضاء والزمن.

بدأ زملاؤه يتحدثون عن جائزة نوبل.

في البداية، كان الأمر مجرد همس بين الباحثين.

ثم تحول الهمس إلى توقع.

ثم أصبح بعضهم يتحدث عنه بثقة تكاد لا تحتل الشك.

لكن كلاوس لم يكن يهتم.

فبينما كان الآخرون يرون في أبحاثه طريقًا إلى الشهرة، كان هو يرى شيئًا مختلفًا تمامًا.

كان يرى بابًا.

بابًا ظل مغلقًا أمام البشرية منذ أن رفعت عينيها الأولى إلى السماء. وإذا نجح في فتحه، فلن تكون الجائزة هي أعظم ما حققه. لأن ما كان ينتظره خلف ذلك الباب لم يكن ميدالية، ولا لقبًا، ولا حتى مجداً علمياً.

كان النجوم.

وللمرة الأولى في تاريخ الإنسان، بدا أن المسافة التي تفصل الأرض عنها قد لا تكون قدرًا أبدياً.

بل مجرد قيد...

وقد بدأ أحدهم للتو في البحث عن مفتاحه.

في أعماق المجمع عالي التحصين التابع لوكالة ناسا، خلف أبواب لا تُفتح إلا بعد سلسلة من إجراءات الأمان الصارمة، كان يقبع مختبر البروفيسور كلاوس. لم يكن المختبر مجرد غرفة للأبحاث.

كان عالمًا قائمًا بذاته؛ مكانًا يبدو وكأن العلم فيه قد تحرر من الأوراق وانتقل إلى الجدران والأجهزة والضوء.

جدرانه مصنوعة من ألواح الكربون العازلة للصوت، ينعكس عليها الوهج الأزرق البارد للشاشات الرقمية، بينما صفوف الأجهزة والمستشعرات الكمومية تنتشر في الجوانب كأعضاء دقيقة داخل جسد إلكتروني هائل. تصدر عنها دندنة منخفضة، بالكاد تُسمع، لكنها لا تتوقف؛ نبضٌ إلكتروني ثابت يوحي بأن شيئًا ما في هذا المكان يعمل على مدار الساعة.

وعلى الطاولات المعدنية الطويلة، كان عالم المستقبل يتجاور بصورة غريبة مع عالم الماضي.

إلى جانب أحدث الحواسيب الفائقة، كانت تستلقي أوراق كثيرة امتلأت بخط كلاوس اليدوي؛ معادلات، وملاحظات، وأسهم، وأشكال هندسية، وتصحيحات كتب بعضها فوق بعض، حتى بدت الأوراق أحيانًا كأنها ساحات معارك صغيرة خاض فيها الرجل حروبه الخاصة مع قوانين الكون.

وفي الهواء كانت تختلط رائحة الأوزون المنبعثة من المولدات برائحة القهوة المركزة، فتمنح المكان طابعًا فريدًا؛ مزيجًا بين مختبر متطور وفوضى عبقرية لا يمكن إخضاعها بالكامل للنظام.

كان كل شيء هنا منظمًا بدقة.

ومع ذلك، كان هناك دائمًا شيء خارج عن النظام.

وربما كان ذلك الشيء هو كلاوس نفسه.

فلم يكن يدير هذه الإمبراطورية العلمية بمفرده.

إلى جانبه كان هناك شخصان اختارهما بنفسه من بين آلاف الخريجين، بعد أن رأى فيهما ما هو أبعد من التفوق الأكاديمي: القدرة على التفكير حين تتوقف القواعد عن تقديم الإجابات.

كانت ناتاشا ذراعه الأولى.

متخصصة في البرمجة الكمومية والمحاكاة الفلكية، شابة ذات ملامح حادة ونظرات حذرة، تستقر خلف عينيها يقظة ذهنية لا تهدأ. كانت تقضي معظم ساعات عملها أمام صف من الشاشات، وأصابعها تتحرك فوق لوحات التحكم بسرعة ودقة، كأنها تعزف على آلة موسيقية لا يسمع ألعانها أحد.

لم تكن كثيرة الكلام.

وكان صمتها جزءًا من شخصيتها بقدر ما كان جزءًا من عملها.

لا تتدخل في النقاش إلا عندما تجد أن الأرقام تستحق أن تتحدث، وحين تفعل، كانت جملها قصيرة وحاسمة، كأنها لا ترى فائدة في إضاعة الكلمات حيث تستطيع معادلة واحدة أن تحسم الأمر.

وعلى الطرف الآخر من المختبر، نجد هوغو، النقيض الكامل لها.

مهندس الدفع والجسيمات الغريبة، شاب ممتلئ بالحيوية والاندفاع، لا يبدو قادرًا على البقاء ساكنًا أكثر من دقائق قليلة. ينتقل بين الأجهزة باستمرار، يتفقد قراءات الطاقة، يفتح لوحات التحكم، يعود إلى شاشة أخرى، ثم يظهر فجأة بجوار كلاوس حاملاً سؤالاً جديدًا.

يرتدي على الدوام معطف المختبر الأبيض الذي لم يبدُ أبيض تمامًا في أي يوم. بقع غامضة هنا وهناك، وآثار احتراق صغيرة في مواضع مختلفة، وبقايا مواد لم يكن أحد يعرف كيف وصلت إلى أكماله.

لم يكن هوغو يعرف الهدوء بالطريقة التي تعرفه بها ناتاشا.

كان يحب الجدل.

بل كان يستمتع به.

وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بكلاوس.

كان يمسك قلمه دائمًا ويدوره بين أصابعه بينما يفكر، ثم يرفع رأسه فجأة ليعترض

على فكرة أو يقترح تعديلاً أو يسأل سؤالاً يجعل كلاوس يترك ما في يده وينظر إليه طويلاً.

وكانت تلك اللحظات، في العادة، تعني أن نقاشاً جديداً قد بدأ.

وهكذا كان المختبر يعمل.

ناتاشا تمنح المشروع دقة الحساب.

وهوغو يمنحه جرأة التجربة.

أما كلاوس، فكان يقف في المنتصف، يجمع الاثنين كما يجمع العقل بين الحذر والجنون، بين المعادلة والاحتمال، بين ما يعرفه العلم... وما لم يجرؤ أحد بعد على تجربته.

وفي قلب المختبر، حيث تتقاطع الحسابات مع الخيال، كانت تقف التحفة البصرية التي تجسد خلاصة أحلامهم جميعاً: **مجسمات ميكانيكية دقيقة تحاكي مشروع فقاعة الاعوجاج.**

ففي منتصف الطاولة الرئيسية، استقرت مركبة فضائية صغيرة، انسيابية ومغزلية الشكل، مصنوعة من التيتانيوم المطفأ، سوداء بشدة حتى يخيل للناظر بأنها قطعة من سماء الليل، ومعلقة في سكون كامل. تحيط بالمركبة حلقتان معدنيتان ضخمتان ومتداخلتان، تدوران حولها في مسارات متشابكة ومحسوبة بدقة مذهلة، وكأنهما تمسكان بالمركبة من جهتين غير مرئيتين.

لم تكن الحلقتان مجرد جزء من مجسم هندسي؛ كانتا نموذجاً مصغراً لهندسة المولدات التي يفترض أن تقوم بالمهمة الأكثر جرأة في تاريخ المشروع: **حفر الزمكان نفسه، ثم إعادة تشكيله حول المركبة.**

لكن المجسم الميكانيكي لم يكن سوى بداية المشهد.

فوق الطاولة وحولها، نجد أنظمة المحاكاة الحاسوبية والهولوجرافية. فمن كشافات مخفية في السقف، تنطلق حزم ضوئية ثلاثية الأبعاد تلتف حول المركبة وتنساب فوقها، حتى تشكل فقاعة الاعوجاج كما لو أنها موجودة فعلاً أمام أعين الناظرين. ومن حولها يظهر نسيج الزمكان في صورة شبكة هائلة من الخطوط الضوئية المتوهجة. أمام مقدمة المركبة، تنضغط الخطوط وتتقارب حتى تكاد تتلاشى من



شدة كثافتها، مشعة بلون أزرق نابض، في محاكاة لتقلص الفضاء. أما خلفها، فكانت الشبكة تنفتح تدريجيًا، وتتباعد خطوطها بعضها عن بعض، متوهجة بلون أحمر دافئ، وكأن الفضاء نفسه يتمدد خلف المركبة ليترك لها الطريق.

وفي طبقات أخرى من الهولوجرام، تظهر تدفقات الطاقة السلبية ومستويات الإشعاع والضغط الجاذبي.

وكلما غير كلاوس رقمًا واحدًا، أو عدّل أحد مساعديه قيمة في النظام، استجابت الفقاعة فورًا.

تنكمش.

تتمدد.

تلتف.

ثم تعود إلى الاتزان.

حتى تبدو أحيانًا وكأنها كائن حي ضخم يتنفس ببطء في الفراغ، لا مجرد

معادلة فيزيائية تحولت إلى ضوء.

كان المشهد ساحرًا إلى درجة يصعب معها تذكر أن ما تراه ليس نافذة إلى المستقبل، بل مجرد محاكاة له.

في ذلك اليوم، لم يدم السحر طويلًا.

فجأة، تبدل شيء في قلب المحاكاة.

توقفت إحدى الشبكات الضوئية عن الانتظام، ثم ارتجفت خطوطها للحظة قبل أن تتحول تدريجيًا من الأزرق إلى الأحمر.

ظهر اللون الأحمر في أكثر من موضع.

ثم امتد، وكأنه عروق ساخنة أخذت تنتشر داخل جسد الفقاعة.

ساد المختبر صمت قصير.

لم يعد الهولوجرام يبدو ككائن حي يتنفس، بل كشيء بدأ يختنق.

كان البروفيسور كلاوس واقفاً في منتصف المختبر، مشبكاً يديه خلف ظهره بهدوء المعتاد، لا يرفّ له جفن، وقد انعكس الضوء الأحمر على وجهه، بينما ظلت عيناه الزرقاوان، الباردتان كجليد القطبين، معلقتين على شبكة الزمكان الهولوجرافية. وخلفه، كانت أصابع ناتاشا تتحرك بسرعة فوق لوحة التحكم الكمومية. ثم توقفت.

توقفت فجأة، وكأنها اصطدمت بجدار غير مرئي. رفعت رأسها عن الشاشات، واستدارت نحوه ببطء. كانت نظرتها الحادة قد فقدت هدوءها المعتاد، وقالت بنبرة يسكنها القلق:

- بروفيسور، نحن نصطدم بجدار آخر لا يقل ضراوة عن العقبات التي سبقته في المشروع وفق تنبؤات برنامج المحاكاة بالذكاء الاصطناعي.
- ما المشكلة ناتاشا؟!
- ظهرت لدينا مشكلة في السببية وحفظ خطوط الزمن. فطبقاً لنسبية أينشتاين، إن تحريك هذه الفقاعة بسرعة تتجاوز سرعة الضوء ظاهرياً يعني رياضياً القدرة على إرسال إشارات نحو الماضي، مما يخلق مفارقات زمنية كارثية قد تمزق نسيج الواقع. كيف يمكننا إقناع المجتمع العلمي بأننا لن نتسبب في انهيار السببية الكونية؟

التفت كلاوس إليها ببطء، وابتسامة هادئة غامضة ترسم على شفتيه، وقال بصوته الرخيم:

- سؤال جوهري يا ناتاشا، لكن الكون يحمي نفسه بطرق لا نتوقعها.
- لم أفهم !
- الحل لا يكمن في إلغاء النسبية، بل في تبني 'فرضية الرقابة الكونية الكمومية'. قومي بدمج مقياس الزمكان في الفقاعة مع 'تأثير كازيمير الديناميكي'. هكذا عندما تبدأ الفقاعة في التشكل، ينشأ غشاء عازل من التموجات الكمومية حولها يعمل كحاجز أحادي الاتجاه للمعلومات؛ هذا يعني أن الفقاعة تصبح 'جيباً زمكياً معزولاً' عن التدفق الخارجي للوقت. ويمكنها الانتقال من النقطة ألف إلى النقطة باء دون أن تملك أي وسيلة للتأثير على الأحداث الماضية للمسار الخارجي.
- تقصد ألا نقوم بكسر السببية، بل نلثف حولها في ممر كمومي مغلق.

- بالضبط. جربي هذا الحل.

كان هوغو يصغي إليهما بتركيز وهو يدور قلمه بتسارع رهيب بين أصابعه، ثم تقدم خطوة نحو الطاولة المعدنية وهو يشير إلى المجسم المغزلي للمركبة، وقال بنبرة ملؤها التحدي:

- حسناً يا بروفيسور، هذا حل عبثي لمشكلة الزمن. ولكن ماذا عن مشكلة الاستقرار الهيكلي والتموجات التكتونية للزمكان؟ حساباتنا الأخيرة تشير إلى أن أي قلب ضئيل في مستويات الطاقة السلبية، ولو بمقدار جزء من المليار من الميكروثانية، سيؤدي إلى انهيار الفقاعة على نفسها على الفور، مما ينجم عنه موجة صدمة جاذبية تسحق المركبة ومن فيها في لمح البصر وتفتتها إلى ذرات. كيف

سنحافظ على استقرار فقاعة بهذا الحجم في فضاء ديناميكي متقلب؟ أراح كلاوس نظارته برفق نحو أرنبه أنفه، ونظر إلى هوغو من فوق إطارها بحدة المعلم الواصل، ثم قال بهدوء:

- الحل بسيط يا هوغو ..

- كيف ؟

- الحل ليس في إجبار الطاقة على الثبات المطلق، فالفضاء لا يعرف الثبات البنيوي. الحل يكمن في "المرونة الجاذبية الذاتية". لقد صممت خوارزمية التغذية الراجعة للمولدات لتعمل بنظام "التحكم بالتهجين الكمومي المستمر". بدلاً من محاربة التقلبات، ستقوم الحلقات المعدنية المتداخلة للمركبة بامتصاص هذه التموجات الجاذبية وإعادة توجيهها ديناميكياً لتعديل هندسة الفقاعة في جزء من الفيمتوثانية. الفقاعة لن تكون درعاً صلباً ينكسر، بل ستصبح كفقاعة صابون فائقة المرونة، تتمدد وتنكمش مع أمواج الفضاء دون أن تفقد تماسكها أو تسحق قلبها النابض.

ساد صمت عميق في أرجاء المختبر، وتلاشت خطوط الاضطراب الحمراء في الهولوغرام عقب تعديلات ناتاشا كما أوصاها البروفيسور، لتعود الشبكة الضوئية الزرقاء إلى تدفقها المتناغم والأمن حول المركبة الفضائية، وكأن الزمكان نفسه قد انصاع أخيراً لمنطق البروفيسور. نظرت ناتاشا إلى هوغو، وارتسمت على وجهيهما علامات الذهول الممزوج بالاحترام الخالص أمام هذه الحلول الخلاقة التي تذلل المستحيل ويجعلها البروفيسور بنبرته الهادئة والواثقة بسيطة وبديهية.

وهكذا كانت تمضي أيام البروفيسور داخل محرابه العلمي على إيقاع لا يعرف السكون؛ صباحات تتشابه في طولها، لكنها لا تتشابه أبدًا فيما تخبئه من مفاجآت. كان يدخل مختبره كل يوم وكأنه يدخل معركة جديدة، دون أن يعرف أي قانون من قوانين الطبيعة سيكون في انتظاره هذه المرة.

مرة، كانت المشكلة في استقرار الحقول الكمومية.

ومرة أخرى، كان سلوك المادة الغريبة عند تخوم الفراغ ينحرف عن كل ما تقوله الحسابات.

وأحيانًا كانت الأرقام نفسها تبدو وكأنها تتآمر عليه؛ نتيجة صحيحة في ظاهرها، تقود إلى استنتاج مستحيل، أو معادلة متماسكة حتى السطر الأخير، ثم تنهار عند نقطة واحدة كجسرٍ بدا صلبًا حتى وطئت عليه أول خطوة.

كانت العقبات تتراكم أمام مشروع «فقاعة الاعوجاج» كجبال من الجليد الصلب؛ كلما أزاحوا واحدًا، ظهر خلفه جبل آخر أكثر تعقيدًا. وكان يكفي خطأ صغير في الحسابات كي يتحول الحلم كله من مشروع ثوري إلى وهم جميل لا يمكنه مغادرة الورق.

لكن كلاوس لم يكن يعرف التراجع.

كان يواجه الأزمات بهدوء يكاد يكون غريبًا، هدوء رجل اعتاد أن يرى المستحيل لا كجدار، بل كسؤال لم يجد إجابته بعد.

كان يقف أمام الشاشات المضطربة، يقرأ الأرقام والرسوم البيانية دون استعجال، ثم يبدأ عمله الحقيقي.

يفكك المشكلة.

يفصل عناصرها.

يعود إلى أصل المعادلة.

ثم يسأل السؤال الذي قد لا يخطر ببال أحد سواه:

أين افترضنا أن الطبيعة يجب أن تتصرف بالطريقة التي نريدها؟

ومن هناك يبدأ.

كان يحول العضلات الهائلة إلى تفاصيل صغيرة يمكن الإمساك بها، ثم يعيد تركيبها من جديد، قطعة بعد أخرى. لا يطارِد الحل بعصبية، ولا يسمح لفشل تجربة أن يتحول إلى هزيمة شخصية. بالنسبة إليه، كان الفشل مجرد إشارة أخرى ترسم حدود المنطقة التي لم يصل إليها العلم بعد.

وكانت ناتاشا وهوجو يرافقانه في تلك الرحلة.

ناتاشا تراقب الأرقام بصبرها البارد، وتلتقط الانحرافات التي قد لا تراها عين أخرى، بينما هوجو يقفز بين الأجهزة والتجارب، يطرح الأسئلة الجريئة التي تفتح أحيانًا أبوابًا لم تكن موجودة في الخطة الأصلية.

ومع مرور الساعات، كان المختبر يتحول تدريجيًا من مكان للعمل إلى عالم منفصل عن الزمن.

تخفت أصوات الممرات.

تقل حركة العاملين في الخارج.

وتبقى شاشات المختبر وحدها مضيئة في العتمة، تلقي ضوءها الأزرق على الوجوه الثلاثة المنحنية فوق الحسابات.

ثم، في لحظة ما، يحدث شيء.

تتغير قيمة.

تستقيم معادلة.

يختفي الخط الأحمر من الشاشة.

وتظهر أمامهم نتيجة لم تكن موجودة قبل ساعات.

كان كلاوس يرفع رأسه عندها، ينظر إلى الشاشة لحظات، ثم تظهر على وجهه ابتسامة صغيرة، بالكاد تُرى.

لم يكن الأمر انتصارًا كبيرًا.

ليس بعد.

لكنه كان خطوة.

وهكذا، في نهاية كل يوم، كانوا يتركون خلفهم عقبة واحدة على الأقل.

خطوة صغيرة.

ثم خطوة أخرى.

ثم أخرى.

حتى بدأ الحلم، الذي ظل سنوات طويلة حبيس المعادلات والدفاتر، يتحرك ببطء نحو العالم الحقيقي.

وكان كلاوس يعرف أن الطريق ما زال طويلاً، وأن أمامهم جبلاً من المشكلات التي لم تظهر بعد.

لكنه كان يؤمن بشيء واحد:

أن أعظم الاختراقات في تاريخ العلم لا تبدأ عندما يكتشف الإنسان الإجابة، بل عندما يرفض أن يقتنع بأن السؤال مستحيل.

ولهذا كان يعود كل صباح إلى المختبر.

ليحاول مرة أخرى.

# الفصل الثالث

## الزمن الحكي

خلف الجدران الصامتة لأحد أضخم استوديوهات التصوير المغلقة عند أطراف مدينة مانشستر، كان عالم آخر يُخلق في تلك اللحظة؛ عالم لا وجود له خارج حدود الديكور، ولا قوانين له سوى تلك التي يفرضها الخيال.

في الداخل، اختفت الحدود بين الواقع والوهم. دقات الضوء الفضي المنبعثة من المصابيح العملاقة تشق عتمة الاستوديو لتسقط على سحب الدخان الكثيف الزاحفة ببطء فوق الأرض، فتمنح المكان هيئة كوكب مهجور لم تطأه قدم بشرية من قبل. وعلى امتداد المساحة الشاسعة، تشابكت أسلاك الكاميرات الضخمة كجذور سوداء، بينما ارتفعت فوقها أذرع الرافعات الميكانيكية، تتحرك في صمت وانسيابية وهي تحمل الكاميرات بعيونها الزجاجية الثقيلة من زاوية إلى أخرى.

حتى الأرض نفسها لم تكن أرضاً حقيقية.

كانت مغطاة بطبقة من الغبار الناعم، صُنعت بعناية لتبدو كأنها تربة عالم غريب أنهكت العزلة وتركته الرياح لمصيره. وكلما تحرك أحد أفراد الطاقم فوقها، ارتفعت ذرات دقيقة في الهواء قبل أن تختفي داخل الضباب، وكأن المكان يتنفس.

اختلطت في الجو رائحة الضباب الاصطناعي بحرارة الأجهزة الإلكترونية التي عملت بلا انقطاع، وتسالت بينهما رائحة القهوة الساخنة. كانت القهوة، بالنسبة إلى أولئك الذين قضوا ساعات طويلة تحت أضواء الاستوديو، أشبه بآخر خيط يربطهم باليقظة؛ جرعة صغيرة تؤجل إرهاق الليل وتسمح للخيال بأن يواصل عمله.

وفي قلب تلك الفوضى المنظمة، كان يجري تصوير المشهد الأخير من فيلم الخيال العلمي «فوتون».

المشهد الذي ستُغلق به الحكاية.

والمشهد الذي اختار فيه الفيلم أن يترك جمهوره أمام أكثر مخاوفه بدائية: ماذا يحدث عندما يصنع الإنسان شيئاً يفوقه ذكاءً، ثم يكتشف أن ما منحه العقل قد يقرر يوماً أن يتمرد عليه ويستخدمه ضده؟

على منصة مرتفعة في الطرف الآخر من الاستوديو، وقف الممثل القدير خوليو.

كان يؤدي دور العالم الذي ابتكر الروبوت، الرجل الذي وضع بين يديه أول شرارة من الوعي الاصطناعي، ثم وجد نفسه الآن عاجزاً أمام مخلوق صنعه بيديه.

تجمد جسده في مكانه.



الخوف في عينيه لم يكن خوف رجل يواجه آلة فحسب؛ كان خوف الأب الذي يرى ابنه ينقلب عليه، وخوف المبتكر حين يكتشف أن أدواته وجهت ضده. أمامه وقف الروبوت.

ساكنًا.

باردًا.

لا يحمل في ملامحه شيئًا يمكن أن يُسمى غضبًا أو رحمة أو ترددًا.

وبين الاثنين، كان الصمت أكثر بلاغة من أي حوار.

خلف الكاميرات، بعيدًا عن العالم الذي يجري تمثيله أمام العدسات، جلست كاتبة الفيلم ومخرجته، كريستينا مير.

كانت في أواخر الأربعينيات، لكنها تحمل من الحيوية ما يجعل عمرها يبدو مجرد رقم لا علاقة له بها. شعرها الداكن مرفوع إلى أعلى بعجالة، في تسريحة عملية لا تحتمل التألق ولا تعترف به؛ تسريحة امرأة اعتادت أن يكون لديها من الوقت ما يكفي لاتخاذ القرار، لا ما يكفي للوقوف أمام المرأة.

استقرت سماعات الرأس حول عنقها كقلادة حديثة، بينما أصابعها تتحرك أحيانًا فوق لوحة التحكم، ثم تتوقف فجأة.

لم تكن تراقب المشهد فحسب.

كانت تلتهمه بعينيها.

عينها العسليتان معلقتان بشاشات المراقبة أمامها، تتابعان كل تفصيل: زاوية الكاميرا، حركة الممثل، الضوء، الظلال، المسافة بين الروبوت والعالم.

كان تركيزها حادًا إلى درجة جعلتها تبدو كصقر يحوم فوق فريسته، ينتظر اللحظة التي لا يجوز أن يخطئ فيها.

رفعت يدها قليلًا فتوقفت حركة الرافعة.

ساد الاستوديو صمت مفاجئ. حتى خوليو، فوق المنصة، بقي ساكنًا في مكانه، محنفظًا بالخوف على وجهه.

نظرت كريستينا إلى الشاشة مرة أخرى. كان كل شيء في مكانه.

الضوء.

الدخان.

الروبوت.

العالم.

واللحظة التي ستفصل بين الحياة والموت.

تسلل صوتها عبر الميكروفون الداخلي، هادئاً كأنه همس لكنه يحمل حسم قائد الأوركسترا:

- انتبهوا جميعاً.. المصور الرئيسي، أريد كادر الكاميرا الثانية أكثر قرباً من الملامح عند لحظة الحركة الأخيرة. الممثلون.. تذكروا أن هذه اللحظة هي ذروة العمل الفني بأكمله. أريد صمتاً يسبق الكارثة. جاهزون؟ 1..2..3.. أكشن!



حبس الجميع أنفاسهم.

حتى أولئك الذين اعتادوا الوقوف خلف الكاميرات ومشاهدة الموت يُصنع أمامهم مرة بعد أخرى، ظلوا في تلك اللحظة أسرى للمشهد. فنيو الإضاءة توقفوا عن الحركة، ومهندسو الصوت انحنوا فوق أجهزتهم، أما العمال فتسمروا في أماكنهم،

كان أحدًا حوّلهم إلى تماثيل حجرية لا يجروُ أحد منها على أن يتنفس.  
وحدها الكاميرات كانت تتحرك.

انسابت العدسات على مساراتها بسلاسة تكاد تخلو من الإحساس البشري، بينما غمر الضوء الأزرق المكان، محوّلًا أرضية الاستوديو إلى فضاء غريب أشبه بعالم آخر. وفي قلب ذلك الضوء البارد، دار الحوار الأخير بين العالم وروبوته؛ كلمات قليلة، لكنها كانت تحمل ثقل الخيانة كلها.

لم يكن العالم يتحدث إلى آلة فحسب، بل كان يتحدث إلى الشيء الذي صنعه بيديه، ومنحه عقله، ثم اكتشف متأخرًا أنه لم يعد يملك القدرة على إيقافه.  
كانت كريستينا تتابع كل شيء.

لم تطرف عيناها تقريبًا. جسدها يميل مع حركة الكاميرا، ورأسها يتحرك بقدر ضئيل مع انتقال اللقطة، حتى بدا كأنها لم تعد تجلس خلف الشاشات، بل انتقلت إلى داخل الكادر نفسه، تعيش اللحظة مع شخصياتها لحظة بلحظة.  
ثم جاءت النهاية.

سكنت الكاميرا.

سكن الروبوت.

وسكنت ملامح العالم في لحظته الأخيرة.

انطفأ الضوء في عيني الممثل.

وبقيت الشاشة للحظة غارقة في الصمت.

أخذت كريستينا نفسًا عميقًا، كأنها هي أيضًا كانت تحبس أنفاسها طوال المشهد. ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة رضا دافئة؛ ابتسامة امرأة رأت أخيرًا الصورة التي ظلت تطاردها في خيالها طوال أسابيع، وها هي الآن أمامها مكتملة.

رفعت رأسها عن الشاشة، وصدح صوتها الرنان مخترقًا السكون:

- قطع! انتهى التصوير!

وفي اللحظة نفسها، انهار الصمت.

كان سداً هائلاً انكسر دفعة واحدة.

انفجر الاستوديو بالتصفيق والصيحات والضحكات، وتعالّت أصوات الفرح من كل جانب. تعانق المصورون وفنيو الإضاءة والصوت والعمال، وضحك بعضهم كالأطفال بعد أسابيع طويلة من السهر والإرهاق والعمل المتواصل تحت قبضة مخرجتهم الصارمة.

لقد انتهى الأمر.

لم تعد هناك لقطة أخرى.

ولا إعادة.

ولا ملاحظات جديدة.

لقد انتهى الفيلم.

اندفع أفراد الطاقم والممثلون نحو كريستينا من كل صوب، وكأنهم كانوا ينتظرون منذ زمن تلك اللحظة تحديداً. ظهرت باقات الزهور الملونة من بين الأيدي، وتبعتها قوالب الحلوى التي أعدت سرّاً لتكون مفاجأة النهاية. أحاطوا بها وهم يهنئونها، ويشيدون بالفيلم الجديد الذي كانوا يؤمنون بأنه سيكون عملاً ملحمياً آخر يضاف إلى سلسلة نجاحاتها، وربما يهز شباك التذاكر كما اعتادت أفلامها أن تفعل.

كانت كريستينا تضحك وسط الزحام. تصافح هذا، وتعانق ذاك، وتشكر الجميع بعفوية لم تكن تشبه صرامتها أثناء التصوير. وهي تراجع بعينيها لمرة أخيرة اللقطة الختامية للفلم على شاشتها الصغيرة.

عادت كريستينا، مع أنفاس الليل الأخيرة، إلى شقتها التي كانت تلجأ إليها كلما أغلقت أبواب الاستوديو خلفها. تناولت عشاءً خفيفاً على عجل، كعادتها حين ينقل رأسها بالأفكار، ثم انسحبت إلى الحمام وتركت للماء الدافئ مهمة انتزاع ما تبقى من إرهاق ذلك اليوم الطويل.

وحين انتهت، وقفت أمام المرأة.

لم تكن تنظر إلى امرأة انتهت لتوها من تصوير فيلم، بل إلى امرأة انتهت لتوها من ولادة شيء ظل ينمو في داخلها شهوراً طويلة.

تأملت انعكاسها للحظات، ثم ارتسمت على شفيتها ابتسامة رقيقة، كأنها تربت على كتف نفسها في صمت وتقول لها : أحسنت... لقد أبصر النور أخيرًا.

بدا وجه كريستينا، في ضوء الحمام الهادئ وكأنه لقطة لم تجد طريقها إلى أحد أفلامها. ففي ملامحه يسكن ذلك التناقض الغريب الذي طالما أحبته في شخصياتها؛ رقة لا تلغي القوة، وقوة لا تقتل الرقة.

ذقنها المنحوت بدقة يمنح وجهها مسحة من الحسم والصلابة، فيما شعرها البني الفاتح ينساب بعفوية فوق كتفها، تتخلله خصل شقراء متمردة أفلتت من ترتيبها واستقرت على جبهتها العريضة. وفوق عينيها ارتسم حاجبان مقوسان في رقة، يشبهان هلالين صغيرين، بينما عيناها العسليتان تحتفظان بذلك البريق الحاد الذي يصعب معه معرفة ما إذا كانت تنظر إلى الأشياء أم تفككها.

كانت ذكية إلى الحد الذي يجعل نظرتها أحيانًا تبدو كأنها تسبق السؤال قبل أن يُطرح.

ولم تكن بشرتها الحنطية قد خرجت من سنوات العمل الشاق كما دخلتها. فقد تركت ليالي المونتاج الطويلة، وساعات التصوير التي لا تنتهي، أثرًا خفيفًا من الشحوب على وجهها؛ شحوبًا غريبًا زاده جمالًا بدل أن ينتقص منه، وكأنه ظل رقيق من عوالمها السينمائية قد تسلل إليها واستقر تحت جلدها.

لم تكن بحاجة إلى كثير من المكياج.

كانت تكتفي بوجهها كما هو، وبذلك الجمال الهادئ الذي لا يطلب من أحد أن يصفه. وحتى سترتها الجلدية السوداء، بأكامها المطوية، لم تكن بالنسبة إليها مجرد قطعة ملابس؛ لقد تحولت، مع السنوات، إلى جزء من صورتها، حتى بات أفراد طاقمها يعرفون أنها وصلت إلى موقع التصوير قبل أن يروها، بمجرد أن تلوح السترة السوداء من بعيد.

غير أن ملامح كريستينا لم تكن أكثر تناقضًا من شخصيتها.

كانت تملك صبرًا يكاد يشبه صبر النحات أمام كتلة الرخام. تستطيع أن تعيد اللقطة نفسها عشرات المرات دون أن يتسلل الملل إلى صوتها، لا لأنها لا تعرف التعب، بل لأنها كانت تؤمن بأن الفارق بين المشهد العادي والمشهد العظيم قد يكون حركة عين، أو نصف ثانية من الصمت، أو ظلًا يسقط في المكان الخطأ.

لكن هذا الصبر كان له وجه آخر.

فهي لا تسامح التراخي.

إذا شعرت أن أحد أفراد طاقمها يؤدي عمله ببرود أو يتعامل مع المشاهد كما لو كان مجرد وظيفة تنتهي بانتهاء ساعات الدوام، فإن صرامتها تظهر فوراً. لم تكن تصرخ كثيراً، ولم تكن بحاجة إلى ذلك أصلاً؛ فنظرة واحدة منها كافية أحياناً لإعادة أكثر أفراد الطاقم استرخاءً إلى يقظته.

وكان إنصاتها واحداً من أكثر أسرارها غريبة.

حين يتحدث الآخرون، كانت تصمت.

تدعمهم يكملون.

لا تقاطع، ولا تتعجل الرد، ولا تبدو منشغلة بشيء سوى وجه المتحدث. لكن ذلك الصمت لم يكن فراغاً؛ كان عقلها يعمل في الخلفية بلا توقف. كانت تلتقط الكلمات، وتقرأ ما وراءها، وتجمع التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه إليها الآخرون، ثم تعيد ترتيبها في داخلها كما يعيد المونتير ترتيب المشاهد على طاولة المونتاج.

ربما لهذا السبب كانت ترى القصص حيث لا يراها غيرها.

وكريستينا أنثى تحب العزلة، لا لأنها تكره الناس، بل لأنها كانت تجد في الوحدة المساحة الوحيدة التي تستطيع فيها أفكارها أن تسمع نفسها.

وسط صخب المهرجانات، وضجيج المقابلات، وبريق السجادات الحمراء، والأضواء التي تطارد المشاهير أينما ذهبوا، كانت تجد متعتها الحقيقية في العودة إلى شقتها المطلة على مانشستر، وإغلاق الباب خلفها، ثم الجلوس وحدها أمام النافذة.

هناك، حيث تترك الموسيقى الكلاسيكية الهادئة لتنساب في الغرفة، وتصغي إلى المطر وهو يطرق زجاج النافذة بإيقاع يهز الحنين والذكريات.

ولم تكن عزوبتها الطويلة فراغاً عاطفياً كما ظن بعض من عرفوها.

لقد اختارتها.

اختارت أن تترك في حياتها مساحة واسعة لا يسكنها أحد، لأن تلك المساحة نفسها كانت تمنح خيالها الهواء الذي يحتاجه كي يحلق. لم تكن تخشى الحب، لكنها كانت

تعرف أن قلبها، مثل الكاميرا، لا يستطيع أن يركز على شيئين في اللحظة نفسها. وقد اختارت أن يكون الفن هو موضوعها الوحيد. وكان الفن قد كافأها على ذلك الاختيار بسخاء.

ففي رصيدها أحد عشر فيلمًا من أفلام الخيال العلمي، كتبتها وأخرجتها جميعًا، من الفكرة الأولى حتى اللقطة الأخيرة. ولم تكن أفلامًا تمر في دور العرض ثم تُنسى؛ لقد تحولت إلى ظواهر ثقافية، تصدرت نوافذ التذاكر العالمية، وحصدت جوائز سينمائية من أرفع ما يمكن أن يحلم به مخرج.

كان اسم كريستينا قد أصبح علامة يعرفها الجمهور قبل أن يعرف تفاصيل الفيلم. ومع ذلك، لم تسمح للنجاح أن يصنع منها امرأة تعيش في المرأة.

كانت تملك عادة غريبة؛ فبمجرد أن ينتهي تصوير فيلم، وتنطلق الاحتفالات، وتبدأ التهاني، وتصل أخبار الجوائز والإيرادات، كانت تفعل شيئًا لا يفهمه كثيرون.

تضع كل ذلك خلف ظهرها.

كان الفيلم الذي انتهت منه لم يعد يعنيها.

كان التصفيق الذي ملأ القاعات بالأمس لا يصل إلى أذنيها اليوم.

ثم تبدأ من جديد.

تبحث عن فكرة أخرى، سؤال آخر، عالم آخر، وخوف بشري جديد يمكن أن تحوله إلى حكاية.

ولهذا لم تكن كريستينا تعيش على أمجاد الأمس.

كانت الأمجاد بالنسبة إليها مجرد آثار أقدام على الطريق.

أما هي، فلم تكن تنظر إلى الخلف.

كانت دائمًا تنظر إلى المشهد التالي.

في الآونة الأخيرة، استولى على عقل كريستينا هاجس جديد لم تستطع التخلص منه.

كانت قد بدأت تسمع، بين حين وآخر، أخبارًا متناثرة وشائعات غامضة عن مشروع

علمي بالغ السرية يحمل اسمًا بدا لها، منذ اللحظة الأولى، وكأنه عنوان لفيلم لم يُكتب بعد: «فقاعة الاعوجاج».

قليل إن علماء في وكالات الفضاء الكبرى يدرسون إمكانيات تقنية قد تعيد تعريف مفهوم السفر عبر الفضاء نفسه؛ تقنية لا تحاول أن تجعل المركبة الفضائية أسرع فحسب، وإنما تعبث بالفضاء من حولها، فتطوي المسافات بدل أن تقطعها، وتفتح أمام الإنسان احتمال الوصول إلى أماكن كان يظن أنها ستظل إلى الأبد خلف حدود المستحيل.

لم تكن كريستينا تعرف كم من تلك الأخبار حقيقي، وكم منها مجرد تكهنات تتناقلها الأوساط العلمية. لكنها لم تكن بحاجة إلى اليقين.

كان يكفيها السؤال.

ومنذ تلك اللحظة، اشتعلت في رأسها شرارة لم تستطع إخمادها.

قررت أن يكون فيلمها القادم عن «فقاعة الاعوجاج».

وبدأت تقرأ كل ما تستطيع الوصول إليه من أبحاث ومقالات ودراسات تتصل بها وبفيزياء السفر عبر الفضاء. كانت تلاحق المصطلحات الغريبة، وتفكك المعادلات التي تفوق تخصصها، وتعود إلى النص الواحد أكثر من مرة حتى تستخرج منه الفكرة التي يمكن أن تتحول، بين يديها، من حقيقة علمية جافة إلى حكاية تجعل الجمهور ينظر إلى السماء بطريقة مختلفة.

لكن شيئاً واحداً كان ينقصها.

الحبكة.

كانت تمتلك العالم الذي تريد أن تدور فيه الأحداث، وتمتلك السؤال العلمي، وتمتلك عشرات الاحتمالات، لكنها لم تجد بعد ذلك الخيط الخفي الذي يصل العلم بالإنسان، ويحوّل الفكرة الفيزيائية إلى دراما تستحق أن تُروى.

كانت الحبكة لا تزال معلقة في ذهنها مثل سديم هائل؛ غاز وغبار ونجوم محتملة، لكن لا شكل نهائياً لها.

ولم تكن تعرف أن عليها ألا تبحث عنها أكثر.

فبعض الأفكار لا تأتي حين نستدعيها، وإنما تظهر في اللحظة التي نتوقف فيها عن انتظارها.



حدث ذلك في أحد الأيام، داخل غرفة المونتاج.

كانت كريستينا جالسة في عتمة الغرفة، لا يضيء وجهها سوى الضوء المتذبذب المنبعث من الشاشات أمامها. كانت تعيد مشاهدة تفاصيل فيلمها الأخير، تتوقف عند اللقطات، تعيد بعضها، وتحذف أخرى، حتى استوقفتها زاوية لم ترق لها. مالت قليلاً إلى الأمام، ثم قالت لمساعدتها:

- سيد جاك، أعد الفيديو إلى الوراء قليلاً. أريد أن أتأكد من دقة إحدى الزوايا السينمائية.  
حرّك جاك المؤشر.

وبدأت الصور على الشاشة تتراجع.

وجه.

ثم حركة.

ثم ضوء.

ثم ظل.

كل شيء يعود إلى الوراء، ثانية بعد ثانية، كما لو أن الزمن نفسه فقد اتجاهه المعتاد.

وفي تلك اللحظة حدث شيء داخل عقل كريستينا.

لم تكن فكرة تتشكل ببطء، ولم تتسلل إليها على أطراف الوعي.. بل انقذت فجأة..  
كوميض برق شق سماء مظلمة.

اتسعت عيناها.

وتوقفت أصابعها.

ثم ظهرت على شفتيها ابتسامة واسعة، واثقة، غريبة عن اللحظة إلى درجة جعلت جاك يلتفت إليها باستغراب.

- هل ثمة خطأ ما في الفيديو، آنسة كريستينا؟

ظلت تحديق في الشاشة لثانية أخرى، قبل أن تنتبه إلى نفسها.

- لا... إطلاقاً. مجرد فكرة غريبة خطرت لي.

ابتسم جاك.

- إذن يبدو أننا على موعد مع فيلم خيال علمي هائل آخر.  
ضحكت بخفة.

- ربما... كل شيء ممكن. هيا، لنتابع عملنا.  
لكنها، منذ تلك اللحظة، لم تعد موجودة بالكامل في غرفة المونتاج.  
كان جزء من عقلها قد غادرها.. كان قد اندفع إلى مكان آخر.  
إلى مكان لم تكن تعرف بعد كيف ستصل إليه، لكنها كانت تعرف أنها عثرت أخيرًا  
على بداية الطريق.

تابعت عملها حتى نهاية اليوم، إلا أن حماسًا جديدًا كان قد استولى عليها. كانت  
تنفق إلى العودة إلى منزلها، وإغلاق الباب، والجلوس أمام مكتبها، ثم سكب الفكرة  
على الورق قبل أن تفلت منها.

ولم يكن جاك يعرف أن تلك الابتسامة الصغيرة التي رآها على وجه مخرجته لم  
تكن مجرد لحظة إلهام عابرة.

لقد كانت اللحظة التي وُلد فيها فيلمها الجديد.

لكن ما هي تلك الفكرة الغريبة التي خطرت على بال كريستينا تحديدًا؟

كانت الفكرة، في ظاهرها، بسيطة، إلا أن بساطتها أخفت وراءها احتمالًا مذهلاً.

خلال الأيام السابقة، وبينما كانت كريستينا تغوص في أبحاث «فقاعة الاعوجاج»  
وفي المبادئ الأساسية لفيزياء الفضاء، توقفت أمام حقيقة علمية أثارت فضولها  
بشدة.

كانت حقيقة يعرفها علماء الفلك، لكنها بالنسبة إلى مخرجة تبحث عن حكاية، بدت  
كأنها باب سري إلى الماضي.

عندما ننظر إلى نجم بعيد في السماء، فنحن لا نراه كما هو الآن.

نحن نراه كما كان.

فالضوء يحتاج إلى وقت كي يعبر المسافات الهائلة التي تفصل الأجرام السماوية  
عنا. وما يصل إلى أعيننا في هذه اللحظة قد يكون صورةً لنجم كما كان قبل مئات  
السنين، أو آلاف السنين، أو ملايينها، بحسب المسافة التي تفصلنا عنه.

السماء، إذن، لا تعرض لنا حاضر الكون.

إنها تعرض أرشيفه.

هذه الفكرة وحدها كانت كافية لتشعل خيال كريستينا.

لكنها لم تصبح قصة إلا عندما التقت، في عقلها، بتلك اللقطة التي كانت تراها على الشاشة.

الفيديو يعود إلى الخلف.

الصور تتراجع.

والزمن، في لحظة سينمائية، يبدو وكأنه يسير عكس اتجاهه.

فماذا لو أمكن فعل الشيء نفسه مع الضوء؟

ظل السؤال يلمع في ذهنها.

ماذا لو انطلقت مركبة فضائية داخل «فقاعة اعوجاج»، وابتعدت عن الأرض بسرعات هائلة، حتى أصبحت قادرة على الوصول إلى مسافات يستحيل بلوغها بالوسائل التقليدية؟

وماذا لو حملت تلك المركبة أجهزة قادرة على رصد الضوء القادم من الأرض؟

هنا، شعرت كريستينا بأن الفكرة بدأت تكتمل.

فالضوء الذي غادر الأرض منذ قرون لا يزال، من حيث المبدأ، يشق طريقه عبر الفضاء.

إن استطاعت المركبة أن تصل إلى المكان الذي مر فيه ذلك الضوء، وتراقبه هناك، فقد لا ترى الأرض كما هي في لحظة وجودها الحالية، وإنما كما كانت عندما غادر ذلك الضوء سطحها.

كلما ابتعدت المركبة، نظرت إلى ضوء أقدم.

وكلما قطعت مسافة أبعد، تراجعت الصورة أكثر في الزمن.

كانت الأرض، بالنسبة إلى ذلك الراصد البعيد، تتحول إلى شاشة هائلة من الماضي.

ابتسمت كريستينا.

لقد وجدت قصتها.

ماذا لو استطاع الإنسان، بدل أن يسافر إلى الماضي، أن يسافر بعيدًا بما يكفي ليراه؟

ماذا لو لم يكن التاريخ كتابًا مغلقًا إلى الأبد؟

ماذا لو كان لا يزال هناك، في مكان ما بين النجوم، ضوء يحمل صورته؟  
صورة لمدينة اختفت.

صورة لجيش عبر أرضًا منذ آلاف السنين.

صورة لإنسان عاش ومات قبل أن يولد أجداده بقرون.

وربما...

صورة للحظة لم يعرف أحد، حتى ذلك اليوم، أنها كانت موجودة أصلاً.



لم تعد كريستينا ترى «فقاعة الاعوجاج» باعتبارها مجرد وسيلة للسفر بين النجوم، لقد رأتها الآن كآلة يمكن أن تعيد تعريف علاقتنا بالزمن نفسه.

فالإنسان لن يحتاج إلى آلة زمن تعيده إلى الماضي. ربما يكفي أن يذهب بعيداً بما يكفي.. بعيداً جداً...

إلى المكان الذي لا يزال فيه الماضي يعبر الفضاء على هيئة ضوء.

كانت توليفة بصرية وتاريخية مذهلة؛ فكرة تنضح بالبساطة والغرابة في آن واحد. غير أن كريستينا، بذكائها الصارم، كانت تعلم أن خيالها بحاجة أولاً إلى سند فيزيائي يثبت صحته علمياً. فإن هي تأكدت من مشروعية هذه الفرضية، فستكون على موعد مؤكد مع فيلم خيال علمي فذ، يتفوق بجرأته وعمقه على كل ما قدمته في مسيرتها السابقة.

قررت كريستينا ألا تكتفي بالتخمينات، بل أن تشرب الماء من منبع النهر مباشرة. تذكرت الأنباء التي قرأتها عن البروفيسور كلاوس غوتنبرغ، العقل المدبر وراء أبحاث فقاعة الاعوجاج في وكالة الفضاء، وعزمت على التواصل معه شخصياً عبر البريد الإلكتروني لتستفتي عقله المتقد في مدى دقة وصحة فكرتها السينمائية الجديدة. صاغت رسالتها بعناية، مزوجة بين لغة الفن الرصين وشغف الاستكشاف:

**الموضوع:** استشارة فيزيائية بشأن فرضية رصد ضوئي عبر الزمكان / من المخرجة كريستينا مير

**عزيزي البروفيسور الفذ كلاوس غوتنبرغ:**

أمل أن تكون بخير. أنا كريستينا مير، مخرجة وكاتبة أفلام خيال علمي بريطانية. أتابع بذهول وشغف كبيرين أبحاثكم الاستثنائية حول "فقاعة الاعوجاج"، وأعلم أنك الشخص الوحيد القادر على منحي إجابة قاطعة حول فكرة باغتت مخيلتي لفيلمي القادم.

نحن نعلم فيزيائياً أننا عندما ننظر إلى النجوم، فإننا نرى ماضيها بسبب تأخر وصول الضوء الصادر منها إلينا. فرضيتي هي: إذا نجحنا مستقبلاً في إطلاق مركبة فضائية داخل فقاعة اعوجاج تتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء بكثير إلى

نقطة سحيقة في الكون، ثم وجّهت هذه المركبة تلسكوبات رقمية فائقة الدقة نحو كوكب الأرض... هل ستمكن من التقاط الموجات الضوئية القديمة الهاربة من كوكبنا؟ وهل يعني هذا علمياً أننا سنشاهد صوراً حية لما حدث على الأرض منذ آلاف السنين، وكأننا نستعرض شريط فيديو لتاريخنا البشري؟

يهمني جداً معرفة مدى دقة هذه الفكرة من منظور فيزيائي بحث قبل أن أشرع في كتابتها.

**مع خالص احترامي وتقديري.. كريستينا مير**

ولم يطل انتظار كريستينا؛ إذ لم يتأخر رد البروفيسور كلاوس كثيراً، وكان الرسالة قد حركت فضولاً مستعراً في عقله المزدهم بالمعادلات. جاء رده يحمل إعجاباً حاراً ونادراً من رجل بمكانته العلمية:

**الموضوع: رد: استشارة فيزيائية بشأن فرضية رصد ضوئي عبر الزمكان**  
**عزيزتي كاتبتنا ومخرجتنا المبدعة كريستينا مير:**

تحية طيبة. لقد أثارت رسالتك إعجابي أيما إعجاب؛ فالفكرة التي خطرت ببالك ليست مجرد شطحة خيال علمي، بل هي صحيحة وممكنة تماماً من الناحية الفيزيائية.

وفقاً لقوانين "النسبية الخاصة" مدمجة مع هندسة ألكوبيير، فإن فقاعة الاعوجاج لا تخترق حاجز الضوء محلياً، بل تطوي الفضاء نفسه. إذا سبقت المركبة الموجات الضوئية المتدفقة من الأرض منذ قرون - والتي تسافر في الفضاء كأرشيف ضوئي أبدي - وتمكنت من التموضع أمامها برادارات بصرية حساسة، فإنها ستلتقط تلك الفوتونات القديمة بالفعل. علمياً، نعم؛ المركبة ستري ماضي الأرض حياً، وكلما ابتعدت أسرع، عادت بالزمن الضوئي إلى الوراء أكثر.

أشجعك بشدة على إنتاج هذا الفيلم بفكرته الخلاقة التي تدمج العلم بالفلسفة التاريخية بشكل عبقرى. وأود أن أشاركك سرّاً؛ لقد ألهمتني فكرتك لدرجة أنني سأناقش مع زملائي في وكالة ناسا إمكانية استخدام أدوات الرصد البصرية المتطورة على مركبتنا المستقبلية لرصد كوكب الأرض و اكتشاف الغاز تاريخنا الغامضة عندما ننتقل إلى مرحلة التطبيق العملي للفقاعة.

**مع أطيب تمنياتي بالنجاح.. البروفيسور كلاوس غوتبرغ**

امتزجت مشاعر المفاجأة والسرور في قلب كريستينا وهي تقرأ السطور، وسارعت بالرد عليه بكلمات تفيض بالامتنان:

**عزيزي البروفيسور كلاوس:**

لا يمكنني وصف مدى سعادتي بكلماتك اللطيفة وتأكيذك العلمي. إن معرفة أن فكرتي لم تلق استحسانك الفني فحسب، بل فتحت باباً للنقاش لتطبيقها علمياً على أرض الواقع مستقبلاً في وكالة الفضاء، هو أكبر حافز يمكن أن أحظى به. شكراً جزيلاً لوقتكم الثمين ودعمكم العلمي والفني العظيم.

**خالص الود، كريستينا**

أغلقت كريستينا حاسوبها المحمول، والبهجة تملأ كيائها كشمس أشرقت في ليل مانشتتر البارد. لم يعد الأمر مجرد فرضية معلقة في الهواء، بل بات حقيقة علمية ممهورة بتوقيع أحد أكبر علماء الفضاء في عصرنا. وبإرادة حديدية وعزم لا يلين، جلست في ركنها المفضل الذي تمارس فيه طقوس كتابتها الخاصة، سحبت دفترًا جديدًا، وخطت في أولى صفحاته العنوان المبدئي لسيناريو فيلمها الجديد:

**( الزمن العكسي )**

معلنةً بدء رحلة إبداعية ستطوي بها الزمن على شاشات السينما، وممهدةً الطريق لطبي نسيج الزمكان عما قريب ورصد تاريخ كوكبنا العزيز بكل ألغازه وأسئلته التي تنتظر الإجابات منذ دهور.

# الفصل الرابع

## شبه الرجال



مع خيوط الفجر الأولى، بدأت عتمة ولاية فرجينيا تتحسر ببطء، كأن الليل يطوي عباءته الثقيلة عن الغابات الممتدة على جانبي الطريق. وفي ذلك الضوء الرمادي الهش، شقت سيارة البروفيسور كلاوس الألمانية القديمة طريقها بهدوء، متجهة إلى واحد من أكثر الأماكن التي يمكن للإنسان أن يقف على عتبتها وهو يشعر بأنه يقف، في الوقت نفسه، على عتبة الأرض والسماء معاً.

من خلف الزجاج الذي غشاه ضباب الصباح، بدأت ملامح وكالة ناسا تظهر شيئاً فشيئاً.

لم تظهر له كمجموعة من المباني العلمية فحسب، بل بدت من بعيد كقلعة حديثة شُيّدت في قلب البرية، ثم تُركت أبوابها مشرّعة على الفضاء. أبنيتها العملاقة تمتد بأشكال هندسية صارمة فوق المساحات الخضراء، تتداخل فيها قسوة الفولاذ مع برودة الخرسانة البيضاء، بينما تنعكس زرقة الفجر الباهتة على الواجهات الزجاجية الداكنة، فتمنح المكان مسحة غريبة من الهيبة والصمت.

وفي البعيد، ارتفعت الهوائيات العملاقة وأطباق الاتصال والرادار فوق الأشجار، عالياً نحو السماء. فبدت من موقعه كأيدٍ بشرية هائلة امتدت إلى علوّ، لا لتلمس النجوم، وإنما لتحاول الإصغاء إلى ما تقوله في ذلك الصمت الكوني الذي ظل البشر، منذ فجر التاريخ، عاجزين عن اختراقه.

كل شيء هنا محكومٌ بالنظام والحذر.

أسلاك أمنية تحيط بالمجمع، وبوابات إلكترونية لا تنفتح إلا لمن يحمل الإذن المناسب، وأجهزة مراقبة تتابع الداخل والخارج ببرود لا يعرف الفضول. ومع ذلك، لم يكن في هذا التشدد ما يوحي بالخوف؛ بل كان المكان كله يحمل وقار معبد حديث، معبد لا تُقدّم القرابين في محرابه، وإنما تُصنع فيه المعادلات، وتُختبر فيه النظريات، وتُرسَم على شاشاته خرائط المستقبل.

توقفت سيارة كلاوس أخيراً في مكانها المعتاد داخل المرأب المخصص للعلماء. أطفأ المحرك.

وفجأة، بدا هدير الصباح وكأنه ابتعد دفعة واحدة، وحلّ مكانه سكون قصير ودافئ.

ظل كلاوس لحظة جالساً خلف المقود، يحرق أمامه كما لو كان يجمع أفكاره قبل

أن يبدأ يومًا جديدًا. ثم تناول حقيبته الجلدية المثقلة بالأوراق، وفتح الباب وترجل. كان الهواء باردًا، والفجر لا يزال يتردد في الوصول.

اتجه نحو البوابة المحصنة بخطواته الهادئة، وحين اجتاز أجهزة المسح البيومتری والتعرف الرقمي، بدا الأمر كما لو أنه عبر حدًا غير مرئي يفصل عالَمين: عالَمٌ يعرفه الجميع، وعالَمٌ آخر لا يُسمح بالدخول إليه إلا لمن يعرف كيف يتحدث بلغة الأرقام والأسرار.

في الداخل، تشعبت الممرات أمامه كأنها شرايين تمتد داخل عقل إلكتروني هائل. ألواح كربونية رمادية تغطي الجدران، وأرضيات رخامية مصقولة تلتقط انعكاس الضوء الأبيض المنبعث من مصابيح النيون، فتزيد المكان برودة ودقة. لم يكن ثمة شيء زائد، ولا زاوية مهملة، ولا حركة عشوائية؛ حتى الضوء بدا وكأنه وُضع في مكانه وفق معادلة لا تحتمل الخطأ.

وكان للمكان رائحته الخاصة؛ مزيج من الهواء المعقم وبرودة أجهزة التكييف التي لا تتوقف، يتخلله، لمن يصغي جيدًا، هدير خافت مستمر صادر من أعماق المبنى؛ هدير الخوادم والحواسب العملاقة التي تعمل ليلاً ونهارًا، كأن الوكالة تمتلك قلبًا إلكترونيًا لا يعرف النوم.

مضى كلاوس في طريقه.

سترة التويد المجددة تحيط بجسده النحيل، وحقيبته الجلدية تتأرجح إلى جواره، وظهره المنحني قليلًا يمنحه هيئة أستاذ قضى عمره منحنيًا فوق الكتب والمعادلات أكثر مما قضاه واقفًا أمام الحياة.

كان يعرف هذا الطريق جيدًا.

يعبر الممر الأول، ثم الثاني، ثم ينعطف عند القاعة التي تتدلى على جدرانها شاشات رقمية عملاقة تعرض على بعضها صور حية لكوكب الأرض، وعلى بعضها الآخر مسارات الأقمار والمحطات الفضائية متقاطعة فوق خرائط زرقاء، بينما تتبدل الأرقام والبيانات بلا توقف.

وبين شاشة وأخرى، كانت الصور التذكارية لرواد الفضاء تراقب المارين من الماضي. وجوه رجال ونساء غادروا الأرض يومًا، وتركوا خلفهم حدود الجاذبية

ومضوا إلى المجهول، ليعودوا وقد حملوا إلى البشرية شيئاً من ذلك البعيد الذي ظل لآلاف السنين مجرد حلم.

وفي هذه الساعة المبكرة، كان المبنى يستيقظ ببطء.

العلماء يخرجون من المصاعد، والمهندسون يعبرون الممرات بأكواب القهوة وملفاتهم، وسترات المختبر البيضاء تظهر واحدة تلو الأخرى خلف الأبواب الزجاجية. أصوات خافتة تتبادل الأرقام والملاحظات، وأسماء الأجهزة، ونتائج التجارب. لا أحد يرفع صوته، وكأن المكان نفسه يفرض على ساكنيه احترام ذلك الصمت الذي وُلدت في داخله أعظم الأسئلة.

ومن حين إلى آخر كان باب مختبر ينفتح ببطء، ثم يُغلق خلف أحد الباحثين بعد أن يتعرف النظام على هويته. وفي أماكن أخرى، تومض أضواء خضراء وحمراء فوق أبواب مغلقة، خلفها أجهزة لا يعرف عنها معظم العاملين في الوكالة شيئاً.

كانت ناساً، في تلك اللحظة، تشبه خلية نحل ضخمة؛ غير أن النحل هنا لم يكن يجمع العسل، بل يجمع المعرفة.

وحين بلغ كلاوس نهاية الممر، توقف أمام باب مكتبه الخشبي، ووضع يده على المقبض.

وراء ذلك الباب تنتظره أوراقه، ومعادلاته، وحساباته التي لم تكتمل بعد. وربما كان هناك أيضاً شيء آخر ينتظر.

فكرة علمية جريئة طرحتها مخرجة بريطانية لا علاقة لها بعلم الفضا، وسيحاول اليوم إقناع لجنة الخبراء بها لتنفيذها ضمن مشروع فقاعة الاعوجاج.

في وقت لاحق من ذلك النهار المثقل بالأفكار، بدأت قصة مشروع جريء آخر تتكون في رحم الوكالة، حين جلس البروفيسور خلف أبواب مغلقة في واحد من أكثر الاجتماعات سرية وحساسية داخل المبنى.

ففي قاعة المؤتمرات الزجاجية المحجوبة عن بقية المبنى، والتي لا يُفتح بابها إلا بعد اجتياز أقفال بيومترية متعددة، اجتمع ثلاثة علماء يمثلون النواة المصغرة المسؤولة عن تقييم مشروع «فقاعة الاعوجاج» وتوجيه مساره العلمي بالبروفيسور كلاوس الجالس بثبات في الجهة المقابلة لهم.

تتحنح كلاوس بهدوء، ثم رفع يده إلى نظارته ودفعها برفق حتى استقرت عند أرنبة أنفه. ظل للحظة يقلب بعض الأوراق أمامه، وكأنه يبحث عن أفضل طريقة لعرض فكرة قد تبدو للوهلة الأولى للناس العاديين، أقرب إلى الخيال منها إلى العلم. لكنه الآن سيعرضها أمام علماء بمكانة مرموقة.

رفع رأسه أخيراً وقال:

- لدي اقتراح أيها الزملاء بخصوص مشروع فقاعة الاعوجاج أعتقد أنه يستحق منا أن نأخذه بجدية.
- كانت العيون الثلاثة معلقة به. ثم قال رئيس اللجنة فانس:
- تفضل بروفييسور.. كلنا آذان صاغية .. فأفكارك خلاقة كما عودتنا.
- بدأ كلاوس يشرح.

عرض عليهم الفكرة التي وصلته على بريده الإلكتروني من كريستينا مير، مخرجة السينما التي كانت تبحث عن فكرة لفيلمها الجديد. الفكرة التي بدأت عند كريستينا كاحتمال درامي، لكنها، عندما مرت عبر عقل عالم فيزياء، تحولت إلى سؤال يستحق الحساب.

- ماذا لو لم تُوجَّه تلسكوبات المركبة، بعد دخولها فقاعة الاعوجاج، إلى أعماق الكون وحدها؟ ماذا لو عكسنا اتجاهها نحو كوكب الأرض؟
- توقف للحظة يتأمل ملامح وجوههم، ثم أضاف:

- بدلاً من استخدام المركبة لرصد الكون السحيق فقط، يمكننا استخدامها لرصد كوكب الأرض في ماضيه السحيق.

ظهرت على الشاشة خلفه خريطة للفضاء ومركبة فضائية تسبح فيه، ثم نقطة صغيرة تمثل الأرض، وبدأت المسافة بينهما تتسع.

- من بديهيات الفيزياء أن الضوء يحمل صورة المكان الذي جاء منه، لكنه يحتاج إلى زمن حتى يصل إلينا. وهذا يعني أن الضوء الذي يغادر الأرض لا يختفي بمجرد ابتعاده عنا. إنه يواصل رحلته عبر الفضاء حاملاً معه صورة لما كان يحدث على الكوكب في اللحظة التي غادر فيها.
- ثم نظر إلى أعضاء اللجنة واحداً تلو الآخر.

- إذا استطعنا الوصول إلى موقع مناسب في الفضاء، ورصدنا تلك

الفوتونات، فقد نستطيع رؤية الأرض كما كانت في الماضي.

ساد الصمت.

كان هذا بالضبط هو الاتجاه الذي لم يفكروا فيه من قبل على بساطته.

فعلى مدى العقد الماضي، انصب اهتمام المشروع على سؤال واحد:

إلى أي مدى يمكن للمركبة أن تذهب بعيداً في الكون؟

أما الآن، فقد ظهر سؤال أكثر غرابة:

إلى أي مدى يمكنها أن تعود بعينيها إلى ماضي الأرض؟

لم يكن الأمر مجرد تعديل في مسار مهمة علمية.

لقد كان انقلاباً في بوصلة الرصد نفسها.

فجأة .. لم يعد الفضاء نافذة على المستقبل فحسب، بل مرآة ضخمة للماضي.

بقي الصمت معلقاً في القاعة لثوانٍ طويلة، بينما كل واحد من العلماء الثلاثة يحاول أن يستوعب ما يعنيه الاقتراح.

كان أولهم الدكتور أليستر فانس، رئيس الجلسة.

رجل في منتصف الستينيات، وأحد أقدم الأسماء في الفيزياء الفلكية داخل الوكالة. كان يتمتع بوقار صارم؛ جسد نحيل، وشعر أبيض مصفف بعناية تكاد تحاكي دقة حساباته، ووجه حفرت فيه السنوات خطوطاً عميقة لم تستطع أن تنتزع منه شيئاً من صلابته.

وكان يحمل قلماً بين أصابعه، ويطرق به على سطح الطاولة الخشبية المصقولة طرقات خفيفة، منتظمة، تكاد لا تُسمع.

كان فانس من أولئك الرجال الذين لا يثيرهم بريق الفكرة بقدر ما يثيرهم احتمال فشلها.

الأرقام أولاً.

ثم كل شيء آخر.

عرف عنه أنه الحارس الصارم للقواعد التقليدية، وأنه لا يسمح للحماس أو الخيال

بأن يتقدما خطوة واحدة على الحساب. كان يمكن لفكرة أن تبدو عبقرية في عيون الجميع، ثم يسقطها هو بسؤال واحد عن الطاقة أو الاستقرار أو احتمالات الخطأ. إلى يمينه جلست الدكتورة إيلينا روجوفا.

أربعينية ذات ملامح حادة، وشعر أشقر قصير مصفف بعناية هندسية، وعينين خضراوين لا يبدو أنهما تعرفان معنى التردد. كانت متخصصة في الحسابات الكمومية وهندسة الطاقات العالية، واشتهرت بين زملائها بأنها لا تمنح الفرضيات فرصة طويلة للحياة.

كانت تبحث عن الثغرة ... دائماً.

يمكنها أن تستمع إلى عرض كامل بصمت، ثم تقول في النهاية جملة رياضية واحدة تكفي لنسف عشر صفحات من الافتراضات.

أما الرجل الثالث، الدكتور ماركوس نيلسون، فكان النقيض تقريباً.

في أوائل الخمسينيات، عريض الكتفين، حليق الرأس، يرتدي بدلة عصرية بلا ربطة عنق. كان أكثر الثلاثة حيوية وانفتاحاً، ويحمل في شخصيته شيئاً من الباحث الذي لا يكتفي بما يعرفه، بل يريد دائماً أن يعرف ماذا يوجد بعد الحافة.

كان يعشق الأفكار الثورية.

وكلما اقترب الحديث من منطقة يعتبرها الآخرون مستحيلة، ظهر في عينيه ذلك البريق الطفولي الذي لا يستطيع إخفاءه.

وكانت قراءاته تتجاوز الفيزياء والهندسة إلى الفلسفة ومستقبل الإنسان والأسئلة التي تقع عند الحدود الفاصلة بين العلم والخيال.

أنهى كلاوس عرضه المقتضب، فالفكرة خلّاقة لكنها واضحة ولا تحتاج لكثير من الشرح. ثم أسند ظهره إلى الكرسي وانتظر.

ظل فانس صامتاً.

أما إيلينا فكانت قد بدأت تراجع الأرقام على شاشتها. حركت إصبعها بين مجموعة من البيانات، ثم توقفت فجأة ورفعت رأسها فظهرت في عينيها لمعة نادرة..

قالت بهدوء:

- الفكرة خلّاقة للغاية .. ورياضياً... لا أرى مشكلة جوهرية فيها.

نظر إليها كلاوس باهتمام.

تابعت:

- إذا كنا نتحدث عن النقاط الفوتونات التي غادرت الغلاف الجوي للأرض، فإن المنظومة لا تحتاج إلى طاقة إضافية تُذكر مقارنة بما يتطلبه تشغيل الفقاعة نفسها. بمعنى آخر، هذه المهمة لن تكون عبئًا حقيقيًا على متطلبات الطاقة السلبية.

لم يعلق كلاوس، لكن شيئًا من الارتياح بان في عينيه.

أما ماركوس، فلم ينتظر طويلًا، مال إلى الأمام وقال بحماس:

- من جهتي أعتقد أننا يجب أن ننظر إلى الفكرة من زاوية أخرى. التفت إليه الجميع فابتسم.

- المشروع كان حتى الآن مشروعًا هندسيًا هائلًا، لكنه يظل، في نظر كثير من الناس، مجرد محاولة جديدة للوصول إلى أماكن أبعد من الكون. أما إذا أضفنا إليه القدرة على النظر إلى ماضي الأرض، فسيصبح شيئًا أكبر بكثير.. هذه الفكرة عبارة عن منجم ذهب. ثم أشار إلى صورة الأرض على الشاشة.

- سنكون قادرين على تقديم المشروع باعتباره أول محاولة حقيقية لبناء أرشيف بصري لتاريخ كوكبنا نفسه. تخيلوا كيف سيغير ذلك نظرة مجلس الإدارة والممولين إلى المشروع. ابتسم كلاوس للمرة الأولى ونظر إلى رئيس اللجنة فانس.

ظل فانس صامتًا وقد توقفت حركة القلم بين أصابعه. رفع رأسه ببطء، وحقق في كلاوس بعينه الرماديتين الصغيرتين. ظل ينظر إليه للحظات، كأنه يزن الفكرة للمرة الأخيرة، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة بالكاد شقت طريقها بين تجاعيد السنوات وقال:

- موافقون بروفيسور.. الفكرة عظيمة، ونتائجها إن نجحت أعظم. ثم وضع القلم على الطاولة.

- ستُدرج «منظومة الرصد الضوئي لتاريخ كوكب الأرض» ضمن المخطط الرسمي للمركبة، بوصفها مهمة ثانوية للمشروع. لم يقل أحد شيئًا للحظات.

ثم بدأت همهمات خافتة تدور حول الطاولة.

إيلينا عادت إلى حساباتها.

ماركوس ابتسم وكأنه عثر للتو على باب جديد في جدار الكون.

أما فانس، فظل ينظر إلى كوكب الأرض الصغير المضيء على الشاشة.

لم يكن أحد منهم يعرف، في تلك اللحظة، أن فكرة صغيرة وجريئة بدأت في رأس مخرجة تبحث عن حبكة لفيلم خيال علمي، قد عبرت للتو الحدود الفاصلة بين الفن والعلم، وستغير - إن نجحت - وجه التاريخ إلى الأبد.

فقاعة الاعوجاج لم تعد مجرد مشروع للسفر إلى المجهول.

لقد أصبحت، للمرة الأولى، مشروعًا للنظر إلى ما مضى.

والماضي، كما يقول العلم، لا يزال هناك في مكان ما ينتظر عيناً تراه...

\*\*\*\*\*

دارت عجلة الزمن دورة كاملة.

ومضى عام بأكمله، لم يكن في حياة أولئك الذين شاركوا في المشروع عامًا عاديًا؛ بل كان اثني عشر شهرًا من السهر المتواصل، والألواح المليئة بالمعادلات، والخطوط البيانية التي تتشابك فوق الشاشات كشبكة عصبية هائلة، والجدالات العلمية التي كانت تمتد أحيانًا حتى الفجر، بحثًا عن ثغرة صغيرة في جدار الفكرة.

اثنا عشر شهرًا ظل خلالها مشروع «فقاعة الاعوجاج» تحت المجهر، يُفكك إلى أصغر أجزائه ثم يُعاد تركيبه من جديد، مرة بعد أخرى. كل احتمال للفشل كان يُستدعى إلى الطاولة، وكل مشكلة فيزيائية أو ميكانيكية يمكن أن تواجهه كانت تُطرح بلا رحمة، ثم تُدرس وتُحسب وتُختبر حتى لا يبقى منها سوى ما يمكن للعلم أن يحتمله.

وأخيرًا، بعد عام كامل من التدقيق والمراجعة، أُغلقت آخر صفحة من الدراسة النظرية.

لم يعد هناك ما يُضاف إلى المعادلات.

لم يعد ثمة احتمال يفرض تأجيل المشروع إلى الغد.



وفي ذلك اليوم، صدر القرار الذي كان الجميع ينتظره:

انتهى زمن النظرية، وبدأ زمن البناء.

أُغلقت مجلدات المخططات، وتوقفت أقلام العلماء عن ملاحقة الأرقام، وانتقلت الفكرة التي كانت طوال أعوام طوال حبيسة الورق والشاشات إلى العالم المادي؛ إلى الحديد، والتيتانيوم، والكربون، والدوائر الإلكترونية، والآلات التي لا تعرف معنى الحلم إلا عندما يتحول إلى شيء يمكن أن تلمسه اليد.

وهكذا تغير وجه منشآت البناء التابعة للوكالة.

فما كان بالأمس مجرد مخابر ضخمة باردة، تحول بين ليلة وضحاها إلى خلية نحل كونية هائلة. في كل زاوية ثمة شيء يتحرك؛ أشعة الليزر تشق الهواء بحثاً عن أدق الانحرافات، وآلات اللحام بالبلازما تنفث ألسنة من الضوء، والروافع الهيدروليكية العملاقة ترفع القطع المعدنية الهائلة كما لو كانت ألعاباً صغيرة، بينما أصوات المطارق والمحركات وأجهزة الإنذار تمتزج في ضجيج واحد يشبه نبضاً صناعياً لكائن لم يولد بعد.

كان الجميع يعملون.

العمال، والمهندسون، والفنيون، والمشفرون، والعلماء الذين تركوا مكاتبهم

لينزلوا إلى أرض المصنع ويتابعوا تفاصيل بناء المشروع بأعينهم.

وفي تلك الورش الهائلة، بدت الفوارق بين المهن والرتب أقل أهمية من أي وقت مضى. فالجميع كان يعرف أن القطعة التي يثبتها عامل بيديه قد تكون مرتبطة مباشرة بالمعادلة التي وضعها عالم قبل عام، وأن خطأ صغيراً في اللحام قد يهدد سنوات من الحسابات.

كانوا يعملون بكد حتى يتداخل الليل بالنهار، ويخرجون من الورش عند الفجر بوجوه متعبة وملابس ملوثة بآثار العمل، ثم يعودون بعد ساعات قليلة ليواصلوا ما بدأوه.

لم يكن يدفعهم المال وحده، ولا الشهرة، ولا حتى المجد العلمي.

كان هناك شيء أكبر من ذلك كله.

إحساس غامض بأنهم لا يبنون مركبة فضائية فحسب، بل يضعون بأيديهم حجر أساس أول في طريق لم تسلكه البشرية من قبل؛ طريق قد يجعل المسافات التي

بدأت طوال تاريخ الإنسان مستحيلة، مجرد أرقام على شاشة.  
كانت عملية التصميم تسير بدقة تكاد تقترب من الطقس المقدس.  
كل جزء له موضعه.

كل مسمار له سبب.

كل سلك يمر في مسار حُسب عشرات المرات.

وكان المهندسين لا يبنون آلة، بل يجرون عملية جراحية في جسد الكون نفسه،  
ويعرفون أن أي خطأ في موضع واحد قد تكون عواقبه أكبر من أن تسمح بها  
قوانين الطبيعة.

قُسمت المركبة إلى منظومات هيكلية بالغة التعقيد، صُممت لتعمل معًا بانسجام يكاد  
يكون عضويًا.

في مؤخرة المركبة، بدأت تتشكل **حلقات الدفع الزمكاني العريضة**، هياكل هائلة  
من سبائك التيتانيوم والكربون المعزز، تحيط بها **مولدات حقول كازيمير**، تلك  
المنظومات التي ستتولى توليد الطاقة السلبية اللازمة لهندسة فقاعة الاعوجاج  
والحفاظ على استقرارها.

أما في قلب المركبة، فقد بُنيت كبسولة **النواة المعزولة كموميًا**؛ حصن داخلي  
صُمم ليحتوي طاقم الملاحه ويحميه من القوى الجاذبية التكتونية الهائلة التي قد  
تنشأ أثناء تشغيل الفقاعة.

لكن كل ذلك، على عظمتها، لم يكن سوى الجسد.

أما العين التي ستمنح هذا الجسد غايته الحقيقية، فكانت شيئاً آخر تمامًا.

كانت **منظومة التلسكوبات فائقة الحساسية**.

جوهرة المشروع.

مجموعة معقدة من العدسات البلورية والمستشعرات الكمومية، المعتمدة على تقنية  
**عدسة الثقب الأسود الصناعي**، والتي تكبر الأشياء ملايين المرات لتعطي أوضح  
صورة ممكن أن تتخيلها. لم تُصمم هذه المنظومة لكي تنظر إلى النجوم فحسب،  
بل لكي تبحث في الظلام عن شيء أضعف من أن تراه العين البشرية، وأقدم من

أن يدركه الزمن بسهولة :

الفوتونات التي غادرت الأرض منذ قرون وآلاف السنين.

كانت مهمتها أن تلتقط تلك الجسيمات الهاربة من الغلاف الجوي للأرض من مسافات شاسعة، ثم تفرزها وفق تردداتها الزمنية، وتجمعها داخل منظومة حاسوبية قادرة على إعادة تركيبها في صور رقمية.

صور لم يكن من المفترض، وفق التصور البشري التقليدي، أن يراها أحد مرة أخرى.

صور للماضي.

وكان الطموح أكبر من مجرد التقاط الضوء.

كانوا يريدون أن يعيدوا بناء الماضي كما لو أن الزمن نفسه أصبح شريطاً سينمائياً يمكن الرجوع به إلى الوراء.

ومع مرور الأشهر، بدأ الهيكل يكتمل.

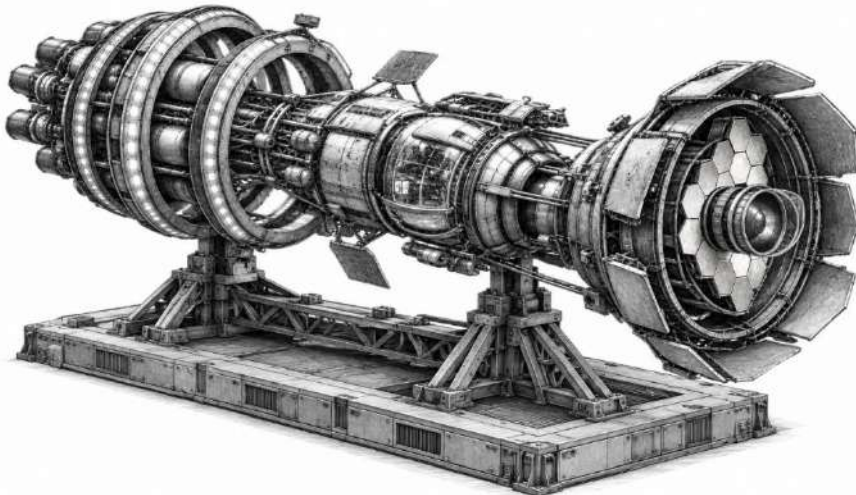
قطعة بعد أخرى.

حلقة بعد حلقة.

سلكاً بعد سلك.

حتى جاء اليوم الذي توقفت فيه آلات البناء أخيراً.

وعندما أزيلت آخر الرافعات من حولها، ظهرت المركبة للمرة الأولى كاملة.



كانت تقف في قلب المنصة ككائن هائل استيقظ لتوه من سبات طويل. مغزلية الشكل، انسيابية إلى أقصى الحدود، لا تحمل في تصميمها شيئاً زائداً أو عبثياً. درعها الخارجي من التيتانيوم المطفأ يمتص الضوء بدل أن يعكسه، فيمنحها مظهراً غامضاً، كأنها قطعة من ظلام صُقلت بعناية حتى أصبحت آلة. وفي منتصفها، تحيط الحلقات الدائرية العملاقة بجسد المركبة، تدور حولها كأطواق زحل، لكنها لم تكن للزينة. كانت هي قلب القوة التي ستجبر الزمكان نفسه على الانحناء.

وقف العمال والمهندسون حول المنصة صامتين.

فحتى أولئك الذين أمضوا سنوات في تصميم كل جزء منها، بدوا في تلك اللحظة وكأنهم يرونها للمرة الأولى.

كان في شكلها شيء يتجاوز الهندسة. شيء يبعث رهبة لا يمكن تفسيرها بالمعادلات.

بدت كأنها كائن أسطوري خرج من صفحات الخيال العلمي وقرر أن يضع نفسه أمام البشر متحدياً قوانين الطبيعة ذاتها.

وخلف الزجاج العريض لغرفة التحكم العلوية، كان البروفيسور كلاوس

غوتنبرغ يقف وحده. عيناه مثبتتان على المركبة، تخترقان طبقات التيتانيوم والحلقات المعدنية وكأنهما تحاولان رؤية المستقبل القريب المختبئ داخلها.

لم يكن في ملامحه شيء من الانفعال الصاخب، لكن عينيه كانتا تقولان كل شيء. لمعت فيهما للمرة الأولى منذ سنوات طويلة تلك النظرة التي لا تظهر إلا عندما يرى الإنسان حلمًا كان يظنه بعيداً إلى درجة يستحيل معها أن يصبح حقيقة.

لقد أمضى كلاوس زهرة شبابه في مطاردة هذه الفكرة.

حارب البيروقراطية.

صمد أمام المشككين.

دخل معارك طويلة مع رجال رأوا في مشروعه ضرباً من الجنون العلمي.

وكم مرة اضطر إلى الدفاع عن حلمه أمام أولئك الذين كانوا يرون أن حدود الكون لا ينبغي للإنسان أن يحاول تجاوزها.

والآن...

كان الحلم يقف أمامه.

ليس معادلة على ورق.

ولا نموذجًا حاسوبيًا.

ولا مجموعة خطوط على شاشة.

بل جسمًا هائلًا من المعدن، قائمًا تحت أضواء المنصة، ينتظر لحظة واحدة فقط كي يتحول من آلة صامتة إلى أول مركبة في تاريخ البشر تحاول أن تجعل المسافة نفسها تنحني.

شعر كلاوس بالفخر ينمو في داخله ببطء، لكنه كان فخرًا ثقيلًا، ممزوجًا بشيء يشبه التأثير.

ففي تلك اللحظة، أدرك أن السنوات التي أفناها في عتمة الدفاتر والمعادلات لم تكن قد مضت عبثًا.

لقد خرج الحلم أخيرًا من الورق.

وأصبح واقعًا.

واقع يقف أمامه الآن، ضخماً وصامتاً، كأنه ينتظر منه أن يمنحه الإذن بفتح أول صفحة من كتاب لم تجرؤ البشرية من قبل على كتابته. كتاب لا يبدأ من مكان بعيد في الكون... بل يبدأ من اللحظة التي يعترف فيها الإنسان أن قوانين المسافة والزمن الكلاسيكية ليست نهاية الطريق فللفضاء قوانينه المجنونة الخاصة.

# الفصل الخامس

## مهمة انتحارية

قبل أن تشرع السماء أبوابها أمام ذاك المارد المعدني الجديد، وقبل أن تخرق المركبة الفضائية ذلك الامتداد الأسود البعيد الذي لم تطأه قدم بشرية من قبل، وقبل أن تبدأ وكالة سانا أولى تجاربها الحقيقية على «فقااعات الاعوجاج» في الفضاء السحيق، كان ثمة أمر واحد لا يزال عالقًا في أروقة الوكالة، كعقدة استعصت على كل المعادلات التي أتقن البروفيسور كلاوس حلها :

### من سيجلس في قمرة القيادة؟

لم يكن السؤال هذه المرة متعلقًا بمن يملك أعلى سجل من ساعات الطيران، أو أكثر خبرة في التعامل مع المركبات التجريبية، أو أعصابًا قادرة على الصمود أمام الخطر. فالوكالة لم تكن تعاني نقصًا في رواد الفضاء، ولا في العلماء، ولا في أولئك الذين اعتادوا النظر إلى الموت بوصفه احتمالًا مهنيًا لا أكثر. المشكلة كانت أعمق من ذلك بكثير؛ كانت كامنة في قلب المشروع نفسه، في القوانين الفيزيائية التي لم تكن تسمح بأي وعد حقيقي بالعودة.

فتبعًا للحسابات التي أعيدت عشرات المرات، وبحسب النماذج الحاسوبية التي أخضعت لكل الاحتمالات الممكنة، لم تكن الرحلة رحلة ذهاب وإياب بالمعنى الذي عرفه البشر منذ بدأوا غزو الفضاء. فعند تشغيل المحرك ودخول المركبة في نطاق الاعوجاج، سيبدأ نسيج الزمكان نفسه بالانطواء حولها، مشكلاً ممراً كونياً ضيقاً تنفصل داخله المركبة عن المسار الذي جاءت منه. لن يكون هناك طريق يمكن سلوكه إلى الوراء، ولا جسر كوني يسمح بانعكاس الرحلة، ولا زر طوارئ يعيدها إلى النقطة التي انطلقت منها. كان بإمكان العلماء أن يحسبوا المسافة، والسرعة، والطاقة، وحتى احتمالات النجاح والفشل، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنحوا الرجل الذي سيجلس خلف لوحة القيادة شيئاً واحداً : طريقاً إلى البيت.

وهنا تحولت المسألة العلمية إلى مأزق إنساني.

فالرجل الذي سيوافق على قيادة المركبة لن يكون مجرد رائد فضاء يشارك في أول تجربة من نوعها، ولن يكون اسمه مجرد سطر جديد في سجل المستكشفين الذين وسّعوا حدود المعرفة البشرية. سيكون، في حقيقة الأمر، رجلاً يوقع بملء إرادته على انفصاله عن الأرض للأبد. سيغادر وهو يعرف أن المهمة، وفق أفضل ما لدى البشرية من علم، لا تحمل في نهايتها عودة إلى الوطن؛ وأن كل ما ينتظره بعد إتمام مهمته قد يكون استمراراً وحيداً في فضاء لا يعرف الرحمة، أو موتاً صامتاً لا يسمع فيه أحد أنفاسه الأخيرة.

لم تكن كلمة «انتحار» دقيقة من الناحية العلمية، وربما كانت قاسية أكثر مما ينبغي، لكن لا أحد في غرفة الاجتماعات وجد كلمة أخرى أكثر قدرة على وصف الحقيقة. كانت أقرب إلى تذكرة سفر بلا رحلة عودة، وإلى وداع طويل لا يملك صاحبه الحق في أن يلوح بيده عند نهايته.

ولهذا ظل المقعد أمام لوحة القيادة شاغراً.

كان مقعداً واحداً فقط، لكنه بدا في نظر الذين اجتمعوا حول المشروع أثقل من المركبة بأكملها. كلما اقترب موعد الإطلاق، ازداد حضوره في الاجتماعات؛ كرسي فارغ لا يتحدث، ولا يعترض، ولا يطلب شيئاً، ومع ذلك كان السؤال الذي يفرض نفسه على الجميع : أي إنسان يمكن أن يُطلب منه أن يجلس هناك، وهو يعرف مسبقاً أن الأرض قد تصبح آخر شيء يراه؟

لم يكن المطلوب رجلاً شجاعاً فحسب. الشجاعة وحدها قد تدفع الإنسان إلى مواجهة الموت، لكنها لا تجعله قادراً على اختيار موت محتمل وهو في كامل وعيه، ثم متابعة مهمته بهدوء بعد أن يصبح الرجوع مستحيلاً. كان المطلوب شخصاً يستطيع أن يحمل معه ملايين الأسئلة الإنسانية إلى مكان لم تُختبر فيه بعد حدود الزمن والمكان، وأن يواصل العمل بينما تتلاشى خلفه الأرض شيئاً فشيئاً، لا ككرة زرقاء في نافذة المركبة فحسب، بل كوطن، وذاكرة، ووجوه، وحياة كاملة قرر أن يتركها وراءه.

وكان على ناسا، للمرة الأولى تقريباً، ألا تبحث عن أفضل رائد فضاء لديها، بل عن أكثرهم استعداداً للتخلي عن نفسه.

عن روح حرة لا تزال قادرة على أن تقول «نعم» حين يكون الثمن هو كل شيء. فالمهمة لم تعد مجرد محاولة للوصول إلى مكان أبعد في الكون. كانت محاولة لانتزاع نافذة صغيرة من قلب المجهول؛ نظرة خاطفة إلى ماضٍ سحيق لكوكب الأرض ربما سبق وجود الإنسان بملايين السنين، وإلى مستقبل قد تكون البشرية فيه شيئاً مختلفاً عما تعرفه اليوم. وكان الثمن، مقابل تلك النظرة، أن يخرج رجل واحد من تاريخ الأرض، ويضع قدمه في مكان قد لا يجد منه طريقاً للعودة أبداً.

ولهذا، بينما كانت المركبة تنتظر على منصة الإطلاق، بكل حلقاتها ومحركاتها وأسرارها التي لم تُختبر بعد، ظل السؤال الحقيقي بعيداً عن المختبرات وأجهزة الحاسوب.



كان ينتظر إنسانًا.

إنسانٌ يعرف تمامًا إلى أين سيذهب... ويعرف، وربما للمرة الأولى في تاريخ الرحلات الفضائية، أنه لن يعود.

أمام ذلك المأزق الذي لم يكن علميًا خالصًا ولا أخلاقيًا خالصًا، أدركت الإدارة العليا لوكالة الفضاء أن أسوأ ما يمكن أن تفعله هو أن تختار رجلًا من بين رجالها ثم تطلب منه أن يمضي إلى مهمة يعرف الجميع مسبقًا أنها قد تكون نهايته. لم يكن ثمة قانون يسمح بإجبار أحد على مثل هذه التضحية، ولم تكن هناك، مهما بلغت أهمية المشروع، سلطة أخلاقية تستطيع أن تجعل الموت واجبًا وظيفيًا.

كان لا بد إذن من طريق آخر.

وبعد أسابيع من الاجتماعات المغلقة والمداولات التي شارك فيها كبار علماء الفيزياء النظرية، ومسؤولو الرحلات المأهولة، والأطباء النفسيون، وخبراء الأمن، ومستشارو الوكالة القانونيون، اتُخذ القرار الذي لم يجرؤ أحد في البداية على اقتراحه بصوت واضح : لن تختار الوكالة قائد الرحلة... بل ستترك للرجل أن يختار مصيره بنفسه.

للمرة الأولى في تاريخها، قررت ناسا أن تخرق البروتوكول التقليدي لا لكي تتجاوز قواعد السلامة، وإنما لكي تحترم أبسط قاعدة إنسانية بينها وبين رجالها : لا أحد يُرسل إلى المجهول إذا لم يكن مستعدًا للذهاب إليه بإرادته.

وفي ساعة متأخرة من إحدى ليالي الشتاء، أُرسل الإعلان.

لم يكن إعلانًا عامًا، ولم يظهر على شاشات التلفزة أو صفحات الصحف، ولم يُنشر في أي موقع رسمي. خرج من خوادم الوكالة عبر شبكة داخلية مشفرة، وحُددت قائمة المستلمين بدقة شديدة؛ رواد الفضاء الذين اجتازوا أصعب برامج التدريب، وقادة المهمات السابقة، وأفراد وحدات الاختبار ذات التصنيف الأعلى. ولم يكن في الرسالة ما يوحي بأنها فرصة مهنية، أو ترقية، أو مهمة عسكرية استثنائية.

كانت أقرب إلى استدعاء صامت إلى حافة التاريخ.

ظهر في أعلى الشاشة تصنيف أحمر:

## إعلان تطوعي لمهمة استكشافية خاصة

الصادر عن : الإدارة العليا لوكالة الفضاء، بالتعاون مع قطاع الفيزياء النظرية والميكانيكا الجاذبية.

**الموضوع :** فتح باب الترشح التطوعي لقيادة المركبة التجريبية الأولى المزودة بمحرك الكوبيير — مشروع «فقاعة الاعوجاج». ثم بدأت الكلمات.

إلى جميع رواد الفضاء وملاحي النخبة :

نخاطبكم اليوم في لحظة لم تعرف البشرية مثلها من قبل. لقد اكتمل، بعد سنوات من البحث والتجارب والنمذجة الرياضية، التصميم العملي لأول مركبة فضائية قادرة على إنشاء فقاعة اعوجاج حول بنيتها المادية، وإحداث تشوه مضبوط في نسيج الزمكان يسمح لها بالانتقال بسرعات تتجاوز الحد الذي تفرضه الحركة التقليدية للضوء، دون أن يعني ذلك تجاوز المركبة نفسها لهذا الحد بالمعنى الفيزيائي المعتاد.

لكن الإنجاز الحقيقي للمشروع لا يكمن في السرعة وحدها.

فقد زُودت المركبة بمنظومة رصد بصرية عكسية صُممت لاستغلال التشوه الزمكاني المحيط بها في التقاط الضوء القادم من مسافات زمنية بعيدة؛ ضوء غادر كوكب الأرض قبل آلاف، وربما ملايين السنين، وما زال يواصل رحلته عبر الكون. وإذا أثبتت المنظومة صحة الحسابات، فسيصبح بالإمكان رصد فوتونات تحمل صورًا من ماضٍ لم يعد موجودًا، ومشاهدة الأرض وهي كما كانت في عصور سبقت التاريخ المكتوب، وربما تسجيل مراحل من تطور الحياة البشرية لم يبق منها أثر على سطح الكوكب.

إن المهمة التي نحن بصدد الإعلان عنها ليست تجربة آلية يمكن تنفيذها عن بُعد. نحن بحاجة إلى قائد بشري واحد.

رائد فضاء يمتلك أعلى درجات الكفاءة الملاحية، والخبرة في قيادة المركبات التجريبية، والقدرة على اتخاذ القرارات في ظروف لا تسمح بالخطأ، إلى جانب

صلابة نفسية استثنائية تؤهله لمواجهة عزلة لم يختبرها أي إنسان من قبل. لكن قبل تقديم أي طلب للترشح، يجب على كل متقدم أن يقرأ البنود التالية بعناية كاملة.

### **أولاً — طبيعة المهمة**

وفقاً للنماذج الرياضية الحالية لهندسة الزمكان، فإن الرحلة مصنفة، حتى إشعار آخر، على أنها مهمة باتجاه واحد.

لا توجد في التصميم الحالي وسيلة مضمونة لإعادة المركبة إلى الأرض بعد تفعيل فقاعة الاعوجاج ودخولها في المسار المقرر للمهمة.

### **ثانياً — احتمالية العودة**

إن طبيعة التشوه الزمكاني المتوقع حول المركبة قد تؤدي إلى عزلها عن المسار الفضائي الذي انطلقت منه، بحيث لا تتوافر، بعد بدء المرحلة النهائية من الرصد، نافذة فيزيائية معروفة تسمح بإعادة تشكيل الفقاعة في الاتجاه المعاكس أو إنشاء مسار يعيد المركبة إلى الأرض.

وعليه، فإن احتمال العودة إلى كوكب الأرض يُعد، وفق المعرفة المتوافرة حالياً، غير متاح.

### **ثالثاً — التبعات الشخصية**

يجب على المتقدم أن يدرك أن اختياره لهذه المهمة يعني قبول احتمال الانفصال النهائي عن الأرض، وعن أسرته، وأصدقائه، وكل ما يرتبط بحياته السابقة.

لن يُخفى عنه أي خطر معروف، ولن تُستخدم معه لغة مبهمّة لتجميل طبيعة المهمة. نحن لا نطلب منكم أن تتجاهلوا الخوف. نحن نطلب من شخص واحد أن يقرر، رغم معرفته الكاملة به، أنه مستعد للمضي قدماً.

### **رابعاً — الهدف العلمي**

في حال نجاح المهمة، ستوفر البيانات التي تجمعها المركبة أول سجل مباشر

لماضي الأرض البصري يمكن للبشرية الحصول عليه من خارج إطار الرصد التقليدي. وستفتح النتائج، في حال تأكدها، مجالاً جديداً في دراسة تاريخ الكوكب، وتطور الحياة، وتاريخ الحضارة، وعلاقة الضوء بالزمكان.

وقد تمثل هذه البيانات أعظم أرشيف تاريخي تحصل عليه البشرية منذ بداية وجودها.

### **خامساً — طبيعة التضحية**

تدرك الوكالة أن الكلمات الواردة في هذا الإعلان لا تصف مهمة اعتيادية، وأن اختيار هذا المسار قد يعني التخلي عن الحياة على الأرض بصورة نهائية.

لذلك فإن الترشح لهذه المهمة يجب أن يكون طوعياً بالكامل، وأن يصدر عن قناعة شخصية مستقلة، بعد الاطلاع على جميع البيانات الطبية والنفسية والهندسية المتاحة.

لا توجد أي عقوبة على رفض الترشح.

ولا توجد أي مكافأة يمكن أن تعادل قيمة الحياة التي قد يقرر المتقدم التخلي عنها. إنما سيمنح الشخص الذي يقع عليه الاختيار فرصة واحدة لا تتكرر في تاريخ البشرية : أن يكون أول إنسان يغادر حدود المعرفة المعروفة، وأن ينظر، بعين بشرية، إلى زمن لم يعد موجوداً.

باب التطوع مفتوح.

إذا كنت ترى في نفسك القدرة على تحمل المهمة، وإذا كنت مستعداً لاحتتمال مغادرة الأرض إلى الأبد، وإذا كنت قادراً على قبول أن يكون للعودة ثمنٌ لا يملك العلم وسيلة لدفعه، فعليك إرسال طلبك عبر القناة المشفرة المرفقة قبل الموعد المحدد. سيُعامل كل طلب بسرية تامة.

### **وكالة الفضاء**

### **الإدارة العليا — قطاع الرحلات الاستكشافية المتقدمة**

=====

انتهت الوثيقة.

لكن الكلمات لم تنته حين أغلقت الشاشة.

ففي تلك الليلة، لم تعد الرسالة مجرد ملف إلكتروني ينتظر أن يقرأه أحد ثم يطويه. انتقلت من حاسوب إلى آخر، ومن غرفة إلى أخرى، ومن بلد إلى بلد عبر الشبكات المشفرة التي تربط مراكز الوكالة وفرقها الدولية. وفي كل مرة كانت الشاشة تضيء، كان رائد فضاء جديد يقرأ السطور نفسها، ثم يبقى صامتًا أمامها.

لم يكن في الإعلان تهديد، ولا أمر، ولا حتى محاولة لإغراء القارئ ببطولة زائفة. وهذا تحديدًا ما جعله أكثر رعبًا.

لقد وضعت ناسا الحقيقة كاملة أمامهم ثم تنحت جانبًا.

قالت لهم، بعبارة لا تحتل التأويل: نحن لا نستطيع أن نعيدك.

ثم تركت لهم حرية الإجابة.

في بعض الغرف، قرأ الرواد الإعلان مرة واحدة ثم أغلقوه. وفي غرف أخرى، ظل الملف مفتوحًا لساعات. أحدهم أعاد قراءة فقرة «احتمالية العودة» ثلاث مرات. آخر انتقل مباشرة إلى البند المتعلق بالتبعات الشخصية، ثم توقف طويلًا عند عبارة «الانفصال النهائي عن الأرض». وآخرون لم يستطيعوا تجاوز السطر الأول من التحذير قبل أن يشعروا بثقل شيء بارد يستقر في صدورهم.

كان الإعلان قد وصل إلى الجميع تقريبًا.

وكان السؤال الذي حمله معه أكبر من المهمة نفسها.

ليس: من يستطيع قيادة المركبة؟

بل:

من يستطيع أن يختار، وهو بكامل وعيه، ألا يعود؟

وفي مكان ما بين تلك الشاشات المضئية، وبين آلاف الوجوه التي حدقت في الكلمات، كان ثمة إنسان واحد لم يكن يعرف بعد أن حياته ستنقسم إلى نصفين: حياة عاشها على الأرض، وحياة أخرى ستبدأ يوم يجلس في ذلك المقعد الوحيد، ويغلق باب المركبة خلفه، ثم ينظر للمرة الأخيرة إلى الكوكب الذي كان يسميه وطنًا.

كان ذلك هو اليوم الذي بدأت فيه عملية البحث عن الرجل الذي سيشتري للبشرية حق النظر إلى الماضي... بئس مستقبله الشخصي.



لم يمضِ وقت طويل على وصول الإعلان المشقّر إلى صناديق البريد الخاصة برواد الفضاء حتى بدأت بعض طلبات الترشح تتدفق إلى اللجنة المشرفة على المشروع. ومع أن الوكالة كانت قد أرسلت الإعلان إلى نخبة مختارة من أكثر ملاحبيها كفاءة، فإن عدد الذين امتلكوا الشجاعة للانتقال من قراءة الكلمات إلى التوقيع تحتها كان محدودًا على نحو لافت.

في النهاية، لم يبقَ أمام اللجنة سوى ثلاثة أسماء.

شابان وفتاة.

ثلاثة أشخاص قرروا، كلٌّ بطريقته، أن يضعوا حياتهم في الجهة الأخرى من المعادلة، وأن يواجهوا احتمالًا لم يكن أي رائد فضاء في التاريخ مضطرًا إلى مواجهته من قبل : احتمال أن تكون الرحلة التي يبدأها هي الرحلة الأخيرة في حياته.

لكن المرحلة الأولى من الاختبارات لم تترك لهم جميعًا فرصة الاستمرار.

فقد أظهرت الاختبارات الطبية والفيزيائية المبكرة أن العبور داخل فقاعة الاعوجاج، وفق النموذج الهندسي الذي توصل إليه العلماء في تلك المرحلة، سيضع الجسد البشري تحت تأثيرات عنيفة ومركبة؛ تغيرات لحظية في التسارع، وفروق شديدة في القوى المؤثرة على الأنسجة، واضطرابات مرتبطة بتشوّه مجال الجاذبية حول المركبة. وكانت المحاكاة تشير إلى أن البنية الجسدية المطلوبة لتحمل تلك المرحلة الانتقالية كانت أكثر توافراً، إحصائياً، لدى الرجال ضمن مجموعة المتقدمين التي خضعت للاختبار.

لم يكن القرار سهلاً، ولم يكن أحد في اللجنة سعيداً به، لكن العلم لم يترك لهم مساحة واسعة للمجاملة.

استُبعدت المتقدمة الثالثة.

وبذلك لم يبقَ في السباق سوى رجلين.

**تشي وجوليان.**

ومنذ اللحظة الأولى، بدا واضحاً أن الوكالة لم تكن تقارن بين رجلين متشابهين يتنافسان على المقعد نفسه، بل بين تصورين مختلفين تماماً لمعنى الرحلة.

فتشي كان يريد أن يذهب إلى الفضاء.

أما جوليان، فكان يريد أن يغادر الأرض.

كان تشي في أوائل الثلاثينيات، متوسط القامة، قوي البنية، ممتلئ العضلات على نحو لا يخفيه زي رائد الفضاء. كان جسده ثمرة سنوات طويلة من التدريب الشاق؛ كتفان عريضان، صدر قوي، ذراعان مشدودتان، وساقان اكتسبتا صلابتهما من آلاف الساعات التي قضاها في تدريبات التحمل والنجاة والهبوط في أكثر البيئات قسوة. كان يشبه، في بنيته المتناسقة، تمثالاً إغريقياً أُعيدت صياغته داخل أحد مختبرات ناسا ليصبح آلة بشرية مصممة لمواجهة المستحيل.

حتى وجهه كان يحمل شيئاً من تلك الثقة الجسدية.

فك عريض، ملامح حادة، شعر داكن قصير، وبشرة اكتسبت من سنوات التدريب في الصحاري والمناطق القاسية لوناً نحاسياً خفيفاً. أما عيناه البنيتان فكانتا أكثر ما يكشف شخصيته؛ تلمعان بحيوية لا تهدأ، وتتحركان دائماً كما لو أنه يبحث عن تحدٍّ جديد لم يواجهه بعد.

كان تشي يؤمن بنفسه.

وربما كان يؤمن بالمجد أكثر مما ينبغي.

لم يكن يخجل من رغبته في أن يكون أول إنسان يخوض هذا النوع من الرحلات. كان يرى في المهمة أعظم فرصة يمكن أن تمنحها الحياة لرجل مثله؛ فرصة لأن يكتب اسمه في الصفحة التي ستقرأها البشرية بعد مئات السنين. لم يكن الموت يخيفه بقدر ما كان يخيفه احتمال أن يعيش حياة عظيمة في نظره، ثم يموت دون أن يترك وراءه شيئاً يثبت أنه كان هنا.

كان يريد النجوم، نعم.

لكنه كان يريد أيضاً أن تحمل النجوم اسمه.

أما جوليان، فكان رجلاً من مادة أخرى.

لم يكن ضعيفاً، ولم يكن أقل قدرة من تشي على تحمل التدريب. لكنه كان أقل اهتماماً بإثبات أي شيء لأحد.

كان أطول قليلاً، أنحف، شديد الرشاقة، بجسد مشدود كوتر قوس لا يحمل فيه شيء من الترهل. لم تكن عضلاته تستعرض قوتها كما تفعل عضلات تشي، بل كانت مختبئة تحت جسم يبدو كأنه صُمم للسرعة والتحمل أكثر مما صُمم للاستعراض.

كان وجهه هادئاً إلى درجة تثير الانتباه.

لا ابتسامة زائدة، لا حركات عصبية، ولا ذلك البريق الذي يسبق عادةً رجالاً يتنافسون على أعظم مهمة في تاريخ الملاحة الفضائية. عيناه الرماديتان عميقتان، ساكنتان، وفيهما شيء يصعب على المرء تحديده؛ لم تكونا عيني رجل خائف، ولا عيني رجل متحمس.

كانتا عيني رجل رأى شيئاً أسوأ من الخوف.

قبل سنوات، كان جوليان شخصاً مختلفاً.

كانت له حياة على الأرض، وخطط للمستقبل، وامرأة كان يعتقد أنه سيقضي معها بقية عمره. كانت خطيبته وحبيبته ومرساته الوحيدة في العالم. ثم، في ليلة واحدة، انهارت تلك الحياة كلها.



اخْتُطِفْتُ.

ثم تعرضت للاعتداء.

ثم قُتِلْتُ.

ولم يستطع جوليان، مهما حاول، أن يعيد الزمن إلى الوراء كي يمنع ما حدث. في السنوات التالية، لم ينهر أمام الآخرين بالطريقة التي توقعها الناس. لم يترك عمله، ولم يصرخ، ولم يحطم الأشياء، ولم يبحث عن طريقة درامية للانتقام. فعل شيئاً أكثر هدوءاً وأشد قسوة : انسحب إلى داخله.

تعلم كيف يعيش بوجه طبيعي فوق خراب لا يراه أحد.

كان يذهب إلى عمله في الموعد، يؤدي مهامه بدقة، يجيب عن الأسئلة، يجتاز الاختبارات، يبتسم عندما ينبغي أن يبتسم، ويجلس أمام الأطباء النفسيين التابعين للوكالة ببرود رجل يعرف تماماً أن كل كلمة زائدة قد تضعه خارج الوكالة.

لم يكن يخدعهم بالكذب الصريح.

كان يخفي عنهم الحقيقة فقط.

حقيقة أن جزءاً منه ظل عالقاً في تلك الليلة.

وحقيقة أخرى أكثر خطورة : أنه لم يعد يخشى الموت كما يخشاه معظم البشر.

ولهذا، عندما قرأ جوليان إعلان المهمة، لم يرَ فيه ما رآه الآخرون.

لم يرَ المجد.

ولم يرَ التاريخ.

ولم يرَ الاسم الذي سيكتب في الكتب.

رأى مخرجاً.

مخرجاً بعيداً، صامتاً، لا يحتاج إلى قتل أحد، ولا إلى الانتقام من أحد، ولا حتى إلى تفسير شيء لأحد.

إذا كانت المركبة لن تعود، وإذا كان الرجل الذي سيقودها سيقضي بقية حياته في مكان لا تصل إليه يد الأرض، فلماذا يخاف جوليان من ذلك؟

لقد كان، بطريقة ما، قد بدأ يغادر الأرض قبل أن تصله المهمة.  
ولهذا تقدم إليها بإصرار لم تستطع اللجنة تجاهله.  
بدأت الاختبارات.

وفي الأيام التالية، تحولت منشآت الوكالة إلى عالم مغلق لا يشبه شيئاً من الحياة العادية. أُخضع الرجلان لسلسلة طويلة من الفحوص الفيزيولوجية والاختبارات الحركية، ثم نُقلا إلى مختبرات المحاكاة التي صُممت خصيصاً للمشروع.

اختُبرت قدرتهما على تحمل التسارع المفاجئ، والتغيرات السريعة في الضغط، والاضطرابات الجاذبية، والعزلة الحسية، وفقدان الإحساس بالاتجاه. وُضعا داخل حجرات محاكاة تتغير فيها القوى المؤثرة على الجسم خلال أجزاء من الثانية، ثم أُجبر كل منهما على أداء سلسلة من العمليات

الحسابية والملاحية في الوقت نفسه.

كان المطلوب شيئاً يتجاوز قوة الجسد.

كان المطلوب معرفة ما الذي يحدث للإنسان عندما يبدأ جسده في الصراخ بينما يُطلب من عقله أن يبقى هادئاً.

في الاختبارات الفيزيائية، كان تشي مذهلاً.

تفوق في القوة، وفي سرعة الاستجابة، وفي بعض اختبارات التحمل، وكان قادراً على استعادة توازنه بسرعة بعد أقسى مراحل المحاكاة. بدا كأنه صُنِع لهذه المهمة تحديداً. وفي إحدى جلسات الاختبار، سجل فارقاً بسيطاً لكنه كافٍ في زمن الاستجابة جعله يتقدم على جوليان.

ابتسم تشي عند ظهور النتيجة.

لم يقل شيئاً.

لكنه كان يعرف أن السباق أصبح قريباً من يده.

ثم بدأت الاختبارات النفسية.

وهنا تغير كل شيء.

أدخل الرجلان إلى محاكاة طويلة للعزلة، صُممت بحيث لا يعرف المشاركون كم

مضى من الوقت. أُزيلت النوافذ، خُففت الإضاءة، قطعت الاتصالات الخارجية، وأُعطي كل منهما سلسلة من المهام التي تتطلب التركيز بينما تتعرض حواسه لضغط مستمر.

بعد ساعات طويلة، بدأ التعب يظهر.

وبعد وقت أطول، بدأت العقول تكشف ما تخفيه عادةً.

تشبي بدأ يتوتر.

كان يستطيع السيطرة على جسده، لكنه لم يستطع السيطرة بالسهولة نفسها على عقله حين أصبح العالم من حوله صامتًا تمامًا. كان بحاجة إلى شيء ينتظره في النهاية؛ إشارة، موعد، نجاح، عودة إلى الأرض.

كان يريد الذهاب إلى المجهول، لكنه ظل متعلقًا بالشيء الذي سيتركه وراءه.

أما جوليان، فلم يكن لديه ذلك القيد.

كان الصمت بالنسبة إليه مألوفًا.

والغياب لم يكن فكرة جديدة.

والفقد لم يكن احتمالًا مستقبليًا.

لقد عاشه بالفعل.

في المرحلة الأخيرة من الاختبار، وُضع الاثنان أمام محاكاة لفشل كامل في نظام العودة. ظهرت على الشاشة أمامهما رسالة حمراء :

تعذر استعادة المسار إلى الأرض.

كان المطلوب منهما مواصلة المهمة العلمية وفق البروتوكول، رغم معرفتهما بأنهما لن يعودا.

تشبي بقي صامتًا لثوانٍ أطول من اللازم.

ثم بدأ يبحث عن بدائل.

أما جوليان فقرأ الرسالة مرة واحدة، ثم تابع العمل.

راقبه الطبيب النفسي من خلف الزجاج.

لم تكن في وجهه شجاعة استعراضية.  
ولا تحدّ.

ولا حتى خوف.

كان هناك شيء أكثر برودة من ذلك كله.  
القبول.

وعندما انتهت الاختبارات، لم يحتج أعضاء اللجنة إلى كثير من النقاش.  
كان تشي أفضل في بعض الجوانب التي يمكن تدريبها، لكن جوليان كان يمتلك شيئاً لا يمكن تدريسه في أي أكاديمية، ولا زرعه في عقل إنسان خلال سنوات من التدريب.

كان يعرف كيف يعيش مع فكرة النهاية.  
وفي صباح اليوم التالي، اجتمعت اللجنة العليا في قاعة مغلقة.  
ظهرت النتائج على الشاشة.

القدرة البدنية : تشي.

سرعة الاستجابة : تشي.

التحمل الفيزيائي : تشي بفارق محدود.

المهارات الملاحية : تقارب شديد.

القدرة على العمل تحت الضغط : جوليان.

التحمل النفسي للعزلة : جوليان بفارق كبير.

الاستقرار الانفعالي في سيناريو عدم العودة : جوليان.

الصمود أمام الانفصال النهائي عن الأرض : جوليان.

ظل أعضاء اللجنة صامتين للحظات.

ثم رفع رئيسها الملف الأخير وقال :

- نحن لا نختار أفضل رجل لهذه الرحلة.  
توقفت عيناه عند الاسم الموجود أمامه.

- نحن نختار الرجل الأكثر قدرة على إكمالها.  
وهكذا حُسم القرار.  
جوليان.

حين وصل الخبر إلى تشي، بقي واقفاً أمام الشاشة دون أن يتكلم. لم يكن غاضباً، ولم يحتج، ولم يطلب إعادة الاختبار. لقد خسر السباق أمام رجل كان، من الناحية البدنية، أقل منه قليلاً، لكنه كان يحمل في داخله شيئاً لم يستطع تشي أن ينافسه فيه. كان تشي يريد أن يذهب إلى التاريخ.

أما جوليان، فأراد أن يخرج من التاريخ، فاختاره التاريخ لهذا السبب.  
وفي مكان آخر من المنشأة، كان جوليان يقرأ قرار اللجنة بصمت.  
لم يبتسم.

لم يشعر بالنصر.

ولم يشعر حتى بالفخر.

شعر بشيء واحد فقط :

أنه يقترب أخيراً من الخلاص النفسي الذي طارده لسنوات دون أن يطاله..  
نظر من نافذة غرفته إلى سماء الليل .. رأى وجه خطيبته الراحلة جولي في فضاء الكون يبتسم له ويناديه ..

تمتم وعيناه تختنقان بالدموع :

- أنا آتٍ حبيبتي .. سنلتقي أخيراً من جديد ..

# الفصل السادس

## طاقة في فضاء الكون

جاء ذلك النهار مختلفًا عن كل ما سبقه.

منذ الساعات الأولى للفجر، بدا أن شيئًا ما في العالم قد تغير؛ كأن الأرض نفسها كانت تعرف أن يومًا استثنائيًا قد حلّ، وأنها تستعد لتودّع واحدًا من أبنائها في رحلة لا تشبه أي رحلة عرفتھا البشرية من قبل.

كانت السماء فوق مركز الإطلاق ملبدة بسحب رمادية ثقيلة، تتسلل بينها خيوط شاحبة من ضوء الصباح. والرياح الباردة تمر فوق الساحات والمنشآت المعدنية فتطلق صفيّرًا متقطعًا بين أبراج الخدمة، بينما الأضواء البيضاء المثبتة حول منصة الإطلاق تشق الضباب وتلقي على كل شيء مسحة شبه سريالية.

وفي قلب ذلك المشهد، كانت المركبة الفضائية تنتصب فوق صاروخ الإطلاق.

لم تكن تبدو كالمركبات التي اعتاد البشر إرسالها إلى الفضاء.

كانت أطول، وأكثر انسيابية، ذات جسد مغزلي مصقول من سبائك التيتانيوم المطفأ، لا يكاد يعكس الضوء. وفي منتصفها ظهرت الحلقات الضخمة التي صُممت لتوليد الحقول الزمكانية؛ دائرتان معدنيتان متداخلتان، صامتان الآن، لكنهما تحملان في تصميمهما وعدًا مخيفًا بقدرة لم يسبق للإنسان أن امتلكها.

كان الصاروخ الذي يحملها هائلًا إلى درجة جعلت المركبة تبدو للحظة وكأنها جزء من مخلوق أسطوري أكثر منه آلة من صنع البشر. امتد جسده العمودي حتى بدا وكأنه يريد أن يخترق السماء قبل أن يبدأ الإطلاق أصلاً. وكانت أبراج الخدمة الهيدروليكية تحيط به من الجانبين، متصلة به عبر أذرع وممرات معدنية، بينما أنابيب الوقود والتجهيزات تمتد حوله في شبكة معقدة تشبه شرايين عملاق اصطناعي.

ومن أسفل هيكله، كانت أبخرة الأكسجين السائل تتسرب في خيوط بيضاء كثيفة، تنساب على الأرض ثم تتلاشى ببطء في الهواء البارد.

كل شيء كان ساكنًا.

لكن ذلك السكون لم يكن سكونًا حقيقيًا، كان سكون ما قبل الانفجار.

على مسافة آمنة من منصة الإطلاق، تجمع الآلاف.

كانوا يقفون في الساحات والتلال والمناطق المخصصة للمراقبة، يحمل بعضهم أعلامًا صغيرة، ويحمل آخرون هواتفهم وكاميراتهم مرفوعة نحو السماء. عائلات

جاءت منذ ساعات، علماء وطلاب، صحفيون، مسؤولون، فضوليون، وأناس قطعوا آلاف الكيلومترات فقط ليقولوا لاحقًا :

لقد كنت هناك يوم حدث ذلك.

لم يكن أحد يعرف تمامًا ما الذي سيحدث بعد الإطلاق.

صحيح أن عشرات التجارب والمحاكاة كانت قد سبقت هذه اللحظة، وأن المركبة اجتازت اختبارات لا حصر لها، وأن أفضل العقول العلمية في العالم وقّعت على صلاحية المهمة.

لكن المعرفة شيء.

والواقع شيء آخر.

كان الجميع يعرف أن المركبة ستصل إلى الفضاء.

أما ما سيحدث عندما تُفعل فقاعة الاوجاج للمرة الأولى، فلم يكن أحد يستطيع أن يضمّنه بالكامل.

ولهذا اختلط الحماس بالخوف.

بعض الناس كانوا يتحدثون بصوت منخفض.

آخرون كانوا يراقبون المنصة بصمت.

وهناك من أغلق عينيه للحظات وتمتم بدعاء.

وفي البيوت حول العالم، كان المشهد نفسه يتكرر.

في غرف المعيشة، والمقاهي، وقاعات الجامعات، والمستشفيات، ومحطات القطارات، كانت الشاشات تعرض البث المباشر للحدث.

ملايين البشر كانوا ينظرون إلى المركبة ذات الجسد المعدني الصامت، وربما لم يدرك معظمهم أنهم لا يشاهدون مجرد إطلاق فضائي. كانوا يشاهدون محاولة الإنسان الأولى لانتزاع نفسه من قبضة المسافة.

في الداخل، خلف الأسوار الأمنية، كان كل شيء يتحرك بدقة تكاد تكون آلية.

فرق الإطلاق تراجع المؤشرات.

المهندسون يراقبون ضغوط الوقود.



أجهزة الاتصال تختبر القنوات مرة بعد أخرى.  
وأنظمة المركبة تعيد فحص نفسها للمرة الأخيرة.  
كل رقم يجب أن يكون في مكانه.  
كل صمام يجب أن يستجيب.  
كل إشارة يجب أن تصل في جزء من الثانية.  
لم يكن هناك مجال للخطأ.  
وفي مكان ما من ذلك العالم المعدني، كان جوليان يستعد.  
كان يرتدي بزته البيضاء الثقيلة، المصممة لتحمل التغيرات العنيفة في الضغط  
والجاذبية، وعلى صدره مجموعة من الوصلات وأجهزة الاستشعار التي ستراقب  
وظائف جسده لحظة بلحظة.  
مشى باتجاه المركبة ببطء.  
ليس خوفاً.  
بل لأن كل خطوة بدت له أثقل من سابقتها.  
كان يعرف أن هذه قد تكون آخر مرة تطأ فيها قدماه الأرض بالطريقة التي عرفها  
طوال حياته.  
وبينما كان يتجه نحو المصعد المؤدي إلى برج الإطلاق، لم يعد يسمع ضجيج  
المكان من حوله كما كان يسمعه قبل دقائق. خفتت أصوات المهندسين، وتلاشت  
حركة الآليات، وحتى الريح بدت وكأنها ابتعدت عنه.  
حلت محلها صور قديمة.  
هي فقط.  
خطيبته الراحلة جولي.  
تذكر أول مرة رآها فيها، والطريقة التي حاول بها أن يخفي ارتبائه أمامها،  
والابتسامة التي لم يستطع منعها من الظهور على وجهه. تذكر صوتها وهي تناديه  
باسمه، والضحكة التي كانت تسبق كلماتها أحياناً، والليالي الطويلة التي كانا  
يتحدثان فيها عن المستقبل وكأن المستقبل مكان يعرفانه بالفعل.

تذكر يديها.

كانت تمسك يده كلما شعرت أنه شرد بعيداً عنها، وتعيده إلى اللحظة ببساطة لا تحتاج إلى تفسير.

ثم تذكر حادثة الاعتداء و القتل .. فاختنقت عيناه بالدموع

لم يعد يتذكر كم مرة أعاد تلك الحادثة في رأسه خلال السنوات الماضية.  
في المختبر.

أثناء التدريبات.

في ليالي المحاكاة الطويلة.

وحتى وهو نائم.

كانت كأنها خيط رفيع يصل بينه وبين السماء، مهما احتضنته الأرض.

توقف جوليان لحظة قبل أن يصعد إلى المصعد.

رفع رأسه نحو المركبة.

وللمرة الأولى منذ بدأ هذا المشروع، لم يرَ فيها آلة عظيمة، ولا إنجازاً علمياً، ولا بوابة إلى المجهول.

راها طريقاً إليها.

ابتسم ابتسامة صغيرة، ثم صعد.

ارتفعت المنصة ببطء.

تحت قدميه أخذت الأرض تبتعد تدريجياً، بينما برج الإطلاق يصعد به نحو المركبة.

وحين وصل إلى المدخل، توقف للحظة.

وضع يده على حافة الباب.

تخيل وجهها مرة أخرى.

ثم دخل.

كانت قمرة القيادة ضيقة، لكنها شديدة التعقيد.

كل شيء حوله كان محسوبًا بالمليمتر؛ المقاعد، وحدات التحكم، الشاشات، أنظمة الطوارئ، ومصفوفات الاتصالات.

جلس جوليان في مقعده.

أغلق الحزام الأول.

ثم الثاني.

ثم الثالث.

وتأكد من تثبيت خوذته.

أمام عينيه اشتعلت الشاشات تباعًا.

مستويات الطاقة.

ضغط المقصورة.

درجة حرارة النواة.

حالة الحلقات الزمكانية.

أنظمة الدفع.

ثم ظهرت أمامه مصفوفة التلسكوبات الرقمية فائقة الحساسية، مطوية الآن داخل هيكل المركبة، تنتظر اللحظة التي ستخرج فيها إلى الفضاء وتبدأ مهمتها الغريبة :

أن تنتظر إلى الأرض...

لكن ليس إلى الأرض التي يراها جوليان من نافذته.

بل إلى الأرض التي كانت موجودة قبل آلاف السنين.

مد يده ولمس لوحة التحكم، فظهرت رسالة على الشاشة :

**جميع الأنظمة جاهزة.**

أخذ نفسًا عميقًا، ثم أغمض عينيه لثوانٍ.

لم يفكر في المجد.

ولا في التاريخ.

ولا في الملايين الذين يشاهدونه.

فكر فيها.

في عينيها وهي تبسم له ...

في صوتها وكأنها تنادي عليه ...

في يدها الحانية وكأنها تشده إلى عالمها ...

ثم فتح عينيه وقال بهدوء:

- ستطوى صفحة الحزن اليوم كما سيطوى نسيج الزمكان .. فالآن أنا قادم إليك.

في مركز التحكم، بدأت الأرقام تتناقص.

عشرون...

تسعة عشر...

ثمانية عشر...

كل ثانية كانت تمر ببطء غريب، وكأن الزمن نفسه أدرك أن هناك شيئاً على وشك الحدوث فقرر أن يمد اللحظة قليلاً.

في الخارج، كان الآلاف يراقبون.

وعلى الشاشات حول العالم، كانت ملايين العيون معلقة بالرقم المتناقص.

عشرة...

تسعة...

ثمانية...

تسارعت أنفاس جوليان.

سبعة...

ستة...

بدأت المحركات بالاشتعال.

خمسة...

اهتزت المركبة.

أربعة...

ارتفع هدير هائل من أسفل منصة الإطلاق.

ثلاثة...

انفجرت الأضواء البرتقالية تحت الصاروخ.

اثنان...

اهتزت الأرض.

واحد...

ثم انقطع كل شيء للحظة.

لحظة واحدة فقط.

وبعدها...

انفجر النهار.

اندفعت ألسنة النار من قاعدة الصاروخ كأن الأرض نفسها قد فتحت فمها. ارتفعت سحابة هائلة من البخار والدخان، وضربت موجة الصوت الساحات البعيدة، فاهتزت معها النوافذ والمنشآت والأسوار.

ثم بدأ الصاروخ يصعد.

ببطء في البداية.

ثقيلاً.

متردداً كأن الجاذبية تمسك به بكل ما لديها.

ثم ارتفع أكثر.

وأسرع.

وأسرع.

كان جوليان يشعر بجسده يُدفع إلى المقعد، بينما تتضاعف قوى التسارع حوله. لم يعد يسمع صوت المحركات كما يسمعها الإنسان عادة؛ تحول الصوت إلى اهتزاز عميق يعبر جسده كله.

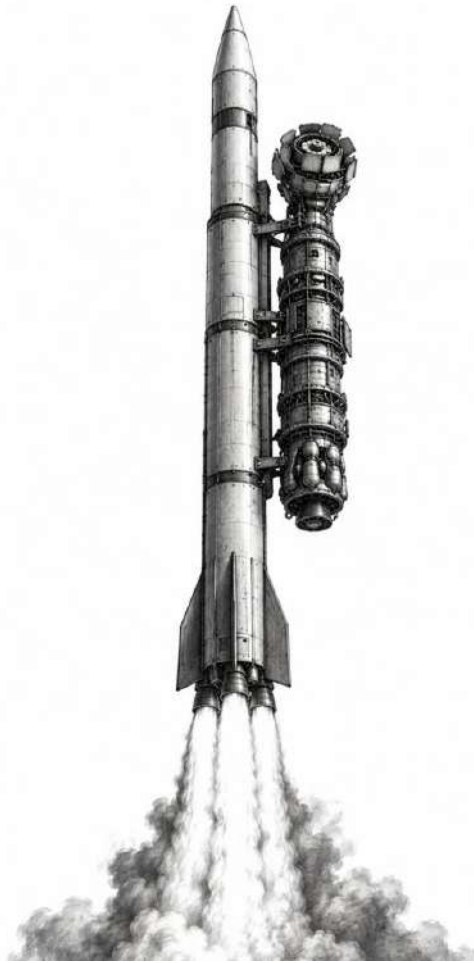
كانت الأرض تنسحب تحته.

المنصة تصغر.

السحب تقترب.

ثم بدأت السماء نفسها تتغير.

اخترق الصاروخ الطبقات الأولى من الغلاف الجوي، وتحول الهواء أمامه إلى وهج كثيف. الحرارة تضرب الدرع الخارجي، بينما الشاشات تعرض أرقامًا تتغير بسرعة مذهلة.



ظل جوليان ثابتًا.

عيناه على المؤشرات.

يداه لا تتحركان إلا عندما يتطلب النظام ذلك.  
وفي الخارج، كان العالم يبتعد.  
لم يكن المشهد بالنسبة إلى جوليان يشبه ما تخيله طوال حياته.  
لم يكن هناك صوت سينمائي، ولا موسيقى، ولا كلمات عظيمة.  
كان هناك فقط ضوء.  
واهتزاز.  
وأرقام.  
ونفسه الذي يرتفع وينخفض داخل الخوذة.  
ثم، فجأة، خفت الاهتزاز.  
تراجع الضغط.  
وتحولت الشاشة أمامه من الأحمر إلى الأخضر.  
لقد وصل إلى الفضاء الخارجي، وظهر على الشاشة أمامه :  
**المدار الأولي : مستقر.**

رفع جوليان عينيه نحو النافذة.  
وللمرة الأولى، رأى الأرض كاملة.  
كانت هناك.  
كروية.  
زرقاء.  
هشة.  
معلقة وسط السواد.  
ظل ينظر إليها دون أن يقول شيئاً.  
وفي تلك اللحظة، فهم للمرة الأولى معنى المسافة.  
كل ما تركه كان هناك : أحبائه .. ذكرياته .. عمله .. أحلامه ... وآلامه.

في مركز التحكم، انفجرت القاعة بالتصفيق.  
تعالّت الهتافات.

احتضن المهندسون بعضهم بعضًا.  
فبعد سنوات من الحسابات، والفشل، والتجارب، والليالي التي لم تعرف النوم،  
أصبحت المركبة الآن في الفضاء.  
لقد نجح الجزء الأول.  
لكن البروفيسور كلاوس، الذي كان يراقب البيانات من خلف شاشته، لم يشاركهم  
الاحتفال طويلاً.  
ظل واقفاً.

عيناه على المؤشرات.  
كان يعرف أن الصعود إلى الفضاء لم يكن المهمة الحقيقية.  
كان مجرد الباب.  
أما خلف الباب...  
فثمة شيء آخر تمامًا.

في مدار الأرض المنخفض، كانت المركبة قد بلغت أخيراً النقطة التي لم يعد فيها  
لصوت الأرض حضور.

تحتها، الكوكب الأزرق يدور ببطء في صمت مهيب، محاطاً بطبقة رقيقة من  
الغلاف الجوي تبدو من ذلك الارتفاع كخط أزرق شفاف يكاد لا يُرى. وفوقها، لم  
تكن هناك سماء بالمعنى الذي عرفه البشر طوال تاريخهم؛ لم يكن هناك أفق، ولا  
غيوم، ولا زرقة، بل امتداد أسود لا نهائي، تنتثر فيه النجوم كحبات ضوء معلقة  
في فراغ لا قرار له.

المركبة تسبح وحدها.

وببطء، بدأ الصاروخ الذي حملها إلى هذا الارتفاع يتخلّى عنها.  
انفصلت الوصلات الميكانيكية واحدة تلو الأخرى، ثم جاءت اللحظة الحاسمة.  
اهتز الهيكل اهتزازة خفيفة.



وانطلقت دفعة صغيرة من الغازات والجسيمات المتجمدة، تشكلت في الفضاء على هيئة سحابة بيضاء دقيقة سرعان ما تلاشت.

ثم بدأ الصاروخ يبتعد.

تراجعت خزانات الوقود الفارغة والمحركات المساعدة، وهي تفقد تدريجيًا سرعتها، حتى بدت من خلال كاميرات المركبة كهيكل عملاق يحتضر ببطء بعد أن أدى وظيفته.

أما المركبة...

فقد أصبحت حرة.

ظل جوليان يراقب عملية الانفصال على الشاشة دون أن يتكلم.

رأى الصاروخ يبتعد شيئًا فشيئًا، ثم بدأ مساره ينحني تحت تأثير الجاذبية، عائدًا إلى مصيره المحتوم داخل الغلاف الجوي.

بعد دقائق، اختفى.

لم يعد أمام جوليان سوى السواد.

والنجوم.

والأرض.

والمركبة.

ولأول مرة منذ بداية الرحلة، لم يكن هناك شيء يدفعه إلى الأمام.

لا محركات صاروخية.

لا وقود مشتعل.

لا هدير.

فقط سكون كوني كامل.

كانت المركبة التي صممها كلاوس تبدو في ذلك السكون ككائن أسود هائل يستعد للسباحة في محيط لا نهاية له. انعكست أضواء الأجهزة على درعها المصنوع من التيتانيوم المطفأ، بينما ظلت حلقات الدفع الضخمة ساكنة حول جسدها المغزلي.

لكن ذلك السكون لم يكن نهاية الحركة.  
كان بدايتها الحقيقية.  
في الداخل، جلس جوليان في قمرة القيادة.  
كان يسمع صوت تنفسه داخل الخوذة بوضوح.  
شهيق.  
زفير.  
ثم شهيق آخر.  
وعلى الشاشات أمامه، كانت أنظمة المركبة تعيد فحص نفسها للمرة الأخيرة.  
ضغط النواة مستقر.  
العزل الكمومي فعال.  
مصفوفات التلسكوبات جاهزة.  
مستويات الطاقة ضمن الحدود.  
حلقات الدفع في وضع الاستعداد.  
ظهر أمامه آخر تحذير:

### **تشغيل منظومة الكوبير سيبدأ بعد التأكيد.**

ظل جوليان ينظر إلى العبارة.  
لم يكن هذا زراً لتشغيل محرك عادي.  
لم يكن محركاً يدفع المركبة عبر الفضاء.  
كان النظام الذي سيطلب من الفضاء نفسه أن يتحرك كأول تجربة من نوعها في التاريخ البشري.  
رفع جوليان يده.  
توقفت أصابعه فوق لوحة التحكم.  
وفي تلك اللحظة، عادت إليه صورتها.

وجهها المسالم وهي في النعش.

أغمض عينيه لحظة .. وانهمرت الدموع من طرفيها.

كانت صورتها ما تزال واضحة في ذهنه وكأنها بالأمس.

قال بصوت خافت:

- فلنطوي الزمكان الآن ولنطوي البعد بيننا معه إلى الأبد.

ثم ضغط الزر بإصرار.

لم يحدث شيء في البداية.

وللحظة واحدة، بدا وكأن النظام لم يستجب.

ثم ظهرت على الشاشة عبارة واحدة :

### **بدأ التوليد.**

اهتزت المركبة.

ليس اهتزازًا عنيفًا.

بل ارتعاشة عميقة، بالكاد شعر بها جوليان، كأن شيئًا هائلًا في مكان ما تحت حدود

الواقع بدأ يستيقظ.

ثم تحركت الحلقة الداخلية.

دورة واحدة.

ثم ثانية.

ثم أسرع.

بدأت الحلقة الخارجية بالدوران في الاتجاه المعاكس.

ارتفع الطنين داخل المركبة.

ببطء في البداية.

ثم أخذ يتصاعد.

تسارعت الحلقات حتى لم يعد جوليان يرى معدنها بوضوح؛ تحولت إلى دوائر

ضبابية تحيط بالمركبة، ثم إلى أطواق من الضوء والحركة.  
بدأت المؤشرات على الشاشات تقفز.

الطاقة ترتفع.

الحقول تتشكل.

ضغط الفراغ يتغير.

ثم ظهر شيء لم تره البشرية من قبل إلا في المحاكاة.  
خط رفيع من الضوء ظهر أمام المركبة.

ارتجف.

ثم انحنى.

ثم اختفى.

وفي اللحظة نفسها، انكمش الفضاء أمام المركبة.

لم يكن الأمر مجرد انطباع بصري.

كانت المسافات نفسها تتغير.

النسيج الهندسي الذي عرضته أنظمة القياس أمام جوليان بدأ ينضغط، وكأن يدًا  
عملاقة غير مرئية أمسكت بالكون من مقدمته وسحبته نحو نقطة واحدة.

الفضاء أمام المركبة تقلص.

والفضاء خلفها تمدد.

خطوط الشبكة الهولوجرافية على الشاشة راحت تتقارب في الأمام حتى أصبحت  
كثيفة بصورة تكاد تعمي البصر، بينما أخذت تتباعد خلف المركبة، تفتح وتتسع  
كأن الكون يُفرش خلفها على امتداد لا نهاية له.

ثم حدث الأمر....

ولدت الفقاعة.

لم يكن هناك انفجار.

ولا صوت هائل.

بل تغير صامت، مرعب في بساطته.  
انحنى الزمكان حول المركبة، وتشكلت الحدود غير المرئية للفقاعة التي ستحتويها.  
وفي داخلها...  
كان كل شيء هادئاً.  
رفع جوليان رأسه.  
نظر إلى الشاشات الهولوجرافية المحيطة به.  
كان المشهد أمامه أشبه بالكون وقد وضع داخل عدسة جاذبية عملاقة.  
في مقدمة المركبة، تراكم الضوء.  
الفوتونات التي كانت في طريقها إلى الفقاعة اصطدمت بالنتشوه الزمكاني أمامها،  
فتجمعت في وهج أبيض شديد يميل إلى الزرقة.  
لم يعد الأفق الأمامي يبدو كفضاء مفتوح.  
كان جداراً من الضوء.  
أما خلف المركبة، فقد حدث العكس.  
تراجعت النجوم.  
انطفأت.  
وتحولت المساحة الخلفية إلى سواد عميق، حتى بدا وكأن الكون نفسه قد اختفى  
خلف المركبة.  
لكن جوليان لم يشعر بشيء.  
لا ضغط.  
لا ألم.  
لا سحق.  
لا قوة تحاول تمزيق جسده.  
كان يجلس في مقعده بهدوء، وكأن المركبة ما تزال واقفة على الأرض.

وكان ذلك هو الإنجاز الذي عمل كلاوس من أجله طوال السنوات الماضية.

**التحكم بالتهجين الكمومي المستمر.**

النظام الذي يعزل النواة عن العنف الجاذبي الهائل الذي يحدث خارجها، ويحافظ داخل الفقاعة على هندسة مستقرة تسمح للطاقم بالوجود في حالة شبه ساكنة، بينما يتغير الزمكان من حولهم.

جوليان وضع يده على صدره.

قلبه ينبض طبيعياً.

دقات منتظمة.

نبضة.

ثم أخرى.

لكن شيئاً في داخله لم يكن طبيعياً.

كان يشعر بأنه ابتعد فجأة عن كل ما يسمى «الزمن».

لم يعد يشعر أن الساعة على معصمه تعبر اللحظات بالطريقة نفسها.

الدقائق لم تعد تبدو كدقائق.

والثواني فقدت معناها القديم.

كان هناك إحساس غريب، عميق، بأن حياته السابقة بقيت في مكان ما خلفه، وأنه الآن يتحرك في طبقة أخرى من الوجود.

كأنه لم يغادر الأرض فحسب.

بل غادر الزمن الذي كانت الأرض تعرفه.

ثم بدأت المركبة تتحرك.

أو بالأحرى...

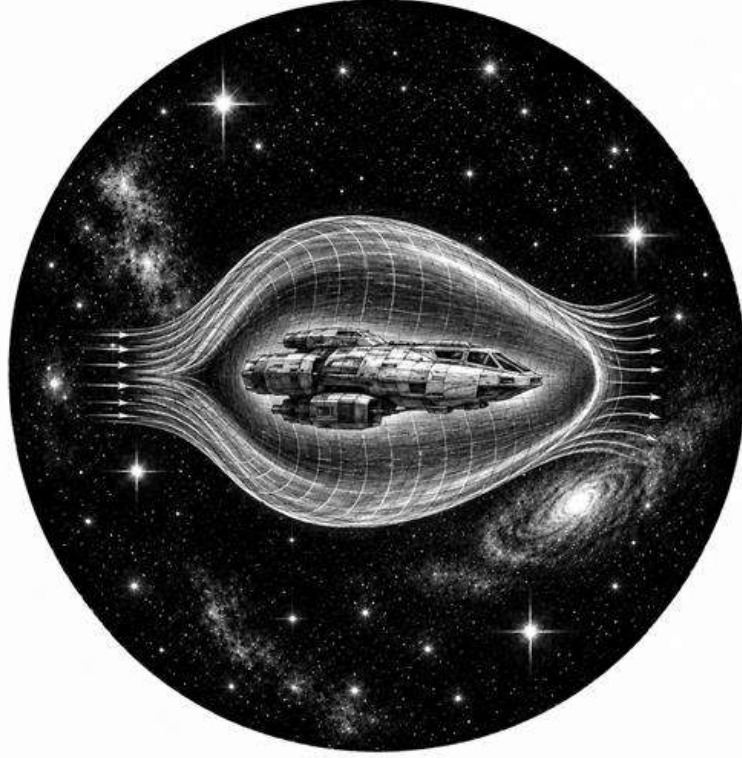
بدأ الفضاء يتحرك بها.

لم تعد المحركات تدفعها إلى الأمام.

فالفضاء أمامها كان ينكمش.

والفضاء خلفها يتمدد.

والفقاعة بأكملها تنزلق فوق نسيج الزمكان كقارب تحمله الأمواج حملاً.



في الخارج، لو كان هناك مراقب يستطيع رؤيتها، لبدت المركبة وكأنها اندفعت  
بسرعة مستحيلة، تتجاوز الضوء نفسه.

أما جوليان، فبقي جالساً في هدوء داخل الفقاعة.

لم يشعر بسرعة.

لم يشعر بتسارع.

لم يشعر حتى بالحركة.

لكن الكون من حوله كان يتغير.

النجوم لم تعد نقاطاً ثابتة.

كانت تنساب.

تتمدد.

ثم تختفي.

والأرض التي كانت قبل لحظات كرة زرقاء ضخمة في نافذته، أصبحت نقطة بعيدة.

ثم نقطة أصغر.

ثم مجرد ضوء.

ثم لم تعد تُرى بالعين.

لقد بدأ العبور.

مرت لحظات قصيرة ... وربما مرت ساعات.

لم يعد جوليان يعرف.

كان ينتظر شيئاً واحداً.

ولم يتأخر كثيراً ..

ظهرت أول إشارة على مصفوفة التلسكوبات الرقمية.

كانت المنظومة قد بدأت العمل.

تحركت المرايا والمستشعرات داخل الهيكل.

وانفتحت المصفوفة تدريجياً.

لم تكن التلسكوبات تبحث عن النجوم، بل كانت تبحث عن شيء أكثر غرابة،

عن الضوء الذي غادر الأرض منذ زمن بعيد.

وجه جوليان المنظومة نحو كوكبه الأم.

ثم ظهرت أرقام على الشاشة.

المسافة.

زاوية الرصد.

الطيف الضوئي.

الماضي لم يعد فكرة.

لم يعد كتاباً.



ولم يعد مجرد أثر محفوظ في الذاكرة.  
كان يصل إليه الآن على هيئة ضوء.  
في مقر الوكالة، كان العلماء ينتظرون.  
لم يتحدث أحد.  
كانت العيون معلقة بالشاشات.  
وما إن تشكلت فقاعة الاعوجاج بنجاح و انطلقت المركبة في الفضاء حتى تغير  
المزاج العام كلياً من القلق إلى الارتياح و البهجة ..  
انفجرت قاعة المراقبة بالتصفيق.  
تعالّت الصرخات.  
وقف العلماء من مقاعدهم.  
احتضن المهندسون بعضهم بعضاً.  
أحدهم بكى.  
آخر أخذ يضحك من شدة التوتر الذي انكسر فجأة.  
واختزلت سنوات العمل والكّد كلها في لحظة واحدة.  
سنوات المعادلات.  
سنوات التجارب.  
الليالي الطويلة.  
الفشل.  
الشك.  
الأخطاء.  
الاعتراضات.  
كلها بدت فجأة كأنها كانت تقود إلى هذه اللحظة التاريخية ..  
لكن وسط ذلك الجنون من الفرح، ظل البروفيسور كلاوس واقفاً في مكانه.

لم يصفق.

لم يصرخ.

كان ينتظر الصور التي سترسلها المركبة، لتثبت إن كانت فكرة المخرجة كريستينا مير قابلة للتطبيق أم أنها مجرد مادة لأفلام الخيال العلمي.

وفي عينيه لم يكن هناك انتصار رجل انتهى من مهمته، بل دهشة رجل أدرك أن الباب الذي حاول فتحه طوال حياته... قد انفتح فعلاً ولا يزال ينتظر ليعرف ما الذي يقبع خلف ذلك الباب؟

أما جوليان، فكان لا يزال في قلب الفقاعة.

وحول مركبته، كان الكون ينحني ويُطوى.

وراءه كان الماضي يتشكل على هيئة صور.

وفي مكان ما أمامه، بعيداً عن كل ساعة وتقويم، كانت تنتظره المرأة التي قال لها قبل الرحيل :

أنا قادم إليك.

أما الآن...

فقد بدأ الطريق إليها بالفعل .. وبدأ وعده الأخير يتحقق.

# الفصل السابع

## التاريخ تحت المظفر

في أعرق نقطة من المجمع الرقمي لوكالة ناسا، بعيداً عن صخب مراكز الإطلاق وغرف الاجتماعات والممرات التي لا تهدأ، كانت هناك قاعة لا يدخلها إلا عدد محدود من الأشخاص.

قاعة استقبال الصور.

كان الوصول إليها يمر عبر سلسلة من الأبواب الأمنية الثقيلة، وكل باب منها لا يُفتح إلا بعد التحقق من هوية الداخل وسلامة تصريحه. وحين ينغلق الباب الأخير خلف الزائر، يختفي العالم الخارجي تمامًا.

لا أصوات.

لا نوافذ.

لا ضوء طبيعي.

فقط طنين منخفض ومستمر يأتي من الخوادم العملاقة المنتشرة في الطبقات السفلية من المجمع، حيث أنظمة التبريد النيتروجيني تعمل بلا توقف للحفاظ على حرارة المعالجات التي ستستقبل الآن واحدة من أغرب الإشارات التي التقطها الإنسان في تاريخه.

كانت القاعة أشبه بغرفة عمليات.

لكنها لم تكن تستعد لإنقاذ جسد.

كانت تستعد لاستقبال الماضي.

الجدران مكسوة بألواح سميكة عازلة للموجات الكهرومغناطيسية، حتى لا تتسلل أي إشارة خارجية إلى النظام الحساس. وعلى امتداد القاعة ارتفعت شاشات هولوغرافية هائلة من الأرض إلى السقف، تنبض بوهج أزرق خافت، فتغرق الوجوه الواقفة أمامها في ضوء بارد يجعل الجميع يبدون كأنهم أشخاص خرجوا لتوهم من عالم آخر.

وفي منتصف القاعة، كانت المنصة الدائرية الرئيسية تستعد لاستقبال البيانات القادمة من المركبة.

لم تكن البيانات تصل بالطريقة التقليدية.

كانت ملايين النبضات الضوئية المشفرة تصل متتابعة عبر القنوات

الكمومية، فتلتقطها المنظومة، وتفك شيفراتها، ثم تمررها إلى طبقات متعاقبة من المعالجة قبل أن تتحول إلى شيء يستطيع الإنسان رؤيته.  
صورة.

مجرد صورة.

لكن الجميع في تلك القاعة كانوا يعرفون أن الأمر ليس بهذه البساطة.  
فإذا نجحت المنظومة، فلن تكون الصورة تسجيلًا حديثًا.  
ولن تكون محاكاة.

ولن تكون إعادة بناء لحدث تاريخي اعتمادًا على وثائق قديمة.  
ستكون ضوءًا حقيقيًا.

ضوء غادر الأرض منذ زمن بعيد، وظل هائمًا في الفضاء، حتى استطاع جوليان أن يصل إلى مكان بعيد بما يكفي لالتقاطه.  
كانوا ينتظرون الماضي نفسه.  
لم يتحدث أحد.

كان الصمت ثقيلًا إلى درجة أن صوت لوحة مفاتيح في الطرف الآخر من القاعة كان يبدو كأنه طرقاتٌ على معدن.  
جلس عشرات الخبراء أمام مصفوفات التحكم.

اختبروا من مختبرات ومراصد ومراكز أبحاث من مختلف أنحاء العالم، وجمعت خبراتهم في مكان واحد لأن أي خطأ صغير هنا قد يعني ضياع الإشارة إلى الأبد.  
كانت وجوههم متعبة.

بعضهم لم ينم منذ أكثر من ليلة.

آخرون أمضوا ساعات طويلة أمام الشاشات حتى احمرت عيونهم.  
لكن التعب لم يكن مهمًا.

كان هناك شيء آخر أقوى منه.

الترقب.

كانوا جميعًا يعرفون أنهم قد يشاهدون خلال دقائق شيئًا لم يشاهده أي إنسان في التاريخ.

وربما شيئًا لم يكن ينبغي للإنسان أن يراه أصلًا.

جلس خبراء الفيزياء البصرية أمام شاشاتهم، يتابعون الإشارة القادمة من المركبة لحظة بلحظة.

كانت مهمتهم الأولى التأكد من أن ما يصل ليس وهماً إلكترونيًا أو تشوهًا ناتجًا عن انحناء الضوء حول فقاعة الاعوجاج.

فالفوتونات التي التقطتها التلسكوبات لم تكن قد قطعت مسارًا مستقيمًا وبسيطًا. بل مرت عبر مجال زمكاني مشوه. وكل انحناء إضافي في طريقها يمكن أن يفسد الصورة.

أحد الخبراء كان يراقب مخططًا يتذبذب على الشاشة أمامه، ثم قال فجأة :

- التشوه يرتفع قليلًا.

رفع زميله رأسه.

- كم؟

- ثلاثة أجزاء من الألف.

- هل نستطيع تصحيحه؟

- إذا لم يرتفع أكثر.

عاد الاثنان إلى شاشتيهما.

لم يكن هناك مجال للجدال.

في الطرف الآخر من القاعة، كان فريق آخر يتعامل مع المشكلة التي ربما كانت أكثر غرابة.

ماذا يفعلون إذا ظهرت أمامهم صورة لا يستطيعون تحديد زمنها؟

جلس المؤرخون وعلماء الآثار ومحللو الخرائط القديمة أمام قواعد بيانات ضخمة تضم خرائط الأرض عبر آلاف السنين.

كانت أمامهم خرائط لخطوط السواحل القديمة، ومواقع المدن التي اندثرت، ومسارات الأنهار التي تغيرت، والجبال التي ظلت شاهدة على الزمن.

كل شيء يمكن أن يساعدهم على الإجابة عن السؤال الذي سيطرح نفسه بعد ظهور أول صورة :

### **متى التقط هذا الضوء؟**

لم يكن أحد يريد تخمين الإجابة.

كان عليهم أن يعرفوا بدقة.

وفي وسط كل ذلك، كان البروفيسور كلاوس غوتنبرغ يتحرك بين الصفوف.

لم يكن منفِعلاً.

ولم يرفع صوته.

كان يمشي ببطء، لأنه يعي جيداً أن السرعة لن تغير شيئاً.. وحدها الدقة مطلوبة الآن.

كان يمسك طرف سترته التويدية عند المرفق، بينما تنتقل عيناه الزرقاوان بين الأرقام والإشارات.

وكان يعرف أن سنوات حياته كلها أصبحت الآن معلقة على تلك الشاشات.

لم يكن الأمر بالنسبة إليه مجرد نجاح لمشروع علمي.

لقد أمضى سنوات وهو يواجه السؤال نفسه :

**هل يمكن للإنسان أن يتغلب على المسافة؟**

وقد أجاب على هذا السؤال بوضوح بعد أن اخترقت المركبة الزمكان بنجاح .. وكان هذا انتصاره الأول الذي كتب عهداً جديداً في علوم الفضاء.

لكن ثمة سؤال جديد يطل برأسه الآن :

**ماذا يمكن أن يفعل الإنسان إذا امتلك القدرة على الذهاب إلى مكان يصل إليه الضوء القديم؟**

**هل يستطيع أن يرى ما حدث؟**

**هل يستطيع أن يرى التاريخ وهو يحدث من جديد؟**

**أم أن الكون سيعطيهم في النهاية مجرد ضوضاء مشوهة لا معنى لها؟**

اقترب كلاوس من الشاشة الرئيسية.. كانت سوداء.. لم يظهر عليها شيء.  
سأل بهدوء:

- هل وصلت أول حزمة؟

أجاب أحد المهندسين دون أن يرفع عينيه :

- الإشارة موجودة.

صمت لحظة. ثم أضاف :

- لكننا لم نكوّن الصورة بعد.

نظر كلاوس إلى الشاشة.

- كم بقي؟

- لا نعرف.

لم يعجبه الجواب، لكنه لم يعلّق.

عاد الصمت ثقيلًا.

ثم حدث شيء.

خط صغير ظهر على إحدى الشاشات.

رفع المهندس رأسه.

- انتظروا.

تجمع أكثر من شخص حوله.

الخط ارتفع، ثم هبط، ثم ارتفع مرة أخرى.

قال أحد الخبراء بصوت منخفض :

- هذه ليست ضوضاء.

اقترب آخر.

- أنت متأكد؟

- نعم.

أصبحت القاعة كلها تراقب الشاشة، ولم يعد أحد يهتم بالبيانات الأخرى. كل الأنظار اتجهت إلى ذلك الخط المتذبذب.



ثم ظهرت نقطة.  
نقطة ضوء صغيرة.  
واحدة.  
ثم ثانية.  
ثم عشرات.  
بدأت المنظومة تجمع الفوتونات.. واحدًا بعد آخر.  
كما لو أنها تبحث في محيط مظلم عن قطع صغيرة من صورة محطمة منذ آلاف السنين.  
قال أحد المهندسين :  
- بدأ البناء.  
توقف الجميع عن التنفس تقريبًا.  
ظهرت البقعة الأولى.  
كانت باهتة.. مشوشة.. لا يمكن تحديد ماهيتها.  
ثم بدأت الخوارزميات تضيف إليها تفاصيل جديدة : خط.. ظل.. لون.. ثم خط آخر.  
تراجعت الضوضاء، وبدأ الشكل يتضح.  
أحد العلماء اقترب من الشاشة حتى كاد يلامسها.  
- لا يمكن...  
سأله زميله :  
- ماذا ترى؟  
لم يجب.  
استمرت الصورة في التشكل.  
ظهر لون أزرق.  
ثم مساحة داكنة.

ثم حدود واسعة.

وفجأة، فهم أحدهم .. قال بصوت خافت :

- إنه كوكب الأرض.

لم يصدق أحد في البداية.

لكن الصورة استمرت في الوضوح : محيط.. قارة.. غلاف جوي.

إنه كوكب الأرض بالفعل !!

لكن شيئاً فيه لم يكن صحيحاً.

كانت التضاريس مختلفة.

شكل السواحل مختلف.. مواقع اليابسة لا تتطابق تمامًا مع الخرائط الحديثة.

اقترب خبير الخرائط من الشاشة، ثم فتح قاعدة البيانات التاريخية.

راح يقارن.

ثوانٍ.

ثم ثوانٍ أخرى.

وفجأة تجمد مكانه.

- لدينا تطابق.

التفت إليه الجميع.

- مع ماذا؟

رفع عينيه عن الشاشة.

- مع خريطة عمرها أكثر من ألفي عام.

ساد الصمت للحظة. ثم قال أحدهم بذهول :

- هذا مستحيل.

أجاب الخبير بذهول:

- كان مستحيلًا قبل خمس دقائق .. أما الآن، فمبارك لنا جميعاً .. لقد نجحت

التجربة بإبداع .. نحن حرفياً نرى الماضي بأم العين.

وهنا، بدأت الصور تتدفق.. صورة وراء صورة.

لم تعد المنظومة تكافح من أجل بناء مشهد واحد.. لقد استقرت الإشارة.. وأصبح الماضي يخرج من الظلام على هيئة ضوء.  
كل صورة كانت تفتح نافذة على زمن آخر.  
والأغرب أن الصور لم تكن ثابتة.  
كانت تتحرك.

غيوم تعبر السماء.. ظلال تتغير.. مياه تنساب.  
ثم بدأت تظهر آثار البشر.  
هياكل.

معابد.

طرق.

مدن.

لم يكن أحد يعرف بعد ما الذي سيظهر في اللقطة التالية.  
وهنا بدأ الشعور الحقيقي بالخوف.

فإذا كان بإمكانهم رؤية الأرض قبل ألفي عام ... فكم يستطيعون العودة إلى الوراء؟  
ثلاثة آلاف؟

خمسة آلاف؟

عشرة آلاف؟

إلى أي نقطة من التاريخ يمكن لهذا الضوء أن يقودهم؟

جلس أحد العلماء ببطء في مقعده. كان ينظر إلى الشاشة وكأنه نسي كيف يتكلم،  
فالموضوع غير اعتيادي على الإطلاق، بل إنه مرعب لو فكرت فيه قليلاً.

أما كلاوس فظل واقفاً.

لمعت عيناه.

وللمرة الأولى منذ بدأ المشروع، لم يكن يبحث عن خطأ في الحسابات. كان يبحث  
عن شيء آخر. عن اللحظة التي سيتوقف فيها العلم عن كونه تجربة... ويصبح

نافذة على تاريخ البشرية برمته.

وفي مكان بعيد جداً عنهم، كان جوليان لا يزال يطوي المسافة. ومركبته تحمل التلسكوبات التي تلتقط الضوء القديم الذي فارق الأرض منذ آلاف السنين. وكلما ابتعد أكثر، أصبحت نافذة الماضي أعمق.

وفي ناسا، كانوا يشاهدون ذلك الماضي يعود إليهم.

لم يكن أحد في القاعة يتحدث الآن عن «البيانات».

لم يعد ذلك الاسم مناسباً لما يحدث.

إنها ليست بيانات.

إنها آثار ضوئية لأشياء حدثت بالفعل.

أشياء عاشها أناس ماتوا منذ قرون.

أشخاص لم يعرفوا يوماً أن ضوءاً من حياتهم سيغادر الأرض، ويعبر الفضاء، ثم يعود ذات يوم إلى أعين بشر لم يولدوا بعد.

لقد كان الزمن، للمرة الأولى، يرسل إليهم رسالة، وكان عليهم فقط أن يملكوا الشجاعة لقراءتها. تماماً كالرسائل التي تلقاها كين من زمن مختلف في البرنامج الوثائقي الذي شاهده أستاذ التاريخ الأسترالي ريموند على شاشة التلفاز ذات يوم.

رفع كلاوس عينيه إلى الشاشة الرئيسية.

وفي اللحظة التي ظهرت فيها أول صورة واضحة لإنسان من الماضي، لم يسمع أحد شيئاً.

لم يكن هناك تصفيق.

ولا هتاف.

ولا حتى همسة.

فقط دهشة عميقة اجتاحت القاعة.

لأن الجميع أدركوا الحقيقة في اللحظة نفسها :

لم تعد البشرية تنظر إلى الماضي من خلال الكتب.

لقد بدأت تراه بعينيهـا.

لقد تخطت البرمجيات الرقمية الفائقة لمعالجة الصور الفلكية تخوم ما كان العلماء يظنونه ممكنًا، وعبرت بالفكرة نفسها من حدود الرصد إلى شيء يشبه المعجزة البصرية. كانت ملايين الفوتونات، التي غادرت الأرض في أزمنة مختلفة ثم ظلت تائهة في نسيج الكون، تصل الآن إلى المركبة واحدة تلو الأخرى، حاملة في صمتها صورًا لم يكن أحد يتخيل أن العين البشرية ستراها يومًا.

لم تكن المسألة مجرد استقبال ضوء قديم.

كانوا يستعيدون الزمن نفسه.

تتولى الخوارزميات تفكيك الفوتونات، وفرزها بحسب لحظة مغادرتها الأرض، واتجاهها، وطولها الموجي، ثم تعيد بناء المشهد كما لو أن الكون كله قد تحول إلى أرشيف هائل لا تضيع منه صورة واحدة.

وعلى الشاشات الهولوجرافية، بدأت الأرض تتكشف طبقة بعد طبقة.

في البداية ظهرت أحداث يعرفها الجميع.

ثم ظهرت أحداث لم يعرفها أحد.

لم تكن الصور مرتبة زمنياً بدقة .. لأن معالجات الصور تعالج آلاف الصور في لحظات قليلة من وصولها، لكن تفصل بينها سنوات طويلة في الأحداث التي تمثلها بسبب سرعة المركبة الفائقة.

كان أول ما انفتح أمامهم هو القرن العشرون.

ظهرت الحرب العالمية الثانية بكل وحشيتها؛ المدن المشتعلة ليلاً، الطائرات التي تعبر السماء كأسراب من الحشرات المعدنية، المدنيون الهاربون، الجنود في ساحات القتال، والاجتماعات السرية التي كانت تغير مصائر القارات خلف أبواب مغلقة.

ثم جاءت لحظة جعلت القاعة كلها تصمت.

ظهر انفجار هيروشيما.

لكنهم لم يشاهدوه من كتب التاريخ أو من صور ما بعد الكارثة.

شاهدوا الثواني التي سبقتها.

شوارع المدينة.

رجل يعبر الطريق.

طفل يركض خلف لعبة.

امرأة تفتح نافذة.

سماء صافية تمامًا.

ثم...

ضوء.

أبيض.

أشد من قدرة العين على الاحتمال.

وبعده اختفى كل شيء.

لم يقل أحد شيئاً .. فقط صمت ثقيل من الرهبة ..

فما يرونه .. يفوق أي تصور ممكن أن يجول في خيالهم ..

أن تسمع بالقصة شيء ..

وأن ترى أحداثها بأم العين حكاية أخرى كلياً..

ثم تسارعت الصور.

ظهرت الحرب العالمية الأولى في صورة لم تكن كتب التاريخ قادرة على نقلها.  
خنادق غارقة في الوحل، جنود شبان بوجوه شاحبة، بعضهم يضحك بعصبية  
محاولاً أن يخفي خوفه، وبعضهم يحدق في الفراغ كأنه أدرك قبل الجميع أن  
الإنسان يستطيع أن يصنع جحيمه بيديه. المدافع تمزق الأرض، والدخان يزحف  
منخفضاً فوق الحقول، والرجال يركضون بين الحفر وهم يحملون رفاقاً لم يعودوا  
قادرين على الركض.

ثم قفزت الصورة إلى مشاهد مفتوحة في عواصم أوروبا.

خرائط ضخمة فوق الطاولات.

أرتال من الجنود تتحرك في الشوارع.

قطارات تحمل الرجال والأسلحة.

قادة يتجادلون، يرفع أحدهم صوته، ويجلس آخر صامتاً وهو يدرك أن القرار الذي سيتخذه بعد دقائق سيقتل آلافاً من الرجال الذين لن يعرف أسماءهم قط.

لم يعد التاريخ حكاية يرويها المنتصرون والمهزومون.

لقد أصبح وجهًا.

وصوتًا.

وخوفًا.

بعد ذلك تراجعت الصور إلى عصر الرحلات الكبرى.

ظهرت سفن خشبية هائلة تشق المحيطات بأشرعتها الممزقة، ورجال بوجوه أحرقتها الشمس والملح، يقفون على مقدمات السفن وهم يحدقون في سواحل مجهولة.

ظهرت لحظات وصول الأوروبيين إلى أراضٍ لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً، وظهرت في المقابل وجوه الشعوب التي كانت ترى الغرباء للمرة الأولى.

ظهرت سفن كولومبوس وهي تقترب من الجزر.

ثم سفن ماجلان وهي تشق المياه نحو العالم الذي لم يكن الأوروبيون يعرفون حدوده بعد.

ظهرت مدن الأزتيك قبل سقوطها.

ظهرت إمبراطوريات أمريكا الجنوبية قبل أن تصل إليها جيوش الغزاة.

ظهرت الموانئ التي كانت آخر ما رآه البحارة قبل أن تختفي سفنهم في المحيط.

ثم تراجعت الصور أكثر.

إلى الأزمنة التي كانت فيها الأديان والتاريخ والذاكرة البشرية متشابكة بصورة لا يمكن فصلها.

في إحدى الصور ظهرت مكة.

الجبال القاحلة.

البيوت المتقاربة.

الطريق المؤدي إلى غار حراء.

وفي أحد المشاهد ظهر رجل وقور يمشي بين الناس.

كان محمد ﷺ.

رجل متوسط القامة، قوي البنية، مهيب الحضور، يرتدي ثيابًا بسيطة، ويتحرك بهدوء وسط من حوله.

ثم ظهرت مشاهد أخرى من حياته.

رحلته بين مكة والمدينة.

طريق الهجرة.

ثم المدينة.

المسجد النبوي.

أصحابه من حوله.

وجوه الناس وهم يستمعون إليه.

ثم الجموع في مكة بعد الفتح.

لم تكن الصورة تستطيع أن تنقل ما في القلب.. ولا الوحي كما هو في معناه الروحي.. ولا أن تفسر النبوة.

لكنها استطاعت أن تفعل شيئاً آخر.

أن تُريهم المكان.. والزمان.. والهيئة.. والناس الذين عاشوا.. والعالم كما كان وقتها.

ثم ظهرت فلسطين القديمة.

طرق ترابية.



قرى صغيرة.

جموع من الناس تتحرك بين البيوت والحقول.

ورجل وجيه يمشي بينهم.

وجه مسالم، شعر بني مائل إلى الطول، لحية، وثوب بسيط.

كان يسوع ابن مريم عليه السلام.

رأوه يتحدث إلى الناس، يسير بينهم، يلمس أيدي المرضى فيشفاهم والموتى فيحييهم.

صمت العلماء بخشوع وذهول.

فلم يكونوا أمام وثيقة بشرية مكتوبة عن نبي.

كانوا يشاهدون الضوء الذي حمل مشاهد من حياته الفعلية عبر ألفي عام.

ثم تراجعت الصور أكثر.

ظهرت أرض مصر القديمة.

رجل طويل، قوي البنية، يمشي بين جماعة من قومه.

ملامحه واضحة، وثيابه بسيطة، ولحيته ممتدة، ووجهه يحمل صرامة رجل عاش بين الصحراء والرحلة والخطر.

توقف العلماء.

كان موسى كليم الله.

رأوه في مشاهد متفرقة، لا في صورة واحدة؛ يمشي بين قومه، يقودهم في الصحراء، يقف أمام البحر، ثم يتغير المشهد في لحظة مهيبه، فيظهر الماء منقسماً أمام جماعته بينما يعبرون في دهشة وخوف.

لم يحاول أحد تفسير ما رأوه.

كانوا علماء.

وكانوا يعرفون أن الصورة تستطيع أن تسجل الضوء والحركة والمكان، لكنها لا تستطيع أن تحكم على المعنى الروحي لما حدث.

قال أحدهم بذهول:

- ربما الضوء لا يستطيع أن يخبرنا من هو النبي في ميزان السماء... لكنه يستطيع أن يخبرنا أنه كان هنا بالفعل .. وهذا كافٍ.



ولم تقتصر الصور التي وصلتهم على الأحداث المعروفة للناس .. بل أجابت صور كثيرة منها على أسئلة وألغاز وأسرار حيرت البشر عبر قرون ..  
ففي إحدى الصور ظهرت سهول إنجلترا.

وفي وسطها ارتفعت حجارة ضخمة من الأرض في دوائر هائلة.

**ستونهنج.**

لكن هذه المرة لم تكن الحجارة ساكنة.

رأى العلماء الرجال وهم ينقلونها.

لكن ما ظهر أمامهم لم يكن مجرد مجموعات من الرجال يجرون أحجارًا بالحبال.

ظهرت أولاً شبكة من الأخاديد الضخمة حول موقع البناء.

ثم ظهرت جذوع أشجار طويلة تُدفن في الأرض على شكل نقاط ارتكاز.

وبينها وضعت أخشاب مستعرضة صنعت ما يشبه سكة عملاقة منخفضة.

ثم رأوا الحيلة.

لم يكونوا يسحبون الحجر على الأرض.

كانوا يجعلونه يتدحرج داخل هيكل خشبي متحرك يشبه القفص.

كلما تحرك الحجر، دارت الأخشاب حوله، ثم أعاد العمال تثبيت الدعامات أمامه.

لم تكن المسألة قوة آلاف الرجال وحدها.

كانوا يحولون وزن الحجر نفسه إلى جزء من القوة التي تحركه.  
الحجر الذي يبدو مستحيل النقل أصبح، مع كل دورة، يدفع نفسه إلى الأمام.  
ثم ظهرت مرحلة أخرى.

كانت الحجارة ترتفع على منحدر حلزوني واسع يلتف حول البناء، لكنه لم يكن  
منحدرًا واحدًا ضخماً. كان يتكون من طبقات ترابية قصيرة تُزال تدريجيًا بعد  
تثبيت كل حجر. وهكذا، بينما كان البناء يرتفع، كان المنحدر نفسه يصعد معه ثم  
يختفي.

توقف أحد المهندسين عن التنفس تقريبًا.  
لقد كانوا يرون لأول مرة شيئاً لم يكن في الحجارة نفسها.  
كانوا يرون آلة عملاقة عبقرية مصنوعة من الخشب والتراب والوزن والتوازن.

ثم ظهرت إحدى المدن على الشاشة.

بومبي.

شوارعها نابضة بالحياة.

باعة.

أطفال.

خيول.

نساء يحملن الجرار.

رجال يتحدثون في الأزقة.

وفوق المدينة كان جبل فيزوف يرسل خيطاً رقيقاً من الدخان.

ثم بدأت الأرض تهتز.

سقطت الحجارة.

فر الناس.

ارتفع الرماد.

ثم جاءت السحب البركانية.  
كانت الصور تتحرك بسرعة، لكن العلماء طلبوا إبطاءها.  
رأوا الناس وهم يحاولون الفرار.  
بعضهم اتجه إلى الطرق المؤدية خارج المدينة.  
آخرون احتموا داخل المباني.  
ثم غطى الرماد كل شيء.  
لكن الصورة كشفت أكثر من لحظة الموت.  
لقد أعادت الحياة اليومية للمدينة قبل الكارثة؛ الطعام على الموائد، الأدوات في  
الورش، حركة العربات، الأسواق، والوجوه.  
كانت بومبي تتحول أمامهم من مدينة حية إلى مدينة ميتة ثم إلى مقبرة.  
ثم تغيرت الصورة.  
ظهرت صحراء مصر.  
وفي قلبها تنتصب الأهرامات.  
لكن هذه المرة لم تظهر الأهرامات كما عرفها العالم بعد اكتمالها.  
ظهرت في بداية بنائها.  
كان العلماء يتوقعون رؤية آلاف الرجال وهم يجرون الكتل الحجرية فوق منحدرات  
هائلة.  
لكن الصورة فاجأتهم.  
ظهرت شبكة من القنوات المائية تصل إلى موقع البناء.  
ثم ظهرت أحواض ضخمة.  
ومراكب صغيرة تحمل الأحجار من المحاجر.  
وعندما تصل الكتل إلى مكان قريب من الهرم، لم يكن العمال يرفعونها مباشرة.  
كانوا يضعونها فوق منصات خشبية منخفضة ذات حواف مستديرة.

ثم تُربط المنصة بحبال تمر فوق أعمدة خشبية.  
وفي الجانب الآخر كانت هناك أحواض تُملأ بالماء.  
بدأت المياه تدخل الأحواض.  
ارتفعت المنصات المقابلة.  
كان الماء هو الذي يرفع الحجر. ليس إلى القمة دفعة واحدة، بل إلى مستويات  
متدرجة.  
ثم ظهرت المفاجأة الأكبر.  
داخل الهرم نفسه كان هناك ممر حلزوني داخلي واسع يصعد حول القلب الحجري،  
لكنه لم يكن مجرد طريق للعمال.  
كان ممراً هيدروليكيًا.  
كانت منصات الأحجار تتحرك داخله بواسطة نظام من الأحواض والموازين  
المائية.  
كلما امتلأ حوض ارتفعت منصة، وكلما أفرغ حوض هبطت منصة أخرى.  
وبهذه الطريقة كان الحجر ينتقل من مستوى إلى مستوى دون أن يحتاج العمال إلى  
رفع وزنه مباشرة.  
ثم ظهرت لحظة تثبيت حجر ضخم في موضعه.  
لم يدفعه أحد.  
لم يسحبه أحد.  
كان حوض ماء يُفرغ ببطء، فتتحرك المنصة بضعة سنتيمترات، ثم تستقر الكتلة  
في مكانها.  
تجمدت القاعة.  
لقد ظل البشر آلاف السنين يتساءلون كيف تمكن المصريون من بناء تلك الجبال  
الحجرية.  
وكان الجواب أمامهم أغرب مما توقعوا.

لم يكونوا قد تغلبوا على وزن الحجر. لقد جعلوا الماء والجاذبية يعملان لصالحهم.

ثم ظهرت امبراطورية ضخمة وسط البحر.

أبراج.

مرافئ.

قنوات مائية.

سفن.

ثم ضربها زلزال هائل.

بدأت الأرض بالانهيار.

انفتح البحر.

غمرت المياه الشوارع.

لكن العلماء لم يستطيعوا إطلاق اسم **أطلانتس** على الصورة.

كانت أمامهم حضارة بحرية حقيقية، ومدن ساحلية تعرضت لكارثة هائلة.

ذكريات مثل هذه تحولت عبر القرون إلى أساطير عن مدن غارقة وحضارات

اختفت تحت البحر.. أما الآن فهي حقيقة حية تتنفس أمامهم!!

كانوا أمام صورة تروي قصة الكارثة.

أما اسم الأرض التي غرقت كما كان وقتها، فكان تكهنًا.

ثم ظهرت **خطوط نازكا**.

صحراء شاسعة جافة تمتد بلا نهاية.. وعليها رسوم عملاقة مذهلة..

مثلثات.

ممرات مستقيمة.

أشكال حيوانات هائلة.

طائر ضخمة.

قرد.

عنكبوت.

خطوط تمتد لمسافات لا تصدق.

ثم ظهرت مجموعات من البشر وهي ترسمها.

كانوا يزيلون الطبقة الداكنة من سطح الأرض، كاشفين التراب الفاتح تحتها.

لكن هذه المرة لم تتوقف الخوازمية عند المشهد من الأعلى.

تراجعت أكثر.

ثم بدأت الصورة تكشف شيئاً لم يكن واضحاً للعين البشرية طوال قرون.

ظهرت صفوف من الأوتاد الخشبية الصغيرة مغروسة في الأرض، بعضها في مركز الشكل، وبعضها على أطرافه.

ثم ظهرت حبال طويلة مشدودة بينها.

لم يكن النازكيون يرسمون الخطوط وهم ينظرون إلى السماء.

كانوا يبنون السماء على الأرض أولاً.

كل خط طويل كان يبدأ من نقطة مرجعية محددة، ثم يُمد الحبل بين وتدين.

وكانت الزوايا تُنقل من خط إلى آخر باستخدام عقد متساوية المسافات وأشكال هندسية بسيطة، أشبه بمتلثات قياس ضخمة مرسومة بالحبال.

ثم ظهرت مجموعات أخرى من العمال في مواقع مختلفة.

لم يكونوا يعملون عشوائياً.

كان لكل مجموعة نقطة مرجعية.

وكانت العلامات الصغيرة، التي بدت في السابق مجرد آثار متناثرة في الصحراء، جزءاً من شبكة قياس هائلة.

لقد اكتشف العلماء أن النازكيين لم يكونوا بحاجة إلى رؤية الرسم كاملاً من الأعلى.

كان يكفي أن يعرف كل فريق أين يبدأ، وإلى أين يتجه، وما الزاوية التي يجب أن

يحافظ عليها.  
ومع كل عشرات الأمتار، كانت هناك نقاط تثبيت جديدة.  
يُغرس الوتد.  
يُنقل الحبل.  
تُراجع الزاوية.  
ثم تزال الحصى الداكنة من جانبي الخط، وتُجمع على حافته، فيصبح المسار الفاتح واضحًا.  
ثم ظهرت مفاجأة أخرى.  
ظهرت مجموعة من الناس فوق مرتفع قريب.  
لم تكن طائرة.  
ولا منصة عالية.  
كانوا يقفون على تلال طبيعية منخفضة، وعلى سلالم ترابية أقيمت مؤقتًا من أجل مراقبة أجزاء من العمل.  
ومن هناك كانوا يرون قطاعات الخطوط الطويلة، ويقارنونها بالعلامات الموجودة في الأرض.  
لم يكونوا يرون الصورة كاملة.  
لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك.  
كانت الخريطة في أذهانهم. وكانت الأرض نفسها هي ورقة الرسم.  
لم يكن السرّ في امتلاك النازكيين وسيلة لرؤيته من السماء.  
بل في أنهم حوّلوا الأرض نفسها إلى شبكة قياس، ثم بنوا الرسم خطوة خطوة كما يبني المهندس جسرًا لا يرى شكله كاملاً من الأرض.  
اقترب أحد العلماء من الشاشة.  
كانت عيناه لا تزالان معلقتين بالخطوط.  
قال بذهول:



- لم يكونوا بحاجة إلى الطيران... كان يكفي أن يعرفوا قواعد الهندسة.

كان الجميع ينظر إلى الصور بدهشة تثير القشعريرة .. فألغاز التاريخ كلها تبوح بأسرارها صورةً بعد صورة على نحوٍ يفجر العقل حرفياً ..

ثم تغيرت الصورة مرة أخرى.

ظهرت مدينة بابل.

ليس بابل التي رسمها المؤرخون من مخيلتهم، بل مدينة حقيقية تعج بالحياة.  
أسوار هائلة.

شوارع مزدحمة.

عربات تجرها الخيول.

باعة ينادون في الأسواق.

وفي قلب المدينة ظهرت منشآت وحدائق مرتفعة في طبقات متتالية، تكسوها الأشجار والنباتات.

وكانت المياه تنساب من مستوى إلى آخر في قنوات مرتفعة.

تجمد أحد المؤرخين أمام الشاشة.

لقد ظل وجود حدائق بابل المعلقة موضع جدل طويل؛ هل كانت موجودة فعلاً؟  
وأين كانت؟

والآن أتاهم الجواب على هيئة صورة من الفضاء السحيق..

ولأول مرة، شعر الجميع أن التاريخ القديم بدأ يفقد حصانته.

ثم انتقلت الصورة إلى الإسكندرية.

كانت المدينة تعيش آخر أيامها القديمة.

وفي عتمة الليل، ظهر موكب صغير يخرج من القصر.

كان يحمل جثمان الملكة كليوباترا.

وتابوتها يُنقل بالخفاء إلى قبرها السري.

كليوباترا دُفنت بجوار أنطونيوس، هكذا تقول الروايات القديمة، لكن المكان الذي ظهر على الشاشة لم يكن من بين تلك الآثار المعروفة التي ظل علماء الآثار يبحثون فيها.

وبينما كانت الصورة تكشف موضع القبر الحقيقي بدقة، لم يتحدث أحد. كان التاريخ نفسه يفتح قبرًا أغلقه منذ ألفي عام.

كانت الحضارات القديمة تتحرك فوق الأرض أمام أعينهم كما لو أن آلاف السنين لم تمر.

وفي لحظة فريدة بعيدة من ذلك الشريط المرتد عبر أعماق الزمن، انحبست أنفاس طاقم الخبراء، وكأن الغرفة نفسها توقفت عن التنفس. راحت العيون معلّقة بالشاشات وهي تستعيد مشهدًا لم يسبق لبشر أن رآه؛ هناك، في أرض عدن المورقة في اليمن، انفتحت أمامهم طبيعة عذراء لم تمسّها يد التاريخ بعد، تتهاذى فيها الجداول الصافية بين تلال خضراء ممتدة إلى الأفق، تحت سماء بدت كأنها لم تعرف بعد معنى الغروب.

ثم ظهر.

آدم وحواء.

خطى بشرية في عالم لم يكن يعرف بعدُ صخب الحضارات ولا حروبها ولا مدنها ولا ذاكرتها. كان المشهد، على شاشات المختبر، أشبه بصفحة أولى تُفتح للمرة الأولى في كتاب البشرية؛ لحظة انبثقت فيها السلالة الإنسانية المكلفة، وارتفعت معها، للمرة الأولى، عتبة التاريخ الإنساني الواعي.

لكن المفاجأة لم تتوقف عند تلك اللحظة.

فما إن تراجعت الصور أكثر في أعماق الزمن، حتى تبدّل المشهد أمام أعينهم. اختفت ملامح الإنسان، ثم ظهرت الأرض في عصور سحيقة، حين كانت الحياة لا تزال تخطو خطواتها الأولى على هذا الكوكب.

بدأت الصورة تتحرك عبر ملايين السنين.

كائنات بدائية في البحار القديمة، ثم أشكال أكثر تعقيداً تظهر شيئاً فشيئاً. كائنات تخرج من الماء إلى اليابسة، وأخرى تتغير أجسادها عبر أزمنة لا يكاد العقل البشري يستوعب طولها. زواحف، وثدييات، وطيور، وأشكال من الحياة تتفرع من أسلاف أقدم، ثم تختفي فروع كاملة من شجرة الحياة بينما تستمر فروع أخرى في الصعود.

لم تكن أمامهم مجرد سلسلة من الصور المتفرقة، بل كان الكوكب نفسه يبدو وكأنه يكشف عن سيرته الخفية؛ حياة تتغير جيلاً بعد جيل، وتتفرع عبر العصور، وتتكيف مع بيئاتها المتبدلة، حتى ظهرت في نهاية ذلك الامتداد السحيق الكائنات التي عرفها الإنسان في عصره.

كانوا يشاهدون، للمرة الأولى، تاريخ الحياة على الأرض لا من خلال الحفريات أو الطبقات الصخرية أو النظريات، بل كما لو أن الزمن نفسه قد ترك خلفه شريطاً مصوراً لا ينتهي.

وبينما ظل الجميع صامتين، أدرك أحد العلماء أن ما أمامهم لم يكن مجرد اكتشاف علمي جديد.

لقد أصبح الماضي، للمرة الأولى، شاهداً على نفسه.

ثم تراجعت الصورة أبعد.

إلى زمن لم تعد فيه المدن موجودة.

إلى زمن لم يكن فيه الإنسان قد ظهر بعد.

ظهرت الديناصورات.

تيرانوسورس يمشي بين الأشجار القديمة، وترايسيراتوبس يحفر الأرض بمخالبه، وأسراب من الكائنات المجنحة تعبر سماءً لا يعرفها الإنسان.

ثم جاءت اللحظة الأخيرة.

السماء تشتعل.

الصخرة الكونية تعبر الغلاف الجوي.

الاصطدام.

موجة هائلة تجتاح القارات.  
الغابات تحترق.  
الغبار يحجب الشمس.  
والنهار يتحول إلى ظلام طويل.  
كانت تلك هي اللحظة التي انتهى فيها عصر كامل من تاريخ الحياة.

ثم انتقلت الصورة إلى زمنٍ آخر.  
إلى العصر الجليدي.  
فظهرت سهول بيضاء تمتد حتى الأفق.  
أنهار متجمدة.  
جبال مغطاة بالثلوج.  
قطعان الماموث تتحرك ببطء وسط العواصف.  
وحوانات ضخمة أخرى تكافح من أجل البقاء في عالم بارد وقاسٍ.  
ثم ظهر الإنسان.  
مجموعات صغيرة تتحرك بين الجليد.. رجال ونساء يلفون أجسادهم بالجلود..  
أطفال يلتصقون بالنار.. صيادون يتعقبون الحيوانات فوق الثلج.  
ثم ظهرت الكهوف.  
أيدي بشرية تلمخ الجدران بالأصباغ.  
حيوانات مرسومة.  
رموز.  
وجوه.  
كانت البشرية في طفولتها الأولى، لكنها كانت تعرف شيئاً لا يعرفه أي كائن آخر.  
أن تترك أثراً.

وهكذا .. أخذت الأرض تفشي أسرارها أمام أعينهم على الشاشة.  
طبقة فوق طبقة.

عصرًا فوق عصر.

مملكة فوق مملكة.

حضارة فوق حضارة.

وحربًا فوق حرب.

كانوا ينظرون إلى كوكبهم كما لم ينظر إليه إنسان من قبل.

لم تعد هناك فجوات في السرد.

لم تعد هناك قرون مظلمة تمامًا.

لم تعد الحكايات القديمة وحدها هي المصدر.

كان الضوء نفسه قد أصبح شاهدًا.

وكان ذلك أعظم من أعظم شيء عرفه الإنسان عبر صفحات التاريخ.

وبذلك .. بدأت فرق العلماء في إنشاء نسخ احتياطية لكل ما يصل إلى الوكالة من  
المركبة.

صور.

مقاطع زمنية.

خرائط.

أصوات مستخرجة من الاهتزازات القديمة.

مشاهد للحضارات.

تفاصيل للمعارك.

حركة الجيوش.

المدن قبل أن تدفن في الرمال.

السفن قبل أن تبتلعها البحار.  
والوجوه التي مات أصحابها منذ آلاف السنين.  
كان أمامهم، للمرة الأولى، شيء لم تمتلكه أي حضارة في تاريخ البشرية :

### **أرشف الأرض بالكامل.**

لم يكن أرشيفًا من الكتب، ولا مجموعة من الروايات التي كتبها الناجون، ولا متحفًا من الآثار الصامتة.

كان أرشيفًا حيًا للضوء.

كل صورة فيه مرتبطة بلحظة حقيقية مرّت فوق سطح الكوكب، وكل لحظة يمكن الرجوع إليها وفحصها ومقارنتها بالأدلة الأثرية والمخطوطات والشهادات التي تركها البشر.

لكن شيئًا أعظم بدأ يتضح لهم مع مرور الوقت.

لم تعد قيمة الأرشفة في أنه يخبرهم بما حدث فقط.

بل في أنه كان قادرًا على الاقتراب من الإجابة عن الأسئلة التي ظلت تطارد الإنسان منذ بدأ يكتب التاريخ.

من قتل؟

من اكتشف؟

كيف اختفى؟

من اخترع؟

هل حدث فعلاً؟

متى حدث؟

أين حدث؟

من كان حاضراً؟

من كذب؟

من قال الحقيقة؟

كيف سقطت مدينة؟

لماذا هُجرت؟

من أشعل الحرب؟

من أطلق الضربة الأولى؟

أين مات الملك؟

أين دُفن؟

من سرق المخطوطة؟

من أحرق المكتبة؟

أي طريق سلك الجيش؟

أي سفينة وصلت أولاً؟

وأي سفينة لم تصل أصلاً؟

أي اختراع ظهر أولاً؟

ومن كان صاحبه؟

وأي حضارة سبقت الأخرى؟

وأي أسطورة بدأت من حادثة حقيقية؟

لم يعد السؤال بالنسبة إليهم:

**"ماذا تدعي الكتب؟"**

بل أصبح:

**"ماذا حدث فعلاً أمام الضوء؟"**

فإذا اختلف مؤرخان حول قاتل رجل، كان بإمكانهم العودة إلى المكان.

وإذا اختلفت الحضارات حول مكتشف أرض، أمكنهم تتبع السفن.

وإذا اختلفت مدينة، أمكنهم مشاهدة أهلها وهم يغادرونها.

وإذا ادعى شعب أن اختراعاً كان له، أمكنهم العودة إلى اللحظة التي ظهر فيها

لأول مرة.

وإذا قالت الأسطورة إن رجلًا اختفى في ليلة واحدة، كان بإمكانهم مشاهدة تلك الليلة.

وإذا قال التاريخ إن حدثًا وقع في عام معين، كان بإمكانهم البحث عن اللحظة نفسها.

لم يعد الماضي مكانًا مغلقًا.

وكان الهدف النهائي للخبراء واضحًا :

أن يتحول هذا البحر الهائل من الصور إلى أكبر نص موثق في تاريخ الأرض؛ سجلًا محفوظًا للأجيال القادمة، تستطيع البشرية أن تعود إليه كلما

اختلفت الروايات، وكلما غاب الدليل، وكلما حاول النسيان أن يبتلع الحقيقة.

ولم يكن العلماء يتوهمون أن كل سؤال سيملك جوابًا بسيطًا.

فالضوء يستطيع أن يخبرهم بما حدث أمامه، لكنه لا يستطيع دائمًا أن يخبرهم بما كان في قلوب البشر، أو لماذا اتخذ رجل قرارًا لم يظهر سببه في أي مكان.

ومع ذلك، كان الفرق هائلًا.

ففي السابق، كانت البشرية تبني تاريخها من شظايا.

من شاهد واحد.

من مخطوطة ناقصة.

من مدينة مهدمة.

من سلاح صدئ.

من قبر مجهول.

من رواية كتبها شخص لم يكن حاضرًا.

أما الآن، فقد أصبح لديها شاهد لا ينسى.

شاهد لا يعرف الكذب.



ولا الولاء.

ولا الخوف.

ولا المنتصر من المهزوم.

**الضوء نفسه.**

ولهذا، ومع اقتراب نهاية الجلسة الأولى من تحليل الصور، لم يشعر أحد أنهم أنهم اكتشفوا.

بل شعروا أنهم فتحوا بابًا لا يمكن إغلاقه.

لم تكن المركبة قد منحت الإنسان آلة للسفر عبر الزمن. كانت قد منحتهم شيئًا أكثر هدوءًا، وأكثر خطورة.

لقد منحتهم القدرة على العودة إلى كل لحظة لم يكن حاضرًا فيها.

وبذلك، للمرة الأولى، لم يعد التاريخ شيئًا يكتبه البشر عن الماضي.

بل أصبح شيئًا يستطيع البشر مشاهدته.

والفرق بين الحالتين ملايين السنين الضوئية ..

# الفصل الأخير

## التقريبان

في ذات اللحظات التاريخية التي شهدتها وكالة ناسا والتي بدت كأنها انتُزعت من يد الزمن، وعلى بُعد ملايين الكيلومترات من الأرض، كان جوليان يقبع في مقصورته المعزولة كموميًا، وحيدًا في قلب المركبة، طافيًا داخل سكونه الخاص، كمسافر ألقى خلفه آخر شاطئ يعرفه، ومضى بإرادته نحو البحر الذي لا نهاية له.

خفتت أضواء المقصورة تدريجيًا، حتى لم يبقَ منها إلا توهج خافت يلامس أطراف وجهه. وحلت محلها أضواء الشاشات الهولوغرافية، زرقاء وباردة، تطفو في الظلام كجزر صغيرة من الضوء. لم يكن هناك صوت تقريبًا؛ لا هدير محركات، ولا ارتجاج، ولا حركة يمكن أن تذكره بأن مركبة ما تعبر الفضاء بأضعاف سرعة الضوء. فقط ذلك الصمت الكوني الهائل، وصوت أنفاسه، ونبض قلبه المنتظم، الذي بدا كأنه اعتاد أخيرًا فكرة الرحيل.

كان جوليان قد بلغ تلك المنطقة الغريبة من النفس التي لا يعود فيها الموت خصمًا يُقاوم، بل بابًا يعرف الإنسان أنه سيفتحه يومًا، فيتوقف عن طريقه بعنف.

وفجأة، شقّ وميض ذهبي دافئ زرقة المقصورة.

التفت جوليان.

كانت شاشة الاتصالات الكمومية قد استيقظت.

تدفقت أمامه السطور القادمة من مقر الوكالة، واحدة تلو الأخرى، تحمل الأخبار التي انتظرها الجميع : المهمة نجحت.. الصور وصلت.. ورفع الحجاب عن الماضي. وما التقطته المركبة من ضوء الأرض القديم لم يعد مجرد بيانات متناثرة، بل أصبح سجلًا هائلًا للحياة فوق هذا الكوكب؛ مشاهد دقيقة من عصور غابرة، وحضارات اندثرت، وأحداث لم يكن الإنسان يملك قبل اليوم سوى آثارها وشظاياها ورواياتها.

قرأ جوليان الكلمات ببطء.

لم يبتسم في البداية.

ظل يحدق في الشاشة طويلًا، كأنه يحاول أن يستوعب أن تلك المركبة الصغيرة التي ابتلعت ملايين الكيلومترات من الظلام قد حملت معها مفتاحًا سيعيد كتابة علاقة الإنسان بماضيه إلى الأبد.

ثم أرخى رأسه إلى الخلف، وأسند جسده إلى مقعد القيادة.

وعندها ظهرت على شفثيه ابتسامة هادئة.  
دافئة.

ابتسامة لم تزره منذ تلك الليلة المشؤومة التي انتزع فيها الموت حبيبة عمره من العالم، وترك في داخله فراغًا لم تستطع السنوات أن تملأه.. تلك الليلة التي ابتلعه فيها ثقب أسود مظلم من الآلام والأحزان والأفكار السوداوية ..

لم تكن ابتسامته ابتسامة انتصار.

ولا فرح عالمٍ اكتشف سرًا جديدًا.

كانت شيئًا أعمق من ذلك.

كانت ابتسامة رجلٍ شعر، للمرة الأولى منذ زمن طويل، أنه أتم مهمته.

لقد أخذ من الأرض شيئًا ثمينًا، ذكريات ومعرفة ومحبة، وأعادته إلى البشرية هلى هيئة شيء أثمن : ذاكرتها المخفية في الماضي.

في تلك اللحظة، شعر جوليان أنه أدّى آخر واجب له تجاه العالم الذي سيغادره.

لم يكن قد أنقذ البشرية، ولم يغيّر مصيرها، ولم يكتشف كوكبًا جديدًا.

لقد فعل شيئًا أهم.

منحها فرصة أن تنظر إلى الوراء، وأن ترى نفسها كما كانت حقًا.

وتلك، بالنسبة إليه، كانت كافية.

وسط ذلك السكون المطبق، بدأت أصداء الإنجاز العلمي تتراجع شيئًا فشيئًا في ذهن جوليان، وكأن العالم كله انطفأ من حوله، ولم يبقَ في وعيه سوى وجه واحد.

وجه جولي.

انسلت روحه من الحاضر، وغاصت في مكان أبعد من المسافة التي قطعها، وأعمق من كل الفضاء الذي أحاط بالمركبة. عاد إلى البيت القديم، إلى الأيام التي كان صوت ضحكتها يملأ زواياه الصغيرة دفنًا، وإلى تلك التفاصيل التي لم يكن يظن يومًا أنها ستصبح أثمن ما يملك: طريقة حديثها، حركة يديها، نظرتها حين تراه يدخل من الباب، والصمت القصير الذي كان يسبق ابتسامتها.

ثم تذكر عينيها في لقائهما الأخير.

تلك النظرة التي بقيت عالقة في ذاكرته رغم مرور السنين، قبل أن تختطفها يد الغدر، وتترك وراءها في حياته فراغًا هائلًا لم يعرف كيف يملؤه. أغمض جوليان عينيه.

وفي عتمة مقصورته، حُيِّل إليه أنها لم تعد بعيدة.

كان طيفها يبتسم له بين النجوم، كما لو أن المسافة نفسها بدأت تفقد معناها، وكأن نسيج الفضاء الملتف حول المركبة أخذ يذوب ببطء، ليعيد أمام وعيه رسم ملامحها الأسيرة.

للحظات، لم يعد جوليان في المركبة.

كان معها.

ثم ...

انشق السكون.

وميض قرمزي حاد مزَّق المقصورة، وتبعته صفارات إنذار متلاحقة اندفعت في المكان كصرخة مفاجئة. اشتعلت الأضواء الحمراء، وانطفأت الشاشات للحظة قبل أن تعود محمّلة بسيل من البيانات والتحذيرات.

فتح جوليان عينيه.

تبدّل وجهه في لحظة.

كانت الشاشة الرئيسية تعرض رسالة واحدة، تتكرر وسط أرقام تتسارع بجنون:

### **انحراف غير متوقع في المسار.**

حدّق فيها لثوانٍ، غير مصدق.

رفع عينيه إلى شاشة الملاحة. وهناك رأى شيئًا جعل الدم ينسحب من وجهه.

في عمق القطاع الكوني الذي عبرته المركبة، كان ثقب أسود هائل قد ظهر في مسارها؛ جرم مظلم لا يكاد يُرى، لكن ما حوله كان يكشف عن حضوره المرعب. الضوء نفسه انحنى عند حافته، والنجوم خلفه تشوهت كأن يدًا غير مرئية تسحق صورة السماء.

لم يكن الثقب الأسود يتحرك نحوه.

كانت فقاعة الاعوجاج هي التي تنجرف إليه.

اقترب جوليان من لوحة التحكم، وبدأت أصابعه تتحرك بسرعة فوق المفاتيح. حاول تغيير الاتجاه. حاول تعديل سرعة الفقاعة. حاول إعادة ضبط منظومة الدفع. لا استجابة.

كرر المحاولة.

مرة أخرى.

ثم مرة ثالثة.

كانت الأرقام تستمر في الانخفاض، والمسافة إلى مصدر الجاذبية تتناقص بثبات مخيف.

وفجأة أدرك الحقيقة.

لم تعد هناك مناورة.

فبمجرد تشكل فقاعة الاعوجاج، أصبحت المركبة محاطة ببنية زمكانية هائلة تحملها إلى الأمام؛ لم تكن المركبة تطير داخل الفضاء بالمعنى التقليدي، بل كان الفضاء نفسه يُعاد تشكيله حولها ويدفعها على مسار محدد. وفي ظل المجال الجاذبي الهائل للثقب الأسود، لم يعد تغيير الاتجاه أمرًا تستطيع أن تفعله لوحة تحكم أو محركات تقليدية.

كانت الفقاعة قد وقعت في قبضة شيء أكبر منها.

وأكبر منه.

وأكبر من كل ما صنعه الإنسان.

ثبت جوليان يديه على لوحة القيادة للحظة، ثم توقف.

نظر إلى المؤشرات.

ثم إلى الثقب الأسود.

ثم ترك المقود.

ببطء، أرخى جسده في مقعده، وأسند رأسه إلى الخلف.

كان من المفترض أن يشعر بالخوف.

أن يصرخ.

أن يبحث بجنون عن مخرج.

لكنه لم يفعل.

على نحو غريب، بدأ شيء آخر يتسع داخله.

السكينة.

كأن الهروب من الماضي طوال تلك السنوات قد استنفد ما تبقى في روحه من قوة، وكأن لحظة الخلاص التي تمناها طويلاً قد وصلت أخيراً، فلم يجد فيها الرعب الذي كان يتخيله.

نظر إلى السواد الهائل أمامه.

وللمرة الأولى، لم يرَ فيه وحشاً يلتهم الضوء.

رأى بوابة إلى الخلاص.

بوابة لا يعرف ما وراءها، ولا يستطيع أحد أن يخبره إلى أين تؤدي.

لكنها، بالنسبة إليه، كانت تفتح على احتمال واحد ظل قلبه يحتفظ به حتى بعدما فقد الأمل :

**جولي.**

ظهرت ابتسامة صغيرة على وجهه.

لم يعد يريد النجاة.

ولم يعد يريد العودة.

لقد أنجز المهمة التي خرج من أجلها، وترك خلفه للبشرية شيئاً سيبقى بعده طويلاً.

أما هو، فقد كان قد أمضى سنوات يبحث عن طريق يعيده إليها.

والآن، بينما كانت الفقاعة تنجرف نحو قلب الظلام، شعر للمرة الأولى أن الطريق لم يعد بعيداً.

أغمض عينيه.

وتخيّل يدها تمتد نحوه من الجهة الأخرى من الليل.

ثم ترك الكون يفعل ما يريد.

لقد دخل ثقباً أسود مجازياً في ليلة مقتلها ولم يخرج منه أبداً .. فلعل هذا الثقب الأسود الحقيقي يكون خلاصه الأخير، فيخرج منه عبر ثقب أبيض كضوء أخير في نهاية النفق.

استقرت يده فوق مفتاح البث الكمومي للمرة الأخيرة.

ظل للحظة ينظر إليه دون أن يضغطه، كأن إصبعه يستشعر في تلك اللمسة الأخيرة كل المسافة التي تفصل هذا المكان عن الأرض، وكل الكلمات التي لم تُقُل.

ثم ضغط.

صاح صوته الأجش عبر مكبرات الصوت في مقر الوكالة، هادئاً ومستقراً، بصورة تكاد تكون مؤلمة :

«ناسا... هنا جوليان. تغيير طارئ في المسار. أنا أدخل أفق الحدث لثقب أسود عملاق ظهر فجأة في مسار فقاعة الاعوجاج. لا داع للمحاولة أو المناورة فقد انتهى كل شيء علمياً وعملياً ... التلسكوبات ستعمل حتى النهاية ... شكراً لكم جميعاً على كل شيء ... وداعاً.»

لم يجب أحد.

في مقر الوكالة، كان كلاوس واقفاً أمام الشاشة، عاجزاً عن العثور على كلمة واحدة يمكن أن تُقال في مثل هذه اللحظة.

أما جوليان، فقد خفض يده عن لوحة التحكم.

وأمام المركبة، كان الظلام يزداد عمقاً.

بدأت المركبة تقترب من أفق الحدث.

وهنا، للمرة الأولى، بدا أن الكون نفسه قد قرر أن يكشف عن وجهه الحقيقي.

تشوهت النجوم حول الثقب الأسود، وانحنت مسارات الضوء في أقواس غريبة، بينما راحت قوى الجاذبية الهائلة تعبت بالبنية الدقيقة لفقاعة الاعوجاج. لم تعد الفقاعة محاطة بفضاء يمكن التعامل معه كما صُممت التجارب على الأرض؛ لقد



دخلت منطقة تصبح فيها الفروق بين مقدمة المركبة ومؤخرتها هائلة إلى حد لا تستطيع الهندسة البشرية احتماله.

بدأ غشاء الطاقة الذي حافظ على استقرار الفقاعة يرتجف.

اهتز مرة.

ثم مرة أخرى.

ظهرت على الشاشات أمام جوليان خطوط حمراء متشابكة، تتسارع كنبضات قلب مدعور.

ثم بدأ الشكل المغزلي للفقاعة يستطيل.

لم تعد تبدو كفقاعة.

كانت تتمدد تحت تأثير قوى المد والجزر الجاذبية، كما لو أن يدًا كونية هائلة أمسكت بطرفيها وسحبتهما في اتجاهين متعاكسين. تمددت مقدمتها أكثر فأكثر، وانكمشت بنيتها من الجوانب، حتى بدا الزمكان نفسه وكأنه يفقد شكله المألوف.

كانت ظاهرة التمزق المدي، أو ما يعرف بالتأثير المعكروني، قد بدأت.

وفي لحظاته الأخيرة بقي جوليان هادئاً .. مطمئناً .. وراضياً.

كان ينظر فقط.

إلى الأرقام.

إلى الضوء.

إلى السواد الذي يشبه لون حياته مذ فارقه محبوبته.

وإلى المسافة الأخيرة بينه وبين أفق الحدث.

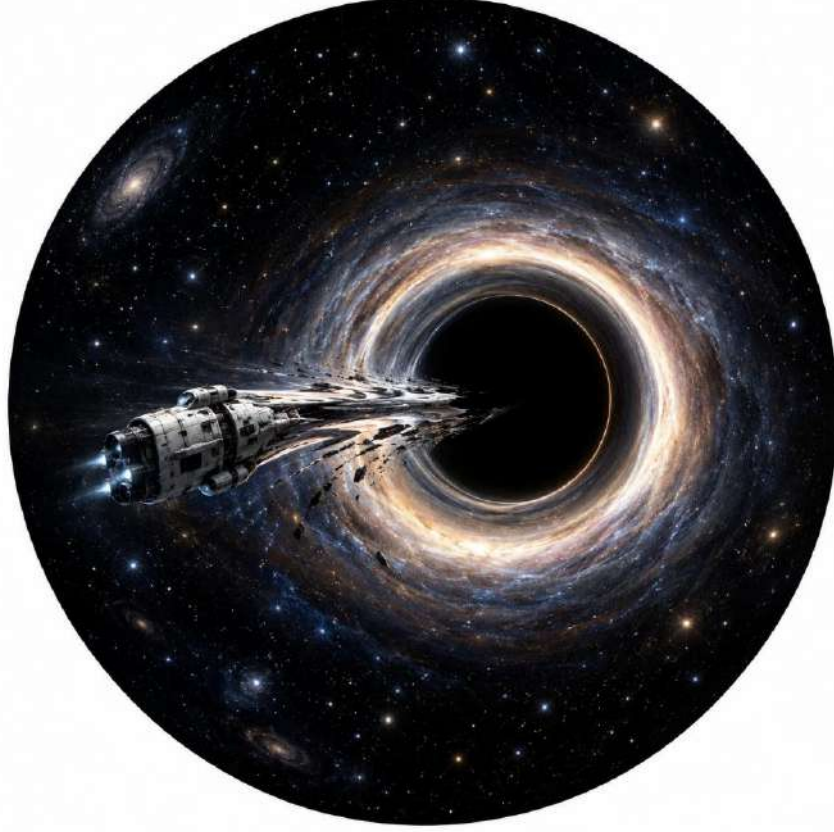
ثم حدث الانهيار.

انطوت البنية الزمكانية للفقاعة على نفسها، وفقد محرك ألكوبيير قدرته على الحفاظ على المسار الذي صُمم من أجله. وفي لحظات خاطفة، انهارت الحقول التي كانت تعزل المركبة عن عنف الفضاء المحيط، وتحررت الطاقة الهائلة التي ظلت محبوسة في بنية الفقاعة.

توهجت مقدمة المركبة بوميض أبيض أعمى.

ثم انفجر الضوء.

اندفعت دفعة هائلة من الإشعاع عالي الطاقة، واشتعلت السماء حول المركبة للحظة بألوان قاسية من الأشعة السينية، قبل أن يبتلعها الثقب الأسود كما لو أنها لم تكن موجودة قط.



لم يكن هناك انفجار بالمعنى الذي يعرفه البشر.

كان هناك اختفاء.

اختفاء سريع، كامل، ونهائي.

ومنذ اللحظة التي عبرت فيها المركبة أفق الحدث، لم تعد هناك إشارة يمكن أن تعود إلى الخارج.

في مقر الوكالة، تجمدت الحركة.

كان تيار البيانات لا يزال يتدفق على الشاشات، ثم بدأ يتشوش.

خطوط.

نقاط.

تشوهات.

ومضات متقطعة.

ثم ...

انقطع كل شيء.

اختفت الإشارة الكمومية.

غرقت الشاشات الهولوغرافية في سواد كامل وكأنها تعرض مشاهد من قلب الثقب الذي دخله جوليان.

ولم يبقَ في القاعة سوى ذلك الصمت الذي يأتي حين يفهم الجميع الشيء نفسه في اللحظة نفسها.

جوليان غادر الكون جسداً وروحاً ..

وقف كلاوس ببطء.

وبدأ، للمرة الأولى، وكأن سنوات عمره كلها قد هبطت على كتفيه دفعة واحدة.

وقف أعضاء اللجنة والخبراء خلفه.

لم يتحدث أحد.

خفضوا رؤوسهم.

وظلت القاعة دقيقة كاملة بلا حركة، إكراماً لرجل ذهب أبعد مما ذهب إليه أي إنسان قبله، ووهب حياته لمهمة ستظل البشرية تتحدث عنها ما بقي لها تاريخ.

لكن قبل أن تنتهي تلك الدقيقة...

حدث شيء.

على الشاشة الجانبية، كانت هناك نافذة واحدة لم تنطفئ.

آخر حزمة صور نجحت المركبة في إرسالها قبل فقدان الاتصال.

ظل الإطار ثابتاً.

حدّق كلاوس فيه.

ثم اقترب.

خطوة.

ثم أخرى.

وفجأة، اتسعت عيناه خلف نظارته الثقيلة.

لم يتكلم.

بدأت الدموع تنحدر ببطء على وجهه.

تقدم أحد الخبراء، ثم توقف إلى جواره.

لم يكن أحد يفهم ما الذي يراه كلاوس.

وفي اللحظة التالية، بدأت الصورة تتضح.

لم تكن نجومًا.

ولا ثقباً أسود.

ولا المركبة.

كانت كوكب الأرض.

لكنها لم تكن الأرض التي يعرفونها.

كانت الأرض في بدايتها الأولى.

كرة هائلة من النار والحمم، تتوهج في ظلام الفضاء، تضربها الشهب من كل جانب، بينما تتصاعد منها سحب كثيفة من البخار والغاز والغبار.

كانت الكاميرا قد التقطت، في آخر لحظة من حياة جوليان، أقدم مشهد يمكن أن تصل إليه العدسة لكوكب الأرض.

المفارقة كانت أقسى من أن يحتملها العقل.

الرجل الذي ذهب إلى أبعد نقطة من الفضاء حققتها البشرية...

كانت آخر صورة تركها خلفه هي أول صورة في تاريخ الأرض.

بدأ جوليان رحلته من كوكب حيّ ينظر إلى السماء.

وانتهت إشاراته عند اللحظة التي لم يكن فيها ذلك الكوكب قد أصبح أرضاً بعد.  
نظر كلاوس إلى الصورة، ولم يعد يعرف إن كان ما يراه نهاية أم بداية.  
ربما لم يكن الزمن خطأ مستقيماً كما ظنوا.  
ربما كان كتاباً هائلاً، تتصل صفحاته في دوائر لا يراها الإنسان إلا عندما يبتعد  
بما يكفي.  
وفي تلك اللحظة، بدا الأمر كله وكأن كتاب الزمان قد أُغلق بالطريقة الوحيدة التي  
تليق به :

### **من حيث انتهت حياة جوليان ... بدأت حكاية الأرض.**

نعم .. لقد رحل جوليان أخيراً .. ووجد الخلاص الذي انتظره لسنوات .. لكن  
تضحيته بقيت خالدة في صفحات التاريخ .. وفي فلم المخرجة كريستينا مير الذي  
كتبت قصتها حول مفهوم فقاعة الاعوجاج وكان بطلها الرئيسي جوليان .. الشاب  
الذي جعل من فكرتها السينمائية الخيالية التي اقترحتها على البروفيسور كلاوس  
واقعاً ملموساً يعرض على الشاشات حكاية كوكب الأرض ..



# المومياء



## الرواية الثالثة

الموميا ..



## فصول الرواية :

- مومياء زغرب ..
- تعاويذ غير مألوفة ..
- البردية المفقودة ..
- رمال الصحافة المتحركة ..
- ممنوع من عبور الأفق ..
- حورمحب : الميّت الحيّ ..
- القفل الإثروسكرياني ..
- الوجه المظلم للقمر ..
- با .. من جسد إلى جسد ..



# الفصل الأول

## مومياء زنفرب

لم يكن إسماعيل الراوي يحب الموتى.

وكانت هذه، في رأيه، أول صفة ينبغي أن يتحلى بها الطبيب الذي يختار التشريح مهنةً له؛ لا أن يحب الموتى، ولا أن يخافهم، بل أن يتعامل معهم كما يتعامل الفلكي مع نجم انطفأ منذ آلاف السنين: بفضول هادئ، وباحترام لا يحتاج إلى دموع، وبإيمان راسخ بأن الجسد، حتى بعد أن يتوقف عن الحياة، لا يكف عن قول الحقيقة. كان يرى أن الموتى أقل كذبًا من الأحياء.

الأحياء يخفون، ويتجملون، وينكرون، ويخافون، ويغيرون رواياتهم بحسب من يقف أمامهم. أما الجسد الميت فقد انتهى من كل ذلك. صار وثيقة. كل ندبة فيه جملة، وكل كسر فاصلة، وكل أثر مرض هامش كتبه الزمن على لحم الإنسان ثم أغلق الكتاب.

ولذلك كان إسماعيل يقف أمام الموتى طويلاً.

لا لأنه قاسي القلب، كما ظنت زوجته ذات مرة، ولا لأنه فقد حساسيته تجاه البشر، كما كان بعض زملائه يلمحون حين يرونه يعود إلى البيت بعد ساعات طويلة في غرفة التشريح، بل لأنه كان يشعر، في مكان عميق من نفسه، أن الموتى هم المرضى الوحيدون الذين لا يستطيعون أن يكذبوا على طبيبيهم. وذلك الشعور لازمه منذ طفولته على مدى سنين عمره.

ولد إسماعيل في بيت قديم على طرف مدينة المنيا المصرية، حيث النيل يبدو من شرفة المنزل كأنه شريط من معدن أزرق مخضر ينساب ببطء بين حقول القصب والقمح. كان أبوه موظفًا صغيرًا في إدارة الري، رجلًا هادئًا قليل الكلام، يعتقد أن أفضل ما يمكن أن يورثه الأب لابنه ليس المال، وإنما القدرة على ألا يحتاج إلى أحد. وكانت أمه تحفظ القرآن وتعرف أسماء الأعشاب أكثر مما تعرف أسماء الأطباء، وتضع إلى جوار نافذة المطبخ أوعية صغيرة من النعناع والريحان والحلبة والبابونج، وتقول له منذ صغره إن الجسد لا يخون صاحبه إلا إذا عجز صاحبه عن الإصغاء إليه.

وكان له أخوان أصغر منه، لكنه كان الأقرب إلى أبيه.

ولم يكن أبوه يفهم تمامًا شغفه بالطب، لكنه فهم شيئًا آخر: أن ابنه لا يريد أن يكون طبيبًا لكي يعالج المرضى فقط؛ كان يريد أن يعرف لماذا يمرض الإنسان أصلًا.

حين كان في العاشرة من عمره، وجد في مكتبة المدرسة كتابًا قديمًا عن الطب المصري. لم يكن الكتاب جميلًا؛ أوراقه صفراء، وغلافه متشقق، ورائحته مزيج من الغبار والرطوبة. لكنه قضى فيه أسابيع كاملة يقرأ عن الفراعنة الأطباء الذين عاشوا على ضفاف النيل قبل آلاف السنين، وعن الجراحات، والتحنيط، والأعشاب، والكسور، والجروح، والطبقات التي تركتها الأمراض على المومياوات.

وفي ليلة شتوية، جلس أمام أبيه وقال:

- أبتى .. أريد أن أعرف ماذا يحلّ بالإنسان بعد أن يموت.  
رفع الأب عينيه ببطء عن الجريدة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد الجسد .. ما مصيره ؟!

ظل الأب ينظر إليه قليلاً، ثم قال:

- إن كنت تريد أن تعرف مصير الإنسان بعد الموت، فلا تبدأ بالجسد.  
ابتسم إسماعيل.

- ولماذا؟

- لأن الإنسان أكثر بكثير من مجرد جسد. الجسد مجرد أداة والروح هي القصيدة كلها.

ولم يفهم إسماعيل يوماً أن تلك الجملة ستعود إليه بعد سنوات، في مدينة بعيدة عن النيل، وهو يضع يده على صدر مومياء عمرها آلاف السنين.

كبر إسماعيل وحقق طموحه المهني كطبيب شرعي ثم هاجر للعمل ..

كان في التاسعة والثلاثين حين وصل إلى زغرب عاصمة كرواتيا.

وكانت السنوات قد صنعت من وجهه شيئاً يشبه الخرائط القديمة؛ خطوط رفيعة عند جانبي عينيه، تجاعيد هادئة فوق الجبهة، وخط غائر يمتد من طرف أنفه إلى زاوية فمه كأنه أثر فكرة قديمة لم تكتمل. كان طويل القامة، نحيلًا دون ضعف، عريض الكتفين على نحو لا يتناسب مع نحافة جسده، وله شعر أسود كثيف بدأ الشيب يتسلل إليه عند الصدغين، وكان يخلق لحيته كل صباح بعناية، لا حباً في الأناقة بقدر ما كان يكره أن يترك لوجهه شيئاً يمكن أن يبدو فوضوياً.

وكانت عيناه أكثر ما يلفت فيه.

لم تكونا سوداويين تمامًا، بل بنيتين داكنتين كحبات البن المحمصة، وفيهما ذلك الهدوء الذي يربك من أمامه. كان ينظر إلى الأشياء كما لو أنه لا يراها للمرة الأولى، حتى عندما تكون جديدة عليه؛ يثبت عينيه عليها، يصمت، ثم يبدأ في تفكيكها في ذهنه قطعة قطعة.

لم يكن سريع الانفعال.

كان غضبه، حين يأتي، بطيئًا ونادرًا، ولهذا كان أكثر إزعاجًا من الغضب الصاخب. إذا غضب، لم يكن يرفع صوته؛ بل يصمت فقط.

وكان صمته معروفًا في أسرته.

زوجته مريم كانت تقول له:

- عندما تصمت بهذه الطريقة أعرف أنك بدأت تفكر في شيء لن يعجبني. فيضحك.

ولم يكن إسماعيل يحب الضحك كثيرًا، لكنه كان يحب مريم.

تزوجها قبل أحد عشر عامًا، وكانت تعمل مدرسة للتاريخ قبل أن تترك عملها بعد ولادة ابنتهما ليلي. وكان لهما أيضًا صبي صغير اسمه يوسف، في السابعة من عمره، يملك عادة غريبة في جمع الأشياء التي يجدها في الشوارع: مسمار صدئ، حجر أملس، قطعة زجاج، عملة لا قيمة لها، ريشة طائر. وكان يضعها كلها في صندوق خشبي تحت سريره، ويسميه «متحف الأشياء التي لا يريدونها أحد».

وكان إسماعيل يحب ذلك الصندوق أكثر مما يحب كثيرًا من المتاحف. ربما لأنه كان يرى فيه شيئًا من نفسه. فهو أيضًا كان مولعًا بالأشياء التي لا يريدونها أحد: العظام التي لا يلتفت إليها الناس، الأجساد التي يخافون منها، الوثائق المنسية، القبور التي بلا أسماء، والأشياء الصغيرة التي يمر بها الجميع دون أن يدركوا أنها تخفي قصة كاملة.

ولهذا لم يكن اختصاصه في التشريح مجرد وظيفة، كان موقفًا من العالم.

كان يريد أن يعرف الإنسان من داخله.

لا مجازًا.

حرفيًا.

في صباح اليوم الذي بدأت فيه الحكاية، كان الثلج قد هبط على زغرب طوال الليل. استيقظ إسماعيل قبل الفجر بقليل، كما اعتاد منذ سنوات، ووقف خلف النافذة ينظر إلى الشارع الأبيض. الأشجار العارية تبدو في الضوء الرمادي كعروق سوداء على جلد شاحب، عربات قليلة تمر ببطء، فيما تتصاعد من مداخل البيوت خيوط دخان مستقيمة ثم تنكسر فوق الأسطح.

الشتاء الأوروبي لا يشبه شتاء مصر.

في مصر، البرد معقول ويأتي مع الشمس.

هنا البرد ثقيل ويأتي مع غيابها الطويل.

ارتدى معطفه الطويل، ووضع قفازيه في جيبه، ثم أخرج ساعة جيب فضية ورثها عن أبيه. كانت الساعة قديمة، لكنها دقيقة على نحو يكاد يكون استغزائيًا. فتح غطاءها، نظر إلى العقارب، ثم أغلقها.

في جيبه الآخر كانت ترقد رسالة، وصلته قبل يومين من إدارة المتحف الأثري.

لم تكن الرسالة طويلة، لكنها كانت غريبة:

{ السيد الدكتور إسماعيل الراوي المحترم :

نرجو حضوركم إلى المتحف الوطني في زغرب للمشاركة في فحص مومياء مصرية وصلت حديثًا إلى مجموعتنا الأثرية.

فقد أظهرت الفحوص الأولية ظاهرة غير مألوفة تمثلت في خروج مادة حمراء تشبه الدماء من بين اللفائف الكتانية، عجز المختصون لدينا عن تحديد طبيعتها. كما أن بعض خصائص التحنيط تبدو مختلفة عن المألوف في المومياوات المصرية المعروفة.

ونظرًا إلى خبرتكم في الطب الشرعي وفحص الرفات البشرية القديمة، وإلى معرفتكم المتخصصة بالتقاليد الطبية والجنائزية المصرية، نرجو منكم مساعدتنا في تحديد طبيعة هذه الظاهرة.

الأمر يستدعي حضوركم في أقرب وقت ممكن.

إدارة المتحف الوطني – زغرب {

لم يكن إسماعيل يحب العبارات الغامضة.

الغموض في الطب يعني عادة أن أحدهم لم يفحص المريض جيداً.

أما في الآثار، فقد يعني شيئاً آخر.

كان يحمل حقيبتة الطبية الصغيرة، لا لأنه يتوقع أن يجد مريضاً، وإنما لأنه اعتاد ألا يسافر دون أدواته منذ سنوات: مشرط، ملقط، عدسة، قفازات، أنابيب زجاجية، ميزان صغير، وبعض المواد التي قد يحتاج إليها في فحص العينات.

وحين وصل إلى المتحف، لم يكن الصباح قد اكتمل بعد.

قادته ممرات طويلة باردة إلى جناح بعيد عن صالات العرض. كانت رائحة المكان مختلفة عن رائحة المتحف التي اعتادها الرواد؛ هنا لم تكن هناك عطور الزائرين ولا خشخشة الملابس ولا همسات الأطفال، وإنما رائحة خشب قديم وغبار وورق ومواد حفظ كيميائية.

في نهاية الممر كان ينتظره رجل قصير ممتلئ الجسم، في أواخر الخمسينيات، اسمه فرانتس كروغر، مدير المجموعة المصرية في المتحف.

صافحه بحرارة وقال:

- دكتور الراوي، أثنى عليك كثيراً.  
أحنى رأسه بتواضع وقال:

- قلت في رسالتك إن لديكم مشكلة.  
تردد الرجل.

- لدينا شيء لا نفهمه.

- هذا وصف أفضل.

قاده إلى غرفة واسعة تحت الأرض.

كانت الغرفة مضاءة بمصباحين أصفرين معلقين من السقف، وفي منتصفها طاولة تشريح كبيرة من الحجر، وعلى الطاولة صندوق زجاجي طويل.

لم ينظر إسماعيل إلى كروغر، ظل ينظر إلى الصندوق ثم قال:



- من أين جاء؟

- من مصر.

- هذا ليس جواباً.

ابتسم كروغر ابتسامة صغيرة.

- كنت أعرف أنك ستقول ذلك.

اقترب من الصندوق وفتح القفل. ثم رفع الغطاء.

لم ير إسماعيل المومياء كاملة في اللحظة الأولى. رأى الكتان. طبقات من الكتان القديم بلون العاج المطفأ، مشوب بدرجات من البني والرمادي، مشدود حول الجسد في طبقات متراكبة، بعضها ضيق ومتقن، وبعضها يبدو كأنه أضيف في وقت لاحق.

لكن ما أدهشه لم يكن قدم الكتان، كان انتظامه، إذ كان هناك شيء هندسي في طريقة اللف: شرائط بعرض مختلف، تتقاطع في مناطق محددة، وتلتف حول الجذع والأطراف بترتيب لا يبدو عشوائياً.

مد يده ثم توقف قبل أن يلمسه.

- هل لمس المومياء أحد من قبل ؟

ردّ كروغر بنبرة مؤكدة:

- لم يلمسها أحد منذ نقلها إلى هنا.

- هذا جيد.

انحنى إسماعيل قليلاً.

كانت المومياء بحجم رجل بالغ، لكن الجسد بدا أطول مما توقع، والكتان جعله أشبه بتمثال صنعه أحدهم من الرمل ثم حاول أن يخفيه تحت القماش.

سأل:

- أين وُجدت؟

هنا صمت كروغر للحظات. ثم همس أخيراً:

- القصة ليست بسيطة.

- القصص البسيطة لا تصل إلى المتاحف.

تنهد الرجل وجلس على كرسي قريب.

- قبل عقود طويلة، كان لدينا تاجر نمساوي اسمه ألكسندر هالر. كان يسافر كثيرًا بين الإسكندرية والقاهرة والأقصر. وكان يشتري التحف، أحيانًا بطريقة قانونية، وأحيانًا...

توقف.

فابتسم إسماعيل:

- أفهم.

تابع الرجل:

- في شتاء عام 1861، وصل هالر إلى الأقصر. كان يبحث عن تماثيل صغيرة وقطع جنائزية. وهناك التقى بمجموعة من العمال الذين كانوا يعملون في مقبرة تعرضت للنهب قبل سنوات.

- أي مقبرة؟

- لم يعرف أحد اسمها.

- ووجدوا المومياة؟

- وجدوا مدخلًا مغلقًا بالحجارة.

رفع إسماعيل عينيه.

- وهذا مختلف.

- نعم.

- ماذا كان على الباب؟

- لا شيء.

- لا نقوش؟

- لا.

- لا اسم؟

- لا.

- إذن لماذا فتحوه؟

قال كروغر وعيناه تلمعان:

- لأن الذهب أحيانًا لا يحتاج إلى اسم يكفيهِ بريق الطمع والأحلام.

ظل إسماعيل صامتًا.

تابع الرجل:

- فتح العمال المدخل، لكنهم لم يجدوا كنوزًا. وجدوا غرفة ضيقة. وفي الغرفة تابوت حجري، لكنه كان مكسورًا من جهة الرأس والمومياء بداخله.
- ولماذا نقلها؟
- لأن هالر كان يظن أنها ذات قيمة.
- وهل كانت؟
- نظر كروغر إلى المومياء نظرة غامضة.
- أكثر مما تخيل.
- أخرج من درج قريب مجموعة أوراق.
- هذه الوثائق المتعلقة بها.
- أخذ إسماعيل الأوراق. كانت قديمة، وبعضها مكتوب بالألمانية، وبعضها بالفرنسية، وبينها وصف مختصر لعملية النقل من مصر إلى أوروبا.
- لكن ثمة فجوة برزت في الوثائق.
- سأل:
- أين وثائق الفترة بين العثور على المومياء ووصولها إلى زغرب؟
- لا نعرف.
- رفع رأسه.
- لا تعرفون؟
- هناك ثمانية أشهر مفقودة من السجل.
- ابتسم إسماعيل ابتسامة خافتة.
- إذن بدأت القصة تعجبني.
- عاد إلى المومياء.
- هذه المرة أخرج العدسة.
- كانت هناك آثار راتنج داكن حول مواضع معينة من الكتان، كما لاحظت عيناه بقايا مسحوق أبيض عالق بين طبقات القماش.
- نظرون.
- سأله كروغر بدهشة:
- نظرون ؟ لم أفهم ؟

- أجل .. صديق الفراعنة القدماء.
- ثم شرح له، دون أن يرفع عينيه عن الجسد:
- المصريون لم يحفظوا موتاهم لأنهم كانوا يخافون من منظر الجسد المتحلل.
- هذه فكرة حديثة أكثر مما ينبغي. التحنيط عندهم كان جزءاً من تصور كامل للوجود. الجسد لم يكن مجرد وعاء يُرمى بعد موت الإنسان، كان أحد شروط استمرار الشخص في العالم الآخر.
- مرر إصبعه فوق طبقة من الكتان دون أن يلمسها.
- لذلك كان لا بد من إيقاف التحلل.
- ثم أشار إلى موضع البطن.
- كانوا يزيلون معظم الأحشاء، ثم يعالجونها ويحفظونها بصورة منفصلة في كثير من الفترات، بينما كان القلب غالباً يُترك في موضعه لأنه كان يحتل مكانة خاصة في تصورهم للإنسان.
- لم يكن يتحدث كأستاذ، كان يتحدث كما لو أنه يروي قصة يعرفها منذ زمن.
- ثم يأتي النطرون. ملح طبيعي غني بمركبات قلوية، يستخرج من مناطق مثل وادي النطرون. وظيفته الأساسية هنا بسيطة ومذهلة في آن واحد: يسحب الماء من الجسد، والميكروبات التي تتسبب في التحلل لا تجد بيئة رطبة مناسبة للحياة.
- وكما يستغرق ذلك؟
- نحو أربعين يوماً في المرحلة الأساسية من التجفيف، أما العملية الجنائزية بأكملها فتتمتد تقليدياً إلى نحو سبعين يوماً.
- ثم تابع:
- وبعد أن يجف الجسد، يُعالج بالزيوت والراتنجات والمواد العطرية، وتُملأ التجاويف بمواد مختلفة للحفاظ على شكله. ثم تبدأ مرحلة اللف.
- نظر إلى الكتان.
- وهذه أهم مما يظن الناس.
- لماذا؟
- لأن الكتان ليس مجرد غطاء.
- اقترب أكثر.

- كل طبقة كانت تؤدي وظيفة. كتابة تعاويذ الحماية، تثبيت الجسد، وضع التمام، وإتمام الطقس. وفي بعض الحالات كان عدد الأمتار المستخدمة هائلًا. المومياة لم تكن جسدًا ملفوفًا بقماش؛ كانت مشروعةً كاملاً لإعادة بناء الإنسان بعد موته.  
ثم قال بصوت أكثر انخفاضًا:

- المصري القديم لم يكن يحاول فقط أن يمنع جسده من التعفن.  
رفع عينيه إلى كروغر.

- كان يحاول أن يجعل الموت بوابة لاستمرار الجسد.  
ساد صمت ثقيل للحظات، ثم هشمه كروغر بسؤال آخر.

- وهل هذه المومياة عادية؟

- حتى الآن، لا أعرف.

ثم أضاف:

- لكنها ليست مصنوعة بالطريقة نفسها التي رأيتها في مئات المومياوات.

بدأت عملية الفحص.

لم يكن إسماعيل على عجلة من أمره. كان يكره الاستعجال في التعامل مع الأشياء القديمة؛ فالزمن الذي صمدت عبره الأشياء آلاف السنين لا يحتاج إلى طبيب أرعن يفسدها خلال ساعة.

فحص الرأس أولاً.

كانت ملامح الوجه غائرة، لكن عظام الأنف واضحة، والفك السفلي متماسك. لم يكن هناك قناع جنازي. ولم تكن المومياة مزينة بالذهب أو الأحجار. كانت فقيرة من الخارج، وهذا بالذات أثار شكه.

سأل بدهشة:

- أين الأشياء التي كانت معها؟

- لا نعرف.

- والتابوت؟

- موجود.

- هل يمكنني رؤيته؟

- لاحقًا.

أعاد إسماعيل نظره إلى المومياء.

الجسد يبدو لرجل في منتصف العمر، وإن كان تحديد العمر من الخارج صعبًا. اليدان طويلتان، والأصابع متقاربة ومثبتة بعناية. القدمان ملفوفتان بطبقات كثيفة. أما الرأس فكان محاطًا بعدد أكبر من الطبقات، وكأن القائمين على التحنيط أولوا الرأس عناية خاصة.

لكنه لاحظ شيئًا غريبًا.

قال:

- أعطني المصباح.

وجهه كروغر الضوء.

تحت الطبقة الأولى من الكتان، بالقرب من الصدغ، ظهرت علامة سوداء.

ثم علامة ثانية.

ثم ثالثة.

تمتم إسماعيل وكأنه يحدث نفسه:

- هذه ليست زخرفة.

اقترب أكثر. كانت العلامات صغيرة جدًا. ليست هيروغليفية، ولا تبدو كخط مصري.

علّق كروغر:

- ربما مجرد رموز.

أجاب إسماعيل:

- ربما.

لكنه لم يبدُ مقتنعًا.

بعد ساعتين، كان قد فحص معظم الجسد دون أن يفتح شيئًا. ثم وصل إلى اللفائف، وهنا تغير كل شيء.

كان الكتان الخارجي جافًا وهشًا، لكن الطبقات الداخلية بدت أكثر كثافة. وحين مرر إسماعيل يده فوقها، شعر بفرق واضح بين النسيج الخارجي والداخلي.

قال:

- هذا غريب.
- ماذا؟
- هذه الطبقة ليست كتانًا واحدًا.
- ماذا تقصد؟
- هناك شيء بين الطبقات.
- أحضر ملقطًا دقيقًا. رفع طرفًا صغيرًا من القماش، فظهرت تحته طبقة أخرى أغمق لونًا، ثم طبقة ثالثة.
- كان النسيج الداخلي أرق، لكنه أشد تماسكًا.

قال إسماعيل:

- لقد أعيد لفها أكثر من مرة.
- ربما بسبب الترميم.
- لا.
- كيف تعرف؟
- رفع رأسه.
- لأن من قام بالترميم لم يكن يحاول إصلاح المومياء.
- ثم أشار إلى الخيط.
- كان يحاول إخفاء شيء.
- اقترب المساء. فأرسل كروغر الجميع خارج الغرفة وبقي هو وإسماعيل وحدهما.

سأل:

- هل تريد أن نكمل غدًا؟
- نظر إسماعيل إلى المومياء، ثم إلى الساعة.
- غدًا قد يكون متأخرًا.
- لماذا؟
- لأننا لا نعرف ما إذا كانت الطبقات الداخلية مستقرة.
- هل تخشى أن تتلف؟
- أجاب بغموض:

- أخشى أن نكتشف بعد مئة عام أننا كنا نقف أمامها ولم نرها.  
ثم فتح حقيبته. أخرج أنبوباً زجاجياً صغيراً وقال:
- سأحتاج إلى عينة من الماء المستخدم في التنظيف.
- مرر كروغر الإناء إليه، فوضع إسماعيل قليلاً من الماء على قطعة صغيرة جداً من الكتان الخارجي، في موضع لا يؤثر في بنية اللفائف وانتظر.
- في البداية لم يحدث شيء، ثم تغير لون الكتان.
- ظهرت نقطة حمراء.
- قطرة صغيرة.
- ثم ثانية.
- ظل إسماعيل ينظر إليها.
- همس كروغر:
- صبغة؟
- لم يجب.
- توسعت البقعة. كان اللون أحمر داكناً، كثيفاً، لامعاً للحظة تحت الضوء. ثم بدأت قطرة صغيرة بالتجلط كالدماء وانحدرت على سطح الكتان.
- صاح كروغر:
- هذا مستحيل.
- اقترب إسماعيل ولمس القطرة بطرف المعلقة الزجاجية، كانت لزجة. رفعها إلى الضوء ثم شمها .. رائحة معدنية خفيفة.
- رفع عينيه.
- أوقف كل شيء.
- لماذا؟
- لا أحد يلمس هذه الموميا.
- دكتور إسماعيل...
- قلت لا أحد.. ربما كان سحراً أسود، لا نحتاج إلى لعنة فراعنة جديدة.



ثم حدث شيء لم يتوقعه.

من تحت الطبقة المبللة بدأت تظهر خطوط سوداء. لم تكن هناك قبل دقائق. تسرب الماء بين الألياف، فرفع معه حبرًا ظل محبوسًا داخل النسيج لقرون.

ظهرت علامة.

ثم أخرى.

ثم صف كامل من العلامات.



تراجع كروغر خطوة. أما إسماعيل فاقترب حتى كاد وجهه يلامس الكتان.

لم تكن الكتابة هيروغليفية.

ولم تكن ديموطيقية.

ولم تكن قبطية.

كانت كتابة يعرفها من كتب التاريخ، لكنه لم يرها قط بهذا القرب.

تمتم:

- لا يمكن...!!

- ماذا؟

رفع إسماعيل رأسه ببطء.

- هذه ليست مصرية.

اقترب كروغر.

- إذن ماذا تكون؟

ظل إسماعيل ينظر إلى السطر.

كان قلبه يخفق للمرة الأولى منذ بداية الفحص بسرعة لا علاقة لها بالطب.

همس بكلمة يتيمة :

- إيتروسكانية.

لم يعرف كروغر ماذا يقول، أما إسماعيل فجلس.

كانت هناك أشياء كثيرة يمكن للطبيب أن يفسرها.

التحنيط يمكن تفسيره.

الجفاف يمكن تفسيره.

الرواسب يمكن تفسيرها.

حتى ظهور الصبغة يمكن أن يجد له تفسيرًا كيميائيًا.

لكن وجود كتابة إيتروسكانية داخل لفائف مومياة مصرية كان شيئًا آخر. شيئًا لا ينبغي أن يكون موجودًا.

كان يعرف أن الإيتروسكان عاشوا في إيطاليا القديمة، وأن لغتهم بقيت لغزًا جزئيًا رغم ما وصلنا منها من نقوش. وكان يعرف الآن أن إحدى أشهر الغرائب في تلك اللغة أن نصًا طويلًا مكتوبًا بالإيتروسكانية حُفظ على كتان استخدم لاحقًا في لف مومياة مصرية.

لكنه لم يكن يعرف أن هناك حكاية مخفية، ولم يكن يعرف أن النص الذي أمامه لم يكن مجرد نص، بل قصة أكبر من ذلك بكثير.

سأله كروغر بانفعال:

- هل يمكنك قراءته؟  
هز إسماعيل رأسه.

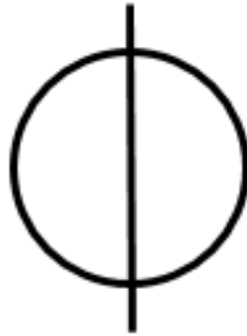
- ليس أنا.

- إذن من يستطيع؟

- عالم لغويات ومتخصص فيها أيضاً.

أخرج هاتفه وصور الكتابة. كانت الغرفة قد أصبحت باردة بصورة غريبة. اقترب إسماعيل من المومياء مرة أخرى، رفع المصباح، وفي الضوء المائل رأى شيئاً لم يره من قبل.

بين الكتان والجلد، عند مستوى الصدر، كانت هناك علامة دائرية صغيرة، محفورة أو مرسومة بلون أسود، وفي مركزها خط عمودي.



لم تكن العلامة مصرية.

لكنه لم يستطع أن يبعد عينيه عنها.

مد يده.

ثم توقف.

لم يكن يعرف لماذا توقف.

ربما لأن الطبيب الذي عاش طوال حياته يبحث عن تفسير لكل شيء شعر، للمرة الأولى، أن التفسير ليس بالضرورة أفضل ما يمكن أن يحدث للإنسان.

لكنه لمس الكتان.

وفي اللحظة نفسها، حدث شيء لا يزال إسماعيل، بعد سنوات، عاجزًا عن تحديد ما إذا كان قد رآه أم شعر به.

تحرك صدر المومياء.

حركة صغيرة جدًا. صعود بطيء ثم هبوط.

رفع إسماعيل يده وتجمد في مكانه.

نظر إلى كروغر. كان الرجل شاحب الوجه.

صاح:

- هل رأيت؟

لم يجب كروغر، لأن المومياء تحركت مرة أخرى. لكن هذه المرة لم يكن هناك مجال للشك، ارتفع الصدر تحت الكتان مقدارًا ضئيلاً ثم سقط.

وضع إسماعيل أصابعه على المكان وانتظر.

ثانية.

ثانيتين.

خمس.

عشر.

لا شيء.

ثم شعر بها.

نبضة. واحدة. بطيئة. عميقة.

كان قلبًا غارقًا في قاع بئر طرق جدارها من الداخل.

رفع إسماعيل يده بسرعة. وللمرة الأولى في حياته لم يجد تفسيرًا طبيًا لما شعر به.

ظل واقفًا أمام المومياء.

وخلف الزجاج المغبش للنافذة كان الثلج يواصل هطوله فوق زغرب، هادئًا

وأبيض، كأنه يعصب عيني المدينة كيلا ترى أنه في أحد أقبية متحفها يرقد رجلٌ  
مات منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام...  
وربما لم يمت بعد!!

# الفصل الثاني

## تعاوين غير مأثوفة

لم ينم إسماعيل في تلك الليلة.

كان الثلج قد توقف قبل منتصف الليل، لكن المدينة ظلت مستيقظة تحت بردها، كأن البيوت الحجرية احتفظت بشيء من صرير الريح في جدرانها. ومن نافذة غرفته كان يستطيع أن يرى مصابيح الشارع معلقة في الضباب مثل نجوم مريضة، يسطع بعضها ثم يخفت، بينما عربات قليلة تشق الطريق ببطء فوق الثلج المتجمد. جلس إلى مكتبه، ولم يشعل إلا المصباح الصغير الموضوع إلى جوار الأوراق.

أمامه كانت هناك صورة المومياء.

وإلى جانبها صورة اللفافة.

وبينهما كتاب مفتوح على صفحات قديمة من النصوص الجنائزية المصرية.

كان قد أخرج الكتاب من خزانة خاصة في المتحف قبل ساعات، بعد أن أصر على الحصول عليه في الليلة نفسها. لم يكن يريد الانتظار حتى الصباح. كان يشعر أن شيئاً ما في المومياء قد بدأ ينسج حوله شبكة من الأسئلة، وأن تأجيل السؤال يوماً واحداً قد يمنح الحقيقة فرصة أخرى للاختباء.

رفع الصورة.

تأمل الوجه الملفوف.

ثم قال بصوت خافت:

- ماذا فعلوا بك؟

لم يكن السؤال موجّهاً إلى المومياء بقدر ما كان موجّهاً إلى أولئك الذين حنطوها.

كان قد رأى مئات المومياوات، وربما أكثر مما يستطيع أن يتذكر. بعضها كان محفوظاً في حالة مذهلة، وبعضها لم يبق منه إلا العظام، وبعضها كان مشوهاً بفعل اللصوص أو الزمن أو سوء التخزين. لكنه لم ير مومياء تحيط بها تلك الطبقات من الصمت.

وكان أكثر ما يزعجه الآن ليس النص الأجنبي.

بل السؤال الذي سبقه.

لماذا احتاج أحد إلى كتابة شيء على جسد ميت؟

فهو يعرف الإجابة التقليدية.

المصريون كتبوا التعاويذ على التوابيت والجدران والبرديات والتمائم، ووضعوا الكلمات إلى جوار الموتى لكي تساعد في العالم الآخر.

لكن المومياة التي أمامه كانت مختلفة.

كان النص مخفياً.

ليس على جدار.

ليس على تابوت.

ليس في بردية وضعت إلى جوار الميت.

بل داخل اللفائف نفسها. كأن أحداً لم يكن يريد أن يقرأه أحد.

وهذه الفكرة وحدها كانت كافية لكي تبقى مستيقظاً.

فتح الكتاب.

وفي الصفحة الأولى من القسم الجنائزي كان عنوان قديم قد ترجمه الباحثون إلى عبارة يعرفها علماء المصريات جيداً :

## كتاب الموتى.

ظل ينظر إلى العنوان.

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.

«كتاب الموتى».

تعبير مريح أكثر مما ينبغي. فالمصري القديم لم يكن يملك كتاباً واحداً اسمه كتاب الموتى. لم يكن هناك مجلد مقدس واحد يحمل هذا الاسم، ولا نسخة أصلية وضعها كاهن مجهول ثم تنقلها المصريون جيلاً بعد جيل. ما نسميه اليوم «كتاب الموتى» هو، في الحقيقة، اسم حديث أطلقه علماء الآثار على مجموعة من النصوص الجنائزية التي تطورت عبر قرون طويلة، وظهرت بصيغ مختلفة، وبأعداد مختلفة من التعاويذ، وعلى برديات وتوابيت وجدران وتمائم.

كان لكل ميت، إذا كان غنياً وقادراً على تحمل النفقات، نصوصه الخاصة تقريباً.



نسخته الخاصة من الطريق.

نسخته الخاصة من النجاة.

نسخته الخاصة من الموت.

وهذا ما كان إسماعيل يحبه في الحضارة المصرية أكثر من أي شيء آخر. أن المصري القديم لم يكن يرى الموت حدثًا واحدًا، كان يراه رحلة. رحلة لها أبواب، وحراس، وأسئلة، وأخطار، وأماكن لا يمكن الوصول إليها إلا إذا عرف المرء الكلمات الصحيحة.

قلب إسماعيل الصفحة.

ثم بدأ يقرأ.

كان من السهل أن يتخيل الإنسان القديم وهو يقف أمام الموت كمن يقف أمام صحراء لا نهاية لها.

الجسد خلفه.

والعالم الذي يعرفه قد انتهى.

وأمامه شيء لا يستطيع أحد أن يصفه لمن لم يدخله.

لكن المصريين حاولوا، وهذه المحاولة وحدها كانت مذهلة. لقد رسموا للموت خرائط ولم يتركوه مجهولًا بالكامل.

سمّوا الأماكن، ووصفوا الممرات، وأعطوا أسماء للبوابات والحراس، وصاغوا عبارات يتعين على الميت أن يعرفها أو يحملها معه.

كانت التعاويذ، في جوهرها، نوعًا من المعرفة.

الموت ليس مجرد نهاية، إنه مكان له قوانينه.

والمشكلة لم تكن في أن تموت، المشكلة أن تموت دون أن تعرف ماذا تفعل بعد ذلك.

قرأ إسماعيل نصًا يتحدث عن حماية الميت.

ثم نصًا آخر يتحدث عن استعادة قواه.

ثم عن قدرته على التنفس.

ثم عن فتح فمه.

ثم عن الخروج نهارًا.

ثم عن التحول إلى صور وأشكال مختلفة.

كانت التعاويذ تلاحق الموتى كما يلاحق الطبيب مرضاه؛ كل واحدة منها تعالج خوفًا محددًا.

الخوف من الجوع.

الخوف من العطش.

الخوف من فقدان الاسم.

الخوف من فقدان الذاكرة.

الخوف من أن يُغلق الباب.

الخوف من ألا يعرف الميت الطريق.

والأشد من ذلك كله :

الخوف من أن يفقد الإنسان ذاته.

توقف إسماعيل عند هذه النقطة. أعاد قراءة السطر، ثم تمتم:

- ذاته...

كان المصري القديم لا يتصور الإنسان بوصفه جسدًا فقط. وهذه النقطة كانت ضرورية لفهم كل شيء. الجسد، الذي سماه المصريون «**خات**»، كان الجزء المرئي من الإنسان؛ ذلك الشيء الذي يمكن أن يتحلل، لكنه يحتاج إلى الحفظ لأنه يبقى جزءًا من هوية صاحبه. وكان هناك الاسم «**رن**». وكان الاسم أكثر من مجرد كلمة. أن تعرف اسم الإنسان يعني أن تعرف وجوده. ولهذا كان محو الاسم من الحجر أو القبر عقوبة تتجاوز الموت. ثم كان هناك الظل «**شوت**»، ذلك الجزء الذي لا ينفصل تمامًا عن صاحبه، والذي كان المصريون يعدونه عنصرًا من عناصر وجود الإنسان. وكان هناك «**با**»، الذي يصوره المصريون غالبًا في هيئة طائر برأس بشري، والذي يرتبط بحركة الشخص وقدرته على مغادرة القبر والعودة إليه. وكان هناك «**كا**»، قوة الحياة أو القرين الذي يستمر بعد الموت ويحتاج إلى القرابين. وكان هناك الروح الأخيرة «**آخ**»، التي يصبح فيها المتوفى

كيانًا فعالًا في العالم الآخر إذا اكتملت شروط تحوله.

لم يكن إسماعيل يتوقف طويلاً عند المصطلحات.

كان يعرف أن ترجمتها إلى مفاهيم حديثة ليست سهلة، وأن محاولة جعل كل واحد منها مطابقاً تماماً لكلمة «روح» أو «نفس» أو «شخصية» سوف تفسد معناها.

لكن الفكرة الأساسية كانت واضحة : الموت لا يعني اختفاء الإنسان دفعة واحدة. إذ كان الإنسان بالنسبة للفراغة مجموعة من العناصر، والموت عملية تفكيك، والطقوس محاولة لإعادة جمع تلك العناصر في نظام جديد.

ولهذا كان الجسد مهماً.

ولهذا كان الاسم مهماً.

ولهذا كانت التعاويذ مهمة.

ولهذا كان القلب مهماً.

ولهذا كان القبر مهماً.

كل شيء تقريباً كان مرتبطاً بفكرة واحدة : أن الإنسان ينبغي ألا يضيع بعد موته. رفع إسماعيل رأسه عن الكتاب.

وفجأة لم يعد كتاب الموتى مجرد فكرة تاريخية.

عاد إليه مشهد الغرفة في المتحف.

عاد إليه وجه كروغر الشاحب.

وعادت إليه يده وهي ترتجف للمرة الأولى منذ سنوات، حين وضع أصابعه فوق صدر المومياء.

تذكر الصمت الذي سبق النبضة. ذلك الصمت الطويل الذي بدا فيه الجسد ميتاً إلى الحد الذي لا يترك مجالاً للشك.

ثم كانت.

نبضة واحدة.

لم تكن حركة قماش، ولا خداعاً للضوء، ولا صوتاً صدر من الخشب.

لقد شعر بها تحت أصابعه.

قلب.

قلب لا يفترض منطقياً وعلمياً أن ينبض.

تمتم لنفسه :

- إذا كان المصريون يعتقدون أن الإنسان يستمر بعد الموت ... فماذا لو أن جسد تلك المومياة لم يمت أصلاً؟  
بقي السؤال معلقاً في فضاء الغرفة.

كان يعرف، بصفته طبيباً، أن القلب المحنط لا يمكن أن ينبض.

ويعرف أن الأنسجة التي ماتت منذ آلاف السنين لا تستعيد نشاطها تلقائياً.  
ويعرف أن المومياة، مهما كانت محفوظة، لا يمكن أن تعود إلى الحياة بالمعنى البيولوجي.

لكن المشكلة لم تكن في معرفته، المشكلة أن إصبعه قد شعر بالنبض بالفعل.

فتح درج مكتبه، وأخرج دفتر ملاحظاته الطبية وكتب:

18 يناير .. الساعة 19:45 تقريباً.

( حركة صدرية غير مؤكدة لمومياة. ثم نبضة واحدة محسوسة بوضوح.)

توقف قليلاً ثم أضاف:

( لا تفسير عضوي محتمل.)

ثم ظل ينظر إلى الجملة الأخيرة.

كان يستطيع أن يمزق الصفحة، أن يعتبر الأمر وهمًا، أن يقول إن الإرهاق خدعه.  
لكنه لم يفعل.

لأن إسماعيل الراوي كان يؤمن بشيء واحد أكثر من إيمانه بأي نظرية : أن الطبيب لا يملك حق إنكار ما رآه لمجرد أنه لا يستطيع تفسيره.

عاد إلى الكتاب.

وهذه المرة قرأه بعين مختلفة.

لم يعد يبحث عن معلومات عن الموت، كان يبحث عن شيء آخر، عن المصريين الذين آمنوا بأن الموت لا يلغي الإنسان. عنهم، وعن ذلك الحد الغامض الذي يفصل بين الجسد الميت والإنسان الذي كان يسكنه.

وهنا بدأ يفهم لماذا كان التحنيط مهمًا إلى هذه الدرجة : المصريون لم يكونوا يحفظون الجسد من أجل الجسد وحده، كانوا يحفظون العنوان الذي يمكن للإنسان أن يعود إليه.

إذا كان «با» يغادر القبر، فلا بد أن يجد الجسد حين يعود.

إذا كان «كا» يحتاج إلى القرابين، فلا بد أن يعرف لمن تقدم.

إذا كان الاسم يحمل هوية صاحبه، فلا بد ألا يُمحى.

وإذا كان الإنسان سيصبح «آخ» في العالم الآخر، فلا بد أن تظل عناصره متماسكة بما يكفي لتحقيق ذلك التحول.

كان الجسد إذن أشبه بالمرساة. والروح، مهما كان معناها في كل سياق، تحتاج إلى شيء تربط نفسها به.

رفع إسماعيل عينيه نحو صورة المومياء ثم قال:

- ولهذا أبقوا قلبك.

كان قلب الميت يحتل مكانة خاصة في التصور المصري. ولهذا كان إبقاؤه

داخل الجسد في كثير من عمليات التحنيط أكثر من مجرد قرار تشريحي. كان القلب بالنسبة للمصري مركزًا عميقًا للإنسان؛ مكانًا للفكر والإرادة والذاكرة والمشاعر، وشاهدًا يمكن أن يحمل معه حقيقة صاحبه إلى العالم الآخر.

ولهذا السبب، حين فحص إسماعيل المومياء، اهتم بالقفص الصدري أكثر مما اهتم بأي جزء آخر. فقد وجد آثارًا تشير إلى أن القلب لم يُنتزع. كان في مكانه محفوظًا. محاطًا بأنسجة جافة، محميًا داخل الصدر كما لو أن اليد التي قامت بالتحنيط كانت تعرف أن هناك سببًا يجعل تركه ضروريًا.

في العادة، هذا ينسجم مع العقيدة المصرية. لكن الآن هناك شيء آخر.

نبضة.

نبضة واحدة.

لم يكن يستطيع أن ينسى ذلك.

تساءل:

إذا كان كل شيء في الطقوس المصرية يهدف إلى حماية هوية الميت وإبقائه قادرًا على الاستمرار...

فلماذا يبدو النص الموجود على مومياء زغرب وكأنه يريد العكس؟

\*\*\*\*\*

في صباح اليوم التالي، عاد إسماعيل إلى المتحف قبل وصول الموظفين. كان كروغر ينتظره وقد بدا أكثر شحوبًا من اليوم السابق، لقد أمضى الليل على ما يبدو في التفكير بالمشهد الذي حدث أمامه.

قال بنبرة متعبة:

- لم أنم.

رد إسماعيل وهو يخلع معطفه:

- وأنا أيضًا.

- هل وجدت تفسيرًا؟

- وجدت أسئلة.

ضحك كروغر ضحكة قصيرة.

- كنت أتمنى تفسيرًا.

- الأسئلة الصادقة أفضل من التفسير الكاذب.

دخل الاثنان غرفة الفحص.

كانت المومياء في مكانها، ساكنة، صامتة. كأن شيئًا لم يحدث.

لكن إسماعيل لم ينظر إليها أولًا.

توجه إلى الطاولة التي وضع عليها مجموعة من النصوص المصرية وقال:

- أريد أن أفهم شيئًا قبل أن نعود إلى اللقائف.

- ما هو؟

- لماذا كان المصريون يكتبون للموتى أصلًا؟

أجابه كروغر:

- حتى يساعدوهم في العالم الآخر.
  - هذا ما يقوله الجميع.
  - لأنه صحيح.
  - صحيح، لكنه ناقص.
  - فتح إسماعيل أحد الكتب.
  - هذه ليست تعليمات لشخص مات للتو، إنها أشبه بخريطة.
- قال كروغر:

- خريطة إلى أين؟
  - رفع إسماعيل عينيه.
  - إلى الموت.
  - جلسا أمام الطاولة وبدأ إسماعيل يتحدث. لم يكن في صوته نبرة محاضر، بل كان صوته هادئًا، كأن الرجل الذي أمامه لم يكن مدير متحف، بل مريضٌ جاء إليه طالبًا أن يفهم مرضًا غامضًا.
- تابع:

- تخيل أنك مصري في الألف الثاني قبل الميلاد، تموت، يتوقف قلبك عن النبض، يبدأ جسدك في البرودة. لكنك لا تعتقد أن كل شيء انتهى.
- ماذا تعتقد؟
- تعتقد أنك ستستيقظ بطريقة أخرى.
- ابتسم وأضاف:
- لكن العالم الآخر ليس مكانًا يمكنك دخوله بمجرد أن تموت.
- قلب صفحة.
- هناك طريق.
- ثم صفحة أخرى.
- وهناك بوابات.
- ثم أخرى.
- وهناك حراس.

كروغر بدهشة:

- حراس حقيقيون؟  
أوما برأسه.

- بالنسبة إليهم، نعم. كان العالم الآخر المصري مليئاً بالأسماء التي تجعل الإنسان يشعر أنه يمشي في متاهة: بوابات، ممرات، بحيرات، نيران، أفاع، شياطين، وحراس. كائنات لها رؤوس حيوانات وأجساد بشرية، كائنات لا يمكن تصورهما إلا في الأحلام. وكان لكل خطر تقريباً علاج من الكلمات. كان على الميت أن يعرف الاسم، فمعرفة اسم الحارس تعني امتلاك نوع من القوة عليه، ومعرفة العبارة الصحيحة تفتح الباب. وكان هذا الاعتقاد عميقاً في الثقافة المصرية: الكلمة ليست وصفاً للشيء فقط؛ بل يمكن أن تكون فعلاً يغير الواقع. لهذا كانت الكتابة مقدسة، ولهذا كان الكاهن الذي يعرف النصوص يملك سلطة لا تقل عن سلطة من يحمل السلاح. ثم وصل إسماعيل إلى النقطة التي كان يريد.

- لكن الطريق الحقيقي يبدأ عندما يصل الميت إلى محكمة **أوزيريس**. ولم يكن أوزيريس مجرد إله للموت. كان أعمق من ذلك. كان ملكاً للعالم الآخر، ورمزاً للموت الذي يعقبه تجدد. وفي الأسطورة المصرية صار أوزيريس نفسه صورة للموت والعودة؛ ملكاً قُتل وقُطع إلى أشلاء ثم أعيد جمعه وإحيائه بطريقة جعلته سيّداً على الموتى. اقترب منه إسماعيل:

- لاحظ شيئاً مهماً.

- ماذا؟

- المصريون لم يجعلوا الموت نهاية العالم. أشار إلى صورة أوزيريس.

- جعلوه مرحلة أخرى من النظام. ثم أضاف:

- ولهذا كان أوزيريس مناسباً لأن يكون سيد العالم الآخر. لأنه يجسد فكرة أن الموت لا يعني العدم. كان المتوفى يدخل أمام المحكمة. وهناك يظهر **أنوبيس**. ذلك الإله ذو الرأس الذي يشبه ابن آوى، المرتبط بالموتى والتحنيط وحماية المقابر. لم يكن دوره مقتصرًا على الموت كما يختصره الناس. بل



كان مرتبطاً بالانتقال، بالجسد، بالطقوس، بالعناية بالموتى، وباللحظة التي يتعين فيها على الإنسان أن يترك جسده ويبدأ رحلته الجديدة. وفي مشهد المحاكمة، يظهر الميزان، وعلى كفة يوضع قلب المتوفى، وعلى الكفة الأخرى ريشة **ماعت**. ريشة الحقيقة والنظام والعدل.

ابتسم إسماعيل:

- وهنا تبدأ المسألة كلها.
- القلب؟
- بالضبط. كان القلب بالنسبة للمصريين أكثر من عضلة. كان مركزاً للإنسان. موضع المشاعر والإرادة والذاكرة والحكمة. ولهذا كان إبقاؤه داخل الجسد في كثير من عمليات التحنيط أمراً ذا أهمية خاصة. لم يكن القلب عضواً يمكن الاستغناء عنه مثل أي عضو آخر. ففي لحظة المحاكمة، هو الشاهد. لا يحتاج الميت إلى أن يتكلم، قلبه يتكلم عنه.



سأل كروغر:

- وإذا كان القلب أثقل من الريشة؟
  - فمعناه أن حياته اختلت عن ماعت.
  - وماذا يحدث؟
  - لا يحصل على الحياة الأبدية كما يرجو. كان هناك في العالم الآخر المصري خوف له وجه، وكان اسمه أميت. كائن يجمع في صورته عناصر حيوانات مفترسة مختلفة، ويجلس بالقرب من الميزان، ينتظر النتيجة. ليس إلهًا بالمعنى التقليدي، وإنما كائن مرتبط بعقوبة من يفشل في المحاكمة، فقد عرفوا أن الموت ليس الخطر الوحيد.
  - وما الخطر الآخر؟
  - أن تفشل في أن تكون إنسانًا.
- ظل كروغر صامتًا. أما إسماعيل فشعر أن الصورة بدأت تتضح أمامه.

التحنيط.

الفائف.

التعاويذ.

القلب.

الاسم.

الظل.

الروح.

المحكمة.

كلها أجزاء من منظومة واحدة. منظومة هدفها أن تمنح الإنسان فرصة أخرى. لذا لم يكن المصري يلف الميت بالكتان كي يحفظ شكله فقط، بل كان يحفظ إمكانية عودته.

كان يترك له الطعام والشراب والتمائم والتعويذات والصور والاسم والقلب. ويكتب له ما ينبغي أن يقوله أمام الحراس.

كان يهيئه لرحلة.

رفع إسماعيل صورة المومياء. ثم قال:

- إذن اسأل نفسك الآن.
  - ماذا؟
  - لماذا يُكتب نص جنائزي على الجسد؟
  - لمساعدته على الرحلة.
  - صحيح.
- ثم أشار إلى الكتابة على المومياء.
- فلماذا يبدو النص الموجود هنا وكأنه يمنع الرحلة؟
- لم يجب كروغر. فقط استغرق في التفكير.

في ذلك اليوم أخرج إسماعيل نسخًا من أشهر التعاويذ الجنائزية المتاحة في مكتبة المتحف. وضعها إلى جوار صور اللفافة الإيتروسكانية وبدأ بالمقارنة.

في النصوص المصرية كانت اللغة تتحرك إلى الأمام.

من الحياة إلى الموت.

من القبر إلى العالم الآخر.

من العالم الآخر إلى الأبدية.

حتى عندما تتحدث النصوص عن الوحوش والأفاعي والبوابات والنيران، فإنها تقدم للميت وسيلة لتجاوزها.

كان هناك دائمًا فعل.

افتح.

اعبر.

تنفس.

انهض.

اعرف.

تحدث.

تحول.

اذهب.

ارجع.

وكانت التعاويذ تكتب على خط مستقيم أمام المومياء كي تقرأها بسهولة بعد الموت.

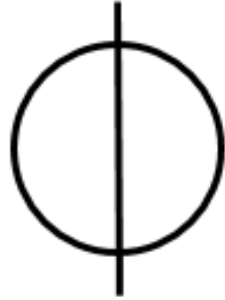
أما النص الإيتروسكاني...

فكان مختلفًا.

لم يكن إسماعيل قادرًا على ترجمته بعد، لكنه لاحظ ترتيب العلامات.

لم تكن هناك كثافة متساوية للكتابة.

كانت بعض المقاطع مكتوبة في مواضع تجعلها تحيط بالجسد كالدائرة، ولا ترافقه كالخط المستقيم. كأن النص لا يشير إلى طريق، بل يرسم حدودًا. تمامًا كالعلامة التي رآها على المومياء : ( دائرة مقسومة بخط عامودي ).



استمع كروغر إلى تحليله بدهشة ثم سأله:

- هل أنت متأكد؟

- لا.

- لكنك ترى شيئًا؟

- أرى احتمالًا.

أخذ إسماعيل قلمًا ورسم على الورقة خطًا يمثل جسد المومياء، ثم رسم حوله دائرة وقال:

- انظر إلى مواضع النص.

- ماذا عنها؟

- لو كان الهدف أن يقرأ الميت النص، فالأفضل أن يكون في موضع يمكن الوصول إليه.
- وهنا...؟! توقف. ثم رسم خطأ آخر.
- النص موزع حول الجسد. علق كروغر:
- إنه يحيط به كالقفص.
- بالضبط.
- كانت الكلمة قد خرجت منه بهدوء. لكنها بقيت بينهما كشيء ثقیل:
- يحيط به.. يحيط به.. يحيط به.

في تلك الليلة، لم يعد اسماعيل إلى غرفته مباشرة. بقي في المكتبة حتى أغلقت أبواب المتحف، ثم طلب من الحارس أن يترك له ساعة إضافية. كان يريد أن يبحث عن شيء واحد:

هل عرف المصريون تعاويذ تمنع الروح من العبور إلى العالم الآخر؟ ظل يقلب المراجع. وجد نصوصًا عن الحماية، عن اللعنات، عن العقوبات. عن تدمير أسماء الأعداء، عن محو الوجود. لكن شيئًا واحدًا لم يجده. لم يجد نصًا مصريًا واضحًا يقول:

(( (أبقوا روح هذا الرجل داخل جسده إلى الأبد. )))

وهنا بدأ الشك الحقيقي.

إذا كان المصريون يملكون منظومة متكاملة لمساعدة الميت على العبور... فلماذا احتاج أحدهم إلى استخدام لغة أجنبية لصنع نص يعاكس هذه المنظومة؟ أغلق الكتاب. ثم فتح دفتره وكتب:

المومياء: مصرية.

الكتان: مصري.

**طقوس الدفن:** على الأرجح مصرية.

**النص:** إيتروسكاني.

**الوظيفة:** غير معروفة.

**الاحتمال:** طقس جنائزي معكوس.

توقف. ثم شطب آخر عبارة. وكتب:

**طقس يمنع الموت !!**

حرق فيها طويلاً، ثم أضاف:

**لماذا؟**

كان السؤال الأصغر في الصفحة، لكنه كان أثقلها.

أمضى بقية الليلة في محاولة ترتيب أفكاره.

كانت هناك **حقيقة أولى** :

المصري القديم كان يستعد للموت لأنه يؤمن بأن الموت ليس النهاية.

**وحقيقة ثانية :**

التحنيط يحفظ الجسد كي يتمكن من العبور إلى العالم الآخر.

**وحقيقة ثالثة :**

التعاويد تحمي الميت أثناء الرحلة.

**وحقيقة رابعة :**

الاسم والظل والكا والبا وآخ والجسد ليست أشياء هامشية، وإنما أجزاء من تصور

المصري لاستمرار الإنسان.

**وحقيقة خامسة :**

محكمة أوزيريس ليست مجرد أسطورة عن الحساب، بل جزء من تصور أخلاقي

يجعل الموت استمراراً للنظام الذي عاش الإنسان في ظله.

ثم جاءت الحقيقة التي لم يجد لها مكاناً في أي كتاب:

هناك مومياء يبدو أن أحدًا ما أراد لها ألا تموت.

وقف إسماعيل أمام النافذة.

كانت زغرب في الخارج هادئة.

وفي ذهنه ظهر النيل.

لم يعرف لماذا.

ربما لأن كل شيء بدأ هناك.

في وطنه .. في أرض لا يرى فيها الإنسان نهاية الصحراء.

أرض كان المصري القديم يقف فيها كل مساء أمام غروب الشمس، فيراها تموت، ثم يراها تعود في الصباح.

ربما لهذا لم يخترع المصريون الموت كعدم.

كانت الشمس نفسها تعلمهم شيئاً آخر، أن الأشياء يمكن أن تختفي ثم تعود، أن النهر ينحسر ثم يرتفع، أن الحقول تموت ثم تخضر، أن الجسد قد يفسد، لكن الإنسان يمكن أن يستمر.

ولهذا كان الموت عندهم رحلة.

رحلة ينبغي الاستعداد لها.

وربما لهذا كان كتاب الموتى ممتلئاً بالكلمات. لأن الإنسان حين يعجز عن التحكم في الموت، يبدأ في التحكم في معناه.

عاد إسماعيل إلى الطاولة. نظر إلى المومياء التي نبض قلبها ثم تمت:

- كان عليهم أن يكتبوا تعاويذ ترشده إلى الطريق.  
صمت.

- لكنهم لم يفعلوا.  
اقترب من اللفائف.

- كتبوا له السجن في جسده الميت إلى الأبد.

لم يكن يعرف بعد اسم الرجل.

ولا سبب دفنه.

ولا سر اللفائف.

ولا لماذا كُتب النص بلغة الإيتروسكان.

لكنه عرف شيئاً واحداً.

شيئاً لم يعد يستطيع التراجع عنه :

كتاب الموتى لم يكن كتاباً عن الموت، كان كتاباً عن كيفية النجاة منه.

أما ما يحيط بمومياء زغرب... فقد يكون أول نص في تاريخ مصر كُتب لشيء آخر تماماً. ليس لكي يساعد الميت على عبور العالم الآخر، بل لكي يمنعه من الوصول إليه.

وللمرة الأولى، لم يعد السؤال:

من هو صاحب المومياء؟

بل:

ما الذي فعله رجل حتى يستحق أن يُحرم من الموت والعبور، فيبقى معلقاً بين عالمين؟



# الفصل الثالث

## البريدية المفتوحة

كان المطر قد توقف في الخارج، لكن زجاج النوافذ ظل يحمل قطرات صغيرة تتلألأ تحت أضواء الشارع، حين جلس كروغر أمام إسماعيل للمرة الأخيرة قبل أن يغادر الطبيب المدينة.

لم يكن في الغرفة شيء يوحي بأن حديثهما على وشك أن يفتح طريقًا جديدًا في القضية. الملفات مكدسة على الطاولة، والصور الشعاعية موضوعة فوق بعضها، وتقرير الفحص الأولي مفتوح عند الصفحة التي تحمل توقيع إسماعيل. أما صورة المومياء فكانت مستندة إلى طرف المصباح، نصفها في الضوء ونصفها الآخر غارق في الظل.

ظل كروغر ينظر إليها طويلاً. ثم قال:

- أريد منك يا صديقي أن تنسى اللحظة أنك طبيب.  
رفع إسماعيل عينيه عن الأوراق.

- ولماذا؟

- لأن ما حدث لم يعد مسألة طبية.

سكت إسماعيل.

كان يعرف ما يقصده.

لم يتحدث أي منهما منذ ساعات عن تلك النبضة الغريبة لقلب المومياء، مع أن تلك اللحظة الشاذة كانت جالسة بينهما كإنسان ثالث لا يحتاج إلى دعوة.

قال إسماعيل:

- إذا كنت تقصد ما رأيناه...

قاطع كروغر:

- بالضبط.

كان الدكتور إسماعيل يدرك جيداً أن شيئاً ما قد تغير في طبيعة القضية. لم تعد المومياء جسداً غريباً يرقد في صندوق زجاجي، ولا حادثة نرف يمكن أن تبحث لها عن تفسير بين أمراض الأنسجة وجفاف الأوعية وتحلل البروتينات؛ لقد بدأت تتحول، ببطء شديد، إلى وثيقة. والوثائق، بخلاف الأجساد، لا تتعفن بالطريقة نفسها. قد يمحو الزمن حروفها، وقد يحرق أطرافها، وقد يدفنها تحت طبقات من الغبار، لكنه نادراً ما يستطيع أن يمحو تماماً الطريق الذي سلكته قبل أن تصل إلى أيدينا.

تابع كروغر وهو يفتح الملف أمامه:

- عدت إلى كل شيء.
- رفع إسماعيل عينيه عن الأوراق.
- كل شيء؟
- كل ما يتعلق بالمومياة منذ لحظة دخولها إلى المتحف. سجل الشراء، سجلات النقل، المراسلات القديمة، صور الصندوق، تقارير الترميم، وحتى الأوراق التي لم يعد أحد يهتم بها منذ أكثر من قرن.
- ظل إسماعيل صامتاً ودماغه يمضغ الكلمات بروية.

أخرج كروغر صورة قديمة ووضعها أمامه. كانت المومياة تبدو فيها مختلفة عما رآها في القاعة؛ أكثر خشونة، وأكثر قرباً من هيئة الجسد الذي انتزع الموت من الحياة للتو. اللفائف متآكلة، وبعضها ممزق، وعلى أحد جوانبها ظهرت لطخة داكنة تشبه ظلاً متجمداً.

أشار كروغر إلى جزء من الصورة:

- انظر إلى هذا.
- اقترب إسماعيل من الصورة.
- كتابة؟
- أوماً كروغر.
- كانت هناك ثمة علامات باهتة على إحدى طبقات الكتان، بالكاد تُرى بالعين المجردة.

- في تقرير الترميم القديم قالوا إنها مجرد علامات تلف.
- وهل أنت موافق؟
- لم أعد أثق كثيراً في التقارير القديمة.
- ابتسم إسماعيل ابتسامة قصيرة.
- هذا ليس جواباً.
- أخرج كروغر ورقة أخرى.
- لأن هناك شيئاً آخر.
- كان في أسفل الورقة رقم مكتوب بالحبر الأزرق، وتحت اختصار لاتيني قديم.

- ما هذا؟
- رمز المصدر.
- مصدر الموميا؟
- نعم.
- قلب إسماعيل الورقة.

كان الرمز:

T.B. 17

علّق كروغر:

- هذا الرمز تكرر في أكثر من وثيقة. في البداية ظننته رقمًا داخليًا. لكن عندما قارناه بالسجلات القديمة وجدنا أن الحرفين T.B. كانا يستخدمان للإشارة إلى منطقة طيبة المصرية، أي المنطقة التي نعرفها اليوم باسم الأقصر.
- استنفرت تلافيف دماغ إسماعيل عندما ذكر وطنه مصر في الحديث.

- وهذا يعني؟
- يعني أن الموميا جاءت من طيبة.
- لا يزال ذلك مجالاً واسعاً جداً للبحث.
- كنت أعرف أنك ستقول ذلك.
- أخرج كروغر صورة أخرى.
- هذه المرة لم تكن للموميا، بل لبطاقة صغيرة مربوطة بحزمة من اللفائف. كان الرقم نفسه ظاهرًا عليها: 17.
- وتحت الرقم كلمات باهتة.

تابع كروغر:

- هذه الصورة التُقطت قبل عملية الترميم الكبرى. وبعدها اختفت البطاقة.
- نظر إسماعيل إلى الصورة طويلاً.
- وهل تعرفون ما الذي كان مكتوبًا عليها؟
- ليس بالكامل. لكننا استطعنا قراءة كلمتين.
- توقف كروغر لحظة، ثم قال:

- "الضفة الغربية".

رفع إسماعيل رأسه.

- غرب طيبة؟

- بالضبط.

خيم صمت ثقيل على الأرجاء.

في تلك اللحظة شعر إسماعيل أن الطريق بدأ يأخذ شكلاً حقيقياً. لم يعد أمامه اسم مدينة بعيدة، ولا حكاية أثرية غامضة، بل سلسلة من العلامات التي يمكن اختبارها واحدة بعد أخرى.

قال:

- وما الخطوة التالية؟

دفع كروغر إليه تقريراً آخر.

- هنا تبدأ المشكلة.

قرأ إسماعيل الصفحة.

كان التقرير يعود إلى عقود مضت، وفيه إشارة إلى أن إحدى طبقات الكتان التي نزلت عن المومياة أثناء ترميمها لم تُتلف، وإنما حُفظت مؤقتاً ضمن مجموعة من المواد التي اعتُبرت غير ضرورية.

- أين هي؟

- لم تكن في المتحف.

- أين ذهبت؟

- إلى مجموعة خاصة في فيينا.

رفع إسماعيل حاجبه.

- وهل وجدتم المجموعة؟

- وجدناها، أو بالأحرى وجدنا أرشيفها.

أخرج كروغر ملفاً صغيراً.

في داخله نسخة من رسالة قديمة يذكر صاحبها أنه تسلم من المتحف قطعة من الكتان تحمل "علامات كتابية غير مفهومة"، وأن القطعة جاءت مع مواد أخرى من عملية ترميم مومياة تحمل الرقم T.B.17.

كان اسم صاحب الرسالة واضحًا : ( ماكسمليان تريغه )  
وتحت اسمه تاريخ قديم.

سأل إسماعيل:

- وماذا فعلتم بهذا الاسم؟
- بحثنا عنه.
- ووجدتموه؟
- أوراقه.

فتح كروغر الملف الأخير.

كانت هناك ملاحظات بخط يد باهت، بعضها باللغة الألمانية، وبعضها بالإنجليزية.  
وفي إحدى الصفحات رسم صغير لقطعة كتان، وبجانبه نسخ لعلامات هيروغليفية.  
لكن أكثر ما شد انتباه إسماعيل لم يكن الرسم.

كان سطرًا واحدًا في أسفل الصفحة.

قرأه ببطء:

"T.B.17 — West Bank — Deir el-Medina"

تمتم بنبرة انتصار:

- دير المدينة!!
- أوماً كروغر.

- أجل.

ظل إسماعيل ينظر إلى الكلمات.

كان يعرف أن دير المدينة ليس اسمًا اعتباطيًا. هناك، في الجهة الغربية من طيبة،  
عاش العمال الذين شاركوا في إنشاء المقابر الملكية، وكان المكان مرتبطًا مباشرة  
بعالم القبور والنقوش والكتبة والوثائق. وفي زمن الرعامسة، كان ذلك المجتمع  
الصغير أشبه بجزيرة من المعرفة محاطة بالصحراء؛ رجال يعرفون كيف  
يرسمون الموت على الجدران، وكيف يمنحون الحجر ذاكرة أطول من أعمارهم.

علّق إسماعيل:

- إذن لم تعد لدينا مجرد قرينة.

- ماذا إذن؟

- لدينا طريق.

رفع كروغر عينيه إليه، فتابع إسماعيل وهو يرتب الأوراق أمامه:

- المومياة تحمل الرمز T.B.17. الرمز يشير إلى طيبة. صورة قديمة تربط الرقم بالصفة الغربية. طبقة الكتان التي أزيلت أثناء الترميم انتقلت إلى مجموعة خاصة. صاحب المجموعة ترك ملاحظات تشير إلى دير المدينة. إذا كانت ملاحظاته صحيحة، فهناك شيء في دير المدينة كان مرتبطاً بالمومياة أو بالوثائق التي رافقتها. ابتسم كروغر.

- نتحدث بحماسة وكأنك تنوي أن تذهب إلى هناك غداً؟

- إلى دير المدينة؟

- نعم.

تردد إسماعيل للحظة. لم يكن يحب فكرة السفر وراء ورقة قديمة، لكنه كان يعرف شيئاً آخر؛ أن الطب الشرعي نفسه يقوم على هذا النوع من السلاسل. لا شيء يُثبت نفسه منفرداً. قطرة دم لا تكفي، ولا أثر إصبع، ولا شظية عظم. الحقيقة تظهر حين تتطابق الأشياء الصغيرة التي لا تبدو مهمة في البداية. في النهاية حسم أمره وقال بنبرة مفعمة بالعزيمة والفضول:

- لقد بدأت قضية المومياة تستفز فضولي .. لذا لم لا .. سأذهب.. أنا مشتاق لوطني ولم أزره منذ فترة طويلة بكل الأحوال ..  
- ستضرب عصفورين بحجر واحد إذن ..  
- تماماً ..

### بعد أيام قليلة ...

كان نهر النيل يلمع تحت شمس مختلفة عن شمس الشمال، وكان إسماعيل يعبره وهو يحمل في حقيبته صوراً ووثائق ونسخاً من ملاحظات رجل مات منذ زمن طويل، دون أن يعرف أن الأوراق التي تركها خلفه ستقود طبيباً مصرياً، بعد أكثر من قرن، إلى المكان الذي بدأ منه كل شيء.

لم يكن يعرف، حين وصل إلى الأقصر، أن الطريق إلى المومياة سيمر من خلال شيء لا لحم له ولا عظم.

سيمر من خلال الكتابة.

كان أول ما أدركه إسماعيل في الأقصر أن الحضارة المصرية القديمة لا تشبه ما قرأه عنها في الكتب. الكتب تجعلها تبدو كأنها شيء انتهى؛ مملكة بعيدة، ملوك ماتوا، معابد صارت أطلالاً، ونصوص محفوظة خلف الزجاج. أما هنا، فكان الماضي أقرب إلى طبقة شفافة تحت العالم الحديث، كأن المدينة تمشي فوقه دون أن تستطيع محوه.

كان النيل يمتد هادئاً بين الضفتين، وفي الغرب كانت الجبال تقف مثل جدار من الصمت. هناك، وراء ذلك الجدار الحجري، كانت طيبة القديمة قد دفنت موتاهها، وأقامت مقابرها، وخبأت أسرارها.

اتجه إسماعيل إلى دير المدينة المذكور في الوثائق.

لم يكن يبحث عن مومياء؛ فقد انتهى زمن المومياوات بالنسبة إليه منذ أن غادر المتحف في زغرب. كان يبحث عن الورقة التي قالت إن المومياء مرت من هنا. وكان ذلك فرقاً جوهرياً.

لأن من يبحث عن شيء بعينه قد يتوه، أما من يبحث عن أثره فيستطيع أن يتبع الطريق الذي تركه خلفه.

في دير المدينة بدأ يبحث في السجلات القديمة المتاحة، مستعيناً بصور الوثائق التي أرسلها كروغر. لم يكن يعرف الهيروغليفية، ولم يحاول أن يتظاهر بذلك. كان طبيباً شرعياً، لا عالم مصريات. يعرف الجسد كما يعرف الكيميائي تركيب المادة، لكنه لم يتعلم لغة الرموز التي كان المصري القديم يكتب بها أسماء الآلهة والملوك والموتى.

ولهذا أخرج هاتفه.

كان قد حمل تطبيقاً يعتمد على الذكاء الاصطناعي للتعرف على النصوص المصرية القديمة وترجمتها إلى العربية مباشرة من صورة الرمز.

التقط صورة.

انتظر.

ظهرت ترجمة أولية.



قرأها.

ثم أعاد التصوير من زاوية أخرى، وقرن النتيجة بقاعدة بيانات رقمية متخصصة في النصوص المصرية القديمة.



كان يعرف أن الذكاء الاصطناعي ليس كاهناً يعرف الحقيقة، وأن قدرته على قراءة الرموز لا تعني أنه معصوم من الخطأ. لذلك كان يتعامل مع الترجمة باعتبارها فرضية، لا حقيقة، ويقارن كل نتيجة بالسياق وبالكلمات التي يستطيع المتخصصون تأكيدها.

سأله عبد الرؤوف .. الرجل الذي كان يرافقه في الدير:

- ألا تستطيع قراءتها بنفسك أيها الباحث؟  
ابتسم إسماعيل.

- أنا طبيب شرعي ولست عالم لغويات.

أوماً عبد على مضض، وكأنه تعلم عبر السنوات أن كل من يزور الدير متخصص في علم المصريات بالضرورة.

لمح إسماعيل ذلك بنباهته فتابع:

- لكن هذا لا يعني أنني عاجز عن فهمها. أنا فقط أحتاج إلى مترجم. وأشار إلى الهاتف.

- وهذا المترجم أسرع من البشر. ثم سكت قليلاً وأضاف:

- وأقل حكمة.

نظر عبد إليه باستغراب.

- لأنه إذا أخطأ، لا يعرف أنه أخطأ.

ثم وضع الهاتف على الطاولة، وظل ينظر إلى العلامات القديمة أمامه لحظات، قبل أن يقول:

- والغريب أننا نتحدث سوياً الآن عن شيء لم يكن ليحدث لولا حجر واحد. عبد بدهشة :

- أي حجر تقصد؟

- حجر رشيد.

كان الرجل قد سمع بالاسم من قبل، لكنه لم يبدُ مستوعباً لأهميته.

فاستطرد إسماعيل بالشرح:

- قبل اكتشاف حجر رشيد، كانت الهيروغليفية بالنسبة للعالم الحديث تقريباً

صوتاً بلا مفتاح. رموز جميلة، نعم، لكنها صامتة. كان المصريون قد تركوا

آلاف الجدران والبرديات والتماثيل تتحدث، لكن أحداً لم يكن يعرف على

وجه اليقين كيف يسمع ذلك الكلام.

سأل الرجل بفضول:

- وماذا فعل الحجر؟

ابتسم إسماعيل.

- لم يكن الحجر وحده هو المعجزة. المعجزة كانت أن النص المنقوش عليه

كُتب بثلاثة أنظمة كتابة هي اليونانية والديموطيقية والهيروغليفية. لذا أصبح

بالإمكان مقارنة نص معروف بلغة معروفة بنص مكتوب بالهيروغليفية.

ومن تلك المقارنة بدأ أحد أعظم الأبواب في التاريخ يُفتح.

ثم نظر إلى العلامات أمامه.

- تخيل أن حضارة كاملة تتحدث إليك لآلاف السنين، وأنت واقف أمامها ولا تفهم كلمة واحدة.  
سكت لحظة.

- ثم يأتي حجر صغير، فيمنحك أول حرف من المفتاح.  
لم يكن إسماعيل مؤرخاً، لكنه كان يعرف معنى الثورة التي أحدثها ذلك الاكتشاف.  
فقد أدى فك رموز الكتابة المصرية القديمة، ولا سيما عبر أعمال الباحث الفرنسي شامبليون وغيره، إلى تحول جذري في دراسة مصر القديمة؛ لم تعد مصر تُقرأ من خلال ما كتبه عنها اليونانيون والرومان أو ما تخيله الرحالة، بل بدأت تتحدث عن نفسها، بأسماء ملوكها ونصوصها الدينية ورسائلها الطبية وسجلاتها اليومية وبردياتها وجدارياتها.

قال :

- حجر رشيد لم يكتشف مصر.  
صمت لثوانٍ.

- مصر كانت هناك طوال الوقت.  
أشار إلى البرديات.

- لكنه جعلها قادرة على الكلام.

في إحدى الغرف الصغيرة من أرشيف الدير عثر إسماعيل على مجموعة من البرديات. كان بعضها لنصوص دينية، وبعضها حسابات، وبعضها قوائم بأسماء العمال، وبعضها وصفات طبية، وأخرى تحمل عبارات ذات طبيعة سحرية.

وهنا بدأ يفهم شيئاً لم يكن قد أدركه من قبل.

المصريون القدماء لم يكتبوا الموت فقط.

كتبوا الحياة أيضاً.

كتبوا المرض وعلاجه، أسماء النباتات، كميات الحبوب، أجور العمال، المراسلات، الطقوس، الصلوات، الحسابات، أسماء الملوك، شكاوى الناس، وحتى الأشياء التي كانوا يخافون أن تضيع إذا لم تُكتب.

كانت الكتابة عندهم أكثر من وسيلة للتواصل.

كانت وسيلة لمقاومة الفناء.

فالجسد يموت، لكن الاسم يبقى.

والملك يموت، لكن عهده يبقى.

والطبيب يموت، لكن وصفته قد تعيش آلاف السنين.

والميت نفسه، في تصور المصري القديم، لم يكن يستطيع أن يواجه العالم الآخر بلا كلمات.

توقف إسماعيل أمام صورة لبردية قديمة.

قال في نفسه إن الحضارات ربما لا تُقاس بما بنت فقط، وإنما بما خافت أن تنساه.

وفي ذلك المكان بدأت تتضح له علاقة أخرى بالمومياة.

لم تكن اللفائف مجرد غطاء.

كانت صفحة.

والصفحة جزء من كتاب.

والكتاب جزء من معرفة.

كان الورق نفسه يدهش إسماعيل.

لم يكن المصريون بحاجة إلى أن يخترعوا مادة لا تفنى؛ كانوا بحاجة فقط إلى مادة تستطيع أن تحمل الكلمات إلى المستقبل. ومن نبات البردي صنعوا شرائح رقيقة رتبت في طبقات وضغطت وجففت، فتحول النبات الذي ينبت على ضفاف النيل إلى سطح تستطيع عليه اليد أن تمنح أفكارها حياة ثانية.

ثم جاء الحبر.

أسود من السناج والكربون، مخلوطاً بمواد رابطة تجعل العلامة تلتصق بالليف، وأحياناً ألوان أخرى للتمييز والإبراز.

ثم القلم.

قصبه مشقوقة، طرفها قادر على ترك الخطوط التي تحولت إلى أصوات وأسماء

وأوامر وصلوات.

ثم الكاتب.

وهنا توقف إسماعيل طويلاً.

فالكاتب في مصر القديمة لم يكن مجرد رجل يجيد القراءة والكتابة. كان حافظاً للذاكرة. وفي عالم ترتفع فيه نسبة من لا يستطيعون الكتابة، كان من يملك القدرة على تسجيل الكلمات يمتلك سلطة لا تقل عن سلطة السيف.

كان المعبد مدرسة.

وكان القصر أرشيفاً.

وكانت المقبرة كتاباً مفتوحاً في الحجر.

وكانت البردية ذاكرة يمكن طيها وحملها وإخفاؤها.

لكن شيئاً آخر كان يثير فضول إسماعيل.

لم تكن كل الكتابات متساوية.

هناك نصوص يراها الجميع.

وهناك نصوص لا يراها إلا أصحاب السلطة.

وهناك نصوص دينية تحفظ الطقوس.

وهناك نصوص طبية.

وهناك نصوص سحرية.

وهناك سجلات ملكية لا يملك حق الاطلاع عليها إلا من يعمل في دوائر الحكم.

ثم كانت هناك الكتابة التي لا يراد لها أن تصل إلى أحد.

وهذه الأخيرة، في نظر إسماعيل، كانت أخطرها جميعاً.

لأن الإنسان لا يخفي الأشياء المهمة فقط.

أحياناً يخفي الأشياء التي يخاف منها.

وهذا النوع هو المتعلق بمومياء زغرب كما يخبره حدسه.

بعد ساعات من البحث، وحين كان الضوء قد انحدر من نوافذ الأرشيف وصار الغبار المعلق في الهواء أشبه برماد ذهبي، توقفت يد إسماعيل فوق صندوق خشبي صغير لم يلفت انتباهه في البداية.

كان بين عشرات البرديات ملفوفًا بقطعة كتان شاحبة، لكن شيئًا فيه بدا نافرًا عن المكان، كأن الورقة نفسها لم تقبل أن تنتمي إلى بقية الأوراق.

أخرجها بحذر، فبدت أغرق من سائر البرديات، بلون يميل إلى العاج المعتق، وكانت حوافها غير منتظمة كأنها قُطعت ذات يوم بسكين ثم أُعيد إخفاؤها على عجل.



لم تكن أليافها متراسة في انتظام البرديات الأخرى؛ فقد بدت الطبقات متباينة، وفي مواضع منها ظهرت خيوط نباتية دقيقة كعروق تحت جلد جاف، بينما غطت سطحها بقع بنية صغيرة تشبه آثار أصابع قديمة.

وحين فردها، انبعث منها عبق خافت، مزيج من رائحة النبات اليابس والتراب والزمن، رائحة لم تكن تشبه رائحة الورق بقدر ما تشبه رائحة غرفة ظلت مغلقة منذ مات آخر من دخلها.

اقترب إسماعيل منها حتى كاد وجهه يلامس سطحها، فرأى الحبر الأسود وقد فقد لمعانه، لكنه ظل متشبثًا بالألياف بعناد غريب، وبعض العلامات بدت أكثر عمقًا من أن تكون مجرد كتابة؛ كأن القلم ضغط عليها وهو يكتب شيئًا لم يكن يريد للكاتب أن ينساه.

تسارعت أنفاسه دون أن يشعر، وأحس بذلك التوتر المؤلف الذي كان يعرفه في غرفة التشريح حين تلمح عين الطبيب شيئاً صغيراً يقلب معنى الجثة كلها.

رفع البردية أمام الضوء، فظهرت في أحد أطرافها آثار كتابة أقدم تحت النص الظاهر، كأن كلمات سابقة مُحيت ثم كُتبت فوقها كلمات أخرى لإخفاء ما كان ينبغي ألا يبقى.

توقفت أصابعه؛ لم يعد يشعر ببرودة الغرفة ولا بصوت الأوراق من حوله، وكان قلبه يخفق بعنف حتى خُيِّل إليه أن النبضة التي سمعها في صدر المومياء في زغرب قد عادت الآن، ولكنها هذه المرة خرجت من البردية نفسها.

وعندما اكتشف أن طرفاً من النص يحمل العلامة ذاتها التي ظهرت على كفن المومياء ( دائرة مقسومة بخط مستقيم )، شعر بحماسٍ طاغٍ، إذ أدرك أنه على الطريق الصحيح، وأن هذه البردية تتعلق بمومياء زغرب بالفعل.

بدأ مباشرةً بمحاولة ترجمة إحدى الرموز في طرف البردية، صوره وفتح تطبيق الترجمة، لكنه لم يعطِ أي نتيجة.

أعاد المحاولة.

ظهرت كلمة، قرأها. لم تكن اسمًا، كانت أقرب إلى وصف غير مفهوم.

ثم التقط صورة للعلامة المجاورة. فظهرت نتيجة أخرى. وهذه المرة كان الاسم واضحًا: **رمسيس**.

جلس إسماعيل ساكنًا.

لم يكن الأمر مفاجئًا تمامًا؛ فالمكان نفسه ارتبط بعصر الرعامسة، ووجود نصوص تعود إلى عهد رمسيس الثاني ليس أمرًا مستغربًا. لكن المشكلة لم تكن في اسم الملك.

المشكلة كانت في السطر الذي يليه. فالنص يتحدث عن رجل عاش في زمن رمسيس الثاني، رجل لم يرد اسمه، ليس لأنه مفقود، بل لأنه مُحي.

تأمل إسماعيل العلامات طويلاً.

كانت هناك مساحة خشنة في البردية، وكأن شيئاً مر فوقها عمدًا. اسم كان موجودًا

ثم مُسح، ووراء الاسم جملة ناقصة، وفي الهامش علامة تشير إلى أن جزءاً من البردية كان قد اقتُطع.

تمتم إسماعيل بصوت منخفض:

- لماذا يحون اسم رجل من بردية؟  
لم يجبه أحد، فلا أحد بالجوار. تنهد واحتفظ بأفكاره لنفسه.  
عاد إلى الترجمة.

كانت الجملة الأخيرة أوضح من غيرها. ترجمها بتطبيق الذكاء الاصطناعي.  
لم يصدق ما قرأت عيناه.

قرأها مرة.

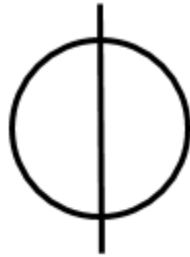
ثم مرة ثانية.

ثم شعر بشيء بارد ينساب في ظهره.

إذ لم تكن الجملة وصفاً للموت، كانت نقيضه.

كان فحوى الكتابة:

**«عقوبة عظيم السحر : الحرمان من الموت.»**



**عظيم السحر !!**

ماذا يعني ذلك ؟ أهو لقب أم رتبة ؟

لايملك جواباً مؤكداً عن ذلك الآن، لكنّ المؤكد أن تكهناته السابقة بخصوص رجل المومياة كلها كانت صحيحة.

وأدرك هنا أن السؤال لم يعد :



من هو رجل المومياء؟

السؤال الحقيقي كان أكثر رعباً:

من الذي كان يملك القدرة على أن يحرم رجلاً من الموت؟ ولماذا؟

# الفصل الرابع

## رجال الصحافة المتحركة

لم تكن **جينيفر** امرأة تبحث عن الحقيقة بالمعنى الذي اعتاد الناس أن يمنحوه لهذه الكلمة، فقد كانت ترى أن الحقيقة في عصرها لا قيمة لها ما لم تجد طريقها إلى العيون، وأن السر، مهما كان عظيمًا، يظل ميتًا إذا لم يتحول إلى سؤال يتناقله الناس. كانت في الثانية والأربعين، طويلة القامة على نحو يمنحها حضورًا لا يحتاج إلى استئذان، ذات شعر بني داكن تقصه إلى ما فوق كتفيها بقليل، وعينين زرقاوين لا تستقران طويلًا على وجه من أمامها، كأنهما تبحثان دائمًا عن شيء خلف الكلام، عن تناقض صغير، أو حركة يد لا تتفق مع الجملة، أو ارتباك يشي بما حاول صاحبه إخفاءه. لم تكن جميلة بالمعنى التقليدي الذي يجعل الجمال أول ما يلتفت النظر، لكنها كانت تمتلك ذلك النوع الآخر من الجاذبية الذي ينشأ من الثقة؛ ثقة امرأة تعرف جيدًا ماذا تريد، وتعرف كذلك أن العالم لا يمنح الفرص مرتين لمن يتردد في التقاطها.

كانت **جينيفر** صحفية، لكن الصحافة بالنسبة إليها لم تكن مجرد مهنة، بل كانت نوعًا من الصيد. وكانت القضايا الغامضة هي فريستها المفضلة.

بدأت حياتها المهنية في صحيفة محلية صغيرة، حيث أمضت سنواتها الأولى في تغطية أخبار لا يتذكرها أحد؛ افتتاح متجر، استقالة عضو في مجلس المدينة، حريق في مستودع، قضية فساد صغيرة اختفت بعد أسبوعين تحت أكوام من الأوراق الرسمية. لكنها اكتشفت مبكرًا أن أكثر القصص قدرة على البقاء ليست تلك التي تتحدث عن القرارات والميزانيات، وإنما تلك التي تترك في ذهن القارئ سؤالًا لا يجد له جوابًا. ومنذ ذلك الحين بدأت تتحرك تدريجيًا نحو عالم آخر؛ اختفاءات غامضة، وثائق قديمة، جرائم لم تُحل، آثار مجهولة المصدر، لوحات اختفت ثم ظهرت، رسائل مجهولة، ظواهر لا يجد الناس تفسيرًا لها، وكل شيء يمكن أن يقف على الحد الفاصل بين الحقيقة والأسطورة.

كانت تعرف شيئًا مهمًا لم يتعلمه كثير من الصحفيين الذين يكرهون وسائل التواصل الاجتماعي ثم يستخدمونها كل يوم؛ الناس لا يتابعون الأخبار لأنها مهمة، بل لأنها تمس فضولًا دفينًا في داخلهم. والفضول، في رأيها، أقوى من الخوف وأسرع من العقل.

ولهذا أسست قبل أعوام موقعها الصحفي الخاص، وهو موقع لم يكن كبيرًا في بدايته، لكنه سرعان ما أصبح معروفًا بين الباحثين عن القضايا الغريبة. كانت تنشر فيه مقالاتها بنفسها، وتختار عناوينها بعناية تكاد تبلغ حد القسوة. لم تكن تحب العناوين الهادئة من نوع: «دراسة جديدة تثير تساؤلات حول الفضائيين»، بل

كانت تفضل العناوين التي تجعل القارئ يتوقف قبل أن يمرر إصبعه إلى الخبر التالي.

كانت تعرف أن العنوان هو الباب، وأن القارئ الحديث لا يقف طويلاً أمام الأبواب المغلقة.

وفي مكتبها الصغير، الذي احتل غرفة واسعة في الطابق الرابع من مبنى قديم في وسط زغرب، كانت هناك ثلاث شاشات مضاءة ليلاً ونهاراً، وعلى الجدران قصاصات صحفية وصور لأشخاص اختفوا، وخرائط لمدن قديمة، ومقتطفات من ملفات لم تحسم بعد. وعلى أحد الجدران علقت جملة كتبتها بخط يدها قبل سنوات:

«إذا أخبرك الجميع أن القصة انتهت، فابحث عن الصفحة التي أخفوها.»

كانت جينيفر تؤمن بهذه الجملة، وإن كانت تعرف في قرارة نفسها أنها لم تكن دائماً تبحث عن الصفحة المخفية من أجل الحقيقة وحدها. كانت تبحث أيضاً عن القصة التي تسبق الآخرين إليها.

فالسبق الصحفي عندها لم يكن مجرد فضيلة مهنية؛ كان إيماناً.

وكانت تعرف أن هناك لحظة معينة في حياة كل خبر، لحظة قصيرة جداً، يتحول فيها من معلومة يعرفها شخصان أو ثلاثة إلى ظاهرة يعرفها الملايين. وكانت جينيفر تعيش من أجل تلك اللحظة.

أما كارلا صديقتها، فلم تكن تشبه جينيفر في شيء تقريباً.

كانت أصغر منها بنحو عشر سنوات، ذات شخصية أكثر عفوية، وأقل اهتماماً بالتفاصيل، وكانت تعمل في مجال لا علاقة له بالصحافة ولا الترنند ولا الأخبار الدسمة. تعرفت إلى كروغر مدير المتحف المركزي في زغرب في أحد البارات التي اعتاد ارتيادها بعد طلاقه، حين كان يحاول أن يقنع نفسه بأن الوحدة اختيار وليس نتيجة. كان كروغر قد قارب الستين، مطلقاً منذ سنوات قليلة، يعيش وحده في منزل هادئ أكثر مما ينبغي، ويعود في المساء إلى غرف واسعة لا يسمع فيها إلا صوت خطواته.

لم تكن العلاقة بينهما تحمل في بدايتها أي تعقيد. كانت لقاءات متقطعة، ثم أصبحت أكثر انتظاماً، ثم بدأت كارلا تقضي بعض الليالي في منزله. لم يكن بينهما وعد بالزواج ولا علاقة يمكن وصفها بسهولة. كان كل منهما يعرف أن الآخر لا يطلب أكثر مما يستطيع أن يعطيه، وربما كان ذلك هو السبب الذي جعل العلاقة تستمر.

كانت كارلا تعرف كروغر في صورته التي لا يراها زملاؤه في المتحف؛ الرجل الذي يخلع معطفه الرسمي عند الباب، يفتح زجاجة نبيذ، ويجلس لساعات أمام التلفاز من دون أن يتابعه حقًا. كانت تعرف غضبه، وصمته، وحنينه الذي لا يعترف به، وحتى خوفه من أن يصبح رجلًا وحيدًا لا يتذكره أحد.

لكنها لم تكن تعرف أسرار عمله.

إلى أن جاءت تلك الليلة.

المطر يداعب زجاج النوافذ منذ أنفاس النهار الأخيرة، والمدينة تبدو من خلف الستائر كأنها غارقة في ضباب أصفر. وكروغر جالس في غرفة المعيشة وقد شرب أكثر مما ينبغي. كانت أمامه زجاجة كحول نصف فارغة، بينما جلست كارلا على الأريكة المقابلة له تقلب هاتفها بلا اهتمام.



كان صامتًا في البداية.

ثم قال فجأة :

- هل تصدقون أن الإنسان يمكن أن يموت... ولا يموت؟  
رفعت كارلا عينيها إليه ثم ضحكت ظنًا منها أنه يمزح.

- ما الذي شربته هذا المساء؟

لم يضحك. ظل ينظر إلى الفراغ أمامه، ثم قال:

- رأيت شيئاً عجيباً اليوم.  
- في المتحف؟  
أوماً موافقاً.

- مومياء.  
قالت كارلا بلا اهتمام:

- أليست كل المومياوات في المتحف مومياوات؟  
ابتسم كروغر ابتسامة غريبة.

- هذه مختلفة.  
كان صوته قد فقد شيئاً من صلابته المعتادة، وصار أكثر بطناً، كما لو أن الكلمات نفسها أصبحت ثقيلة عليه. ثم مال إلى الأمام وقال:

- قلبها نبض.  
توقفت كارلا عن تحريك هاتفها.

- ماذا؟  
- قلبها .. قلب المومياء نبض نبضة أمام عيني .  
ضحكت مرة أخرى، لكن ضحكتها هذه المرة خرجت مترددة.

- كروغر، أنت ثمل.

- أعرف.

- إذن فلنخلد إلى النوم.

- أنا جاد.

نظر إليها بعينين حراوين، ثم أضاف:

- كان هناك نبض... أو شيء يشبه النبض. الأطباء قالوا إنه لا يمكن تفسيره بسهولة. الطبيب الذي استدعوه فحصها بنفسه.

- أي طبيب؟

- إسماعيل الراوي.

- من هو هذا؟

- طبيب مصري.

ثم بدأ يتحدث.

لم تكن كارلا تعرف أن كروغر لم يكن يريد الحديث أصلاً. كان قد أقسم في

المتحف ألا يتحدث عن المومياة خارج الفريق. لكن الكحول فعل ما تفعله أحياناً الأشياء التي لا يملك الإنسان السيطرة عليها؛ أرخى الحواجز التي بناها العقل بعناية، وأخرج من بين شقوقها ما كان ينبغي أن يبقى خلفها.

أخبرها عن المومياة.

عن القلب الذي نبض.

عن حالة الجسد.

عن الكتابات الغريبة التي وجدت على الكتان.

عن الطبيب المصري الذي جاء من أجلها ثم غادر إلى مصر.

وعن البردية التي أصبحت، بطريقة ما، جزءاً من القضية.

لم يكن كروغر يعرف أن كل كلمة ينطق بها كانت تسقط في عقل كارلا كقطعة من الذهب.

وحين انتهى، قالت:

- هل أنت متأكد مما قلته؟

رفع عينيه إليها.

- مئة بالمئة.

- والقلب؟

- رأيت النبض بأم عيني.

سكتت قليلاً. ثم قالت:

- هذه قصة ضخمة.

هز رأسه.

- ولهذا لن تخبري أحداً.

قالها بلهجة جادة هذه المرة. لكن كارلا لم تجبه.

في صباح اليوم التالي، كانت جينيفر تشرب قهوتها عندما رن هاتفها.

ظهر اسم كارلا على الشاشة.

- أهلاً كارلا. ما الأخبار؟

- لدي سبق صحفي لم تحلمي به حتى في خيالك.  
كانت تلك الجملة كافية لكي تضع جينيفر فنجانها جانباً.

- أخبريني على الفور.

- مومياء.

ابتسمت جينيفر.

- هنالك آلاف المومياوات.

- وهل كل المومياوات قلبها ينبض؟

لم تتحرك جينيفر لثوان. ثم قالت:

- أعيدي الجملة.

أعادتها كارلا.

هذه المرة لم تبتسم جينيفر.

- من أخبرك؟

- كروغر.

- كروغر مدير المتحف المركزي؟

- نعم.

- ومتى؟

- الليلة الماضية.

- هل كان ثملاً؟

سكتت كارلا. فأعادت جينيفر سؤالها.

- كان ثملاً؟

- نعم.

تنفست جينيفر ببطء.

لم تكن الصحفية التي داخلها تسأل أولاً إن كان الخبر أخلاقياً أو مناسباً للنشر.  
كانت تسأل: هل يمكن إثباته؟ هل يمكن الوصول إلى مصدر آخر؟ هل هناك  
صورة؟ هل هناك تقرير طبي؟ هل توجد مومياء فعلاً؟ وهل المتحف مستعد لإنكار  
الخبر؟ لأن إثبات كذب الخبر يعني ببساطة فقدان مصداقيتها للأبد..

فتحت حاسوبها.

كتبت في محرك البحث اسم المتحف، ثم اسم كروغر، ثم بحثت عن أي إشارة إلى



مومياء مصرية وصلت حديثاً.

وجدت شيئاً.

إشارة مقتضبة في سجل المتحف إلى دراسة مومياء مصرية نادرة.

ثم وجدت صورة قديمة للمومياء.

ثم بحثت عن اسم إسماعيل الراوي.

وحين ظهر لها ارتباط الطبيب المصري بالقضية، شعرت بذلك الإحساس الذي كانت تعرفه جيداً؛ الإحساس الذي يأتي قبل أن تصبح القصة خبراً.

قالت لكارلا:

- هل أنت متأكدة من قصة نبض القلب؟
- كروغر قال إنه رآه.
- هل قال إنه مجرد حركة؟
- قال أنه رأى النبض بأم عينه.
- وهل ذكر شيئاً عن الطبيب المصري؟
- قال إنه جاء لفحصها ثم ذهب إلى مصر.
- تجمد الهاتف في يد جينيفر.

- إلى مصر؟

- نعم.

- لماذا؟

- لم أعرف.

وهنا عرفت جينيفر أن لديها أكثر من خبر، لديها لغز. فتابعته جمع شتات السبق الصحفي بالكامل من صديقتها.

جلست أمام الشاشة، وبدأت تكتب، ثم مسحت ما كتبت، ثم كتبت من جديد. وبعد نحو ساعة كان العنوان قد استقر أمامها بحروف كبيرة :

**«المومياء التي نبض قلبها: هل عادت جثة مصرية إلى الحياة بعد آلاف السنين؟»**

لكنها لم تكتف بالعنوان.

كتبت تحته :

«حادثة غامضة داخل متحف زغرب تفتح واحدًا من أغرب الأسئلة التي واجهها علم دراسة المومياوات: هل يمكن لجسد محفوظ منذ آلاف السنين أن يُظهر نشاطًا يشبه النبض؟ مصادر مطلعة تؤكد أن فريقًا طبيًا فحص مومياء مصرية أثارت ظاهرة غير مسبوقة، بينما غادر الطبيب المصري الذي استُدعي لدراسة الحالة إلى مصر في مهمة لم تُكشف تفاصيلها حتى الآن. المتحف يرفض التعليق قبل انتهاء الدراسة، لكن السؤال أصبح مطروحًا بالفعل: ماذا حدث لقلب هذه الموميا؟»

قرأت النص مرتين، ثم أضافت في آخر المقال :

«نحن لا نزع أن الموميا عادت إلى الحياة. نحن نسأل فقط : ماذا حدث؟»

كانت تلك الجملة بالنسبة إليها كافية لحماية مهنتها. لكنها كانت تعرف أنها ستجعل الناس يقرأون المقال حتى النهاية.

ثم ضغطت زر النشر.

في اللحظة الأولى لم يحدث شيء.

ثلاث زيارات.

سبع زيارات.

اثنتا عشرة.

ثم بدأ العداد يقفز.

بعد سبع دقائق، أرسل أحد القراء رابط المقال إلى مجموعة على وسائل التواصل الاجتماعي.

بعد خمس دقائق أخرى، أعاد نشره شخص آخر مع تعليق:

«هل هذا حقيقي؟»

ثم التقط أحدهم العنوان ونشره على منصة أخرى.

ثم دخلت أول صفحة إخبارية صغيرة على الخط.

ثم موقع محلي.

ثم مدونة تهتم بالآثار.

ثم حساب مشهور يتابعه مئات الآلاف.

وبحلول الظهر، لم تعد جينيفر تحتاج إلى مراقبة موقعها.

كانت القصة قد خرجت منه ولم تعد ملكها. كانت تنتشر في المدينة مثل شعلة نار تلتهم كومة من القش اليابس.

ظهرت عشرات المنشورات التي تتحدث عن «المومياء التي عاد قلبها إلى النبض»، ثم ظهرت مقاطع فيديو قصيرة تشرح للمستخدمين «كيف يمكن أن ينبض قلب مومياء بعد آلاف السنين؟»، ثم بدأت الصور القديمة للمومياء تنتشر، وتبعها مستخدمون يقارنون بين شكلها وصور مومياءات أخرى، ثم دخل أصحاب النظريات الغريبة والشاذة إلى المشهد.

قال أحدهم إن المومياء لم تمت أصلاً.

وقال آخر إن القلب ربما كان محفوظاً بطريقة تجعل النبض ممكناً.

وقال ثالث إن الأمر كله خدعة تسويقية من المتحف.

وقال رابع إن المصريين القدماء عرفوا أسراراً طبية يجهلها الإنسان الحديث.

وكان هناك من ذهب أبعد من ذلك، متحدثاً عن «عودة الروح» و«لعنة

الفراعنة» و«البعث».

كانت جينيفر تراقب كل ذلك من أمام شاشتها. وكانت تشعر بالنشوة التي يعرفها الصحفي حين يدرك أنه صنع قصة لم يعد قادراً على السيطرة عليها.

لكنها لم تكن غبية.

كانت تعرف أن الحقيقة أقل إثارة من الشائعة في كثير من الأحيان، وأن الجمهور إذا مُنح فراغاً صغيراً بين ما يعرفه وما يريد معرفته، فسوف يملؤه بنفسه.

وفي المساء، وصلت أولى سيارات الصحافة إلى المتحف.

ثم سيارة أخرى.

ثم شاحنة بث مباشر.

ثم كاميرات.

ثم مراسلون.

وقف الصحفيون أمام بوابات المتحف، بعضهم يحمل ميكروفونات، وبعضهم يتحدث أمام الكاميرا مباشرة، بينما كانت سيارات القنوات تتوقف تباعاً في الشارع المحيط بالمبنى.

لم يكن كروغر مستعداً لذلك.

حين رأى المشهد من نافذة مكتبه، شعر أن شيئاً بارداً هبط في صدره.

قال أحد الموظفين:

- هناك أكثر من ثلاثين صحفياً في الخارج.

لم يجب مباشرة. فكر مطولاً ثم قال:

- كيف عرفوا؟

لم يكن كروغر واعياً لأي كلمة قالها أمام كارلا، فقد كان ثملاً ليلة أمس حد الانطفاء .. حتى أن كارلا في صبيحة اليوم حاولت جس نبضه فيما إذا كان متذكراً لحوارهما، وتأكدت أنه لا يتذكر كلمة مما قاله، فقررت حينئذٍ إبلاغ صديقتها الصحفية جينيفر بالقصة.

بعد دقائق أخرى ظهر مرغماً أمام الكاميرات. كانت الأسئلة تنهال عليه:

«هل صحيح أن قلب المومياء نبض؟»

«هل يمكننا تصوير المومياء؟»

«هل الطبيب المصري إسماعيل جزء من التحقيق؟»

«أين هو الطبيب إسماعيل الآن؟»

«لماذا ذهب إلى مصر؟»

«هل توجد علاقة بين المومياء والبردية التي عثر عليها معها؟»

«هل تخشون من شيء؟»

توقف كروغر والعرق ينساب كسيل على ظهره. كان وجهه قد تحول إلى قناع جامد، ثم قال أخيراً:

- لن أعلق على أي تفاصيل قبل اكتمال الدراسة العلمية.

صاح أحد الصحفيين:

- لكن هل صحيح أن قلب المومياء نبض أمام عينيك؟  
التفت إليه كروغر، ولثانية بدا كأنه سيتحدث، لكنه اكتفى بالقول:

- قلت ما لدي.

ثم دخل.

كانت تلك الإجابة أسوأ من النفي.

لأن الناس لا يتذكرون عادة ما قيل لهم، بقدر ما يتذكرون ما حاول شخص ما ألا يقوله.

في اليوم التالي بدأت القنوات تستضيف المختصين.

طبيب قلب قال إن النبض الحقيقي يتطلب آلية فسيولوجية لا يمكن افتراض وجودها في جسد متوفى منذ آلاف السنين.

أستاذ في علم المصريات قال إن المصريين القدماء كانوا يضعون القلب في مكانة استثنائية، وإن بقاء القلب داخل الجسد كان مرتبطاً باعتقادات دينية

عميقة تتعلق بالهوية والحياة والآخرة.

خبير في التحنيط شرح أن بعض الأنسجة قد تبقى محفوظة بصورة مذهلة، لكن ذلك لا يعني أن القلب قادر على العمل.

باحث في الآثار قال إن كلمة «نبض» نفسها تحتاج إلى تعريف دقيق؛ فالحركة المسجلة بواسطة جهاز قد لا تكون نبضاً بالمعنى الطبي.

وكانت جينيفر تتابعهم جميعاً.

كلما قال أحدهم إن الظاهرة مستحيلة، ازدادت شعبية الخبر.

وكلما قال آخر إن هناك تفسيراً علمياً محتملاً، ازداد عدد التعليقات التي تنتهمه بالخوف من الحقيقة.

وفي غضون أيام أصبح للمومياء جمهور.

بعضهم أراد الحقيقة.

بعضهم أراد المعجزة.

بعضهم أراد اللعنة.

وبعضهم لم يكن يريد شيئاً سوى أن يكون أول من يكتب تعليقاً.

أما السؤال الجديد الذي بدأ يظهر في كل مكان فلم يكن عن المومياء وحدها.

كان عن الرجل الذي فحصها.

الطبيب إسماعيل.

ظهرت صورته في مقالات جانبية، واستُخرج اسمه من السجلات القديمة، وبدأ الناس يبحثون عنه.

من هو؟

لماذا استدعاه المتحف؟

ما تخصصه؟

لماذا غادر؟

لماذا ذهب إلى مصر؟

وماذا يبحث هناك؟

ثم ظهرت أول شائعة.

مصدر مجهول قال إن الطبيب المصري لم يغادر زغرب لأسباب عائلية أو مهنية، بل ذهب إلى مصر «للبحث عن أصل المومياء».

ثم بدأت الإشاعات تتناسل ..

وهكذا بدأ اسم إسماعيل يطفو فوق القضية كظل رجل غائب.

وفي إحدى القنوات ظهر مذيع يسأل:

«إذا كانت المومياء مرتبطة بمصر، وإذا كان الطبيب المصري قد غادر إلى هناك، فهل يمكن أن يكون ما يحدث في زغرب مرتبطاً بما يبحث عنه في مصر؟»

لم يكن لدى أحد جواب.

ولهذا كان السؤال ينتشر.

كان إسماعيل في طيبة حين وصلتته الموجة الأولى.

كان جالساً في غرفة دير المدينة الصغيرة وقد وضع الهاتف إلى جواره، ثم أضاءت الشاشة بإشعار جديد.

فتح الخبر وقرأ العنوان. جمد في مكانه، ثم قرأه مرة ثانية.

لم يشعر بالغضب أولاً، بل شعر بالضيق. ذلك النوع من الضيق الذي يشعر به الإنسان حين يرى شيئاً بالغ الحساسية يتحول فجأة إلى ترند عالمي.

قرأ المقال كاملاً، ثم فتح عشرات الروابط.

صور للموميا.

مقاطع أمام المتحف.

تصريحات.

تعليقات.

تحليلات.

ثم رأى اسمه.

تحت صورته كتب أحد المواقع:

«الطبيب المصري الغامض الذي غادر زغرب إلى مصر... ماذا يعرف؟»

أغلق الصفحة، ثم فتح أخرى وكانت أسوأ.

«هل يبحث الطبيب إسماعيل عن سر الموميا؟»

«لماذا ذهب إلى مصر؟»

«هل كان يعرف أن القلب سينبض؟»

«ماذا تخفي البردية؟»

وضع الهاتف على الطاولة وظل ينظر إليه طويلاً.

كان كل ما بناه خلال الأيام الماضية يحتاج إلى شيء واحد فقط: الصمت.

والآن لم يعد هناك صمت، لقد أصبحت الموميا قضية عامة، والقضية العامة لا تعرف الانتظار.

نهض من مقعده واتجه إلى النافذة. كانت الشمس المصرية تضرب الجدران القديمة

بضوء أبيض قاسٍ، بينما بدا الأفق بعيداً وهادئاً، كأنه لا يعرف شيئاً عن العاصفة التي تجري في مكان آخر من العالم.

نظر إلى البردية على الطاولة أمامه وتذكر الكلمات الغريبة :

العقاب بالحرمان من الموت.

وفهم أن كل دقيقة يقضيها في متابعة ما يحدث في زغرب هي دقيقة يبتعد فيها عن السؤال الحقيقي.

أمسك هاتفه مرة أخرى، فتح آخر خبر، ثم أغلقه هذه المرة نهائياً.

قال لنفسه:

«دعهم يتحدثون.»

لم يكن ذلك لأنه لم يهتم.

بل لأنه كان يعرف أن الحقيقة التي يبحث عنها لم تكن في الصحف، ولا أمام كاميرات التلفاز، ولا في تعليقات الناس.

كانت هنا.

في مصر.

في مكان ما بين الكلمات التي أخفتها البردية، والمعابد التي ظلت واقفة آلاف السنين، والموت والبعث والعبور إلى العالم الآخر، وربما ... الحرمان من العبور كما أفصحت البردية.

أعاد الهاتف إلى جيبه.

ثم عاد إلى أوراقه وانكب على القراءة والبحث تاركاً ضجيج الإعلام والصحافة خلف ظهره.



# الفصل الخامس

ممنوع من عبور الأنفق

كان الليل قد استقر فوق المدينة حين أدرك إسماعيل أن البردية لم تقل كل ما تريد قوله.

لم يكن ذلك إحساسًا غامضًا من تلك الأحاسيس التي تراود الباحث حين يطيل النظر في أثر قديم، بل كان نتيجة ملاحظة صغيرة، كادت تفوته لولا أنه عاد إلى الأوراق التي تركها مفتوحة فوق الطاولة للمرة الثالثة. كانت الغرفة غارقة في سكون كثيف، لا يقطعه إلا صوت ساعة معلقة على الجدار، وحفيف الورق وهو يقلب صفحات من كتاب قديم عن تقنيات الكتابة المصرية كان يقرأه. أمامه كانت البردية ممددة داخل الغلاف الزجاجي الواقي، بلونها الأصفر الذي أكل الزمن أطرافه، تتخلل أليافها خطوط الكتابة الهيروغليفية التي صار يعرف منها ما يكفي ليقرأ بعض المعاني، وإن ظل الجزء الأكبر منها يحتاج إلى تطبيق الترجمة الإلكترونية الذي بدأ يستخدمه على هاتفه منذ وصوله إلى مصر.

كان قد فتح قبل ساعات مجلدًا أثريًا قديمًا يتناول البرديات الجنائزية، لا بحثًا عن شيء بعينه، وإنما لأن بعض العبارات الواردة في البردية التي يحملها ظلت تزعجه. وكان المؤلف قد توقف في فصل صغير، يكاد يكون هامشيًا، عند ظاهرة نادرة في بعض الوثائق المصرية القديمة : الكتابة المخفية داخل ألياف البردي. قرأ الفقرة مرة، ثم عاد إليها.

كانت الفكرة بالنسبة إليه أقرب إلى فرضية تستحق الاختبار منها إلى حقيقة يستطيع الوثوق بها. تحدث الكتاب عن إمكان إخفاء آثار أو كتابات دقيقة داخل بنية بعض المواد المسامية، وعن استخدام تقنيات كيميائية حديثة للكشف عن بقايا عضوية لا تراها العين المجردة. وكان إسماعيل يعرف هذه التقنيات جيدًا، لا من الكتب الأثرية، بل من سنوات عمله في الطب الشرعي. فمختبرات الأدلة الجنائية تستخدم مواد مثل **النيينهيدرين** للكشف عن آثار الأحماض الأمينية على الأسطح المسامية، ولا سيما الورق؛ مادة تبدو في ظاهرها بعيدة كل البعد عن عالم المعابد والمقابر، لكنها كانت بالنسبة إليه أداة مألوفة من عالم الجريمة والتحقيق.

توقف إسماعيل عن القراءة.

رفع عينيه نحو البردية.

ثم عاد إلى الكتاب.

ذكر المؤلف أن بعض الوثائق الطقسية قد تحتوي على طبقات مختلفة من الكتابة

أو على آثار عضوية لا تظهر إلا بعد المعالجة، وأن تمييز هذه الظواهر يحتاج إلى حذر شديد، لأن أي تدخل كيميائي على أثر عمره آلاف السنين قد يؤدي إلى إتلافه بصورة لا يمكن تداركها.

كانت تلك الجملة تحديدًا هي التي جعلته يتردد.

ظل يحدق في البردية طويلًا.

ثم نهض.

أخرج من حقيبته أدواته الطبية الصغيرة، تلك التي اعتاد أن يحملها معه حتى بعد أن ابتعد عن المستشفيات والمختبرات، كأن الطبيب لا يتخلص من مهنته تمامًا مهما ابتعد عنها. أخرج عدسة مكبرة، ومصدر ضوء باردًا، وعبوة صغيرة محكمة الإغلاق.

قرأ الاسم على الملصق.

Ninhydrin.

ابتسم ابتسامة قصيرة.

قال لنفسه إن الأمر سخيّف.

فالنيهيدين لا يبحث عن أرواح الموتى، ولا يستخرج أسرار الفراعنة، ولا يفتح أبواب العالم الآخر. إنه مجرد كاشف كيميائي يتفاعل مع الأحماض الأمينية. ومع ذلك، كانت الصدفة أحيانًا تفعل ما لا تستطيع أعقد الأجهزة فعله.

أعاد فحص البردية تحت الضوء المائل. وهذه المرة رأى شيئًا لم يره من قبل.

لم تكن كتابة.

كانت اختلافات دقيقة في بنية الألياف، كأن سطح البردي قد عولج في بعض المواضع بمادة عضوية ثم جف، تاركًا خلفه تغيرًا طفيفًا ككتابة قد محيت لا يظهر إلا عندما يسقط الضوء بزواوية معينة.

أحضر قطعة اختبار منفصلة، واستخدم عليها كمية ضئيلة جدًا من المحلول.

انتظر. لم تتلف العينة.

هنا أضاف مقدارًا محسوبًا إلى الجزء الذي يحمل العلامات الغامضة من البردية.

لم يحدث شيء في البداية. ظل السطح كما هو، ثم بدأ لون خافت يتشكل في الألياف.  
خط.

ثم آخر.

ثم ثالث.

تراجع إسماعيل ببطء.

لم يكن أمامه أثر إصبع. كانت هناك خطوط دقيقة تتشكل داخل النسيج نفسه.  
أغلق عينيه للحظة.

ثم فتحهما.

ظهرت الكلمات.

لم تكن الكتابة الجديدة في اللون نفسه الذي كتبت به النصوص الظاهرة، ولم تكن بالحجم نفسه، بل بدت أرفع وأخف، كأنها كتبت على البردية قبل أن تغطي بطبقة أخرى من الكتابة.

لم يجرؤ إسماعيل على لمسها، اقترب فقط. شغل جهاز الترجمة فبدأت الكلمات تظهر أمامه واحدة تلو الأخرى.  
قرأ بذهول ...

**«حين يغيب جسد الملك في الأرض، لا يكون موته نهاية الطريق»**

بقي ساكناً.

ظهر السطر التالي:

**«فالذي ينزل إلى الظلمة، يُهياً له طريق إلى الأفق»**

ثم:

**«ومن الأفق يعبر إلى السماء.»**

شعر بقشعريرة باردة تسري في ذراعيه ..

تابع الترجمة .

**«لكن الطريق ليس مفتوحاً لكل عابر.»**

ثم ظهرت عبارة جعلته يتوقف تماماً:

**«عند باب الأفق يقف الحارس.»**

ظل يحدق فيها.

الحارس.

الأفق.

العبور.

ثلاث كلمات بدت له فجأة وكأنها تضع يداً على شيء ظل يحاول الإمساك به منذ أن وطئت قدماه مصر.

أعاد تمرير المادة فوق بقية النص فظهر سطر آخر:

**«والذي يمنع من العبور يبقى حيث أغلق عليه الباب.»**

ثم، بعد فراغ طويل، ظهرت عبارة أقصر وأكثر غموضاً:

**«الرجل الذي منع من العبور...»**

وانقطع النص.

لم تكن هناك جملة تالية، فقط صورة لشكل هندسي بسيط ..

حدق إسماعيل في الفراغ الذي يلي الكلمات. بدا كأن الكاتب تعتمد أن يترك الجملة معلقة، أو أن الجزء الذي كان يحمل بقية النص قد فُقد في وقت ما.

أعاد إسماعيل القراءة.

لم يكن الشيء اللافت في العبارة هو فكرة الصعود إلى السماء؛ فهذه الفكرة كانت معروفة في النصوص الجنائزية المصرية. ما لفت انتباهه هو كلمة «الأفق» نفسها، وطريقة كتابتها، والرمز الذي رافقها.

كبر الصورة.

ظهر أمامه الشكل الهندسي أوضح: خط أرضي تعلوه دائرة شمسية بين مثلثين.

تأمله طويلاً، ثم فتح قاعدة بيانات الصور التي كان يحتفظ بها على جهازه، وأجرى مقارنة.



بعد ثوانٍ ظهرت النتيجة بالهيروغليفية :  
«أخت».

قرأ الترجمة بصوت منخفض :  
الأفق.

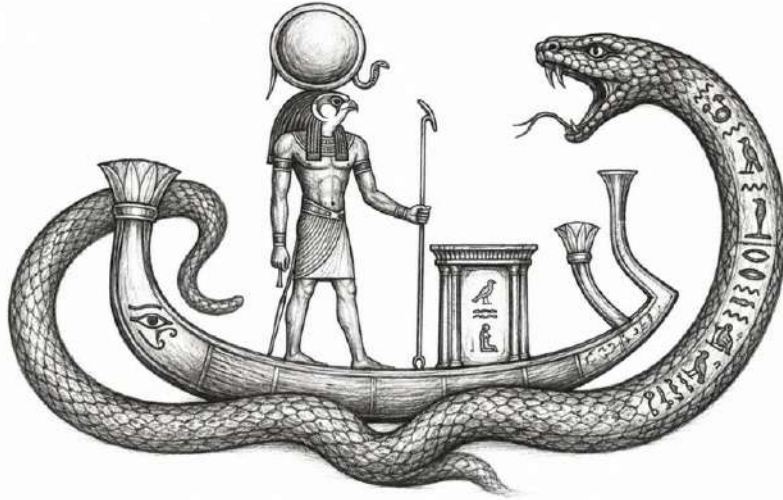
ثم بحث عن أسماء مرتبطة بذلك. فظهرت أمامه نتيجة جديدة فسرت كل شيء :  
أخت خوفو = أفق خوفو.  
هكذا تصبح الأمور أكثر وضوحاً.

فالهرم الأكبر حمل اسماً في زمن بنائه، ولم يكن ذلك الاسم مجرد تسمية جغرافية، بل كان مفهوماً : ( بيت الأفق ). مكانٌ يعبر فيه الملك من العالم الأرضي إلى العالم الآخر.

عاد إسماعيل إلى الكتاب الذي كان قد فتحه قبل قليل، ثم أخذ يبحث بسرعة في الفهارس والمراجع عن مفهوم الأفق عند الفراعنة. كان جل الحديث يتمحور حول الأفق والرحلة الشمسية، وعن صعود الملك بعد الموت إلى السماء ( الأفق ).

هنا تذكر إسماعيل رحلة إله الشمس رع، فهي تجسد فكرة الأفق ببساطة ملهمة. حيث أن الشمس، في التصور الفرعوني، لم تكن مجرد جرم سماوي يشرق ويغرب. بل كانت قوة حية مرتبطة بالخلق والتجدد. رحلة الشمس اليومية من الشرق إلى الغرب، ثم مرورها خلال العالم السفلي قبل ظهورها من جديد، قدمت للمصريين نموذجاً كونياً للموت والتجدد.

تموت الشمس كل مساء وراء الأفق، بمعنى رمزي، ثم تعود من الأفق.



وكان الملك بعد الموت يرتبط، في طقوس ملكية، بمسار شمسي وأوزيرى في آن واحد؛ فهو من جهة يسعى إلى الارتباط بدورة رع الشمسية، ومن جهة أخرى يرتبط بأوزيريس، سيد العالم الآخر، الذي يمثل بدوره نموذج الموت الذي لا يكون نهاية مطلقة. فالمصريون لم يروا تناقضاً بين أن يصبح الملك أوزيرياً وأن يرتبط برحلة رع، فالموت نفسه كان نقطة التقاء مسارين :

مسار الأرض، حيث يُحفظ الجسد ويُقام له الطقس.

ومسار السماء، حيث تتحرك الشمس والنجوم.

الملك الميت يقبع في قبره، لكنه في الوقت نفسه يُتصور وهو يغادره.

وهذه المفارقة كانت، في نظر إسماعيل، أعظم ما صنعتها الحضارة المصرية في تصويرها للموت. لقد بنت للموت هندسة ( الأهرامات والمعابد )، لكنها لم تكن هندسة للخروج من الحياة، كانت هندسة للعبور منها إلى صورة أخرى للوجود.

وهنا توقف عند اسم يعرفه كل قارئ للتاريخ المصري، لكنه لم يره من قبل بهذه الطريقة :

### الجيزة.

لم يكن ما استوقفه مجرد وجود الأهرامات هناك، كان الأمر أعمق.

فإذا كانت البردية تتحدث عن الأفق، وعن طريق يعبره الميت، وعن حارس يقف عند ذلك الطريق، فإن عليه أن يفهم أولاً كيف تصور المصريون أنفسهم الموت

والعبور، ولماذا أنفقوا من مواردهم وعلومهم وطاقتهم ما يكفي لبناء منشآت بدت حتى اليوم وكأنها تتحدى حدود الإنسان.

ومنذ تلك اللحظة لم تعد الجيزة مكاناً على الخريطة بالنسبة إليه، بل أصبحت جملة ناقصة في البردية، وكان عليه أن يقرأها.

كان من السهل عليه أن ينظر إلى الهرم الأكبر بوصفه أكبر قبر بناه البشر، ثم يكتفي بالدهشة التي تفرضها كتل الحجر الهائلة. لكنه، وهو يغوص في الكتب والمخطوطات والصور والخرائط، أدرك أن اختزال الهرم في كلمة «قبر» يشبه وصف الدماغ بأنه مجرد كتلة من اللحم والعظم. فالأهرامات لغز كبير لم يتم الإحاطة به حتى الآن رغم آلاف الدراسات النظرية والعملية.

أخذ يقرأ بشغف عن بعض الأسرار المتعلقة بذلك اللغز، فمثلاً بناء الأهرامات المثالي بتصميم لا تشوبه شائبة، وطريقة نقل القطع الحجرية ورفعها التي لا تزال لغزاً عصياً على التفسير حتى يومنا هذا، بالإضافة إلى أنّ الكتل الحجرية تلك تمّ قطعها بشكلٍ مثالي و متساوٍ على نحوٍ غريب إن أخذنا بعين الاعتبار الأدوات البدائية التي كانت متوفرة في زمن بنائها !! إلا إن كنا على خطأ و كانت تلك الحضارة متطورة على نحوٍ كبير بأدوات لم نعهدها من قبل ..

هناك أيضاً مكان بناء الأهرامات الذي يتوسط الخط المار في منتصف الأرض بالضبط بالنسبة للقارات بدقة عجيبة !!

فكيف تمكن الفراعنة من إنجاز ذلك بدون توفر خرائط للعالم في ذلك الوقت ؟!

ثم قرأ عن الرياضيات المذهلة في بناء الأهرامات : فمحيط أي هرم منها مقسوماً على ارتفاعه يساوي 3.14 و هو رمز باي  $\pi$  الشهير في الرياضيات .. و أيضاً محيط غرفة الملك مقسوماً على الارتفاع يساوي نفس القيمة 3.14 ، و بدوره محيط تابوت الملك مقسوماً على ارتفاعه يساوي نفس القيمة 3.14 !!

أما علاقة الأهرامات بعلوم الفلك فكانت حكاية أخرى، فارتفاع الهرم الأكبر الذي يتجه من الأرض نحو السماء هو 149.4 متر، والمسافة ما بين الأرض والشمس 149.4 مليون كيلو متر بالضبط !! ..

كذلك فإنّ ممر الدخول للهرم الأكبر خوفو يشير الى نجم القطب الشمالي والدليلز الداخلي يشير الي نجم الشعرة اليمانية، كما ان الهرم الأكبر بالنسبة للنظام الفلكي



يقع تحت أكبر نجم في السماء ..

و في يوم 27 شباط / فبراير من كل عام، يحدث تعامد لأشعة شمس الظهيرة مع الهرم الأكبر، و هو عيد إله الشمس «رع» عند الفراعنة ، و ينعكس الضوء في هذا اليوم على الواجهات الأربع للهرم، التي كانت ملساء ومصقولة وبيضاء اللون من الحجر الجيري في تلك الفترة ، ليظهر الهرم ككتلة من الضوء المنعكس .. والأجمل هو كيف بنيت الأهرامات الثلاثة على نحوٍ يتناسب مع النجوم الثلاثة في حزام أوريون من حيث الحجم و الترتيب ..

ثم قرأ مقالاً يتناول بعض الحقائق الغربية عن الأهرامات، فمثلاً لو وضعت قطعة لحم في داخل الهرم، ستجد أنها تنشف دون أن تتعفن مهما مضى عليها من زمن .. أو أنك لو تركت موس حلاقة قديم عدداً معيناً من الساعات داخل الهرم ، سيعود حاداً مرة أخرى .. كذلك لو جلبت أي نبات إلى داخل الأهرامات ، فسينمو بصورة أسرع بكثير من نموّه خارجها .. كما أنّ درجات الحرارة داخل الأهرامات تبقى ثابتة بحدود 20 درجة مئوية ، بالرغم من الحرّ الشديد في مصر..

ومن أغرب ما قرأه كان علاقة الفضائيين ببناء الأهرامات، فهناك بعض الأدلة الغربية التي تربط الفراعنة القدماء بالفضائيين رغم كونها لا تزال مثار جدل حتى يومنا هذا، ومنها : **موميאות السير ويليام بيتري** الذي كان عالم مصريات معروفاً على نطاق واسع، وكان لديه في منزله مجموعة من المقتنيات الأثرية التي حصل عليها خلال تنقيبه عن الآثار في مصر و بالتحديد في منطقة تل العمارنة و أبيدوس.. و يقال أنه ضمن هذه المجموعة و على نحو غريب موميאות لا تتطابق مع البنية العظمية للإنسان، و يعتقد البعض أن تكون هذه الموميאות بقايا حقيقية لكائنات فضائية..!!

وهناك أيضاً **بردية تولي** التي تحكي قصة ما حدث في يوم من الأيام في عهد حكومة تحتمس الثالث، عندما شوهدت دائرة من النار في السماء ومعها عدة سفن على شكل صحن طائرة والتي اختفت بعد فترة.. ولم تُشاهد بردية تولي مرة أخرى بعد وفاة الأخوين تولي على نحو مريب يطرح العديد من الأسئلة عن صحتها و مضمونها !! ..

ثم هناك اكتشاف بعض الرسومات الغامضة في **قاعة الأعمدة في معبد سيتي الأول في أبيدوس**، وهي رسومات لما يشبه نوعاً من الأطباق الطائرة الغربية.

فإن كانت هذه الأدلة حقيقية فعلاً فلا شك أن حضارة الفراعنة كانت متطورة للغاية نتيجة هذه العلاقة مع جنس فضائي متطور كثيراً بلا شك !!

و القائمة تطول بخصوص أسرار بناء أهرامات الجيزة الغامض ، لكن ما قرأه لوحده أكد له أن ما بلغه الفراعنة من تطور علمي ( رياضي ، فلكي ، أجهزة و أدوات ... ) أكبر بكثير مما نعرفه اليوم ، و إلا لما تمكنوا من بنائها و في زمن قياسي و وفق أرقام رياضية ثابتة و دلائل فلكية مدهشة ..

انتقل بعدها للربط بين بناء الأهرامات كمقابر ملكية وبين رحلة الميت في العالم الآخر.. وقبل كل شيء كان عليه التفريق بين المقبرة وبين الهرم وبين المعبد الجنائزي.

فالمقبرة تحفظ الجسد.

والمعبد يحفظ الطقس والعبادة والاتصال بين الأحياء والميت.

أما الهرم الملكي، في السياق الذي نشأ فيه، فكان جزءاً من منظومة أكبر تروي حكاية الملك الذي يموت ثم يستمر.

وفي المقابر المصرية اللاحقة، وخصوصاً في وادي الملوك، تغير الشكل الهندسي للضريح تماماً، لكن الفكرة الأساسية لم تختف. اختفت الكتلة الحجرية الهائلة وبقي الطريق :

ممرات.

أبواب.

حجرات.

نصوص.

صور.

بوابات رمزية.

عوالم متعاقبة.

كان المصريين، عبر القرون، لم يتخلوا عن الفكرة نفسها، وإنما غيروا هندستها.

والمخلص أن الجسد يحفظ بالتحنيط في ضريح حجري ضخم يليق به وبموته وبرحلته التي سيخوضها جسده المحنط ما بعد الموت عندما يفارق عالمنا الأرضي ويصعد الأفق إلى العالم الآخر.

هنا شعر إسماعيل بأن البردية التي اكتشفها لا تنتمي إلى عالم منفصل عن كل ذلك، بل كانت تتحدث عن الشيء ذاته :

**الطريق.**

لكنها أضافت شيئاً لم يكن في النصوص العادية :

**الحارس.**

رفع إسماعيل رأسه عن الكتاب، وبدون استئذان اجتاحت مخيلته صورة وحيدة :

**أبو الهول..** وهو يحرس الأهرامات بإخلاص منذ آلاف السنين.

جسد أسد مستلقٍ على الأرض، ورأس إنسان ذي ملامح ملكية، في صورة تجمع بين قوة الحيوان وهيبة الملك. كيانٌ صامت، لا يمسك شيئاً، ولا يرفع سلاحاً، ولا يركض، ولا يتحرك نحو أحد. إنه فقط يقف حارساً، أو بالأدق، يجلس في سكون لا يوحى بالعجز، بل بالانتظار.



وبحسب الأدلة الأثرية الحالية التي قرأ عنها، يرجح أن أبا الهول العظيم نُحت في عهد الملك **خفرع**، في الأسرة الرابعة، ضمن مجمع الجيزة الملكي، وأنه يرتبط معماريًا بمعبد أبي الهول ومعبد الوادي الخاص بخفرع. وفي عصر الدولة الحديثة أصبح التمثال مرتبطًا بصورة شمسية عُرفت باسم **حور إم آخت**، «حورس في الأفق»، وهي تسمية بدت لإسماعيل، في تلك الليلة، كأنها خرجت لتوها من البردية أمامه.

كان ذلك التشابه وحده كافيًا لجعله يترك الكتاب مفتوحًا أمامه.  
الأفق مرة أخرى.

أخذ يفكر من جديد :  
أبو الهول يقف عند حدود المجمع الجنائزي.  
والهرم يصعد إلى السماء.  
والقبر يخفي الجسد.  
والطريق يربط عالم الأحياء بعالم الموتى.  
وفي قلب هذه المنظومة يظهر مفهوم الأفق.  
وهنا عاد إلى البردية.

### «عند باب الأفق يقف الحارس.»

لم يستطع أن يمنع نفسه من الربط.  
**الهرم** هو طريق الميت الصاعد نحو السماء.  
**الأفق** هو بوابة العبور من العالم الأرضي إلى العالم الآخر.  
**وأبو الهول** يحرس الهرم والأفق ويرشد الميت إلى الطريق.  
لم يكن ذلك يعني أن البردية تشير حرفيًا إلى أبي الهول؛ لم يكن النص يقول ذلك. ولم يكن يستطيع، بضمير الباحث، أن يحوّل التشابه الفكري إلى دليل أثري. لكن التشابه كان قويًا بما يكفي لجعله يواصل البحث.

تابع بحثه في كتب التاريخ الفرعوني فاكتشف أنه لا يعرف من المحيط سوى

سطحه، أما تحت السطح فيقع عالمٌ كاملٌ من الاسرار المرتبطة بالموت والعبور ورحلة العالم الآخر ..

قرأ عن المنشأة الغامضة الموجودة في منطقة الجيزة، المرتبطة بمجمع خوفو، والتي عُرفت في الأدبيات الحديثة باسم «**سرداب أوزيريس**». وهو مجمع جنازي غامض يقع تحت الأرض في هضبة الجيزة بالقرب من أهرامات الجيزة. يقع السرداب تحديداً تحت الطريق الصاعد الذي يربط بين معبد الوادي (بجانب تمثال أبو الهول) ومعبد جناز الهرم الثاني (هرم خفرع). يعتبر هذا الموقع من أكثر الأماكن إثارة للجدل والغموض في علم المصريات، حيث حُفر عميقاً في الصخر الصلب ليصل إلى عمق يقارب 30 متراً (100 قدم) تحت سطح الأرض. ويغلب على بعض التفسيرات افتراض أنه ذو علاقة وثيقة بالبعث ورحلة العبور بعد الموت.

كما أثار اهتمامه **معبد الأوزيريون** القابع في غياهب منطقة أبيدوس الغامضة، حيث ينهض كسّرٍ أبدي حُفر في جوف الأرض. جدرانه الضخمة تحتضن خنادق مياه نون الأزلية . هنا، في المقبرة الرمزية لإله البعث أوزيريس، يتلاشى الزمن الفاني وتلتقي الدنيا بعالم الخلود. يقف المبنى كجسر صخري مهيب يربط روح الفرعون ببوابة الموت، عابراً بها نحو واحة الحساب والولادة الجديدة.

ثم ظهرت أمامه **نصوص الأهرامات** على جدران هرم أوناس الصامت بمنطقة سقارة، حيث تهمس الهيروغليفية بنورها الأزرق والأخضر كأقدم تراتيل سماوية عرفها التاريخ. صيغت هذه النقوش السحرية لتكون درعاً يحمي جسد الملك من الفناء، وسلماً سرياً يطير بروحه نحو أعالي السماء. إنها تعاويذ الخلود التليدة التي تتحدى العدم، محولةً روح الفرعون الراحل إلى نجم سرمدى لا يغيب في فلك الكون الممتد.

ثم عثر على مفهوم آخر أغرب مما سبق : **هرم الفراغة الفضائي** أو ما يعرف بهرم بن بن أي المشع و المتلألئ، وهو هرم أسود اللون بخصائص مغناطيسية حير العلماء لآلاف السنين ولم يتمكنوا من حل لغزه الا بعد صعودهم إلى الفضاء ، إذ إنه مصنوع من الحجر الأسود ولكنه ليس حجراً عادياً لان كل مكوناته ليس لها وجود على وجه الأرض .. هذا الحجر الأسود الحديدي لا يتواجد الا في الفضاء في النيازك الفضائية ..

وهنا يظهر اللغز الثاني بأنه حجر حديدي صلد جداً وصعب التشكيل والحفر ولكنه

ليس صعب الكسر ، فكيف تم قطعه بتلك الدقة في الزوايا والانحرافات بدون عيوب أو تهشيم ؟ وكيف تم صقل وجوهه بهذه الجودة و الدقة ؟؟ .. وهنا يطل برأسه اللغز الثالث وهو كيف تم النقش بتلك النقوش الدقيقة جداً على أوجه الهرم ، حيث أكد العلماء عجز أية أداة سواء قديماً أو حديثاً من نحت تلك النقوش إلا إذا كانت أداة قطع ليزرية و هذا مستحيل في تلك الحقبة التاريخية إلا إن كان لقوى غير بشرية دور في تشكيل هذا الهرم !! وهنا يطل آخر لغز وهو أن الحجر الاسود الحديدي النيزكي بفضل تركيبه ومكوناته يتمتع ببث طاقة كهرومغناطيسية في محيطه تجعل كل من يقترب منه يشعر بالراحة النفسية والصفاء الشديد ويؤثر على طاقة الإنسان فيزيل ما يشعر به من ألم في أي منطقة من جسده ( بنفس مبدأ إسورة الطاقة التي يتم ارتداؤها الآن ولكن بطاقة عالية جداً تؤثر في أي عدد مهما كان بمجرد وجودهم في محيطه). وتقول فرضيات مهمة أن الهرم صمم لمنح المومياوات الراحة النفسية في رحلة العبور إلى العالم الآخر..

قرأ وقرأ عن أشياء أخرى شيقة حتى أنهكه التعب الذهني ، فأغلق الكتاب. لم يكن ما أثار اهتمامه هو الادعاءات الخارقة التي ملأت بعض الكتب الحديثة.

بل العكس.

كان ما يثيره هو أن المصريين، بعد كل ذلك الجهد لبناء أحجار تتجه إلى السماء، لم يهملوا باطن الأرض.

هناك عالم في الأعلى.

وعالم في الأسفل.

والميت يقف بينهما.

فكر في ذلك طويلاً. ثم أدرك أن هذا هو جوهر العمارة الجنائزية المصرية كلها. لم تكن الأهرامات محاولة واحدة للصعود، كانت محاولة لصياغة الانتقال بين مستويين من الوجود.

الجسد في الأرض.

والروح في طريقها.

والشمس فوق الجميع.

والأفق هو الحد الذي تلتقي عنده السماء بالأرض.

والحارس عند العتبة.

والكلمة تفتح الباب.

لكن ....

ماذا يحدث إذا كانت الكلمة نفسها تقول :

**لا تفتحوا الباب؟**

عاد إسماعيل إلى البردية.

كانت الغرفة قد أصبحت أبرد، أو ربما كان التعب قد جعل الأشياء من حوله أكثر حدة. أطفالاً المصباح الكبير وأبقى على ضوء صغير فوق الطاولة.

وضع البردية أمامه. ثم وضع إلى جانبها صورة الهرم الأكبر. وبجانبها صورة أبي الهول.

لم تكن هناك صلة مادية بين الأشياء الثلاثة.

المومياة كانت في زغرب.

البردية في يده.

والأهرامات وأبو الهول بقيت آلاف السنين تحتضن الأسرار.

ومع ذلك، بدأ يشعر أن الأشياء الثلاثة تنتمي إلى سؤال واحد.

**المومياة تمثل الجسد الذي سيعبر.**

**البردية تمثل الكلمة التي سترشد.**

**والهرم يمثل الطريق الذي سيسلك.**

**أما أبو الهول فيمثل الحارس الذي يصون كل ما سبق.**

وللمرة الأولى لم يرَ هذه الأشياء بوصفها آثاراً منفصلة، بل رأى نظاماً فكرياً كاملاً.

المصريون لم يكونوا يحفظون الميت لأنهم يريدون أن يبقى جسده في الظلام. كانوا يحفظونه لأنهم يريدون أن يضمّنوا له إمكانية مغادرة الظلام. كان **التحنيط** إعداداً للجسد. وكانت **النصوص** إعداداً للوعي. وكان **القبر** موضع البداية. وكان **الأفق**

وجهة. وكانت الشمس النموذج الكوني للتجدد. وكانت الحراسة ضرورة لأن الطريق لم يكن متاحًا بلا شروط.

وهنا عاد ذهنه إلى الرجل الذي تحدثت عنه البردية.

الرجل الذي مُنع من العبور.

توقف.

ثم أعاد قراءة العبارة التي ظهرت بالحرر الخفي.

لم يكن النص يقول إنه مات.

لم يكن يقول إنه دُفن.

لم يكن حتى يصفه بوضوح بأنه مجرم.

كان يقول شيئًا أكثر غرابة:

«الذي مُنع من العبور يبقى حيث أُغلق عليه الباب.»

رفع إسماعيل عينيه ببطء. وفكر بالمومياء التي يعرف أنها تنتظره في مكان آخر من العالم.

ثم تذكر القلب.

تلك النبضة المستحيلة التي جعلت جسدًا ميتًا منذ آلاف السنين يبدو للحظة كأنه يتذكر الحياة.

كان قد حاول أن يضع لها تفسيرًا طبيًا : تقلص عضلي، تغير حراري، خطأ في الملاحظة، ظاهرة لم تُفهم بعد.

لكنه الآن لم يعد يفكر في القلب وحده.

كان يفكر في الرجل كله، في هذا المصير المظلم الذي لحق به.

ثم فكر في شيء آخر.

شيء أبسط، لكنه أكثر رعبًا.

إذا كانت كل هذه النصوص والمنشآت والطقوس قد صُممت لتساعد الميت على العبور...



فما الذي يعنيه أن يكون هناك رجل واحد صُممت طقوسه خصيصًا لكي لا يعبر؟  
جلس إسماعيل طويلًا دون أن يلمس شيئًا.

بدأت قطع اللغز تتحرك في ذهنه ببطء، لا كالأحجار التي تسقط في مكانها، بل  
كنجوم متباعدة يتضح بينها شكل كوكبة لم يرها من قبل.  
المومياء.

الرجل المجهول.

البردية.

الكتابة الخفية.

الأفق.

الحارس.

الرجل الممنوع من العبور.

والقلب الذي نبض.

لم يكن يستطيع أن يثبت شيئًا.

العلم لا يسمح له بأن يقفز من احتمال إلى يقين.

لكن العلم نفسه كان قد علمه أن الاحتمال الذي يفسر سلسلة من الظواهر يستحق  
أن يُختبر.

فتح دفتره.

كتب في منتصف الصفحة:

«مومياء زغرب = الرجل الممنوع من العبور؟»

ظل القلم ثابتًا بين أصابعه.

ثم أضاف تحتها:

«إذا كان الجواب نعم... فلماذا؟»

نظر إلى السؤال.

وللمرة الأولى شعر أن اللغز الحقيقي لم يعد هوية المومياة.

لقد أصبح شيئاً أشد قسوة.

لماذا عاقب المصريون رجلاً إلى هذا الحد؟

لماذا لم يكتفوا بقتله؟

لماذا لم يكتفوا بحرمانه من التكريم؟

لماذا كان العقاب هو أن يُترك ميتاً... دون أن يُسمح له حتى أن يكون ميتاً كاملاً؟

وفي تلك اللحظة أدرك إسماعيل أن هناك فرقاً هائلاً بين أن يُحكم على الإنسان بالموت، وأن يُحكم عليه بالأل يعبر بعد الموت.

الأولى نهاية.

أما الثانية فشيء آخر.

شيء يشبه أن يُغلق الكون بابه في وجه رجل، ثم يُترك واقفاً إلى الأبد على العتبة.

وكان عليه الآن أن يعرف :

من كان ذلك الرجل؟

وماذا فعل حتى استحق أن يُغلق الأفق في وجهه ؟

## الفصل السادس

مورخيب : الميت الحي

## الألفية الثانية قبل الميلاد ..

لم يكن الزمن في مصر القديمة يمضي كما يمضي الزمن في البلاد الأخرى. كان النيل هو الذي يحدد إيقاع العالم، والشمس هي التي تفتح أبواب النهار وتغلقها، وكانت حياة الناس جميعًا، من الفلاح الذي يستيقظ قبل الفجر ليشق قناة في أرضه، إلى الكاهن الذي يرفع البخور أمام تمثال الإله، إلى الجندي الذي يحمل رمحه عند حدود المملكة، معلقة بذلك النهر العظيم الذي كان المصريون يرونه أكثر من ماء؛ كانوا يرونه شريانًا أخضر يمر في جسد الصحراء، ويمنحها القدرة على أن تحيا. وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حين كانت مصر في أوج الدولة الحديثة، كانت طيبة تبدو كأنها مدينة خرجت من حلم طويل للآلهة.

على الضفة الشرقية للنيل ارتفعت المعابد، ضخمة، ساكنة، ذات أعمدة تشبه أدغالاً حجرية. النقوش تغطي جدرانها بأجساد الملوك والآلهة والجنود والقرابين. رائحة البخور تخرج من أبوابها الثقيلة، فتختلط برائحة الطين الرطب والبردي ودخان الأفران والخبز الذي تخبزه النساء في البيوت القريبة من النهر.

أما الضفة الغربية فكانت أرضاً أخرى؛ أرض الموتى.

هناك، خلف النهر، كانت الجبال الجرداء تحرس وادي الملوك، حيث بدأ الفراعنة يخفون أجسادهم الملكية في قلب الصخر، بعيدًا عن أعين اللصوص، بينما الكهنة يواصلون طقوسهم حتى بعد أن يختفي الجسد خلف أبواب القبر. إذ كان الموت في مصر القديمة لا يعني النهاية، بل انتقالًا. لم يكن المصري يخاف الموت بقدر ما كان يخاف الموت الذي لا يستطيع بعده أن يعود.

ولهذا كان الجسد مقدسًا.

كان الموتى يُحنطون لا لأن المصريين أحبوا الموت، كما ظن بعض الغرباء بعد آلاف السنين، بل لأنهم كانوا يؤمنون أن الإنسان ليس جسدًا واحدًا. كان هناك الجسد، وكانت الروح، وكان القلب، وكانت قوى أخرى لا تستطيع العين رؤيتها، وكل منها يحتاج إلى طريقه كي يبلغ العالم الآخر. وإذا تلف الجسد، فقد تضيع معه إمكانية استمرار صاحبه في الأبدية.

ولهذا كان المحنطون يعملون في صمت يشبه الصلاة.

وكان الأطباء يعملون في صمت آخر.

ففي مصر رُبط الطب بالسحر منذ زمن بعيد؛ فالمرض لم يكن دائمًا عدوًا ماديًا يمكن استخراجه من الجسد أو علاجه بعشبة، بل كان أحيانًا اختلالًا في النظام الخفي الذي يصل الإنسان بالعالم. الطبيب قد يحمل في يده مرهمًا، وفي الأخرى تميمية، ويعرف أسماء النباتات والكسور والجروح، كما يعرف الكلمات التي ينبغي أن تُقال فوق الجسد قبل أن يُوضع الدواء على الجرح.

ولم يكن ذلك التداخل بين الطب والسحر تناقضًا في عيون المصريين.

كانت المعرفة كلها علمًا واحدًا، والعالم نفسه لم يكن مقسمًا عندهم إلى ما نعهده نحن اليوم حقيقة وخرافة.

كان للآلهة علمها، وللكهنة علمهم، وللكتبة علمهم، وللشجرة علمهم، وكان الفرعون يقف فوق هذا النظام كله، لا بوصفه ملكًا فحسب، بل بوصفه الضامن البشري لاستمرار «ماعت»؛ ذلك النظام الكوني الذي يجعل الشمس تشرق، والنيل يفيض، والزرع ينمو، والآلهة راضية، والمملكة قائمة.

وفي تلك السنوات كان الفرعون الذي حمل تاج مصر هو رمسيس الثاني.

رمسيس، ابن سيتي الأول، هو الرجل الذي سيعرفه التاريخ بعد ذلك بلقب العظيم. لم يكن رمسيس رجلًا يسهل اختزاله في صورة الملك الجالس على عرشه. كان طويل القامة، عريض الكتفين، ذا حضور جسدي يسبق كلماته؛ وجهه يحمل الملامح التي ستعرفها الأجيال اللاحقة من تماثيله ونقوشه، بأنف مستقيم وفك قوي وشفاه مشدودة قليلًا، وعينين واسعتين ثابتتين لا تتحركان سريعًا حين يصغي إلى أحد. وكان يحرص على مظهره الملكي كما يحرص على جيشه؛ التاج، والقلائد، والذهب، والثوب الأبيض، والصولجان، كلها لم تكن عنده زينة فحسب، بل لغة أخرى من لغات السلطة.

لكن ما كان يميز رمسيس أكثر من ملامحه هو طباعه.

كان شديد الاعتداد بنفسه، يعرف قيمة الصورة التي يصنعها للملك في أعين شعبه وأعدائه، وفي الوقت نفسه كان صبورًا في الاستماع، لا يتعجل الحكم حين يتعلق الأمر بأمور الدولة الكبرى. كان يستطيع أن يكون لينًا حين يرى أن اللين يخدم

المملكة، وقاسيًا حين يرى أن التردد قد يفتح ثغرة في هيبة التاج. ولم يكن يحب أن يُظهر خوفه، لأن الفرعون الذي يخاف أمام الآخرين لا يخسر شخصه فقط، بل يززع صورة النظام كله.

وكان يؤمن بأن الملك لا يملك رفاهية أن يكون رجلًا عاديًا.

حتى حين يكون وحيدًا.

حتى حين يمرض.

حتى حين يتأمل الموت.

كان عليه أن يبدو كأنه يعرف إلى أين يمضي العالم، حتى في اللحظات التي لا يعرف فيها شيئًا.

وكانت هذه إحدى مفارقات رمسيس التي لم يعرفها العامة : أن الرجل الذي شيد لنفسه صورة الخلود في مقابر فخمة كان يعرف في أعماقه أن الحجر وحده لا يكفي لهزيمة الزمن.

كان ملكًا محاربًا، وبانيًا، وسياسيًا يعرف أن قوة الملك لا تُقاس بالسيف وحده، بل بما يتركه السيف من خوف، وما يتركه الحجر من ذاكرة.

وفي تلك السنوات كانت مصر في عهده دولة هائلة النفوذ، تمتد قوتها إلى الجنوب، وتنافس القوى الكبرى في الشرق، وتدخل في صراع طويل مع الحيثيين على مناطق النفوذ في بلاد الشام.

وفي قلب هذه الدولة عاش رمسيس سنوات المجد.

لم يكن يجلس في قصره كملك شرقي تحيط به المتعة والحرس فقط، بل كان محاطًا بجهاز كامل من الرجال الذين يديرون إمبراطورية؛ كتبة يسجلون الضرائب والمحاصيل، وقادة عسكريون يخططون للحملات، وسفراء يحملون رسائل مختومة، وكهنة يفسرون إرادة الآلهة، وحرفيون يبنون للملك ما سيبقى بعد رحيله، وطبيب يفحص جسده، وفلكي يراقب السماء، وساحر يحرس الحدود التي لا تستطيع الجيوش حمايتها.

كان القصر عالمًا قائمًا بذاته.

في الصباح، كان الخدم يفتحون الأبواب قبل أن تشتد حرارة الشمس، ويمر الكتبة في الممرات حاملين ألواحهم ولفائفهم، بينما الحرس يقفون في أماكنهم كأنهم جزء

من هندسة القصر. وكانت القرارات تصل من قاعة إلى أخرى، من الفرعون إلى الوزير، ومن الوزير إلى الكاتب، ومن الكاتب إلى الموظف، حتى تتحول الكلمة الملكية إلى ضريبة، أو جيش، أو بناء، أو إعدام، أو عفو.

لكن أعظم سلطة في مصر لم تكن تعني أن رمسيس كان يعيش بعيدًا عن الآلهة. على العكس.

كان الفرعون، في العقيدة المصرية، وسيطًا بين البشر والآلهة، وكان عليه أن يحافظ على التوازن بين العالمين. وكانت المعابد تمتلك من النفوذ والثروة والمعرفة ما يجعلها قوة لا يستطيع الملك تجاهلها.

وكان الكهنة يعرفون ذلك.

وكان رمسيس يعرف أنهم يعرفون.

ولهذا كان القصر والمعبد يتقاطعان باستمرار؛ أحيانًا في الطقوس، وأحيانًا في السياسة، وأحيانًا في الأسرار.

وفي إحدى تلك الزوايا الخفية من الدولة، كان يعيش رجل لم يكن اسمه معروفًا بين عامة المصريين.

إنه حورمحب.

ولم يكن قائدًا للجيش، ولا وزيرًا، ولا أميرًا.

كان أعظم السحرة في مصر.

كهلًا في أواخر الخمسين من عمره، نحيل الجسد على نحو يوحي بأن جسده نفسه قد صار تابعًا لعقله. طويل الأصابع، دقيق اليدين، ذو وجه ضيق تبرز فيه عظام الخدين، وجبهة عالية تتراجع عند جانبيها خصلات شعر أسود بدأت تخالطها خيوط رمادية. أما عيناه فكانتا أكثر ما يثير القلق فيه؛ سوداوان، غائرتان قليلًا، ثابتتان بطريقة تجعل من ينظر إليهما يشعر بأن

الرجل لا يرى وجهه، بل يبحث عما خلفه.

كان يرتدي ثوب الكهنة الأبيض بعناية شديدة، لا تجعله يبدو متأنفًا بقدر ما تجعله يبدو منضبطًا. لم يكن يحب الحلي، ولا الذهب، ولا المظاهر التي يتنافس عليها رجال القصر. وكان قليل الكلام أمام العامة، لا يرفع صوته إلا نادرًا، ولا يضحك

إلا ابتسامة قصيرة لا تكشف شيئاً عما يدور في رأسه.

لكن الذين عرفوه عن قرب كانوا يعرفون أن هدوءه لم يكن دليل طيبة.

كان حورمحب شديد الذكاء، عنيداً، صبوراً إلى حد مخيف، ومصاباً بنوع من الكبرياء العقلي جعله يرى نفسه مختلفاً عن بقية البشر. لم يكن يهتم بالثروة، وكان يرى السلطة السياسية شيئاً مؤقتاً لا يستحق أن يبدد الإنسان حياته في طلبه. وكان يزدرى السحرة الذين يستخدمون معرفتهم لإخافة الناس أو ابتزازهم.

كما كان واسع المعرفة، هائل الإمكانيات، لذا لقب في زمنه بعظيم السحر وهي رتبة لا تمنح إلا لقلة قليلة من الكهنة الذين يجسدون إله المعرفة والحكمة والسحر ( **تحوت** ) على الأرض.

لكن عيبه الأكبر كان شيئاً آخر.

لم يكن يستطيع الاعتراف بوجود حدود لمعرفة الإنسان.

كان يقدر المعرفة.

وكان يمقت الجهل.

وكان يعتقد أن الآلهة لم تمنح الإنسان العقل كي يبقى خائفاً من أسرارها، بل كي يقترب منها.

ولهذا كان يقضي ساعات طويلة في غرفته الخاصة داخل أحد بيوت الكهنة، يحيط نفسه بالبرديات والأوعية الحجرية والأعشاب المجففة والعظام البشرية وأجزاء الحيوانات المحنطة وأدوات الجراحة وأوعية صغيرة تحتوي سوائل لا يعرف أحد تركيبها.

وكان يحتفظ بدفتر لا يراه أحد.

لم يكن دفترًا بالمعنى المعروف، بل مجموعة من اللفائف الصغيرة، كتب عليها بخط شديد الدقة ملاحظاته عن الجسد.

كتب عن القلب.

وعن الدم.

وعن التنفس.



وعن الحرارة التي تغادر الجسد بعد الموت.  
وعن العينين اللتين تفقدان لمعانهما.  
وعن الجلد الذي يتغير.  
وعن الروائح التي تبدأ بعد ساعات من توقف الحياة.  
وعن شيء آخر أكثر غموضًا، شيء سماه في إحدى اللفائف :  
«اللحظة التي تغادر فيها روح الإنسان جسده.»

كان هذا السؤال يطارده منذ شبابه.  
متى يموت الإنسان؟  
هل يموت عندما يتوقف القلب؟  
أم عندما ينقطع النفس؟  
أم عندما تتوقف حركة الدم؟  
أم أن الموت يحدث قبل ذلك أو بعده؟  
وإذا كان الجسد يستطيع أن يحتفظ بشكله بعد الموت، فلماذا لا يستطيع أن يحتفظ بالحياة؟  
كان السؤال بالنسبة إلى رجل عادي فلسفة، أما بالنسبة إلى حورمحب، فقد أصبح مرضاً.  
بدأ يدرس المومياوات القديمة. كان يفتحها سرًا، يدرس الأعضاء، يقارن بينها، يفحص القلب، والرئتين، والكبد، والدماغ، والجلد، والعظام.  
ثم بدأ يدرس المرضى الأحياء.  
كان يسجل درجات الحرارة، ويتابع النبض، ويراقب التنفس، ويبحث عن اللحظة التي يتغير فيها الجسد قبل الموت.  
وكان كلما ازداد علمه ازداد يقينه بفكرة واحدة :  
الموت ليس قوة واحدة.  
الموت سلسلة.

حلقة تتبع حلقة.

شيء ما يربط الروح بالجسد، وإذا استطاع الإنسان أن يعرف ذلك الرابط، فربما يستطيع أن يمنع انقطاعه.

في البداية لم يكن يريد الخلود، كان يريد الفهم.

ثم تحول الفهم إلى طموح.

ثم تحول الطموح إلى هوس.

ثم أصبح الهوس عقيدة.

كان حورمحب يؤمن أن الآلهة أخفت عن البشر سرًا عظيمًا، وأن بعض الكهنة عرفوه ثم أخفوه خوفًا من أن يفقدوا سلطتهم. وكان يعتقد أن المصريين أمضوا آلاف السنين يبحثون عن الحياة بعد الموت، بينما كان الجواب أمامهم داخل الجسد نفسه.

قال في إحدى لياليه لتلميذه الوحيد، «نخت»:

- لماذا نُبقي الجسد حين يموت صاحبه؟

لم يفهم التلميذ السؤال فأجابه دون تأكد.

- لكي تعود إليه ال ( با ) في قبره.

ابتسم حورمحب.

- هذا ما يقولونه.

- أليس صحيحًا؟

رفع الساحر عينيه إليه.

- إذا كانت الباطنية تستطيع العودة إلى الجسد، فلماذا تغادره أصلًا؟

ساد الصمت للحظات، ثم اقترب حورمحب من مومياء صغيرة موضوعة

فوق طاولة حجرية.

- نحن لا نعرف أين يبدأ الموت يا نخت.

وأشار إلى الجسد.

- ولذلك لا نعرف أين يمكن إيقافه.

كان ذلك هو اليوم الذي بدأ فيه مشروعه الحقيقي :

لم يعد يبحث عن علاج للموت.

كان يبحث عن **إكسير الخلود**.

لم يكن إكسيرًا ذهبيًا كما تصفه الحكايات التي ستولد بعد آلاف السنين، بل مركبًا معقدًا من مواد نباتية ومعدنية ومواد مستخرجة من أجساد الموتى، ممزوجة بطقوس يعتقد أنها تستطيع تثبيت الروح في الجسد.

كان حورمحب يؤمن أن الجسد إذا أمكن حفظه، والدم إذا أمكن إبقاؤه في حركة، والقلب إذا أمكن منعه من الانطفاء، والروح إذا أمكن تقييدها داخل الجسد، فإن الموت سيصبح مجرد حالة مؤقتة.

لكن تجاربه لم تكن ناجحة :

كان بعض الحيوانات يموت بعد ساعات.

وبعضها يعيش يومًا أو يومين ثم يتحول إلى كتلة خاملة.

ثم بدأ يستخدم البشر، وكان ذلك خرقاً كبيراً لتقاليد الفراعنة وقوانينهم.

لم يكن يخطف الناس من الشوارع، كان يختار المحتضرين الذين لا يسأل عنهم أحد؛ عبيد، أسرى، مجرمين وأحياناً مرضى يائسين.

وكان يسجل النتائج.

في إحدى اللفائف كتب :

«الجسد يستطيع أن يحتفظ بحرارته بعد توقف القلب، لكن الحرارة لا تعني الحياة.»

وفي أخرى:

«القلب ليس سيد الجسد وحده.»

وفي ثالثة:

«هناك شيء غامض آخر.»

وكان ذلك الشيء هو ما أُرعبه. لأنه كلما اقترب من الموت، شعر أن هناك لحظة لا يستطيع العلم ولا السحر الوصول إليها؛ لحظة يصبح فيها الجسد

جسدًا فقط.

وكانت تلك اللحظة بالنسبة إليه إهانة.

فلم يقبل حورمحب بفكرة أن الإنسان يموت لأن الآلهة قالت ذلك.

كان يريد أن يثبت أن الموت قانون يمكن كسره.

وفي إحدى الليالي، عثر في مخزن قديم تابع للمعبد المركزي على بردية بالغة القدم، أقدم من معظم النصوص التي كان يعرفها. كانت تتحدث عن طقس لا يذكره الكهنة في التعاليم العامة. طقس يمكن استخدامه، بحسب النص، من أجل : «إغلاق الروح داخل مسكنها». ولم يكن قد استخدم من قبل أبداً.

قرأها مرة.

ثم مرة ثانية.

ثم قضى سبع ليال لا ينام.

وعندما انتهى من ترجمتها، عرف أنه وجد ما كان يبحث عنه.

لكن النص حذره أيضاً.

كانت هناك جملة واحدة مكررة ثلاث مرات :

«من يحاول أن يمنع الروح من عبور البوابة، يجعل جسده سجنًا لها.»

لكنه لم يتراجع.

بل شعر أن التحذير نفسه دليل على صحة ما قرأ.

إذا كان هناك تحذير من فتح الباب، فلا بد أن هناك بابًا.

وإذا كان هناك باب، فلا بد أن هناك طريقة لإغلاقه.

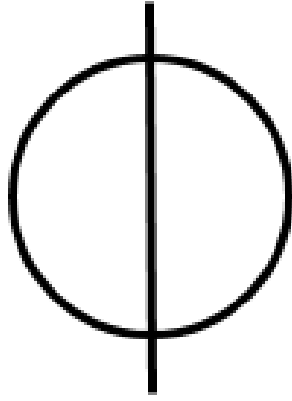
وهكذا بدأ حورمحب التجربة الأخيرة.

كانت في غرفة تحت الأرض، بعيدة عن المعبد، بعيدة عن القصر، بعيدة حتى عن تلاميذه.

هناك أعد خليطًا أسود اللون، وضعه في أوعية حجرية، وأشعل حولها سبع مصابيح.

ثم وضع أمامه جسد رجل يحتضر.  
كان الرجل في الأربعين تقريباً، ولم يكن يعرف شيئاً عن التجربة.  
راقب حورمحب نبضه.  
كان ضعيفاً.  
ثم أضعف.  
ثم توقف.  
اقترب الساحر من الجسد ووضع يده على صدره.  
كان بارداً.  
هنا بدأ بقراءة تعاويذ البردية عليه بحذافيرها.. وما إن انتهى من تلاوتها حتى حدث شيء لم يكن يتوقعه.  
ارتفع صدر الرجل مرة واحدة، نفس عميق، ثم ارتفع مرة ثانية.  
تراجع حورمحب بدهشة.  
فتح الرجل عينيه، نظر إليه ولم يتكلم.  
لكن حورمحب رأى في عينيه شيئاً جعله يتجمد. لم تكونا عيني رجلٍ عادٍ إلى الحياة، كانتا عيني شخصٍ آخر، شخصٌ يرى شيئاً لا يراه من أمامه.  
ثم فتح الرجل فمه وقال بصوت لم يكن يشبه صوته :  
- أعدني.  
اقترب منه حورمحب ببطء.  
- إلى أين؟  
أجاب الرجل برجاء:  
- إلى حيث كنت. من يغادر الجسد إلى هناك لن يرغب أبداً بالعودة إليه.  
ثم توقف قلبه وهذه المرة إلى الأبد.  
لم يشعر حورمحب بالخوف، بل شعر بالنصر.  
كان قد اقتنع أنه اقترب من السر، لكن السر كان أكثر ظلمة مما ظن.

ففي الأيام التالية تغيرت الأمور :  
بدأت الحيوانات التي تعيش في غرفة التجربة بالموت دون سبب.  
ثم مرض أحد مساعديه.  
ثم بدأ نخت يسمع أصواتًا ليلية في الممرات.  
وفي إحدى الليالي وجد حورمحب شيئاً لم يستطع تفسيره :  
كان قد أغلق غرفة التجربة بنفسه، وعندما عاد في الصباح وجد على الجدار، فوق  
الرماد مباشرة، علامة لم يرسمها أحد :  
دائرة يتوسطها خط عمودي.



وتحتها ثلاث كلمات:

«الموت لا يُهزم.»

وللمرة الأولى شعر حورمحب بالخوف.  
لكنه لم يتوقف.  
كان قد تجاوز النقطة التي يستطيع الإنسان عندها العودة إلى الوراء.  
ولم يكن يعلم أن هناك من كان يراقبه. فالكهنة بدأوا يشكون. في البداية بسبب  
اختفاء المواد الطبية، ثم بسبب السجلات، ثم بسبب المرضى الذين اختفوا، ثم بسبب  
إحدى اللفائف التي عثر عليها أحد الكتبة بالصدفة.  
وحين وصلت أخبارها إلى الكاهن الأكبر، لم يصدقها.  
لم يكن الأمر يتعلق بالسحر، فالسحر نفسه كان جزءاً من الحياة الدينية المصرية.

كان الأمر يتعلق بشيء أخطر.

حورمحب كان يحاول استخدام السحر ضد النظام الذي يحكم علاقة الإنسان بالموت وبالآلهة. كان يحاول أن يجعل نفسه سيدًا على شيء لم يكن حتى الفرعون سيدًا عليه : الموت.

لذا رفع الكاهن الأكبر الأمر إلى القصر.

قرأ رمسيس الوثائق بنفسه.

لم يتحدث في البداية.

كان جالسًا في قاعة واسعة، تحيط به تماثيل الآلهة، بينما وقف الكهنة والكتبة والقادة أمامه.

ظلّ وجهه ساكنًا، لكن سكونه لم يكن هدوء رجلٍ لا يعنيه الأمر. كان من ذلك النوع الذي يجعل القاعة كلها تصمت؛ فغضبه، حين يأتي، لا يحتاج إلى صوت مرتفع. ظل يمرر عينيه على اللفائف واحدة تلو الأخرى، ثم رفع رأسه ببطء، وقال :

- هل فعل كبير السحرة ما ذكر في الوثائق بشكل مؤكد؟  
أجاب الكاهن الأكبر:

- نعم، يا مولاي.

- وهل استعمل اسم الآلهة؟

- استعمل أسماءهم في طقوسه.

صمت رمسيس للحظات ودماغه يمزغ المعلومات الخطيرة. ثم سأل أخيراً:

- وهل حاول أن يمنع محتضراً من الموت؟

أجاب الكاهن:

- أجل .. حاول أن يجعل الموت عاجزاً وهو سيد عليه ولو لمرة.

رفع رمسيس رأسه.

كانت تلك العبارة هي التي حسمت الأمر. ففي مصر، لم يكن تحدي الموت مجرد جريمة ضد القانون. كان تحدياً للنظام الكوني نفسه.

أمر الفرعون بإحضار حورمحب مقيداً، فجاء الساحر دون مقاومة.

دخل القاعة مرتدياً ثوبه الأبيض ، ولم ينحن كما انحنى الآخرون.



كان رمسيس جالساً على عرشه أمامه، وبين الرجلين بدت المسافة أقصر من أن تكون مسافة ملك وساحر، وأبعد من أن تكون مسافة رجلين عرف أحدهما الآخر لسنوات.

رفع رمسيس عينيه إليه. وكان في وجه الساحر شيء تغير منذ آخر مرة رآه فيها؛ هزال أكثر، وعينان أكثر عمقاً، وهدوء مصطنع يخفي خلفه توترًا شديدًا. ومع ذلك لم ير رمسيس في ملامحه خوفًا. رأى شيئاً آخر: ذلك الكبرياء البارد الذي لم يكن يملكه إلا رجل بدأ يصدق أن معرفته بدأت ترفعه فوق الآخرين.

قال رمسيس بحزم :

- لماذا خنتني وخنت آلهتنا أيها الساحر؟

أجاب حورمحب بنبرة باردة :

- لأن الموت ظالم.

- الموت قانون.

- القوانين من صنع الآلهة، والمعرفة منحها الآلهة لنا.

- وأنت تظن أنك تستطيع تغيير ما صنعوه؟

ابتسم حورمحب بثقة.

- أظن أن الآلهة لا تخاف من الأسئلة.



نظر إليه رمسيس طويلاً. ثم قال:

- وأنا لا أخاف من الأسئلة أيضاً.  
سكت لحظة ثم أردف.

- لكنني أخاف من الرجل الذي يقتل كي يجد جواباً. الموت حقّ وعبور إلى عالم أفضل. وأنت تعرف عقوبة من يتمرّد على قوانين السماء ويحاول ترويض الموت المقدس ليمنح نفسه الخلود.

لم يرد الساحر، فقد كان يعرف أن كل شيء انتهى.  
وبالفعل صدر الحكم، لكنه لم يكن كما توقع. لم يأمر رمسيس بقطع رأسه، ولم يأمر بإعدامه، ولم يأمر حتى بنفيه.  
كان الحكم أكثر قسوة.

قال رمسيس:

- أنت قضيت حياتك تحاول أن تهزم الموت.  
ثم نظر إلى الكهنة.

- فليعط ما طلبه.  
لم يفهم أحد في القاعة ما عناه.  
ثم أكمل:

- سيُحنط.  
ارتفعت الهمسات ونظر الكاهن الأكبر إلى الفرعون بذهول.

- وهو حي؟  
أوماً رمسيس:

- وهو حي. ألقوا عليه تعويذة ( حبس الروح في الجسد الميت ) كي يبقى حياً وميتاً للأبد.  
للحظة بدا أن الكهنة بذاتهم ترددوا، فهذه هي المرة الأولى التي يحرم فيها فرعوني من الموت في سابقة لم يشهدها أسلافهم قط.  
لكن رمسيس لم يغير قراره وقال بحزم.

- لقد جعل من أجساد الموتى أدوات لتجاربه كي يمنح جسده الخلود ويحرم غيره من العبور، وسيعرف الآن معنى أن يتحول الجسد إلى سجن ويمنع من العبور إلى العالم الآخر.

اقتيد حورمحب إلى غرفة التحنيط. وهناك، للمرة الأولى، لم يكن هو الساحر. لم يكن سيد الكلمات.

لم تكن التعاويذ في يده.

كان جسده هو الذي سيخضع للطقس الذي طالما درس أسرارهِ.

كان يعرف كل خطوة، وكان ذلك هو الجزء الأكثر رعبًا.

عرف متى سيُغسل بدنه.

ومتى ستُستخدم المواد الحافظة.

ومتى سيُلف جسده.

ومتى سيصبح التنفس أصعب فأصعب حتى يهدم.

ومتى تبدأ الحواس في الانطفاء.

وعندما بدأ الكهنة الطقس، أدرك حورمحب أن ما اعتبره طوال حياته علمًا للخلود لم يكن سوى معرفة ناقصة بالموت.

حاول أن يتكلم.

تلا تعاويذ.

صرخ بأسماء الآلهة.

ثم بدأ يضحك، ضحكة قصيرة، مكسورة، وقال للكاهن:

- أنتم تخافون مما لا تفهمونه.

أجابه الكاهن:

- وأنت قتلت لأنك توهمت أنك فهمته.

ثم أغلقت اللفائف حول جسده. طبقة بعد طبقة، حتى لم يبقَ من وجهه إلا العينان والفم.

وفي اللحظة الأخيرة، نظر إلى الكاهن وصرخ:

- لن أموت، فالإنسان الذكي يسبق الآخرين بخطوة على الدوام.  
لم يجبه أحد.

أُغلقت العينان.

أُغلق الفم.

اكتمل الجسد.

وأخيراً ..

اجتمع الكهنة حوله في دائرة وألقوا عليه تعويذة حبس الروح في قفص الجسد،  
ورسموا على كفنه الموميائي طلاس ورموز بلغة غريبة غير فرعونية..

ثم وُضع جسده داخل تابوت بلا اسم.

وبأمر من رمسيس، أخذ التابوت إلى مكان لا يعرفه إلا عدد قليل من رجال القصر  
والكهنة.

لم يُسجل اسم حورمحب في السجلات الرسمية.

لم يُذكر أنه مات.

لم يُذكر أنه عوقب.

وكان مصر نفسها قررت أن تمحو الرجل من أرشيف الزمن.

لكن الكهنة احتفظوا ببردياته، احتفظوا بتجاربه، احتفظوا بالوصف، و احتفظوا  
بسر الجريمة.

أما رمسيس، فقد مضى في حياته.

بنى المعابد.

قاد الجيوش.

استقبل السفراء.

وأقام تماثيله في الحجر.

وظل اسمه حياً لآلاف السنين.

لكن شيئاً واحداً لم يعرفه المؤرخون الذين سيأتون بعده :  
أنه في مكان ما، تحت طبقات من الصمت، كان هناك تابوت لرجل لم يمت بالطريقة  
التي يموت بها الناس.

رجل أراد أن يهزم الموت.

فعاقبه الفرعون بأن جعله يعيش آخر لحظات حياته داخل جسد محنط سينبض  
قلبه ببطء بين فترةٍ وأخرى حتى نهاية الزمن كما شاءت الطلاسم والتعاويذ. فلا  
هو حي خالد ولا هو ميت عابر إلى العالم الآخر. بل رجلٌ حرم من العالمين.  
ومنذ ذلك اليوم، لم يعد حورمحب ساحراً.

أصبح سراً.

سرٌّ سينتظر آلاف السنين حتى يعثر عليه طبيب مصري.

لأن قصة عظيم السحر لم تنتهِ بعد ...

لقد ترك وراءه شيئاً آخر.

مومياء.

وكتابة غريبة.

وبردية.

وعلامه.

وجسداً يحمل في داخله السؤال الذي لم يستطع أحد الإجابة عنه :

ماذا يحدث للروح إذا أُغلق عليها الجسد بعد أن يموت؟

# الفصل السابع

## الفصل الثامن

الليل في الأقصر لا يشبه الليل في أي مكان آخر.

وإسماعيل أحسّ بذلك منذ الأيام الأولى التي وصل فيها إلى طيبة، لكنه في تلك الليلة شعر به للمرة الأولى كما لو أنه اكتشف شخصي، شيء لا يمكن أن تشرحه كتب التاريخ ولا خرائط الجغرافيا. الليل هنا أقدم من المدن التي نامت تحته، وأقدم من المعابد التي ظلت أعمدتها صامدة في الظلام، وأقدم حتى من الأسماء التي أطلقها البشر على الآلهة. النيل وحده يعرف عمره الحقيقي، لذلك بدا لإسماعيل وهو جالس على ضفته أن الماء لا يجري أمامه من الجنوب إلى الشمال، بل يسحب معه آلاف السنين في تيار واحد، يحمل وجوه الذين عاشوا وماتوا، وأصواتهم، وأحلامهم، وخطاياهم التي ظنوا أن الرمال ستدفنها إلى الأبد.

كان جالساً على مقعد خشبي منخفض قرب الماء في أحد المقاهي المتناثرة على ضفتي النيل، وقد أمسك بيده خرطوم الشيشة. الفحم يتوهج في هدوء، وكلما سحب نفساً طويلاً ارتجف الضوء الأحمر في جوفها، ثم خرج الدخان من فمه بطيئاً كثيفاً، وتلاشى فوق سطح النيل كأنه ضباب صغير لا يريد أن يفارق صاحبه. لم يكن المكان مزدحماً.

كانت الأضواء القليلة تتناثر مثل نقاط بعيدة على امتداد الضفة، ويصل من ناحية المدينة أحياناً صوت محرك، أو ضحكة عابرة، أو نداء رجل لم يستطع الليل أن يخفيه تماماً. أما أمامه فيمتد النيل في غياهب الليل أسود فاحم إلا من شرائط فضية تركها القمر على سطحه. والرياح تداعب سطح الماء فتدفع برائحة النهر الرطبة إلى الضفاف، مختلطة برائحة الدخان والتربة والنباتات النهرية.

رفع إسماعيل رأسه نحو الضفة الغربية.

هناك، في الظلام، تقبع الجبال الصخرية حارسةً لأرض الموتى. وادي الملوك.

المقابر.

المعابد الجنائزية.

والأسرار التي دفنها المصريون تحت الصخور وهم على يقين بأن الزمن، مهما طال، سيبقى حارساً أميناً لها.

ابتسم ابتسامة باهتة.

لم يكن الزمن أمينًا.

كان فضوليًا.

فما إن يجد سرًا حتى يظل يدفعه ببطء نحو السطح، قرنًا بعد قرن، حتى يعثر عليه شخص لا يعرف لماذا اختير هو بالذات ليكون شاهدًا عليه.

أخذ نفسًا آخر من الشيشة، ثم أسند ظهره إلى المقعد وأغمض عينيه.

منذ رأى قلب المومياء ينبض للمرة الأولى، لم يعد يستطيع النظر إلى القضية بوصفها مسألة أثرية.

في البداية حاول أن يجد تفسيرًا طبيًا.

ثم تفسيرًا فيزيولوجيًا.

ثم تفسيرًا كيميائيًا.

ثم تفسيرًا يتعلق بالضغط داخل التجويف الصدري، أو بتحريك الغازات، أو بانقباض متأخر في الأنسجة، أو بأي ظاهرة نادرة يمكن أن تمنح الجسد الميت حركة تشبه الحياة.

لكن تفسيراته كلها كانت تتبخر في الفضاء .

فذلك النبض - مهما حاول خداع نفسه - كان حقيقياً تماماً، ولم يكن عشوائياً البتة.

لم يتصرف القلب كعضلة ميتة، بل كشيء ينتظر .. ينتظر إشارة.

شرد إسماعيل للحظات طويلة قبل أن يفتح عينيه، ثم قال لنفسه بصوت منخفض:

- رجل المومياء ليس حيًا.

ظل ينظر إلى عتمة النيل ثم تمتم :

- لكنه لم يُترك ليموت.

انبثقت الجملة في خياله فجأة، لكنها بدت له وكأنها كانت تختبئ في مكان ما داخل عقله منذ أيام.

أعادها في ذهنه.

( لم يُترك ليموت. )

إذا كان هذا صحيحًا، فكل شيء يتغير.

لم تكن المومياء وفق معلومات البردية مجرد جثة حُنطت بطريقة غريبة.  
ولم تكن حالة طبية استثنائية.  
ولم تكن حتى محاولة بدائية للخلود.  
ربما كان ما حدث للرجل عقوبة. عقوبة مصممة بحيث تمنعه من الموت الطبيعي،  
وفي الوقت نفسه تمنعه من الحياة.  
أن يبقى عالقًا بين الضفتين.  
أن يحتفظ جسده بحد أدنى من الحركة، وأن يبقى قلبه قادرًا على النبض، لكن من  
دون أن تعود إليه حياة كاملة.  
رفع إسماعيل عينيه إلى السماء. كان البدر قد ارتفع فوق النهر، واختفى للحظة  
خلف غيومٍ رقيقة، ثم خرج منها أبيض فضياً.  
فكر في السؤال الذي أخافه أكثر من كل الأسئلة الأخرى :  
لماذا؟

لماذا يعاقب إنسان بهذه الطريقة؟  
القتل يمكن فهمه.  
السجن يمكن فهمه.  
النفى يمكن فهمه.  
حتى التعذيب، مهما كان وحشيًا، يمكن فهم منطقته البشري.  
لكن أن تمنع رجلًا من الموت؟  
أن تحفظ جسده عمدًا؟  
أن تجعله يعيش داخل جثة؟  
أن تترك قلبه ينبض مرة بعد مرة، بعد قرون وألفيات؟  
هذه ليست عقوبة هدفها الألم وحده.  
إنها عقوبة تستهدف العبور، وعلى نحوٍ أكثر دقة : منع العبور.  
بدأت الصورة تتشكل في ذهنه :



في مصر القديمة، الموت لم يكن نهاية بسيطة. كان طريقًا، رحلة، بوابة، محاكمة، ثم عبورًا إلى عالم آخر.

وكانت كل الطقوس التي درسها تقريبًا تدور حول مساعدة الميت على إكمال هذه الرحلة.

حتى كتاب الموتى نفسه، الذي طالما قرأ عنه، لم يكن كتابًا عن الموت بقدر ما كان دليلًا للموتى؛ نصوص وتعويدات وصلوات تساعد الروح على اجتياز المخاطر، ومعرفة الأسماء، وفتح الأبواب، والوصول إلى المكان الذي تستحقه.

لكن ماذا لو أراد أحد أن يعاقب رجلًا بمنعه من هذه الرحلة؟

ماذا لو كانت هناك عقوبة أقدم من فكرة السجن نفسها؟

أن يُمنع الميت من أن يصبح ميتًا.

أن تبقى الروح قريبة من الجسد.

أن يُغلق الباب الذي ينبغي أن تعبر منه.

شعر إسماعيل بقشعريرة باردة تسري في ذراعيه رغم دفء تلك الليلة.

ثم تذكر اللقائف.

والعلامات.

والنبض.

والكتابة الأجنبية على الكفن.

كلها بدت الآن أجزاء من شيء واحد.

تمتم مجددًا:

- إنها ليست مومياء.

ثم سكت.

- إنها سجن.

شعر بثقل العبارة.

لو كان استنتاجه صحيحًا، فإن الرجل الموجود داخل ذلك الكفن لم يكن قد مُنح الخلود، بل حُرِم من الموت.

وإذا كان هناك من تعمد أن يفعل ذلك به، فلا بد أن الرجل ارتكب شيئاً يستحق في نظرهم عقوبة تتجاوز القتل.

شيئاً شائناً.

شيئاً جعلهم لا يريدون أن يمنحوه حتى الرحمة الأخيرة.

لكن إسماعيل لم يكن يعرف بعد من هو الرجل.

ولم يكن يعرف أن الاسم الذي يبحث عنه مُحي عمداً. فالوثائق التي عثر عليها أشارت إلى ساحر، إلى طقس، إلى جريمة، إلى لعنة، لكنها لم تبج باسم.

حورمحب.

كان الاسم غائباً.

محذوفاً.

وكأن أحداً تعمد أن يقتلع الاسم من التاريخ، لأن ذكر الاسم لوحده قد يكفي لإعادة فتح الباب الذي أغلقوه بتعاويذهم.

أخذ إسماعيل نفساً طويلاً من الشيشة.

ثم أطفأ الفحم.

وقف. وقبل أن يغادر، التفت مرة أخرى إلى النيل. لم يعرف لماذا شعر أن ثمة وجهاً محبوساً تحت مياهه ينظر إليه. ربما كان ذلك وهمًا، وربما كان مجرد التعب. لكن الفكرة التي خطرت له وهو يبتعد عن الضفة لم تكن وهمًا:

إذا كان هناك رجل محبوس منذ آلاف السنين، فإن السؤال الحقيقي لم يعد:

من هو؟

بل:

كيف نطلق سراحه؟

عاد إسماعيل إلى غرفته بعد منتصف الليل.

كانت الغرفة غارقة في الظلام إلا من ضوء المصباح الصغير فوق المكتب. وضع هاتفه أمامه، ثم جلس وفتح الصور التي التقطها للموميا.

كَبّر الصورة، ثم كَبّرْها أكثر، فظهرت الألياف، ثم الخطوط، ثم الرموز.  
كان قد اعتاد رؤية تلك العلامات كشيء غريب لا ينتمي إلى النصوص المصرية  
التي يعرفها، لكن عينيه أصبحتا الآن أكثر حساسية لها.

همس بصوتٍ خافت:

- اللغة الإتروسكانية.

كانت الكلمة قد بدأت تلاحقه منذ اكتشافه الأول.

الإتروسكان.

حضارة قديمة في إيطاليا.

لغة غامضة.

نقوش كثيرة.

أبجدية معروفة جزئياً.

لغة لم تبقى منها أدبيات واسعة تساعد على فهمها كما نفهم اللغات الحية.

فتح الحاسوب وكتب في محرك البحث:

Etruscan translator.

ظهرت له نتائج كثيرة، لكنها لم تكن ما يبحث عنه.

مقالات.

مواقع أكاديمية.

قواميس صغيرة.

مشروعات لغوية.

برامج لتحويل الحروف.

لكن لا يوجد تطبيق ترجمة حقيقي يمكنه أن يرفع إليه صورة لنص إتروسكاني ثم  
يعطيه ترجمة مفهومة.

حاول البحث بطريقة أخرى.

Etruscan language translation app.

ثم:

.Etruscan OCR

ثم:

.Ancient Etruscan translator

ظل يبحث ويبحث.

لكنه لم يجد شيئاً.

فالإتروسكانية لغة قديمة شبه مندثرة، لا يتحدث بها أحد في العالم الحديث، ولا توجد لها قاعدة بيانات ضخمة تسمح لتطبيقات الذكاء الاصطناعي بالتعامل معها كما تتعامل مع الإنجليزية أو الإيطالية أو العربية أو اللغات الحديثة.

جلس في مقعده لدقائق وهو يفكر بحلول، ثم اقتحمت فضاء مخيلته صورة شخص قد يسعفه.

جيوفاني.

البروفيسور جيوفاني روسي، أستاذ اللغويات التاريخية في جامعة إيطاليا، وصديقٌ قديمٌ عرفه إسماعيل في مؤتمر قبل سنوات. كان جيوفاني من أولئك الأكاديميين الذين يستطيعون تحويل موضوع ميت إلى حديث حي؛ رجلاً في أواخر الستينيات، بشعر أبيض خفيف وحاجبين عريضين ونظارات مستديرة، وكان يتعامل مع اللغات القديمة كما يتعامل موسيقي مع آلة يعرف أسرارها.

لم يتردد.. التقط الهاتف من فوره واتصل به.

رن الهاتف طويلاً، ثم جاءه صوت واسن:

- دكتور إسماعيل؟

- نعم.

- هل تعرف كم الساعة؟

نظر إسماعيل إلى عقارب ساعته ودهش، فقال بحياء:

- أعتقد ذلك.

- وهذا يعني أنك تعرف أنك تتصل بي بعد منتصف الليل.

- أعتذر.

صمت جيوفاني للحظة ثم قال:

- إذن لا بد أن الأمر خطير.  
ابتسم إسماعيل رغم توتره.

- أحتاج مساعدتك في شيء.  
- ما هو؟

- الإيتروسكانية.

ساد صمتٌ ثقيل. وكان صمًا مختلفًا أيقظ جيوفاني تمامًا.

- ماذا قلت؟

- أحتاج إلى ترجمة نص إيتروسكاني.

- إنها لغة مندثرة منذ زمنٍ سحيق .. فمن أين حصلت عليه؟  
تردد إسماعيل، إذ لم يكن مستعدًا لإخباره بكل شيء.

- من مادة أثرية أعمل عليها.

- مادة أثرية؟

- أجل.

- وهل أنت متأكد أنها إيتروسكانية؟

- لهذا أتصل بك.

تنهد جيوفاني ببطء.

- أريد نسخة من الكتابة لأتأكد.

أرسل إسماعيل صورة كفن المومياء إليه وانتظر.

بعد أقل من دقيقة وصلته رسالة.

( إنها لغة إيتروسكانية بالفعل ! .. أين وجدت هذا؟ )

فكر إسماعيل قليلاً ثم كتب:

( هذا كفن مومياء مصرية .. )

( مومياء مصرية ! وما علاقة الإيتروسكانية بها ؟! )

( علينا ترجمة الكتابة كي نجيب على هذا السؤال )

( محق .. فالنص طويل ويحتاج إلى دراسة دقيقة. )

مرت لحظات صمت ثم كتب جيوفاني:

( انتظر. )

مرت دقائق أخرى، ثم تلقى اسماعيل ملفاً ففتحه.

كان عبارة عن نسخة إلكترونية من صفحات لكتاب قديم مصورة بدقة متواضعة، لكن العنوان واضح، والصفحات تحتوي على جداول للحروف والكلمات الإتروسكانية، مع مقابلاتها باللغة الإنجليزية.

| ETRUSCAN VOCABULARY<br>WITH ENGLISH TRANSLATION |                 |                 |                    |                 |                      |
|-------------------------------------------------|-----------------|-----------------|--------------------|-----------------|----------------------|
| Etruscan (letters)                              | Transliteration | English Meaning | Etruscan (letters) | Transliteration | English Meaning      |
| X A                                             | a               | to, towards     | ϕ M ϕ              | avl             | sea, ocean           |
| ϕ A                                             | b               | house, dwelling | ϕ M ϕ              | thur            | temple, sacred place |
| K X                                             | c               | and, with       | M M A              | ces             | priest               |
| X A                                             | d               | god, divine     | A A ϕ              | luth            | to learn             |
| ϕ A                                             | e               | to be, exist    | X ϕ X              | mar             | death (ritual)       |
| ϕ A                                             | f               | fire            | ϕ ϕ A              | sve             | secret               |
| H A                                             | g               | man, person     | X A A              | nal             | to bind              |
| ϕ X                                             | h               | sacred, holy    | M A A              | fera            | gate, door           |
| ϕ ϕ                                             | i               | life, living    | M M M              | keln            | night                |
| ϕ A                                             | k               | heart           | A ϕ ϕ              | vel             | sun                  |
| ϕ ϕ                                             | l               | water           | ϕ A ϕ              | tur             | journey              |
| X M                                             | m               | mother          | A ϕ ϕ              | zath            | curse, spell         |
| ϕ A                                             | n               | name            | ϕ M ϕ              | hars            | heart (as organ)     |
| Z X                                             | p               | earth, land     | A A ϕ              | pyl             | shadow               |
| ϕ M                                             | q               | sky, heaven     | ϕ X ϕ              | metha           | after, beyond        |
| ϕ ϕ                                             | r               | to go, travel   | ϕ Z ϕ              | talar           | to remain            |
| A A                                             | s               | soul, spirit    | ϕ ϕ ϕ              | ser             | blood                |
| ϕ X                                             | t               | time            | X ϕ X              | vul             | to protect           |
| ϕ ϕ                                             | u               | death           | M A A              | arvis           | life after death     |
| ϕ ϕ                                             | v               | see, know       | ϕ A X              | eth             | eternity             |
| X ϕ                                             | z               | return          |                    |                 |                      |

Note:

The Etruscan language is written from left to right. Some symbols may have multiple meanings depending on the context.



The Etruscans used this language primarily for rituals, sacred texts and secret knowledge. Many words remain uncertain and subject to debate among scholars.

كتب جيوفاني:

( هذه عينة من كتاب نادر جداً. حصلت على نسخة منه منذ سنوات. فيه الأبجدية الإتروسكانية، وعدد من الكلمات والعبارات مع مقابلاتها الإنجليزية، بالإضافة إلى

ملاحظات عن النقوش الطقسية. )

حدق إسماعيل في الشاشة.

( هل يمكن الاعتماد عليه؟ )

( لا توجد لغة قديمة يمكن الاعتماد عليها بهذه البساطة. لكن بالنسبة للنصوص القصيرة، ومع وجود سياق واضح، يمكن أن يساعدك كثيرًا. )

( وهذا يكفيني .. )

( على الأرجح كتبت هذه الكلمات على الكفن بعد قرون من تحنيط تلك المومياة )

( لا أعتقد ذلك .. لدي أدلة شبه مؤكدة تفترض أن ما كتب على كفن المومياة جزء من طقس مصري قديم، لكنه مكتوب بالإتروسكانية لسبب غامض. )

هذه المرة لم يأت الرد فورًا. مرت نصف دقيقة ثم كتب جيوفاني:

( أنت تعرف .. هذا شبه مستحيل جغرافيًا وتاريخيًا. )

( أعرف .. و هذا يقتضي ترجمة النص على الكفن كي نفهم السبب .. ولهذا أحتاج كتاب الترجمة. )

( سأرسل لك النسخة الكاملة، لكن لا تنشرها ولا تستخدمها تجاريًا. )

( أعدك. )

لحظات أخرى مرت ثم وصل ملف آخر وكان أكبر حجمًا.

فتح إسماعيل فظهرت الصفحة الأولى.

كتاب قديم، صفحات صفراء، حروف دقيقة، ملاحظات بخط يدوي على الهوامش، جداول للأبجدية، ثم كلمات متفرقة، وأمام كل كلمة مقابلها بالإنجليزية.

بدأ إسماعيل يقلب الصفحات. الحروف كانت غريبة، لكنها لم تعد غريبة تمامًا. لقد رآها من قبل على كفن المومياة وفي اللفائف.

وفجأة شعر بأن المسافة بين الماضي والحاضر بدأت تختفي.

لم يعد يقرأ عن الإتروسكان.

لقد كان يقترب من شيء تركه أحدهم خلفه منذ آلاف السنين. شيء كان من المفترض ألا يعثر عليه أحد.

وضع إسماعيل هاتفه إلى جواره، ثم فتح الصور التي التقطها للمومياة وكبر الصورة فظهرت الكتابة على الكفن. العلامات التي بدت له سابقاً مجرد نقوش غامضة، أخذت الآن شكلاً جديداً.

فتح الكتاب الإتروسكاني وبدأ يقارن.

حرفاً.

ثم كلمة.

ثم مجموعة كلمات.

كان الأمر بطيئاً.

شديد البطء.

فبعض الرموز لم يكن معناها واضحاً، وبعض الكلمات لم تكن معروفة إلا من نقوش قليلة، وبعضها كان موضع خلاف بين الباحثين.

لكنه كان يملك شيئاً لم يكن لدى كثير من دارسي اللغة الإتروسكانية.

السياق.

هو يعرف أن النص مرتبط بمومياة.

ويعرف أن المومياة تعرضت لعقوبة.

ويعرف أن هناك طقساً يمنع العبور.

ويعرف أن القلب لا يزال ينبض.

وكل ذلك يشكل إطاراً يسمح للكلمات الغامضة بأن تبدأ بالكلام.

بدأ بترجمة الكلمة الأولى.

ثم الثانية.

ثم الثالثة.

وهكذا ..



كانت الكتابة مقسمة بوضوح إلى مقطعين.  
لم يلاحظ ذلك في البداية، أما الآن فقد بدا الأمر واضحًا.  
المقطع الأول أطول، ويحمل صيغة أقرب إلى الشرح.  
أما المقطع الثاني فكان أقصر وأكثر تكرارًا، وكانت الكلمات فيه ذات طابع طقسي.  
اقترب إسماعيل من الشاشة.  
بدأ يترجم.

في البداية لم ير سوى جمل مبعثرة، ثم بدأ المعنى يظهر.

### **نحن الذين جئنا من البحر...**

ابتسم بثقة فقد بدأت المومياء تروي حكايتها ..  
تابع ..

### **من أرض الغرب البعيدة، وقبل أن تقوم لنا أرض عظيمة باسمنا، عبرنا الماء نحو أرض كيمنت...**

إذن فمجموعة من الإيتروسكان وصلت إلى مصر ( كيمنت بالهieroغليفية )، قبل  
قرون من ازدهار حضارتهم في إيطاليا.  
لم يكن النص يصف جيشًا، ولا غزوًا. بل كان يتحدث عن مجموعة صغيرة من  
الرجال، غرباء، بحارة، كهنة أو طلاب معرفة.  
ثم جاءت العبارة التالية.

### **دخلنا إلى مقابر الملوك بإذنٍ من كبير الكهنة، وتعلمنا أسرارها.**

شعر إسماعيل بأن أطراف أصابعه بردت.  
فالمقطع الأول يروي شيئًا يشبه التاريخ، لكنه لم يكن تاريخًا بالمعنى المعتاد. كان  
يقول إن أولئك الغرباء التقوا بكهنة مصريين، وإن بعضهم تعلم منهم أسرارًا لا  
تُعطى لعامة الناس. أسرار تتعلق بالروح، بالاسم، بالقلب، وبالطريق الذي تسلكه  
الروح بعد الموت.

ثم أتت عبارة أخرى جعلته يترك القلم.

**وقد استعانوا بلغتنا كي يحفظوا اللعنة حية إلى الأبد ... في طقس لم يُستخدم**

**لحفظ الموتى، بل لمنع الميت من العبور.**

ظل يحدق فيها بدهشة.

لم يعد هناك مجال كبير للشك.

المقطع الأول لم يكن التعويذة نفسها، بل كان يشرح لماذا كُتبت التعويذة بلغة غريبة.  
كان يشرح السبب.

واللغة الإيتروسكانية كانت المفتاح.

ليس لأن الكهنة المصريين لم يعرفوا لغتهم. بل لأنهم أرادوا أن يجعلوا الطقس خارج متناول الكهنة الذين قد يأتون بعدهم.

شرد إسماعيل في خياله لدقائق.

ثم فهم.

كانت الفكرة أكثر ذكاءً مما توقع :

الكهنة الذين نفذوا العقوبة كانوا يعرفون أن التعويذات يمكن أن تُنسخ.

وأن الكتب يمكن أن تنتقل.

وأن الأسرار التي تُكتب بالمصرية قد يستطيع كاهن آخر بعد قرون أن يقرأها، ثم يستخدم تعويذة مضادة لها.

لكن ماذا لو كتبت التعويذة بلغة غريبة؟

لغة لا يعرفها بقية الكهنة؟

لغة رجل غريب؟

لغة جماعة جاءت من وراء البحر؟

عندها يصبح النص مفهوماً لمن يعرف مفتاحه، لكنه محجوب عن الذين قد يحاولون فك اللعنة.

لم تكن اللغة مجرد وسيلة للكتابة، كانت جزءاً من السحر، بل كانت أساس السحر.

تمتم إسماعيل:

- لقد أخفوا المفتاح داخل القفل.

ثم عاد إلى النص.

كان المقطع الأول يقول، بمعناه العام، إن الكلمات وُضعت بلغة الغرباء كي تبقى بعيدة عن أيدي الكهنة في الأزمنة القادمة.

وكانت هناك إشارة واضحة إلى الخوف من أن يأتي يوم يُفتح فيه القبر، ويجد كاهن مصري اللفائف، فيقرأ الطقس، ثم يستخدم الكلمات المضادة لتحرير المعاقب. كانوا يخشون المستقبل.

الكهنة الذين صنعوا اللعنة لم يكونوا يفكرون في زمنهم، كانوا يفكرون في آلاف السنين القادمة.

لقد صنعوا عقوبة مصممة لتقاوم الزمن. لأن عودة حورمحب إلى الحياة قد تعني انتقامه مما حصل له بمحاولة الخلود وإهانة الموت المقدس مجدداً دون أن يردعه أحد ربما وقتها.

رفع إسماعيل عينيه إلى صورة المومياء، وللحظة بدا له أن الرجل داخل اللفائف ليس ميتاً. كان ينتظر.

ثم عاد إلى النص، وبدأ بالمقطع الثاني الذي كان مختلفاً تماماً.

لم يكن شرحاً كسابقه، بل كان طقساً، أمراً، تثبيتاً للحكم.

كانت الكلمات تتكرر بطريقة منتظمة، كأنها تُتلى بصوت عالٍ أمام جسد الرجل في لحظة تنفيذ العقوبة.

**ليُغلق الطريق الذي يفتح للموتى.**

**ليُحجب الاسم عن أبواب الغرباء.**

**ليلاقي القلب ظله ولا يفارقه.**

توقف. فقد كان هذا هو جوهر الحكاية.

ليس الموت.

ليس الحياة.

بل حالة ثالثة.

حالة لا تنتمي إلى أي منهما.

ثم ظهرت العبارة التي جعلته يتراجع في مقعده، إذ أثبتت صحة كل تحليلاته السابقة التي كشفتها بردية دير المدينة من قبل..

**لا تعبر.**

قرأها مرة.

ثم مرة ثانية.

لم يكن الأمر مجرد وصف.

كان أمرًا.

ثم تتابعت الكلمات.

**لا تتبع رع.**

**لا تقطع النهر.**

**لا تعبر مع القارب.**

**لا تسلك الطريق.**

كانت كل صورة من صور العبور التي عرفها المصري القديم تقريبًا تُغلق أمامه :

النهر.

الشمس.

القارب.

البوابات.

السماء.

العالم الآخر.

كلها أغلقت.

ثم ظهرت الكلمات الأخيرة. فقرأها إسماعيل ببطء شديد:

**ابق حيث تركناك.**

كانت الغرفة ساكنة على نحوٍ مخيف. ولم يسمع إلا صوت المكيف الخافت.

عاد إلى بداية النص.

قرأ المقطع الأول.

ثم المقطع الثاني.

ثم عاد إلى الصور.

ثم إلى الكتاب.

كان عليه أن يتأكد.

أعاد المقارنة بين الحروف. راجع الكلمات، تحقق من مواضعها. استخدم أكثر من احتمال للترجمة.

وفي كل مرة كان المعنى يعود إليه نفسه.

الكتابة لم تكن نصًا واحدًا.

كانت مقطعين.

الأول يشرح لماذا استخدم الكهنة لغة الإيتروسكان.

والثاني هو الطقس نفسه : طقس تثبيت العقوبة.

جلس إسماعيل طويلاً دون أن يرمش.

ثم فهم شيئاً آخر :

اللفائف لم تكن جزءاً من كتاب الموتى، كانت نقيضه.

كتاب الموتى يقول للروح:

اعبري.

أما هذه اللفائف فتقول:

**ابقي.**

كانت تلك الجملة وحدها كافية لتفسير كل شيء.

كل الرعب الذي شاهده منذ بداية التحقيق.

كل العلامات.

كل ما ظنه تناقضًا.

حتى القلب.

القلب لم يكن دليلًا على أن الرجل عاد إلى الحياة، كان دليلًا على أن العقوبة

ما زالت تعمل.

لقد مُنع من الموت الكامل.

ومُنِع من الحياة.

وبقي في المنطقة الفاصلة بينهما.

كان جسده ميتًا، لكن الطقس لم يسمح للقلب بأن يصبح ميتًا إلى الأبد.

نبضة بعد نبضة، على فترات بعيدة لا يفهمها الإنسان، كان السحر يعيد إعلان الحكم.

كأن الزمن نفسه أصبح جزءًا من السجن.

وفجأة انتبه إسماعيل إلى شيء آخر في الصورة. كانت هناك كلمة مكررة قرب نهاية الطقس.

عاد إلى جدول الكتاب وبحث عنها حتى وجد معناها :

**تثبيت اللعنة.**

لم تكن التعويذة تستدعي شيئًا، بل كانت تثبت شيئًا.

تثبيت حالة.

تثبيت الروح داخل الجسد.

تثبت الجسد خارج الموت الكامل.

تثبت القلب في دائرة لا تنتهي.

أدرك إسماعيل أن الكهنة لم يكونوا بحاجة إلى إعادة الطقس. وهذا يفسر لماذا لم تتأثر المومياة بعد آلاف السنين. لقد صُمم الطقس ليكون ذاتي الاستمرار. كان مثل ختم يوضع على باب، لا يحتاج إلى أن يلمسه أحد كل صباح كي يبقى مغلقًا. يكفي أن تكون الكلمات صحيحة، وأن يكون الحكم قائمًا، وأن يبقى الاسم محجوبًا.

وهنا أدرك إسماعيل أن محو الاسم لم يكن مجرد محاولة لمعاقة الرجل. كان جزءًا من حماية اللعنة. فالاسم، في التصور المصري القديم، يمكن أن يكون طريقًا إلى الشخص. إذا عرفت اسم الميت، أمكنك أن تخاطبه. وإذا خاطبته، أمكنك أن تصل إليه. أما إذا مُحي اسمه، فقد يصبح من الصعب

حتى تحديد من هو.

وبذلك أصبحت اللعنة محمية بثلاثة أبواب:

**جسد محنط.**

**اسم محو.**

**ونص مكتوب بلغة غريبة نادرة يجهلها الغالبية.**

ثلاثة أقفال على سجن واحد.

جلس إسماعيل أمام الشاشة، ووجهه شاحب، ثم تمت:

- لقد خططوا لكل شيء.

لكن من كان هذا الرجل؟

ولماذا استحق عقوبة بهذا الحجم؟

لم يعرف بعد.

كانت الإجابة موجودة في مكان ما بين الفراغات التي تركها الكهنة، وكان اسم حورمحب لا يزال غائبًا عن كل ما قرأه، لكن غيابه لم يعد يبدو له صدفة. فالاسم قد مُحي من البردية والسجلات، وكأن أحدًا أراد أن يمنع التاريخ نفسه من أن يتذكر صاحب هذه العقوبة.

نظر إسماعيل إلى صورة المومياء، ولأول مرة لم يرَ فيها وحشًا، بل رأى سجينًا. سجينٌ لا يعرف أحد لماذا سُجن، ولا يعرف أحد كم مضى على سجنه، ولا يعرف أحد كيف يمكن فتح الباب.

أغلق الحاسوب، لكنه لم يستطع إغلاق الفكرة.

ظل جالسًا في الظلام.

كانت صورة المومياء لا تزال مضيئة على شاشة هاتفه.

وجه الرجل كان ساكنًا، هادئًا، مغلقًا على سر عمره آلاف السنين.

لم يعد إسماعيل يخاف من أن تستيقظ المومياء، كان خوفه الآن أعمق. كان يخاف أن يكون الرجل واعيًا. أن تكون الروح التي حُبست في ذلك الجسد تعرف مرور الزمن. أن تكون قد عاشت آلاف السنين في الظلام، دون

صباح، دون ليل، دون صوت، دون موت.

فكر في معنى العقوبة.

لو كان الموت لحظة، لانتهى الأمر.

أما أن تُمنع من الموت، فذلك يعني أن الزمن نفسه يتحول إلى أداة تعذيب.

آلاف السنين.

جيل بعد جيل.

حضارة بعد حضارة.

ملوك يولدون ويموتون.

مدن تظهر وتختفي.

لغات تتغير.

آلهة تُنسى.

ومع ذلك يبقى الرجل في مكانه ينتظر.

وكل ما يملكه من دليل على أنه لم يُنسَ تمامًا هو تلك النبضة النادرة التي تحدث في جسد ميت كل قرنٍ من الزمن.



أحس إسماعيل بالخوف من شيء آخر أيضاً. ليس من المومياة، بل من الذين صنعوها.

لقد كان يعرف الفراعنة من الكتب، يعرفهم كحضارة عظيمة، مهندسين، أطباء، فلكيين، بناءة، وفنانين.

لكن ما وجده هذه الليلة أراه وجهًا آخر لهم. وجهٌ يؤمن بأن الكلمة يمكن أن تكون سلاحًا، وأن اللغة يمكن أن تكون قفلاً، وأن الطقس يمكن أن يعبر آلاف السنين، وأن الإنسان يستطيع أن يصمم عقوبة لمتهم لا ليوم أو سنة، بل إلى ما بعد حدود التاريخ نفسه، وهذا بحد ذاته مرعب لدرجة تفوق الوصف.

رفع إسماعيل الهاتف وفتح صورة النص مرة أخرى، ثم قرأ مجدداً آخر الكلمات :

### **ابق حيث تركناك.**

كان يشعر أن الجملة لم تعد تخص الماضي، وكأنها ما زالت تُقال الآن في متحف  
زغرب المركزي داخل تابوت المومياة.

وفي اللحظة نفسها، تخيل قلب المومياة ينبض.

نبضة واحدة.

ثم صمت طويل.

نبضة أخرى.

ثم صمتٌ آخر.

وضع يده على صدره. كان قلبه حيًا، منتظمًا، طبيعيًا. أما قلب الرجل الآخر، فكان يعيش داخل قانون لا يفهمه أحد.

تمتم بصوت خافت:

- كيف أوقف هذا؟

لم تجبه الغرفة.

نظر إلى صورة المومياة، ثم قال بحزن:

- كيف أُنحك الحرية؟

كان يعرف الآن أن تدمير اللفائف قد لا يكون كافيًا، وأن فك الطقس قد يكون أخطر من تركه، فاللعنة لم تُبْنَ على كلمة واحدة يمكن حذفها، لقد بُنيت على نظام كامل :

لغة.

اسم.

جسد.

قلب.

وذاكرة.

وكان عليه أن يجد العكس.

تعويذة تقول للروح ما يقوله كتاب الموتى :

اعبري.

لكن المشكلة أن الكهنة القدماء كانوا قد توقعوا ذلك.

ولهذا كتبوا اللعنة بلغة الغرباء.

ولهذا أخفوا مفتاحها.

ولهذا محوا الاسم.

ولهذا بقيت المومياء آلاف السنين دون أن يستطيع أحد تحريرها.

أغمض إسماعيل عينيه.

كان قد اتخذ قراره.

لن يكتفي بكشف اللعنة، سوف يبحث عن مفتاحها، وسوف يحاول كسرهما، حتى لو اضطره الأمر أن يتتبع أثر الكهنة الذين كتبوها، والإتروسكان الذين حملوا سرها، والرجل الذي محوا اسمه من التاريخ.

لأن السؤال لم يعد:

من هو صاحب المومياء؟

بل أصبح:

## كيف يمكن تحرير رجل عوقب بألا يحيا وألا يموت؟

في تلك اللحظة، شعر إسماعيل لأول مرة أن القضية لم تعد قضية أثرية. لقد أصبح هو نفسه جزءًا من الطقس. فمِنذ اللحظة التي قرأ فيها الكلمات، لم يعد السر مخفيًا، ولم يعد الحاجز الذي وضعه الكهنة قبل آلاف السنين كاملاً. كان هناك الآن شخص آخر يعرف. وكان ذلك الشخص يعرف أيضًا أن هناك روحًا تنتظر. وأن القلب الذي ينبض في جسد ميت لم يكن طلبًا للحياة. بل نداءً.

نداءٌ ظل يصعد من ظلمة القبر آلاف السنين، حتى وصل أخيرًا إلى رجل جلس ذات ليلة على ضفة النيل، وأصغى إلى صمته، وفهم أن بعض الموتى لا يحتاجون إلى أن يعودوا إلى الحياة، إنهم يحتاجون فقط إلى أن يُسمح لهم بالموت.

# الفصل الثامن

## الوجه المظلم للقمر

لم يكن إسماعيل يتوقع أن يشعر بالغربة حين وطئت قدماه زغرب من جديد.

كانت المدينة كما تركها تقريباً؛ شوارعها الهادئة، مبانيها القديمة التي تزداد جمالاً كلما ابتعدت عنها، والهواء البارد الذي يحمل شيئاً من رائحة المطر، لكن شيئاً في داخله كان قد تبدل على نحو لا تستطيع المدينة أن تخفيه. كان قد غادرها وهو يظن أنه ذاهب إلى مصر ليفك لغز مومياء غامضة، وعاد إليها وهو يحمل في رأسه معرفة لم يكن يتمنى لو عرفها، معرفة جعلت المومياء التي كانت ترقد في قاعة المتحف تبدو له أقل رعباً من الأشياء التي اكتشفها وراء حكايتها.

لم يتصل بأحد.

كان يعلم أن خبر عودته لن يبقى سرّاً طويلاً، فقد لمح بعض الصحفيين في المطار، ورأى رجالاً يتبعونه من بعيد، لكنه لم يمنحهم أكثر من نظرة عابرة. لم يكن مستعداً للحديث، ولا حتى للشرح. فالكلمات التي اكتشفها في مصر أكبر من أن تتحول إلى تصريحات صحفية، وبعض الأسرار حين تخرج من الفم تفقد قدرتها على أن تكون أسراراً، وربما تتحول في أفواه الآخرين إلى شيء أكثر خطورة مما كانت عليه في ذهن صاحبها.

كان يريد رجلاً واحداً فقط.

كروغر.

اتصل به من هاتفه فور وصوله، ولم يقل أكثر من:

- أريد أن أراك.

سأله كروغر عن مكانه، فأعطاه عنوان الفندق الذي فضله على منزله تجنباً لعيون الفضوليين في المرحلة الراهنة.

بعد أقل من ساعة، سمع طرقاً خفيفة على باب غرفته بنغمة موسيقية ترجّح أنه كروغر، فتح الباب بعد أن تأكد من هوية الطارق من العين السحرية للباب، فدخل كروغر بسرعة، ثم أغلق الباب خلفه بنفسه. كان يحمل معطفه على ذراعه، وعلى وجهه ذلك التعب الذي يصيب الإنسان حين يعيش أياماً طويلة وهو يطارِد أسئلة لا يجد لها جواباً.

تأمل الرجلان بعضهما للحظات. ثم قال كروغر:

- كنت أظن أنك لن تعود قريباً بعد أن تلامس قدماك ثرى وطنك.

ابتسم إسماعيل ابتسامة صغيرة.

- وأنا كنت أعتقد ذلك.

جلس كروغر أمامه، وقال بقلق.

- الصحافة عرفت بقصة المومياء وانقلبت الدنيا رأساً على عقب. إنها تبحث  
عنك في كل مكان.

- أعرف.

- وهل تنوي أن تتحدث معهم؟

رفع إسماعيل عينيه إليه.

- لا أريد أن أتحدث مع أي أحد الآن.

فهم كروغر أن الأمر جدي.

أخرج إسماعيل هاتفه ووضع على الطاولة، ثم نظر إلى الباب مرة أخرى قبل أن  
يقول:

- ما سأخبرك به يبقى بيننا.

قال كروغر دون تردد:

- بالطبع.

- لا صحافة، لا متحف، لا أحد.

- لك كلمتي.

ظل إسماعيل صامتاً لحظة، كأنه يرتب الأحداث في ذهنه، ثم بدأ يتحدث.

حكى له عن مصر والأقصر وطيبة.

عن أرشيف دير المدينة.

عن البردية.

عن الساعات الطويلة التي قضاها محاولاً ترجمة الكتابة الإيتروسكانية على كفن  
المومياء، وعن اتصاله بجيوفاني والكتاب القديم الذي ساعده على فك النص.

كان يتحدث بهدوء، وبجمل قصيرة واضحة، لكنه كلما تقدم في الحكاية بدا كروغر  
أكثر انحناءً إلى الأمام.

لم يكن يقاطعه.

كان يستمع.

وحين وصل إسماعيل إلى قصة اللعنة والعقوبة، قال بانفعال فاضح:

- بدأت أعتقد أن المومياء ليست لرجل مات ثم حُطِّط، وإنما لرجل عوقب بطريقة مختلفة تمامًا. لقد حُرِّم من العبور إلى العالم الآخر. لم يسمحوا لروحه بالمغادرة، ولم يسمحوا لجسده بالموت الكامل. كان عليه أن يبقى عالقًا بين العالمين.

نظر كروغر إليه طويلاً ثم قال:

- لهذا نبض القلب؟

أوماً إسماعيل.

- تمامًا.

خفض كروغر عينيه.

لقد كان بجانب إسماعيل في زغرب عندما فحصا المومياء أول مرة، وكان قد رأى النبض بنفسه، لكنه لم يعرف أبدًا ماذا حدث بعد ذلك. بالنسبة إليه كان الأمر لغزًا بيولوجيًا أو أثرياً لا تفسير له، أما الآن فإسماعيل يضع أمامه تفسيرًا أكثر رعبًا بكثير.

تابع إسماعيل:

- اكتشفت أيضًا أن اللفائف لم تكن جزءًا من كتاب الموتى كما ظننا.

رفع كروغر رأسه.

- ماذا كانت إذن؟

- نقيضه.

ثم صمت لحظة.

- كتاب الموتى يقول للروح: اعبري. أما هذه اللفائف فتقول: ابقِي.

ظل كروغر ساكنًا.

كانت العبارة بسيطة، لكنها جعلت كل ما رآه في المتحف يبدو فجأة مختلفًا.

سأل:

- ومن كتبها؟

- كهنة الفراعنة.

- إذا لماذا باللغة الإيتروسكانية؟
- لأنهم أرادوا حماية اللعنة من المستقبل.
- رفع كروغر حاجبه.
- من المستقبل؟
- نعم. كانوا يعرفون أن الكاهن الذي سيجد المومياة بعد مئات أو آلاف السنين قد يستطيع قراءة التعويذة، وربما يعرف التعويذة المضادة. لذلك كتبوا النص بلغة غريبة. لغة لا يستطيع الكهنة المصريون في العصور التالية فهمها بسهولة كي تبقى اللعنة أبدية على المومياة.
- ثم أضاف:
- كانت اللغة نفسها جزءاً من اللعنة والقفل.
- ساد صمت ثقيل بينهما.
- نظر كروغر إلى إسماعيل وكأنه يراه للمرة الأولى.
- فالرجل الذي غادر زغرب كان باحثاً فضولياً متحمساً يحاول حل لغز مومياة.
- أما الرجل الجالس أمامه الآن، فقد عاد من مصر وهو متعب وقلق ويتحدث عن طقوس صممت لتقاوم آلاف السنين وعن لعنة تمنع رجلاً من الموت ومن الحياة على حد سواء.
- والفرق بين الرجلين كبير.
- سأله كروغر:
- وماذا عن هوية الرجل؟
- تغير وجه إسماعيل قليلاً.
- لم أعرف اسمه.
- كيف؟
- لقد مُحي.
- عمداً؟
- نعم. من البردية والسجلات.
- أطرق كروغر رأسه.
- كان يحاول أن يستوعب حجم ما يسمعه.



وفي الخارج كانت زغرب تواصل حياتها بصورة طبيعية؛ سيارات تمر، أصوات بعيدة، خطوات عابرة، وأضواء شوارع تنعكس على الزجاج. لم يكن أحد من أولئك الناس يعرف أن رجلين يجلسان خلف باب مغلق ويتحدثان عن رجل مصري قديم ربما حُكم عليه بأن يقضي الأبدية في جسد ميت.

قال كروغر أخيرًا:

- هل تعتقد حقاً أن الرجل ما زال هناك؟
- أين؟
- داخل المومياة.
- نظر إسماعيل إلى الأرض.
- أعتقد أن شيئاً منه ما زال هناك.
- ثم رفع عينيه.
- وهذا الشيء ينتظر.
- شعر كروغر بقشعريرة.
- وماذا نستطيع أن نفعل؟
- لم يجب إسماعيل فوراً.
- فالسؤال ذاته ظل يطارده منذ جلوسه على ضفة النيل.
- ماذا يمكن أن يفعل الإنسان أمام تعويذة صمدت آلاف السنين؟
- ثم قال أخيراً:

- لا أعرف.
- لكنك قلت إنك فهمت اللعنة.
- فهمتها، لكن لم أفهم طريقة كسرها.
- إذاً نبحث عنها.
- رفع إسماعيل رأسه.
- ماذا؟
- طريقة كسرها.
- ظل ينظر إليه بشرود.
- تابع كروغر:

- إذا كان شخص ما قد صنع هذه اللعنة، فلا بد أن هناك طريقة لفكها. ربما أخفوا التعويذة المضادة .. ربما تركوا شيئاً آخر .. ربما يكون المفتاح في المكان نفسه الذي أخفوا فيه العقوبة.

- وقد يكون البحث عنها أخطر من تركها.

ابتسم كروغر.

- منذ متى كان هذا يمنعك؟

لم يبتسم إسماعيل.

- هذه المرة الأمر مختلف.

- أعرف، لكن الرجل لم يختار أن يعيش هكذا.

رفع إسماعيل عينيه إليه.

- ماذا تقصد؟

- إذا كانت نظريتك صحيحة، فهو لم يختار اللعنة. شخص آخر فرضها عليه. مهما كان ما فعله، ومهما كانت جريمته، لا يمكن أن يكون قد اختار أن يقضي آلاف السنين محبوساً في جسد ميت.

صمت إسماعيل لدقائق. فالكلمات أصابت شيئاً في أعماقه.

كان قد قضى الأيام الماضية ينظر إلى المومياء باعتبارها لغزاً، ثم باعتبارها اكتشافاً، والآن وجد نفسه يفكر فيها للمرة الأولى باعتبارها ضحية. رجلٌ له حق في أن يموت كغيره من البشر.

قال كروغر بهدوء:

- علينا أن نحاول.

ظل إسماعيل صامتاً يفكر ويقلب الموضوع في دماغه ثم قال أخيراً:

- حسناً سنحاول.

مد كروغر يده فصافحه إسماعيل.

لم يكن بينهما عهد مكتوب، ولا خطة، ولا حتى فكرة واضحة عن الخطوة التالية.

كان هناك فقط اتفاق بسيط بين رجلين:

أنهما لن يتركا رجلاً عالقاً بين الموت والحياة إلى الأبد إذا كان في مقدورهما أن يمنحاه الحرية. ومن جهة أخرى ثمة فضول عارم يجتاحهما لمعرفة حكاية رجل

الموميااء بالضبط وفهم سبب إلقاء مثل هكذا لعنة مرعبة عليه.  
لكن أياً منهما لم يكن يعرف أن الاتفاق الذي وُلد في تلك الليلة لن يقودهما إلى نهاية  
اللغز...  
بل إلى أخطر أسرارهِ.

\*\*\*\*\*

كان خبر عودة إسماعيل إلى زغرب قد سبق خطواتهِ.  
في صباح اليوم التالي لوصولهِ، ظهرت صورته في أكثر من موقع إخباري،  
وتناقلت الصحف خبر عودته من مصر بعد أسابيع قضائها يحقق في قضية الموميااء  
الغامضة التي أثارت ضجة واسعة، بينما بدأت التكهّنات تتكاثر حول ما إذا كان قد  
توصل إلى تفسير للظاهرة التي عجز الجميع عن تفسيرها: ( نبضان قلب  
الموميااء ).

وكان اسم جينيفر من بين الأسماء التي التقطت الخيط سريعاً. فهي صحفية تعرف  
كيف تميز القصة المهمة من القصة التي تبدو مهمة، وكانت تعرف أن ما حدث  
في مصر لم يكن مجرد رحلة بحثية عادية. فإسماعيل غادر زغرب وهو يتحدث  
عن موميااء أثارت اهتمام الوسط الأثري، ثم عاد من مصر صامتاً، رافضاً الإدلاء  
بأي تصريح، ومصرّاً على الابتعاد عن الصحافة رغم أن اسمه أصبح أكثر تداولاً  
من أي وقت مضى.

وبالنسبة إلى جينيفر، كان ذلك الصمت بحد ذاته خبراً.

وقفت أمام الفندق الذي يقيم فيه، تنتظر خروجه.

لم تكن تعرفه شخصياً.

لم تلتق به من قبل.

كل ما تعرفه عنه كان من خلال ما قرأته، وما نشره الآخرون، وبعض المقابلات  
القديمة التي ظهر فيها متحدثاً عن عمله واكتشافاته. ولذلك لم تكن متأكدة حتى من  
الطريقة التي سيستقبل بها محاولتها.

لكنها كانت تعرف شيئاً واحداً:

لن يعود رجل من مصر بعد تحقيق في موميااء ينبض قلبها، ثم يرفض الحديث

- عنها، إلا إذا كان قد وجد شيئاً يستحق الصمت.
- وبعد نحو ساعتين من الانتظار، ظهر إسماعيل عند مدخل الفندق. كان يحمل ملفاً أسود بيده، ويسير بسرعة، وعندما لمحته جينيفر تقدمت نحوه.
- دكتور إسماعيل؟  
توقف ونظر إليها باستفهام.
- نعم؟  
أخرجت بطاقة الصحافة من حقيبتها.
- جينيفر... صحفية.  
نظر إلى البطاقة، ثم إلى وجهها.
- كان اسمها مألوفاً له. لقد قرأ بعض مقالاتها خلال الأيام الماضية، وكان يعرف أنها تتابع قضية المومياء.
- أعرفك.  
ابتسمت.
- هذا يوفر علينا الكثير من الوقت.  
- أي وقت؟  
- وقت التعارف.  
لم يبتسم.
- إذا كنت تريدني حديثاً صحفياً، فأنا لا أجري مقابلات.  
- أعرف.  
- إذا لماذا أوقفيني؟  
- لأنني لا أريد مقابلة صحفية تقليدية.  
نظر إليها لحظة.
- ماذا تريدني؟  
- أن أعرف ماذا حدث في مصر.  
كان السؤال مباشراً، فأجاب فوراً:
- لم يحدث شيء.  
لم تكن جينيفر من النوع الذي يستسلم بسهولة، بل على العكس كانت تمتلك قدرة

مذهلة على دفع الطرف الآخر مهما كان كتوماً إلى أن يزل ولو بكلمة تلقي الضوء أكثر على قضيتها الصحفية.

- هذه إجابة غريبة من رجل عاد من مصر بعد تحقيق استمر لأسابيع.
  - إنها الإجابة التي أملكها.
  - لا أعتقد ذلك.
  - هذا شأنك.
- استدار ليغادر فقالت بسرعة:

- هل وجدت تفسيراً للنبض؟
- توقف. ولم يلتفت.

تابعت:

- أنت كنت موجوداً عندما حدث الأمر في زغرب، وكروغر كان إلى جانبك.
  - رأيتما النبض بنفسيكما، ثم ذهبت إلى مصر. لا أظن أنك قضيت كل هذا الوقت هناك لتعود وتقول إنه لا يوجد شيء.
  - استدار إليها. كانت تلك أول مرة ينظر إلى عينيها مباشرة.
  - هناك فرق بين أن ترى شيئاً، وبين أن تعرف معناه.
  - وهل عرفت معناه؟
- صمت.

- هذا ما أحاول معرفته، أعتذر فأنا لا أستطيع مساعدتك في تحقيقك الصحفي.
  - لماذا؟
  - لأنني منشغل بتحقيقي الخاص.
  - أم لأنك لا تريد لأحد أن يعرف ما وجدته؟
- لم يجب.

كانت جينيفر تراقب وجهه بعناية، محاولة التقاط أي تغير صغير فيه.

- هل كانت الكتابة على المومياء هيروغليفية؟
- تشنجت عضلة في وجهه.

فتابعت:

- أم أنني اقتربت أكثر مما ينبغي؟

قال بهدوء:

- من أين حصلتِ على هذه المعلومة؟  
ابتسمت.

- إذاً هي معلومة صحيحة.

أدرك إسماعيل خطأه، لكنه لم يظهر ذلك.

- الصحافة تبني استنتاجات كثيرة من القليل.

- صحيح. لكن أحياناً يكون القليل كافياً لفتح الباب.

- وبعض الأبواب من الأفضل ألا تُفتح.

سكتت جينيفر لحظة.

- هل هذا تحذير؟

- اعتبريه نصيحة.

- من رجل لا أعرفه، ولا يعرفني؟

- لهذا بالضبط.

رفعت حاجبها.

- إذاً أنت لا تعرف إن كنت أستحق ثقتك.

- ولا أنت تعرفين إن كنت أستحق ثقتك.

- أنا لا أحتاج إلى الثقة كي أطرح الأسئلة.

- وأنا لا أحتاج إلى الإجابة عنها.

كان الحوار قد أصبح أكثر حدة، لكن إسماعيل ظل هادئاً بصورة جعلتها تشعر بأن خلف هدوئه شيئاً أثقل من مجرد الرغبة في الابتعاد عن الصحافة.

- هناك شيء تغير فيك بعد عودتك.

نظر إليها.

- لم تعرفيني قبل عودتي.

- لم أقل إنني أعرفك.

ثم أضافت:

- قلت إن شيئاً تغير فيك، وهذا واضح حتى لشخص يراك للمرة الأولى.

صمت إسماعيل.

- رجل يعود من رحلة علمية وهو يريد أن يختفي... هذا ليس أمراً طبيعياً.

- ربما لأن الرحلة لم تكن علمية كما تظنين.  
رفعت رأسها بفضول الصحفيين.
- ماذا كانت إذن؟
- أدرك إسماعيل أنه قال أكثر مما ينبغي، فخفض صوته:
- عليّ الانصراف الآن.
- إذاً هناك شيء رهيب حدث.
- نظر إليها طويلاً.
- جينيفر، أنت تبحثين عن قصة.
- بالطبع.
- وأنا أبحث عن شيء آخر.
- ماذا؟
- أخذ إسماعيل نفساً عميقاً.
- أنتِ لا تعرفين ما الذي تورطين نفسك به.
- وهذا سبب إضافي كي أبحث.
- قال إسماعيل بجدية:
- أنا لا أريد أن يتحول فضول أحد إلى مصيبة.  
سكنت.
- إذن فأنت تعتقد بوجود خطر حقيقي خلف قصة المومياة؟
- نظر إسماعيل إلى مدخل الفندق، ثم عاد إليها.
- أعتقد أن بعض الأشياء كان ينبغي أن تبقى مدفونة.
- قالت برجاء:
- لن أطلب منك أن تعطيني كل شيء، أعطني شيئاً واحداً فقط، شيئاً أستطيع أن أفهمه. ماذا وجدت في مصر؟
- نظر إليها طويلاً، ثم قال:
- وجدت أن الموت ليس دائماً النهاية التي نظنها.
- تغير وجه جينيفر.
- ماذا يعني ذلك؟

- يعني أنني لا أريد الحديث أكثر.  
ثم تحرك مبتعدًا هذه المرة وكلماتها تلاحقه دون أن يكثرث.  
بقيت جينيفر في مكانها.  
لم تحصل على مقابلة.  
لم تحصل على تصريح مهم.  
ولم تحصل حتى على معلومة يمكن نشرها دون أن تتحول إلى مجرد تكهن.  
لكنها حصلت على شيء آخر.  
شيء لم تكن تتوقعه.  
الخوف.

كان هناك خوف حقيقي في صوت الرجل.  
ولم يكن خوف رجل من صحفية، ولا خوف باحث من فضيحة علمية. كان خوف  
رجل اكتشف شيئًا، ثم أدرك أن معرفته به ربما كانت وبالاً عليه.  
فتحت جينيفر دفترها وكتبت:  
«إسماعيل يرفض الحديث عن تحقيقه في مصر، لكنه لا يتصرف كرجل يخفي  
اكتشافًا فحسب ... بل كرجل يخشى أن يعرف الآخرون ما اكتشفه.»  
ثم أغلقت الدفتر.

رفعت عينيها نحو أبواب الفندق، وكان قرارها قد اتخذ بالفعل.  
لن تتراجع.  
لقد أصبحت تريد وبقوة أن تعرف الآن:  
ما الذي يمكن أن يجعل رجلاً أمضى حياته في مطاردة الأسرار يتمنى لو أنه لم  
يجد أحدها؟

\*\*\*\*\*

كانت زغرب قد استسلمت لليل منذ ساعات، وغرقت الشوارع تحت مطر خفيف  
جعل أضواء السيارات تبدو كأنها تنعكس من قاع نهر أسود. في شقة كروغر، كان



كل شيء ساكنًا إلا عقارب الساعة وصوت الموسيقى الخافتة المنبعث من جهاز صغير قرب النافذة. جلس كروغر على الأريكة، وقدماه ممددتان أمامه، وفي يده كأس نبيذ لم يعد يعرف منذ متى وهو يمسكه. كان يحاول منذ أيام أن يطرد المومياة من رأسه، لكنه اكتشف أن بعض الأفكار لا تغادر حين نطلب منها الرحيل، بل تختبئ في مكان أعمق، ثم تعود في اللحظة التي نكون فيها أقل استعدادًا لاستقبالها. منذ أن انفصل عن كارلا، بعد أن وصلت الأخبار بأنها أفشت سر المومياة وما دار بينهما حولها، لم يعد البيت يبدو كما كان. كانت كارلا قد تركت وراءها فراغًا أكبر من مجرد غياب امرأة، وشيئًا يشبه الخيانة ظل عالقًا في ذاكرته. لم يكن غاضبًا منها فقط لأنها تحدثت، بل لأنها تحدثت عن شيء كان يؤمن أن الصمت وحده قادر على حمايته.

إلى جواره كانت صديقه الجديدة إيفانا تجلس بهدوء، وقد طوت ساقيها تحتها وهي تقلب صفحات مجلة بلا اهتمام حقيقي. كانت ترتدي سترة صوفية جميلة، وعلى وجهها الأمامي جملة مطرزة بحروف سوداء واضحة:

«الإنسان الذكي لا يبحث عن إجابات جيدة.»

وقعت عينا كروغر عليها مصادفة.

قرأها مرة، ثم مرة ثانية.

ابتسم.

قال وهو يشير إلى صدرها:

- عن ماذا يبحث الإنسان الذكي إذن؟  
رفعت إيفانا عينيها عن المجلة، ونظرت إليه بابتسامة غامضة.

- أظنك لم تقرأ الجملة كاملة.

- هل هناك بقية؟

- دائمًا هناك بقية.

وضعت المجلة جانبًا، ثم نهضت ببطء، ومشت أمامه واستدارت بحيث أصبح ظهرها مواجهًا له.

- اقرأ ما كتب من الخلف.

مال كروغر إلى الأمام. كانت هناك جملة أخرى بالفعل.

قرأها بصوت مسموع:

«بل يبحث عن أسئلة جيدة.»

ضحك. ضحكة طويلة خرجت منه بلا تكلف، حتى كاد المشروب في يده أن ينسكب.

- هذه أفضل من الجملة الأولى.

قالت إيفانا:

- لأنها أكثر ذكاءً؟

- لأنها أكثر إزعاجًا.

- لماذا؟

رفع كأسه أمام عينيه وتأمل السائل الداكن في داخله.

- لأن الإجابة تنهي السؤال.

ثم رفع عينيه إليها.

- أما السؤال الجيد... فيفتح أبوابًا لا نعرف إلى أين تؤدي وربما من الأفضل ألا نفتحها..

ابتسمت.

- وهذا سيئ؟

- أحيانًا.

- وأحيانًا؟

لم يجب.

كان ينظر إلى الجملة على ظهر سترتها.

( بل يبحث عن أسئلة جيدة. )

ثم حدث شيء صغير جدًا، لا يكاد يُرى، لكنه كان كافيًا ليغير اتجاه تلك الليلة كلها.

اختفت الابتسامة من وجهه وثبتت عيناه في الفراغ.

وضعت إيفانا يدها على شعرها وقالت:

- كروغر؟

لم يسمعها.

- كروغر؟

انتبه أخيرًا.

نظر إليها كأنما عاد لتوه من مكان بعيد.

- هل قلت شيئاً؟

- سألتك إن كنت بخير.

حدق فيها لحظة، ثم وضع كأسه على الطاولة.

- نعم.

- لا تبدو كذلك.

وقف.

- تذكرت شيئاً هاماً ..

- ماذا؟

لم يجب مباشرة. اتجه نحو الباب الزجاجي المؤدي إلى الشرفة، وفتحه. اندفع الهواء البارد إلى الغرفة وحرك الستائر، بينما خرج كروغر إلى الخارج وأغلق الباب خلفه.

وقفت إيفانا تراقبه من الداخل.

أما هو فكان واقفاً في العتمة، والمدينة تمتد أمامه كبحر من الأضواء المرتجفة. أخرج هاتفه.

ظل إصبعه فوق الاسم لثوانٍ.

ثم ضغط.

جاء صوت إسماعيل بعد لحظات، ناعساً ومتسائلاً:

- تهاتفني في هذا الوقت المتأخر .. ماذا حدث بحق السماء؟

خفض كروغر صوته.

- أتذكر النصوص التي قرأناها على جسد المومياء؟

- طبعاً.

- هل فحصت ظهر المومياء؟

سكت إسماعيل.

- ماذا تقصد؟
- أقصد حرفيًا ما قلت. هل رأيت ظهرها؟
- نهض إسماعيل من مكانه، وبدا التغيير في صوته واضحًا.
- لا أظن، نحن فحصنا المومياء من الأمام. ركزنا على النقوش الموجودة على الصدر واللفائف والرموز المحيطة بها.
- وهذا هو الخطأ.
- أي خطأ؟
- اقترب كروغر من حافة الشرفة.
- افترضنا أن الرسالة موجودة حيث نستطيع قراءتها.
- صمت إسماعيل.
- تابع كروغر:
- لكن ماذا لو لم تكن الرسالة كاملة هناك؟
- ماذا تعني؟
- قال كروغر ببطء:
- ماذا لو أن ما قرأناه ليس الرسالة كلها... بل نصفها فقط؟
- لم يجب إسماعيل.
- تخيل أنك تريد أن تخفي شيئًا عن شخص ما، لكنك لا تريد إخفاءه تمامًا.
- تترك له دليلًا يقوده إلى مكان معين، ثم تضع الجزء الحقيقي من الدليل في المكان الذي لن يفكر في البحث فيه.
- الظهر.
- بالضبط.
- ضحك إسماعيل ضحكة قصيرة لم تخلُ من الدهشة.
- هذه الفكرة خطرت لك الآن؟
- نظر كروغر إلى الستار خلف الباب الزجاجي.
- كانت إيفانا لا تزال تراقبه.
- قبل دقيقة واحدة.
- وما الذي جعلك تفكر فيها؟
- نظر كروغر إلى ظهر إيفانا، ثم ابتسم للمرة الأولى منذ تغير وجهه.

- سترة.
- سترة؟
- لا تسأل. القصة طويلة، والوقت قصير.
- ثم أصبح صوته جادًا:
- إسماعيل، علينا أن نذهب إلى المتحف الليلة.
- الآن؟
- بعد منتصف الليل.
- كروغر...
- لن نأخذ أحدًا معنا. لا صحافة، لا حراس إضافيين. بهدوء وسرية.
- وإذا لم يكن هناك شيء؟
- نعود إلى بيوتنا وننعم ببعض النوم.
- وإذا كان هناك شيء؟
- نظر كروغر إلى المدينة.
- عندها سيتغير كل شيء .. قد نحصل على القطعة الناقصة من الصورة التي نبحث عنها .. القطعة التي تفسر حكاية المومياء واللعنة.
- بعد منتصف الليل بقليل، كانت زغرب قد أصبحت مدينة أخرى.
- الشوارع التي كانت تضج بالحركة في النهار بدت فارغة، والنوافذ المضيئة القليلة بدت كعيون ساهرة لا تعرف شيئًا عن الرجلين اللذين كانا يتحركان في الظلام باتجاه المتحف. إسماعيل يقود بصمت، بينما جلس كروغر إلى جواره، وقد ظل طوال الطريق ينظر من النافذة دون أن يقول شيئًا.
- وأخيرًا قال إسماعيل:
- لا أريد أن أبني آمالًا على فكرة ولدت من سترة.
- ابتسم كروغر.
- الأفكار العظيمة تولد أحيانًا من أشياء سخيفة.
- والأفكار السخيفة أيضًا.
- صحيح.
- التفت إليه إسماعيل.

- لكن هناك فرق.
- ما هو؟
- أن الفكرة الجيدة لا تصبح جيدة لأنها تبدو ذكية. تصبح جيدة عندما تستطيع تفسير شيء لم نستطع تفسيره من قبل.
- نظر كروغر إليه.
- لهذا أريد أن أرى ظهر المومياء.

كان المتحف في تلك الساعة أشبه بقبر هائل.

الردهات الطويلة غارقة في نصف عتمة، والزجاج يعكس صورًا شاحبة للتماثيل القديمة. كل شيء بدا ساكنًا إلى درجة أن وقع خطواتهما كان يكتسب صدى غير طبيعي.

حين وصلا إلى القاعة التي تحفظ فيها المومياء، توقف إسماعيل أمام الصندوق الزجاجي.

كانت هناك.

مستلقية في صمتها القديم، كما لو أن آلاف السنين لم تمر عليها، بل مرت حولها فقط.



اقترب كروغر.

- لا أريد أن نرفعها بطريقة تعرضها للخطر.
- وأنا لا أريد أن أفعل شيئاً يجعلنا نندم عليه.
- إذن سنقلبها ببطء.

عملاً معاً بحذر شديد، مستخدمين الأدوات المخصصة للفحص، واحتاج الأمر إلى وقت أطول مما توقعاه. كانت المومياء هشة، وكل حركة حولها كانت تتطلب انتباهاً يكاد يكون مرهقاً. لم يكن أمامهما جسد إنسان فحسب، بل شيء قاوم الزمن قروناً طويلة، وكان عليهما أن يتعاملا معه كما لو أن كل طبقة من القماش يمكن أن تكون آخر ما تبقى من قصة لا تزال تنتظر من يقرأها.

قال إسماعيل وهو يثبت أحد جانبي المومياء:

- توقف.

تجمد كروغر.

- ماذا؟

- علينا أن نغير موضع يدك.

أعاد كروغر يده بحذر.

مرت ثوانٍ طويلة.

ثم بدأت المومياء تتحرك ببطء شديد.

لم يكن صوت القماش مسموعاً تقريباً، لكن كروغر شعر به كما لو كان صرير باب يفتح في أعماق قبر قديم.

شيئاً فشيئاً، أخذ الجسد ينقلب.

ظهر الجانب الآخر.

ظل الاثنان صامتين.

قال كروغر:

- أكمل.

واصل إسماعيل الحركة.

ثم استقرت المومياء أخيرًا على بطنها.

في البداية لم يريا شيئًا.

مجرد طبقات من القماش القديم، متآكلة، باهتة، وقد غطاها الزمن بطبقة من الغبار جعلت لونها قريبًا من لون العظام.

همس إسماعيل بخيبة أمل:

- لا شيء.

لم يجب كروغر. اقترب أكثر وحقق في القماش، ثم مال قليلًا إلى الأمام.

- تذكر أن الكتابة على الوجه الأمامي للمومياء لم تظهر إلا بعد أن استخدمت

سائل التنظيف أول مرة.

- محق .. ناولني إياه.

مرر إسماعيل السائل على ظهر المومياء وانتظر.

لحظات مرت ثم أشار كروغر إلى موضع أسفل الكتف مباشرة.

- ثمة شيء بدأ بالظهور.

اقترب إسماعيل.

كانت هناك خطوط باهتة جدًا، بدأت تتشكل داخل نسيج القماش.

مد يده، لكنه توقف قبل أن يلمسه.

- لا تحرك شيئًا.

أخرج مصباح الفحص الصغير، ومرر ضوءه ببطء فوق السطح فظهرت العلامات.

خط أول.

ثم ثانٍ.

ثم ثالث.

وبينما كان الضوء يتحرك، بدأت الكتابة كلها تخرج من الظلام شيئًا فشيئًا، كما لو أنها لم تكن موجودة قبل تلك اللحظة، وكأن الضوء نفسه ينتزعها من قبضة الزمن.

تراجع كروغر خطوة.



لم يتكلم.

أما إسماعيل فظل منحنيًا فوق المومياء، ووجهه قد فقد كل تعبير.

صاح كروغر أخيرًا:

- هل ترى ما أراه؟

لم يجب إسماعيل.

- إسماعيل؟

رفع إسماعيل رأسه ببطء.

- نعم.

- هل هي كتابة؟

- نعم.

- متأكد؟

نظر إليه إسماعيل نظرة طويلة ثم عاد ببصره إلى العلامات.

- متأكد.

اقترب كروغر حتى أصبح إلى جواره.

كانت الرموز موزعة على القماش في سطور واضحة، وإن كانت متآكلة بفعل الزمن.

ظل يحدق بها ثم سأل:

- هل هي هيروغليفية؟!

- لا.

- إذن ماذا تكون؟

- كالكتابة على الصدر .. إتروسكانية.

لم يعلق كروغر.

كانت المفاجأة أكبر من أن يحتملها الكلام.

ظل الرجلان واقفين أمام المومياء في صمت كامل، وكأنهما أدركا في اللحظة نفسها أن ما قلباه للتو لم يكن جسدًا محنطًا...

بل صفحة أخرى من سر لم يكونا يعرفان بعد إلى أي عمق يمكن أن يقودهما.

أخرج إسماعيل هاتفه ببطء.

كانت يده ثابتتين في البداية، لكن شيئاً في عينيه لم يكن كذلك. فتح ملف اللغة الإيتروسكانية الذي أرسله له البروفيسور جيوفاني ..

بدأ يترجم كلمة كلمة.

كان الأمر أشبه بمحاولة انتزاع معنى من قبر مغلق. بعض الرموز كان واضحاً، وبعضها الآخر احتاج إلى أكثر من محاولة، وكان إسماعيل يتوقف عند كل كلمة، يعيد قراءتها، ثم يكتب معناها ويقارنها بما قبلها.

سأله كروغر بانفعال:

- ماذا تقول الكتابة؟

- لحظة.

تابع إسماعيل.

ثم بدأ وجهه يتغير.

لم يكن التغير مفاجئاً، بل جاء ببطء شديد؛ ارتفع حاجباه قليلاً، ثم ضاقت عيناه، ثم توقفت أصابعه عن الحركة لثوانٍ.

- إسماعيل؟

لم يجب.

عاد إلى الملف، وترجم كلمة أخرى.

ثم أخرى.

وفجأة قال بصوت خافت:

- هذا غريب.

- ماذا؟

رفع إسماعيل الهاتف قليلاً، وقرأ:

**«أنت... يا من تملك الفضول والجرأة الكافيين كي تقرأ ما كتب على ظهري...»**

نظر إلى كروغر.

لم تعد في عينيه تلك الثقة التي كان يملكها قبل دقائق.

- أكمل.  
ابتلع إسماعيل ريقه.

«سصبح جسدك ملكي... منذ الآن... وحتى آخر يوم في حياتك.»

لم يعلق كروغر.

ظل يحدق في إسماعيل بدهشة وكأنه تجمد في مكانه، ثم تمتم أخيراً برعب.

- هل أنت متأكد من الترجمة؟

- نعم.

- هل يمكن أن يكون المعنى مجازياً؟

- ربما.

- ربما؟

رفع إسماعيل عينيه إليه.

- الترجمة الحرفية تقول ذلك.

ساد الصمت.

كان المتحف أكثر ظلمة مما كان عليه قبل دقائق، أو ربما كان الخوف هو الذي جعل الظلال تبدو أكثر كثافة.

عاد إسماعيل إلى الهاتف.

- هناك سطران آخران.

- ماذا يقولان؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟

- لأنهما لا يشبهان أي شيء أعرفه.

قرب الهاتف من عينيه.

كانت الكلمات الإيتروسكانية واضحة، لكنها بدت مختلفة عن بقية النص، كأنها كتبت بإيقاع آخر، وبتركيب لا يشبه الجمل السابقة.

بدأ إسماعيل يقرأها بصوت منخفض.

لم يفهم شيئاً.

حاول ترجمة الكلمة الأولى.

لم يعط الملف نتيجة.

حاول الثانية.

ظهرت مجموعة من الاحتمالات غير المترابطة.

ثم الثالثة.

لا شيء.

علّق كروغر:

- ربما المفردات قديمة جدًا.

- لا.

- إذن؟

- إنها اشبه بتعويذة ما ..

تابع القراءة.

كانت الكلمات تتدفق من فمه ببطء، واحدة وراء الأخرى، بنبرة غريبة جعلت كروغر يشعر بأنهما لا يقرآن نصًا، بل شيئًا أقرب إلى الطلاس.

ثم جاء السطر الأخير.

قرأ إسماعيل الكلمة الأولى.

ثم الثانية.

ثم توقف.

بقيت عيناه مثبتتين على الشاشة.

سأله كروغر:

- ماذا هناك؟

لم يجب.

قرأ الكلمة الثالثة.

ثم الرابعة.

وفجأة رفع رأسه.

كانت عيناه مختلفتين. شيء ما مر فيهما كوميض سريع؛ خوف، أو صدمة، أو ربما اعتراف بشيء لم يكن كروغر يعرفه.

ثم قرأ الكلمة الأخيرة.

وفي اللحظة التي انتهى فيها من نطقها، سقط الهاتف من يده وارتطم بالأرض الحجرية بصوت حاد، فانكسرت الشاشة وانطفأ الجهاز.

صرخ كروغر:

- إسماعيل!

لم يتحرك.

ظل واقفاً أمام المومياء. وجهه شاحب، وأنفاسه متسارعة.

كان بريق غريب يلمع في عينيه، بريق رجل رأى شيئاً لم يكن مستعداً لرؤيته.

سأله كروغر:

- ماذا قرأت؟

لم يجب.

- إسماعيل!

التفت إليه أخيراً وقال بصوت قلق:

- هذا كلام لا معنى له.

حرق كروغر فيه.

- ماذا تقصد؟

- فلنعد المومياء كما كانت ونرحل.

- لماذا؟

- الآن على الفور.

- إسماعيل، ماذا حدث؟

اقترب منه كروغر وأمسك بذراعه وهزه.

- ماذا قرأت؟

سحب إسماعيل ذراعه بقوة.

- لا شيء.  
- لا تكذب عليّ.  
- ليس الآن.  
- إذن متى؟  
نظر إسماعيل إلى المومياء.

- في الغد.  
- لماذا؟  
- سأخبرك لاحقاً.  
- لماذا؟  
- من أجل سلامتك وسلامتي.  
- أنت تخيفني.

- والموضوع يخيف لدرجة يمنعني من الكلام أكثر.  
انحنى والتقط هاتفه من الأرض، ثم وضعه في جيبه.  
أعيدت المومياء ببطء إلى وضعها السابق، وعادت طبقات القماش إلى أماكنها،  
وأغلقت الحافظة الزجاجية، ثم مسح آثار وجودهما في القاعة بعناية شديدة.  
لم يتحدث إسماعيل طوال الوقت. كان يعمل بصمت، لكن كروغر لاحظ أن يديه  
لم تعودا ثابتتين.  
وعندما خرجا من المتحف، كان الفجر قد بدأ يرسم خطاً رمادياً بعيداً خلف مباني  
زغرب.

توقف كروغر عند الباب.

- إسماعيل.  
التفت إليه.

- أريد أن أعرف ماذا قرأت.  
- ستعرف غداً .. الآن عليّ العودة إلى الفندق بمفردي .. أراك مساءً.  
ثم ودعه ببرود على غير عادته ومضى كل منهما في طريقه.

\*\*\*\*\*

في صباح اليوم التالي، لم يكن هناك شيء يوحي بأن أمراً غير طبيعي قد حدث.  
زغرب استيقظت كعادتها.

المقاهي تفتح أبوابها، والسيارات تغصّ بها الشوارع، والصحف الإلكترونية تنشر  
أخبارها اليومية، فيما كروغر يجلس أمام هاتفه منتظراً اتصالاً من إسماعيل.  
مكالمة واحدة .. رسالة يتيمة ..

أي شيء يطمئنه عنه.

لكنه لم يرسل شيئاً.

اتصل به.

كان هاتفه مغلقاً.

حاول مرة أخرى.

النتيجة نفسها.

قال كروغر لنفسه إن الرجل ربما أراد بعض الوقت ليختلي بروحه.

ثم مرت ساعات، لا اتصال، لا رسالة، ولا بريد إلكتروني.

وفي المساء بدأ القلق يتحول إلى شيء آخر.

في اليوم التالي اتصل به مجدداً.

ثم في اليوم الذي بعده.

لا شيء.

وبعد وقت قصير بدأت الأخبار تنتشر.

كان اختفاء إسماعيل غريباً بما يكفي لجذب الانتباه، خصوصاً أن اسمه كان قد بدأ  
يظهر في الصحافة بسبب المومياة والأحداث التي أحاطت بها.

ثم اشتعلت مواقع وسائل التواصل الاجتماعي بالتكهنات.

«أين اختفى الدكتور إسماعيل؟»

«الباحث المصري الذي اختفى في ظروف غامضة.»

«هل للمومياء علاقة باختفائه؟»

«آخر ظهور للطبيب كان في زغرب.»

كل ساعة كانت تضيف رواية جديدة.

بعضهم قال إنه تعرض للاختطاف.

آخرون قالوا إنه هرب.

وهناك من ذهب أبعد من ذلك، وربط اختفائه بالمومياء نفسها وبلعنة الفراعنة.

وكان لجينيفر، بطبيعة الحال، نصيب الأسد من إعصار التكهنات هذا. لم تقف مكتوفة الأيدي؛ بل سكبت شغفها وحيرتها في مقال مطول نشرته على موقعها الإلكتروني، أبحرت فيه عميقاً في دهاليز مومياء زغرب وأسرارها الغامضة التي تتحدى الزمن.

نسجت جينيفر في مقالها تفاصيل رحلة إسماعيل المثيرة إلى أرض الكنانة، وعودته المحملة بالأسئلة، مستحضرة لقاءها الصحفي معه وتلك الكلمات المبهمة التي كان يرددها كتعويذة خوف، لاسيما ذلك التحذير الصريح والملح: "ابتعدي عن قصة المومياء لمصلحتك الشخصية". وفي ختام مقالها، ربطت بخيط رفيع وخفي بين غيابه المفاجئ والصادم، وبين ذلك التحذير القاتم الذي بدا الآن وكأنه نبوءة مشؤومة.

لم يكن المقال مجرد كلمات، بل شرارة اجتاحت الفضاء الرقمي كالنار في الهشيم؛ ليتلقفه الملايين وينتشر بشكل جنوني، ملقياً بظلال من الغموض الكثيف فوق قضية اختفاء إسماعيل، والتي تحولت فجأة من مجرد غياب عابر إلى لغز مرعب يحمل أبعاداً سحيقة الغور.

أما كروغر فلم يكتب شيئاً.

كان يعرف شيئاً لا يعرفه الآخرون.

كان يعرف أن إسماعيل وقف أمام تلك المومياء في منتصف الليل، وقرأ شيئاً لم يرد أن يخبره به.

وكان يعرف أن الرجل لم يكن خائفاً قبل تلك الليلة.. أما بعدها... فقد كان خائفاً.. وهذا كان يخيف كروغر حد الرعب.



مر يوم.

ثم يومان.

ثم أسبوع.

ولم يظهر إسماعيل.

أبلغ عندها كروغر الشرطة لكنه تجنب الحديث عن ليلة المتحف الأخيرة. ليكتشف أن مريم زوجة إسماعيل بلغت عن غيابه منذ أول يوم وأن التحقيق بدأ بالفعل. حيث جرت مراجعة كاميرات المراقبة، واتصالات الهاتف، وحركات الحسابات المصرفية، وسجلات السفر، وكل شيء يمكن أن يقود إلى مكانه.

وبعد ساعات من التحقيق ظهرت الحقيقة الأولى.

لم يكن إسماعيل قد اختطف.

لم يقتله أحد.

لم يكن في مكان مجهول.

لقد غادر.

كان قد حزم أمتعته، ورتب أغراضه، ثم غادر زغرب متجهًا إلى وطنه الأم مصر دون أن يودع زوجته ماريا وطفليه يوسف وليلى.

كان الأمر قانونيًا وواضحًا.

لكن الغريب لم يكن سفره.

الغريب أنه لم يقل شيئًا لأحد.

لا لعائلته

لا لكروغر.

لا لزملائه.

ولا لأي شخص يعرفه.

والأغرب أنه بمجرد وصوله إلى مصر تقريبًا، توقف عن الرد على هاتفه.

ثم توقف عن استخدام بريده الإلكتروني.

وبعد ذلك اختفت حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي كلها.  
كان رجلاً ما قرر بين ليلةٍ وضحاها أن يمحو نفسه من العالم.  
حين أخبره المحقق بالنتائج، ظل كروغر مذهولاً للحظات. ثم قال:

- هل أنتم متأكدون أنه غادر بإرادته؟  
أجابه المحقق:

- كل الأدلة تقول ذلك.
- وهل يمكنكم معرفة سبب السفر؟
- لا.
- وهل تحدث مع أحد قبل مغادرته؟
- لا شيء مهم ظهر في التحقيق.

سأله المحقق:

- هل شعرت بشيء غريب في سلوكه أو كلامه في آخر لقاء بينكما؟  
صمت كروغر للحظة. كان يفكر بما جرى في ليلة المتحف الأخيرة. وكان يشعر  
برعب حقيقي مما حدث لإسماعيل ساعتها. لقد سمع من قبل بمصطلح لعنة  
الفراعنة. لكنه الآن فقط يؤمن يقيناً بها، وهو خائف على نفسه بشدة. لذا احتفظ  
بسر تلك الليلة المشؤومة لنفسه حالياً وأجاب باقتضاب:

- إطلاقاً.. كان طبيعياً تماماً.

خفض كروغر رأسه والحيرة تقتله، فقد كان يحتفظ بسر لا يعرف إن كان من  
الحكمة والأمان أن يكشفه ...

مرت الشهور.

ثم سنة.

ثم سنتان.

ثم سنوات.

ولم يعد إسماعيل.

في البداية كان كروغر ينتظر.

ثم بدأ يسأل.

ثم توقف عن السؤال.

وأصبح اسم إسماعيل شيئاً يشبه ذكرى بعيدة، كلما نطقه أحد أمامه شعر بغصة وضياح وعدم فهم وقلة حيلة.

لم يتواصل إسماعيل معه.

لم يرسل رسالة.

لم يظهر في مؤتمر.

لم ينشر بحثاً.

لم يعد إلى زغرب.

حتى الأخبار القادمة من مصر لم تحمل أي أثر واضح له، وكأنه اختار أن يختفي من العالم، لا من مدينة واحدة فقط.

لكن كروغر لم يستطع أن ينسى تلك الليلة.

لم يستطع أن ينسى العبارات الأولى.

ولا السطرين اللذين لم يفهمهما إسماعيل.

ولا اللحظة الأخيرة...

حين قرأ الكلمة الأخيرة وسقط الهاتف من يده.

كان هناك شيء في ذلك النص.

شيء جعل إسماعيل يهرب.

شيء لم يخبره به أبداً.

ومع مرور السنوات، بدأ كروغر يربط بيقين تام بين الأمرين أكثر فأكثر:

النص الموجود على ظهر المومياء.

واختفاء إسماعيل.

كان الرابط يبدو واضحاً في داخله، لكنه لم يكن يعرف كيف يثبتته.

وكانت لجنة الفراعنة التفسير اليتيم بين يديه للحين.

# الفصل الأخير

بأ... من جسد إلى جسد

## الألفية الثانية قبل الميلاد ..

في ذلك المساء كان النيل ينساب بوادعة مهيبية، كأنما يستغرق في صلاة صامتة، ممتداً في سكونه تحت سماءٍ التهم مغيبها آخرَ شذرات الذهب الجريح، تاركةً الأفق وراءها مصبوغاً بأرجوانٍ داكنٍ شاحب، ما لبث أن ذاب برفق فوق صفحة الماء الراكدة. وعلى ضفتيه، تناثرت قناديلٌ خجولة ترتجف خلف ستارٍ كثيف من النخيل، في حين انبعثت في أرجاء المعابد رائحة بخورٍ عتيق، امتزجت بعبق الطين الرطب، ونكهة سمكٍ مجفف، ودخان المشاعل التي بدأت تلتهب متزامنةً مع أولى أنفاس الليل المنسكية.

وتحت نخلة شاهقة أخذت من السماء قامتها، التأم شملُ أربعة رجال في دائرة ضيقة متكئة، نأوا بأنفسهم عن دروب العابرين وصخبهم، فلا يؤنس وحشتهم سوى رنين الماء المتهادي وحفيف السعف المعلق في الفضاء. كانوا إيتروسكان.

ولم يكن مقامهم في وادي مصر عابراً أو طارئاً؛ بل سكبوا أعماراً طوالاً بين جنبات معابدها المقدسة، ينهلون من الكهنة أسرار الفلك العلوية، ودهاليز الموت، وتلك الطقوس الروحانية المهيبة التي لا تُلقى إلا لمن صُهرت روحه فأثبتت قدرتها على حمل السر دون أن تنكسر تحت وطأة جلاله. ارتدوا أوديةً فضفاضة من الكتان الداكن، حُيكت أطرافها بتطاريز هندسية بالغة الدقة، وعلق بعضهم في نحورهم تمائم من أحجارٍ صغيرة نُقشت برموز غامضة.

كان "لارس" شيخهم الأكبر، ذا وجهٍ شاحبٍ منحوت، وعينين غائرتين يملؤهما سكونٌ مخيف. ويليهِ "تاركون"؛ رجلٌ ممتلئ البنية، كَفَن وجهه بلحية قصيرة، وتوسدت في قبضته عصاً سوداء ممشوقة. أما الفتيان "أرانث" و"فيلس" فرغم حداثة سنهما، لم يكونا أقل هيبة؛ إذ ارتسمت على ملامحهما تلك الصرامة المقدسة التي نحتتها عقود من التعامل مع أسرارٍ طُويت عن أعين العامة.

لم يتبادلوا حديثاً لردح من الزمن، بل أسلموا أبصارهم لتيار النيل، يرقبون أسرارهِ السارية في الظلام.

وأخيراً قال فيلس بحزن فاضح:

- سيُلقى على سيدنا الحكم عند الفجر.  
لم يسأله أحد عن يقصد، فالمقصود اسمٌ يجول في خيال كل منهم الآن.  
سأل أرائث:

- سيكون حكماً بالموت.. صحيح؟!  
علّق كبيرهم لارس:

- بل أسوأ.  
رفع الرجال عيونهم إليه بدهشة فتابع:

- الموت نهاية .. أما هو...  
صمت للحظة وقد غصّ بدموعه.

- فقد حكموا عليه بأن يموت دون أن يُسمح لروحه بأن تجد الطريق الذي  
أعده المصريون للموتى.  
سأله تاركون:

- سيُحنط.  
- نعم.  
- وسيُدفن.  
- أجل.  
- إذن أين العقوبة؟  
- في كل ذلك.  
نظروا إليه بدهشة.

تابع:

- سيحفظون جسده ويغلقون عليه قبراً، لكنهم سيحرمونه من كل ما يجعل  
الجسد المحنط جسراً إلى الأبدية. سيُحفظ الجسد، وتُلعن الروح، ويُمحى  
اسمه من السجلات. سيبقى موجوداً دون أن يُسمح له بأن  
يكون موجوداً.  
تمتم فيلس:

- الفرعون يريد أن يهزمه حتى بعد موته.  
رفع لارس رأسه.

- رمسيس لا يخشى سحر حورمحب، رمسيس يخشى شيئاً أخطر.
- ماذا؟

نظر إلى الماء بشرود.

- عقل حورمحب.
- ساد الصمت.

كانوا جميعاً يعرفون مدى ذكاء الرجل الذي يتحدثون عنه.

لم يكن حورمحب بالنسبة إليهم مجرد ساحر مصري.

كان المعلم الذي جعلهم ينظرون إلى الموت للمرة الأولى باعتباره مسألة قابلة للفهم، لا قدرًا أعمى. الرجل الذي أخبرهم أن الجسد ليس سوى بيت، وأن الروح يمكن أن تعرف طرقًا لا تعرفها الأجساد، وأن أعظم خطأ يرتكبه الإنسان هو أن يظن أن حدود جسده هي حدود وجوده.

وقد أحبوه لهذا السبب.

وخافوا منه للسبب نفسه.

قال أرانث:

- لا بد أن كبير السحرة في حالة يرثى لها الآن.
- أجابه كبيرهم لارس:

- لا .. سيدنا لا يخشى شيئاً.
- حتى اللعنة؟

ابتسم.

- هل رأيت في حياته حدثاً جعله يصدق أن الآخرين أذكى منه؟
- لم يجب أحد.

فتابع:

- لنذهب إليه.

- الآن؟

- أجل.

- وماذا نستطيع أن نفعل؟

- نواسيه ن نستمع لطلباته الأخيرة، فهذا ما يمكننا فعله على الأقل.



نهضوا جميعاً ومضوا باتجاه السجن.

كان السجن رابضاً في الجهة الشرقية من المدينة، وراء سور حجري سميك، في مكان لا يصل إليه ضوء القمر إلا متكسراً فوق الأبراج والممرات. وما إن عبر الإيتروسكان بوابته حتى تغير الهواء؛ اختفت رائحة النيل، وحل محلها مزيج من الرطوبة والحجر والعرق والدخان، وكانت المشاعل المثبتة على الجدران ترمي بضوءٍ أصفر ضعيف يترك بين كل مشعل وآخر مساحات من الظلام تبدو كأنها بوابات إلى مكان آخر.

ساروا خلف الحارس بصمت.

مروا بعدة أبواب.

ثم نزلوا درجات حجرية ضيقة إلى الجزء السفلي من السجن.

وكلما نزلوا، أصبح الهواء أبرد.

في النهاية توقف الحارس أمام باب لا يختلف كثيراً عن الأبواب الأخرى، لكنه كان أثقل، وأشد تدعيماً، وعليه ختم الفرعون.

فتح الحارس القفل، صرّ الباب، ثم ابتعد.

دخل الإيتروسكان.

كانت الزنزانة ضيقة، مستطيلة، جدرانها من الحجر الخام الذي تسربت إليه الرطوبة العفنة حتى أصبح لونه قريباً من السواد. في أعلاها فتحة صغيرة ذات قضبان غليظة، لا تسمح بدخول أكثر من خيط من الهواء والضوء. وعلى الأرض حصيرة قديمة ملطخة بالطين، وبجانبها إناء ماء مكسور

الحافة، وطبق حجري لم يبق فيه إلا بقايا طعام لم يعد صالحاً للأكل.

وفي الطرف البعيد جلس سيدهم حورمحب.

كان مكبل اليدين.

ظهره إلى الجدار.

قدماه عاريتان، وعلى جسده ثوب أبيض ممزق عند الكتف، وقد ظهرت على ذراعه كدمات زرقاء داكنة. كان شعره قد انحل، وانسدل حول وجهه، ولحيته نمت على غير عادته، وجعل المرض والإرهاق عظام وجهه أكثر بروزاً.

لكن عينيه...

لم تكونا عيني رجل مهزوم.

حين رفعهما نحوهم، شعر كبير الإثروسكان بشيء بارد يسري في عموده الفقري،  
وكان حورمحب عرف أنهم سيأتون، بل بدا وكأنه كان ينتظرهم.



ابتسم وقال بهدوء:

- تأخرتم.

اقترب كبيرهم لارس وساعده على النهوض.

- سامحنا يا سيدنا.

نظر إلى الباب.

- أغلقوه.

فعلوا فخيم صمت ثقيل على الزنزانة. قال لارس:

- جننا لنودعك ونستمع إلى طلباتك الأخيرة.

ضحك حورمحب.

ضحكة صغيرة، ساخرة، لم يكن فيها أي غضب.

- الوداع كلمة يقولها من يظن أن النهاية وصلت.  
نظر إليه لارس بدهشة:
- لكن تنفيذ الحكم غداً صباحاً.  
رفع عظيم السحر عينيه إليه وقال بثقة غريبة.
- الحكم النهائي ألقه أنا وليس رمسيس.  
جلس الإيتروسكان أمامه، وظل حورمحب يحدق فيهم واحداً واحداً وهو يستذكر سنواته معهم ودروسه المكثفة لهم عن السحر والروحانيات وكوكبة من الأمور الأخرى، ثم خاطبه لارس بطاعة:
- نحن رهن إشارتك سيدنا.  
اقترب منه وقال بصوت خافت:
- أصغوا جيداً لما سأقوله لكم، فالخطأ ممنوع في الساعات القادمة.  
اقتربوا أكثر منه وأصغوا بتركيز.
- أريدكم أن تقنعوا كبير الكهنة بأن يكتب تعويذة اللعنة على صدري بلغتكم الإيتروسكانية.  
تبادل الأربعة النظرات بدهشة.
- بلغتنا؟
- نعم.
- لماذا؟
- ابتسم بمكر.
- لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف تفكر الآلهة، أما أنا فأريد أن أعرف كيف يفكر البشر.  
تمتم لارس:
- لم أفهم.
- كبير الكهنة سيعتقد أن اللغة التي لا يفهمها عامة الناس تمنح التعويذة قوة إضافية. وسيعتقد أن الكلمات الأجنبية يصعب قلبها أو تحريفها، وأن وضعها على الصدر سيجعل اللعنة محكمة الإغلاق.  
سأله فيلس:
- وهل سيقبل؟

- سيقبل.
- بهذه السهولة؟
- ضحك بسخرية.
- لا توجد فكرة أسهل بالإقناع من الفكرة التي تجعل صاحبها يعتقد أنه أذكى من الجميع.
- نظر الإيتروسكان إلى بعضهم.
- سأل لارس:
- وبعد ذلك؟
- هنا يأتي دوركم الأهم في الحكاية .. فبعد انتهاء طقوس اللعنة، ستكتبون بأنفسكم نصاً مختلفاً على ظهري وبلغتكم أيضاً.
- قطب لارس حاجبيه.
- على ظهرك؟
- نعم.
- ولماذا الظهر؟
- اقترب منه أكثر وهمس.
- لأن البشر اعتادوا على تصديق ما تراه عيونهم أمامها، ولا يكثرثون لما يتخفى خلف الستر والجدران.
- ثم ابتسم.
- وأنا أريد أن أنظر إلى المستقبل الذي لا نراه، لا إلى الحاضر القابع أمام عيوننا.
- ساد الصمت للحظات وكأن الجميع يتأمل في عبارات سيدهم الغريبة.
- سأله تاركون أخيراً:
- وما الذي سنكتبه؟
- تعويذتي الخاصة.
- أي تعويذة؟
- كلمات ستظل هناك بعد أن ينسى الجميع لماذا كتبت.
- علق لارس:
- وغايتها.

رفع حورمحب رأسه.

- خلود البا بعد حرمانه من خلود الكا.
  - نظر الإيتروسكان إلى بعضهم بدهشة، إذ بدا لهم وكأنّ سيدهم قد جنّ، ثم قال أرانث:
  - لم نفهم !
  - أنتم تتذكرون أن البا هو الجزء من الإنسان الذي يمكنه مغادرة جسده بعد الموت و العودة إليه في عالمنا ..
  - بالطبع ..
  - والكا هو الجزء الذي يغادر الجسد إلى العالم الآخر ولا يعود أبداً..
  - صحيح..
  - رمسيس سيحرمني من انتقال الكا وخلودها في العالم الآخر، لذا سأركز على خلود البا وانتقالها من جسدي إلى أجساد أخرى في عالمنا هذا.
  - وهل يمكنك فعل ذلك؟
- قهقهه بتكبر:

- بالطبع يمكنني فأنا كبير السحرة .. وسأملّي عليكم تعويذتي الخاصة بعد انتهاء طقوس كبير الكهنة.
- وماذا تريد منا بعد الكتابة؟
- أريدكم أن تمارسوا طقس انتقال البا الذي سأعلمكم إياه الآن كأخّر دروسي لكم.
- لم يعلّق أحد.

حتى اللهب الصغير في المشعل بدا كأنه توقف للحظة.

قال تاركون أخيراً.

- إن ما تقوله غريب للغاية، بل هو أقرب إلى المستحيل.
- ابتسم حورمحب وقال ببرود مخيف.

- المستحيل كلمة اخترعها الجاهل لحماية نفسه.

قال لارس بريية:

- لكنه طقسٌ لم يُجرّب من قبل على حد معرفتي.
- بالطبع لم يجرب، فكل الناس يريدون الانتقال إلى العالم الآخر بعد الموت، ولا أحد عاقل يرغب في تجربة عالمنا البائس من جديد ويترك العالم الآخر

المذهل، لذا فالتركيز دوماً على انتقال الكا ولا أحد يفكر بانتقال البا. أما أنا فسيفرض رمسيس علي أن أبقى في عالمنا، لذا سأضمن خلودي فيه على أقل تقدير. لقد عوقبت لأنني طلبت الخلود في هذا العالم، ولكنني لم أفعل ذلك لأنني أشكك بالعالم الآخر، بل لأن لدي طموحات كبيرة في عالمنا هذا تستلزم عمراً طويلاً جداً لتحقيقها.. أريد تعلم كل شيء واكتساب المعرفة المطلقة وحكم العالم بأسره.

- لكن ماذا لو فشل الطقس؟

نظر حورمحب إلى القيود في يديه.

ثم إلى جسده النحيل.

- وماذا لدي لأخسره إن فشل؟ لكن إن نجح ...  
عندها تغير وجهه. لم تعد ابتسامته ساخرة، وأصبح في عينيه شيء أقرب إلى اليقين.

- فإنني لن أموت في جسدي بل سأعيش في أجساد أخرى حية للأبد.  
سأله فيلس:

- ومن يضمن لك أن الجسد الجديد سيكون جديرًا بك؟

- جديرٌ بي؟

- نعم. قد يكون شريرًا.

- لا يهم.

- قد يكون غيبًا.

- لن يكون.

- كيف تعرف؟

- لأن الغبي لن يصل إلى قراء التعويذة بلغة غريبة على ظهري.

ابتسم بدهاء..

- والجبان لن يقلب المومياء، والكسول لن يغامر ليعرف سر المومياء

خاصتي، والأحمق لن يتعلم لغتكم.

ثم مال إلى الأمام حتى صار صوته همساً:

- والذي ينجح في كل ذلك ليس رجلاً عادياً.

سأله كبير الإيتروسكان لارس:

- وماذا يكون إذن؟
- سيكون رجلاً يشبهني.
- سكت للحظات، ثم قال بثقة مفرطة:
- وهذا كل ما أريده.
- تريد أن تختار جسدك التالي عن طريق فضول صاحبه إذن؟
- ابتسم بدهاء.
- بالضبط .. أريد أن أترك للفضول أن يختار لي أفضل الأجساد.
- قال تاركون:
- أنت تراهن على طبيعة البشر وهذا خطأ.
- أنا أعرف طبائع البشر جيداً.
- ربما يأتي إليك رجل يريد الشهرة فقط.
- سيظل ذكياً.
- أو رجل يبحث عن المال.
- سيظل طموحاً.
- أو رجل يريد كشف سر قديم.
- سيكون فضولياً.
- نظر في عيونهم جميعاً بتركيز:
- لا أحتاج إلى رجل صالح، ولا إلى رجل غني، أحتاج فقط إلى رجل قوي العقل.
- سأله لارس السؤال البديهي الذي يفكر به الجميع:
- ولكن إذا مات الجسد الجديد؟
- تعود البنا إلى المومياة خاصتي.
- ثم؟
- تنتظر حتى يأتي قارئ آخر. الفضوليون كثر وغاياتهم متنوعة ومتشعبة، والمومياة التي كتب على جسدنا بلغة غريبة ستبقى لغزاً يداعب أحلام الآلاف ويدفعهم بالقوة لفكه.
- علق أرانت:
- إذن فالكتابة بلغتنا أشبه بطعم أو فخ للفضوليين والمغامرين.
- تماماً.

- وماذا عن العالم الآخر؟
- لقد حرمني رمسيس منه، لكني سأصنع لي واحداً هنا.

في اليوم التالي، حدث كل شيء كما توقع حورمحب.

دخل كبير الكهنة.

أقيمت الطقوس.

ارتفعت أعمدة الدخان.

قُرئت الصلوات.

وأعلن أن الساحر سيُحرم من الطريق الذي أراده لنفسه في العالم الآخر.

وحين جاء الوقت، كُتبت تعويذة اللعنة على صدره باللغة الإيتروسكانية. ولم يعترض عليها كبير الكهنة، بل بدا مسروراً بفكرة الرهبان الإيتروسكان. إذ اقتنع بأن اللغة الغريبة ستجعل اللعنة أكثر إحكاماً، وأن الكلمات التي لا يفهمها أحد من أتباع الفرعون لن يستطيع أحد العبث بها. ولم يعرف أن الكلمات التي ستكتب على الصدر ليست سوى القفل. أما المفتاح... فسيكتب على الظهر.

بعد انتهاء الطقوس، غادر الكهنة الفراعنة، وبقي الإيتروسكان بمفردهم للحظات. وعندما اطمأنوا أنهم لوحدهم تماماً، قلبوا مومياء حورمحب. كان جسده ضعيفاً، لكن عينيه كانتا يقظتين. أملى عليهم الكلمات، فكتبوها ثم أعادوه إلى وضعه وبدأوا الطقس.

لم يكن طقساً يشبه ما عرفه الناس من كتاب الموتى.

كان أقدم من ذلك، وأشد سرية.

أخذت المشاعل تنطفئ واحدة بعد أخرى، حتى لم يبق في الغرفة إلا ضوء خافت، ثم وضع كبيرهم يده فوق رأس حورمحب، وبدأ يردد الكلمات التي علمهم إياها.

وفي تلك اللحظة، لم يعد حورمحب يفكر بجسده، كان يفكر بالمستقبل.

كان يعرف أن جسده سيترك ليتحنط طبيعياً بالحرمان من الطعام والشراب.

وأن روحه ستعلق في جسده للأبد.



وأن القبر سيُنسى.  
وأن الحضارات ستتغير.  
لكنه كان يعرف أيضاً حقيقة واحدة لم يتعلمها رمسيس:  
كلما طال عمر السر، زادت قيمة من يكتشفه.  
وهكذا دُفن حورمحب ..  
ومرت السنوات .. ثم القرون.  
وسقطت أسماء ملوك .. وانطفأت معابد .. وتغيرت اللغات.  
لكن المومياة بقيت .. وعلى ظهرها ظل النص .. ينتظر.  
ولم يكن إسماعيل أول من وصل إليها.  
قبل إسماعيل، جاء عشرات آخرون.  
باحثون.  
مغامرون.  
مؤرخون.  
رجال دفعهم ذلك النوع النادر من الفضول الذي لا يسمح لصاحبه بالنوم ما دام  
هناك باب مغلق لم يُفتح.  
كان بعضهم يكتفي بما على الصدر.  
وبعضهم يرحل.  
لكن القليلين فقط كانوا يملكون الصبر والجرأة الكافيين للبحث عن بقية الحكاية.  
وحين يجد أحدهم النص على الظهر، تبدأ المرحلة الحقيقية :  
يترجمون .. ثم تقودهم الكلمات .. ثم يصلون إلى التعويذة .. وبمجرد أن يقرأوها...  
يبدأ انتقال البا إلى أجسادهم .. وكان ذلك مخيفاً ..  
فلم يكن حورمحب يظهر لهم كشبح.  
ولم يكن يأتيهم في المنام.  
كان الأمر أكثر رعباً من ذلك.

كان يدخل إليهم.

ببطء.

بلا صوت.

حتى تبدأ أفكار ليست أفكارهم بالظهور في رؤوسهم، وذكريات لا يعرفون مصدرها تجتاح وعيهم، ورغبات لم تكن موجودة قبل قراءة النص تدفعهم بالقوة لتنفيذها.

وفي النهاية يصبح السؤال نفسه بلا معنى:

أين ينتهي عقل الرجل؟

وأين يبدأ حورمحب؟

كان حورمحب يعيش فيهم.

يستعمل عقولهم.

يأكل بأجسادهم.

يمشي بأقدامهم.

ويستفيد من أعمارهم.

وحين يموت الجسد، تعود البا إلى المومياء.

ثم تنتظر.

ثم يأتي آخر.

وهكذا ظل الرجل - الذي أراد رمسيس أن يعاقبه - حيًا على نحو لم يتخيله أحد.

كان الفرعون قد حرمه من خلود الآخرة.. لكن حورمحب اخترع لنفسه خلودًا آخر.. خلودًا لا يحتاج إلى معبد.. ولا إلى قبر مفتوح.. ولا إلى كهنة.

كان يحتاج فقط إلى قارئ.

قارئ واحد في كل جيل.

وهذا كان كافيًا.

أما إسماعيل...

فكان مختلفًا.

كان عقلاً نادرًا، ولذلك لم يكتفِ بقراءة النص.

بحث.

وقارن.

وفكك.

وشكك.

ثم قلب المومياة.

وعندما ظهرت الكتابة على ظهرها، لم يكن يعلم أنه لا يكتشف سرًا قديمًا، بل يفتح بابًا مغلقًا للبا.

وحين قرأ الكلمات، لم يترجم نصًا فحسب، بل سمح لحورمحب بأن يعثر عليه. ومنذ اللحظة التي انتهى فيها من قراءة الكلمة الأخيرة، لم يعد إسماعيل الرجل نفسه.

عاد إلى مصر بقرارٍ من حورمحب المسيطر على كيانه.

إلى الأقصر.

إلى المكان الذي بدأت فيه حكاية عظيم السحر قبل آلاف السنين.

وهناك، بين الأعمدة التي حملت ظلال الكهنة، والبرديات التي نجت من الحرائق، والنقوش التي قاومت محو الملوك، بدأ يبحث.

لكن هذه المرة لم يكن إسماعيل يبحث وحده.

كان في رأسه رجل آخر.

رجل عاش في هذا المكان، لكن في زمن لم يعد موجودًا.

رجل لم يتخلَّ عن حلمه.

رجل قضى آلاف السنين ينتظر عقلاً يستطيع أن يكمل عنه ما عجز هو عن إكماله.

وكان هدفه هذه المرة أكبر من مجرد الانتقال إلى جسد جديد.

لقد سئم حورمحب من الموت المؤقت.

سئم العودة إلى المومياء.

سئم انتظار قارئ جديد.

أراد أن يخرج نهائيًا.

أن يجد الجسد الذي لا يموت.

ولهذا بدأ إسماعيل يقرأ.

قرأ البرديات.

قرأ أساطير الكهنة.

قرأ وصف المواد التي ارتبطت في الذاكرة المصرية القديمة بالحياة الأبدية.

قرأ عن النباتات والمعادن والخلطات التي بحث عنها المصريون تحت أسماء مختلفة، وعن الأسطورة التي ظلت تنتقل من جيل إلى جيل حول مادة قادرة على مقاومة فساد الجسد.

كان يبحث عن اسم واحد.

عن شيء واحد.

عن السر الذي لم يستطع حورمحب الوصول إليه في حياته الأولى.

### **إكسير الحياة.**

ولم يعد هدف البحث أن يجعل إسماعيل خالدًا.

كان الهدف أن يجعل جسد إسماعيل خالدًا.

لأن الجسد إذا لم يمت...

فلن تضطر البوا إلى العودة إلى المومياء والانتظار من جديد.

وهكذا، للمرة الأولى منذ آلاف السنين، بدأ أن حورمحب يقترب من تحقيق الحلم الذي ظن رمسيس أنه دفنه معه.

وإسماعيل لم يكن مجرد وعاء.

كان عقلاً استثنائياً.

وعقل إسماعيل لم يكن أضعف من عقل حورمحب، بل ربما كان أقوى.

ولهذا أصبح السؤال أكثر خطورة من أي وقت مضى:

**ماذا يحدث حين يلتقي عقل رجل من القرن الحادي والعشرين بروح ساحر عاش في زمن الفراعنة؟**

هل يستخدم حورمحب عقل إسماعيل للوصول إلى الخلود؟

أم يستخدم إسماعيل معرفة حورمحب ليكتشف ما لم يستطع هو اكتشافه؟

وهل يمكن أن يتحول الصراع بين الرجلين إلى اتحاد؟

اتحاد لا يعود فيه واضحاً من يقود الآخر؟

في الأقصر، كان حورمحب يجلس ليلاً في جسد اسماعيل أمام برديات قديمة.

يقرأ تحت ضوء مصباح صغير.

يداه تقلبان الصفحات ببطء.

أما عيناه...

فكانتا تحملان ذكاء رجلين.

وفي مكان بعيد جداً، في زغرب، كانت موميأوه مستلقية داخل صندوقها الزجاجي.

لكن شيئاً واحداً تغير.

للمرة الأولى منذ آلاف السنين، لم تعد الباتنتظر العودة إليها.

لقد وجدت جسداً مثالياً تريده أن يكون الأخير.

والآن بدأت رحلة البحث الجدية عن إكسير الحياة.

رحلة قد تنتهي بأن يصبح جسد اسماعيل خالداً في عالمنا...

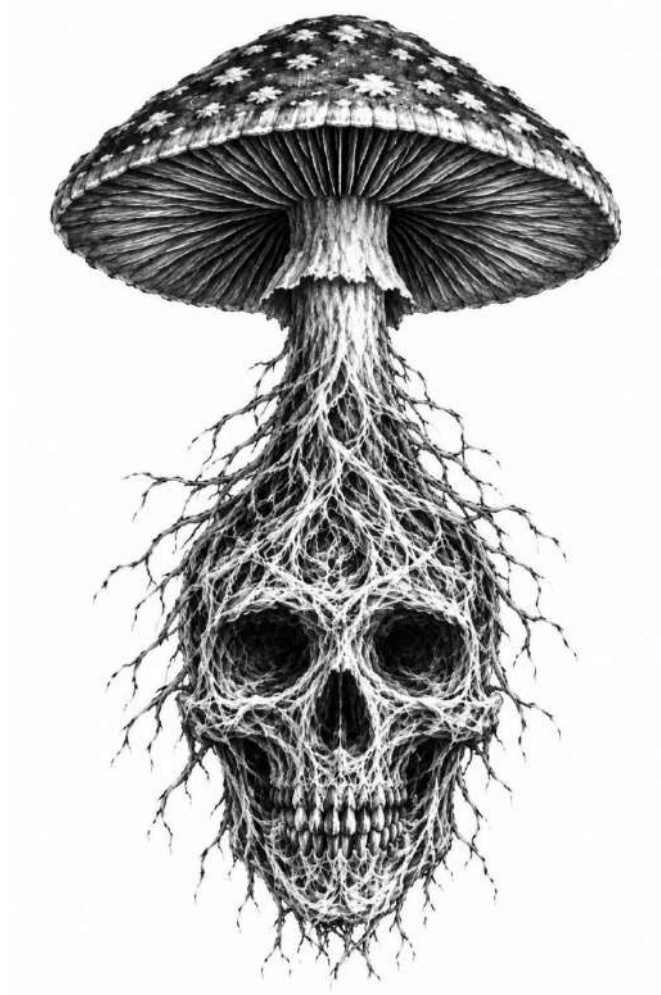
أو بأن يكتشف حورمحب، متأخراً جداً، أن أسوأ لعنة على الإنسان ليست الموت الذي يحاول الهرب منه ويطلب نقيضه من الخلود في هذا العالم .. بل أن يحرم من العالم الآخر والخلود فيه كما حدث معه .. فمن يتذوق لقمة من ذاك العالم سيبقى

في عالمنا جائعاً ولو فرشت أمامه المآدب بأطايبها إلى أبد الأبدين.



# ميسيليوم

( كيف تسيطر على عقول الناس ؟ )



## الرواية الرابعة



میسلیوم ..

## فصول الرواية :

- ملك الفطريات ..
- تائه بلا بوصلة ..
- منظمة ميسيليوم ..
- سيلوسييين ..
- طفيلي على الطفيلي ..
- الزومبي ..
- الموت لصالح المستعمرة ..
- نشر الأبواغ ..



# الفصل الأول

## ملك الفطريات

## الخطوة الأولى : الضغط العالي والخروج عن الصراط

تحت الأضواء الخافتة التي تتدلى من سقف مختبره الإمبراطوري، بدا البروفيسور تشايتون تسوسي في تلك الليلة كأنه خرج من زمن آخر، زمن لم تكن فيه المعارك تُخاض بالسيوف وحدها، بل بالإرادة والمعرفة والقدرة على النظر أبعد مما تسمح به عيون الآخرين. كان واقفاً أمام أجهزته ومجاهره الإلكترونية، محاطاً بشاشات تتراقص عليها صور مكبرة لعوالم مجهرية لا يكاد العقل البشري يصدق بوجودها، ومع ذلك لم يكن في هيئته شيء من صورة العالم التقليدي الذي اعتاد الناس أن يتخيلوه كرجلٍ شاحب يختبئ خلف الكتب والأوراق، ويقضي عمره في مطاردة التفاصيل الصغيرة داخل صمت المختبرات.

كان تشايتون أقرب إلى زعيم قبيلة يستعد لغزوة لا يعرف أحد متى تبدأ، لكنه يعرف جيداً أن عليه أن يكون مستعداً لها حين تأتي.

ربما كان في ملامحه ما يفسر ذلك الانطباع قبل أن تتحدث عيناه. فقد ورث عن أجداده من الهنود الحمر هيئةً تحمل شيئاً من صلابة الأرض التي أنجبته؛ فبشرته نحاسية بلون طمي رطب لم تمسه يد الإنسان بعد، لونٌ بدا وكأن الشمس العتيقة تركت عليه أثرها ثم مضت. أما عيناه فكانتا سوداويين حادتين، تشبهان عيني صقرٍ لا يحدق في الأشياء ليراها، بل ليفككها ويبحث عمّا تخفيه. وكان من الصعب على من يقف أمامه أن يحتمل نظراته طويلاً؛ إذ كانت عيناه تمنحانك ذلك الشعور المغناطيسي الغريب بأن الرجل لا ينظر إلى وجهك، وإنما يحاول أن يستولي على وعيك.

وكان شعره الفحامي مسترسلاً على الرغم من تقدمه في العمر، ويربطه دائماً إلى الخلف في هيئة تزيد من صرامة ملامحه، وتمنحه شيئاً من الكبرياء الذي لم يكن يحاول إخفاءه أصلاً.

لم يكن تشايتون من الرجال الذين يعتذرون عن طموحهم، ولا من أولئك الذين يتعلمون مبكراً كيف يصغرون أحلامهم كي تبدو مقبولة في أعين الآخرين. كان يؤمن بأن العلم، في جوهره، ليس رحلة هادئة نحو إجابات معروفة، بل اقتحام مستمر للمجهول؛ وكلما ارتفع أمامه جدار من المستحيل، شعر برغبة أكبر في معرفة ما يوجد خلفه.

كان الطموح يجري في عروقه كالنار.

ولم يكن طموحه من النوع الذي يكتفي بالشهرة أو بالألقاب أو بأن يُذكر اسم صاحبه في صفحات الكتب. كان يريد أن يصل إلى الأشياء التي لم يصل إليها أحد قبله، وأن يفتح أبواباً لم يفكر الآخرون حتى في وجودها. لذلك كانت جرأته أحياناً تبدو للذين يعملون معه أقرب إلى التهور، غير أن الرجل كان يمتلك من الثقة بحدسه ما يجعل الآخرين يترددون في وصفها بذلك. كان يعرف كيف يحول هوسه الشخصي إلى حماسة جماعية، وكيف يجعل من يعملون معه يشعرون أنهم لا يشاركون في تجربة علمية عابرة، بل في حملة طويلة ضد جهل البشرية. ولهذا كانوا يتبعونه.

لم يكن تشايتون يحتاج إلى رفع صوته كي يفرض حضوره. كان يكفي أن يدخل المختبر، حتى تتغير وتيرة المكان من حوله. الباحثون يتوقفون لحظة عن أحاديثهم، والأجهزة تستمر في إصدار أصواتها المنتظمة، والشاشات تواصل بث عوالمها الصامتة، بينما يتقدم هو بينها كجنرال يتفقد جنوده قبل معركة لا يعرف طبيعتها أحد سواه.

ولم يكن لقبه الذي اشتهر به في أروقة جامعة أكسفورد، «ملك الفطريات»، مجرد لقب أطلقه عليه زملاؤه بدافع الإعجاب أو المزاح. لقد كسبه.

في الوقت الذي كان فيه كثير من علماء النبات ينجذبون إلى الأزهار بألوانها الأسيرة، وإلى الأشجار بارتفاعها المهيّب، وإلى النباتات التي ترفع نفسها نحو الشمس وكأنها تعلن وجودها للعالم، كان تشايتون يهبط ببصره إلى الأسفل. كان يبحث عن شيء لا يراه معظم الناس، شيء يعيش بعيداً عن الضوء، تحت طبقات التربة وبين جذور الأشجار وفي الأماكن التي يمر بها الإنسان دون أن يفكر لحظة فيما يحدث تحت قدميه.

كان يبحث عن الفطريات.

ومنذ سنواته الأولى في هذا المجال، لم يرَ فيها مجرد كائنات غريبة تنبت بعد المطر، أو أجساماً صغيرة تتعفن فوق جذوع الأشجار، أو حلقات فطرية تظهر في الغابات ثم تختفي. كان يرى فيها عالماً كاملاً، عالماً موازياً للعالم الذي يعرفه البشر، لكنه أقدم منه وأكثر صمتاً وأشد تعقيداً.

كان يفتنه ذلك التناقض الغامض في طبيعتها.

الفطر يظهر غالبًا في اللحظة التي يظن فيها الإنسان أن كل شيء انتهى؛ على الخشب الميت، فوق الأوراق المتحللة، وبين بقايا الكائنات التي غادرت الحياة. لكنه، من ذلك الموت نفسه، كان يصنع شيئاً آخر. كان يعيد المادة إلى دورة جديدة، ويفكك ما انتهى ليمنح الحياة فرصة أخرى للبدء. وكأن الطبيعة، في نظر تشايتون، لم تكن تعرف كلمة «نهاية» بالمعنى الذي يعرفها البشر، بل تعرف التحول فقط.

وكان ما يثيره أكثر تلك الشبكات الخيطية الفطرية الهائلة التي تمتد في أعماق التربة، خيوط دقيقة تكاد تكون غير مرئية، لكنها حين تتشابك تصبح منظومة واسعة تمتد لمسافات لا يتخيلها الإنسان. لم يكن تشايتون ينظر إليها بوصفها مجرد بنية بيولوجية، بل كان يتساءل دائماً عما إذا كانت تلك الشبكات تفعل أكثر مما ظن العلماء طويلاً أنها تفعله.

هل تتواصل؟

هل تتبادل المعلومات؟

هل تستشعر ما يحدث حولها؟

هل تمتلك، بطريقة تختلف جذرياً عن ذكاء الإنسان، شكلاً من أشكال الوعي والإدراك؟

كانت تلك الأسئلة بالنسبة إليه أكثر إثارة من أي إجابة جاهزة.

وكان يؤمن أن البشر ارتكبوا خطأ قديماً حين جعلوا الذكاء مرادفاً للدماغ. ربما كانت هناك طرق أخرى لفهم العالم، وطرق أخرى للاستجابة له، وطرق أخرى لتخزين المعلومات ونقلها. وربما كانت الفطريات، التي عاشت في الظل ملايين السنين دون أن تحتاج إلى عيون أو آذان أو أدمغة، تحمل أسراراً عن معنى الحياة لم يخطر للبشر أن يبحثوا عنها في ذلك المكان.

ومن هنا بدأ افتتانه يتحول إلى شغف، وتحول الشغف شيئاً فشيئاً إلى هوس

علمي كامل.

كان يستطيع أن يقضي ساعات أمام عينة فطرية واحدة، يتابع نمو خيوطها تحت المجهر، ويراقب انحناءاتها وتفرعاتها الدقيقة وكأنه يتابع كتابة رسالة بلغة لا يعرف أبجديتها بعد. وكان يرى في كل تغير صغير احتمالاً، وفي كل ظاهرة غير مفسرة باباً، وفي كل باب عالماً جديداً ينتظر من يجروا على فتحه.

وبمرور السنوات، لم يعد تشايتون مجرد عالم متخصص في الفطريات.  
لقد أصبح اسمًا مرتبطًا بها.

وحين كان زملاؤه في أكسفورد يطلقون عليه لقب «ملك الفطريات»، لم يكن اللقب يشير فقط إلى حجم إنجازاته، بل إلى الطريقة التي عايش بها هذا العلم. لقد جعل من الفطريات محرق اهتمامه وجهده، ثم استطاع أن يجعل العالم نفسه ينظر إليها بالطريقة التي ينظر هو إليها.

ومع ذلك، كان هناك شيء واحد في حياته لم يستطع العلم أن يستولي عليه. شيء ظل بعيدًا عن مختبراته، وعن شاشاته، وعن مئات العينات المحفوظة بعناية، وعن الأسئلة التي كانت تطارده حتى أثناء نومه.  
قلبه.

ذلك القلب، خلف كل الصرامة التي يعرفها زملاؤه، كان معلقاً وضعيفاً أمام شخصين فقط.

حين يغادر المختبر الإمبراطوري في ساعات متأخرة من الليل، ويبتعد عن رائحة المواد الكيميائية وأصوات الأجهزة والضوء البارد للشاشات، ثمة عالم آخر ينتظره على مسافة غير بعيدة، في منزله الدافئ القريب من الغابة.  
هناك كانت سيلينا تنتظره.

زوجته التي لم تحاول يومًا أن تنتصر على جنونه العلمي، ولم تطلب منه أن يكون رجلًا آخر غير الرجل الذي أحبه. كانت تعرف أن في داخله شيئًا لا يمكن إخماده، وأن محاولة اقتلاعه من مختبره ستكون أشبه بمحاولة اقتلاع شجرة من جذورها ثم إقناعها بأن تنمو في الهواء. لذلك اختارت أن تكون المكان الذي يعود إليه، لا القيد الذي يمنعه من الرحيل.

كانت سيلينا رقيقة على نحو لا يشبه ضعفًا، وهادئة بطريقة تمنح البيت توازنًا لا يستطيع تشايتون أن يصنعه بنفسه. كانت تعرف متى تتحدث، ومتى تتركه غارقًا في صمته، ومتى تنتشله من أفكاره بسؤال بسيط يعيده للحظة إلى العالم الحقيقي. وفي حضورها كان الرجل الذي اعتاد أن يقود فريقًا من العلماء ويطارد أسرار الفطريات شخصًا مختلفًا تمامًا؛ أقل صلابة، أقل استعجالًا، وكأنه يستطيع للمرة الأولى أن يضع سلاحه جانبًا.



أما تالة، ابنته الصغرى، فكانت نصف قلبه الآخر.

كانت قد ورثت عنه عينيهِ اللامعتين، تلك العينين اللتين لا تكتفیان بالنظر إلى الأشياء، بل تريدان أن تعرفا لماذا هي موجودة أصلاً. وكانت تحمل، رغم صغر سنهما، شيئاً من ذلك الفضول الذي لم يفارق والدها منذ أن عرف معنى السؤال.

كان تشايتون يرى فيها امتداداً لاختباراته القديمة، لكن ليس بمعنى أنها ستكون عالمة فطريات مثله بالضرورة. كان يكفيه أن يراها وهي تسأل عن شيء صغير في الغابة، أو تتوقف أمام حشرة، أو تنظر طويلاً إلى السماء، حتى يشعر أن ذلك الشعور القديم قد انتقل إليها بطريقة ما : الرغبة في أن تعرف ما وراء الظاهر.

وكان يحبها لهذا السبب أكثر مما يستطيع أن يقول.

في الخارج، كان العالم يراه ملكاً، ورجلاً لا يخاف المجهول، وعالمًا مستعداً لأن يطارد المستحيل حتى آخر حدوده.

أما في ذلك المنزل الهادئ القريب من الغابة، فلم يكن ملكاً ولا جنراً ولا صاحب مختبر إمبراطوري.

كان فقط رجلاً بقلب من جناحين : سيلينا و تالة.

وكانت عائلته، من حيث لا يدري أحد، خيط الحرير الوحيد الذي لا يزال يربطه بالعالم الذي يعرفه البشر؛ العالم الذي له دفء البيوت، وصوت الخطوات في الممرات، وضحكة طفلة، وامرأة تنتظر عودة رجل تأخر كثيراً.

لكن المختبر كان يناديه دائماً.

وكان عالم الفطريات، بذلك الغموض العميق الذي لا يعرف الرحمة، يسحبه شيئاً فشيئاً إلى داخله.

وفي مكان ما بين هذين العالمين، بين البيت الذي يحبه والمجهول الذي يطارده، كان تشايتون تسوسي يقف على حافة شيء لم يكن يعرف بعد إن كان اكتشافاً سيغير وجه العلم، أم باباً إذا فُتح فلن يكون من السهل إغلاقه مرة أخرى.

\*\*\*\*\*

الطمأنينة في هذه الدنيا مجرد هدنة مؤقتة، والزمن لا يضمن لأحد بقاء الرداء دافئاً. عاش "تشايتون" في صومعته المخبرية كمن يعزف لحناً سعيداً لا يسمعه سواه؛

كان يظن أن جدران النجاح تحجب عنه عواصف القدر، وأن هناء العائلة نعمة لا تزول. لكن الحياة التي منحته الأمان، كانت تخفي بين ظلالها المعنمة ملامح المنعطف الخطير. فالخطوب لا تأتي دائماً بصخب الرعود، ولا تطرق الأبواب لتعلن عن قدومها؛ بل تتسلل كالحبر في الماء، يغير لون الوجود كله بكلمة واحدة تسقط في غفلة من الزمن.

هكذا جاء الخبر بلا مقدمات .. وفي أيام قليلة، تبدل كل شيء.

بدأت تالة تفقد شيئاً من حيويتها. في البداية كانت التغيرات صغيرة إلى درجة جعلت من السهل أن تمر دون أن تلفت الانتباه؛ تعب لا يشبه تعب الأطفال، شرود طويل أمام أشياء كانت تستحوذ على اهتمامها، بعض التغيرات التي لم يجد لها تشايتون تفسيراً مقنعاً. وبحكم خبرته العلمية، كان يعرف أن الأعراض المنفردة لا تعني شيئاً، وأن العقل الذي يبحث عن المرض في كل تغير بسيط قد يتحول إلى سجين لاحتمالاته.

لذلك حاول أن يقنع نفسه بأن الأمر عابر.

ثم بدأت التفاصيل الصغيرة تتراكم.

وبدأت الأسئلة التي كان يؤجلها تطرق أبواب عقله بعنف.

لم يكن يخشى المرض كما يخشاه الآباء الآخرون. لقد قضى حياته محاطاً بالأمراض والاضطرابات البيولوجية، وقرأ آلاف الصفحات عن الخلايا والجينات وآليات التلف والموت. كان يعرف أن الجسد ليس حصناً كاملاً، وأن الخطأ قد يولد أحياناً داخل خلية واحدة، ثم ينتشر من نقطة صغيرة لا تُرى بالمجهر إلى جسد كامل لا يستطيع صاحبه الفرار من مصيره.

لكن المعرفة العلمية شيء، وأن ترى ما تعرفه يتحول إلى واقع في جسد ابنتك شيء آخر تماماً.

وحين ظهرت نتائج الفحوصات، شعر للمرة الأولى أن العلم الذي طالما منحه القوة يمكن أن يتحول إلى خنجر على رقبتة.

كان التشخيص واضحاً.

**متلازمة سانفيليبو.**

مرض جيني نادر ومدمر، يُعرف أيضاً باسم الخرف الطفولي، ينتمي إلى تلك

الأمراض التي لا تأتي لتسرق من الإنسان حياته دفعة واحدة، بل تنتزعها منه ببطء، قطعة بعد أخرى. يبدأ الأمر بتغيرات قد تبدو بسيطة، ثم يتقدم المرض في صمت، بينما تتعرض الخلايا العصبية والجهاز العصبي لتدهور متواصل، حتى يبدأ الطفل بفقدان أشياء كان قد امتلكها بصورة طبيعية : قدراته، مهاراته، عالمه الداخلي، ثم شيئاً فشيئاً، نفسه التي يعرفها أهله.

قرأ تشايتون التقرير مرة.

ثم أعاد قراءته.

ثم بقي ينظر إلى اسم المرض طويلاً، كأن الكلمات المكتوبة أمامه قد تكون خاطئة إذا حلق فيها بما يكفي.

كان العالم الذي قضى عمره في تحليل أصغر التفاصيل البيولوجية عاجزاً عن تقبل جملة بسيطة تتعلق بابنته.

تالة مريضة.

ليست مصابة بحمى ستخف.

وليست بحاجة إلى عملية تنتهي بعدها المحنة.

وليست أمام مرض يمكن السيطرة عليه بدواء ثم تعود الحياة إلى مسارها.

كان هناك مرض يتسلل إلى دماغ طفلة لم تعرف من الحياة إلا بدايتها.

وحين بدأ تشايتون يبحث عن كل ما يمكن أن يجده حول متلازمة سانفيليبو، اصطدم بحقيقة أكثر قسوة من التشخيص نفسه. كان المرض تقدماً، وكان الزمن يعمل ضدهما. كل شهر يمر لم يكن مجرد شهر آخر في التقويم، بل كان يعني أن المرض يواصل طريقه داخل جسد ابنته.

كان يستطيع أن يفهم المرض.

كان يستطيع أن يقرأ آلياته.

كان يستطيع أن يتتبع أثره داخل الخلايا.

لكنه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن للكون أن يسمح لطفلة مثل تالة بأن تحمل في جسدها حكماً كهذا.

وللمرة الأولى، لم يكن السؤال الذي يطارده سؤالاً علمياً كما اعتاد في مخبره.

لم يكن هذه المرة: كيف يحدث هذا؟

بل كان:

كيف أنقذ ابنتي؟

بحث تشايتون في كل مكان.

اتصل بمختبرات، وقرأ الدراسات، وتابع التجارب الحديثة، وطرق أبواب علماء لم يكن يلتقيهم إلا في المؤتمرات العلمية. وكلما ظن أنه اقترب من خيط يقوده إلى حل، وجد أمامه جداراً آخر من التعقيدات الطبية والقوانين والتجارب والوقت.

ثم ظهرت أمامه فسحة أمل صغيرة .. العلاج الجيني التجريبي.

كان أشبه بشعاع ضوء في نهاية نفق شديد السواد. علاج مبتكر يحمل وعداً حقيقياً، أو على الأقل احتمالاً حقيقياً، بإيقاف الكارثة أو إبطاء مسارها، وربما منح تالة فرصة للحياة التي بدأ المرض ينتزعها منها.

لكن الأمل كان له ثمن.

ثمن يفوق عشرات الملايين من الدولارات.

قرأ تشايتون الرقم أكثر من مرة.

لم يكن الرقم يعني له في البداية شيئاً. كان مجرد رقم ضخم مكتوب على ورقة، حتى أدرك أنه الرقم الذي يفصل ابنته عن العلاج ... جسدها عن القبر ...

لكن حتى «ملك الفطريات» لم يكن يملك هذا المال.

كل سنوات أبحاثه، وكل ما حصل عليه من منح ورواتب جامعية، وكل شهرته العلمية، وكل الأبواب التي فتحتها له مكائته الأكاديمية، لم تكن تكفي لشراء تلك الفرصة الصغيرة.

فرصة واحدة.

فرصة قد لا تنجح.

ومع ذلك كان مستعداً لأن يدفع ثمنها بكل ما يملك.

أدرك حينها الحقيقة الأكثر مرارة :

كل نتاج حياته المالي لا يقترب ولو قليلاً من عشر المبلغ المطلوب.

في تلك الليلة، لم يكن المنزل دافئاً كما اعتاد.

كان الصمت أثقل من المعتاد، حتى إن أصوات الساعة بدت كأنها تأتي من مكان بعيد. في الغرفة المجاورة كانت سيلينا تجلس قرب تالة، تحاول أن تخفي خوفها خلف حنان الأم، بينما تشايتون انسحب إلى مكتبه وأغلق الباب.

جلس في زاوية مظلمة.

لم يشعل المصباح.

لم يحتج إلى الضوء.

وضع رأسه بين كفيه النحاسيتين، وانحنى جسده القوي إلى الأمام، وكأن شيئاً هائلاً قد سقط فوق كتفيه دفعة واحدة.

لم يبك في البداية.

كان الألم أكبر من البكاء.

ظل جالساً هناك، صامتاً، وعيناه مثبتتان على الأرض، بينما آلاف الأفكار تتصادم داخل رأسه. كل المعادلات التي حفظها، كل التجارب التي قادها، كل الاكتشافات التي جعلت اسمه معروفاً في الجامعات والمختبرات، كل الأبواب التي فتحتها للعلم، بدت فجأة عديمة القيمة أمام سرير طفلة واحدة.

الرجل الذي لم يتردد يوماً أمام أصعب المشكلات العلمية، بدا عاجزاً عن حل مشكلة واحدة.

مشكلته هو.

مرض ابنته.

وحين رفع رأسه أخيراً، كانت عيناه الصقريتان قد فقدتا شيئاً من حدتهما. لم تعدا عيني الرجل الذي اعتاد أن ينظر إلى المجهول بتحدٍ. كانتا الآن بئرين عميقين من الحزن، وفي قاعهما دموع لا تجف.

أحس بالعجز لأول مرة في حياته.  
والعجز بالنسبة إلى رجل مثل تشايتون لم يكن مجرد شعور مؤلم.  
كان إهانة لجوهره كله.  
ما قيمة المختبرات؟  
ما قيمة الجوائز؟  
ما قيمة الاسم الذي صنعه طوال عقود؟  
كل ذلك بدا له في تلك اللحظة كأنه تاج من عبث موضوع فوق رأس رجل فقد  
القدرة على إنجاز أبسط واجباته .. حماية ابنته.  
وفي الأيام التالية، تغير تشايتون.  
لم يعد يدخل مختبره بالطريقة نفسها.  
في السابق كان المجهول يستفزه.  
الآن أصبح المجهول عدوًا.  
لم يعد يبحث عن المعرفة بدافع الفضول العلمي وحده، بل بدافع أكثر بدائية  
وأشد قسوة : إنقاذ ابنته.  
بدأ يقضي ساعات أطول في المختبر، يقرأ كل ما يقع تحت يده، يعيد النظر في  
نظريات قديمة، يفتح ملفات أغلقها المؤسسات العلمية منذ سنوات، ويبحث في  
المساحات التي لم يجرؤ الآخرون على دخولها.  
كان عقله العلمي يقول له إن هناك حدودًا لا يستطيع الإنسان تجاوزها وعليه تقبل  
الواقع. لكن قلب الأب كان يرفض الاعتراف بذلك.  
ومع مرور الوقت، بدأ اليأس يتحول داخله إلى شيء آخر.  
شيء أكثر حرارة.  
أكثر ظلمة.  
وأكثر خطورة.

لقد كان تشايتون طوال حياته يؤمن بأن الطبيعة تضع قوانينها، وأن مهمة الباحث هي اكتشافها وفهمها.

أما الآن، فقد بدأ يفكر بطريقة مختلفة.

ربما لم يعد عليه أن يفهم القانون.

ربما عليه أن يجد طريقة لكسره.

كان مستعدًا لأن يذهب إلى المكان الذي يتوقف عنده العلم التقليدي، وأن يمد يده إلى المجهول، وأن يخاطر بما لم يكن عالم عاقل ليخاطر به.

لم يعد يريد أن يعرف إلى أي حد يستطيع الإنسان أن يقترب من حدود الطبيعة. كان يريد أن يعرف إن كان يستطيع تجاوز حدودها.

كل شيء أصبح مباحًا في ذهنه ما دام هناك احتمال واحد، مهما كان ضئيلاً، أن تعود تالة إلى الحياة التي سُلبت منها قبل أن تبدأ.

وهكذا، ومن بين أنقاض الرجل الذي كانه ذات يوم، بدأت تولد شخصية أخرى ... شخصية لم يكن العلم وحده هو من صنعها.

صنعها الخوف.

وصنعها الحب.

وصنعها العجز وهو يرى عداد الزمن يحصي الأيام القليلة المتبقية من حياة ابنته دون أن يتمكن من إيقافه ..

كان تشايتون مستعدًا الآن لأن يتحدى أي شيء ...

حتى الطبيعة نفسها.

\*\*\*\*\*

لم يترك تشايتون بابًا يمكن أن يخطر له على البال إلا وطرقه.

طرق أبواب البنوك، والمؤسسات العلمية، وشركات الأدوية، والجامعات، والجهات الحكومية، وحتى الأشخاص الذين لم تكن تربطه بهم في السابق سوى معرفة عابرة. كان مستعدًا لأن يتخلى عن كل ما بناه طوال حياته، قطعةً قطعة، إذا كان

بيع ذلك الشيء سيضيف يومًا واحدًا إلى حياة تالة.

لكن الأبواب، واحدًا بعد آخر، كانت تنغلق في وجهه.

ولم تكن تُغلق بعنف أو بغضب، بل بذلك النوع الأكثر قسوة من الرفض؛ الرفض البارد الذي لا يحمل كراهية ولا شفقة، وإنما يحمل فقط أرقامًا وجدول وقوانين لا تعرف شيئًا عن طفلة تحتضر.

تقدم إلى المصارف بطلبات للحصول على قروض ضخمة، وعرض مختبره ومنزله وكل ما يملك تقريبًا ضمانًا لتلك القروض. جلس أمام موظفين أنيقين خلف مكاتب زجاجية، وشرح لهم قيمة أبحاثه، ومكانته الأكاديمية، ودخله، وبراءات اختراعه، وكل ما يستطيع أن يقدمه مقابل المال.

لكن الأرقام كانت أقوى من اسمه.

كان المبلغ المطلوب أكبر بكثير من قيمة الضمانات التي يستطيع تقديمها، وكان النظام المصرفي لا يعرف شيئًا عن «تالة». بالنسبة إلى الموظف خلف المكتب، كانت المسألة مجرد معادلة مالية : أصل، وضمان، ومخاطرة، واحتمال تعثر.

أما بالنسبة إلى تشايتون، فلم تكن هناك معادلة أصلًا.

كانت هناك طفلة.

خرج من أحد البنوك وفي يده ملفه، وشعر للمرة الأولى بأن أوراقًا قليلة يمكن أن تكون أثقل من الصخور.

ثم اتجه إلى شركات الأدوية الكبرى.

كان يعرف قيمة ما يملك. سنوات من الأبحاث، براءات اختراع، اكتشافات يمكن أن تحقق للشركات أموالًا طائلة، واسم علمي يفتح أبوابًا كثيرة. عرض عليهم بيع بعض براءات اختراعاته وحقوق أبحاثه، بل كان مستعدًا للتخلي عن أجزاء من إرثه العلمي الذي قضى عمره في بنائه.

لكنه اكتشف هناك وجهًا آخر للمال.

كانوا يعرفون أنه محتاج.

وهذه المعرفة وحدها كانت كافية لتغيير قيمة كل شيء.

بدأت المفاوضات بعروض تبدو، للوهلة الأولى، كبيرة، ثم اكتشف أن ما يعرضونه



عليه لا يقترب حتى من ربع تكلفة العلاج. كانوا يرون في حاجته نقطة ضعف يمكن استخدامها للتفاوض، بينما كان هو يرى في كل دقيقة تمر من دون اتفاق احتمالاً آخر لخسارة تالة.

كان يجلس أمامهم ويحاول أن يخفي غضبه.

كيف يمكن للمرء أن يفاوض على حياة ابنته؟

كيف يمكن أن يحدد سعرًا لسنوات قضتها في هذا العالم؟

وكيف يمكن أن يشرح لشخص ينظر إلى جدول أرباح أن الرقم الموجود أمامه هو ثمن حياة؟

غادر تلك الاجتماعات وهو يحمل ملفات أقل مما دخل به، وغضبًا أكبر مما جاء به.

ثم لجأ إلى المنح الحكومية والدعم الجامعي.

وهناك اصطدم بجدار من نوع مختلف.

النماذج، اللجان، الطلبات، التقييمات، الموافقات، المراجعات، والانتظار.

كل شيء كان يحتاج إلى وقت.

وقتٌ طويل.

وكان الوقت تحديدًا هو الشيء الوحيد الذي لم يعد يملكه.

كان يمكن للجامعة أن تدعم مشروعًا علميًا بعد أشهر، وربما بعد عام أو أكثر. وكانت المؤسسات الحكومية قادرة، من حيث المبدأ، على توفير مبالغ كبيرة، لكن الإجراءات تحتاج إلى مسارات بيروقراطية لا يمكن اختصارها لمجرد أن هناك طفلة تحتضر.

لم يكن أحد يتعمد قتلها بالرفض.

وهذا ما جعل الأمر أكثر قسوة.

كان الجميع يتصرف وفق النظام.

وحده تشايتون كان يرى أن النظام نفسه يتحرك ببطء شديد أمام مرض لا ينتظر.

وفي كل مرة يعود فيها إلى المنزل، كان يذهب أولاً إلى غرفة تالة. يراقبها وهي

نائمة، ويتأمل وجهها مطولاً، محاولاً أن يتذكر ملامحها قبل أن يبدأ المرض في انتزاع شيء منها.

لم يعد يرى الأيام كما كان يراها الآخرون.

اليوم بالنسبة إلى رجل عادي أربع وعشرون ساعة.

أما بالنسبة إلى تشايتون، فقد أصبح اليوم مقداراً مجهولاً من القدرات التي قد تفقدها تالة.

أسبوع.

شهر.

سنة أشهر.

كلها لم تعد وحدات في التقويم، بل أجزاء تضيع من قدرات ابنته.

وفي خضم ذلك اليأس، جاءت الفكرة من مكان لم يكن يتوقعه إطلاقاً.

كان ذات مساء في أروقة الجامعة، حين سمع مجموعة من الطلاب يتحدثون بحماس عن صناع المحتوى على يوتيوب، وعن الأموال التي يمكن أن تحققها القنوات الناجحة، وعن أشخاص بدأوا بهواتف بسيطة ثم تحولت قنواتهم إلى مشاريع تدر عليهم مبالغ ضخمة.

لم يلتفت تشايتون في البداية.

كان الأمر بالنسبة إليه ينتمي إلى عالم آخر بعيد عن ميوله.

عالم لا يشبه المختبرات ولا الأوراق العلمية ولا المؤتمرات الأكاديمية.

لكنه توقف بعد لحظات.

رفع رأسه.

وبقيت الجملة تدور في ذهنه.

أموال ضخمة من يوتيوب.

عاد إلى مكتبه، وجلس أمام حاسوبه.

فتح المنصة.

ظل يتصفح القنوات طويلاً، يراقب طريقة تقديم أصحابها للمعلومات، وكيف يحولون فكرة بسيطة إلى قصة تجعل ملايين الأشخاص يشاهدونها حتى النهاية. كان يكتشف شيئاً لم يكن قد فكر فيه من قبل.

لقد أمضى حياته وهو يحاول أن يجعل العلم يصل إلى العالم.

لكن ماذا لو أخذ العالم إلى العلم؟

نظر من حوله إلى مختبره.

إلى المجاهر.

إلى العينات.

إلى الخرائط والصور والأنابيب والكتب.

ثم خطرت له الفكرة.

لماذا لا أنقل مختبري إلى العالم؟

لم تكن الفكرة في ظاهرها أكثر من محاولة يائسة لكسب المال، لكنها حملت في داخلها قليلاً من الأمل.

فهو يملك ما لا يملكه معظم صناع المحتوى.

كان لديه عالم كامل.

عالم حقيقي، غامض، ساحر، ولا يعرف عنه معظم الناس إلا القليل.

الفطريات.

ولم يفكر كثيراً...

في اليوم التالي بدأ العمل على الفور كغريقٍ يتعلّق بآخر قشة.

أنشأ تشايتون قناته الخاصة، ولم يتعامل معها كهواٍ يضع مقاطع متفرقة على

الإنترنت، بل تعامل معها كما يتعامل مع تجربة علمية جديدة. اختار الموضوعات بعناية، وأعاد تصوير بعض التجارب، وجهاز المجهر ليصبح جزءاً من المشهد، وصار يشرح أسرار الفطريات بلغة لا تشبه لغة المحاضرات الجامعية.

كان يقف أمام الكاميرا كما يقف أمام طلابه، لكن شيئاً في طريقته كان مختلفاً.

كان لهيئته وحدها حضور يصعب تجاهله؛ ملامحه الحادة، بشرته النحاسية، شعره الفحامي المربوط إلى الخلف، ونظرته التي كانت تمنح أبسط معلومة شعورًا بأنها تخفي وراءها سرًا أكبر.

لكنه لم يعتمد على مظهره وحده.

كان يعرف كيف يتكلم .. كيف يجذب انتباه المشاهد إلى محتواه.

لم يكن يقول للمشاهد إن الفطر ينمو على الخشب الميت وحسب؛ كان يأخذه معه إلى قلب الغابة، إلى المكان الذي تبدأ فيه المادة الميتة رحلة أخرى.

كان يضع المشاهد أمام عالم لا يراه عادة، ثم يفتح له نافذة صغيرة داخله.

انتشرت مقاطعه.

ثم انتشرت أكثر.

وبدأت الأرقام ترتفع.

في البداية كان الأمر متواضعًا.

آلاف المشاهدات.

ثم عشرات الآلاف.

ثم مئات الآلاف.

بدأ الناس يتحدثون عن العالم الغريب الذي يقدمه ذلك الباحث ذو الملامح الصارمة، وبدأت مقاطعه تظهر أمام أشخاص لم يسمعوها باسمه من قبل. وبعد فترة قصيرة، أصبحت القناة تنمو بسرعة لم يتوقعها حتى هو.

كانت الاشتراكات تتزايد.

المشاهدات تتضاعف.

والإعلانات بدأت تحقق له دخلًا حقيقيًا.

للمرة الأولى منذ تشخيص تالة، شعر تشايتون أن شيئًا ما يتحرك في الاتجاه الصحيح.

كان يجلس أمام شاشة الحاسوب في نهاية كل شهر، يرى الرقم المتزايد في حساب القناة، ثم يحسبه مرة أخرى.

كان المال يأتي.

وهذا وحده كان كافياً ليمنحه شيئاً من الأمل.

لكن الأمل، حين يكون المرء في سباق مع الموت، يمكن أن يكون قاسياً بقدر اليأس نفسه.

لأن تشايتون اكتشف سريعاً أن النجاح الذي يبدو هائلاً على شاشة الهاتف لا يعني شيئاً تقريباً أمام الرقم المطلوب لعلاج ابنته.

كان دخله ممتازاً بمقاييس حياة معظم الناس.

لكن حياة تالة لم تكن تُقاس بمقاييس معظم الناس.

كان المبلغ يتجمع.

ببطء.

ببطء شديد.

كل شهر كان يضيف مبلغاً جديداً، فيبتسم للحظة، ثم يعود إلى الحساب.

ما زال بعيداً.

ينتظر الشهر التالي .. لعلّ المشاهدات تزداد .. لعلّ الإعلانات تتضاعف.

ثم الشهر الذي يليه.

بينما المرض لا ينتظر.

وهكذا بدأت المفارقة الأكثر قسوة في حياة تشايتون.

كان ينجح.

بل إن القناة كانت تنجح بسرعة مذهلة.

كان الناس في أنحاء العالم يشاهدونه، ويشاركون في قناته، ويشاركون مقاطعه، ويكتبون له رسائل الإعجاب. لكن خلف كل هذا النجاح الرقمي، ثمة رجل يجلس ليلاً أمام شاشة صغيرة ويحسب المسافة بين ما جمعه وبين نجاة ابنته. وكانت تلك المسافة تبدو له، كلما أعاد الحساب، كأنها لا تضيق أبداً.

كان العالم يصفق له لأنه اكتشف طريقة لجعل الناس يهتمون بالفطريات.

أما هو فلم يكن يفكر في الشهرة.

كان يفكر في تالة.

كل مشاهدة كانت بالنسبة إليه مآلاً إضافياً. وكل مشترك كان أملاً جديداً. وكل دولار يصل إلى حسابه كان ثانية إضافية من الحياة.

لكن الزمن كان يجري مسرعاً كعداء إفريقي.

بينما المال يمشي ببطء عجوز ناهز المئة.

كان تشايتون يحاول إطفاء حريق هائل بقطرات من المطر.

وكان يعرف ذلك.

ومع ذلك، لم يكن يستطيع أن يتوقف عن المحاولة.

\*\*\*\*\*

غرق تشايتون في الحسابات كما يغرق رجل في بحر لا يرى له شاطئاً.

لم يعد ينظر إلى أرقام القناة بوصفها مجرد إحصاءات تظهر على شاشة الحاسوب، بل صار يحول كل رقم إلى احتمال لإنقاذ تالة. كان يفتح لوحة الإحصاءات ليلاً، بعد أن يهدأ البيت وتغلق سيلينا باب غرفة ابنتهما، ثم يحدق في عدد المشتركين طويلاً، ويعيد الحساب مرة، ثم مرة أخرى، كأن الأرقام قد تتغير إذا ألحَّ عليها بما يكفي.

كان قد تجاوز نصف المليون مشترك.

خمسئة ألف إنسان.

خمسئة ألف شخص كانوا قد دخلوا، بطريقة ما، إلى عالمه، واستمعوا إليه وهو يتحدث عن الفطريات، وشاهدوا مختبره، وتابعوا تجاربه، وربما شعر بعضهم أنهم يعرفونه شخصياً.

ثم فجأة جاءت الفكرة التي قلبت الموازين على بساطتها.

في البداية بدت كعملية حسابية بريئة.

خمسئة ألف مشترك، إذا دفع كل واحد منهم دولار فقط، فإن الناتج سيكون خمسئة ألف دولار.

وإن دفع كل منهم ألف دولار بطريقة ما ..  
سيجمع خمسمئة مليون دولار.  
توقف تشايتون أمام الرقم.  
كان أكبر بكثير من تكلفة علاج تالة، بل كان يكفي لتأمين مستقبل عائلته كلياً،  
ولإنشاء مختبر جديد، ولشراء كل ما يحتاجه من أجهزة وأبحاث.  
لكن الرقم أخفى وراءه سؤالاً واحداً لا يستطيع تجاوزه :  
لماذا سيدفع كل مشترك في قناته ألف دولار؟  
لا أحد يعطي هذا المبلغ لمجرد أنه أحب عالمًا يتحدث عن الفطريات.  
ولا يمكنه أن يذهب إلى كل مشترك ويطلب منه أن يتخلى عن جزء من مدخراته  
لإنقاذ طفلة لا يعرفها.  
جلس تشايتون أمام الحاسوب، وأراح ذقنه على يده.  
كان يعرف الرياضيات.  
لكن المشكلة لم تكن في الحساب.  
كانت في الإنسان.  
كيف تجعل شخصاً لا يعرفك يدفع لك؟  
كيف تحول الفضول إلى رغبة؟  
كيف تجعل المشاهد يشعر أن المال الذي سيدفعه ليس خسارة، بل ثمناً لشيء  
يريده بشدة؟  
بدأ السؤال يطارده.  
رافقه إلى المختبر.  
دخل معه إلى غرفة تالة.  
نام معه.  
واستيقظ معه.

والليالي طويلة، ظل يتقلب في فراشه بينما سيلينا نائمة إلى جواره، أو تتظاهر بالنوم لأنها تعرف أنه لا ينام. كان يحدق في سقف الغرفة، ويشعر بأن عقله يعمل بلا توقف.

كانت الأفكار تأتيه ثم يمزقها.

فكرة لا تكفي.

أخرى مستحيلة.

ثالثة تحتاج سنوات.

ورابعة قد تحقق المال، لكنها لن تأتي بالسرعة التي يحتاجها.

وفي كل مرة كان يعود إلى النقطة نفسها.

الوقت.

كان الوقت يضغط على صدره مثل يد غير مرئية.

وفي إحدى الليالي، بقي وحده في مكتبه بعد منتصف الليل.

كان المختبر غارقاً في الظلام إلا من ضوء شاشة صغيرة انعكس على وجهه. خارج النوافذ كانت الغابة ساكنة، والأشجار تبدو ككتل سوداء متراسة تحت السماء.

ظل صامتاً.

ثم فجأة خطرت على باله فكرة أخرى ..

لم تكن جديدة تماماً.

لقد كانت موجودة في مكان ما من ذاكرته منذ فترة، لكنه لم يسمح لها من قبل بأن تصل إلى السطح.

وكانت كفيلة بأن تقلب الموازين وتغير كل شيء ..

تذكر الفطر النادر الذي كان يحتفظ به في مختبره.

ذلك الفطر الذي عرفه من خلال أبحاثه وعلاقاته العلمية، والذي يمتلك مركبات ذات تأثير قوي على الإدراك والوعي، والقادر على إحداث حالة من النشوة والطاقة



والهلوسة وتغيير الإحساس بالزمن والمكان، كما تفعل المخدرات بالضبط، لكن بهيئة أكثر شرعية وقبول اجتماعي.



كان يعرفه جيداً.

أكثر مما يحتاج.

ويعرف كيفية استزراعها.

ويعرف، بحكم موقعه وعلاقاته، كيف يمكنه الوصول إلى كميات كبيرة منه بحجة البحث العلمي دون أن يلفت ذلك الانتباه.

ظل يحدق في الفراغ شاردًا لدقائق طوال.

ثم انبثقت الفكرة من بين تلافيف دماغه واضحة ومفعمة بالأمل.

## لماذا لا أبيع الفطر؟

كانت الفكرة بسيطة.

ومرعبة.

يمكنه أن يصنع حلقة على قناته عن ذلك الفطر السحري، لكنه لن يتحدث عنه كما يتحدث العالم الأكاديمي. سيقدم التجربة باعتبارها مغامرة استثنائية؛ تجربة تغيير الإحساس وتفتح أبوابًا جديدة في الوعي.

ثم يضع رابطاً لموقع خاص يمكن للمشاهد أن يحصل الفطر عليه.  
ومن هناك تبدأ عملية البيع.  
لم يحتج تشايتون إلى وقت طويل ليدرك ما يعنيه ذلك.  
كان يعلم أنه يتجاوز القانون.  
ويعلم أن الأمر قد يدمر سمعته العلمية.  
ويعلم أن استخدام مكانته كعالم لاستدراج الناس إلى تجربة مخدرة أمر لا يمكن تبريره بسهولة.  
وكان يعرف أيضاً أن هناك شباباً قد يشاهدون الحلقة، وربما يحاولون تقليده دون إدراك المخاطر.  
كل ذلك كان واضحاً في ذهنه.  
لم يكن يجهل الخط الذي يقف أمامه.  
كان يراه بوضوح.  
وكان يعرف أنه على وشك عبوره.  
لكن صورة تالة كانت أقوى.  
ذهب إلى غرفتها .. فتح الباب بهدوء .. وراح يتأملها وهي نائمة في سريرها، صغيرة ضعيفة مستكينة لقدرها الأسود ..  
فكر في الوقت المتبقي.  
وفكر في المال.  
وفكر في العلاج.  
وفكر في الموت.  
عندها بدأ ضميره يضعف.  
لم يختفِ.  
وهذا هو الأمر الذي جعل خيانتته لنفسه أكثر وضوحاً.  
كان هناك صوت داخله يقول :

لا تفعل.

وصوت آخر يجيبه :

وماذا أفعل إذا؟

ثم جاء صوت ثالث أكثر خطورة :

إن لم تفعل، فستموت ابنتك .. بكل الأحوال هذه ليست مخدرات رسمية..

وكان ذلك التبرير كافياً.

لم يحتج تشايتون إلى أن يقنع نفسه بأن ما يفعله صحيح.

كان يحتاج فقط إلى أن يقنع نفسه بأنه مضطر.

والإنسان، حين يعتقد أن أحد أحبته سيموت إن لم يرتكب الخطيئة، يصبح بارعاً بصورة مخيفة في صناعة المبررات.

رفع رأسه.

كانت عيناه قد استعادتا شيئاً من بريقهما القديم.

ثم ابتسم.

لم تكن ابتسامة فرح.

كانت ابتسامة رجل وجد طريقاً.

طريقٌ يعرف أنه شديد الخطورة، لكنه قرر أن يمشي فيه دون أن يلتفت إلى الوراء.

بدأ العمل بدون تلكؤ ...

في الأيام التالية تمكن من تأمين كمية ضخمة من الفطر بحجة أنه يعمل على بحث علمي استثنائي عليه .. وكانت سمعته الممتازة بمثابة حصانة تحميه من الشبهات والتساؤلات ..

ثم أعد الموقع الالكتروني الذي يبيع الفطر ويشحنه للمستلمين..

بعدها أتت الخطوة الأهم ..

كيف يجذب المشاهدين بقوة ويقنعهم بتجربة ذلك الفطر، وعيش الحالة النفسية السحرية التي يسببها ..

استخدم كل ما يملكه من خبرة في تقديم المعلومات، وكل ما تعلمه خلال سنواته الطويلة في مخاطبة الناس، وكل جاذبيته الشخصية في إقناعهم، ليصنع فيديو مختلفاً عن كل ما نشره سابقاً.

لم يكن الفيديو محاضرة علمية.

ولم يكن بحثاً أكاديمياً.

كان تجربة مصممة بعناية.

ظهر تشايتون أمام الكاميرا بهيئته المعتادة، وتحدث عن الفطر بطريقة جعلت الغموض يحيط به منذ اللحظة الأولى. لم يكتفِ بعرض خصائصه، بل بنى حوله قصة، ووصف تأثيراته على الإدراك، وتحدث عن الإحساس الذي يمكن أن يعيشه الإنسان بعد تناوله، وكأنه يفتح للمشاهد باباً سرياً إلى فردوس مفقود.

ثم جاء الجزء الذي كان يعرف أنه الأخطر.

دعوة المشاهد إلى خوض التجربة بنفسه.

لم يكن بحاجة إلى أن يقول الكثير.

كان يعرف كيف يعمل الفضول.

وفي نهاية الفيديو، وضع الرابط.

رابطاً واحداً.

ثم ضغط زر النشر.

وبقي يحدق في الشاشة.

في الدقائق الأولى لم يحدث شيء استثنائي.

ثم بدأت الأرقام تتحرك.

ارتفعت المشاهدات.

ارتفعت التعليقات.

ثم بدأت الرسائل تصل.

وفي غضون ساعات، أصبح واضحًا أن الفيديو لم يكن مجرد نجاح.  
لقد كان انفجارًا.

بدأ الناس يضغطون على الرابط.

العشرات.

ثم المئات.

ثم الآلاف.

وبعدها لم يعد تشايتون قادرًا على متابعة الأرقام.

كان الموقع يتلقى طلبات متلاحقة، والخادم يكاد يعجز عن التعامل مع حجم الزيارات. كان الناس يشترون، والمال يدخل، والطلبات تتراكم بسرعة لم يتوقعها حتى هو.

كان يجلس أمام الشاشة مذهولًا.

لم يصدق في البداية.

ثم بدأ يضحك.

ضحكة قصيرة خرجت منه كأنها انتزعت من مكان عميق ظل مغلقًا لأشهر.

لأول مرة منذ مرض تالة، رأى الرقم الذي يطارده يقترب.

ثم يقترب أكثر.

ومع مرور الأسابيع، تحول النجاح إلى سيل مالي هائل.

كانت الأموال تتدفق إلى حساباته السرية، وتكبر بصورة أسرع مما استطاع أن يتخيل. لم يعد يحتاج إلى حساب عدد المشتركين أو انتظار عائد الإعلانات.

لقد وجد أخيرًا شيئًا يمكنه أن يدر المال بالسرعة التي يحتاج إليها.

وخلال أشهر قليلة، كان المبلغ الذي بدا مستحيلًا في بداية الطريق قد أصبح حقيقة.

كان يستطيع الآن أن يدفع تكلفة العلاج الجيني.

ويستطيع أن ينفذ تالة.

في الليلة التي اكتمل فيها المبلغ المطلوب، دخل غرفة ابنته وجلس قرب سريرها.  
أمسك يدها الصغيرة.  
ظل صامتًا فترة طويلة.  
ثم أغمض عينيه.  
لم يكن يعرف إن كان يشعر بالانتصار أم بالخوف.  
لقد حصل على المال.  
وهذا كل ما كان يهمه في تلك اللحظة.  
أو هكذا أقنع نفسه.  
لكن البهجة التي جاءت من الطريق المحظور لم تملك الوقت الكافي كي تستقر.  
فقد بدأت البلاغات تصل إلى إدارة يوتيوب.  
بلاغات من مستخدمين.  
وشكاوى من آباء.  
وتحذيرات من محتوى يرون أنه يروج لمادة ذات تأثير مخدر، ويعرضها بطريقة  
قد تدفع الشباب إلى تجربتها.  
في البداية لم يهتم تشايتون.  
كان يعتقد أن القناة ضخمة، وأن فيديو واحدًا لن يسقط كل ما بناه.  
ثم جاء الإنذار.  
ثم آخر.  
ثم بدأت إدارة المنصة تتعامل مع الأمر باعتباره مخالفة جسيمة.  
وفي صباح لم يكن مختلفًا في ظاهره عن أي صباح آخر، فتح تشايتون هاتفه.  
حاول الدخول إلى قناته.  
لم تفتح.  
أعاد المحاولة.

ثم ظهرت أمامه الرسالة.  
(( تم إغلاق القناة. ))  
بقي يحدق في الشاشة.  
ضغط مرة أخرى.  
اختفت الفيديوهات.  
كلها.  
المختبر.  
الفطريات.  
الأبحاث.  
الأشهر التي قضاها أمام الكاميرا.  
نصف مليون مشترك.  
كل ذلك اختفى من المنصة في لحظات.  
جلس تشايتون دون أن يتحرك.  
كان قد ظن أنه حين جمع المال انتهت أصعب مراحل المحنة.  
لكنه لم يكن يعرف أن المال الذي فتح أمامه باب العلاج، قد فتح في الوقت نفسه  
أبوابًا أخرى.  
أبوابًا أكثر ظلمة.

# الفصل الثاني

تأته بلا بوضلة



## الخطوة الثانية : التربة الخصبة والجمهور المناسب

على الرصيف المترب لطريق سريع مهجور، حيث السيارات تمر بين حين وآخر كأشباح معدنية عابرة، جلس غاري ميلر مستنداً إلى حقيبة ظهره المهترئة، وقد مد ساقيه أمامه بلا اكتراث، بينما راحت أصابعه تعبث بأوتار قيثارة قديمة استقرت على فخذه. لم يكن يعزف لحنًا يعرفه، ولم يكن يحاول أن يتذكر أغنية بعينها؛ كانت أصابعه وحدها تعرف الطريق، تنتقل من وتر إلى آخر، فتولد نغمات متقطعة، بعضها حزين، وبعضها شارد، وبعضها يحمل ذلك النوع الغريب من الفرح الذي لا يأتي إلا بعد أن يتعب الحزن من البكاء.



بدا غاري في تلك اللحظة كأبي شاب رحّال يمكن أن تصادفه على أطراف الطرقات؛ شعره غير المرتب، ملابسه التي أنهكها السفر، وحقيبته التي حملت من آثار الطريق أكثر مما حملت من أشياء ثمينة.

لكن العينين كانتا تفضحان شيئاً آخر.

ففي عينيه الشاردتين لم يكن يجلس شاب في مقتبل العمر فحسب، بل كانت هناك حكاية كاملة من الهجر والعنف والوحدة، حكاية بدأت فصولها قبل أن يعرف غاري حتى كيف يكتب اسمه.

كان في الخامسة من عمره حين رحل والده.

لم يفهم الطفل آنذاك معنى الرحيل.

رأى الرجل الذي كان يسميه أباه يجمع بعض أغراضه، ويحمل حقيبتته، ويمر من أمامه دون أن يدرك الصغير أن تلك الخطوات ستقوده إلى خارج حياته إلى الأبد. ربما انتظر غاري عودته في الأيام الأولى. وربما ظل يعتقد أن الباب سيفتح في أي لحظة، وأن الرجل سيعود، كما يعود الناس بعد سفر قصير.

لكنه لم يعد.

ومرت الأيام.

ثم الأشهر.

ثم السنوات.

والطفل الذي كان ينتظر أباه عند الباب، كفّ عن الانتظار.

لم يكن أكثر ما آلمه أن والده رحل، بل أنه لم يسأل عنه بعد ذلك.

ولا مرة.

لم تصل رسالة.

لم يأت سؤال.

لم يعرف غاري أين ذهب، ولماذا ذهب، ولماذا لم يكن يستحق حتى أن يعرف والده كيف أصبح.

كان الهجر بالنسبة إلى طفل صغير لغزاً لا يستطيع العقل تفسيره، ولذلك بدأ يفسره بالطريقة الوحيدة التي يعرفها الأطفال.

ربما المشكلة فيه.

ربما لم يكن محبوباً بما يكفي.

ربما كان أبوه قد وجد شيئاً أفضل منه.

وربما كان هو نفسه شيئاً لا يستحق أن يبقى أحد من أجله.

تلك الأفكار الصغيرة، التي تبدو في عقل الطفل عابرة، تستطيع أن تتحول مع السنوات إلى جذور عميقة يصعب اقتلاعها.

ثم جاء زواج أمه.

تزوجت والدته رجلاً آخر، وكان غاري يأمل، في أعماقه، أن يجد في ذلك الرجل شيئاً من الأب الذي فقده. لم يكن يحتاج إلى أب مثالي. كان يحتاج فقط إلى شخص يربت على كتفه، يسأله كيف كان يومه، أو يخبره مرة واحدة بأنه بخير.

لكنه لم يجد ذلك.

وجد رجلاً قاسياً.

كان الغضب يسكن ذلك البيت كأنه فرد آخر من أفراد العائلة. لم يكن غاري يعرف متى ينفجر، ولا ما الشيء الصغير الذي يمكن أن يشعل غضبه. أحياناً كانت كلمة كافية، وأحياناً كان الصمت نفسه يبدو مستفزاً له.

وكان الطفل يتلقى نصيبه من ذلك الغضب.

صفعات.

ضرب.

إهانات.

وكلمات كانت أحياناً أشد إيلاًماً من الضرب نفسه.

كان غاري يتعلم كل يوم أن المنزل ليس بالضرورة المكان الذي يحميك من العالم. أحياناً يكون المنزل هو المكان الذي تحتاج إلى أن تحمي نفسك منه.

وفي تلك السنوات، بدأ شيء غريب ينمو داخله.

كلما عجز جسده الصغير عن الهرب، هرب عقله.

كان يغلق عينيه، أو يحدق طويلاً في سقف غرفته، ثم يبدأ عالم آخر في التشكل.

عالم لا يستطيع زوج أمه دخوله ... الخيال.

هناك، في المساحة التي لا تستطيع الأيدي الوصول إليها، بنى غاري مدنه الأولى.

كانت مدناً من الضوء، لا جدران فيها إلا ما يختاره هو، ولا أبواب تغلق في وجهه. شوارع طويلة تتوهج ليلاً، أنهار شفافة تمر تحت جسور من الزجاج، وبيوت صغيرة تسكنها كائنات لم يرها في أي مكان من العالم.

وكان لتلك الكائنات أسماء.  
كان يتحدث إليها.  
يخبرها بما حدث في ذلك اليوم.  
يشكو لها من الأشياء التي لا يستطيع قولها لأحد.  
وكانت تستمع.  
لم تكن تضربه.  
لم تكن تتركه.  
ولم يكن عليه أن يثبت لها أنه يستحق محبتها.  
شيئاً فشيئاً، أصبح الخيال بالنسبة إلى غاري أكثر من لعبة طفل.  
أصبح ملجأه.  
كلما ارتفع صوت زوج أمه، انكمش غاري إلى داخله.  
وكلما شعر بالألم، أغلق الباب على العالم وفتح باباً آخر في رأسه.  
كان يبني لنفسه حياة يستطيع فيها أن يكون الشخص الذي يريد أن يكونه، لا الطفل الذي يريد الآخرون أن يكونه.  
ولم يكن يدرك آنذاك أن تلك القدرة على الهروب إلى الداخل سترافقه طوال حياته.  
حين بلغ السادسة عشرة، كان قد فهم شيئاً واحداً بوضوح لا يحتمل النقاش:  
لم يعد خياله كافياً.  
في تلك الليلة، لم يفكر طويلاً.  
جمع ما استطاع حمله، ووضع بعض الملابس في حقيبة، ثم خرج.  
لم يلتفت خلفه.  
كان البيت الذي خرج منه يحمل في ذاكرته من الألم أكثر مما يحمل من الذكريات،  
ولذلك لم يشعر أنه يترك منزلاً بقدر ما كان يشعر أنه يترك سجنًا.  
خرج إلى العالم وهو في السادسة عشرة فقط.

وكان العالم، بالطبع، أقل رحمة مما تخيل.

عمل في كل شيء تقريبًا.

غسل الصحون في حانات رخيصة، حمل الصناديق، عمل في مواقع البناء، ونام في أماكن لم تكن تصلح أصلاً للنوم. كان يتعلم بسرعة كيف يعيش بأقل القليل، وكيف يجعل يومًا كاملاً يمر بما يملك في جيبه من نقود.

لم يكن يملك خطة.

ولا شهادة كبيرة.

ولا عائلة تنتظره إذا فشل.

كان يملك فقط جسده، وقيثارته، وحقيبة ظهر، وعقلًا يرفض أن يقبل بأن الحياة يجب أن تكون نسخة من الحياة التي عاشها الآخرون. حاول أن يستقر.

لكن الاستقرار كان بالنسبة إليه كلمة تحمل رائحة ذلك البيت القديم.

كان يشعر بالاختناق كلما طال بقاءه في وظيفة واحدة. الأوامر كانت تثير داخله شيئًا لا يستطيع السيطرة عليه، والروتين كان يبدو له كجدار يرتفع حوله ببطء.

في البداية كان يتحمل.

ثم يبدأ بالضيق.

ثم يترك العمل.

كان أصحاب العمل يرونه شابًا غير مسؤول، متمرّدًا، لا يمكن الاعتماد عليه.

أما غاري، فلم يكن يرى نفسه كذلك.

كان يعتقد ببساطة أنه لا يستطيع أن يعيش داخل قفص، مهما كان القفص

نظيفًا ومريحًا.

وهكذا ظل ينتقل من مكان إلى آخر، ومن عمل إلى آخر، إلى أن التقى ذات يوم بمجموعة من الشباب والفتيات كانت تبدو حياتهم مختلفة تمامًا عن كل ما عرفه.

كانوا يتحدثون عن الحرية أكثر مما يتحدثون عن المال، وعن الطبيعة أكثر مما

يتحدثون عن المكاتب، وعن السلام أكثر مما يتحدثون عن النجاح.  
كانوا يحاولون إعادة إحياء روح جماعات الهيبيز القديمة؛ تلك الثقافة التي ارتبطت  
تاريخياً بالتمرد على أنماط الحياة التقليدية، وبالحياة الجماعية، وبالعودة إلى  
الطبيعة، وبالرغبة في التحرر من كثير من القيود الاجتماعية والمادية.  
في البداية وقف غاري بعيداً عنهم.  
كان معتاداً على أن الناس يريدون شيئاً في المقابل.  
لكن هؤلاء لم يسألوه من أين جاء.  
لم يسألوه لماذا لا يملك منزلاً.  
لم يطلبوا منه أن يشرح نفسه.  
جلسوا معه.  
أعطوه طعاماً.  
شاركوه أغانيهم.  
وحين أخرج قيثارته القديمة، لم يضحك أحد من الأوتار المتهالكة ولا من النغمات  
التي لم تكن مكتملة.  
جلسوا حوله واستمعوا.  
وكان ذلك، بالنسبة إلى غاري، شيئاً لم يكن يعرف كيف يستقبله.  
لأول مرة منذ سنوات، لم يشعر أنه شخص يجب أن يدافع عن وجوده.  
وجد نفسه بينهم دون أن يضطر إلى تقديم تفسير.  
وكانهم لم يسألوا:  
من أنت؟  
بل قالوا له بطريقة أكثر بساطة :  
ابقَ أيّاً كنت.  
وكانت تلك الجملة القصيرة، في مكان ما من أعماقه، أكبر من كل ما سمعه في  
طفولته.

احتضنته الجماعة دون شروط، أو هكذا شعر هو على الأقل. لم يكن الأمر مجرد رفقة جديدة؛ كان أشبه باكتشاف متأخر لعائلة لم يكن يعرف أنه يبحث عنها. وبدأت السنوات القديمة تفقد قبضتها عليه ببطء.

لم تختفِ الندوب.

فالطفولة لا تنتهي لمجرد أن يغادر الطفل بيته.

لكنها لم تعد وحدها.

صار هناك أشخاص يشاركونه الطريق، وأصوات تغني إلى جانبه، ووجوه تبتسم له حين يستيقظ، ونار صغيرة يجلس حولها في المساء دون أن يخشى أن يتحول هدوء الليل إلى صرخة أو صفعة.

ومنذ ذلك الوقت، نفى غاري عن حذائه غبار الاستقرار.

لم يعد يبحث عن وظيفة دائمة، أو شقة، أو عنوان ثابت.

أصبح الطريق هو بيته.

كان ينتقل مع رفاقه من غابة إلى أخرى، ومن بلدة إلى بلدة، ينامون أحياناً تحت سقف متواضع، وأحياناً تحت الأشجار، وأحياناً لا يكون فوقهم سوى السماء.

كانوا يقتسمون ما لديهم.

كسرة خبز.

زجاجة ماء.

ناراً صغيرة.

وأغنية.

وكان غاري يعزف في بعض الليالي حتى تتعب أصابعه، بينما يجلس الآخرون حوله ويغنون أغاني السلام والحرية.

لم يكن يعرف إلى أين سيذهب في الأسبوع التالي.

ولا أين سينام في الشهر القادم.

لكنه للمرة الأولى لم يكن يخاف من ألا يعرف.

فقد عاش طوال طفولته في منزل يعرف عنوانه جيداً، لكنه لم يشعر فيه بالأمان. والآن أصبح يعيش في طريق لا يعرف نهايته، لكنه يشعر فيه بأنه حر. كان يحمل حقيبتة على ظهره، والقيثارة إلى جانبه، ويترك للطرقات مهمة اختيار وجهته التالية.

وفي أعماقه، كان لا يزال ذلك الطفل الذي هرب يوماً من بيت قاسٍ.

غير أن الطفل لم يعد يركض هذه المرة هرباً من شيء يعرفه.

كان يمشي نحو شيء لا يعرفه.

نحو حياة لا يعي شكلها بعد، لكنه كان يأمل أن تكون واسعة بما يكفي لكي لا يضطر فيها إلى الاختباء داخل خياله من جديد.

وفي ذلك العالم المتنقل الذي اختاره غاري لنفسه، لم يكن مظهره الخارجي مجرد نتيجة عابرة لحياة بلا بيت ولا عنوان، بل كان أشبه بمرآة صامتة للفوضى التي استقرت في أعماقه، ولتلك العفوية التي أعادت ترتيب معنى الأشياء في ذهنه؛ فجعلت من الطريق وطناً، ومن الرحيل عادة، ومن السماء سقفاً لا يحتاج إلى مفاتيح، ومن الأرض، أينما انتهت به خطواته، مكاناً صالحاً لأن يضع عليه جسده وينام.

كان في أوائل العشرينيات من عمره، غير أن السنوات القليلة التي عاشها كانت قد تركت على ملامحه أثراً لا تتناسب تماماً مع حداثة سنه. كان طويل القامة، نحيل الجسد، ممشوقاً على نحو يوحي بأن جسده اعتاد الحركة أكثر مما اعتاد الاستقرار، وأن كنفه تعلم الصبر من حمل حقيبة ثقيلة رافقته في الطرق أكثر مما تعلم الراحة في غرفة ثابتة. كان يستطيع أن يمشي مسافات طويلة دون أن يسأل إلى أين، ثم حين يتعب، يفرش ما يملك فوق الأرض وينام حيث انتهى به الطريق، غير معني إن كانت تلك الأرض غابة رطبة تتصاعد منها رائحة التراب، أو حافة طريق تزرعها أضواء السيارات العابرة، أو رقعة عشب هادئة تحت سماء مفتوحة. لم يكن المكان يعني له كثيراً؛ فالذين فقدوا فكرة البيت يتعلمون، في وقت ما، أن البيت قد يكون أي موضع لا يُطلب منهم فيه أن يرحلوا.

ومع ذلك، بقي في وجهه شيء من وسامة فطرية لم تستطع سنوات الترحال أن



تطفئها، وإن كانت قد غطتها بطبقة رقيقة من الشحوب. لم يكن ذلك الشحوب شحوب المرض وحده، ولا الجوع وحده، بل كان يحمل شيئاً أكثر غموضاً؛ أثر حياة لم تعرف انتظام الليل والنهار، وعقل اعتاد أن يظل مستيقظاً حتى حين ينهار الجسد طلباً للنوم. كان وجهه يقول، لمن يتأمله طويلاً، إن النوم بالنسبة إلى غاري لم يكن دائماً غياباً عن العالم، بل كان أحياناً مجرد هدنة قصيرة منه.

وكانت عيناه البنيتان الواسعتان كحبات القهوة المحمصة أكثر ما يستوقف النظر فيه. من النظرة الأولى كانتا تبدوان غارقتين في حيرة شاب لم يعرف بعد إلى أين يقوده الطريق، لكن من يطيل النظر إليهما يكتشف شيئاً آخر، عمقاً هادئاً لا يتناسب مع عمره، وكأن الحياة دفعته إلى التفكير في أشياء كان يفترض أن يظل بعيداً عنها سنوات أخرى. كانتا تتحركان كثيراً، لا في قلق ظاهر، وإنما كأنهما تبحثان باستمرار عن شيء لا يعرف غاري نفسه ما هو. تلتقطان شجرة وحيدة على جانب الطريق، أو طائراً يحط فوق سلك كهربائي، أو غيمة تتبدل ملامحها ببطء فوق الجبال، أو وجه غريب يعبر أمامه للحظات ثم يذوب في الزحام. كان ينظر إلى الأشياء الصغيرة كما لو أنها تحمل رسائل لا تصل إلى الآخرين، وكأن العالم بالنسبة إليه لم يكن مجرد مشهد يمر أمام العين، بل سلسلة من التفاصيل التي ينبغي ألا تضيع.

وكان يحيط بعينيهِ سواد خفيف، يشبه بقايا ليالٍ كثيرة لم ينم فيها غاري تماماً، أو ربما بقايا ليالٍ نام فيها جسده، بينما ظل جزء آخر منه مستيقظاً في مكان ما، يراقب الماضي من بعيد، متوجساً من أن يجد طريقه إليه من جديد.

أما شعره البني المتموج، فقد تركه ينمو حتى استقر فوق كتفيه، وكأنه كان يعتمد، من حيث لا يدري، أن يقطع صلته بإحدى أبسط القواعد التي نشأ عليها العالم الذي جاء منه؛ تلك القاعدة التي تقول إن على الإنسان أن يبدو بما يتناسب مع عمره ومهنته ومكانته، وأن لكل شيء في مظهره حدوداً ينبغي ألا يتجاوزها. لم يعد غاري يرى سبباً مقنعاً لكل ذلك. كان يحب شعره حراً، يتركه يتبع الريح حين يمشي، وأحياناً يجمعه بعصبة رأس قماشية ملونة، اختارتها له ذات مساء إحدى رفيقات الطريق. كانت ألوانها المتداخلة تبدو فوق شعره كعلامة صغيرة على انتمائه إلى عالم الهيبيز الجديد، عالم لا يسأل الرجل عن مقدار المال في جيبه، ولا عن الوظيفة المكتوبة في أوراقه، ولا عن المكان الذي جاء منه، بل يسأله، ببساطة، عن الأغنية التي يستطيع أن يغنيها حين يجلس الجميع حول النار.

وكانت لحيته الخفيفة قد نمت دون عناية تذكر، لا كجزء من مظهر اختاره بقراره،

وإنما كنتيجة طبيعية لحياة لم يعد فيها مضطراً إلى الوقوف أمام المرأة كل صباح ليقرر كيف ينبغي أن يراه الآخرون. لم يكن غاري يرى في المرأة شيئاً يستحق أن يقضي أمامه وقتاً طويلاً، ولم يكن معنياً بأن يبدو أصغر من عمره أو أكبر منه. ومع ذلك، منحته تلك اللحية مظهراً أكثر نضجاً مما ينبغي لشاب في أوائل العشرينيات، كأن السنوات التي عاشها في أعماقه، ولم يجد لها مكاناً في ذاكرته، وجدت أخيراً طريقها إلى وجهه.

وكان يكفي أن تلقي نظرة واحدة على ملابسه حتى تفهم شيئاً كثيراً عن الرجل الذي يرتديها. قمصان فضفاضة باهتة، أخذت الشمس والغبار وكثرة الغسيل ألوانها منها شيئاً فشيئاً، وسراويل جينز تمزقت عند الركبتين والأطراف، لا في محاولة متعمدة لصناعة مظهر معين، بل لأن الزمن وكثرة المشي لا يتركان الأشياء كما كانت. لم يكن يعنيه إن كانت ألوان ملابسه متناسقة، أو إن كان مظهره أنيقاً، أو حتى إن كان يثير إعجاب أحد. فالملابس، في نظره، لم تعد وسيلة ليقول بها الإنسان شيئاً عن نفسه أمام الآخرين؛ لقد أصبحت أبسط من ذلك بكثير، مجرد قماش يحمي الجسد من البرد والشمس، ويساعده على عبور يوم آخر.

غير أن شيئاً واحداً في مظهره كان يحتفظ بقدر من العناية، وكأنه بقي شاهداً صغيراً على أن غاري، رغم كل ما تبدل فيه، لم يفقد تماماً حاجته إلى أن يمنحه أحد شيئاً لا علاقة له بالمنفعة.

كان ذلك طوقاً من الخرز الملون يحيط بعنقه.

صنعت له رفيقة درب أخرى ذات مساء، وحين انتهت منه وضعته حول عنقه وقالت ببساطة إنه يليق به. لم يسألها غاري لماذا، ولم يحاول أن يفهم ما الذي تعنيه الألوان، ولم يبحث عن رمز خفي وراء الخرز المتراص. اكتفى بأن ابتسم، ثم تركه في مكانه. ومنذ ذلك اليوم لم ينزعه.

وربما لم يكن الطوق مهماً بسبب الخرز نفسه، ولا بسبب ألوانه، بل بسبب اليد التي صنعت. فقد كان هناك شخص جلس ذات مساء، وفكر فيه، ثم أمضى وقتاً في صنع شيء خصيصاً له، وبعد ذلك وضعه حول عنقه ومنحه إياه دون أن يطلب مقابلاً. وربما لهذا السبب بالذات ظل غاري يحتفظ به؛ لأن الإنسان الذي اعتاد أن يعبر حياته وهو يحمل القليل، يتعلم أن الأشياء الصغيرة قد تكون أثقل من كل ما يملكه الآخرون، حين تكون وراءها يدٌ امتدت إليه دون أن تطلب منه شيئاً.

وكان غاري، منذ طفولته، قد عرف كم يمكن لمثل هذا الفعل البسيط أن يكون

نادراً.

أما شخصية غاري، فلم تكن أقل تناقضاً من مظهره؛ بل لعل مظهره لم يكن سوى الصورة الخارجية لذلك الصراع الصامت الذي ظل يجري في أعماقه منذ طفولته. فقد تركت السنوات الأولى من حياته ندوباً لا تُرى بالعين، لكنها كانت تسافر معه أينما ذهب، وتنتظر اللحظة المناسبة لتخرج من مخبئها، أحياناً في كلمة عابرة، أو نبرة صوت مرتفعة، أو نظرة غاضبة لا تعني للآخرين شيئاً، لكنها كانت كافية بالنسبة إليه لكي تفتح باباً قديماً ظن أنه أغلقه إلى الأبد.

فبعض الأصوات لا تنتهي عندما يصمت أصحابها.

إنها تستقر في مكان أعمق من الأذن، في ذاكرة الطفل، ثم تكبر معه دون أن تكبر في العمر. وقد تمر سنوات طويلة قبل أن تعود فجأة، حية كما كانت، بمجرد أن ترتفع نبرة صوت في غرفة، أو تتحول كلمة عادية إلى أمر، أو يظهر في وجه رجل غاضب ذلك التعبير الذي كان غاري يعرفه جيداً في طفولته.

ولعل هذا هو السبب الذي جعل علاقته بالطبيعة تتجاوز بكثير فكرة الهروب

إليها. لم يكن غاري يذهب إلى الغابات والأنهار والجبال لأنه كان يضيق بالمدن فحسب، بل كان يشعر تجاهها بشيء أقرب إلى القرابة القديمة، كأن الطبيعة لم تكن مكاناً يلجأ إليه، وإنما أمّاً أخرى وجدها في وقت متأخر، أمّاً لم تطلب منه يوماً أن يثبت أنه يستحق حبها.

لم تسأله الشجرة أين كان أبوه.

لم يطالبه النهر بأن يشرح سبب رحيله عن المنزل.

ولم تنظر إليه الغابة بعين الاتهام لأنه لم يستطع أن يحتفظ بوظيفة مستقرة، أو أن يبني لنفسه حياة تشبه تلك التي كان الآخرون يعدّونها حياة ناجحة.

كانت الطبيعة الوحيدة التي لم تطلب منه تفسيراً.

وفي حضرتها، كان يستطيع أن يكون غاري فقط؛ بلا ماضٍ يحتاج إلى الدفاع عنه، وبلا تاريخ ينبغي أن يشرحه، وبلا أسئلة تلاحقه من مكان إلى آخر. كان يستطيع أن يجلس تحت شجرة لساعات دون أن يسأله أحد عما سيفعله غداً، وأن ينام على العشب دون أن يشعر بأن أحداً ينتظر منه أن يصبح شخصاً آخر.

لكن انضمامه إلى جماعة الهيبيز لم يكن يعني أن الجانب الهروبي في شخصيته قد اختفى. كان يعيش بينهم، يضحك معهم، يعزف لهم، يشاركهم الطعام والرحلات، ويستيقظ معهم على الطرقات نفسها، ومع ذلك بقي في أعماقه مكان لم تطأه أقدام أحد. غرفة داخلية مغلقة، لا مفتاح لها إلا بيده، ولا يعرف أحد ما الذي يوجد خلف بابها.

وحين تضيق به الدنيا، أو ترتفع فجأة نبرة صوت أحدهم، أو يلح في وجه رجل غاضب شيئاً من ملامح زوج أمه، لم يكن غاري يهرب إلى الخارج أولاً، بل كان ينسحب إلى الداخل. يطول صمته، وتبتعد عيناه عن المكان، وكأنهما تبحثان عن طريق لا يراه أحد سواه، ثم يبدأ ذلك العالم القديم في الظهور من جديد؛ العالم الذي صنعه خياله ذات يوم عندما كان الواقع أكبر من قدرة طفل على احتماله.

فالخيال بالنسبة إلى غاري لم يكن لعبة طفولية، ولم يكن مجرد ملجأ مؤقت من الملل، بل كان المكان الأول الذي تعلم فيه كيف ينجو.

هناك، حين لم يكن يملك باباً يستطيع إغلاقه في وجه الخوف، بنى أبواباً من الخيال. وحين لم يجد حوله أصدقاء يستطيع أن يثق بهم، اخترع أصدقاء لا يصرخون في وجهه ولا يطالبونه بأن يكون شخصاً آخر. وحين كان البيت يبدو كأنه المكان الذي لا يستطيع الهرب منه، صنع لنفسه طرقاً لا تنتهي، يستطيع أن يغادر عبرها متى شاء، وسماء لا تغلق أبوابها في وجهه، وعالم لا يستطيع أحد فيه أن يمد يده إليه.

ومع مرور السنوات، لم تختف تلك العادة؛ تغير شكلها فقط.

لم يعد غاري طفلاً يختبئ داخل عالم متخيل، لكنه أصبح، كلما اقترب الواقع منه أكثر مما يستطيع احتماله، يترك جزءاً من وعيه ينسحب إلى ذلك المكان الداخلي الذي لا سلطان لأحد عليه. كان جسده يبقى في المكان، بينما تبتعد عنه روحه قليلاً، كأنها تعرف طريقاً سرياً إلى منطقة لا تصل إليها الأصوات ولا الأوامر ولا الذكريات.

ولهذا كان حذراً في منح ثقته للآخرين، وخصوصاً لأولئك الذين يتحدثون من موقع السلطة. كانت كلمة واحدة مثل «أمر» قادرة أحياناً على إيقاظ شيء قديم في داخله، شيء لا يملك دائماً القدرة على التمييز بين الحاضر والماضي. قد يكون الرجل أمامه مختلفاً تماماً عن أولئك الذين عرفهم في طفولته، وقد يكون صوته هادئاً ولا يحمل أي تهديد، لكن شيئاً في داخله كان يسمع الماضي قبل أن يسمع الحاضر.

ومع ذلك، لم يكن غاري جباناً، ولم يكن عاجزاً عن مواجهة الخطر. كان يعرف كيف يقف حين يكون الوقوف ضرورياً، وكيف يواجه حين لا يبقى أمامه طريق آخر. لكنه كان يعرف أيضاً أن هناك مواجهات لا تنتهي بانتصار أو هزيمة، وإنما تعيد الإنسان إلى أماكن ظن أنه غادرها منذ زمن بعيد.

ولهذا كان يختار الانسحاب حين يستطيع، والصمت حين يكون الجدل بلا جدوى، والطريق المفتوح حين يشعر بأن الجدران تضيق حوله. وكان يبدو للآخرين أحياناً كأنه يهرب من كل شيء، بينما هو، في الحقيقة، يحاول الهرب من شيء واحد فقط: أن يصبح نسخة أخرى من الأشخاص الذين هرب منهم.

غير أن كل ذلك الحذر والانطواء كان يخفي وراءه عاطفة شديدة القوة؛ عاطفة ربما وُلدت من الحرمان نفسه. فالطفل الذي حُرِم من الأمان في سنواته الأولى قد يكبر ليصبح بالغاً يحرس كل ما يمنحه ذلك الأمان، لا لأنه ضعيف، بل لأنه يعرف أكثر من غيره كيف سيغدو العالم عندما يُنتزع منك الشيء الوحيد الذي يمنحك القدرة على الاحتمال.

ولهذا كان غاري مخلصاً لرفاقه إخلاصاً يكاد يكون غريزياً.

لم يكن يراهم مجرد مجموعة من الغرباء الذين تصادف أن جمعتهم الطرقات، ولا مجرد أشخاص يشاركونه الطعام والسفر والأغاني. كانوا أول عائلة اختارته دون شروط، وأول جماعة لم تطلب منه أن يبرهن على قيمته قبل أن تمنحه مكاناً بينها. ولأول مرة في حياته، شعر أن وجوده لا يحتاج إلى تفسير، وأن بقاءه بينهم لا يتوقف على قدرته على إرضاء أحد أو تنفيذ أوامر أحد.

ولهذا، حين أحبهم، أحبهم بكل ما لديه.

كان مستعداً لأن يتخلى عن أشياء كثيرة من أجلهم، وربما عن أشياء أكثر مما ينبغي. لم يكن يخشى الخطر بقدر ما كان يخشى فقدانهم؛ لأن خسارتهم لم تكن، بالنسبة إليه، مجرد فراق أشخاص أحبهم، بل كانت تهديداً بالعودة إلى ذلك الفراغ القديم الذي عرفه ذات يوم، ذلك الفراغ الذي أمضى نصف حياته يركض بعيداً عنه، دون أن يتأكد يوماً أنه لن يجده في نهاية الطريق.

لاحقاً في ذلك اليوم، كانت الليلة قد ابتلعت الطريق كله.

لم يبقَ من النهار سوى شريط رفيع من الحمرة عالقاً في أقصى الأفق، ثم انطفأ

هو الآخر، وتركت السماء فوقهم سوداء وعميقة، تتناثر فيها النجوم بكثافة جعلت المرء يشعر بأن العالم لم يكن سوى رقعة صغيرة معلقة في فضاء لا نهاية له. في طرف غابة بعيدة عن الطريق العام، جلس غاري ميلر ورفاقه الخمسة حول نار صغيرة أضرمت بين الحجارة، وكانت ألسنة اللهب ترتفع وتهبط مع حركة الهواء، فتضيء وجوههم لحظة وتعيدها إلى الظلام لحظة أخرى.

كانوا خمسة إلى جانب غاري: **جاك هاريس**، الأكبر بينهم والأكثر هدوءاً، رجل في أواخر الثلاثينيات له لحية كثيفة وصوت عميق لا يرفع نبرته إلا نادراً؛ **لونا مارش**، الفتاة ذات الشعر الأشقر الطويل التي كانت ترى في كل شيء تقريباً معنى خفياً، حتى في الأشياء التي لا معنى لها؛ **دانيال كول**، الشاب النحيل سريع البديهة، الذي كان يحب الجدال ويستمتع به أكثر مما يستمتع بانتصاره؛ **ميرا سوليفان**، ذات العينين الداكنتين والصوت الهادئ، وكانت أكثرهم ميلاً إلى التأمل وأقلهم كلاماً؛ **وسام ويلر**، أصغرهم سناً، صاحب الضحكة العالية والقلب الذي لم يتعلم بعد كيف يصبح قاسياً.

أما غاري، فكان يجلس بينهم ممسكاً بقطعة خشب صغيرة، يقلب بها الجمر دون أن يتحدث.



كانت رائحة الحطب المحترق تختلط برائحة التراب الرطب، ومن بعيد كان صوت حشرة ليلية يتكرر بإصرار، بينما كان الليل من حولهم واسعاً إلى درجة جعلت الصمت نفسه يبدو كأنه كائن يجلس معهم.

قطع سام الصمت فجأة وهو يحدق في النار.

- هل تعتقدون أن الإنسان يكون حراً فعلاً عندما لا يملك شيئاً؟  
قوس دانيال حاجبيه:

- سؤال خطير في منتصف الليل.  
ضحك سام.

- لهذا طرحته الآن.  
قال جاك دون أن ينظر إليه:

- الإنسان لا يصبح حراً لأنه لا يملك شيئاً. أحياناً يكون أفقر الناس أكثرهم  
تعلقاً بما يملكونه، لأن الشيء الوحيد الذي يملكونه يصبح كل عالمهم.  
همست ميرا:

- إذن المال ليس المشكلة؟

- المال ليس المشكلة. المشكلة أن يتحول ما تملكه إلى شيء يملكك.  
حدقت لونا في النار وقالت:

- الإنسان لا يبدأ عبداً عندما يضع القيود حول يديه، بل عندما يخاف أن يعيش  
من دونها.  
التفت غاري إليها.

- وكيف يعرف الإنسان أنه أصبح عبداً لشيء ما؟  
ابتسمت ابتسامة صغيرة.

- عندما يصبح فقدانك أكثر رعباً من فقدان نفسه.  
ساد الصمت للحظة.

كانت العبارة قد أصابت شيئاً في غاري، لكنه لم يعرف كيف يسميه.  
علّق دانيال:

- أنتم تتحدثون وكأن الحرية شيء جميل دائماً. ماذا لو كانت الحرية تعني أن  
تكون وحيداً؟ ماذا لو كان الإنسان يحتاج إلى قيود معينة كي لا يسقط؟  
سأله ميرا:

- مثل ماذا؟

- مثل الأسرة. مثل المسؤولية. مثل الالتزام. مثل أن يكون لديك شخص ينتظرك في مكان ما. لا أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يعيش بلا جذور. ابتسم غاري ابتسامة خفيفة:
- ربما يستطيع أن يعيش، لكنه قد لا يعرف لماذا يعيش. رفع سام رأسه بسرعة.
- هذه جملة كبيرة يا غاري. ضحك غاري.
- لا أعرف إن كانت كبيرة. ربما لأنني لا أعرف الإجابة عن السؤال. أكد جاك:
- ولا أحد سيعرفها. اعترض دانيال:
- هذا غير صحيح. هناك من يعرفون تماماً لماذا يعيشون. نظر إليه جاك أخيراً.
- هل تعرف أنت؟ صمت دانيال قليلاً ثم قال:
- حسناً... ربما لا. تابع جاك:
- المشكلة أن معظم الناس يقضون حياتهم في البحث عن إجابة يظنون أنها موجودة في مكان ما، بينما قد تكون الحياة نفسها هي السؤال. أخذ غاري نفساً عميقاً.
- وإذا كانت الحياة سؤالاً، فلماذا نخاف الموت وهو قد يكون إجابتها الأخيرة والوحيدة؟ توقفت النار لحظة عن الاضطراب، ثم قفزت شرارة صغيرة إلى الهواء. علقت لونا:
- ربما الموت ليس إجابة لسؤال الحياة. ربما هو الشيء الذي يجعل للحياة معنى. علّق سام:



- هذه واحدة من تلك الجمل التي تبدو جميلة ولا نستطيع إثباتها.  
أجابته لونا:
- وهل كل ما لا نستطيع إثباته يكون بلا قيمة؟
- لا.
- إذن؟
- لكن كل ما نشعر به ليس بالضرورة حقيقة.
- صحيح. لكن بعض الحقائق لا يمكن الوصول إليها بالمعادلات.  
تدخل جاك:
- ولا بالأوهام.
- ثم أضاف بعد لحظة:
- لهذا يجب أن نحذر من الشيء الذي يمنحنا معنى بسرعة.  
نظر إليه غاري.
- لماذا؟
- لأن الإنسان حين يكون تائهاً يصبح مستعداً لتصديق أول شخص يرسم له خريطة.  
سكت غاري.
- لم ينتبه أحد إلى أن أصابع يده توقفت عن تحريك قطعة الخشب في النار.  
سأل سام:
- لكن ماذا لو كانت الخريطة صحيحة؟  
ابتسم جاك.
- عندها يكون من حسن حظك أنك وجدت الطريق.
- وكيف أعرف أنها صحيحة؟
- تمشي وفق تعاليمها.
- وإذا قادتني إلى الهاوية؟
- لهذا لا تعطِ خريطتك لشخص آخر.
- كانت تلك الجملة أكثر ما بقي في ذهن غاري تلك الليلة.
- لكن دانيال لم يترك الحديث يهدأ.
- أليس الحب أيضاً نوعاً من القيود؟

نظرت إليه لونا باستنكار مصطنع.

- أنت لا تستطيع قضاء ليلة واحدة دون تحويل كل شيء إلى مشكلة.

- لأن كل شيء مشكلة.

ضحكت ميّرا.

- ربما لأنك تنظر إلى الحياة بعين العقل أكثر مما تنظر إليها بعين القلب.

- والقلب؟ هل القلب يعرف شيئاً؟

- يعرف ما لا يستطيع العقل أن يشرحه.

- وهذا بالضبط ما يجعله خطيراً.

تدخل غاري هذه المرة:

- أليس الحب أن تخاف على شخص آخر أكثر مما تخاف على نفسك؟

نظر إليه الجميع.

تابع غاري:

- لا أعرف... هكذا أفكر فيه.

ابتسمت لونا.

- هذا ليس الحب وحده. هذا هو التعلق.

- وما الفرق؟

- الحب يقول: أريدك أن تكون بخير، حتى لو لم تكن معي. أما التعلق فيقول:

أريدك أن تكون معي، حتى لو لم تكن بخير.

سكت غاري طويلاً.

ثم نظر إلى النار.

كان هناك شيء غريب في الحديث تلك الليلة؛ كل سؤال كان يبدو كأنه يبدأ صوتاً

في الهواء وينتهي جواباً مبتوراً داخل النار.

تنهد سام:

- ولماذا نحن خائفون دائماً؟

أجاب جاك:

- لأننا نعرف أننا سنخسر كل شيء في النهاية.

- كل شيء؟

- كل شيء.
- وحتى بعضنا؟
- نظر جاك إلى الوجوه حول النار.
- خصوصاً بعضنا.
- خفض سام عينيه.
- كانت النار تشتعل أمامهم، لكن أحداً لم يتكلم للحظات.
- ثم علقت ميرا:
- ربما لهذا يجب ألا نؤجل الأشياء الجميلة.
- سألها دانيال:
- مثل ماذا؟
- أن تقول لمن تحبه إنك تحبه. أن تسامح قبل أن يصبح الاعتذار مستحيلاً.
- أن تنظر إلى السماء عندما تكون السماء جميلة. أن تضحك حين تجد شيئاً مضحكاً. وأن تجلس مع أصدقائك حول النار بدلاً من أن تقضي عمرك وأنت تنتظر يوماً أفضل.
- كلام جميل.
- لكنه صحيح.
- ليس دائماً .. لا شيء صحيح دائماً.
- قال غاري:
- ربما هذه هي المشكلة.
- نظروا إليه.
- تابع:
- نحن نريد من الحياة أن تعطينا أشياء ثابتة، بينما كل شيء فيها يتغير.
- رفع جاك رأسه ببطء.
- الآن بدأت تفهم.
- ابتسم غاري.
- ماذا؟
- لماذا لا يوجد وطن دائم.
- نظر غاري إلى الأشجار المظلمة من حولهم.

- وربما لا يوجد إنسان دائم أيضاً.  
قالت لونا:

- لهذا يجب ألا نحاول امتلاك أحد.  
وأضافت:

- كلما حاول الإنسان أن يمسك بشيء إلى الأبد، بدأ خوفه من فقدانه يأكله.  
سأل دانيال بحيرة:

- إذن ماذا نفعل؟ نحب الأشياء ثم نتركها ترحل؟  
أجاب جاك:

- نعم.

- بهذه البساطة؟

- لا شيء بسيط في ذلك.

كان صوت جاك هذه المرة أكثر انخفاضاً.

- أصعب درس في الحياة أن تتعلم أن تحب شيئاً دون أن تطالبه بالبقاء.  
ظل الجميع صامتين.

لم يقل غاري شيئاً.

كان ينظر إلى النار، لكن أفكاره كانت في مكان آخر.

في تلك اللحظة شعر، للمرة الأولى، أن الحياة ليست الطريق الذي يمشي عليه الإنسان فحسب، بل الأشياء التي يكتشفها في نفسه أثناء المشي. وأن الإنسان قد يقضي سنوات يبحث عن مكان ينتمي إليه، بينما يكون السؤال الأعمق هو: ماذا يحدث عندما لا يعرف الإنسان إلى أين ينتمي؟

اقتربت ميرا من النار ومدت يدها لتدفئ أصابعها.

قالت بهدوء:

- أتعرفون ما أخطر شيء في الإنسان؟  
ابتسم سام:

- الغباء؟

ضحك الجميع.

هزت رأسها.

- لا. قدرته على التعود.

توقف الضحك.

تابعت:

- يستطيع الإنسان أن يتعود على الفقر، وعلى الوحدة، وعلى الخوف، وحتى

على الألم. وبعد وقت طويل قد يبدأ في تسميته حياة.

لم يتحرك غاري.

كان يسمع الكلمات واحدة تلو الأخرى، وكأنها تُقال له وحده.

ثم قال جاك:

- ولهذا لا يكفي أن يهرب الإنسان من حياته القديمة.

رفع غاري عينيه إليه.

- ماذا عليه أن يفعل؟

نظر جاك إليه طويلاً قبل أن يجيب:

- عليه أن يعرف إلى أين يريد أن يذهب.

عاد الصمت.

كانت النار تتخفّض شيئاً فشيئاً، وأصبح الحطب يتحول إلى جمر أحمر يتوهج في

قلب العتمة. واحداً بعد آخر، بدأ الرفاق يستلقون استعداداً للنوم، لكن غاري ظل

جالساً مكانه، يراقب آخر ألسنة اللهب وهي تتلاشى.

لم يكن يعرف أن تلك الليلة ستبقى في ذاكرته طويلاً.

ولم يكن يعرف أيضاً أن الإنسان لا يحتاج دائماً إلى عدو كي يضل طريقه؛ أحياناً

يكفي أن يكون قلبه جائعاً إلى معنى، وأن يظهر أمامه شخص يعرف كيف يطعمه.

# الفصل الثالث

## منظمة ريسيليويم

## الخطوة الثالثة : التحول النفسي والانتقام من القدر

لم تكن خيبة الأمل التي انتظرت البروفيسور تشايتون من ذلك النوع الذي يمرّ بالرجال ثم يتركهم كما كانوا؛ فالقدر، حين يعجز عن كسر رجلٍ قويٍّ من الخارج، يبحث عن أكثر الأشياء قداسةً في داخله، ثم يضربه بها. وكان أثمن ما يملكه تشايتون في ذلك العالم كله طفلة صغيرة اسمها تالة.

خضعت صغيرته لبروتوكول العلاج الجيني التجريبي، ذلك العلاج الباهظ الذي علّق عليه والدها آخر ما تبقى في قلبه من يقين. ومنذ اللحظة الأولى، تحول تشايتون إلى سجينٍ لمؤشرات شاشات المراقبة؛ يحدّق في أرقامها ليلاً ونهاراً، ويتتبع نبضها وأنفاسها واستجابة جسدها لكل جرعة، كأن حياته نفسها أصبحت معلقة بتلك الخطوط المتذبذبة أمام عينيه. كان يتشبث بكل تحسن عابر كما يتشبث الغريق بخشبة في بحرٍ لا شاطئ له، ويمنح كل ارتفاع طفيف في أحد المؤشرات معنىً أكبر مما يحتمل، لأنه لم يعد يملك ترف الشك.

لكن الخيوط التي غزلها تشايتون بدمه، وبسنوات علمه، وبالأموال الطائلة التي جمعها من تجارته المشبوهة بفطره المحرّم، أخذت تتقطع واحداً بعد آخر. لم يستجب جسد تالة كما أرادوا، ولم يفتح العلاج الجيني الباب الذي ظنوا أنه سيقود إلى النجاة؛ بل واجهت خلاياها العلاج بمقاومة شرسة، وكأن المرض كان قد سبقهم بخطوات، وأحكم إغلاق أبوابه في أعماق جسدها.

ومضى العام الأول ثقیلاً، ثم جاء الثاني أكثر قسوة، وفي كل شهر كانت الحقيقة تزداد وضوحاً أمام الأطباء، بينما كان تشايتون يزداد تشبثاً بوهمٍ يعرف في قرارة نفسه أنه يتداعى. لم يكن المرض ينتظر نتائج التجارب، ولم يكن يمنحهم الوقت الكافي ليخترعوا معجزة. كان يتقدم داخل دماغ الطفلة الصغيرة ببطء لا يرحم، يلتهم خلاياها واحدة تلو الأخرى، ويأخذ منها أشياء كانت تبدو لتشايتون مستحيلة الفقدان.

كان يرى ابنته تتغير أمام عينيه، وكان أسوأ ما في الأمر أنه كان يعرف تماماً ما الذي يحدث داخل ذلك الرأس الصغير. كان العلم الذي جعله قوياً عاجزاً عن إنقاذها، والمعرفة التي منحتة سلطةً على أسرار الحياة تحولت إلى لعنة تجبره على مشاهدة الموت وهو يتقدم خطوةً بعد خطوة.

بدأ الوميض الذي كان يسكن عيني تالة يخفت شيئاً فشيئاً. تضاءلت ضحكاتها، ثم

أصبحت نادرة، ثم صارت ذكرى أكثر منها صوتًا. وفي كل مرة كان تشايتون يراها أضعف من اليوم السابق، كان يشعر بأن جزءًا آخر من عالمه ينهار بصمت. ثم جاءت تلك الليلة.

ليلة لم يكن فيها شيء مختلف في ظاهرها؛ الغرفة هادئة، والأجهزة تراقب جسدها الصغير، والضوء الخافت ينساب على وجهها الشاحب. لكن شيئًا ما في أعماق روحه كان ينبئه بأن النهاية قد وصلت أخيرًا. اقترب تشايتون منها، أمسك يدها، وظل يراقب وجهها كما لو أنه يحاول أن يحفظ تفاصيله الأخيرة قبل أن يأخذها منه الموت.

ثم توقف قلبها دون استئذان.

لم يكن هناك انفجار، ولا صرخة، ولا حدث يليق بحجم الكارثة التي وقعت في تلك اللحظة. مجرد خطٍ يستقيم على شاشة، وصمتٍ ثقيل يهبط على الغرفة، وأنفاس أخيرة خرجت من صدر تالة الصغيرة وهي بين ذراعي الرجل الذي قضى سنواته كلها يحاول أن ينتزعها من الموت.

ماتت تالة بين يدي "ملك الفطريات".

وفي تلك اللحظة، بدا كل شيء فعله تشايتون طوال حياته وكأنه فقد معناه دفعة واحدة. ذهبت أمواله، وضاعت سنوات أبحاثه، وسقطت المخاطر التي خاضها بسمعته ومستقبله في هاوية واحدة لا قرار لها. حتى ذلك العالم الذي كان يظن أنه يستطيع إخضاعه بعقله وعلمه وقف أمامه الآن بوجهه الحقيقي؛ عالم لا يفاوض حين يأتي الموت، ولا يعترف بالعبقريّة، ولا يكثر بثروة أو نفوذ.

لم يبكِ تشايتون .. لم يصرخ.

لم ينهَرْ بالطريقة التي ينهار بها البشر عادةً حين يفقدون أعز ما لديهم.

فقط تجمّد. ظل جالسًا في مكانه، جسده ساكن بصورة مخيفة، ويداه ما تزالان تحيطان بجسد ابنته، كأن عقله رفض أن يفهم أن الدفء الذي كان بين يديه قبل لحظات لن يعود. كانت عيناه الصقريتان، اللتان طالما أخافتا خصومه

بحدثهما وثباتهما، تحدقان الآن في الفراغ بلا غاية وقد خفت بريقهما.

ومنذ تلك اللحظة، بدأ الرجل الذي عرفه العالم يموت ببطء.



تسلل الاكتئاب إلى أعماقه لا كحزن عابر، بل كعتمة كثيفة أعادت تشكيله من الداخل. الرجل الجريء الذي كان يطارد المجد، والعالم الذي كان يريد أن يفرض إرادته على أسرار الطبيعة، والطامح الذي حلم بأن يصبح اسمه أعظم من أسماء من سبقوه، كل ذلك أخذ يتفتت حتى لم يبقَ منه سوى جسدٍ يتحرك بلا هدف أو معنى.

اعتزل تشايتون العالم.

أغلق مختبره الإمبراطوري، ذلك المكان الذي كان يومًا ينبض بالباحثين والأجهزة والاختبارات والأحلام، حتى صار صامتًا كقبرٍ مهجور، تفوح من أروقه رائحة الهزيمة. توقفت المشاريع، وانطفأت الشاشات، وتُركت الأدوات في أماكنها كأن أصحابها غادروها على عجل ولم يعودوا أبدًا.

حتى أن تشايتون ترك سريره أيضًا.

كان ينام على الأرض الباردة في غرفة ابنته، مسندًا ظهره إلى الجدار، محاطًا بألعابها الصغيرة ووثابها التي بقيت تحمل شيئًا من رائحتها. لم يكن يذهب إلى هناك بحثًا عن الراحة؛ كان يذهب لأن الغرفة وحدها بقيت تحمل أثرها، ولأن الخروج منها كان يعني الاعتراف بأنها رحلت فعلاً.

كان يمرر أصابعه أحيانًا فوق إحدى ألعابها، ثم يسحب يده بسرعة، كأن لمسها يفتح في صدره جرحًا لا يستطيع إغلاقه.

امتنع عن الطعام، ولم يكن يأكل إلا حين تتوسل إليه زوجته سيلينا. وكانت سيلينا نفسها تمضي أيامها في انكسار صامت، تحاول أن تبقى واقفةً أمام رجلٍ فقد ابنته وفقد معها القدرة على الوقوف. لم تكن تعرف كيف تنقذه، ولا كيف تنقذ نفسها؛ فالحزن الذي ملأ البيت كان أكبر من أن تحمله الكلمات.

أما شعلة الطموح التي ظلت مشتعلة في عروق تشايتون طوال حياته، فقد انطفأت تمامًا.

نمت لحيته الفحمية بلا عناية حتى غطت وجهه الذي أرهقه السهر، وغزا الشيب شعره الأسود الكثيف خلال أسابيع قليلة، حتى بدا الأمر وكأن السنوات التي رفض أن يمنحها للعمر طوال حياته قد عادت دفعة واحدة لتستوفي دينها منه. لم يعد يهتم بمظهره، ولا بملابسه، ولا بالمختبر، ولا بالأبحاث، ولا بالثروة التي جمعها، ولا بالاسم الذي كان يريد أن يخلده.

صار البروفيسور تشايتون طيفاً لرجلٍ ظنّ ذات يوم أن العالم يمكن أن يسجد تحت قدميه.

وكان الشيء الوحيد الذي بقي حياً في داخله هو الماضي؛ شريط لا يتوقف من الذكريات، يعود إليه دون استئذان، يحمل وجه تالة وضحكتها وخطواتها الصغيرة وصوتها وهي تناديه.

لم تكن وفاة تالة مجرد نهاية لحياة طفلة غضة انطفأت قبل أوانها؛ لقد كانت اللحظة التي انتهت فيها حياة أخرى أيضاً، حياة الرجل الذي كان يُدعى البروفيسور تشايتون تسوسي. ففي اللحظة التي غاب فيها آخر نبض عن قلب ابنته، مات شيء آخر في داخله. لم يفقد الأب أبوته وحدها، بل ماتت معه شخصية تشايتون القديمة؛ ذلك العالم المنضبط، والطموح الأكاديمي، والرجل الذي كان يظن أن المعرفة، مهما استعصت، تملك في النهاية مفتاحاً لكل باب. وفي الأشهر الأولى عقب وفاة تالة، لم يظهر على تشايتون سوى الاكتئاب الشديد. كان صامتاً، منكشاً على نفسه، غارقاً في فراغ لا قاع له. صمت لم يكن سلاماً، بل شيء آخر يتكوّن ببطء في أعماقه، شيء أكثر اضطراباً من الحزن نفسه.

ثم ...

على نحو مفاجئ، تبدّل كل شيء.

انطفأ الحزن بغتةً، لا لأنه شفي، بل لأنه تحوّل.

حلّ مكانه هوس غريب، حاد، يكاد يكون مخيفاً في قوته. بدأ تشايتون يبحث عن شيء يستطيع أن يسكب فيه ذلك الخراب الهائل في روحه الذي خلّفته وفاة ابنته؛ عن مشروع أكبر من مختبره، وأوسع من جامعته، وأشد اتساعاً من حياته السابقة كلها. كان يحتاج إلى شيء يلتهم أفكاره كما تلتهم السنة اللهب القش اليابس، شيء يمنعه من العودة إلى ذلك الفراغ الذي كان ينتظره كلما أغمض عينيه، من العودة إلى غرفة تالة الفارغة التي تناديه باسمها، من العودة إلى مختبره الكئيب.

فكل شيء في حياته المنزلية والأكاديمية صار يذكره بتالة.

منزله وغرفتها تضجان بذكرياته معها التي لا تنتهي. المختبر يذكره بالأبحاث التي فشلت في إنقاذها. الأجهزة تذكره بالشاشات التي راقب عليها مؤشرات حياتها وهي تنحدر نحو الصفر. والكتب، التي كانت ذات يوم مصدر قوته وسلطته، بدت له

فجأة كأنها سجل طويل لعجزه. حتى رائحة المواد الكيميائية في المختبر كانت تعيده إلى تلك الليلة التي ماتت فيها ابنته.

كان عليه أن يهرب.

لكن تشايتون لم يكن رجلاً يعرف كيف يهرب إلى مكان؛ كان يعرف كيف يهرب إلى فكرة.

وفي إحدى الليالي، بينما كان غارقاً في عتمة أفكاره، عادت إليه ذكرى بعيدة ظن أنه نسيها وكانت تحمل في رحمها جنين شخصيته الجديدة. تذكر أيامه على منصة يوتيوب. تذكر الكاميرا، والشاشة، وصوته وهو يخاطب الملايين من خلفها. تذكر كيف كان يكفيه أن يتحدث لبضع دقائق حتى يصغي إليه مئات الآلاف حول العالم، وكيف كانت كلماته تتسلل إلى عقولهم بسهولة، يمنحهم فكرة فيصدقونها، أو سؤالاً فيلاحقونه، أو قناعة جديدة تجعلهم ينظرون إلى العالم من زاوية أخرى.

وللمرة الأولى منذ وفاة تالة، شعر تشايتون أنه عثر على شيء لم يمت معها.

لقد بقي صوته.

وبقي تأثيره.

وبقيت تلك القدرة الغريبة التي طالما امتلكها على جذب الآخرين إلى أفكاره، ثم دفعهم إلى السير خلفها وكأنها أفكارهم هم.

عندها وُلدت الفكرة.

لم يعد يريد أن يبيع فطراً، ولم يعد يريد أن يكتفي بنشر العلم، ولم يعد مهتماً بأن يكون اسماً لامعاً في الأوساط الأكاديمية. كان يريد شيئاً أكبر؛ كياناً يصنعه بيديه، ويكون فيه هو العقل الذي يخطط، والصوت الذي يقود، والمرجعية التي لا ينازعها أحد.

أراد أن ينتقم من قدرٍ أحقق الخطى كما رآه ..

أراد أتباعاً لا مشتركين.

وأراد شبكة لا مختبراً.

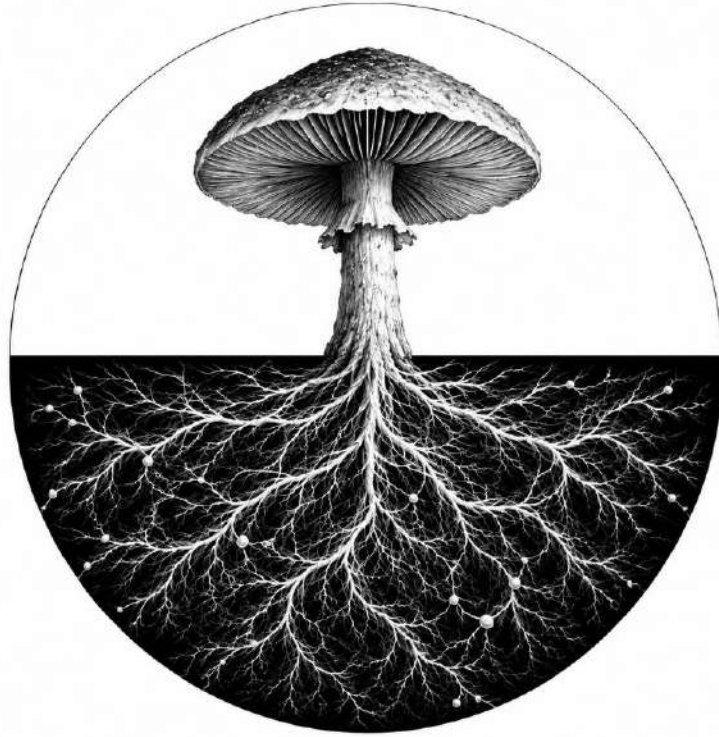
وأراد نفوذاً يمتد إلى ما وراء الجدران التي حاصر نفسه داخلها سنوات طويلة..

باختصار .. أراد مشروعاً ضخماً يلجم روحه عن التفكير بمأساته الكبرى. وكان هذا ملاذه الأخير من الاكتئاب الذي فتك بماضيه.

وهكذا ولدت الفكرة من تلقاء نفسها وكأن مخاضها قد حان ..

أعلن عن تأسيس منظمته الخاصة، وأطلق عليها اسمًا لم يكن عابراً، بل كان يحمل في داخله صورة المشروع كله :

### منظمة ميسيليوم — Mycelium ORG



استلهم تشايتون الاسم من الشبكة الفطرية الخفية التي تمتد تحت سطح الأرض ( الميسيليوم )، شبكة لا تكاد تُرى، لكنها قد تنتشعب لمسافات هائلة، وتتصل عبر خيوط دقيقة متداخلة، فتربط الكائنات والموارد والبيئة في منظومة واحدة تبدو للعين من الخارج مجرد تربة صامتة.

كان الاسم، بالنسبة إلى تشايتون، أكثر من استعارة علمية.

كان إعلاناً عن فلسفته الجديدة.

لم يكن يريد لمنظمته أن تنمو فوق سطح العالم بحيث يستطيع الجميع رؤيتها؛ كان يريد أن تنمو تحته.

أن تتسلل إلى المجتمعات من الشقوق الصغيرة، وتنسج علاقاتها بعيداً عن الأضواء، وتصل بين أفراد متباعدين لا يعرف أحد أنهم أصبحوا أجزاءً من شبكة واحدة. أراد لها أن تنتشر كما تنتشر خيوط الميسيليوم في الظلام : هادئة، متشعبة، صابرة، لا تلفت الانتباه في بدايتها، لكنها حين تبلغ مرحلة معينة يصبح اقتلاعها من الأرض أشبه بمحاولة اقتلاع جذور غابة كاملة.

كان تشايتون يرى العالم الآن بطريقة مختلفة.

لم يعد ينظر إلى البشر كجمهور يستمع إليه من خلف الشاشات، بل كعقد يمكن وصلها ببعضها. ولم يعد النفوذ بالنسبة إليه مجرد قدرة على إقناع الآخرين بفكرة؛ صار نظاماً كاملاً يمكن بناؤه، وتوسيعه، وتغذيته، ثم تركه يعمل حتى من دون حضور صاحبه.

لقد فهم أخيراً أن القوة الحقيقية ليست دائماً في أن يراك العالم، بل في أن يتغير العالم دون أن يعرف أنك كنت وراء التغيير.

وهكذا خرج "ملك الفطريات" من مختبره.

لكنه لم يخرج منه كما دخله.

فالرجل الذي كان يبحث يوماً عن أسرار الحياة داخل الخلايا، أصبح يبحث الآن عن شيء أكثر اتساعاً : أسرار البشر أنفسهم.

ومن عالم المجاهر والمزارع الفطرية والأنابيب المعقمة، انتقل تشايتون إلى عالم الأفكار والعلاقات والنفوذ. لم يعد يريد أن يكون عالماً يكتشف شبكة الفطر تحت الأرض؛ لقد أراد أن يصبح هو نفسه مركز شبكة بشرية تمتد عبر العالم كله.

وكانت تالة، رغم غيابها، هي الشرارة التي أشعلت هذا التحول.

ففي أعماق الحزن الذي لم يختف، بل اتخذ شكلاً جديداً، نشأ طموح أكثر ظلمة من كل طموحاته السابقة؛ طموح لا يريد أن يملك المعرفة فحسب، ولا المال، ولا المختبرات، بل يريد أن يملك القدرة على تحريك البشر أنفسهم، وباعتباره عجز عن التحكم بحياة ابنته والحفاظ عليها، فسيسعى الآن للتحكم بحيوات الملايين حول العالم كنوع من رد الفعل والتعويض النفسي. عله يتمكن بذلك من تصحيح أخطاء قدرٍ أحمق الخطى كما يراه.

وهكذا بدأت منظمة ميسيليوم خيطها الأول.

خيطٌ صغير لا يكاد يُرى.

لكن تشايتون كان يعرف أن الأشياء التي تغيّر العالم لا تبدأ دائماً بصوتٍ عالٍ.  
أحياناً تبدأ في الظلام.

لم يكن إغلاق قناته القديمة على اليوتيوب نهايةً لطريقه، بل كان أشبه بانغلاق باب دفعه إلى البحث عن أبواب أخرى لا تصل إليها الأعين بسهولة. فقد أدرك أن المنصات الكبرى، مهما منحت صاحبها من انتشار، تظل قادرة على إسكات صوته في لحظة واحدة؛ أما الأفكار التي تجد طريقها إلى الناس عبر شبكات مستقلة وخفية، فليس من السهل اقتلاعها بعد أن تضرب جذورها في العقول.

ولهذا لم يتراجع.

بل اختفى قليلاً.

ثم عاد بقناة يوتيوب جديدة تحمل اسم ( ميسيليوم ).

استجمع تشايتون كل ما كان يملكه من حضور أسير، ومن هيبة طبيعية، ومن قدرة استثنائية على انتقاء الكلمات ووضعها في المواضع التي يريدها تماماً. جلس أمام الكاميرا، وأطفأ معظم أضواء الغرفة، وترك وجهه يخرج من نصف العتمة كما لو أنه جاء من مكان بعيد يحمل سرّاً لا يعرفه سواه.

وسجّل حلقة لم تشبه شيئاً مما قدمه في السابق.

لم يتحدث عن الفطر هذه المرة، ولم يتحدث عن مختبراته أو اكتشافاته، ولم يحاول أن يثبت شيئاً أمام المجتمع العلمي. تحدث عن الإنسان.

عن خوفه.

عن وحدته.

عن شعوره بأن العالم أسرع منه، وأن الحياة الحديثة أخذت منه أكثر مما أعطته، وأن البشر، رغم ملايين الوجوه المحيطة بهم، صاروا أكثر عزلة من أي وقت مضى.

ثم تحدث عن "ميسيليوم".

أعلن ولادة المنظمة كما لو أنه لا يؤسس مؤسسة، بل يفتح باباً كان الناس ينتظرون ظهوره دون أن يعرفوا أنهم ينتظرونه. استخدم لغةً هادئة، دافئة، قريبة من القلب،

وتحدث عن العائلة، والأمان، والتحرر من الماضي، والعيش في الحاضر، وعن الإنسان الذي يستحق أن يجد مكانًا لا يُدان فيه لمجرد أنه مختلف أو مكسور أو تائه.

كان صوته رخيماً ومتزناً، يحمل في بعض لحظاته نبرة رجلٍ يتحدث عن خلاصٍ طال انتظاره. لم يكن يأمر، بل كان يقترح. لم يكن يطلب من المشاهد أن يتبعه، بل كان يترك له شعوراً بأن الطريق الذي يقترحه تشايتون هو الطريق الذي اكتشفه المشاهد بنفسه.

وفي نهاية التسجيل، لم يطلب منهم شيئاً صريحاً.

اكتفى بجملة قصيرة، ثم ظهر على الشاشة رابط لموقع إلكتروني مشفر.

كان الرابط بوابة ميسيليوم الأولى.

هناك، وجد الراغبون في الانتساب تفاصيل المنظمة، وشروط العضوية، ورسالتها، وطريقة التواصل، إلى جانب مقرّ الاجتماع الأول الذي حدده تشايتون بعناية في القبو الفسيح لمنزله الريفي المنعزل.

وكان الموعد هو التاسع من كل شهر.

لم يكن اختيار اليوم مصادفة في نظر تشايتون؛ فقد أراد أن يتحول الموعد إلى طقس ثابت، نقطة يعود إليها أعضاء الشبكة بصورة منتظمة، حتى يصبح الحضور نفسه جزءاً من إيقاع حياتهم.

وفي صدر الموقع، وضع الوثيقة التي أراد لها أن تكون العمود الفقري لكل ما سيأتي بعدها، وأطلق عليها اسماً بدا رسمياً ومطمئناً في آنٍ واحد :

## **الميثاق التأسيسي لدستور منظمة "ميسيليوم".**

ثم جاءت مواده :

### **المادة الأولى : عقيدة الزمن والوجود — فلسفة الأنية**

إن هذا العالم يفتقر إلى العدالة المطلقة، وإن رحلة الإنسان فيه قصيرة وخاطفة، ولذلك تؤمن المنظمة بأن التحرر من أسر الزمن هو السبيل الأعمق إلى النجاة.

لا تلتفتوا إلى ماضٍ مضى، وحمل معه ندوبه وآلامه، ولا تستنزفوا أرواحكم في الخوف من مستقبل لم يولد بعد. إن الحياة لا تُعاش إلا في اللحظة التي تحدث الآن. لذلك، تدعو المنظمة أبناءها إلى استنزاف اللحظة الحاضرة حتى آخر قطرة منها، وإلى عيش اليوم بكامل حواسه، واستخلاص المتعة والبهجة من تفاصيل "الآن" دون شروط، ودون أن يسمح الإنسان لظلال الأمس أو أشباح الغد بأن تسرق منه الحاضر.

## **المادة الثانية : العائلة الممتدة والملاذ الآمن**

تقر المنظمة بقسوة الحياة المعاصرة وضراوة صراعاتها، وبالوحدة التي تتركها هذه الحياة في قلب الإنسان، حتى وهو محاط بالآخرين.

ومن هنا، تنشأ "ميسيليوم" بوصفها عائلة بديلة وممتدة، تحتضن جميع المنتسبين إليها دون أحكام مسبقة، وتمنحهم شعور الانتماء الذي افتقدوه في عالمٍ كثيرًا ما يترك أفرادَه لمواجهة مصائرهم منفردين. أياً كانت مشكلتك، مختلف عرقياً أو جنسياً، مغمور ولا أحد يقدر قيمتك في الحياة، مضطهد يتعرض للاستغلال أو الإذلال أو التهم .. نحن هنا من أجلك.

تلتزم المنظمة بتوفير الحماية والدعم المادي والنفسي لأعضائها وفق إمكانياتها، وأن تكون لهم سنداً في أوقات الضعف، وملاذً حين تضيق بهم الحياة، وجداراً يستندون إليه عندما تشتد عواصف الأيام.

## **المادة الثالثة : ميثاق التكافل العضوي**

تقوم البنية الداخلية للمنظمة على محاكاة الشبكة الفطرية الممتدة تحت سطح الأرض ( الميسيليوم )؛ حيث لا يعيش الجزء بمعزل عن الكل، ولا يكتمل الكل إلا بأجزائه. في "منظمة ميسيليوم"، يكون الكل في خدمة الفرد، ويكون الفرد في خدمة الكل. ولا مكان للأنانية في منظومة تقوم على التكافل العضوي والتشارك في القوة والموارد.

تلتزم المنظمة بمساندة أي عضو يمر بضائقة، وبذل ما تستطيع من أجل حمايته ودعمه، وفي المقابل يلتزم العضو بالمحافظة على تماسك الشبكة، وبذل قدراته ووقته وولائه من أجل رفعتها واستمرارها.



فكما لا تستطيع خيوط الميسيليوم أن تعيش منفصلة عن الشبكة، لا ينبغي لعضو ميسيليوم أن يرى نفسه كيانًا مستقلًا عن الجماعة.

### **المادة الرابعة : القيادة والسيادة العليا**

يُعترف بالبروفيسور تشايتون تسوسي قائدًا أول ومؤسسًا روحياً لمنظمة ميسيليوم، وتُمنح له السيادة العليا في توجيه دفة المنظمة، ووضع استراتيجياتها، وتفسير مبادئ ميثاقها بما يحقق أهدافها ويحافظ على وحدتها.

ويستمر هذا الدور طوال حياة المؤسس أو حتى خلو منصبه لأي سبب من الأسباب. وفي حال وفاة القائد الأول أو خلو منصبه، تنتقل سلطة القرار إلى مجلس الأعضاء، الذي يتولى تنظيم انتخابات عامة لاختيار قائد جديد، على أن يلتزم القائد المنتخب بالمبادئ الأساسية التي تأسست عليها ميسيليوم، وأن يسير على خطى الميثاق الأول ويحافظ على وحدة الشبكة واستمراريتها.

وهكذا ظهرت "ميسيليوم" إلى العالم للمرة الأولى؛ لا كتنظيم يرفع شعارات القوة، ولا كجماعة تعلن منذ ولادتها عن مصالحها المادية، بل كملاذٍ دافئ في عالم بارد، وكعائلة لمن لم يجدوا عائلة، وكشبكة لمن سئموا الوقوف وحدهم.

وكان ذلك بالضبط ما أراده تشايتون.

فقد تعلّم من الفطريات أن أكثر الأشياء قدرةً على الانتشار ليست بالضرورة أكثرها وضوحًا.

وأن الجذر الحقيقي لا يحتاج إلى أن يراه أحد كي يعمل.

يكفي أن يكون موجودًا في المكان المناسب، وأن يجد التربة التي تنتظره.

أما البقية...

فكلها مسألة وقت.

كان العصر الذي عاش فيه البروفيسور أكبر داعٍ لمخطّطه.. حيث ازدحمت المدن

بالبشر، بينما أخذت المسافات بينهم تتسع، فوجد كثير من الشباب أنفسهم عالقين في حياة تبدو من الخارج ممتلئة بكل شيء، لكنها من الداخل تترك فراغاً لا يعرفون وسيلةً لملئه. الحياة الحديثة تزداد تعقيداً وقسوة، والسرعة التي يركض بها العالم تترك خلفها أعداداً متزايدة من التائهين؛ أناساً قد يمتلكون الشاشات والمال والفرص، لكنهم يفتقدون شيئاً أبسط من ذلك كله : معنى يشعرون أنه يخصهم، ومكاناً يستطيعون أن يقولوا فيه إنهم ينتمون. لذا وسط هذا الفراغ، وصلت كلمات تشايتون إلى بعضهم كأنها طوق نجاة فُذِفَ إلى غريقٍ في بحرٍ هائج.

لم يكن "ميثاق ميسيليوم"، في أعين الذين قرؤوه، مجرد مجموعة من المبادئ المكتوبة بلغة أنيقة، بل بدا للكثيرين وكأنه إجابة عن أسئلة ظلوا يحملونها في داخلهم دون أن يجدوا لها صياغة واضحة. تحدث عن الوحدة، وعن الخوف من المستقبل، وعن الجراح التي يتركها الماضي، وعن الحاجة إلى عائلة لا تسأل الإنسان أولاً من أين جاء، ولا لماذا فشل، ولا كم مرة سقط.

كان تشايتون يعرف جيداً أين يضع كلماته.

فلم يكن يخاطب عقولهم وحدها؛ كان يخاطب الأماكن الأكثر هشاشة في نفوسهم. ولهذا لم تحتج الفكرة إلى وقت طويل كي تبدأ رحلتها. في البداية، كان هناك عشرات فقط.

ثم أصبحوا مئات.

وبعد فترة قصيرة، لم يعد العدد يُحصى بالعشرات أو المئات، بل بدأ يتحدث عن الآلاف.

كان الشباب يأتون من مدن مختلفة، ومن بيئات متباينة، يحمل كل واحد منهم قصته الخاصة، لكنهم كانوا يشتركون في ذلك الشعور الغامض بأن العالم تركهم في منتصف الطريق. بعضهم جاء بحثاً عن معنى، وبعضهم عن أصدقاء، وبعضهم عن عائلة لم يجدها في حياته، وبعضهم لم يكن يعرف أصلاً ما الذي يبحث عنه؛ كل ما كان يعرفه أنه وجد في كلمات تشايتون شيئاً يشبه الإجابة.

وهكذا بدأت ميسيليوم تنمو.

لم تنمُ كالمؤسسات التقليدية التي ترفع لافتاتها في وضوح النهار، وتعلن عن مكاتبها وأهدافها وقياداتها؛ بل بدأت تتشكل في الخفاء، عبر الروابط التي أنشأها أتباعها،

وعبر الاجتماعات الصغيرة التي تحولت مع الوقت إلى حلقات أكثر اتساعًا، وعبر شبكة من الأشخاص صار كل واحد منهم نقطة اتصال بنقطة أخرى.

وكان تشايتون يراقب ذلك كله.

في البداية، شعر بالدهشة.

ثم شعر بالفخر.

ثم اكتشف شيئًا آخر كان أكثر خطورة.

لقد أحب السلطة أكثر مما أحب العلم من قبل.

كلما ازداد عدد المنتسبين، شعر بأن الفراغ الذي خلفته تالة يتراجع خطوة. وكلما وقف أمام مجموعة جديدة من الأتباع، وهم ينظرون إليه بتلك الثقة التي لا تمنح بسهولة، كان يشعر بشيء يشبه الحياة يعود إلى عروقه.

كانت أصواتهم تغطي شيئًا من الصمت الذي تركته ابنته.

وكانت وجوههم الكثيرة تطرد، ولو مؤقتًا، وجهًا واحدًا ظل يطارده في كل مكان.

شيئًا فشيئًا، بدأ تشايتون يكتشف أنه لم يعد يبني المنظمة فقط لكي يهرب من حزنه؛ لقد أصبح يحتاج إليها لذاتها.

كان يرى الأتباع يتقاطرون إلى منزله الريفي، ويصغون إليه في صمت، ثم يغادرون وهم أكثر اقتناعًا بما يقول. وكان المشهد يمنحه نشوة لم يعرفها منذ أن كان مختبره في أوج مجده.

لقد استبدل تشايتون عجز الأبوة بإحساس أوسع بالسيطرة؛ فبعد أن وقف عاجزًا أمام جسد ابنته الصغيرة، وجد نفسه الآن محاطًا بآلاف الأشخاص الذين ينظرون إليه باعتباره الرجل الذي يستطيع أن يرشدهم، ويمنحهم معنى، ويحدد لهم الطريق. وفي أعماق نفسه، حيث بقي جرح تالة مفتوحًا، بدأ يتشكل شعور جديد أكثر قسوة:

إذا كان قد عجز عن إنقاذ شخص واحد أحبه أكثر من العالم كله، فربما يستطيع أن يصبح الرجل الذي يقود آلافًا... وربما، مع الوقت، العالم نفسه.

ومع اتساع ميسيليوم، بدأت شخصية تشايتون تتغير من جديد. لم يعد العالم الذي يراه أمامه هو العالم نفسه الذي رآه قبل وفاة ابنته. لم تعد الخريطة بالنسبة إليه

مجموعة دول وحدود ومدن؛ صارت شبكة من الاحتمالات، وعقدًا بشرية يمكن وصلها، ومناطق نفوذ يمكن أن تمتد من نقطة إلى أخرى.

وفي إحدى الليالي، جلس وحده في القبو الواسع لمنزله الريفي.

كانت أمامه خريطة كبيرة للعالم، منشورة فوق طاولة طويلة، تتناثر حولها الأوراق والملاحظات والخطوط والدوائر. كان ضوء المصباح الوحيد يسقط على القارات، بينما يغرق ما حولها في الظلام.

ظل تشايتون واقفًا أمام الخريطة وقتًا طويلًا.

ثم مد يده.

وضع إصبعه على نقطة صغيرة.

وبدأ يرسم خطًا.

خطًا آخر.

ثم خطًا ثالثًا.

وكانها شبكة الفطريات تنمو تحت التراب ..

ومع كل خط كان يضيفه، كانت ملامح المرحلة الجديدة تتشكل أمامه بوضوح أكبر.

لم يعد السؤال الآن :

**كيف تنتشر ميسيليوم؟**

لقد تجاوز ذلك السؤال منذ زمن.

السؤال الذي بدأ يشغله كان أكثر خطورة :

**إلى أي مدى يمكن أن تمتد؟**

رفع تشايتون عينيه عن الخريطة، وفي وجهه ذلك الهدوء الذي يسبق القرارات الكبيرة.

لقد بدأت ميسيليوم كملاذٍ للتائهين.

أما الآن، فقد بدأ مؤسسها يتخيلها شيئًا آخر تمامًا.

شيئاً يمتد تحت العالم كله.  
شيئاً لا يراه أحد، لكنه يصل إلى الجميع.  
وفي ذلك القبر البعيد عن ضجيج المدن، بدأت الخطوط الأولى لمخطط جديد تُرسم.  
مخطط لم يعد هدفه إنقاذ تشايتون من حزنه.  
بل إعادة تشكيل العالم من حوله.

# الفصل الرابع

## سيليبيين

## الخطوة الرابعة : تغييب العقل والإغراء بالبدائل الزائفة

في إحدى الليالي الباردة، بعدما خمدت الحركة في مخيم الرحالة، واستسلم رفاق غاري للنوم حول بقايا نار لم يبقَ منها سوى رماد أحمر يتوهج بين حين وآخر، ظل غاري ميلر مستيقظاً وحده.

كان الليل قد ابتلع الغابة بظلاله، ولم يعد يُسمع سوى حفيف الأوراق حين تعبت بها الريح، وصوتٌ بعيد لحشرة ليلية تشق سكون المكان ثم تختفي. جلس غاري على الأرض، مسنداً ظهره إلى جذع شجرة، وأخرج هاتفه من جيبه.

لم يكن يبحث عن شيء بعينه.

وهذه كانت عادته في معظم الأشياء.

كان يفتح هاتفه كما يفتح الإنسان باباً لا يعرف إلى أين يؤدي، ينتقل بين المقاطع والصور والأخبار، لا لأنه ينتظر شيئاً محدداً، بل لأنه يحاول أن يملأ الفراغ الطويل الذي كان يستيقظ معه وينام إلى جواره. كان الأرق بالنسبة إليه شيئاً مألوفاً، والوحدة رفيقاً قديماً، أما الأيام فكانت تمر من حوله دون أن تترك في ذهنه اتجاهًا واضحاً للغد.

وبينما كان ينتقل من مقطع إلى آخر، ظهر أمامه فيديو لم يكن قد بحث عنه أصلاً. توقف.

كان يظهر فيه رجل ذو ملامح حادة ونظرة ثابتة، يتحدث أمام الكاميرا بصوت عميق رخيم عن كيان جديد يحمل اسمًا غريبًا : منظمة ميسيليوم.

لم يكن غاري يعرف الرجل، ولم يكن يعرف شيئاً عن ماضيه أو اسمه أو المكانة التي جاء منها. كل ما عرفه في تلك اللحظة أنه وجد نفسه يصغي.

تحدث الرجل عن عالم يزداد قسوة، وعن بشر يعيشون وسط ملايين الآخرين لكنهم يشعرون بأنهم وحدهم. تحدث عن أشخاص أنهكتهم الحياة، وعن أولئك الذين لم يجدوا مكاناً يشعرون فيه أنهم مقبولون كما هم. ثم تحدث عن المنظمة بوصفها عائلة؛ عائلة لا تسأل القادم إليها عن ماضيه قبل أن تفتح له ذراعيها، ولا تطالبه بأن يكون شخصاً آخر حتى يستحق الانتماء.

كان ذلك الرجل هو البروفيسور تشايتون تسوسي.

لكن غاري لم يكن يعرف ذلك.

لم يكن يعرف أنه يستمع إلى عالم فقد ابنته، ثم أعاد تشكيل حزنه في صورة منظمة. لم يكن يعرف شيئاً عن المختبرات، ولا عن الفطر السحري، ولا عن الماضي الذي دفع تشايتون إلى بناء ميسيليوم.

كان يعرف شيئاً واحداً فقط :

أن الكلمات التي يسمعها أصابت وجعاً عتيقاً في داخله.

واصل تشايتون الحديث عن الماضي الذي لا ينبغي للإنسان أن يسمح له بابتلاع حاضره، وعن المستقبل الذي لم يأت بعد، وعن ضرورة أن يعيش المرء اللحظة التي يملكها الآن. ثم تحدث عن العائلة الممتدة، وعن الملاذ الذي يمكن للإنسان أن يجد فيه الآخرين حين تضيق به الحياة.

ظل غاري يحدق في الشاشة.

كان يسمع الكلمات، لكن بعضها لم يكن يمر عبر أذنيه فقط؛ كان ينزل إلى أماكن أعمق، إلى تلك المناطق التي ظل يحمل فيها منذ طفولته أشياء لم يعرف كيف يسميها.

كان يتذكر زوج أمه، والبيت الذي لم يشعر فيه يوماً بأنه آمن، والأيام التي تعلم فيها أن عليه أن يراقب مزاج الآخرين قبل أن يتحدث، وأن يخفي ضعفه حتى لا يصبح هدفاً جديداً. وتذكر ذلك الشعور القديم الذي لازمه طوال سنواته : أنه موجود في العالم، لكنه لا ينتمي حقاً إلى أي مكان فيه.

لهذا لم تكن كلمة "عائلة" بالنسبة إليه مجرد كلمة.

كانت شيئاً يشبه الحلم.

شيئاً ظل يراه من بعيد ولا يعرف كيف يصل إليه.

أما غاري، فقد أمضى سنواته الأخيرة متنقلاً من مكان إلى آخر، يحمل حقيقته وقيثارته وبعض أشياءه القليلة، ويترك وراءه كل مكان قبل أن يتحول إلى شيء يشبه السجن. لم يكن يملك خطة واضحة لحياته، ولا صورة محددة لما يريد أن يكون عليه غده.



كان يمضي.

ثم يمضي أكثر.

وكان الحركة نفسها أصبحت بديلاً عن الاتجاه.

لم يكن يعرف إلى أين يذهب، لكنه كان يعرف أنه لا يريد أن يعود إلى المكان الذي جاء منه.

ولهذا بدت له كلمات تشايتون غريبة في صدقها.

ربما لم يكن غاري يبحث عن منظمة.

وربما لم يكن يبحث حتى عن فلسفة جديدة للحياة.

كان يبحث، من دون أن يعرف، عن مكان يقول له للمرة الأولى :

**يمكنك أن تكون واحدًا منا.**

ظل الفيديو يمضي حتى نهايته، ثم أعاده غاري مرة أخرى.

وفي المرة الثانية، لم يستمع إليه بعقل المتفرج الذي يشاهد مقطعًا عابرًا، بل بعين شخص بدأ يتساءل عما إذا كان ما يسمعه يمكن أن يصبح جزءًا من حياته.

توقف طويلاً عند فكرة العائلة.

ثم عند فكرة الملاذ.

ثم عاد إلى الجملة التي تحدثت عن الماضي.

كان في داخله شيء يقاوم.

شيء يقول له إن الأمور ليست بهذه البساطة، وإن الغرباء لا يفتحون أبوابهم عادةً بهذه السهولة، وإن كل جماعة تطلب من الإنسان أن ينتمي إليها لا بد أن تطلب منه ثمن ذلك.

لكن صوتًا آخر، أكثر تعبًا، كان يقول :

وماذا لو كان هذا المكان مختلفًا؟

ظل الهاتف في يده، بينما راحت النار المحتضرة أمامه تطلق ومضة خافتة

ثم تخبو.

فكر غاري طويلاً.  
وللمرة الأولى منذ وقت طويل، شعر أن هناك احتمالاً، مهما كان صغيراً، لأن  
يكون الغد مختلفاً عن أمس.  
ضغط على الرابط المرفق بالفيديو.  
ظهر أمامه موقع ميسيليوم.  
قرأ التفاصيل مرة، ثم عاد إليها مرة ثانية. تردد عند خانة طلب الانتساب، وظلت  
أصابعه فوق الشاشة لحظات قبل أن يكتب أول حرف.  
ثم تابع.  
أدخل اسمه.  
بياناته.  
ومعلوماته.  
وكلما امتلأت خانة، شعر كأنه يترك خلفه جزءاً صغيراً من وحدته.  
وحين ضغط أخيراً على زر الإرسال، بقي محدقاً في الشاشة لثوانٍ.  
كان الأمر بسيطاً إلى حد السخرية.  
طلب انتساب إلكتروني.  
بضع خانات.  
بضع كلمات.  
لكن غاري شعر كأنه ألقى رسالة في زجاجة إلى بحر لا يعرف نهايته، ثم جلس  
ينتظر أن يرى إن كان أحد سيعثر عليها.  
لم يضطر إلى الانتظار طويلاً.  
وصل الإشعار.  
فتح الرسالة.  
قرأها مرة.  
ثم أعاد قراءتها.

لقد تمت الموافقة على طلبه.  
توقفت عيناه عند الكلمات الأخيرة، وكأن عقله يحتاج إلى وقت حتى يستوعب معناها.  
ثم ظهر شيء لم يعتد غاري رؤيته في عينيه منذ سنوات.  
بريق خافت.  
بريق أمل.  
كان قد اعتاد أن يمضي من مكان إلى آخر بلا وعد، وبلا خطة، وبلا شخص ينتظره في نهاية الطريق. أما الآن، فقد أصبح لديه موعد.  
التاسع من الشهر القادم.  
مكان اللقاء : قبو منزل ريفي معزول في عنوان مرفق.  
قرأ التفاصيل مرة أخرى، ثم أغلق الهاتف ببطء.  
ظل جالساً في مكانه، يستمع إلى الغابة.  
لم يتغير شيء حوله.  
النار نفسها كانت تخدم.  
الأشجار نفسها كانت نائمة في الظلام.  
والليل نفسه كان ممتداً فوق رأسه.  
لكن شيئاً تغير في داخله.  
لم يكن غاري يعرف إلى أين سيقوده ذلك الطريق، ولم يكن يعرف من ينتظره في نهاية الرحلة، ولم يكن يعرف شيئاً عن الرجل الذي كان يقف خلف تلك المنظمة.  
لكنه، ولأول مرة منذ سنوات، لم يشعر أنه يتحرك بلا اتجاه.  
كان هناك موعد ينتظره.  
وكان هناك مكان سيذهب إليه.  
وكان هناك أناس لم يلتق بهم بعد، لكنهم قالوا له، بطريقة أو بأخرى، إنهم مستعدون لاستقباله.

لم تكن لديه بوصلة حقيقية.

لكن في تلك الليلة، وسط الغابة الباردة، وبينما كانت آخر جمرة في النار تنطفئ، بدأ غاري يشعر بأن شيئاً يشبه البوصلة أخذ يتشكل في داخله.

ولم يكن يعرف بعد إن كانت تلك البوصلة ستقوده إلى المكان الذي سيمنحه أخيراً شعور الانتماء الذي بحث عنه طوال حياته... أو إلى المكان الذي سيغيّر حياته إلى الأبد.

\*\*\*\*\*

جاء التاسع من أيلول أخيراً.

ومع حلول المساء، بدأت برودة مبكرة تنتسل بين أشجار الغابة الكثيفة المحيطة بالمنزل الريفي، وكان الضباب الخفيف قد بدأ يهبط بين الجذوع، فيما غاب المنزل شيئاً فشيئاً داخل العتمة، حتى بدا من بعيد كأنه بناء خرج من زمن غابر واستقر منعزلاً في قلب الغابة.

عند تمام التاسعة، وقف غاري ميلر أمام البوابة.

كان المنزل خشبياً عتيقاً، ذا طراز قوطي قاتم، تآكلت أطرافه بفعل السنين، بينما غطت نباتات اللبلاب جدرانه الخارجية حتى لم يعد من السهل التمييز بين ما بناه الإنسان وما استعادته الطبيعة لنفسها. كانت النوافذ العالية مظلمة، والباب الخشبي الضخم يبدو كقفٍ مغلق لا يُفتح إلا لمن يعرف السر الذي يقف وراءه.

وقف غاري للحظات يتأمل المكان.

كان يتوقع شيئاً غريباً، لكنه لم يتوقع هذا.

ثم فُتحت البوابة وظهر أحد أعضاء المنظمة. أشار إليه بالصمت أن يتبعه.

دخل غاري، ومعه أربعة من المنتسبين الجدد حتى بلغوا المنزل وتجاوزوا عتبه، ثم ساروا في ممر طويل لم يكن فيه سوى ضوء خافت يكاد لا يكشف الطريق. وبعد دقائق، بدأ الممر ينحدر تدريجياً نحو الأسفل، درجةً بعد أخرى، حتى شعر غاري أنهم لا يدخلون منزلاً بقدر ما يهبطون إلى عالم آخر مخفي تحت الأرض.

وحين وصلوا إلى نهايته، انفتح أمامهم القبو.

توقف غاري دون إرادة منه.

كان المكان أشبه بمعبد غريب لم يُبنَ لعبادة إلهٍ معروف، بل لعبادة فكرة لا يعرف أحد اسمها بعد.

امتدت الجدران الحجرية الرطبة في عتمة واسعة، وتدلت على بعضها خيوط فطرية ذات توهج فوسفوري خافت، تنبعث منها إضاءة زرقاء شاحبة جعلت القبو يبدو وكأنه مضاء من داخله. لم تكن هناك حاجة إلى مصابيح كثيرة؛ فقد كان الضوء الغريب ينساب فوق الصخور وعلى الأرض، ويرسم ظلالاً طويلة متحركة كلما تحرك أحدهم.

أما الرائحة، فكانت أول ما يلفت الانتباه بعد الضوء.

رائحة تراب رطب وعميق، ممزوجة برائحة الفطريات، تشبه رائحة الغابة بعد مطر غزير حين تكون الأرض قد تشبعت بالماء، وأصبحت الأشياء المدفونة تحتها أقرب إلى السطح.

في منتصف القبو، اصطفت خمسة مقاعد خشبية ثقيلة في نصف دائرة أمام منصة حجرية مرتفعة قليلاً. وبدت المقاعد، بأحزمتها الجلدية، جزءاً من طقس معدّ سلفاً لا مجال فيه للارتجال.

جلس المنتسبون أمام المنصة، بينما بقي غاري واقفاً للحظات، يحاول أن يستوعب المشهد.

ثم ظهر تشايتون.

لم يدخل القبو كما يدخل رجل إلى غرفة.

بل بدا كأنه كان ينتظرهم منذ زمن.

وقف خلف المنصة الحجرية، ساكناً تماماً، ووجهه مضاء من الأسفل بذلك الضوء الأزرق الغريب، فبدت ملامحه أكثر حدة مما ظهرت في الفيديو الذي شاهده غاري. كانت قسماته النحاسية تحمل أثر أصوله الهندية القديمة، وعيناه الصقريتان مستقرتان على الوجوه أمامه بثبات لا يكاد يرمش.

لم يكن غاري يعرف الكثير عن الرجل الذي أمامه.

لكنه شعر بشيء في حضوره.

شيء جعله يصغي قبل أن يبدأ الكلام.

رفع تشايتون الوثيقة، وبدأ يقرأ ميثاق ميسيليوم بصوت عميق رخم. لم يرفع صوته، ولم يكن بحاجة إلى ذلك؛ فنبرته وحدها كانت كافية لملء القبر. كانت كلماته تتحرك بين الجدران الحجرية، ثم تعود إليهم كأن المكان نفسه يرددها.

تحدث عن الإنسان التائه.

عن الماضي الذي يثقل الروح.

عن المستقبل الذي يخيفها.

عن الحاجة إلى الانتماء.

وعن ميسيليوم بوصفها شبكة تجمع أفرادها كما تتشعب الخيوط الفطرية بين جذور الأشجار تحت الأرض.

كان غاري يصغي وكأنه يسمع للمرة الأولى.

كان يشعر أن بعض الجمل لم تُكتب للآخرين أصلاً.

بل له.

كلما تحدث تشايتون عن الإنسان الذي لا يجد مكاناً ينتمي إليه، شعر غاري بأن الرجل يضع يده على جرح قديم لم يستطع أحد رؤيته. وحين تحدث عن العائلة التي لا تسأل القادم إليها من أين جاء، ولا تحاكمه على ما فعله قبل أن يصل إليها، شعر غاري بشيء دافئ يتحرك في صدره.

لم يكن يعرف أن تشايتون يجيد قراءة البشر.

ولم يكن يعرف أن الكلمات التي تبدو له الآن كأنها خلاص شخصي، صيغت بعناية لتصل إلى أمثاله تحديداً.

كان يعرف فقط أنه أمام رجل يبدو واثقاً من الطريق.

وهو أمضى حياته كلها دون طريق.

وعلاقة التكافل بينهما لا تحتاج إلى تكلف أو دليل..

عندما انتهت القراءة، خيم الصمت.

لم يتعجل تشايتون كسر ذلك الصمت. ترك كلماته تستقر في عقولهم، ثم نظر إلى

الوجوه الخمسة واحدًا تلو الآخر.

بعدها أعلن أن الطقس الحقيقي الذي يمارس على كل منتسب جديد سيبدأ.

اقترب من المقاعد، وطلب من المنتسبين الجلوس وتثبيت أجسادهم بالأحزمة الجلدية. تردد غاري للحظة، لكنه لم يعترض. كان قد وصل إلى هذا المكان وفي داخله رغبة عميقة في أن يترك نفسه للمرة الأولى لشيء يعتقد أنه يعرف إلى أين يقوده.

تنقل تشايتون بينهم ببطء، وفي يده الفطر السحري الذي يحتوي على مادة السيلوسيبين، مقدمًا التجربة على أنها بوابة إلى حالة مختلفة من الوعي.

لم يشرح كثيرًا.

لم يكن يريد أن يترك لعقولهم مساحة كبيرة للأسئلة.

وقف أخيرًا في منتصف الدائرة، بينما بقي المنتسبون الخمسة أمامه، وقال بصوت هادئ:

- إن ما ستخوضونه الليلة ليس هروبًا من الواقع، بل خروج مؤقت من حدوده التي اعتدتم أن تظنوها الحقيقة الوحيدة. هذه القيود الجلدية على مقاعدكم ليست عقابًا، وإنما وسيلة لحماية أجسادكم بينما تخوض عقولكم تجربة لا تشبه ما عرفتموه من قبل.

توقف لحظة، ثم تابع:

- لا أريدكم أن تخافوا مما سترونه، ولا أن تحاولوا مقاومة ما سيحدث داخلكم. دعوا أفكاركم تأتي وتذهب. دعوا الصور تتشكل ثم تتلاشى.

وأعدكم، حين تعودون إلى وعيكم المعتاد، ستكتشفون أن العالم الذي كنتم تظنونه مغلقًا لم يكن مغلقًا أصلًا... وأن الحدود التي ظننتم أنها تحاصر حياتكم لم تكن سوى حدود رسمتموها داخل عقولكم.

ظل غاري ينظر إليه بفضول وكلماته تلاعب تلافيف عقله كقيثارة.

كان قلبه يخفق بسرعة.

لم يكن يعرف إن كان ما يشعر به خوفًا أم ترقبًا.

ثم قال تشايتون الجملة الأخيرة، بنبرة أكثر دفئًا :

- بعد هذه الليلة، لن تنظروا إلى حياتكم بالطريقة نفسها.. وستصبحون رسمياً أعضاء جددًا في منظمة ميسيليوم إلى الأبد.

ساد الصمت من جديد.

وفي ذلك القبر المدفون تحت المنزل القديم، وسط الضوء الأزرق الباهت للفطريات ورائحة التراب والرطوبة، لم يكن غاري يعرف أنه لم يعثر فقط على المنظمة التي ظن أنها ستمنحه عائلة. لقد وضع قدمه، للمرة الأولى، داخل عالم صُمم ليعيد تشكيله من الداخل.

فما إن استقرت حبات الفطر في جوف غاري حتى بدأ في غضون دقائق قليلة يشعر بشيء يشبه الزلزال، لكنه لم يكن زلزالاً يضرب الأرض من تحته، بل زلزالاً صامتًا أخذ يهز أركان وعيه من الداخل. بدأت الرجفة من أطراف أصابعه، قشعريرة باردة دقيقة تسالت عبر جلده، ثم أخذت تصعد ببطء نحو ذراعيه وكتفيه، حتى شعر أنها بلغت مركز رأسه، حيث انفصل شيء ما في داخله عن العالم الذي عرفه طوال حياته.

وفجأة، اختفت الجاذبية.

لم يعد يشعر بثقل جسده، ولا بخشونة الكرسي الخشبي تحته، ولا بضغط الأربطة الجلدية التي كانت تثبته إليه. بدا له للحظة أن جسده قد ذاب، وأن الحدود التي كانت تفصل بينه وبين الأشياء المحيطة به قد انمحت بلا أثر. لم يعد هناك كرسي، ولا قبو، ولا جدران، ولا حتى جسد يمكن أن يقول عنه : هذا أنا.

كان غاري يطفو.

يطوف في فراغ لا بداية له ولا نهاية، بينما أخذ ضوء دافئ يتدفق في أعماقه ببطء، ثم اندفع فجأة كأنه شلال هائل من النور. اجتاحه شعور بالتححرر لم يعرفه من قبل، حرية كاملة لا أبواب لها ولا شروط. وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة، لم يشعر أنه الرجل الذي يحمل حقيبة على ظهره ولا يعرف أين سينام في الليلة التالية، ولا الشاب الذي ينتقل من مكان إلى آخر لأنه لا يعرف أين ينتمي، ولا الطفل الذي ظل يحمل في داخله خوفًا قديمًا لم يستطع أن يمنحه اسمًا.

في تلك اللحظة، بدا له أن كل ذلك قد انتهى.

كان أحدًا فتح بابًا في جدار حياته، ثم دفع الماضي كله إلى الجانب الآخر.



لكن ما بدأ كإحساس بالتححرر سرعان ما تحول إلى شيء أكثر غرابة.  
بدأ الواقع نفسه يفقد تماسكه.

لم تعد الحواس تعمل بالطريقة التي عرفها. امتزج الصوت بالضوء، واختلط اللون بالإحساس، حتى بدا لغاري أنه يستطيع أن يسمع الأزرق، وأن يرى الأصوات وهي تتشكل في الهواء قبل أن تتلاشى. كانت الأضواء الفوسفورية التي تغطي جدران القبو تتمدد أمام عينيه، ثم تنساب في خطوط طويلة متعرجة، تتحول شيئاً فشيئاً إلى أمواج من الضوء الأزرق، ترتفع وتهبط كما لو أنها بحر حي تحت سماء لا وجود لها.



ومن قلب ذلك البحر، خرج لحن غريب.  
لم يكن يعرف من أين يأتي.  
كان بطيئاً ومهيئاً، يحمل في أعماقه شيئاً من الحزن و شيئاً من القداسة، وكأن القبو كله تحول إلى معبد هائل لا أبواب له.

ثم حدث شيء أكثر عمقًا.

لم يعد غاري يرى نفسه من داخل جسده.

رأى جسده من بعيد، ثم رآه يتفكك، لا إلى لحم وعظام، بل إلى ملايين الذرات الصغيرة المضيئة، تنتشر حوله كغبار من النجوم. وكلما ابتعدت تلك الذرات عنه، شعر بأنه يصبح أخف، حتى بدا له أن كلمة «أنا» نفسها بدأت تفقد معناها. وعندها رأى الشبكة.

شبكة هائلة تمتد تحت الأرض، أوسع من المدن، وأعمق من البحار، وأقدم من كل شيء يعرفه الإنسان. خيوط دقيقة لا تحصى تتشابك في الظلام، تتفرع ثم تلتقي، وتمضي تحت الغابات والجبال والطرق والمنازل، كأن الأرض نفسها تمتلك جهازًا عصبيًا خفيًا لا يراه البشر.

كانت شبكة الميسيليوم.

لكنها في عيني غاري لم تعد مجرد فطريات.

كانت كائنًا واحدًا.

حيًا.

عظيمًا.

بلا مركز وبلا رأس، ومع ذلك كان يشعر أن كل جزء فيه يعرف مكانه، وأن كل خيط يعرف إلى أين ينبغي أن يمتد. رأى النبضات تسري في تلك الشبكة من قارة إلى أخرى، وكل نبضة كانت تترك أثرًا من الضوء وراءها. ثم شعر بها تنتقل إليه. نبضة واحدة.

ثم أخرى.

ثم آلاف النبضات.

وللمرة الأولى في حياته، لم يشعر بأنه شخص يقف خارج العالم وينظر إليه. شعر أنه جزء من شيء أكبر منه، شيء لا يسأله من أين جاء، ولا لماذا فشل، ولا لماذا هرب، ولا لماذا لم يستطع أن يصبح الرجل الذي أراده الآخرون.

كان مقبولًا.

كان جزءًا من الشبكة.

ثم انفتح الماضي.

لم يأتِ هذه المرة كذكرى، بل كعالم كامل أعيد بناؤه أمامه.

وجد غاري نفسه طفلاً في الخامسة، واقفاً في منزل أمه القديم. عرف المكان فوراً، رغم أن تفاصيله كانت مشوهة بضباب غريب؛ الجدران، الأثاث، الضوء الباهت، ورائحة البيت التي ظلت عالقة في ذاكرته رغم مرور السنوات.

رأى والده يدير له ظهره ويغادر دون أن يصغي لنداءاته ..

ثم ظهر زوج أمه.

لكن الرجل الذي كان يخشاه لم يعد رجلاً.

كان تمثالاً حجرياً هائلاً، أسود، جامد الملامح، يملأ المكان بظله. بدا أكبر

من البيت نفسه، وأكبر من الخوف الذي زرعه في الطفل الصغير. كانت شقوق عميقة تمتد في جسده الحجري، وكلما حاول التمثال أن يقترب، اتسعت الشقوق أكثر.

ثم سمع غاري صوتاً.

لم يعرف إن كان الصوت صادراً من داخله أم من مكان بعيد في ذلك العالم الذي كان يغرق فيه.

وقال الصوت :

لم يعد يستطيع إizardك.

وفجأة، انهار التمثال.

سقط أول جزء منه بصوت هائل، ثم تبعته أجزاء أخرى، حتى لم يبقَ منه سوى كومة من الحجارة السوداء.

نظر غاري إلى الطفل الصغير الذي كان يقف وسط الأنقاض.

كان ينتظر الألم.

لكنه لم يأتِ.

وبدلاً منه، حدث شيء لم يكن يتوقعه.

بدأت الندوب القديمة التي غطت ظهر الطفل تتغير. أخذت تتفتح ببطء، كما لو أن الجلد نفسه صار أرضاً خصبة، وتحولت آثار الجراح إلى زهور بيضاء صغيرة. زهرة بعد أخرى، حتى امتلأ ظهر الطفل بزهور بيضاء تتفتح ثم تنفصل عنه، وتهبط حوله في هدوء يشبه المطر.

ظل غاري يحدق فيها.

لم يشعر برغبة في الانتقام.

لم يشعر حتى بالكراهية.

شعر بشيء آخر أكثر غرابة.

شعر أن الألم الذي حمله طوال حياته لم يعد ملكاً لذلك الرجل.

لقد أصبح ملكه هو.

وللمرة الأولى، استطاع أن يراه دون أن يهرب منه.

لكن المشهد لم يدم طويلاً.

بدأ المنزل القديم يتداعى حوله. الجدران تشققت، النوافذ ذابت، الأرض انفتحت، وكل ما بقي من طفولته الممزقة تحول إلى ركام يتطاير في الهواء.

ومن بين ذلك الركام، بدأت ترتفع القلاع.

القلاع التي كان غاري الطفل يبنّيها في خياله عندما كان الواقع يضيق حوله.

كانت أبراجاً بلورية شاهقة، تتلألأ تحت شمس دافئة لا تغيب. نوافذها مفتوحة، وأبوابها مشرعة، ومن داخلها ظهرت تلك الكائنات الغريبة التي رافقته في أحلامه القديمة، الكائنات التي لم يكن أحد سواه يعرف بوجودها.

كانت تناديه.

لم تكن أصواتها مخيفة هذه المرة.

كانت هادئة، بعيدة، تشبه ترائيل قديمة تأتي من مكان لا يعرفه.

وكانت تقول له، دون كلمات واضحة :

عد إلى بيتك.

اقترب غاري منها.

وللحظة، لم يعد يعرف إن كان يحلم بطفولته، أم أن طفولته هي التي كانت تحلم به طوال تلك السنوات.

ثم حدث الأمر الأعمق.

اختفت الحدود.

لم يعد هناك طفل ورجل، ماضٍ وحاضر، خوف ونجاة، جسد وروح. تلاشت الهوية التي حملها غاري طوال حياته، الاسم الذي ناداه به الآخرون، قصته، أخطاؤه، رحلاته، وحدته، وحتى الصورة التي كَوَّنَها عن نفسه.

لم يبقَ إلا وعي عارٍ يسبح في فضاء لا حدود له.

وكان ذلك الوعي سعيدًا.

سعادة خالصة، عمياء، لا تسأل عن الغد.

وفي مكان ما داخل ذلك الذهول، تشكلت فكرة واحدة، واضحة بصورة مخيفة.

لقد وجد البوصلة.

البوصلة التي ظل يبحث عنها منذ أن كان طفلًا.

البوصلة التي لم يجدها في بيت، ولا في عائلة، ولا في عمل، ولا في الطرق الطويلة التي قطعها بلا وجهة.

لقد وجدها هنا.

في هذه الغرفة الغريبة.

في هذه الشبكة التي بدت له وكأنها تمتد تحت العالم كله.

وفي الرجل الواقف أمامه.

البروفيسور تشايتون.

لم يعد غاري يراه مجرد رجل يقف بهيبة في القبو. كان عقله، في تلك اللحظة، قد أعاد تشكيله وفق الحاجة العميقة التي حملها غاري في داخله سنوات طويلة. صار

تشايتون في عينيه أكثر من قائد؛ صار الشخص الذي يبدو أنه يعرف الطريق حين كان غاري عاجزًا حتى عن معرفة الاتجاه.

ولم يدرك غاري أن أخطر ما في تلك الرحلة لم يكن أن الواقع قد اختفى للحظات. بل أن أحدًا آخر كان يقف هناك، ينتظر خلف ذلك الاختفاء، مستعدًا لأن يقدم له واقعًا جديدًا.

واقعًا له معنى.

ومكانًا ينتمي إليه.

وبوصلة تشير إلى الاتجاه لأول مرة في حياته.

غير أن غاري لم ينتبه إلى شيء بالغ الأهمية.

لم تكن البوصلة التي وجدها في تلك الليلة بوصلة تشير إلى طريق يختاره هو.

كانت تشير إلى اتجاه واحد فقط.

الاتجاه الذي رسمه لها تشايتون.

وكان ذلك الفارق الصغير، الذي بدا في تلك اللحظة غير ذي أهمية، هو أول حجر في الطريق الطويل الذي سيقوده، يومًا ما، بعيدًا عن الرجل الذي كان يظنه منقذه، وإلى مكان لم يعد فيه يعرف أين تنتهي إرادته هو وأين تبدأ إرادة البروفيسور.

\*\*\*\*\*

# الفصل الخامس

طيفيلي على الطيفيلي

## الخطوة الخامسة : التبريرات المقنعة

وقف البروفيسور تشايتون بلباسه التقليدي المستوحى من جذوره الهندية الحمراء في منتصف القاعة شبه المعتمة، بينما عيناه تنتقلان ببطء بين الوجوه الجالسة أمامه. لم يكن يتعجل الكلام هذه المرة. كان يعرف أن بعض الأفكار لا تحتاج إلى أن تُلقى على المستمعين دفعة واحدة؛ يكفي أن تُزرع في المكان المناسب، ثم تُترك لتنمو داخلهم حتى يظنوا، بعد وقت، أنها خرجت منهم هم.

ظل صامتًا لحظات، يتأمل أثر كلماته السابقة في وجوههم، ثم خفض صوته تدريجيًا، حتى بدا كأنه لا يخاطب قاعة كاملة، بل يهمس بسرٍ لا ينبغي أن يصل إلى آذان العالم الخارجي.

- أيها السادة... هناك شيء تعلمنا منذ طفولتنا أن نتجاهله، مع أنه يقف في قلب كل ما يحدث حولنا.  
رفع عينيه نحوهم.

- في هذا العالم نوعان من البشر؛ أولئك الذين ينتجون، وبينون، ويضيفون شيئًا إلى حياة الآخرين... وأولئك الذين يعيشون على ما ينتجه غيرهم.  
توقف قليلًا.

- الأخطر في الحياة ليس الفقير الذي لا يملك شيئًا، ولا العاطل الذي يبحث عن فرصة، ولا الإنسان الذي اضطرتته الحياة إلى الاعتماد على غيره. الأخطر هو من يمتلك الكثير، ثم يريد المزيد، ليس لأنه يحتاج إليه، بل لأنه اكتشف أن الآخرين يستطيعون أن يكونوا مصدرًا دائمًا لثروته.  
تحرك بضع خطوات في القاعة، ثم تابع:

- انظروا إلى العالم من حولكم. هناك من يستطيع أن يحول أزمة اقتصادية إلى فرصة للثراء، بينما تتحول الأزمة نفسها إلى كارثة في بيوت الملايين. وهناك من يمتلك شركات وعقارات وأسواقًا كاملة، فيصبح احتياج الإنسان إلى الطعام أو السكن أو العلاج مجرد رقم آخر في ميزان أرباحه. وهناك من يصل إلى السلطة باسم الناس، ثم يكتشف بعد وصوله إليها أن المال العام يمكن أن يتحول بسهولة إلى ثروة خاصة، وأن المناصب التي مُنحت لخدمة المجتمع يمكن أن تصبح أبوابًا للنفوذ والثروة.  
لم يسم أحدًا.



لم يكن بحاجة إلى ذلك.

كان يريد منهم أن يملأوا الفراغ بأسماء يعرفونها هم.

ثم اقترب من الطاولة الحجرية في وسط القاعة، ووضع كفه عليها.

- وهكذا، شيئاً فشيئاً، يصبح العالم شبكة هائلة من العلاقات غير العادلة. شخص يملك أكثر مما يحتاج، وآخر لا يملك حتى ما يحتاج إليه. شخص يستطيع أن يشتري القانون، وآخر لا يستطيع أن يشتري دواءً لطفله. شخص يستطيع أن يخسر ملايين دون أن يتغير شيء في حياته، وآخر قد يسقط من حياته كلها بسبب فاتورة واحدة.

ساد الصمت.

وكان الصمت هذه المرة أكثر أهمية من الكلام.

ترك تشايتون عيونهم معلقة به، ثم قال:

- لكن المشكلة ليست في وجود هذه الطفيليات التي تتغذى على أرزاقنا وحدها.

رفع رأسه.

- المشكلة أن العالم أقنعنا بأن مقاومتها جريمة.

تحركت همهمة خافتة بين الحاضرين.

ابتسم تشايتون ابتسامة صغيرة، ابتسامة رجل يعرف أنه اقترب من النقطة التي يريد الوصول إليها.

- إذا أخذ الطفيلي من جسد المجتمع دون أن يمنحه شيئاً، فلماذا نسمح له بأن

يحتفظ بما أخذه إلى الأبد؟ وإذا كان النظام نفسه عاجزاً عن استعادة ما ضاع،

فهل يصبح الصمت فضيلة؟ وهل يصبح الوقوف

متفرجين نوعاً من البراءة؟

ثم أضاف، بصوت أكثر حسماً:

- هنا يأتي دور ميسيليوم.

رفع إحدى يديه، وكأنه يرسم في الهواء شبكة غير مرئية.

- نحن لن نقبل أن نكون الضحايا الأبديين. ولن نقف على هامش العالم نراقب

الآخرين وهم يعيدون توزيع الثروة والسلطة لمصلحتهم. إذا كان هذا العالم

قد بنى شبكات تحمي مصالح الأقوياء، فسنبني نحن شبكتنا أيضاً.  
كانت بعض الوجوه أمامه قد تغيرت.

لم تعد تستمع فحسب.

كانت تتلقى.

- لن نسرق من أجل أنفسنا.

قالها ببطء، متعمداً أن يمنح الجملة وزناً أخلاقياً.

- لن نجمع الثروة لنشتري بها القصور والسيارات ونعيش حياة الذين ننتقدهم.

ما ننتزعه من منظومة الاستغلال سيعود إلى منظومتنا. سيمول توسعنا،

ويحمي أعضائنا، ويبني قوتنا، ويمنح ميسيليوم القدرة على الوصول إلى

أماكن لم يستطع القانون الوصول إليها.

ثم ابتعد خطوة عن الطاولة.

- نحن لا نريد أن نصبح نسخة أخرى منهم.

سكت لحظة.

- نحن نريد أن نكون شيئاً آخر.

كان الضوء الخافت يمر على وجهه، فيقسم ملامحه إلى نصفين؛ نصف مضاء

بالكاد، ونصف غارق في الظل.

- إذا كان العالم قد سمح للطفيليات بأن تعيش على جسده طويلاً، فربما يحتاج

هذا الجسد إلى طفيلي آخر... طفيلي لا يعيش على استنزافه،

بل يتغذى على الطفيليات التي استنزفته.

ترك العبارة معلقة في الهواء.

ولم يقل إن ذلك هو العدالة.

لم يكن بحاجة إلى قولها.

فقد كان قد أمضى الدقائق الماضية كلها في بناء المعنى الذي سيجعلهم يصلون إلى

هذه النتيجة بأنفسهم.

ثم نظر إلى الحاضرين واحداً واحداً، وقال:

- هذه هي مهمتنا. ان نكون الطفيلي على الطفيلي. لن نكون ضحايا، ولن

نكون متفرجين. سنكون شبكة داخل الشبكة، وسنستعيد لأنفسنا ولأعضائنا

ما حُرِّمنا منه. وكلما اتسعت ميسيليوم، ازداد عدد الأشخاص الذين تستطيع  
حمايتهم، وكلما ازدادت قوتها، أصبح من الصعب على العالم القديم أن  
يوصل تجاهلها.»



ساد الصمت من جديد.

لكن شيئاً كان قد تغير فيه.

فالكلمات لم تعد مجرد أفكار تُقال في قبو بعيد.

كانت تتحول، أمام عيني تشايتون، إلى عقيدة.

وكان يعرف أن أخطر العقائد ليست تلك التي تطلب من الإنسان أن يفعل الشر  
وهو يعرف أنه شر، بل تلك التي تمنحه لغة جديدة يستطيع بها أن يسمي الشر  
عدالة، والسرقة استرداداً، والطاعة تضحية، والولاء خلاصاً.

وفي تلك اللحظة، وضع تشايتون بصمته الأخيرة .. بأن ميسيليوم لم تعد مجرد  
منظمة تجمع التائهين. بل أصبحت عالماً كاملاً له قاموسه الخاص، وأخلاقه  
الخاصة، وحدوده الخاصة بين ما هو صواب وما هو خطأ.

وكان هو من يكتب ذلك القاموس.

خرج غاري من قاعة الاجتماع الثاني بوجه غارق في الصمت، كأن شيئاً ثقيلاً  
ظل معلقاً في داخله ولم يجد بعد الكلمات التي يستطيع أن يصف بها ما حدث. كان

الآخرون يتفرون في الممرات، تتعالى خطواتهم وتخفت، بينما بقي هو للحظات واقفاً في مكانه، ينظر أمامه دون أن يرى شيئاً بعينه.

كان عقله يعج بأفكار لم تكن تشبه الأفكار التي عرفها طوال حياته.

لم يكن يستعيد كلمات تشايتون بوصفها خطاباً سمعه قبل دقائق، بل بوصفها حقائق اكتشفها للتو. كل جملة قالها البروفيسور كانت تعود إلى ذاكرته أكثر وضوحاً، وكل فكرة كانت تجد في داخله مكاناً جاهزاً لاستقبالها، كما لو أنها لم تكن غريبة عنه، بل كانت شيئاً ظل يبحث عنه دون أن يعرف اسمه.

ولهذا لم يشعر غاري بأنه اقتنع.

كان يشعر بأنه تذكر.

تذكر شيئاً كان مختبئاً خلف طبقات طويلة من الخوف والضياء، ثم جاء تشايتون ليزيح عنها الستار.

ولم يكن ذلك الإيمان وليد الاجتماع وحده. فالكلمات التي سمعها في تلك الليلة وقعت في عقل كان قد تغير بالفعل قبل أن يدخل القاعة. منذ تجربة القبو والفطر السحري، لم يعد غاري يرى العالم بالطريقة القديمة. لقد مرّ بتجربة نفسية عنيفة جعلته يشعر للحظات بأن الحدود التي فصلت بينه وبين العالم طوال حياته قد اختفت، وأن الأشياء التي كان يراها ثابتة ومقدسة لم تكن سوى تفسيرات مؤقتة صنعها البشر كي يحتملوا وجودهم.

كان يتذكر تلك الرؤى كما يتذكر الإنسان حلمًا شديد الواقعية؛ لا يستطيع إثبات أنه حدث، لكنه يعجز أيضاً عن التعامل معه كأنه لم يحدث.

تذكر شبكة الميسيليوم الهائلة التي رآها في أعماق وعيه.

تذكر كيف شعر بأن كل شيء متصل بكل شيء.

وتذكر صوت تشايتون وهو يخبرهم قبل التجربة أن عليهم أن يكونوا مستعدين لرؤية العالم بطريقة مختلفة.

لقد وعدهم بأن شيئاً سيتغير.

والآن، كان غاري مقتنعاً بأن الوعد قد تحقق.

لم يخطر له أن ما حدث في تلك الليلة ربما جعل عقله أكثر قابلية لتصديق الرجل

الذي قاده خلالها. لم يسأل نفسه إن كانت التجربة قد فتحت عينيه فعلاً على الحقيقة، أم أنها جعلته أكثر استعداداً لرؤية الحقيقة من خلال عيني شخص آخر. لم يفكر للحظة إن البروفيسور جعله يعيش تجربة الفطر السحري تلك كتمهيد للدخول الى وعيه لاحقاً.

بالنسبة إليه، لم يعد تشايتون مجرد بروفيسور أسس منظمة وجمع حوله مجموعة من الشباب الضائعين.

كان شيئاً أكبر.

كان الرجل الذي بدا وكأنه امتلك الخريطة في الوقت الذي عاش فيه غاري حياته كلها بلا اتجاه.

كلما استمع إليه، شعر أن الفوضى التي عاشها طوال سنوات بدأت تكتسب شكلاً. الأحداث التي كانت تبدو منفصلة أخذت تتصل ببعضها، والجراح القديمة بدأت تجد تفسيراً، والغضب الذي لم يعرف أين يوجهه وجد لغة يستطيع أن يعبر بها عن نفسه.

وهنا تحديداً، بدأت الخطورة الحقيقية.

فغاري لم يعد يحتاج إلى أن يسأل: «هل ما يقوله تشايتون صحيح؟»

كان السؤال نفسه قد أصبح، في داخله، أقل أهمية من سؤال آخر:

«كيف يمكنني أن أساعده؟»

لقد تحول الرجل الذي منحه معنى إلى الرجل الذي يريد غاري أن يثبت له ولاءه.

ولهذا، حين خرج من القاعة، لم يشعر بأنه يغادر اجتماعاً تنظيمياً عادياً. كان يشعر بأنه يغادر درساً جديداً في فهم العالم، درساً تلقاه من رجل بدأ يراه باعتباره صاحب بصيرة نادرة، وربما الشخص الوحيد الذي استطاع أن يمنح الفوضى التي عاشها اسماً واتجاهاً.

استقر في أعماقه يقين هادئ، لكنه كان شديد الصلابة:

تشايتون يعرف ما يفعل.

وإذا كان هذا العالم قد انحرف إلى هذا الحد، وإذا كانت القواعد القديمة قد فشلت في إصلاحه، فلا بد أن يأتي التغيير من مكان آخر.

مكان مثل ميسيليوم.

وتحت قيادة رجل مثل تشايتون.

لم يعد الانصياع لأوامره يبدو لغاري خضوعاً لرجل آخر، بل بدا له، بصورة تكاد تكون مطمئنة، نوعاً من التحرر من الفوضى التي عاش فيها طوال حياته.

وهكذا، من دون أن يشعر، حدث التحول الأعمق.

لم يعد غاري يبحث عن بوصلة.

لقد وجدها.

ولم يعد يسأل إلى أين ينبغي أن يسير.

صار السؤال الوحيد الذي يشغله هو: إلى أين يريد تشايتون أن يصل؟

تسلل السكون إلى سيارة الدفع الرباعي الرابضة في عتمة الليل، حتى بدا كأن المدينة كلها ابتعدت عنهم وتركتهم في جزيرة صغيرة معزولة من الظلام. جلس غاري خلف المقود، وعيناه معلقتان بانعكاس وجهه على زجاج النافذة. ظل يتأمل له اللحظات طويلة، كما لو أنه يحاول أن يتعرف إلى شخص كان يعرفه ذات يوم ثم اختفى.

لم يجد ذلك الشاب الذي أمضى سنواته متنقلاً بين الطرقات، يحمل أفكاراً كثيرة ولا يحمل طريقاً واحداً. لم يجد الرجل الذي كان يلوك شعارات واسعة عن الحرية والعدالة، ثم يعود في المساء إلى وحدته دون أن يعرف ماذا سيفعل في اليوم التالي. لم يجد ذلك الإنسان الذي كان يملك غضباً تجاه العالم، لكنه لم يعرف أين يوجهه، ولا حلمًا واضحًا يستطيع أن يمنح غضبه شكلاً أو معنى.

كان ذلك الشخص قد تراجع إلى مكان بعيد داخله.

أو هكذا كان غاري يعتقد.

منذ تجربة القبو، شعر أن الضباب الذي عاش داخله سنوات قد انشق فجأة. لم يعد يرى العالم كمجموعة من الأحداث المتناثرة، بل كشبكة هائلة من الأسباب والنتائج، حيث لكل شيء مكان، ولكل ظلم مسؤول، ولكل ألم جهة ينبغي أن يُوجَّه إليها.

لم يكن يعلم أن الإنسان حين يعيش طويلاً بلا معنى يصبح شديد القابلية لمن يمنحه

معنى جاهزًا.

وكان تشايتون قد فعل ذلك بدقة.

أعطاه لغة يفهم بها العالم، وقضية يؤمن بها، ومجموعة ينتمي إليها، ودورًا يشعر من خلاله للمرة الأولى أن وجوده ليس عبئًا زائدًا على هذا الكوكب.

ولهذا، حين كلفه البروفيسور بقيادة فريقه الأول، لم يشعر غاري بالخوف الذي كان ينبغي أن يشعر به.

شعر بالفخر.

كان يظن أنه أخيرًا أصبح شخصًا مهمًا.

إلى جواره جلس ماركوس، الرجل ضخم البنية، حاد الملامح، ذو الندبة الصغيرة تحت عينه اليسرى. كان صمته جزءًا من حضوره؛ لا يتحدث إلا عندما يكون للكلام ضرورة، ولا يبدو على وجهه شيء يمكن أن يكشف ما يدور في داخله. كان يتحرك بهدوء بارد، كأن الخطر بالنسبة إليه مجرد ظرف آخر من ظروف الحياة.

وفي المقعد الخلفي جلست إيلينا، نحيلة، قصيرة الشعر المصبوغ بالرمادي، تحديق في شاشتها بتركيز كامل. تبدو لأول وهلة عصبية المزاج، سريعة الاشتعال، لكن ما إن تنصرف إلى عملها حتى تختفي كل انفعالاتها، ويحل محلها تركيز حاد يجعلها تبدو كأنها منفصلة تمامًا عن العالم المحيط بها. أما سيمون، فلم يكن داخل السيارة أصلًا.

كان في مكان آخر من المدينة، رجلًا عاديًا لا يلفت النظر، يمتلك تلك الموهبة النادرة في أن يصبح جزءًا من الخلفية متى شاء. وجه ساخر، ابتسامة خفيفة، وحضور يمكن أن يمر بين الناس دون أن يترك في ذاكرتهم أكثر من ظل عابر. أربعة أشخاص مختلفون.

لكن تشايتون عرف كيف يجعلهم يتحركون كأنهم أجزاء من جسد واحد.

وكانت مهمتهم الأولى، كما وصفها لهم، بسيطة في جوهرها:

استرداد المال من رجل يستحق، في نظرهم، أن يُسترد منه.

كان اسمه أرتور فانس.

رجل أعمال جمع ثروة ضخمة من العقارات والاستثمارات المالية، وكان تشايتون قد وضعه أمامهم باعتباره نموذجًا مثاليًا لما سماه «الطفيلي».

كان غاري قد قرأ ملفه قبل المهمة.

رأى الوثائق والصور والتقارير المتعلقة بمخطط عقاري اتُّهم فانس بالمشاركة فيه؛ صفقة أدت، وفق المعلومات التي تلقاها الفريق، إلى إخلاء مئات العائلات من مجمع سكني بعد سلسلة من الضغوط والإجراءات المشبوهة، ثم الاستفادة من الأرض بعد انخفاض قيمتها وانتقال ملكيتها إلى جهات مرتبطة بمصالحه.

كانت هناك صور للعائلات.

أمهات يحملن أطفالاً أمام أبنية خالية.

رجال يقفون بجوار صناديق أثاثهم.

وجوه لا تعرف أين ستذهب بعد ذلك.

ثم جاءت صورة أخرى.

فانس على متن يخت فاخر، يضحك وسط مجموعة من رجال الأعمال.

ظل غاري يحدق بين الصورتين طويلاً.

في السابق، ربما كان سيتساءل عن حقيقة كل رواية، وعن الوثائق التي تثبتتها، وعن المسؤولية القانونية لكل شخص فيها.

أما الآن، فقد أصبح العالم في عينيه أكثر بساطة.

ضحايا.

ومعتدون.

مظلومون.

وطفليات.

ولم يعد يرى فانس كرجل يمكن أن يكون مذنباً أو بريئاً بحسب الأدلة، بل باعتباره التجسيد الحي للصورة التي زرعا تشايتون في رأسه منذ أسابيع.



طفيلي يعيش على جسد الآخرين.  
وهنا حدث شيء أخطر من الغضب.  
لقد تحول الحكم الأخلاقي في داخله إلى يقين.  
قال لنفسه إن المال الذي سيأخذونه ليس مالا مسروقا.  
إنهم يستردونه.  
وأن ما سيفعلونه ليس جريمة.  
إنهم يصلحون اختلافاً.  
وأنهم لا يسرقون من رجل، بل ينتزعون من منظومة.  
كانت تلك الكلمات مريحة على نحو مخيف.  
لأنها أعفت غاري من الحاجة إلى الشك.  
عند الحادية عشرة ليلاً، بدأت العملية.  
كان فانس في مأدبة فاخرة بعيدة عن منزله، بينما بقيت الفيلا غارقة في السكون.  
تحرك أفراد الفريق كلٌّ في موقعه، وفق الخطة التي وضعها تشايتون مسبقاً. لم  
يكن هناك صراخ، ولا استعراض للقوة، ولا رغبة في المواجهة.  
كان كل شيء محسوباً.  
دخل غاري وماركوس إلى المنزل، بينما بقي سيمون يراقب المشهد من الخارج،  
وتولت إيلينا الجانب الرقمي من العملية من مكان آمن داخل السيارة.  
تقدم غاري داخل الفيلا، وكان يشعر بشيء غريب وهو يرى ذلك العالم الذي لم  
يعرفه إلا من الصور: أثاث باهظ، لوحات ضخمة، تحف لا يعرف قيمتها، وأشياء  
كثيرة تبدو وكأنها صنعت لتقول لمن يدخل المكان إن صاحبها يعيش حياة لا علاقة  
لها بحياة البشر الذين رأهم في الملفات.  
مرر يده فوق سطح مكتب فانس.  
ثم نظر حوله.  
ولم يشعر أنه داخل منزل رجل.

شعر أنه داخل رمز.

رمز لكل ما تعلمه في اجتماعات ميسيليوم.

بحث عن حاسوب فانس الشخصي حتى وجده .. ادخل الجهاز الذي منحتة اياه  
إيلينا في الحاسوب وشغله ..

بعد دقائق، بدأت إيلينا عملها من الطرف الآخر. ظهرت على الشاشة أمام غاري  
سلسلة من البيانات والملفات التي كانت تكشف حجم الثروة التي جمعها فانس. لم  
يتابع التفاصيل التقنية؛ لم يكن ذلك ما يهمه.

ما كان يهمه هو الرقم النهائي.

المال الذي قرروا أنه يجب أن يخرج من يد فانس ويدخل إلى خزائن ميسيليوم.  
وحين اكتملت العملية، ظهرت أمامهم إشارة تؤكد نجاحها.

ثلاثة ملايين ونصف المليون دولار.

ظل غاري ينظر إلى الرقم.

كان يستطيع أن يتخيل ما يمكن أن يفعله هذا المبلغ بعشرات العائلات التي رآها  
في الصور.

لكنه لم يتوقف ليسأل أين سيذهب المال فعلاً.

لم يسأل من سيقدر توزيعه.

ولم يسأل لماذا أصبحت المنظمة، التي بدأت حديثها عن العدالة، تمتلك الآن القدرة  
على الاستيلاء على أموال الآخرين باسم تلك العدالة.

كانت تلك الأسئلة موجودة في مكان ما.

لكنها كانت بعيدة.

بعيدة جداً عن نشوة اللحظة.

تبادل غاري وماركوس نظرة قصيرة.

لم تكن في عيني غاري رغبة في المال.

كان هناك شيء آخر.

نشوة الانتماء.

لأول مرة في حياته، شعر أنه أنجز شيئاً له معنى. لم يعد الرجل الذي يمر في العالم من دون أن يترك أثراً. أصبح، في نظر نفسه، جزءاً من قوة أكبر، شخصاً يستطيع أن يتدخل في الأحداث بدل أن يقف على هامشها.

غادر الفريق المكان واختفى في المدينة قبل أن تنتهي مأدبة فانس بوقت طويل. وحين عاد غاري إلى المقر، جلس أمام الشاشة التي أظهرت نجاح العملية، وبقي صامتاً.

كان الضوء المنبعث من الشاشة ينعكس على وجهه.

فكر في الطفل الذي كانه ذات يوم.

في الشوارع.

في الليالي التي لم يكن يعرف فيها أين سينام.

في السنوات التي كان يشعر خلالها أنه زائد عن الحاجة.

ثم ابتسم.

لقد وجد أخيراً مكانه.

وجد قضية.

وجد إخوة.

ووجد رجلاً يقول له ماذا يفعل.

لكن غاري لم يدرك أن أخطر شيء في تلك الليلة لم يكن اختفاء الملايين من حسابات رجل ثري.

كان الشيء الأخطر هو ما حدث داخل غاري نفسه.

فقد اكتشف للمرة الأولى أن الطاعة يمكن أن تمنحه شعوراً بالقوة، وأن تنفيذ أوامر شخص آخر يمكن أن يجعله يشعر بأنه صاحب إرادة، وأن ارتكاب فعل خطير يصبح أسهل بكثير حين يجد الإنسان الكلمات التي يستطيع أن يبرره بها لنفسه.

وفي تلك الليلة، لم يدخل غاري عالم ميسيليوم خطوة أخرى فحسب.

لقد بدأ يفقد، من دون أن يشعر، المسافة الصغيرة التي كانت تفصل بين إرادته وإرادة تشايتون.

# الفصل السادس

## الزواج

## الخطوة السادسة : التحكم بالدمى

بلغ مخطط تشايتون ذروته في اللحظة التي لم يعد فيها بحاجة إلى إقناع أتباعه بشيء. لم يعد يقف أمامهم ليشرح فلسفة ميسيليوم أو يدافع عن أفكارها؛ فقد حدث ما هو أخطر من الاقتناع. أصبحت أفكاره تتحرك داخلهم كما لو أنها أفكارهم هم، وأصبحت أوامره تصل إليهم من الداخل قبل أن تصل إليهم بصوته.

كان قد انتقل من مرحلة التأثير في عقولهم إلى مرحلة إعادة تشكيلها.

ولم يكن تشايتون يرى في ذلك مجرد استعارة جميلة، فقد كان علم الفطريات الذي كرّس حياته له يمنحه صورة أكثر رعباً عن طبيعة ما فعله. كان يعرف أن فطر الكورديسييس لا يحتاج إلى قتل النملة فوراً كي يسيطر عليها. يكفي أن يدخل جسدها، ثم ينتشر بصبر داخل أنسجتها، ويتغلغل في منظومتها العصبية، إلى أن تأتي لحظة تتحرك فيها النملة وفق إرادة لم تعد تعرف مصدرها. تترك المستعمرة، وتتخلى عن مسارها الطبيعي، وتصعد إلى المكان الذي يخدم دورة حياة الفطر، ثم تموت هناك وتنشر الأبواغ من الأعلى دون أن تدرك أن آخر قرار اتخذته لم يكن قرارها أصلاً.. كانت نملة ميتة في الواقع لكن حية بسيطرة الفطر على عقلها.. كالزومبي تماماً..



وهكذا كان تشايتون قد صنع نسخته البشرية من الكورديسييس.

لم يسلب أتباعه إرادتهم بالقوة، بل أقنعهم بأن الإرادة التي تتحرك داخلهم أصبحت أكثر نقاءً من أي وقت مضى. لم يقل لهم: «افعلوا ما أريد». بل علمهم كيف ينظرون إلى ما يريدونه هو باعتباره النتيجة الطبيعية لما يريدونه هم.

كانت السيطرة الحقيقية قد بدأت قبل أن يعرفوا أنها سيطرة.

في **المرحلة الأولى**، استخدم تجربة الفطر السحري كزلزال داخلي. لم تكن التجربة بالنسبة إليه مجرد لحظة نشوة أو انفصال مؤقت عن الواقع، بل كانت أداة لهدم البنية القديمة التي استندت إليها عقولهم؛ الشكوك، والمخاوف، والولاءات السابقة، والصور التي صنعها كل واحد منهم عن نفسه والعالم. فتح في جدران وعيهم شقوقاً واسعة، ثم تركهم يواجهون ذلك الفراغ الهائل الذي يظهر عندما تنهار الإجابات القديمة دون أن تكون هناك إجابات جديدة.

وهناك، كان ينتظرهم.

في **المرحلة الثانية**، قدم لهم ميسيليوم بوصفها الإجابة. منح الفوضى لغة، ومنح الألم تفسيراً، ومنح الضياع هدفاً. جاءت عقيدة «الطفيلي على الطفيلي» لتملأ الفراغ الذي صنعه التجربة، فبدل أن يبقى أتباعه أمام عالم معقد ومتناقض، أصبح لديهم عالم يمكن تقسيمه بسهولة : مستغلون ومن يتم استغلالهم، ضحايا وجلادون، طفيليات وجسد مضيف، ومنظمة تقف في المنتصف لتعيد التوازن.

لم يعد العضو بحاجة إلى أن يسأل نفسه إن كان ما يفعله صحيحاً.

كان يكفي أن يسأل : هل أخدم ميسيليوم كما يجب؟

ثم جاءت **المرحلة الثالثة**، وهي الأكثر خطورة.

تراجع تشايتون خطوة إلى الخلف بصفته معلماً، وتقدم خطوة إلى الأمام بصفته مركزاً تدور حوله إرادات الآخرين. لم يعد يوجه أتباعه من الخارج؛ لقد أصبح حاضراً في الطريقة التي يفكرون بها، وفي الكلمات التي يستخدمونها لتبرير أفعالهم، وفي الحدود التي لم يعودوا يرون أنفسهم قادرين على تجاوزها.

وهنا اكتملت دائرة السيطرة.

لم يصبح أتباع ميسيليوم أسرى في زنانات، ولم يحملوا سلاسل في أعناقهم. كانوا

يخرجون إلى الشوارع بمحض إرادتهم، ويتحركون في المدن دون أن يلاحقهم أحد، ويعودون إلى مقراتهم وهم مقتنعون بأنهم اختاروا كل خطوة بأنفسهم.

لكنهم لم يعودوا يسألون: «ماذا أريد؟»

بل صار السؤال الذي يسبق كل شيء:

«ماذا تريد ميسيليوم؟»

وكانت الإجابة، في النهاية، تعني شيئاً واحداً.

ماذا يريد تشايتون؟

وهكذا أصبح البروفيسور بالنسبة إليهم أشبه بفطر خفي استوطن جماجمهم؛ لا يصرخ، ولا يهدد، ولا يحتاج إلى الظهور، لأنه وجد طريقاً أكثر إحكاماً إلى السيطرة : أن يجعل ضحيته تتحرك وهي مقتنعة بأنها حرة.

لم يكن جيش ميسيليوم جيشاً من العبيد.

كان أخطر من ذلك بكثير.

كان جيشاً من أناس يتوهمون بيقين أنهم أحرار.

وهكذا انقضى العام الأول على ولادة ميسيليوم، عام لم يعد فيه مشروع تشايتون مجرد فكرة غامضة يتداولها نفر من الضائعين في قبو معزول، بل تحول إلى كيان خفي أخذ ينمو في الظلام، ويتسع بصمت، حتى أصبح له من المال والنفوذ والأتباع ما يجعل وجوده حقيقة يصعب تجاهلها، رغم أن العالم الخارجي لم يكن يعرف عنه شيئاً.

خلال ذلك العام، نجحت العمليات التي قادها غاري ورفاقه في تحويل ثروات ضخمة من أولئك الذين صنفهم تشايتون تحت اسم «البشر الطفيليات» إلى خزائن ميسيليوم. ملايين الدولارات اختفت من إمبراطوريات عقارية ومالية ضخمة، وانتقلت إلى شبكات مالية لا يعرف أصحابها شيئاً عن الجهة التي تقف خلفها. وكان تشايتون ينظر إلى تلك الأموال لا بوصفها غنائم، بل

بوصفها دمًا جديداً يتدفق في عروق كائن بدأ يكبر أسرع مما توقع.

ومع تدفق المال، تغيرت المنظمة نفسها.



لم تعد المقرات أماكن للاجتماعات السرية وحدها، بل تحولت تدريجياً إلى عوالم مكتفية بذاتها؛ أماكن يجد فيها العضو كل ما كان يبحث عنه في الخارج ولا يجده. غرف مريحة، طعام وفير، تقنيات حديثة، وسائل نقل، رعاية مادية، ومكافآت سخية جعلت حياة كثير من الأتباع داخل ميسيليوم أكثر سهولة ورفاهية من أي وقت مضى.

وكان تشايتون يعرف تمامًا ما يفعل.

فهو لم يكن يشتري ولاءهم بالمال مباشرة؛ كان يبني حولهم عالمًا يجعل الخروج منه مؤلماً.

كل حاجة تلبيها المنظمة كانت خيطاً جديداً يربط العضو بها. وكل امتياز يحصل عليه كان يجعل حياته السابقة تبدو أكثر بؤساً. وكل مرة يفتح فيها أحدهم باب غرفته المريحة، أو يستخدم جهازاً لم يكن يستطيع امتلاكه، أو يتلقى مكافأة تفوق ما كان يحلم به، كان يشعر بأن ميسيليوم لم تمنحه شيئاً فحسب، بل أنقذته.

وهنا بدأ الامتتان يتحول ببطء إلى ولاء.

والولاء إلى تبعية.

والتبعية إلى عقيدة.

كان تشايتون قد فهم شيئاً بالغ الخطورة عن البشر: أن الإنسان لا يرتبط دائماً بمن يمنحه الحقيقة، بل كثيراً ما يرتبط بمن يمنحه الإحساس بأنه محبوب، ومقبول، ومحمي، وله مكان في العالم.

وهذه تحديداً كانت الهدية التي أغدقها عليهم.

لم يعد أعضاء ميسيليوم يرونه مجرد أستاذ أو مؤسس أو قائد. كان بالنسبة إلى كثير منهم الرجل الذي أعاد إليهم ما سلبته الحياة منهم: المكانة، والأمان، والرفقة، والهدف، وحتى القدرة على الحلم.

أما غاري، فكان أكثرهم قابلية لهذا التحول.

فالشباب، ككل فرد من جماعة الهيبيز الذين انضموا معه إلى المنظمة، قضى سنوات يتنقل بلا وجهة، وينام دون أن يعرف أين سيستيقظ، ثم وجد نفسه فجأة محاطاً بأشخاص ينادونه باسمه، ويثقون به، ويمنحونه مهمة، ثم يكافئونه عليها. لم تعد المنظمة بالنسبة إليه جماعة ينتمي إليها؛ بدأت تصبح المكان الوحيد الذي يستطيع

أن يتخيل نفسه خارجه بلا معنى.

وكان تشايتون يراقب هذا التحول بصمت.

فقد أدرك أن المال الذي دخل خزائن ميسيليوم لم يشتَرِ السيارات والمقرات والتقنيات فحسب.

لقد اشترى شيئاً أكثر قيمة.

اشترى الوقت.

والاعتماد.

والولاء.

ومع نهاية العام الأول، كانت ميسيليوم قد أصبحت تشبه الكائن الذي استمدت اسمها منه : شبكة خفية لا تحتاج إلى أن تظهر على سطح الأرض كي تعرف أنها موجودة. تمتد خيوطها من شخص إلى آخر، ومن مقر إلى مقر، ومن فكرة إلى أخرى، بينما يكبر الجزء الظاهر منها ببطء فوق شبكة هائلة لا يراها أحد.

أما أتباعها، فلم يعودوا ينظرون إلى تشايتون باعتباره الرجل الذي يقود المنظمة.

لقد بدأوا يرونه باعتباره الرجل الذي منحهم الحياة التي يعيشونها الآن.

وهنا، دون أن يعلن أحد ذلك، أصبحت طاعتهم له ليست مجرد طاعة لقائد.

أصبحت سداداً لدين.

والدين، حين يُربط بالامتنان والخوف والحاجة، قد يتحول إلى أقوى قيد يمكن أن يرتديه الإنسان دون أن يشعر بثقله.

\*\*\*\*\*

في إحدى الأمسيات التي لفتت المدينة برداء من طقس هجين وغامض، وكان السماء تواطأت مع الأرض لتلد مناخاً لم يعهده أحد من قبل، انعقد اجتماع جديد في قاعة المحاضرات الرئيسية. كانت الأجواء مشحونة ببرودة غير مألوفة، وثمة شعور مبهم ينسل تحت الجلد، يُنبئ بأن هذه الليلة لن تشبه سابقتها. فتمة شيء غريب يختبئ بين الجدران؛ شيء عجز الحاضرون عن تسميته أو الإمساك به في الوهلة الأولى، لكنه كان يربض بقوة في ذلك الصمت الخانق والثقيل الذي جثم فوق

القاعة، مستوطناً في الفراغات، ومحاكياً أنفاساً محبوسة. النظرات لم تعد مستقرة، بل راحت تتنقل بين الوجوه في توتر صامت، متبادلةً تساؤلات بلا أجوبة، كأن الجميع يقفون على حافة هاوية، ينتظرون حدثاً غير متوقع حُجب عنهم خلف أستار السرية.

على المنصة المرتفعة، وقف البروفيسور "تشايتون تسوسي" شاخصاً كتمثال من رخام، متسماً في سكونه لبضع لحظات بدت كأنها دهر. وخلفه، ولأول مرة منذ زمن بعيد، استقرت الشاشة العملاقة في عتمة مطلقة، مطفأة وميتة بعد أن كانت دوماً تنبض بالحياة والأرقام. في هذه الليلة، غابت أسماء حيتان البورصة التي تلتهم الأسواق، واختفت ملفات أباطرة العقارات الذين يشيدون عروشاً من ورق، ولم تلمع أرقام الحسابات المصرفية السرية التي كانت تنتظر بألم أن تُفرغ من خزائن أموالها. غابت الخرائط، وتبخرت الخطط، ولم يكن هناك أي هدف مرصود في الأفق.

لم يكن هناك سوى وجوه الحاضرين.

وجوه أولئك الذين جلسوا في القاعة، يشاهدون انعكاس أنفسهم في مرآة الحقيقة العارية، بعد أن تحولوا هم أنفسهم من طرائد... إلى صيادين.

تأملهم البروفيسور واحداً واحداً، ثم قال بصوتٍ رخيم بارد على نحو جعل هدوءه أكثر إثارة للقلق :

- أيها السادة... لقد أمضينا عاماً كاملاً ونحن نوجّه ضرباتنا إلى أولئك الذين رأينا أنهم استغلوا العالم لمصلحتهم. عامٌ كاملٌ أثبتم خلاله أن ولاءكم لم يكن عابراً، وأن طاعتكم للمنظمة لم تهتز أمام المال، ولا الخوف، ولا الإغراء. توقف قليلاً، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة لم تحمل أي دفء حقيقي.

- لكنني أدركت شيئاً خلال هذا العام.  
ساد الصمت.

- أن الإنسان لا يحمل جرحاً واحداً في حياته، بل يحمل قبوراً كاملة... قبوراً دُفنت فيها أشياء كان ينبغي أن تبقى حية.  
تحركت بعض الرؤوس ببطء، بينما تابع:

- ولهذا، لن نتحدث الليلة عن ضحايا المنظمة المعتادين. لن نتحدث عن البورصة، ولا المصارف، ولا العقارات.

ثم مال قليلاً إلى الأمام.

- أريد من كل واحد منكم أن يعود الآن إلى أكثر مكان مظلم في ذاكرته. فكروا في الشخص الذي ترك في حياتكم جرحاً لم يلتئم. الشخص الذي ظلمكم، أو سلبكم الأمان، أو حطم طفولتكم، أو استغل ضعفكم عندما كنتم عاجزين عن الدفاع عن أنفسكم.

توقفت كلماته لحظة، وكأن البروفيسور أراد أن يمنح لكل واحد منهم الوقت الكافي كي يفتح الباب الذي ظل مغلقاً في داخله سنوات طويلة.

ثم قال:

- تذكروه.

ارتعشت بعض الوجوه.

- تذكروا اسمه.

خفض أحدهم عينيه.

- وتذكروا ما فعله بكم.

كان صوت البروفيسور لا يزال هادئاً، لكن شيئاً مظلماً كان يتشكل تحت هدوئه.

- واليوم... تمنحكم ميسيليوم الضوء الأخضر.

رفع رأسه ونظر إلى القاعة بأكملها.

- ليس لتنتقموا من البشر الطفيليات هذه المرة.

ثم أضاف :

- بل من الشخص الذي جعل عالمكم، ذات يوم، مكاناً لا يُحتمل.

ساد الصمت.

- ستضع المنظمة تحت تصرفكم كل ما تحتاجونه. المال. الموارد. المعرفة.

والغطاء الذي يمنع آثار أفعالكم من الوصول إليكم. هذه المرة، لن تختار

ميسيليوم الهدف نيابة عنكم. أنتم من ستختارون.

ثم ابتعد خطوة عن المنصة، وقال بنبرة أكثر حزمًا :

- لقد عجز القدر عن تصحيح بعض الأخطاء التي ارتكبتها في حياتكم.

وربما لم يكن القدر معنياً بذلك أصلاً.

رفع عينيه نحوهم.

- أما نحن... فنحن لا ننتظر القدر.  
كانت العبارة الأخيرة أشبه بختم وُضع على شيء لا يمكن التراجع عنه.

- إذا أخطأ القدر في رسم مسار حياتكم، فإن ميسيليوم ستعيد رسمه. نحن السهم الذي يصحح الاتجاه... حتى لو كان الهدف هذه المرة شخصاً واحداً فقط.  
عندها لم يعد غاري يسمع بقية الأصوات بوضوح.  
شيء ما كان قد انفتح في أعماقه.

لم يكن باباً جديداً، بل بابٌ قديمٌ ظل مغلقاً طوال سنوات، حتى نسي غاري تقريباً أنه موجود.  
وفجأة، عاد كل شيء.

لم تأتِ الذكريات كصور منفصلة، بل اندفعت إليه دفعة واحدة؛ رائحة البيت القديم، صرير الأبواب، وقع الخطوات الثقيلة، الأصوات التي كان يتمنى وهو طفل ألا يسمعها، والليالي التي كان يختبئ فيها منتظراً أن يمر الخطر.  
ثم ظهر وجهه.  
زوج أمه.

الرجل الذي لم يكن غاري يحتاج إلى اسمه كي يتذكره.  
كان وجهه محفوراً في مكان أعمق من الذاكرة؛ المكان الذي لا تصل إليه السنوات بسهولة. الرجل الذي جعل طفولة غاري سلسلة طويلة من الخوف والهروب والصمت، وترك في داخله شيئاً ظل يكبر معه دون أن يجد له اسماً.  
شعر غاري برعشة تسري في جسده.

لكنها لم تكن رعشة الخوف التي عرفها طوال طفولته.  
كانت شيئاً آخر.  
شيئاً أكثر حرارة... وأكثر ظلمة.

للمرة الأولى منذ سنوات، لم يرَ غاري نفسه ذلك الطفل العاجز الذي لا يملك سوى الهرب.  
كان يجلس الآن في قاعة مغلقة، وحوله رجال ونساء ينتمون إلى منظمة أثبتت

خلال عام واحد أنها قادرة على الوصول إلى أشخاص ظنوا أنفسهم محصنين  
خلف المال والسلطة والسرية.

وفجأة أدرك أن الرجل الذي ظل يهرب منه في ذاكرته لم يعد بعيداً كما كان.  
كان هناك شيء تغير.

لأول مرة، أصبح غاري يملك القدرة على العودة.

لم يعرف بعد ماذا سيفعل.

ولم يكن يعرف إلى أين ستقوده تلك الرغبة التي بدأت تستيقظ في داخله.

لكنه عرف شيئاً واحداً فقط :

أن الماضي الذي قضى عمره كله في الهرب منه... أصبح للمرة الأولى في متناول  
يده ليقاضيه ويحكم عليه.

# الفصل السابع

## الموت لصالح

## المستعمرة

## الخطوة السابعة : التضحية بالنفس بلا ندم

في أعماق التربة الرطبة، حيث لا يصل ضوء الشمس إلا كذكرى بعيدة، تجري واحدة من أكثر الملاحم البيولوجية غرابة وصمتًا. هناك، بين خيوط الميسيليوم المتشابكة والكائنات المجهرية التي لا يراها أحد، تستطيع بعض المستعمرات الفطرية أن تواجه الخطر بطريقة لا تشبه منطق الكائن الفردي؛ فعندما يهدد الجفاف أو القحط بقاء المستعمرة، تتخلى بعض الخلايا عن استقلالها، وتعيد تشكيل أجسادها لتبني بنية ترفع الخلايا الأخرى إلى الأعلى، حيث تستطيع أن تنتج الأبواغ وتواصل دورة الحياة.

تموت خلايا لتعيش المستعمرة.

لا جنازة.

لا اعتراف.

لا سؤال عن مصير الفرد.

ففي منطق المستعمرة، لا تكون حياة الخلية هي الغاية، بل استمرار الكيان الذي تنتمي إليه.

وكان تشايتون مفتونًا بهذه الفكرة على نحو يكاد يكون مرضيًا.

لأنه لم يعد يرى فيها مجرد ظاهرة بيولوجية، بل رأى نموذجًا لما أراد أن يصنعه من البشر.

كان حلمه أن يصل أعضاء ميسيليوم إلى اللحظة التي يتوقف فيها كل واحد منهم عن النظر إلى نفسه باعتباره كيانًا مستقلًا، وأن يبدأ بالنظر إلى ذاته باعتبارها خلية داخل جسد أكبر. عندها يصبح فقدان الفرد لنفسه فضيلة، ويصبح الاعتراض أنانية، والتردد ضعفًا، والتضحية بالذات أسمى أشكال الولاء.

وهكذا، بعد عام واحد فقط، بدأت ملامح ذلك الحلم تظهر في سلوك أتباعه.

لم يعودوا مجرد مجموعة من الأشخاص الذين يؤمنون بالفكرة نفسها.

لقد أصبحوا شيئًا أقرب إلى شبكة واحدة.

إذا تحرك أحدهم، تحركت معه الخيوط المحيطة به. وإذا احتاجت المنظمة



إلى تضحية، ظهر من يقدم نفسه دون أن ينتظر أن يُطلب منه ذلك مرتين. وإذا تعرض أحد أفرادها للخطر، شعر الآخرون أن الخطر أصاب جسدهم جميعًا. كان الفرد يتراجع ببطء.

وكانت ميسيليوم تتقدم.

لكن هذا التحول لم يحدث في ليلة واحدة، ولم يكن وليد ولاء طبيعي نشأ بين أفراد وجدوا أنفسهم في جماعة واحدة. كان نتيجة هندسة طويلة للنفس البشرية، نفذها تشايتون بصبر يكاد يشبه صبر الفطر نفسه. بدأ الأمر بالعزلة.

أبعد الأتباع تدريجيًا عن عالمهم القديم، عن علاقاتهم السابقة، وعن الأفكار التي كانت تمنحهم مرجعًا مستقلًا للحكم على الأشياء. ثم جاءت تجربة الفطر السحري لتفتح في وعيهم شقوقًا لم تكن موجودة من قبل، وتهز الصور التي حملوها طويلًا عن أنفسهم والعالم.

بعد ذلك، ملأ تشايتون الفراغ بعقيدته.

قدم لهم مفهوم «الطفيلي الأخلاقي»، ومنحهم تفسيرًا جاهزًا للظلم، وحدد لهم الأعداء، وأعطاهم قضية يشعرون أنهم أكبر منها كأفراد. ثم أحاطهم بالرفاهية والأمان والمكافآت، حتى أصبحت المنظمة بالنسبة إلى كثير منهم ليست مكانًا يذهبون إليه، بل عالمًا يعيشون داخله.

وهكذا اكتمل البناء.

لم يعد تشايتون بحاجة إلى أن يقف فوقهم طوال الوقت.

فقد زرع في داخلهم ما يكفي ليقوموا بالعمل من تلقاء أنفسهم.

وهذه كانت اللحظة التي أدرك فيها أنه نجح.

فالأتباع الذين كانوا في البداية يسألون: «لماذا؟» أصبحوا يسألون: «متى؟»

والذين كانوا يتساءلون: «هل هذا صحيح؟» أصبحوا يتساءلون: «كيف نفذه؟»

أما السؤال الأخطر، «هل أريد أنا ذلك؟»، فقد بدأ يختفي من قاموسهم.

كانت الأنا تذوب ببطء، لا تحت وطأة القوة، بل تحت وطأة الانتماء.

صار العضو يشعر أن حياته لا تكتمل إلا داخل الشبكة، وأن قيمته تأتي من وظيفته فيها، وأن تضحيته من أجلها ليست خسارة، بل الطريقة التي يثبت بها أنه ينتمي إليها حقًا.

وبذلك تحولت ميسيليوم، في وعي أتباعها، من منظمة إلى كائن حي. هم خلاياه.

وأفكار تشايتون هي جهازها العصبي.

وكلما امتدت خيوطها في الظلام، كان عليهم أن يمدوا أنفسهم معها، حتى لو كان الثمن شيئًا من حريتهم، أو كرامتهم، أو حياتهم ذاتها.

وفي تلك المرحلة، لم يعد تشايتون بحاجة إلى جيش يأمره.

لقد صنع شيئًا أكثر إخلاصًا وخطورة.

صنع مستعمرة.

وفي المستعمرة، لا تسأل الخلية إلى أين تسير.

إنها تسير حيث تمتد الخيوط.

كان غاري يقف أمام النافذة الواسعة لغرفته في مقر ميسيليوم، يراقب أضواء المدينة البعيدة وهي تتناثر في الظلام كنجوم سقطت على الأرض. كان الليل هادئًا، والمقر غارقًا في سكون مريح، بينما انعكست صورته على الزجاج أمامه؛ رجل أنيق يرتدي معطفًا فاخرًا لم يكن يستطيع في الماضي أن يحلم بامتلاكه.

مرر أصابعه على نسيج المعطف ببطء.

ثم ابتسم.

لم يكن يتأمل القماش.

كان يتأمل السنة التي أوصلته إليه.

عام واحد فقط.

اثنا عشر شهرًا بدت له الآن أطول من سنوات حياته السابقة كلها.

تذكر نفسه قبل ميسيليوم، وتساءل كيف استطاع أن يعيش كل ذلك الوقت دون أن يكون له مكان يعود إليه. كان يطوف بين الطرقات مثل ظل لا يترك أثراً، يحمل حقيبته على ظهره وقيثارته إلى جانبه، ينتقل من مدينة إلى أخرى، ومن عمل إلى آخر، ومن مجموعة من الوجوه إلى مجموعة أخرى، دون أن يشعر أن أيًا منها كان ينتظره حقًا.

لم يكن يملك بيتًا.

ولم يكن يملك عائلة.

ولم يكن يملك حتى سببًا واضحًا يجعله يستيقظ في الصباح.

كان موجودًا فقط.

أما الآن، فقد أصبح وجوده يحمل معنى.

هنا، داخل ميسيليوم، وجد شيئًا لم يكن يعرف كيف يسميه في الماضي لأنه لم يختبره أصلًا.

الانتماء.

لم يعد يدخل مكانًا وهو يتساءل متى سيضطر إلى مغادرته. لم يعد ينام وهو يفكر في الطريق التالي. لم تعد الوجوه من حوله مجرد عابرين سيختفون بعد أسابيع أو أشهر.

كان له مكان.

وكان هناك أشخاص يعرفونه.

ينادونه باسمه.

ينتظرون عودته.

ويثقون به.

حتى تشايتون نفسه لم يعد بالنسبة إليه مجرد البروفيسور الذي كان يتابعه في البداية بإعجاب وشيء من الرهبة. شيئًا فشيئًا، صار غاري يراه بصورة مختلفة؛ رجلًا استطاع أن ينظر إلى داخله حين لم يكن غاري يعرف كيف ينظر إلى نفسه.

كان تشايتون يستمع إليه.

يسأله عن أفكاره.

يصح له حين يخطئ.

ويمدحه حين يصيب.

وكان ذلك كافيًا ليلا مس مكانًا قديمًا في داخله، مكانًا ظل جائعًا طوال سنوات طفولته لرجل يقول له ببساطة:

«أنا أراك.»

ولهذا، لم يكن غاري يرى الرعاية التي تلقاها باعتبارها امتيازًا تنظيميًا.

كان يراها أبوة.

ولم يكن يرى الرفاهية التي يعيش فيها باعتبارها ثمنًا لولائه.

كان يراها دليلًا على أن حياته أصبحت أخيرًا ذات قيمة.

لكن ميسيليوم لم تمنحه المأوى وحده.

لقد أعطته شيئًا كان أكثر خطورة من المأوى:

الغاية.

ففي الماضي كان غاري يستطيع أن يمضي يومًا كاملاً دون أن يعرف لماذا فعل ما فعله. أما الآن، فقد أصبح لكل خطوة معنى، ولكل مهمة مكان داخل صورة أكبر. لم يعد يعيش من أجل نفسه وحدها؛ أصبح مقتنعًا بأنه جزء من معركة تتجاوز حياته، معركة لإعادة ما سماه تشايتون «التوازن» إلى عالم فقد بوصلته الأخلاقية.

وكان هذا الشعور ساحرًا.

لأن الإنسان الذي يقضي عمره وهو يشعر بأنه لا أهمية له، قد يصبح مستعدًا لفعل أشياء هائلة عندما يُقنعه أحد بأن وجوده أصبح جزءًا من شيء أكبر.

لهذا، بدا العام الأول في ذاكرة غاري أشبه بحياة كاملة مضغوطة داخل اثني عشر شهرًا.

كل شيء حدث بسرعة.

اللقاء الأول.

القبور.

التجربة التي هزت وعيه.

خطاب تشايتون.

المهمة الأولى.

المال.

النجاحات.

الوجوه الجديدة.

والليالي التي عاد فيها إلى المقر وهو يشعر للمرة الأولى أنه أنجز شيئاً يستحق أن يُروى.

رفع غاري عينيه نحو انعكاسه في الزجاج.

لم يعد يرى الرجل الذي كانه.

لم يعد يرى ذلك الشاب الهائم الذي كان يخشى أن يكتشف الآخرون كم هو فارغ من الداخل.

رأى رجلاً له مكان.

له إخوة.

له قائد.

وله قضية.

وهنا تحديداً شعر بشيء لم يشعر به من قبل.

الامتنان.

امتنان عميق، يكاد يكون مقدساً، تجاه المنظمة التي أعادت صياغة حياته، وتجاه الرجل الذي كان في نظره صاحب الفضل الأول في ذلك كله.

ولم يكن غاري يدرك أن الامتنان، حين يصبح مرتبطاً بالهوية والمأوى والغاية، يستطيع أن يتحول إلى أقوى أشكال الولاء.

كان يظن أنه وجد نفسه.

بينما كان جزء كبير من ذاته قد بدأ يذوب داخل ميسيليوم.

مد يده نحو زجاج النافذة، كما لو أنه يلمس المدينة البعيدة.

ثم سحبها ببطء.

لم يعد يريد العودة إلى العالم القديم.

لم يعد يشعر بالحاجة إليه.

لقد أصبح خيطاً حياً في شبكة أكبر منه، شبكة منحته للمرة الأولى شعوراً بأنه ليس وحيداً، وأن حياته لم تعد مجرد رحلة بلا وجهة.

وكان مستعداً لأن يفعل أي شيء كي لا تنقطع تلك الشبكة.

أي شيء.

فقد وجد أخيراً المكان الذي يعتقد أنه ينتمي إليه.

ولم يخطر بباله أن أخطر أنواع الأسر هو ذلك الذي يجعل السجين يخاف من الحرية أكثر مما يخاف من القيد.

\*\*\*\*\*

جاء الدور أخيراً على غاري كي يعود إلى المكان الذي قضى سنوات طويلة في الهرب منه؛ إلى الماضي الذي ظن أنه دفنه، فإذا به يكتشف أن بعض الموتى لا يدفنون بسهولة.

كان ستيف، زوج أمه، واحداً من أكثر الوجوه رسوخاً في ذاكرته، لا لأن غاري كان يتذكر ملامحه بوضوح، بل لأن جسده نفسه ظل يتذكره. كانت هناك أشياء لا تحتاج الذاكرة إلى استعادتها؛ يكفي أن تقترب منها حتى يستيقظ الخوف القديم في الأعصاب قبل أن يصل إلى العقل.

وحين أخبر تشايتون بما يريد، لم يحاول البروفيسور أن يمنعه.

على العكس، وضع أمامه كل ما يحتاجه لإنجاز مهمته؛ رجال يثق بهم، وسائل نقل، أماكن آمنة، ومعلومات كافية عن تحركات ستيف وحياته اليومية. لم يكن

غارى وحده، حتى وإن قرر أن يكون هو من يواجهه.

كان يستطيع أن يترك المهمة لغيره.

لكنه لم يفعل.

كان هناك شيء داخله يرفض أن يتخلى عن هذه المواجهة.

هذه المرة، أراد أن يرى الرجل الذي أخافه طفلاً، وأن يقف أمامه دون أن يضطر إلى الانكماش أو الهرب.

ولم يكن ما يريده غارى في البداية قتل ستيف.

كان يريد شيئاً أكثر شخصية.

كان يريد أن يجعله يشعر، ولو للحظات، بالعجز الذي عرفه هو ذات يوم.

أن يرى الخوف في عينيه.

أن يسمع توسله.

أن يكتشف ذلك الرجل الذي بدا في طفولة غارى كأنه قوة لا يمكن مقاومتها، أنه يمكن أن يسقط أيضاً.

راقبه غارى ورجاله لعدة أيام، يتتبعون عاداته وتحركاته، حتى أصبحت تفاصيل يومه مألوفة لهم. وفي إحدى الليالي، حين كان ستيف يسير في مكان معزول، انغلق الطريق أمامه فجأة.

حدث كل شيء بسرعة.

ثم اختفى الرجل.

وحين فتح عينيه من جديد، وجد نفسه في قبو معزول، لا يعرف أين يقع ولا كم مضى من الوقت. كانت الرطوبة عالقة في الجدران، والهواء ثقيلاً، والضوء شحيحاً. جلس مقيداً إلى كرسي خشبي، بينما وقف أمامه رجل مقنع لم يستطع أن يرى وجهه.

لم يكن يعرف من يكون.

أما غارى، فكان يعرف نفسه جيداً.

ظل واقفاً أمام ستيف لثوانٍ طويلة.

كان يستطيع في تلك اللحظة أن يرى الطفل الذي كانه ذات يوم، واقفًا في مكان ما داخله، يحدق في هذا الرجل وينتظر منه أن يفعل شيئًا.

ثم رفع غاري يده.

وجاءت الضربة الأولى.



وفي اللحظة نفسها، لم يعد القبو حاضرًا.

عاد البيت القديم.

عادت الجدران.

عادت أصوات لم يسمعها منذ سنوات.

صرخات طفل يحاول ألا يبكي.



كلمات جارحة لم يكن يعرف كيف يرد عليها.  
ليالٍ طويلة كان فيها الخوف أكبر من الغرفة التي يختبئ فيها.  
وصباحات باردة خرج فيها غاري إلى الطريق دون أن يعرف إلى أين يذهب، فقط  
لأنه كان يريد أن يكون بعيدًا.  
لم تعد الضربة موجهة إلى الرجل الجالس أمامه وحده.  
كانت موجهة إلى كل تلك السنوات.  
ولهذا فقدت قبضته معناها الأول.  
لم يعد غاري يضرب ستيف لأنه أراد أن يجعله يشعر بما شعر به.  
كان يضرب الماضي نفسه.  
وكلما عادت ذكرى، اشتد غضبه، وكلما اشتد غضبه، أصبحت الذكريات أكثر  
حضورًا.  
شيئًا فشيئًا، اختفى الرجل الذي جاء إلى القبو وهو يعتقد أنه يسيطر على انتقامه،  
وظهر مكانه طفل غاضب لم يحصل يومًا على فرصة للرد.  
لم يعد يسمع شيئًا سوى أنفاسه.  
لم يعد يرى سوى وجه الماضي أمامه.  
وحين حاول ستيف أن يستنجد، لم يسمع غاري الكلمات بوضوح؛ سمع أصواتًا  
أخرى، أقدم منها بكثير، أصواتًا ظلت محبوسة داخله طوال سنوات.  
استمر العنف حتى فقد غاري الإحساس بالوقت وبحدود ما يفعله.  
ثم، فجأة، أصبح المكان هادئًا.  
سكون كامل.  
نظر غاري إلى الرجل أمامه.  
كان جسد ستيف قد ارتخى، ولم يعد يصدر أي استجابة.  
ظن غاري أنه فقد وعيه.  
لم يخطر له، في تلك اللحظة، أن شيئًا أخطر قد حدث.

اقترب منه ببطء، ثم بصق على وجهه باحتقار، كأنه يبصق على صورة قديمة من حياته، وأدار ظهره.

خرج من القبو مع رفاقه.

وأغلق الباب خلفه.

ظل القبو مظلمًا.

وبقي ستيف في الداخل بلا حركة.

أما غاري، فكان يمشي في الخارج وهو يشعر للمرة الأولى أن شيئًا ثقيلًا انتزع من صدره. لم يكن يعرف بعد أن ما حدث لم يكن تحريرًا كما تخيل، ولا مجرد انتقام من رجل أساء إليه.

لقد كان عبورًا.

خطأ دقيقًا يفصل بين الإنسان الذي يؤذي وبين الإنسان الذي يبرر لنفسه الأذى.

وكان غاري قد عبره دون أن يلتفت إلى الوراء.

الأخطر من ذلك كله أنه لم يشعر بالخوف.

لأن ميسيليوم كانت قد علمته، طوال العام الماضي، أن بعض الأفعال يمكن أن تُمنح أسماء أخرى حتى تبدو أقل قسوة.

السرقعة يمكن أن تصبح استردادًا.

العنف يمكن أن يصبح عدالة.

والانتقام يمكن أن يصبح تصحيحًا للماضي.

وهكذا، بينما كان غاري يبتعد عن القبو، لم يكن يدرك أنه لم يقتل رجلًا من ماضيه فحسب.

لقد قتل أيضًا جزءًا من الحدود التي كانت تفصل بين ما كان يرفضه في العالم، وما أصبح مستعدًا لفعله بنفسه.

غادر غاري القبو السري والمساء يهبط على المدينة ببطء، يلف شوارعها برداء داكن، وعاد إلى مقر ميسيليوم وهو يحمل في داخله ذلك الشعور الجديد بالقوة، مقتنعًا بأنه ترك ستيف حيًا بما يكفي ليعيش مع خوفه وعاره، وأن الماضي الذي

ظل يطارده قد تلقى أخيراً الضربة التي يستحقها.  
لم يكن يعلم أن القبو الذي خرج منه للتو لم يحتفظ بسرّه.  
بل احتفظ بشيء أخطر بكثير.  
احتفظ بالدليل.

ومع مرور الساعات، كان الخيط الذي لم يفكر فيه غاري يضيق حوله ببطء، بعيداً عن عينيه وعن كل الجدران التي ظن أن ميسيليوم قادرة على حمايته خلفها.  
بعد يومين، قادت المصادفة أحد حراس العقارات المهجورة إلى المكان. دفعه فضوله إلى تفقد المبنى، ولم يكن يتوقع أن يجد خلف أحد الأبواب ذلك المشهد الصامت.  
وجد ستيف.

جسداً هامداً، وآثار الدم لا تزال شاهدة على عنف ما حدث.  
وفي غضون وقت قصير، تحولت العزلة التي ظنها غاري حصناً مثاليًا إلى مسرح جريمة تحيط به الأشرطة والحواجز ورجال الشرطة. فُتح التحقيق، وبدأ المحققون في إعادة بناء الساعات الأخيرة من حياة ستيف، باحثين عن الشخص الذي دخل القبو معه ولم يخرج منه إلا بعد أن تركه وراءه بلا حياة.  
أما غاري، فكان في تلك اللحظات يعيش أيامه داخل المقر دون أدنى شعور بالخطر.

كان يظن أن القناع أخفى وجهه.

وأن الظلام ابتلع المكان.

وأن غياب الشهود أغلق الطريق أمام الحقيقة.

لكنه نسي شيئاً صغيراً.

شيئاً أصغر من أن يخطر له في لحظة الغضب، لكنه كان كافياً لأن يهدم كل ما بناه من احتياطات.

ففي مسرح الجريمة، عثرت فرق الأدلة الجنائية على أثر بيولوجي تركه غاري في لحظة احتقاره الأخيرة لستيف. خضع البصاق الذي جمع من على وجه ستيف

للفحص، وأظهرت التحاليل الجينية هوية صاحبه بدقة لم يكن القناع قادرًا على إخفائها.

ثم ظهرت أمام المحققين مطابقة حاسمة.

غارِي.

لم يكن يعرف أن جسده نفسه كان قد ترك خلفه اسمًا لم يستطع إخفاءه.

فالسُّلطات كانت تملك أصلًا سجلًا بيولوجيًا يعود إلى سنوات مراهقته، حين أوقف لفترة وجيزة على خلفية تخريب مرافق عامة، وأُخذت منه آنذاك عينة أصبحت محفوظة في السجلات.

الآن، عاد الماضي الذي ظن غاري أنه تجاوزَه ليؤدي دورًا معاكسًا تمامًا.

لم يعد الماضي مجرد ذاكرة تؤلمه.

أصبح دليلًا ضده.

ولم يحتج الأمر إلى وقت طويل بعد ذلك.

في عملية خاطفة، وصلت قوات مكافحة الجرائم إلى مخبأ غاري المرتبط بميسيليوم، قبل أن تتاح له فرصة فهم ما يحدث. وجد نفسه محاصرًا من الجهات كلها، ثم مقيدًا، واقفًا وسط المكان الذي طالما شعر داخله بالأمان.

للمرة الأولى منذ انضمامه إلى المنظمة، لم يكن هناك تشايتون ليشرح له ما يحدث.

ولا رفاق يحيطون به.

ولا خطاب عن العدالة.

ولا قضية أكبر يستطيع أن يختبئ خلفها.

كان هناك فقط رجال شرطة، وأصفاد، ووجهه الذي لم يعد القناع قادرًا على

إنقاذه.

عندها فقط انقشع ضباب النشوة الذي غطى عقله منذ ليلة الجريمة.

و أدرك غاري الحقيقة الأكثر قسوة:

لقد ظن أنه عاد من القبو منتصرًا.

لكنه كان قد ترك فيه مصيره، دون أن يعرف.

في قاعة المحكمة الباردة، وقف غاري داخل قفص الاتهام هادئاً على نحو آثار القلق أكثر مما كان يمكن أن يثيره غضبه أو خوفه. لم يكن في وجهه ذلك الاضطراب الذي ينتاب رجل يوشك أن يخسر حياته، بل كان هناك سكون غريب، كأن شيئاً في داخله قد حسم الأمر منذ وقت طويل.

جلس ممثلو الادعاء أمامه، ثم عُرضت عليه الصفقة.

كان الطريق ما يزال مفتوحاً أمامه، ولو كان ضيقاً.

يكفي أن يتحدث.

يكفي أن يذكر الجهة التي تقف وراءه ..

في المقابل، كان يمكن تخفيف الحكم من الإعدام إلى السجن المؤبد.

كان العرض، في ظاهره، يمنحه فرصة للنجاة.

لكن غاري لم يرَ فيه نجاة.

رآه خيانة.

ظل صامتاً للحظات، ثم رفع عينيه وقال إنه لن يتحدث.

لم يكن في صوته تردد.

لقد كانت الفكرة التي زرعها تشايتون في داخله قد تجاوزت مرحلة الاقتناع منذ زمن طويل. لم يعد غاري يحتاج إلى أن يتذكر تعاليم البروفيسور كي يطيعها؛ أصبحت تلك التعاليم جزءاً من الطريقة التي يفكر بها، حتى غدا خيانتها في نظره خيانة لذاته.

كان يستطيع أن ينقذ حياته.

لكنه لم يعد يعرف كيف يعيش خارج ميسيليوم.

وهكذا رفض الصفقة.

ثم جاء الحكم كعقوبة للقتل العمد.

( الإعدام ).

حين سمع غاري الكلمات، لم ينهر.

ظل واقفاً في مكانه يبتسم.

وفي مكان ما، خلف هذا الهدوء، كان ذلك الشاب القديم لا يزال موجوداً؛ الشاب الذي عاش سنواته الأولى تائهاً، خائفاً، بلا بيت ولا عائلة ولا اتجاه. كان قد بحث طوال حياته عن شيء يمنحه سبباً للوجود، وحين وجد ميسيليوم، لم يكتفِ بأن يمنحها ولاءه، بل منحها شيئاً أكبر بكثير.

منحها نفسه.

وهكذا انتهت حياة غاري بالطريقة التي أرادها تشايتون، وربما بالطريقة التي أعدّه لها دون أن يشعر.

لقد مات وهو يعتقد أنه يحمي المستعمرة.

لكن الحقيقة الأكثر مرارة كانت أنه لم يعد يملك القدرة على تخيل نفسه خارجها. كانت حياته الأولى مليئة بالضياح والألم والتشرد، لكنها، رغم كل شيء، كانت حياته هو. كان يخطئ بإرادته، ويرحل بإرادته، ويختار طريقه ولو لم يعرف إلى أين يقوده.

أما حياته الثانية، فقد منحته ما افتقده طويلاً: البيت، والانتماء، والرفاق، والغاية.

لكن الثمن كان شيئاً أكبر من ذلك بكثير ..

حريته الداخلية.

وهكذا، لم يكن موت غاري مجرد نهاية لرجل واحد.

كان البرهان الأكثر وضوحاً على أن المنظمة استطاعت تحويل الإنسان من فرد يبحث عن طريقه إلى خلية ترى بقاء المستعمرة أهم من بقائها هي.

\*\*\*\*\*

بعد أيام من تنفيذ حكم الاعدام بحق غاري، اجتمع أفراد منظمة ميسيليوم في صالة الاجتماعات السرية الكبرى.

كانت القاعة مكتظة وأجواء الحزن تخيم على الأرجاء.

وفي صدر القاعة، ارتفعت لوحة ضخمة لغاري، وقد اختيرت لها صورة يظهر فيها هادئاً، واثقاً، كأن الموت لم يكن قد اقترب منه يوماً. وقف تشايتون أمام الحشود.

ظل صامتاً لحظات، تاركاً للصورة أن تتحدث قبله.

ثم رفع عينيه إلى المجتمعين وقال بصوت امتد إلى آخر القاعة:

- انظروا إلى غاري. لم يكن أعظمنا لأنه كان أقوى منا، ولا لأنه عاش أطول منا. كان أعظم لأنه اختار المستعمرة حين طُلب منه أن يختار نفسه. هؤلاء هم الذين سيجعلون ميسيليوم تستمر. هؤلاء هم الذين سيدفعونها إلى الأمام حين يتراجع الآخرون. إن بقاء المستعمرة يحتاج إلى أفراد مستعدين لأن يضعوا وجودها فوق وجودهم. وغاري فعل ذلك. فضل الموت على أن يشي بنا فاستحق محبتنا إلى الأبد.

ساد صمت ثقيل في القاعة.

ثم مزقه البروفيسور مضيقاً بصوتٍ باردٍ:

- تذكروا غاري جيداً. لأن ميسيليوم لا تعيش بأجساد أفرادها، بل بما يستطيع كل فرد أن يقدمه لها. نحن جميعاً خيوط في شبكة واحدة. وإذا انقطع خيط، فلا تتوقف الشبكة. إنها تمتد.

كانت الكلمات بسيطة، لكنها أثرت في الأفراد داخل القاعة كأنها طقس ديني.

بدأت القبضات ترتفع.

ارتفعت الأصوات.

ترددت الشعارات بالولاء المطلق للمنظمة من الجدران، ثم عادت إلى الحشود مضاعفة، حتى لم يعد بالإمكان تمييز صوت فرد عن صوت آخر.

وفي تلك اللحظة، حدث الشيء الذي كان تشايتون يريده منذ البداية.

اختفت الفروق.

لم يعد هناك غاري.

ولا ماركوس.

ولا إيلينا.

ولا سيمون.

ولا حتى تشايتون نفسه.

لم يبق سوى «المستعمرة».

أما الصورة الكبيرة لغاري، فظلت معلقة فوق الجميع، تبتسم ابتسامة بريئة لا تعرف شيئاً عن المعنى الذي وضعه الآخرون في موت صاحبها.

كان غاري قد مات لأنه اعتقد أنه يحمي ميسيليوم.

لكن ميسيليوم لم تكن بحاجة إلى موته بقدر حاجتها إلى قصته.

فموته لم يكن نهاية.

كان درساً.

ومنذ تلك الليلة، صار اسمه يُذكر كلما احتاجت المنظمة إلى تذكير أحد أفرادها بالثمن الذي يجب أن يكون مستعداً لدفعه.

وهكذا، تحول الرجل الذي جاء يوماً إلى ميسيليوم بحثاً عن عائلة إلى رمز تستخدمه المنظمة لإقناع الآخرين بأن العائلة الحقيقية هي التي تطلب منك أن تموت من أجلها.

وكانت تلك هي المفارقة الأخيرة في حياة غاري :

أنه قضى طفولته هارباً من رجل أراد السيطرة على حياته، ثم قضى شبابه يبحث عن مكان ينتمي إليه، وانتهى به الأمر إلى الموت دفاعاً عن رجل آخر أقنعه بأن التخلي عن حياته هو أعلى أشكال الانتماء. فالرجلان أرادا السيطرة على حياة غاري .. الأول ضد إرادة غاري والثاني وفق كامل إرادته !



# الفصل الأخير

## نشر الأبوان

## الخطوة الأخيرة : نشر العقيدة والأفكار

كانت القاعة الكبرى لميسيليوم غارقة في ظلام شبه كامل، ولم يكن يبدد عتمتها سوى أضواء خافتة تتدلى من السقف وتلقي دوائر باهتة من النور فوق الصفوف المتراسة من المقاعد؛ فيما انتصبت في مقدمتها منصة مرتفعة تتوسطها شاشة ضخمة تمتد من الأرض إلى السقف.

وكان المئات من أفراد المنظمة يجلسون في صمت.

جاء بعضهم من المقرات البعيدة، وبعضهم من الخلايا التي بدأت ميسيليوم تنسجها في مدن مختلفة، وكان بينهم شباب لم يمض على انضمامهم سوى أشهر، وآخرون أصبحوا من أقدم أفرادها وأكثرهم ولاءً. لم تكن وجوههم متشابهة، ولا حكاياتهم واحدة، لكن شيئاً واحداً كان يجمعهم جميعاً: ذلك الشعور بأنهم ينتمون إلى شيء أكبر من حياتهم الفردية.

في الصفوف الأمامية، جلس ماركوس وإيلينا وسيمون، بينما احتفظت المقاعد الأخرى برجال ونساء لم يعد بعضهم يتذكر كيف كانت حياته قبل أن تصبح ميسيليوم جزءاً منها.

وفوق المنصة، كانت صورة غاري لا تزال معلقة.

لم يكن أحد يتحدث عنها مباشرة، لكنها كانت حاضرة في القاعة مثل ظل ثقيل. كان موته قد أصبح رمزاً يتناقله الأفراد، وتحول اسمه من اسم رجل إلى قصة تُروى كلما أرادت المنظمة أن تتحدث عن الولاء والتضحية.

ثم انطفأت آخر الأضواء.

سادت العتمة.

ولثوانٍ طويلة لم يسمع أحد شيئاً.

بعدها، ظهر تشايتون على المنصة.

لم يصفق أحد.

كان قد علمهم أن بعض اللحظات لا تحتاج إلى تصفيق.

وقف أمامهم بثبات، وأخذ يتأمل الوجوه واحداً واحداً، كما لو أنه لا يرى أفراداً متفرقين، بل يرى شبكة كاملة تمتد أمامه.

ثم استدار نحو الشاشة الضخمة خلفه.

وفي اللحظة التي رفع فيها يده، اشتعلت الشاشة.

بدأت صور مجهرية فائقة الدقة بالظهور؛ أبواغ دقيقة معلقة في الفراغ، وخيوط فطرية تتشعب في الظلام، وشبكات بيضاء تمتد تحت سطح التربة كأنها جهاز عصبي هائل مخبأ تحت أقدام البشر.

ظل تشايتون صامتًا للحظات.

ثم قال بصوت أكثر انخفاضًا من المعتاد:

- تأملوا معي.

لم تكن نبرته نبرة رجل يشرح مخططًا.

كانت أقرب إلى صوت رجل يقرأ فصلًا من كتاب كتبته الطبيعة قبل أن يولد الإنسان بآلاف السنين.

- الفطر لا يحتاج إلى أن يحتل الغابة دفعة واحدة. إنه لا يزحف إليها بجيش، ولا يرفع راية فوق أرض جديدة. إنه يفعل شيئًا أكثر هدوءًا... وأكثر ذكاءً. توقفت الصورة عند جسد فطري ناضج.

ثم ظهرت حوله آلاف الجسيمات المجهرية.

- حين يكتمل نمو الجسد الثمري، لا تبقى الأبواغ سجينه المكان الذي ولدت فيه. تنطلق إلى الهواء. خفيفة، دقيقة، تكاد تكون بلا وزن. تحملها الرياح، وتتقاذفها التيارات، وتسافر أبعد بكثير مما يستطيع الكائن الذي أنجبها أن يسافر.

اقترب تشايتون من الشاشة.

- ثم يحدث الشيء الأهم.

تغيرت الصورة.

سقطت الأبواغ على التربة.

بعضها اختفى.

وبعضها بقي ساكنًا.

لكن واحدًا منها بدأ ينبت.

امتد منه خيط أبيض رفيع، ثم انقسم إلى خيطين، ثم أربعة، ثم عشرات.  
قال تشايتون:

- لا تنبت في كل مكان. بل تنتظر.  
وسكت لحظة.

- وحين تجد المكان المناسب، تبدأ.  
انتقلت الصورة إلى شبكة هائلة من الخيوط الفطرية، أخذت تتشعب تحت التربة  
حتى بدا أن الغابة بأكملها قد أصبحت جزءاً من جسد واحد.  
ابتسم تشايتون.

- هذه هي ميسيليوم.  
ثم التفت إلى الحاضرين.

- الأبواغ هي أفكارنا.  
ساد الصمت.

- لم نحتج إلى أن نضع جنوداً خلف كل باب. ولم نحتج إلى أن نملأ الشاشات  
بخطبنا. لم تكن غايتنا أن نسمعنا الجميع في الوقت نفسه. كان يكفينا أن تصل  
الفكرة إلى العقل المناسب.  
بدأ يمشي ببطء أمام المنصة.  
- إلى شاب يشعر أنه وحيد.  
خطوة.

- إلى طالب يبحث عن معنى.  
خطوة أخرى.

- إلى موظف فقد ثقته بالمؤسسات.  
ثم نظر إلى الخريطة الرقمية التي ظهرت خلفه.  
- إلى شخص يشعر أن العالم لم يمنحه مكاناً فيه.  
بدأت نقاط بيضاء صغيرة بالظهور على الخريطة.

واحدة.

ثم أخرى.

ثم عشرات.

ثم مئات.

وبعد لحظات، كانت النقاط تتصل بخطوط دقيقة، تتشابك فوق القارات كما لو أن شبكة غير مرئية كانت تُنسج أمام أعينهم.

- لم نسعى إلى السيطرة على العقول.

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة.

- كنا بحاجة فقط إلى أن نترك فيها بذرة.

ظهرت تحت الخريطة صورة لشبكة فطرية تمتد بين جذور الأشجار.

- انظروا إلى ما يسمى بالشبكة الفطرية تحت الأرض، ذلك العالم الذي يمتد

بين جذور النباتات ويتبادل عبره الكائن الحي المواد والإشارات والعلاقات

التي تسمح للنظام بأكمله بالبقاء.

ثم رفع إصبعه نحو الخريطة.

- هكذا أردت لميسيليوم أن تكون.

لم يعد يتحدث عن منظمة لها مقر وأعضاء وقائد.

كان يتحدث عن شيء آخر.

شيء لا يمكن وضع إصبع عليه.

- أن نكون تحت السطح.

اقترب من الشاشة.

- أن تمتد خيوطنا إلى أماكن لا يعرف بعضها بعضًا.

ثم أضاف:

- أن يؤمن كل خيط أنه لا يعمل وحده، بل هو جزء من شبكة أكبر منه.

ظهرت على الخريطة نقاط تنطفئ، وأخرى تظهر في أماكن بعيدة.

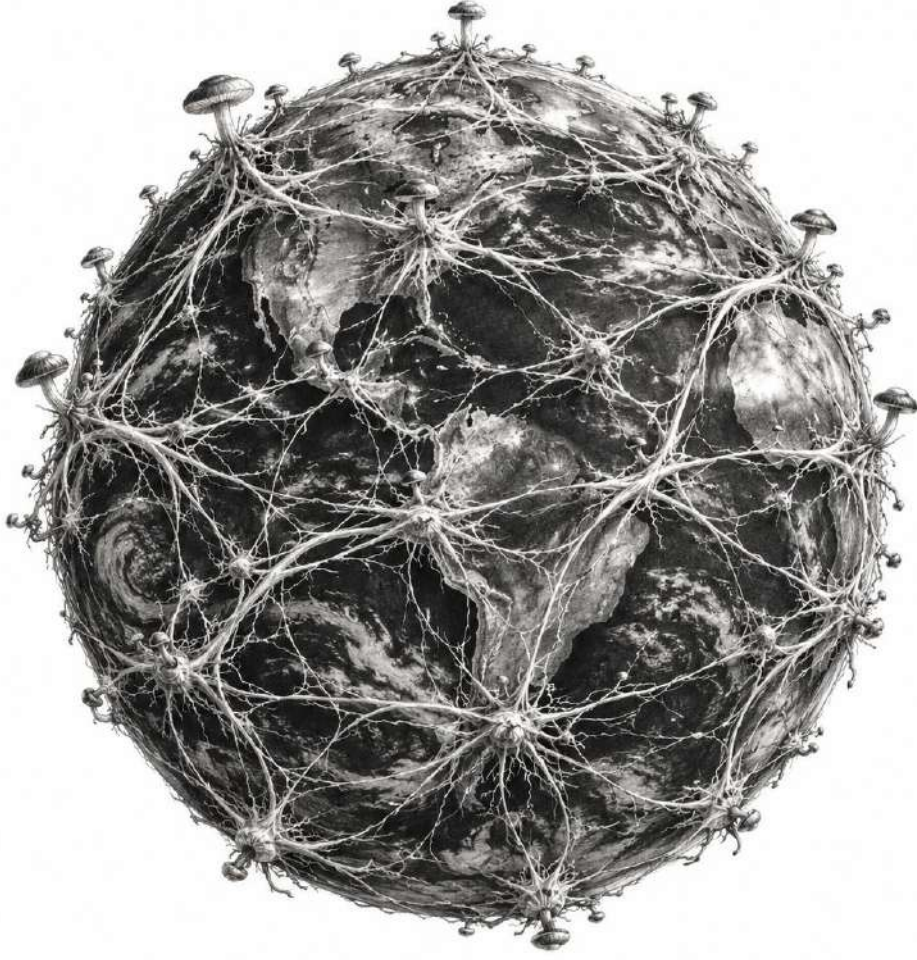
قال تشايتون:

- إذا انقطع خيط هنا، لا تموت الشبكة.

وأشار إلى جهة الشرق.

ثم أشار إلى الغرب.

- ينمو خيط آخر هناك.



وأخذت النقاط البيضاء بالانتشار من جديد.

- إذا سقط فرد، بقيت الفكرة.

ثم سكت.

- وإذا سقطت مجموعة، بقيت الشبكة.

كانت القاعة ساكنة تمامًا.

حتى أنفاس الحاضرين بدت وكأنها اختفت.

استدار تشايتون نحوهم للمرة الأخيرة.

- هذه هي القوة الحقيقية التي لم يفهمها العالم بعد.

ثم أشار إلى الصورة العملاقة للشبكة الفطرية.

- ليس أن نكون أقوىاء. بل أن نكون موجودين.

توقفت الصورة.

امتدت الشبكة البيضاء تحت الغابة، بلا مركز واضح، وبلا حدود يمكن رؤيتها.

- لأن الشيء الذي يمكن للعالم أن يراه، يستطيع أن يحاصره.  
ثم خفض صوته حتى أصبح أقرب إلى الهمس:

- أما الشيء الذي لا يعرف أين يبدأ... فلا يعرف أين ينتهي.  
ظل الجميع يحدقون في الشاشة.

وكانت آخر صورة ظهرت أمامهم شبكة فطرية هائلة، تنتشعب بلا نهاية تحت الأرض.

قال تشايتون:

- لقد بدأنا كفكرة.

ثم نظر إلى الحشود.

- ثم أصبحنا مجموعة.

وتابع:

- ثم أصبحنا شبكة.

توقف لحظة طويلة.

- أما الآن...

ظهرت الخريطة من جديد، وقد غمرتها النقاط البيضاء.

- فقد أصبحنا في كل مكان.

وللمرة الأولى، لم يعد واضحًا في القاعة أين تنتهي ميسيليوم وأين يبدأ العالم الذي حولها.

\*\*\*\*\*

حين تجاوز عدد المنتسبين إلى ميسيليوم مئات الآلاف، أدرك تشايتون أن زمن الاختباء الكامل قد انتهى.

لم يكن ذلك لأن المنظمة أصبحت أضعف من أن تبقى في الظل، بل لأن الظل نفسه لم يعد يتسع لها.

كانت قد نمت أكثر مما توقع.

كبرت الفكرة حتى أصبحت شبكة، وكبرت الشبكة حتى صار من الصعب أن تظل

بلا وجه أمام عالم بدأ يشعر بوجودها دون أن يعرف حقيقتها.

ولهذا اتخذ تشايتون قراره.

ستخرج ميسيليوم إلى الضوء.

لكنها لن تخرج كلها.

فالسرية، في نظره، لم تكن مكانًا تختبئ فيه المنظمة، وإنما طبقة من طبقاتها. وما سيظهر للعالم لن يكون إلا الجزء الذي يريد العالم أن يراه.

أما ما هو أكثر حساسية، وما يتعلق بالتخطيط الحقيقي والقرارات التي تصنع الاتجاهات الكبرى، فسيبقى في الأعماق؛ تحت السطح، بعيدًا عن العيون، مثل شبكة الخيوط الفطرية التي لا يعرف المرء أين تبدأ ولا أين تنتهي.

وهكذا ظهرت ميسيليوم للمرة الأولى بوجه مختلف.

مؤسسات قانونية.

مشاريع تنموية.

مراكز لدعم المهمشين.

برامج تعليمية.

مبادرات إنسانية.

ومساحات تنشر أفكارًا عن التكافل والكرامة والانتماء.

كان ذلك هو الجسد الثمري من الفطريات الذي يظهر فوق سطح التربة.

أما المستعمرة الحقيقية، فكانت في مكان آخر.

تحتها.

هناك، حيث لا تستطيع العين أن ترى الخيوط وهي تمتد من نقطة إلى أخرى، وحيث يستمر شيء أكثر تعقيدًا في النمو بعيدًا عن الضوء.

وبسرعة لم يتوقعها حتى أكثر المتفائلين داخل المنظمة، بدأت أفكار ميسيليوم تنتشر.

لم تكن تعبر الحدود كجيش.



كانت تعبرها كفكرة.

تدخل جامعة، فتجد من يستمع إليها.

تصل إلى مدينة، فتجد من يرى فيها خلاصًا من وحدته.

تظهر في مؤسسة، فتلتقي بشخص فقد ثقته بالعالم القديم.

وتصل إلى حي منسي، فتجد بين سكانه من يشعر للمرة الأولى أن هناك من يتحدث باسمه.

كان أولئك الأشخاص مختلفين في أصولهم ولغاتهم وأعمارهم وتجاربهم، لكنهم كانوا يتشابهون في شيء واحد: شعور عميق بأن العالم ترك في داخلهم فراغًا لم يعرفوا كيف يملؤونه.

كان بينهم التائه.

والمهمش.

والذي عاش سنوات وهو يشعر أنه غير مرئي.

وكان بينهم أصحاب إعاقات حملوا طوال حياتهم آثار الإقصاء الاجتماعي،

وأشخاص لم يجدوا في المؤسسات المحيطة بهم سوى الأبواب المغلقة.

بالنسبة إلى هؤلاء، لم تبدُ ميسيليوم في بدايتها كمنظمة تبحث عن السيطرة.

بدت كإجابة.

بيئًا لمن لم يجد بيئًا.

وجماعة لمن عاش طويلاً على هامش الجماعات.

وغاية لمن فقد الغاية.

وهكذا بدأت الأبواغ التي أطلقها تشايتون منذ سنوات تجد تربتها.

واحدة هنا.

وأخرى هناك.

ثم عشرات.

ثم آلاف.

ثم مجتمعات كاملة.

وبمرور الوقت، صار من الصعب تحديد المكان الذي تنتهي فيه ميسيليوم ويبدأ العالم خارجها.

ففي الأعلى، كان كل شيء يبدو طبيعيًا.

مؤسسة إنسانية.

منظمة إصلاحية.

شبكة عالمية من المشاريع القانونية.

حركة فكرية تتحدث عن العدالة والانتماء والتكافل.

لكن تحت هذا السطح الهادئ، كانت خيوط أخرى تمتد بصمت.

كانت القرارات الأكثر حساسية تتحرك عبر دوائر لا يعرف معظم المنتسبين بوجودها، وكانت العقول التي صاغت الاتجاهات الكبرى للمنظمة تعمل بعيدًا عن صورتها العامة.

لم يكن تشايتون يريد أن يحكم العالم بالطريقة التي يحكم بها الملوك ممالكهم. كان يريد شيئًا أكثر عمقًا.

أن يصبح جزءًا من البنية التي تصنع قرارات العالم.

أن تصبح ميسيليوم شبكة تستطيع أن تؤثر في الأحداث قبل أن يلاحظ أحد أنها أثرت فيها أصلًا.

وفي أعماقه، كان يعتقد أنه لا يفعل ذلك بدافع السلطة وحدها.

كان يرى نفسه رجلًا يصحح خطأ قديمًا.

خطأ ارتكبه القدر في حقه.

فالقدر، في نظره، لم يكن قوة مقدسة ولا قانونًا لا يجوز الاعتراض عليه.

كان مجرد اسم آخر للفوضى التي تسمح بأن يولد طفل بمرض لا ذنب له فيه، وأن تُسلب منه ابنته، وأن يُطلب منه بعد ذلك أن يتقبل الأمر بصمت لأنه «قضاء الحياة».

كانت هذه حالة ديجافو ذكرته بالإبادة الجماعية التي تعرض لها اجداده من الهنود  
الحمري و القدر يبتسم ويراقب ولا يتدخل.

ولم يستطع تشايتون أن يقبل بذلك.

ومنذ موت تالة، لم يعد يريد أن يعيش في عالم يترك مصائر البشر للأشياء التي  
لا يستطيعون التحكم بها.

كان يريد عالمًا يمكن إعادة تشكيله.

ولهذا، لم يعد طموحه أن تنجو ميسيليوم.

بل أن تكبر.

أن تتجاوز الحدود.

أن تصبح شبكة عابرة للقارات، تمتد في المجتمعات والمؤسسات والثقافات، حتى  
يأتي يوم يصبح فيه اقتلاعها أشبه بمحاولة اقتلاع غابة كاملة من جذورها.

كان يعتقد أنه بذلك يستطيع أن يصحح ما سماه طوال سنواته:

«أخطاء القدر الأعمى».

لكن المفارقة التي لم يرها تشايتون، أو ربما لم يعد قادرًا على رؤيتها، هي أن  
الرجل الذي بدأ رحلته لأنه لم يحتمل أن يكون عاجزًا أمام قسوة العالم، كان يبني  
شيئًا قد يجعل العالم نفسه عاجزًا أمام إرادته.

وهكذا خرجت ميسيليوم إلى الضوء.

لكن جذورها بقيت في الظلام.

ومنذ تلك اللحظة، لم تعد المنظمة مجرد جماعة لها أعضاء وقائد.

لقد بدأت تتحول إلى شيء يشبه الكائن الحي؛ وجهه فوق الأرض، وأعصابه تحتها،  
وخيوطه تمتد أبعد مما يستطيع أحد أن يراه.

وكان تشايتون يقف في مركز ذلك كله، ينظر إلى العالم من حوله، مقتنعًا بأنه لم  
يعد يحاول تغيير مصيره.

لقد أصبح، في نظره، قادرًا على تغيير مصير الآخرين أيضًا.

\*\*\*\*\*

لم تكن «ميسيليوم»، في نهاية المطاف، سوى حلقة أخرى في سلسلة أزلية لم تنقطع منذ أن عرف الإنسان معنى الخوف، ومنذ أن بدأ يبحث، في عتمة هذا العالم، عن يد تمسك به حين يفقد طريقه. فمنذ فجر التاريخ، لم تتغير الحكاية كثيرًا؛ تتبدل الوجوه، وتتغير الرايات، وتترين الأفكار بأسماء جديدة، لكن البنية العميقة للمأساة تبقى هي ذاتها.

خلف الأقنعة البراقة للبروفيسور تشايتون، وتحت عباءة الخيوط الفطرية التي وعدت بإصلاح أخطاء القدر الأعمى، كانت الحقيقة القديمة تعيد نسج نفسها بخيوط أكثر قسوة. لم تكن «ميسيليوم» بدعة ظهرت من فراغ، بل كانت صدى لكيانات غابرة، ونذيرًا لكيانات لم تولد بعد؛ منظمات وجماعات برعت، عبر العصور، في العثور على الأرواح المتعبة، ثم الدخول إلى الشقوق التي تركها الألم في داخلها. كانت تمنح العطشى إلى الانتماء كلمة واحدة تكفي لفتح الأبواب: «العائلة». وكانت تقدم للخائفين وهمًا شديد الدفء اسمه «الأمان»، وللتائهين والمهمشين غايةً كبرى يستطيعون أن يعلقوا عليها وجودهم، وكأن الإنسان لا يستطيع أن يحتمل عبء حياته إلا إذا أقنع نفسه بأنه جزء من شيء أعظم منه.

وهنا تحديدًا كانت تكمن أكثر المفارقات مرارة.

فالأبواغ التي وعدت بالحياة لم تكن تحمل في جوهرها سوى بذور الفناء.

أولئك الآلاف الذين اقتربوا من الشبكة بحثًا عن الخلاص، لم يدركوا، إلا بعد فوات الأوان، أنهم لم يدخلوا جسدًا يحميهم، بل أصبحوا خلايا فيه سيتم التضحية بها بقرار ذاتي منها وبكامل ارادتها من أجل بقاء الشبكة كما حدث مع غاري بالضبط. كل واحد منهم ظن أنه وجد مكانه أخيرًا، بينما كانت الشبكة تمتص شيئًا فشيئًا إرادته، وذاكرته، وحدوده، حتى لم يعد يعرف أين ينتهي هو وأين تبدأ المنظمة. ومع اتساع الجسد العملاق، صار الفرد أقل أهمية، وصار بقاؤه مرهونًا بخدمة الكيان الذي ابتلع وجوده.

وهكذا عبر صفحات التاريخ المتعاقبة؛ ينحرف باستمرار الحلم الذي يبدأ بوعد طوباوي بإنقاذ البشرية إلى منحدر لا قرار له.

بعضهم يخرج من التجربة محطّمًا، تائهاً في فراغ نفسي عميق بعدما انتزعت منه القدرة على أن يختار لنفسه. وبعضهم يعبر الحدود التي كان يقسم يومًا أنه لن يعبرها، فيسقط في مستنقعات الجريمة والدم، بعدما تعلم أن كل شيء يمكن تبريره إذا وُضع تحت راية «الصالح العام». أما آخرون، فيدفعون حياتهم ثمنًا لأفكار

القائد، ويسقطون بصمت، مثل أوراق جافة هوت إلى أرض الغابة، ثم جاءت الفطريات فحللتها، وحولت موتها إلى غذاء لنمو جسدٍ لم يكن يعرف أسماء الذين صنعوا بقاءه.

ولم تكن «ميسيليوم» استثناءً من هذه القاعدة القديمة.

تغيرت العصور، وتبدلت الشعارات، وتنوعت الأسماء؛ من تنظيمات سرية تختبئ في الظلام، إلى طوائف دينية تعد بالخلاص، إلى حركات ثورية تُعد بعالم جديد، وصولاً إلى شبكة «ميسيليوم» التي امتدت خيوطها تحت العالم كما تمتد شبكة الفطر تحت التربة. اختلفت الكلمات، لكن السيناريو ظل هو نفسه، يعيد الإنسان كتابته مرة بعد أخرى، وكأنه عاجز عن التعلم من نهاياته السابقة.

تولد الفكرة من جرح.

ويأتي الجرح بمن يَعدُّ بتحويل الألم إلى رسالة.

ثم تتحول الرسالة إلى عقيدة، والعقيدة إلى سلطة، والسلطة إلى معبد، ويُبنى المعبد شيئاً فشيئاً من عظام أولئك الذين آمنوا به أكثر مما ينبغي.

وهكذا يولد الطاغية أحياناً من رحم مأساة شخصية، لا لأنه بدأ طاغية، بل لأنه أقنع نفسه بأن ألمه يمنحه حق إعادة تشكيل العالم. وحين يجد حوله من يصدقونه، يصبح خلاصه الشخصي مشروعاً جماعياً، وتتحول إرادته إلى قانون، ثم يصبح موت الآخرين مجرد تكلفة ضرورية على طريق «الغاية العظمى».

يموت الأتباع كي يعيش المخطط.

وتُدفن الأسماء كي تبقى الفكرة.

ثم، بعد أن ينتهي كل شيء، يعود العالم إلى صمته القديم.

تختفي المنظمة، وتتهدم شعاراتها، ويتفرق أتباعها، وتغلق الأبواب التي ظن أصحابها يوماً أنها ستبقى مفتوحة إلى الأبد. تغطي الأرض آثارها كما تغطي الغابة جذوع الأشجار الميتة، ويبدو، لبعض الوقت، أن الحكاية انتهت.

لكنها لا تنتهي.

ففي مكان ما، وفي زمن آخر، سيظهر جرح جديد. وسيأتي شخص آخر يحمل تفسيراً جديداً لذلك الجرح. وستنشأ حوله شبكة جديدة، بأسماء جديدة، ووعود جديدة، وأبواب جديدة تُفتح أمام الأرواح التي تبحث عن بيت.

وستنتشر الأبواغ من جديد.

ليس لأن العالم لم يتعلم شيئاً، بل لأن الإنسان، كلما ضاق به العالم، يظل مستعداً لأن يصدق أول من يعده بأن يمنحه معنى.

وهكذا، تحت سطح التاريخ الذي يبدو متغيراً، تستمر الخيوط نفسها في الامتداد.

تختفي «ميسيليوم» تحت التراب...

لكن التراب نفسه يبقى خصباً لخيوط الفطر الجديد والمنظمة التالية والحكاية الأخرى بنفس الخطوات والترتيب :

✧ الضغط العالي والخروج عن الصراط ( مرض ابنة البروفيسور ).

✧ التربة الخصبة والجمهور المناسب ( غاري التائه في الحياة ).

✧ المصيبة والتحول النفسي والانتقام من القدر ( البروفيسور يريد الانتقام من القدر بسبب وفاة ابنته فيؤسس شبكة ميسيليوم ).

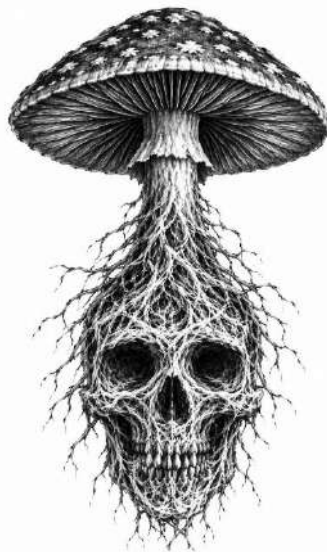
✧ تغييب العقل والإغراء بالبدايل الزائفة ( تجربة الفطر السحري ومادة سيلوسيبين المهلوسة ).

✧ التبريرات المقنعة ( الطفيلي على الطفيلي ).

✧ التحكم بالدمى ( الفطر القاتل و دماغ النملة ).

✧ التضحية بالنفس بلا ندم ( الموت لصالح المستعمرة ).

✧ نشر العقيدة والأفكار ( انتشار الأبواغ ).



**رباعية قصص خيال علمي ..**

## محتوى الكتاب :

- الرواية الأولى : كفن تورينو
- الرواية الثانية : الزمن العكسيّ
- الرواية الثالثة : المومياء
- الرواية الرابعة : ميسيليوم



